طيبُ السَّمر
في أوقات السحر

طيب السمر

في أوقات السحر

لشهاب الدين أحمد بن محمد الحيمي الكوكباني

ت «١١٥١ هـ»

تحقيق

عبد الله محمد الحبشي

الجزء الثاني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القسم الثالث من الأقسام

في ذكر فضلاء ما خلف مدينة سام مِن كلّ من فتح من العلم والأدب المقفل، وتفرق سكونهم في الجهات من لدن صنعاء إلى منتهى اليمن الأسفل

اعلم زادكِ الله علماً. ووفَّر عليك عقلاً وحِلماً، أن خلف صنعاء من البلاد ما جمع بعض أهلها بين الطارف والتِّلاد، ممَّن نقَّرت عن محاسنهم تنقيراً. فظفرتُ منها بما زادت محامدُ السلف معها تَحْقيراً، من أهل العصر الأماجد الذين ما تُليت آياتُ معاليهم إلاّ خرَّ لها القلم ـ أيّ ساجِد ـ هم القوم يا أمّ مالك. وهم المصابيح في مُخْلولك المسالك، لو راودوا الأنجم في حُلولهم بمنازلها لما أبت. ولو مازَجت نارُ ذكائهم نارَ الكوانين لما خَبَت. ولو خالطت أذهانهم القاطعة سُيُوف الأغماد لما نَبَتَ. ولو بدا روض كلماتهم المجازي للروض الحقيقي لما نَبَت، من كل عالمٍ هو عَلَمٌ، وطاعِنٍ في نحر الجَهْل برمحِهِ، وهو القلم، طويل النِّجاد عظيم الهامة. قد أحسنَ الله في مكاسب الفخار إلهامه. مُتكلّم طلق اللسان، مُحرّرات مسائله حُورٌ حسان. مُتنزّه فَتَاويه مُخضل. وخَيرُ إفادتهِ أتبعَ من الظلّ، انعقَدَ عليه الإجماع انعقاد الشهد. وانحل به النومُ من عيون العدى فاستَبدلت السُّهد. لو ساجَلَه البحر لنفدت لآليهِ دون كلماته. أو باراه الفَلَك لاستقصى دون خطابِهِ نجومُ اللَّيل في ظُلُماته، ومن كل أديب ما سَوح ظُرفهِ بجديب ناظمِ مفلقٍ مُجيد. نَظمُهُ المُتَّسِق عقدٌ على جيد، تدعي الشهبُ مُشابهة من نفثاته فيرمي بها من الأفلاك. وتَزعم اللآلي انتضاد كلماتِه، فتمسك لجنونِها في سلاسل الأسلاك، يتمَنَّى الكافورُ أن يكون له طِرساً. ويودّ المسك أن يُماع له نقساً[1]. ونَزعت الدُّر في أن يكون له

---

(١) النقس: المداد سبق شرحه في الجزء الأول: ٢٢٢.

كلاماً. وتترجّى أن تُبرى لَه أقلاماً. نَظمه الرَّأس ونظم غيره الذّنب. لم يحكه الثغر المبتسم، وإن كان لم يفته الشّنب، فَمَع ذلك يَنْبغي تَخْليد ذكر الجميع. وإملاء أخبارهم على اللَّبِيب السَّميع. وإيداع نفائسهم في هذه الأحقاق[1]. وإطلاع ثمراتهم الطيّبة خلال هذه الأوراق، فإنّي أبيتُ إلاّ الإنافة لذكرهم والإدارة عند (طيب السَّمَر) لكاس سُكرهم، ليعلم الآخر فضل الأوّل. وإن وَسْوس له شيطان الباغِض وسَوّل، ممّن أدركه الحسد، فنصب من الكيد حبلاً من مسد، وفضّل الثعلب الرَّوَّاغ على الأسد. فسهرت الليالي، والتقطت تلك اللآلىء، التقاط الطَّير للحبّ وقد تفرق، ورَمَّمته ترميم الديباج إذا تمزَّق[2]، ممَّا كاد أن ينطمس، فربما دفن ورُمس، فانتظم بعد الانتثار لؤلؤه، وسبح مَركبه في بحر العروض، وقد أحكم فقاره وجؤجؤه[3]، لمَّا تباينت الديار، وعزَّ الازديار.

وسأبدأ بذكر الأقرب فالأقرب، وأبني هذا المؤلف بما هو عن حسن بنائه قد أعرب، حتى أنتهي من اليمن الأسفل إلى أقصاه، وأحصي ما عزَّ على الغير، فلم يمكنه قَطّ إحصاه. وقد أقدّم في بعض المواضع من قَدّمَتْه المعالي، لا من قدّمته الأيام والليالي. وأثقف بذكره هذه السطور التي أشرعت كالعوالي، حَسْب تحرير الفهرست[4]. وتحبير ما عاوَدْته مرةً بعد أخرى فمارَسْت. أستعين بمن هو المُعين، وأغترف من نهر إمداده فإنه المَعين.

المولى إسحق بن أمير المؤمنين المهدي[5] من الغراس

سلالة أئمة وملوك. لهم في طريق المحامد أيّ سلوك. هُم الأرواح والناس أجساد، وليوث الوغى الثعالب وهم الأساد. لا يطربون إلا لصهيل العِتاق، ولا

(١) الأحقاق: جمع حق وعاء من خشب للطيب ونحوه.

(٢) نسخة: انخرق.

(٣) الجؤجؤ من الطائر ومن السفينة: الصدر.

(٤) صَدَّر المؤلف كتابه بفهرس يحوي تراجم الشعراء الذين ذكرهم في هذا الكتاب.

(٥) نسمة السحر ١: ٣٣١، نفحات العنبر (خ) نشر العرف ١: ٣١٤.

يَشْتاقون إلا إلى عِنَاق البِيْض الرِّقاق. إن سالموا فالأيام أعياد، وإن حاربوا فالأنهار والغصون صوارم وصِعَاد. فهذا السّيد النّجيب، فرع من أصل حسيب، قد علا انتساباً، ونظم الشعر فهو ونظامه نَسيب، قفا في السيادة أثر آبائه. وأتعب في طلاب المجد شريف حوبائه. ذو نفس مرّة، وعزم عاود الصّعاب مرةً بعد مرة، وهمّة بلغت النجوم الثواقب، وتَتَوجَّت بالفخر، وتلفّعت بالمناقب، مع عِرْفان في علم الفلك، يقول معه الغير: واحد لي وألف لك. فأسرار الفلك في إسطرلابه[1]، ودقائق النجوم واضحة بجليل حسابه. فَجُداوله التي خُطَّت في الدفاتر، كلها عيون إلى الفلك الأعلى نواظر.

فلذا نظر منه ما لم ينظره سواه، وعلم من غامضه بما اشتمل عليه وحواه، كم صادف فيه حذاقةً بِلى بَلَه. ولاقى من كوكبه الطالع المواجهة والمقابلة[2]. أقرّ له في هذا العلم كلّ سابق. وأضْبح به نرجس الشّهب في الجو عابقاً وأيّ عابق، فما أبو معشر[3] إلا مِمَّن حُلل ذِكْره عنده لا تُنْشر. رأيته في حِجْر والده، بين طريفه من المجد وتالده، بمدينة الغراس، حيث يَجتنى من الإقبال أطائب الغراس، وهو شَمْس تصفرُّ لها الشمس من الحَسَد، طلعت فحلَّت من منزلة أبيه برج الأسد، قبل أن تهز قناته بيد الخَطْب، ويفوح لما ألقِي على جَمَرات المصائب عَنْبره الرّطب، ويساور من أيامه الأراقم[4]، ويكابد من نحوسه الفادح المتفاقم.

ثم رأيته ثانياً، وقد أصبح عليه الزمان حانياً لَمَّا وفد إلى كوكبان فابتسم له ثغره، وسعى بغير قدم في خدمته نهره، وهو رهين الغيظ والقهر، وطعين الأسف من التأوّه من الدّهر، وقد قلّل الإعدام[5] منه وفرا، وعادت كَفّه من الصفراء صفرا، بعد أن كان في خِلافة أبيه المهدي يُهدي إليه الزّمان من التّحف ما لا

---

(١) الإسطرلاب: آلة يقيس بها الفلكيون ارتفاع الكواكب (يونانية).

(٢) الطالع والمواجهة والمقابله من عبارات أهل النجوم.

(٣) سبق ذكره في ج ١ : ١١٢.

(٤) جمع أرقم وهو أخبث الحيات وأطلبها للناس.

(٥) الإعدام: الفقر.

يسمح به المُهْدي. مُتنقلاً على ظهر سرر وسراري[1]. وإذا هو خِضَم تجري في ساحته الجَوَاري، نشأت في بحره، وانتقت الجواهر فنظمها في نحورها لا في نحره، لا يدري ما حقيقة البُوس، ولا يبرح رافلاً في أردية الترفيه وحلل المَلْبُوس. حتى أغار عليه الدّهر بجيشِه، وكدّر ما صفا فَرَقَّ وراق من عيشه. وذلك في دولة أخيه وخلافته.

وقد أدار على آل الإمام المنصور[2] ما لا يُفْرح من سلافته، لمّا فتّ من إخوته في أعضاده. وبدّد عقدهم المنسوق بعد انتضاده. وله نظم هو الدُّر في الأطواق، وأبيات يقول سامعها: هذه نَغَمات إسحق[3]، فمن شعره وهو أسير، يكابد من المشقة أمراً غير يسير، وقد استبدل الأدهم[4] عن الكميت، وصار في بطن السجن حَيّاً كميت، تُثقله الأغلال[5] لا الغلائل، وتلوح له من النحوس الدلائل.

قوله:

وحمامة صدحت على فَنَنِ اللوى	فغدا يَسِيْل دَمي من الأَحْداق
تَشْدوا وقد خَلَصت من القفص الذي	قد قيّدت فيه عن الإطلاق
نَاديتها لمّا سمعت هَدِيْلها	يا ذاتَ طَوْق نحن في الأطواق
بِيّ مثل ما بك يا حَمَامة فاسألي	من فَكَّ أسرك أن يحلّ وثاقي

ومِمَّا نسجته على منوال نظمه هذا من السجع **قولي**: رب حمامة صادحة أمست بسجعها على الفنن لنار الأحزان قادحة، سال بها دم الدمع، وغذي بإلحانها السمع، عَجِبت لها كيف ناحت، وبأسرار فؤادها باحت، وقد نَجَتْ من الغصص، وخلصت من سجن القفص، وقارَنَت الأليف على الغُصُون، وطَوَّقت من دمع

---

(١) جمع سرِيّه: جاريه (معروف).

(٢) يعني به الإمام المنصور بالله الحسين بن القاسم بن الحسين بن الإمام المهدي تولى الحكم سنة ١١٣٩هـ (نشر العرف ١ : ٥٩٥).

(٣) يعني إسحاق الموصلي من المعاصرين للرشيد.

(٤) سبق في ١ : ٧٨ والأدهم هنا تورية بالقيد والخيل (معروف).

(٥) جمع غلالة، ثوب رقيق يلبس تحت الثياب.

المحبين باللؤلؤ المصون، قلت لها: خففي الهديل، فما بِمُهج أَذَبْتَها من بديل، بي أضعاف ما بك من الجَوَى، وفي فؤادي ما لم تَصِلي إليه من الهوى، فكم بين جوانحي، من وجدِ أُقْتُفِي ومن جوى نُحي. فاستملي ما أبوح به من الوجد، واستمعي ما أمليه عليك من هواي بأهل نجد، فسأتلو عليك منه سْطراً، لا زلت تَسْكنين من الرياض سطراً[1]، وتلبسين حللاً من خضر الأوراق، وتنظمين من دمع الندى على الجيْد الأطواق.

قولي: فسأتلو عليك الفقرة إلى آخرها والفقرة الأخرى، فيهما الجناس كما لا يخفي، والمراد بسطرا في السجعة الأخرى، متنزه من متنزهات دمشق المشهورة، والسَّهم أيضاً متنزه من متنزهاتها، ولذا قال شيخ شيوخ حماة رحمه الله تعالى[2]:

قَــالُــوا أمَــا فِــي جِــلّــقٍ نُــزْهَــةٌ ... تُــنِــسِــيــكِ مَــا أنْــتَ بــهِ مُــغْــرَى
يَــا عــاذِلــي دَونــكَ مِــن لــحــظِــهِ ... ســهــمــاً وَمــن عــارضــه سَــطــرًا

ومنه أخذ الشيخ جلال الدين بن خطيب دارياً فأحسن المأخذ قوله[3]:

سَـألْـتُـكُـمَـا إن جـئـتُـمـا الـشـام بُـكـرةً ... وعَـايـنـتُـمَـا الـشّـقَـراءَ وَالـغـوطـةَ الـخَـضـرا
قِـفـا واقْـرءا مِـنـي كِـتـابـاً كَـتَـبـتُـهُ ... بِـدَمْـعـي لـكـم يُـقـرأ وَلا تَـنْـسَـيَـا سَـطـرَا

وقلتُ أنا مفضلاً لمتنزه حَدَّة المحروسة على متنزهات دمشق الشام المحميّة:

لِــحَــدةٍ أســهُــمْ فِــي الــحــسُــن أبْــدَتْ ... سُــطُــوراً بَــالــنَــبَــاتِ تَــجِــلّ حَــصَــرَا
فَــقَــدَ حَــقُــرَت دمِــشــقُ عِــنــدهــا إذْ ... حــوَت عَــن قــلــبِــهَــا ســهــمــاً وَسَــطــرَا

ولده المولى جمال الدين محمد بن إسحاق[4]

آية مجد متلوّة، وشمس فضل مجلوّة، إمام علوم واجتهاد، وحَلِيْف أرق في الطلب وسهاد، ما بلغ السماك له سمكاً، ولا أدرك صائغ الحلى لمثل كلماته سبكاً

---

(١) سيشرحه فيما بعد.
(٢) خزانة الأدب ٣: ٢٣٣ ط كوكب دياب، وديوان شيخ الشيوخ: ٢٤١.
(٣) خزانة الأدب ٣: ٢٣٤.
(٤) الأدب اليمني: ٣٦٣.

يصول بعلمه أي صائل، وتتحاسد على ذاته البكر والأصائل، ما تحلَّى جيد الأيام بأنظم من عِقْده، ولا تلهَّبت نار ذكاء بأضرم من وَقْده، ولا اشتريت نفائس المسائل بأوفر في الفحص من نَقْدِه. ولي بلاد وِصَاب، فهمع عيشه فيه وصاب، ونهى وأمر وطمس بعدله [الحقيقي][1] ذكر عمر، وكان مع ذلك لا يعرض عن درسه، ولا يترك المعاهده بنهر المذاكرة لغرسه، فانتشرت فوائده، وطابت للطلبة موائده، وبرزت خمرة أدبه من حجاب الدَّن، فاعتاضت عنه الولوج تحت أستار البدن، قام به العلم على سوقه، فقد بار وكسد إلاً في سوقه، فكم شرى نفائس الكتب بدر وعين، وكم وعى سمعه لداعٍ إليها، وكم لأسماعهن إذ دعاهن وعين، رغبة إلى الدخول تحت ملكه، وسعياً إلى ما شحن مثلهن من فُلْكه[2]، فلديه من الأسفار خَزَانة، ولديه من فوائدهن ما جَمَّله وزانه، ومن الكتب ما لا يضبط بعدد ولا كيل ولا وِزانه، كم رِقٍّ منها دخل تحت رِقِّه، وكم بها من فصوص نفيسة أودعها من قمطره في حقّه، وله أدب رَقّ وراق، أنضر من دمع الطل على أحداق النرجس، وقد مسح بمنديل الأوراق، ورد إلى كوكبان مع أبيه، واجتمعت به فما اجتمعت إلا بِنَبيْه، في رياضٍ ما بها صافر، إلا طير على معاطف غصونها صافر، وعذاره مخضّر، وروض شبيته أنضر، وثَغْر نشاطه مُفْتر، وسيف ذكائه كشانيه أبتر، ومعطفه مع النسيم يميل، والزمن بالفتوة يُسفر له عن وجه جميل، مع وقار رجَّح وزناً، وسِمْتٍ يزداد حاسِدُه بِهِ حزناً، ونسك وبرارة، يُزِيح عن بَدْره[3] سراره.

فإذا هو على ممر الدهور، كاملٌ في منازله لا ينقص بنُقْصان الشهور. قد تَلَفَّع بالتقى، وشفى العليل بالرُّقى، ثم رأيته بمسعدة ذمار، وقد حَسَرت غادة فَضْله عن مُحَيَّاها الخِمَار. ثم اجتمعت به بِصَنْعاء أتمّ اجتماع، واستمعت لطيره المغرد ألذّ الاستماع، وجالسته وسامرته، وساهمته المذاكرة وقامرته[4]، لمّا قامت له من

(١) ساقط من (ب).

(٢) الفلك: بالضم السّفينة.

(٣) السرار: آخر ليلة من الشهر سبق شرحه في الجزء الأول: ١١١.

(٤) لعب معه القمار (معروف).

الفضل وصائفه، واستطاب روض مقامه شاتِيه وصائفه. وقد أُنِستْ به مخدّرات علوم حَمَتْ الأسود خدورها. وجَلَت له على منصَّة الطروس الممهِدةُ بُدورها، لمّا تعزّزت على غيره وتَمَنَّعت، وبقناعٍ من أسود المداد المطرّز بذهب الإفادة تَقَنّعت. وبه بعد أن تحققت فضله عن غيره تقنّعت. أحطت بما لديه خُبراً، ونظرتُ أقلامه تقذفِ تبْراً إذ تُبرى. لا والله ما أحطت مما لديه إلا باليَسير. ولا انقلب شخصي على عدم الإحاطة بما عنده إلا بِبَصَر خاسىء حسير. وقفت من فوائده على بَحْر ماله شاطي، وقطعتُ منه موجاً عِيي دونه عزمي وَكَلَّ نشاطي. لولا عناية الله تعالى استدركتني من الغَرَقِ، على أنّي قد كدت أهلك لما رأيت تصاكّك أمواجه من الهولِ والفرق. فأخذت من دُرِّه ما أثقل كاهلي، وَوَردت من عَذْبه ما رَوِيَ به ناهلي. فعجبت من بَحْره العذب لما وُجد به الدرّ. مع أنه لا يوجد إلا في البحر المالح المر، وعِلَمْت أنه لو أدركه السعد[1] لزف إليه عروس[2] الأفراح. ولو دخل مَجْلسه لفَضّل نفثاته على ريقها الذي هو راح. ولمّا فارقتُه فَارَقْت المسرة، ولم أدر ما أضمره الدّهر له وأسرّه، من معاملةٍ تجلّ عنها قدره، ومصادرة يَنْكسف لها من الفضل بَدْره، فحبس من صنعاء بقصرها، وقوبلت فضائله التي لا تُحْصر بحصرها، سَعَى به من الناس فُسّاق، حتى سجن والتوى قيده في السّاق، وهو الآن سِرٌ في صدر السِّجن مكتوم، وشراب طاهرٌ من دنّ الحبس مَخْتوم. فَكَّ الله تعالى أسره، وجَبَر بإطلاقه من قلبِ الفضل كسره.

وله في الأدب رتبة الأشراف، وتَطْريز رداءٍ أرانا بديعه تشابه الأطراف[3]، فله

---

(١) يعني سعد الدين التفتازاني (سبق في ١ : ٢١١).

(٢) كتاب في شرح تلخيص المفتاح في المعاني والبيان (انظر كتابنا جامع الحواشي والشروح).

(٣) تشابه الأطراف عند أهل البديع هو أن يعيد النّاظم لفظ القافية في أول البيت الذي يليها كقول أبي نواس:

خـزيـمـة خـيـر بـنـي خـازم وخـازم خـيـر بـن دارم

ودارم خـيـر تـمـيـم ومـا مـثـل تـمـيـم فـي بـنـي آدم

انظر خزانة الأدب ٢: ٢١٠ تحقيق كوكب دياب.

في طرق البلاغة إعناق. وفي بَحْر العروض مغاصٌ يأتي منه بما يحلّى تليع أعناق، فهو في الأدب رفيع الجناب، وَفَرس فكرته الجوّالة طوع الجناب:

قال ممَّا يستعبد الأحرار محررهُ، ويَطيبُ للأفواه فيحلو مكررهُ:

أيا بارق الجرعا هل الجزع مَمْطورُ ... وهل بالغواني ذلك الرَّبْع معمورُ

وهل كسيت فيه الغصون قطيفةً ... مُطرَّزة خضراء أزرارها نورُ

وهل نشرت فيه السماء لآلئًا ... إذا ما استحالت فيه فهي أزاهيرُ

أزاهير تغدوا بعد حين كأنَّها ... دراهم في أغصانه ودنانيرُ

فللَّه ذاك الرّوض كم عبرت به ... نسيم الصَّبا في طيّها المسك منشورُ

يكبر من يأتيه حتى طيورهُ ... لها فيه تَهْليل كثير وتكبيرُ

إذا رَقَصت أغصانه فحمامُه ... مزامير في أرجائه وطنابيرُ

سقاه الحيا طول المدى فهو جَنَّة ... لأن الحسان اللَّاعبات به حورُ

كواعب لا يَفْترن عن حَرْب عاشقٍ ... بِتَذْبير رأي فيه للصّبِّ تدميرُ

يجهّزن جيشاً لا انكسار لحربه ... وما هو إلا لَحْظ طرفٍ وتَفْتيرُ

وغيداء أمَّا اللَّحظ منها ففاتك ... وأما أريج الثَّغر منها فكافورُ

إذا ابتسمت أو كَلَّمت مغرماً يرى ... من الدرّ مَنْظوم بِفِيْها ومنثورُ

يحافظ مضناها على حبّه لها ... ويا لَيْت مضناها على ذاك مشكورُ

لها في الجَفَا عَزْم على رَغْم أنفه ... وفي وَصْلها تَقْديم رجل وتأخيرُ

شَكَوت لها هَجْري وقلت لها: متى ... بطيب التلاقي منك يَسْعد مهجورُ

ويا هذه عطفاً على ذي صَبَابة ... له في الهوى شأن كحسنك مشهورُ

أَسَرْتِ منامي بعد إطلاق أدمعي ... وكَمْ في الهوى يشكي طليق ومأسور

وأرسلت قلبَ المستهام مع الهبا ... إليك فعاد القَهْقرى وهو مَقْهورُ

هَبي أنني ضيف ألمَّ بداركم ... وللضَّيف إكرام عليك وتوقيرُ

على كل حال أنت عندي حبيبةٌ ... وعذرك مقبول وذنبك مغفورُ

قلت: قوله: يجهزن جيشاً لا انكسار لحربه، أما بالنظر إلى ما قَصَده دام مجده من ثبوت الحَزب المجهّز الغالب من اللحظ وتفتيره في معركة الحرب للعاشق، فنَعَم لا انكسار له أبداً. وأمّا بالنظر إلى أنه يعبّر عن اللحظ بالتَّكْسير المعروف المعدود من محاسن اللحظ الذي تنكسر عنده قلوب المحبين وجداً وهياماً. فله انكسار أي انكسار.

وقال دام فضله وعظم في رتب الأدب نُبْله:

يا بروحي الذي تجلَّى لطرفي ... وَجْه بدر منه ومقلة خشفِ
جاءني في مطارف الحسن يثني ... قامة منه ذات لين ولطفِ
رامَ كتم اللّقا فَنَم به نَشْر ... عبير وصوت قرط وشَنْفِ
فاجتمعنا وللسُّرور بقَلْبي ... زَجَلٌ ناب عن تلَقّ وزفِ
لَفَّنا منزل نشرت حديث العشـ ... ـق فيه فطاب نَشْري ولفّي[1]
بِتّ في وَرْد خده وَلَمَا مَبْسـ ... ـمه العذب بين قَطْف ورشفِ
وضَمَمْت القوام نَحْوي بلطف ... ولثَمْت الجَبين منه بعُنْفِ
وأدرنا كؤوس عَتْب وصَرف ... ليس للهمّ عندما غير صرفِ
وعَصَيْنا قول العذول وقُلْنا ... كف عَنَّا فما مضى منك يَكْفي
مُتْ من الغيظ يا عذول فمن طا ... ل تجافيه قد غدا طوع كفي

وقال فسح الله تعالى في أجله، وكفاه أسباب وجله:

أفاطم هل يمضي الزمان الذي أغبرّا ... سريعاً كما مَرّ الزمان الذي اخضرّا
ويقضي لنا عَوْد الليالي التي انقضت ... وغُرّتها من نور طَلْعتك الغرّا
ليال تقَضَّت فانقضى كل طيّبٍ ... فإن عُدْن عادت طَيِّبات لنا أخرى
سقى عهد نَجْد عاد أو لم يعد حياً ... تمنَّى الربى أن لا يمر كما مرّا
حياً قد رأى الراؤون آثار بِرّه ... على كل أرض قد تعهدها عبرى

(١) النشر واللف عند أهل البديع من المحسنات المعنوية ويقال له أيضاً الطي والنشر سبق ذكره في الجزء الأول: ٩٤.

فأرض عليها مَدَّ جوداً بساطه وأخرى عليها العين من وَكْفِهِ أجرى
وأرض كسا من دوحه ما تمزّقت بأيدي الشتا أثوابه فاشتكى الضرَّا
وأرض حلا من غصنها موضع الحلا فزيّن منه السّاق والكف والنحّرا
وكم راية حمراء يَنْشرها على يدي شائك شاكت كتيبته الخَضْرا
وكم دِرْهم ألقت ودينار صرة يداه فخذ ما ابيضّ واحمرّ واصفرًا
وكم صرة في كف غصن كأنه يحاول يلقيها فتشغله أخرى
وكم طائر أبدى نشاطاً وفرحةً ومَدَّ له صوتاً وشاد له وكرا
وَوُرْق يُريك الطَّير نشر لوائها ويَطْوي إذا قامت على صَعْدة جمرا
مناقيرها أضحت مزاميرها أما ترى نَفْخها فيها يجيد لها الزَّمرا
فللّه آثار الحيا ما أعمَّها وأنْضَرَهَا مرأى وأطيَبَها نَشْرا
لقد بات يثني الوحش والطير والثرا عليه وما أحلى النَّدى إن حبا الشكرا
ولله قلبي ما أشد اصطباره متى قيل إن الخطب قد أوهن الصَّبرا
إذا قَسَتْ الأيام يَزْداد قسوة فتَنْقلب الخنساء حين ترى صَخرا
رمته خطوب الدّهر مخطئة ولم تصب قط إلا الرأس في الناس والصَّدرا
وَجرَّ عَنَه اللأوي فاستفرغت له فضائله صبراً به استعذب الصَّبرا

وقال مجيباً على والده رحمه الله تعالى:

لا بمثواك بقلبي وهوى لك فيه كضلوعي مشتبكْ
وعهود حفظها في مَذْهبي فَرْض عين وكذا في مذهبكْ
وجمال يا بديع الحسن قد سَطَعْت أنواره من حُجبكْ
وثنايا نَظْمها علّمني غزلاً في قالب اللّطف سُبكْ
وعيون سَحَرت قَلْبي وما عاد إلاّ بُرُقَا من شَنَبكْ[1]
وزمان كان من أحسن ما مرَّ بي في ذلك السفح وبكْ

---

(١) الشنب برد أو عذوبة الأسنان أو شدة بياضها سبق شرحه في الجزء الأول: ٤٨.

سبحان رب العزّة، لو ذقت حلو الشراب ومُرّه، لَعَرَفت الفرق الجلي، ولمَيَّزت بين الحصباء والحُلي، أما أنا فما ولج غير هذا النظم لي سَمْعاً، ولا شجاني مثل هذا البرق المبتسم لَمْعاً، لا خلى عن ناظمه الوجود، ولا برحت الأقلام وقد تُليت آيات إجادته في سجود.

وقال:

أأسماء أنت الشمس لا أنت يا أسما ... من الشمس أسناً في الظهيرة بل أسما
وغُصن النّقا هذا القوام الذي أرى ... نعومته لا زال يذوي كما يظما
وذا اللُّؤلؤ المنثور لا إنَّ ما ترى ... هو الثَّغر أضحى بالظبا والقنا يحمى
وريم الفلا هذا نعم هو رِيْمها ... ولكنّه يرمي القلوب ولا يُرْمى
وهل نَغَمات العود طَنَّتْ بمَسْمعي ... أم النّطق من حلو اللَّما الشادن الألمى
ألا إن ما استفهمت عنه جميعه ... هو الحسن لكن قد تعدَّدت الأسما
كما أن ما بي من سقام ولوعة ... وشَوْق وفكر كلّه العشق يا أسما
وأوفر أقسام الهوى قِسْمِي الذي ... تزين وإنّي قد رضيتُ به قِسما
وما لعذول في هواك كرامة ... لديّ ولا حبّاً لذاك ولا نُعْمى
أحن إلى مَغْناك ما لاح بارق ... فحرَّق أحشائي بمسماره المحمى
وأظهر شوقي كلما ناح ساجع ... وَرَدَّدَ سجعاً لا أطيق له فَهْما
ويا ليت شعري ما له حبسوه عن ... أليفِ ووكر فاشتكى مثلي الظُّلما

وقال:

مرّت وقدَ جرّت ذيول المرح ... عند بدا الصبح لنا واتَّضحْ
مِسْكيّة الأنفاس قد ناولت ... قلبي من الأفراح ملء القدَحْ
وعبّرتَ عنكم فلم أدر هل ... أجرى دموعي حَزنٌ أم فرحْ
أدركت بَرْد الطيب لكنني ... غادرته بعد سموماً لفحْ
حيِّيت يا نسمة أوطاننا ... إن لفح المُهْدي لنا أو نَفَحْ
تعاهديني كل صُبح فإن ... خِفْتِ ففي الليل إذا ما جَنَحْ

وخبّريني عن أهيل الحمى ... شوقي إلى أهل الحمى قد طفح
كم قَدَح البدر وشمس الضحى ... للقلب فِكْراً فيهم فانْقَدَحْ
وكم أهاجا شوق قلبي إلى ... من حُسْنه حسنهما قد فَضح
ما جنح القلب إلى غيره ... ولا شكا لحظاً له قد جَرَحْ
ألحاظُه كم سفكت من دم ... وكم دَمٍ شوقاً إليها سَفَحْ
إن لمح الطرف بروق الحمى ... قال فؤادي آه ممّا لَمَحْ
وإن شدت أطياره نحت لا ... أخاف من لاَمَ ولا مَنْ قَدَحْ
غدا وراح السعد في سوحه ... واغتبق الأنس به واصطبح
يا لَيْت شعري هل لُيَيْنِلاته ... يراض منها لي ما قد جمح

وقال:

وحمامة بالقرب مني نوحها ... مثلي وما أشجانها أشجاني
ويطوقها قد طوقتني أدمعي ... طوقاً من الياقوت والمرجان
أملت أحاديث النسيم وما الذي ... أهديه من سَلْع إلى الأغصانِ
فرقمت ما أَمْلَتْهُ من أوراقها ... في الخد من دمعي بأحمرَ قانِي
يا طيب ما يروى عن الورقاء عن ... غصن الرُّبى عن نسمة الأوطانِ

وقال وهو ممّا نظمه في السجن فكَّ الله أسره:

سرى طيفها ليلاً إلى السجن مشفقاً ... وقد كان قدماً لا يقرّ بإشفاقِ
فما راعه إلاّ القيود التي رأى ... علي وقد قامت لحربي على ساقِ
فقلت له هوّن عليك فإنها ... خلاخل مجدلاسلاسل فساقِ
وقِفْ لي قليلاً دُمْت يا طيف طائفاً ... بأحسن من فكّ القيود وإطلاقي

وقال ممّا نظمه وهو في السجن هو وإخوته أيضاً فَرَّجَ الله عنهم:

لا تجزعوا إن طال حَبْسكم فما ... في الحبس عار يا بني إسحق
والحَبْس مهما لم يكن لدنيَّةٍ ... في المرء محمود على الإطلاقِ

جودي بَوَصْلِكِ أو بِوَعْدِك ... جُوْدي كجودك لي بِصَدِّك
كَثُرت هَجْرك والصّدو ... د قفي بحقك عند حدّك
رِفْقاً بِنَفْسك قد حَمَلْت ... من التّجني فوق جهدك
أخشى عليك لك السَّلامة ... من عواقب نَقْض عَهْدك
رُقي لقلب قد تعلّق مِنْك ... في أطراف بردك
يشكو عليك يقول ما شئت ... افعلي أنا عَبْد عبدك
رديه لي أسأله عَنْك ... وعن فؤادك عند ردك
هل فيه لي شيء فأطمع ... إن تبَسَّم بَرْق وعدك
يا ظَبْية الوادي الذي ... فيه تَبسّم زَهْر خدك
ومتى أعانق ثَمَّ غُصْنا ... والمراد عناق قدك
وقد اشتهت رمّانه ... نَفْسي عنيت قُطُوف نَهْدك
وقد اشتهى شِعْري مد ... يحك يا أخي وحياة مَجْدك
شِعْري الذي يأبى سِوَاك ... من الملوك وحقِّ جدّك
أنت الحقيق بمَدْحه ... فاجعله واسطةً لعِقْدِك
واعذره إن قَصَرَتْ خطاهُ ... عن الوفاء بحق حمدِك
لا زلت تبلغ في المعالي ... ما قصدت وفوق قصدِك

قلت: أنشدك الله أيها السامع المتأمل لمعاني هذا النظم الذي هو لمحاسن الأدب جامع. هل نُسِجَ الديباج الخسرواني مثل هذا النّسج، أم تقصر لُحمتاه وسداه عن حياكة هذا النهج؟ وهل الدرّ الذي رصف، أم الشراب الذي قصف[1]؟ يسلكان في هذه الطريق المستبينة المبينة، من هذا الانسجام الذي عُراه قوية متينة، إن حكمت بذلك فقد خلوت عن ذوق سليم، وإن اشتبه عليك الأمر أشكُّ أنك بثعبان الجهل سليم[2].

(١) قصف الرجل. يقصف قصوفاً: أكل وشرب.

(٢) السليم: اللديغ.

حين مالي أرب إلاّ اللّقا والتّجني لم يكن من أربك

وكلانا آمن من دهره إن سعى في مطلبي أو مطلبك

ما سلا عنك فؤادي إنما زاده وجداً تمادِي غضبك

لم يزل يجري من العين دماً عند ذِكْراك وذِكْرى مَلْعبك

كذب الواشون قلبي مغرم مستهام موثق في طنبك

وإذا أومض بَرْق بالحِمى ضَمِن الدمع بسقيا كثبك

يا منى قلبي تَرَفَّق واتئد في عذابي واسترح من تعبك

واطرد الواشين وابعد عنهم إنما نِيْرانهم من حطبك

لا تَنَلْهم نَفْس مضناك وإن أَصْبحت يا مالكي من نَشَبكْ[1]

ودع النيل لمَلْك خَجلت من أياديه غوادِي سُحبك

مَلك ألبس مُذ نِيط تما ئمه بُرَداً من الفضل خبِك

ملك إن زرته نلت المُنى وإذا غبت سعى في طَلَبِك

ذو علوم أشرقت أنوارها وندى خذ وصفه من ذهبك

ونظامٍ إن ترده فاستمع وأقلني ما نشا من طربك

يا ضياء الدين يا من إن دجى مشكل عذنا بزاكي لقبك

جاءني منك النِّظام العذب بل أشرقت لي شهب من شهبك

أبَعَثْت السّحر نحوي فيه أم أودعت سراً معاني كتبك

أنا منه مذ أتى في سَكْرة فاعذروني في تعاطي نُخَبك

قد تجاريت وجاريتك في مسلك يختص يا مولاي بك

وعلى الجملة لا طاقة لي أدبي مكتسب من أدبك

دمت في عزّ ومجد شامخ يَتَمَنّى البدر عليا رتبك

وقال محاوراً لأخيه الحسن الآتي ذكره قريباً إن شاء الله تعالى:

---

(١) النشنب: المال من الناطق الصامت.

والبَذر لا يزداد غير نفاسةٍ ... بالثقب مثل التِّبر بالإحراقِ

وقال مضمناً في مليح قلع الطبيب ثنيّته وهو بديع:

لا كان هذا الطبيب من رجلٍ ... سعى لقلع الثنيّة الحسنة
صيَّرها في يديه مفردة ... كمستهام مفارق وطنه
تنشد إن لاح برق مبسمها ... وهي لدى كَلْبَتَيْه مرتهنه
«يا بارقاً أذكر الحشا حزنه ... منزلنا بالعقيق من سكنه»

وقال مضمناً:

مهلاً ورِفقاً يا مطوّق إن لي ... قلباً يطير متى صَدَحْت ويخفق
أتظن قلبي مثل قلبك سالياً ... ما كلّ قلبٍ يا مطوّق يَغشق
هيهات منك العشق أنت بنعمةٍ ... (أنا عاطلٌ منها وأنت مطوق)

وكنت قلت أنا قبل أن أقف على هذا:

قل للمطوّق في غلائل روضةٍ ... إنعمْ عداك السهم وهو مفوّق
قلّد تليعك بالزّهور فإنّني ... (أنا عاطل منها وأنت مطوّق)

وقال متّع الله بآدابه في اللف والنشر المرتّب[1]:

سقى الله هذا الروض إذ فيه كُلَّما ... يروق ويَحلو للنّفوس ويَعذُبُ
نَخيلٌ وأنهار وزَهرِ وبُلْبُل ... كلوا واشربوا واستنشقوا الزهر واطربوا

قلت: لو قال: واستنشقوا الطيب، لكان أعطر رائحة من قوله: الزَّهر كما لا يخفى، فإنه تكرر لفظ الزهر في صدر البيت وعجزه. **وقال** زين الله الدفاتر بمحاسنه:

رماني فاتني من مُقْلتيه ... بِسَهْم عنه يَقْصر كل عَضْبِ
فلام الكاشحون وخطّأوه ... وقالوا: ما أصاب فقلت: قلبي

---

(١) من كلام أهل البديع سبق انظره في ١: ٩٤.

وقال:

جادت بِوَصْلٍ بعدما أذهبت ... قلبيَ بالصدِّ وبالمَطْل
فقلت: هذا بدل البعض من ... قلبي فقالت: بدل الكلّ

وقال:

لقد قالوا وقد وافى حَبيبي ... وجاد بَزورةٍ أحلى من المَنْ
أأحسن بالوصال إليك مرقد ... غدا مثل الهلال فقلت: أحسن

وقال:

لقد قال الأنام وقد رأوني ... أتيت إلى حِمى المولى المكرّم
أأكرمك الذي في الجود أضحى ... نداه كالغمام فقلت: أكرم

وقال:

خذ فؤادي وردّ نوم عيوني ... فلعلِّي أراك عند الرقادِ
فكثير إذا سمحت بطيفٍ ... وقليل إذا أخذت فؤادي

وقال في إيهام[1] التأكيد المثلث:

تفاألت لما أطال الصدود ... فبَشّرني الفألُ بالإتّصال
وقالوا وقد زارني هل وفا ... فقلت: وفالي وفألى وفالي

وقال في إيهام التأكيد أيضاً:

يا عاذل كيف سلوّي عن ... غيداء هواها ما عذرا
ما إن نَطَقَتْ وَرَنْت إلا ... وترى سهماً وترى وتراً

وقال فيه أيضاً:

عَرِّض بذكرى إن بلغت الحمى ... عند أحبائي ولو أعرضوا
وصف لهم سقمي فما غيرهم ... لي غضبوه أم رضوا أمرضوا

---

(١) الإيهام: سبق شرحه في ١ : ٢٢٨.

وقال:

قلبي الصّب في الهوى ... علمٌ غير متّهَمْ
إن ترد وصف شوقه ... فهو نارٌ على علَمْ

وقال:

قد قلت إذ جاء الحبيب وفي ... خدّيه من برد الشتاء الأثر
يا بَرْد هلاّ كان ذلك في ... قَلْبي فِفِيه النار تستعرُ

وقال:

لا تَحسبوني في الهوى ناسياً ... من عَنْه لا أسلوا ولا أصبر
ما مال غُصْن البان إلاّ وفي ... قَلْبي المعنَّى قدّه يَخْطر

وقال:

لحى الله أشراراً تعالوا وأخّروا ... عن الصَّدر أخياراً تمالوا على الفضل
إذا ما أخو فَضْل يروم فَضيله ... ومَكْرمةً آذاه منهم أبو جهل

وما أحسن ما جاء له في بعض القصائد التي أجاب بها على شخص يسمى علياً وهو قوله في المدح:

له روائع آدابٍ بدائعها ... تراع في حسنها الألباب والفِكُر
جَلّت عن العيب إلا أنها افتقرت ... عن حسنها عندها الأبيات والفِقَر
فاق ابن حجّة في الآداب واعترفت ... لنَظْمه كلم ابن الفارض الدُّرر
أنت المقدّم فيها يا عليّ على ... رَغْم العِدا لا أبو بكرٍ ولا عمرُ

هو لا يخفي أن كنية ابن حجة[١] أبو بكر، واسم ابن الفارض عمر، فبمعرفة هذا يظهر حسن النظم مع حسن البديع فيه؛ لأن ابن حجّة ناظم البديعية وله شرحها أيضاً، وغيرها من البدائع. وهو المسمى تقديم أبي بكر.

ومثل هذا النظم ما جاء لي في رجل اسمه عليّ أيضاً. وهو لا يخفى أن

---

(١) سبقت ترجمته في ج ١: ٢٢٣.

السَّراج الوراق اسمه عمر وهو قولي مُضمناً ذيل بيتٍ من البسامة المشهورة لابن الوزير:

(فما علي بنصٍ في إمامته ... بين الأفاضل إلاّ واحد البشر)
لو أدرك الأدبا الماضين أعجزهم ... عن وَصْف عِقْد نظام منه كالدُّرر
فما ابن حجّة والورّاق إن نظما ... فقل إذا أنكراه السَّبق وانتصر
هذا الذي قد بدا من غير ما كذب ... حيف جرى من أبي بكر ومن عمر

ولما سمع بما لنا من التآليف القاصرة التي هي لمعائب مؤلّفها محصية حاصرة، وتشوق إلى الإشراف على أحدها. ورَغِب في النظر إلى مساوئها التي لا يوقف على منتهى عددها، كتب إليَّ وَسَّعَ الله في أجله. وحث إليه الأزب[1] حتى يوافيه على عجلة، كتاباً وهو إذ ذاك مسجون بِقَصْر صنعاء اليمن المحروس. وأنا بمدينة شبام كوكبان، وذلك بواسطة ولده ضِياء الدين إسماعيل بن محمّد الآتي ذكره إن شاء الله تعالى. والكَتْب وقع في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف سنة، وأودع باطن الكتاب من نظمه في خطابنا قوله دام سعيداً. ونال في المعالي أمداً بعيداً:

أيها الفاضل الذي مَدَحَتْه ... فكفتنا عن المديح صفاته
لَيْت شِعْري متى يراك ويُروى ... منك من تعَطش الحيا زفراته
وترى عينه تصانيفك اللاَّ ... تِي إلى غيرها يقل التفاته
فلأوراقه إليها اشتياق ... منه تَبْكي أقلامه ودواته

فكتبت إليه مجيباً عليه، وأرسلت له من مؤلفاتنا بكتاب (الوشي المرقوم على الدرّ المنظوم). وذلك من النثر والنظم قولي:

وصلتني قطعة من نور البدر بواسطة الضيا[2]، فكان موقعها علي - مع إجداب الدّيار من الأفاضل - موقع الحيا، وهو مولانا الذي جمع شروطه، وصاغ

---

(١) الأزب: البعير الكثير الشعر.
(٢) إشارة إلى لقب المار ذكره ضياء الدين إسماعيل بن محمد.

مع ألفاظه لحسناء السيادة شنوفه وقروطه، وألبسها وهي على منصة العروس أرديته المطرّزة ومروطه، وأمهرها من علومه وآدابه ما لا تمهره العروس، وأنزلها من منارة فضلهِ ما أينعت منه بالأطايب الغُروس. فلا عار عليه وقد رضيت بغيره مع أنّها تعلم كفاتها، لأنه استبدل عنها من المعارف رب غيداء، واستقر معها على سرير الدِّعة بَيْد أنه قطع من الفضل بيداء، فسار منها في أودية يضلّ بها القَطَا، فلا يهتدي، وولجَ من ظلال دوحها [مسالك][1] يروح في مسائه بها ويغتدي، حتى ظفر بِضَخْمة الردف دقيقة الخصر، كاملة الأوصاف، فهي على الحقيقة خريدة القصر، ما فاته بحَمْد الله من أنواع المحامد نوع أبداً، وإنما حَوَى منها ما يقل نظيراً ويكثر عدداً، فالعوارف تستفاد والمعارف تتلقى والركاب تحثث، والفضائل مقصورةٌ منه وعنه وإليه وعليه، فانتظم لفظها وطاب نشرها، فهي فيه محصورةٌ.

أدام الله في جنبات النعيم رعيه، وحرس عن كيد الحساد في طلب المحامد سَعْيه، وخدمه عني سلام كأنه المسك في اشتمامه، والورد النَّضير بدت أزراره في أكمامِه، هذا وإنه عوَّل وأمر، وعصيانه عندي كالعلقم بل أمرّ، بإنفاذ بعض مؤلفاتنا إلى مقَامِه، الذي لا يرتضى لرفعته أن يكون البدر فيه من جملة خُدَّامه. وهي على كثرتها خالية عن الفوائد، غير حالية بالمنظوم من القلائد، لكنّي رأيت امتثال أمره فرض عين يتضيّق له الأدى، وتمام مَقْصده واجب لا يسعني التَّخلف عنه أبداً، فَصَدرَ إلى شريف حضرتهِ كتابُ (الوشي المرقوم) وهو شرح رسالةِ الإمام الواثق المسماة بالدّر المنظوم، فإن وقفَ فِيه على بدل غلط، أو شيء لم يرده قلم القط قطّ. فليستدرك عيبه بنظره الثاقبِ، وليكن نَقْده له مراقباً وأيَّ مراقب، ولما هزت العِطف قطعتُه، وأضاءت في ليل المدادِ شمعتُه، وهي الأربعةُ الأبيات الأبِيَّات في الرتَب، التي تقوم مقامَ دواوين، خطّها اليراعُ وَكتب.

قلت للقلم: هل عندك شيء من هذا النَّفَس النفيس أم لا؟ فقال بلسان الحال: هاك ما سنح وأملا:

---

(١) ساقط من (ش).

هزَّ عطفي من الحمى نسماتُه ... حين مالت من دوحه عذباتُه

يا نسيم الرّياض إنّ فؤادي ... سوف تصليك ناره زفراتُه

فاجتنب قرب مغرم عبَّرت عنه ... بِصِدق في خدّه عبراتُه

قد خفى عنك بالسّقام وعن غير ... ك لولا تتابعت أنّاتُه

لي حديث (مسلسل)[1] في خدودي ... (صحَّحته) نُقَّاله ورواتُه

لست أنسى الحمى ومعهد أنسٍ ... مَدَّت الظلَّ في الضحى روضاتُه

فيه نَمَّامه من الزهر لا غيره ... ومن عاطر النَّسيم سعاتُه

طاب طيه الأريج من نفح عودٍ ... وشَجَتْني بنطقها رنّاتُه

ونَدِيمي حُلْو الشمائل خودٌ ... رنَّحت معطفيه منه سُقاتُه

هو غصن ما مال يوماً لِوَصْلٍ ... وهو ظَبْي قد عزَّ منه التفاتُه

وغني بالحسن لكن إذا ماسَ ... بقدٌ يقال: لانت قناتُه

أنا في حُبّه (الكليم)[2] ولكن ... لم يتمّم من وصله (ميقاتُه)

متُّ لولا بطاقةٌ قد أتتني ... بشذاها ردّت لجِسْمي حياتُه

مِنْ إمامٍ مُقلّد بأيادٍ ... ذا اجتهادٍ في السّعي وهي هباتُه

ضاحكٍ عند فيضه بنوالٍ ... منه تَبْكي أقلامه ودواتُه

وله همّة تناهت علواً ... فاستوت فوق هامة النجم ذاتُه

وَسَمَتْ رفعةً لذاك تراها ... وَسَمَتْ غيره بنَقْصٍ سماتُه

ساكن الأدهم المصلصل في ... السّجن وكم وُطّيت له صهواتُه

لم يرعه يوم الوغا قط لمّا ... زاد فيه قَرَاره وثباتُه

علم لا منكّر يوم روع ... لم تعرِّفه كالورَى لاماتُه

---

(١) المسلسل الصحيح الرّواة والنقلة من كلام أهل مصطلح الحديث سبق ذكر بعضه في الجزء الأول.

(٢) إشارة إلى قصة سيدنا موسى وقوله تعالى ﴿وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾ الآية ١٤٢ سورة الأعراف.

وبــــه تـــــاه إذ عـــــلاه وذلــــت ... عـن خـضـوع كـمـيـتـه وكـمـاتُـه

جـئـتُ لا بـالـقُـصـور بـل بـقُـصـورٍ ... حـيـن هـزّت مـعـاطـفـي أبـيـاتـه

فـلـق الـبـحـر مـن عـروض فـأبـدى ... لـؤلـؤ الـنَّـظـم والـيـراع عَـصَـاتُـه

عـالـمـاً أنـه كـريـم الـسـجـايـا ... بـالـتـغـاضـي إنـصـافُـه إنـصـاتُـه

أيـهـذا الـمـولـى لأمـرك طـوعـاً ... قـد بَـعَـثْـنَـا بـمـا تـسـوء هـنـاتُـه

صـدر «الـوشـي»[1] مـسـتـنـابـا عـن الـ ... ـواشـي وقـد طـوّحـت بـه غـفـلاتُـه

وعـلـيـك الـسَّـلام مـمـن تـجـارى ... فـتـراهـا بـدت لـكـم سـوآتـه

طـاب إذ طـال مـنـك عـمـر ومُـدّت ... بـك فـي بَـسْـط نـعـمـة أوقـاتُـه

فكتب إليّ مجيباً، وأطلق جواد فكره نجيباً، صِيْنت محاسنه عن الشين، ووقا الله ذهب أدبه العين. وذلك في شهر جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف سنة، من النثر والنظم ما ترى. وقد أودع في نظمه مصاريع من نظمنا إيداعاً فيه غاية الإبداع. أودع فيه قلمه النفيس من المِداد في غدف، كما أودعَ البحر الخضمُّ الجواهر في الصدف. فقال:

يعود من السَّلام على من بدأ به، ما يضاهي في الحسن نفائس آدابه، ويتعلق للطفه نسيم الأسحار بأهدابِهِ. ومن الثناء على من هو أولى بهِ، ما تعين أوصافه الجميلة على اجتلائه واجتلابهِ.

ومن الدعاء لمن تدعوا إلى الدعاء له فوائدُ مصنفاته، ما تكون الإجابة إن شاء الله تعالى من ذاتيات صفاته. ذلك سيدنا السند، الذي أحاديث فضله متصلات السَّند، القاضي الفاضل عمدةُ الأفاضل، ومن ليس له في الفضل مُماثل. المتفضّل على صديقه الشاكر أفعاله وأقواله، بما أضعف عن القيام بما يجب له ولا أقوى له، من إطلاعي على (الوشي المرقوم)، الذي يتوجّه على الملوك المتوجّه لرؤيته أن تقوم. نعم وهذه الأسطر رُقمت مخبرة بإبلاغ الرسول الكتاب، قبل أن يستوفي في مطالعةِ أبحاثه الشريفة فضلاً عن الاستكتاب إلا إنَّا قد أشرفنا منه على ما شَوَّق

---

(١) يعني كتابه الوشي المرقوم السابق ذكره.

إلى ما يليه من الأبحاث. وكان لنا على الإكباب عليه والنظر فيه أعظم حاث، ومن بعد أن يمنّ الله تعالى باستجلاء بدر تَمامه، واستكمال إقتطافنا زهر أوراقه المفتر عن أكمامه. نودّعه مشفقين من فراقه، متبرّكين بالتماس أوراقه، ونودِعه إن شاء الله تعالى من الثناء على مؤلفه وعليه، ما تشتاق الألسنة والأسماع والأوراق إليه.

هذا وأما الأبيات التي سحرت الألباب، لما دخلت عليها سواحر معانِيها من كلّ باب، واستولت ملاحتها على الأفئدة، فصار لها فيها مضاربٌ وقباب. فليس لها في الحسن نظير إلا أخواتها اللواتي زففن مَعَهَا. وجمعهن سِلك نظمك البديع الرّفيع وجَمَعَهَا. وما قَدْر تلك الأبيات القليلة عندها، وهي ما جاوزت عقداً[1]، ولا احتاجت لكونها زيوفاً كلها عند صيارفة الآداب نقداً. بيد أنّها قد كانت سبباً إلى ما أذابه حرسه الله من تِبْر البلاغة، وفي قالب نظمه وسَبكه، فهي آلةٌ لا تضر خساستها ولا تُشترط نفاستُها. وهل يتساوى الصيد والشبكة، ثم إنّي لمّا أردت إلزام نفسي ما لا يلزم من سلوك تلك الطريقة، تحيرت في ألفاظها الجزلة ومعانيها التي هي في البلاغة عريقة، فقهقرت عنها مبهوتاً مقهوراً.

وعلمت أني لا أنتهي فيه إلى غاية ولو سرت شهوراً، فسلكت طريق المُشاة عادمي الأفراس والرَّواحل، ومن لم يستطع الركوب في السفائن مشى على السَّواحل، وجئت بما إن رآه سيدنا حماه الله، قال: هذه بضاعتنا ردت إلينا، ونحن بحمد الله في سعةٍ من الفصاحة والبلاغة تفي بما لنا وعلينا. فقلت طالباً منه الإقالة، مُوجّهاً إلى مقامِه العالي مقالَه:

لا وحقّ الشهاب خدن العلا ما ... هزَّ عطفي من الحِمَى نسماتُه
لا ولا حرّكت لقلبي غراماً ... حين مالت من دوحه عذباتُه
لا ولا قلت: يا عذوليَ دعه ... سوف تُصْليك ناره زفراتُه
لا تقل ما صبا تكذبك إن سا ... لت بصدقٍ في خدّه عبراتُه

(١) أي عشراً.

كيف يخفي الهوى نعم كاد يخفـ ... يـه لولا تتابعت زفراتُه
إنّما ارتجت للكتاب الذي قد ... صَحَّحته نقاله وثقاتُه
هو روض ينسيك كل مقامٍ ... مدت الظل في الضحى روضاتُه
فاسع فيه قد نال أذكى من المسـ ... ـك ومن عاطر النسيم سُعاتُه
واستمع سجعه فكم سامع قا ... ل شجتني بنطقها رناتُه
واسقني منه أكؤسا أنا من قد ... رنَّحت معطفيه منه سقاتُه
أنا من لم يصده ما صاد غيري ... وهو ظبي قد عزَّ منه التفاتُه
واصطيادي العلوم لا من إذا ما ... ل بقدٍ يقال لانت قناتُه
وأرى النقص في اشتغالي بخلّ ... لم يتمم من وصله ميقاتُه
حبّذا (الوشي) منه فاحت فنون ... بشذاها رَدَّت لجسمي حياتُه
كيف لا يدعى البحر من قد حباها ... ذا اجتهادٍ في السَّعي وهي هباتُه
هو بحر العلوم لكن تعالت ... واستوت فوق هامة النجم ذاتُه
ذو انتقادٍ ذكاؤه ولهذا ... وسمت غيره بنقص سماتُه
كم شَمُوس[1] من المسائل قد را ... ض وكم وطّيت له صهواته
ذو وقار ما طاش في دهرنا بل ... زاد فيه قراره وثباتُه
حين قاد الورى وساسهم من ... لم تعرِّفه في الورى لاماتُه
صاح قل للشهاب ما ملت إلا ... حين هزَّت معاطفي أبياتُه
أنا للعهد حافظٌ لا كمن تلقى ... وقد طوَّحت به غفلاتُه
فليزدني من التصانيف فضلاً ... دام في بسط نعمة أوقاتُه

أخوه العلامة الحسن بن إسحق[2]

لقب بالملك الضحاك، لأنه لبس حلة جود أَنَّقها من حاك. يعطي وهو باسمٌ

(١) شموس: ممتنع أو أبي.
(٢) نفحات العنبر (خ) نشر العرف ١: ٤٢٩.

غير قطوب، ويؤمّن في حرم نواله من فرّ إليه مستجيراً من الخطوب. وخير النَّدى من باسم الثغر نديّ البنان. كما أن شر العطاء من عابس الوجه لئيم الجنان، فصدره أوسع من ناديه، لا يهزّه إلا صوت مُسْتَجْدٍ بناديه، يصوب غيث النَّوال منه إذا وهب، وَلَمَع من خلال سحب أوراقه برق الجود وهو الذهب.

لو كانت الغمامة في سلك تنويله معدودة. لما برحت خيوط مطرها في الآفاق ممدودة، فهي لا تنقشع أبداً، ولا تَبْرح تهطل على السُّفوح بالنَّدى. ولي ثغر (تعزّ) القاهرة، فأمست عيون الأزهار في رياضها لحراسة مجده ساهرة. وانقاد له الأبيّ بالأرسان، وأحيا من الجود فيها ما شرعه آل غسَّان، فنال من الكرم كلّ سؤل. وقيل: هذا ابن نبيّ أنسى ببني رسول[١]، وزهت به ملاعب ثعبات[٢]. وإذا نهورها في خدمتِه تظلُّ وتبات، وثمارها الجنيّة تهوي لتقبيل أقدامه على بساط النَّبَات. بساطٌ مدًّ من الإستبرق البديع، قد طرّزته أنواع الأزهار فإذا هو قد أزرى بما لِكسرى من بساط الربيع. سجف بالأطلس الأزرق من النهور، ونسجت لُحْمته وسُداه من ألوان الزهور. وعاد (صبر)[٣] بهِ حلواً. وكان للنبات المكرر تِلْوى، وهو مع ذلك المُلْك، الذي جرت في بحره به الفُلْك، قد أحرز من العلوم أوفر نصيب. يقول معه ذو العرفان: نحن بسهامه نُصيب، سيما في النحو وفنّه. فإنه للمسترشد فوق ظنّه، سمعت له فيه مراجعة تُصمِت فصيح البلابل، وأدركت له محاججةً كأنها في دفع المخاصم ذوابل[٤].

جاء من فوائده بالواجب، فدل على أنّه العين[٥] التي يطوف حولها ابن الحاجب[٦]، يتفكّه في رياض فواكهه الفاكهي[٧]. ويقول لها المستفيد: إن لم يلف

---

(١) هم آل رسول الذين ينتسبون إلى الغساسنة وهم ملوك اليمن.

(٢) بِفَتَحَات منطقة اعلا مدينة تعز من الناحية الشرقية في جبل صبر (معجم المقحفى: ١: ٢٥٥).

(٣) يعني جبل صبر المطل على مدينة تعز.

(٤) أسنّة ورماح.

(٥) تورية بالعين أي فرض العين مقابل الفرض الواجب عند الفقهاء.

(٦) (٧) ابن الحاجب والفاكهي من علماء النحو.

الطالب الرّياض الحقيقيّة فقد الفاك هي، فهو يقتطف من بين زهرها الباسم، ما لا يقتطفه من الجني الداني في رياض ابن أمّ قاسم[1]، فما اللسان المثنى إلاّ عليه لا على المُغني[2].

وعلى الجملة فإنها كملت صفاته، وعدمت في الفضل كفاتُه، حتى ودّ الفلك أن يتجمّل بسماته، ويتحلّى بما يصوغه من كلماتِه، فيضعها موضع قرط الثريا من سالف السماء، وسوار الهلال من معصم المجرّة السائل سَيَلان الماء، فله أدبٌ نصب خيامه وقبابه. فلا يلج بها سواه فلسان الحال يقول له: صن عنه عتبته وقِ بابَه.

ولم يزل ملكاً مهاباً، قد ملأ المجد والفخر له إهاباً، حتى نازعه بعض بني عمّه، فامتلأ صدره بما أهاضه وأغاضه من غمّه، فجرت بينهما حروب، تحتوي من الأهوال على ضروب. وآخر حربٍ اتفق أودع الجلّ من قومه إلى نفق، في يوم همعت فيه سحاب الدخان صوباً، ومعركةٍ بقاع الحوبان[3] تضيق لشدتها الحوباء. فأخذ أسيراً، وظل خاطره كسيراً، ثم حُبس بصنعاء وقَصرها. حَبْس الخمرة في الدّنان بعد عَصْرها. وقد قَصَدْته إلى محبسه بعد أن خُفِّف عليه التَّغليظ، ورفع شخصه من الحضيض لمّا عاد وهو حضيض. واجتمعت به قبل إطلاقه، واستنشقت مسك اللطف من نسمات أخلاقه، وسمعت نفثاته التي لطفت ورقّت، ورَفَعْته عندي إلى أعلى المراتب ورقَّت، فتحيّرت في الواقع من ذلك الأمر، ولم أدرِ أنا سُحرت أم تناولت صِرْف الخمر. ثم إنه أطلق زماناً وأعطاه الدهر من حوادثه أماناً، ونظم له في سلك الإقبال والسعادة جماناً.

---

(١) ابن أم قاسم هو بدر الدين حسن بن قاسم المرادي المتوفى في سنة ٧٤٩هـ شارح ألفية ابن مالك (كحالة ٣: ٢٧١) وهنا إشارة إلى كتابه الآخر الجنى الداني في حروف المعاني طبع بحلب سنة ١٣٩١ هـ.

(٢) يعني كتاب مغني اللبيب لابن هشام في النحو.

(٣) الحوبان: بفتح الحاء وسكون الواو القاع والهضاب الواقعة شرقي مدينة تعز (المقحفى ١: ٥٢٧).

ثم أعيد إلى الحبس مرةً أخرى، وما هان بما وقع بل زاد فخراً. ثم أطلق ثانياً، وأصبح لثمرات المُنَى كما أصبح من قبل عليه الزمان جانياً. فجبره المتوكل[1] خير جبر، وحمته دنانيره عن أن يمثل به زمانُه، فإذا هو حميُّ الدبر[2]، ونظره بعينٍ من الرعاية طالما عنه قد نامت. ورامت به الأيام بطشاً فسدّدت أيدي حميّته سهامها إليها ورامت، أقعده عنده أرفع مقعد. وأصعده في أفق الإجلال أشمخ مصعد، حتى أدركت المتوكل منيّته. وفاتته من علو الكلمة أمنيّته.

وله ألفاظ من الصبا أرق، إذا ضمَّخ بمسك المداد كافور الورق. وبناتُ أفكار، صيّنات الجيب أبكار، لهن محيّا جميل. شغف به النَّسيم العليل، إن كتب، فهو للأعداء قد كبت. وإن كرّ بجواد قلمه في ميدان الطروس، فكل الجياد خلفه قد كَبَت، ما ترنّم طائر قلمه بين الأوراق. إلا أثار كَمِين هوًى مشربُه قد راق. طالما أعاد على الهمّ حديث الصبا فذكره. بنسيبٍ منه أحلى من حلاوة النَّباتي[3] وابن سكرة[4]، فمن حلل نظمه التي رقّت حواشيها. وأنقّ مطرزوها ناسجها وواشيها، ونشرت أطرافها فسعى بالنشر نمّامها وواشيها. وخمرته التي حبى بها، مجلوةً تحت الدرّ المنظوم من حَبَابها.

قوله:

عرفت قصدك يا من	أهدي إليّ سواكا
بذاك لمّحت أني	أهوى حبيباً سواكا
أسأت ظناً بعبدٍ	أضحى أسير هواكا
لكنّه سرّني أن	كان السّواك أراكا
به تفاؤلت أني	عَمَّا قريب أراكا

---

(١) يعني الإمام المتوكل على الله القاسم بن الحسين المتوفى سنة ١١٣٩هـ نشر العرف ٢: ٤٨١.

(٢) إشارة إلى الصحابي الجليل عاصم بن ثابت الأنصاري الذي حمته الدبر.

(٣) تورية بالسكر النبات وبابن نباته الشاعر المعروف.

(٤) تورية بابن سكره الشاعر المار ذكره.

فليت أنك يوماً ... عَطَّرته بشذاكا
أو كنت تكسي عراه ... بحلةٍ من لماكا
وأنت يا ثغر أن لو ... توّجته بسناكا
لتَنجلي ظُلْمة البعد ... والدّجى بضياكا
لكي أحقق طرساً ... عَنْونته بجفاكا
شَحَنْته بعتابٍ ... فَهِمْتُ منه قلاكا
صدّقت قول عذول ... عن الشجيّ ثناكا
ما كان يكفيك سجني ... والقيد ثُمَّ جفاكا
حتى أضفت إليه ... تصديق قول عداكا
تَرَكْتني طول ليلي ... أرعى السُّها والسماكا
وأرقب البدر لمّا ... بزَغْمه قد حكاكا
وقلت للغيث بالله ... إحبس سيول حماكا
لا تَشْق سفح المصلّى ... فمَذمعي قد كفاكا
ماذا أردت بهذا ... قل لي جعلت فداكا
إن رمت تعذيب قلبي ... فقد بَلَغْت مُناكا
بَرّد عليه قليلاً ... من حرّ نار جفاكا
فالحُرُّ يحمي حماه ... وأنت قلبي حِماكا

وقوله:

يا مهدياً للعطر والمسك الذكيّ ... لصبّه أما شذاك فقد وصلْ
لكن أين اللّثم والتّقبيل للخـ ... ـد الأسيل وضمّ خصرك والكَفَلْ
وعناق قدّك وارتشافي للّمى ... وجميع ذاك بغير وَصْلك لم يُنَلْ
فمتى إلٰه العرش يَجْمع بيننا ... وينال منك الصبُّ غايات الأملْ
بِمَ ذا أقابل ما إليَّ بعثته ... لو كان يُمْكنني لأهديت القبلْ
لكن ذا القرطاس قد قبّلته ... ألفاً فضعه على خدودك والمقلْ

وارده يجعله العَليل تميمةً　　فعساه يشفى بعض ما بي من علَلْ
وامسح خدودك قبل وضعك أنني　　أخشى عليه من مدامعك البَلَلْ
فلعل عندك مثل ما عندي نعم　　إني لأعلم ذا فما قولي لعلّ

وقوله: وكتب إلى تلميذِ والدنا رضي الله عنه، وهو المولى الأعظم البر التقي: ضياء الدين يوسف بن المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم عليهم السلام، الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في هذا الكتاب، يلتمس منه الشَّفاعة له بأن يتَّصل به أهله وأولاده في السجن بعد مَنْعهم عنه، حَلَّ الله عقدته. وكشف عنه شدّته. وذلك في أيام عشر ذي الحجّة المباركة:

دعوتك لمّا عِيل يا سيدي صَبْري　　وجئتك لمّا ضاق من حاجتي صدري
وما حاجتي مال ولا مَقْصدي غنًى　　فَرَبِّي قد أعطى وأغنى عن الفقرِ
ولا بي طول السجن في محبس غدت　　تذكرني أهواله وَحْشة القبرِ
ولكنّه والله فَقْد حبائب　　يغار عليهنّ المحبُّ من الذِّكر
حسانٍ غوانٍ ناعماتٍ كواعب　　(جلبن الهوى من حيث أدري ولاأدري)
فهذي يريني قدّها الغصن إن مشت　　وتلك يُريني وَجْهها طلعةَ البدر
وأخرى يُريني الطرف منها إذا رنت　　«عيون المها بين الرُّصافة والجسرِ»
وأمّا التي قد حازت الحسن كلّه　　فقد حار في تفصيل أوصافها فكري
فما نظرت عيني لها مشبهاً ولا　　رأت عين غيري مثلها قط في الدهرِ
وخمسة أولادٍ مُنِغت لقاءهم　　وأكبرهم لم يبلغنَّ إلى العشرِ
وأوسطهم قد كاد يمشي وطِفْلة　　على المهد قد صارت وآخر في الحجرِ
ووالدةٍ قد كاد ينشقّ قلبها　　من الفَقْد لولا عصمة الله بالصّبر
فمن أجلهم ما زلت في السجن ساهراً　　أقلّب طول الليل جَنْبي على الجمرِ
وأرسل من عيني إذا ما ذكرتهم　　دموعاً على الخدَّين ما بَرِحَتْ تجري
وما زال فكري في تطلب حيلة　　يكون بها قطع التَّباعد والهجرِ
فأرسلت آمالي إلى كل مَطْمع　　فعادت بكفٌ من مطامعها صِفْرِ

وَسَرَّحْتُ عيني هل أرى روضة الوفا — فما وقعت إلا على مهمهٍ قفرِ
وقد كان أهل العصر ذا يعرفونني — وأعرفهم حتّى تَنَكَّرَ لي دَهْري
فأنكرني من كنت أحسب ودّه — صحيحاً وأبدى نخوة التِّيه والكِبْرِ
فمن ذا أرجّيه لبثّ شكايتي — ومن ذاك يرضى أن أبيح له سرّي
لقد خاب ظني في الأنام سوى الذي — علمت يقيناً أنه يوسف العصرِ
لذاك تراني قارعاً باب جاهه — ومهبط أسباط الرَّجاء إلى مصرِ
أيوسف إنّا مسنا الضّرُّ فاغتنم — مثوبة ربّ العرش في نَفْع مضطرٌ
وأوف لنا الكيل الذي نبتغيه من — خزائن جاه مِنْك يا واسع البرِّ
تَصَدَّق علينا بالشَّفاعة قاصداً — بذلك وَجْه الله في هذه العشرِ
ليال يكون الأجر فيها مضاعفاً — بها أقسم الرّحمٰن في محكم الذكرِ(١)
مواسم فعل الخير ها هي أقبلت — فقم لشرا ما تبتغيه من الأجر
وأفضل بِرّ منك تَنْفيس كربةٍ — وتَخْليص من قد صار في رَبْقة الأسرِ
وما مطلبي فكّي من الأسر إنّما — طِلابي لتخفيف يسيرٍ من العسرِ
فَحَسْبي يا مولاي سبعة أشهر — من الأهل والأولاد من أعظم الوِزْرِ
وإني أرى فرضاً عليك إجابتي — إلى رفع ما لاقيت في السِّجن من ضرٌ
فجاهك مقبول وأمرك نافذ — وما لك في التَّقصير عن ذاك من عذرِ
ودونك شيء يشبه الشِّعر زانه — مديحك حتى صار يزهو على الزهرِ
وما قلت شِعْراً في سواك لأنني — أرى الشعر شيئاً لا يليق بذي القدرِ
ولكن رأيت اليوم قدرك عالياً — على الناس طراً دونه رتبة البدرِ
فَقَلَّدته من درّ مدحي قلائداً — وألبسته ثوب المحامد والشكرِ
وجائزتي يا عين أهل زمانه — قيامك فيما رمت بالصَّدْر والنحرِ
ولا تَقْبَلن وعداً وعذراً فإنه — يضيق الذي أشكو عن الوعد والعذرِ

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والفجر وليال عشر﴾.

بقيت لنا كَهْفاً وذخراً وموئلاً ومفتخراً يا جامع القدر والفخرِ

وكتب إلي أخيه المولى جمال الدين محمّد بن إسحق دامت علاهما، وكلاهما في السجن ومحبس كلُّ واحد منهما غير محبس الآخر فهما مفترقان.

قوله:

تلطف في تحيّله الرسول ليمكنه إلى السِّجن الدخولُ
فوافى إذ تراكمت الدياجي وطاب لها بمنزلي النزولُ
وظاهر بعضها بعضاً ففيها حسام البرق مفلول كليلُ
وما هي غير سجن ثم ليلٌ وأدهم بين أقدامي يدولُ
ولون[1] مُوَكّلٌ فيها بحِفْظِي فيا بئس المؤكّل والوكيلُ
فأشفق ذا الرَّسول لما رأى من أمور شرح أخصرها طويل
فقلت أفِقْ ولا تَرْتَع لحالٍ إذا اشتدّت فقد طَفِقت تزولُ
وخبّرني عن الأوطان إني أراك بها خبيراً يا رسولُ
وعن سكان كاظمةٍ سقاها من الوَسْميّ هتّان هطولُ
وأطنب ليس يَنْفعني اختصار وأكْثِرْ ليس يُشْفيني القليلُ
فإن أكملت ما حُمّلت عنهم فقف واستمل مني ما أقولُ
وبلّغهم تحيّات تحاكي عقوداً زانها جِيْد طويلُ
وقل أبصرت عبدكم أسيراً على أقدامه قَيْدٌ ثقيلُ
حديداً كان أصل القيد لكن أراه إلى الُلجَيْن سيستحيلُ
وقل لهم بما لاقى فؤادي وأني بَعْد بُعْدهم عليلُ
وخبّر عن بحار من دموعي على الخدّين ما برحت تسيلُ

---

(١) يعني لون الموكل بحراسته وهم غالباً من العبيد السود، يعني أربع ظلمات السجن والليل والقيد (من الحديد الأسود) والحارس المذكور.

وقلبٍ ذاب من شوق إليهم	وجِسْم كاد يخفيه النحولُ
وأوجز في الخطاب ولا تطوّل	فعهدي أنّ من أهوى ملولُ
وقل لبَثَيْنةٍ لا تَخْش أمراً	ولا تحزن فلي صَبْرٌ جميلُ
بذاك أمرت من مَلِكٍ مطاعٍ	أخي بل مالكي المَلِك الجليل
محمد الحميد الفعل بدر الـ	ـمعالي من له المجد الأثيلُ
إمامٌ فاق أهل العَصْر طُرّاً	بِمَجْدٍ ما لهُ أبداً مثيلُ
وصَدْر عنه يروي كل علم	وكفٌّ ليس تحكيه السيولُ
فريدُ العصر وهّاب سموحٌ	عظيم القدر مقدام مُنِيلُ
جلا لَيْل الضَّلال بنور علم	به اتضحت إلى الحقّ السَّبيلُ
أتاني منك يا مولاي نظمٌ	تلقَّاه من العبد القبولُ
وقلت: اصبر على نُوَب الليالي	وإن عظمت فأسرع ما تزولُ
أجبتك مالكي سَمْعاً وطوعاً	وفزت إذا امتثلت لما تقولُ
فدم لا زلت تأمرنا وتنهى	فنَدْفع بامتثالك ما يَهُولُ

فأجابه بقوله:

تحمّل عن أحبتنا الرسول	رسائل فكَّها دمع يسيلُ
به ابتلّ الختام وكاد يمحى	بمنحلّ العرى منها فصولُ
رسائل بشّرتني بالتداني	فيا نِعْم الرّسائل والرسولُ
وحَلّت من همومي كل عَقْد	سوى عَقْد برؤيتهم يزولُ
وعطّرت المقام فقلت: قيلوا	بهذا القيل قد طاب المقيلُ
رأيت سطورها في الطرس سُودا	كأن الليل في صبح يجولُ
وألفاظاً لها رقَّت وراقت	فقلت: هي الشَّمال أو الشمولُ
وثُبْت إلى الملاحة فاستطارت	بها غرر الملاحة والحجولُ
رعى الله الأحبّة هل كسوها	سناً من ذلك الوجه الجميلُ
وهل قد أودعوها الطِّيب كيما	تفوح بها المغاني والطلولُ

وهل من روض خدّهم استعارت فمِنْ هذا القبيل لها قَبولُ
أحبَّتنا أتت منكم فصولٌ تحاماها التَّهافت والفضولُ
حوت تَحْقيق حالكم فقلنا سوى التحقيق ما حوت الفصولُ
وناجتني بأنَّ عهود ودّي لديكم لا تحور ولا تحولُ
وأنّكم لما قد نابنا في عَوِيْل لا يدانيه عويل
وأن الورد في الروضات أمسى وقد غمرت مقاطفه السيولُ
وأن الكحل رقم في طروسٍ أظلَّ سطورها الطرفُ الكحيل
أَبَثُهُ الغانيات وأرسلته فأضحى بينه والعين ميلٌ
فيا شوقي إلى حُفّاظ عهدي ويا شوقي إلى من لا يميلُ
وويل للزمان وقد تعدّى بأن هال التي أضحت تهولُ
وما بي غير ذلك إنّ قَلْبي جليد لا يهوّلني المَهُولُ
وقبّح دهرنا الجاني عليهم إلى كم يُشتقال ولا يَقِيْلُ
سيؤخذ عن قريبٍ بالتَّعدّي ومثل مناله فيهم ينيلُ
ويسمع لي وللأعداء يومٌ تدوس رؤوسهم فيه الخيولُ
وينجو منهم جانٍ أتانا يفرّ من الذّنوب ويستقيلُ
فكم طُلْنا على جانٍ بِعَفْو وكم جانٍ عليه نستطيلُ
وما نالت صروف الدهر مِنّا سوى ما فيه مَرْعاها الوبيلُ
وقد صقلت ضمائرنا فأضحت يباريها حسام أخي الصقيلُ
أخي الحَسَنِ الهُمَام أبي العطايا عماد فخارنا البرُّ الوصولُ
قليلُ المال من بذل كثيرٍ وذو المال الكثير هو البَخيلُ
وما الإنفاق قلَّله كثير ولا الإمساك كَثَّره قليلُ
أجدت أخي جواباً واعتماداً لنُضحي والصَّواب له عقولُ
تراها تَهْتدي بالشمس منه وتخشى أن تحيل لها أفولُ

كـنـظـمـك فـلـيـكـن نـظـم الـقـوافـي ... ومِـثـلـك فَـلْـيَـكـن فـيـنـا الـفـحـولُ

بـقـيـت قـريـر عـيـن بـالـمـعـالـي ... ودام لـهـا بـك الـعُـمْـر الـطـويـلُ

أخوهما عبد الله بن إسحق(١)

هو من أعيان العصر، وممن بسيوفهم للدين أي نصر. جدّه المهدي(٢) أحمد بحر المكارم العظيم المدّ. أسدٌ منازلٌ مغالب. له من الأسِنّة أنياب ومن السيوف مخالب. أثبت من اللّيث جنانا، وأندى من الغمامة بَنَانا، إن حارب، فالأغصان رماح، وإن سالم فالأسل بنانٌ تعمّ بالسماح، فما سحاب جوده بجهام. ولذا قالت له لسان الكون لمّا رأت عنده الغنى: بِكَ هام المجد لا بكهام(٣). ليس بغرٍّ في الحوادث، ولا بمهملٍ عن الذكر ككادث ومادث(٤). وهذا الشبل نشأ منه في عرين، واتخذ له مجده خير قرين.

تعلّقت به المعالي تعلق النّشر بأذيال الصَّبا، وأنست به أنس محبٍّ هام بمن أنس به وصَبَا. رأيته في مقام أخيه المولى محمّد، وقد رمى شواكل الإشكال بأسهمه وتعمّد، فما أخطت له سهام عن غرض، ولا أصاب صحيح نِظره أبداً مرض، مُعقلاً لأخيه مكبّراً. مفصحاً بلسانِ تبجيله معبّراً، مُنزلاً له منزلة البدر والشمس. بانياً مهجته على الكسر لديه تعظيماً له كبناء أمس، قَدَّمته الأيام فقدمه. وعظّمه العلم فعظّمه، وعليه من الوقار حلة منسوجة بِغَزْل الرَّجحان، وهو يتفكّه في روضة من السكينة قد حفَّت بمتضوّع الريحان، وله خطٌّ بديع الرقش، لو رقم في أكفّ الحسان لاستغنت به عن النَّقشِ. ولمّا شارك أخويه في المجد، وهام معهما بالعلا هيام وجد، شاركهما أيضاً في الحبس والقيد، وعامله الدَّهر بما

(١) نشر العرف ٢: ٨٦ ط الدراسات.

(٢) يعني المهدي أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم بن محمد.

(٣) كهام: الذي لا مال عنده.

(٤) لم أجده.

عاملهما من المكر والكيد. وروي عنه مقامات شِدّة لا كما روي عن أبي زيد[1]، فحبس بحصن مسَار[2]، وحُفّت به الكوارث من يمينٍ ويَسَار. ولم يمنّ عليه الدهر بفك إسار. لبث فيه قدراً رَسَمَه القضاء، وسُدت عليه فيه منافس الفضاء. ثم بعد ذلك نقل إلى حبس ثُلا[3]، ولم يَثْن مع ذلك عزمه عن محاولة إدراك العلا، فهو أحمس من ابن المقرب[4] في شعره، ونظمه في الافتخار أغلى من الدّر في سِعْره. يَرْتقب من الزمان فرصة الدّعة والأمان، وقد يمنّ عليه الله بالخلوص، وتحمله من منازل الضيق أفتى قلوص[5].

وله هيام بجهات وِصَاب[6]، وما أخطأ لتذكُّره مسارح الشبيبة بل أصاب، يعربد إذا مرّ به النشر من الدنّ[7] وقد فُض، فإذا سمعه مصيخ لأخباره وطرفُه عن تخيُّل نضارته ما غضّ. ذكر قاتِه الجرَّاني[8] فجرأه على التشبيب. وحمله على إكثار اللوم للفراق والتأنيب. طالما أمسى هائماً وأيّ هائم، وقد وافاه النَّسيم الغربي من أقصى التِّهائم، عن أذيال تقطر بالرشح، وأخبارِ تهيّج [غرام][9] الكشح، حتى رقّ شعره رقة تلك النسائم، ولطف نظمه لطف تلك المضارب والمعالم. فمنه وهو درّ صدفه محبسه، يميس به قدُّ القلم عجباً لمّا رق من مداده ملبسُه، هونتيجة فكرته المسجونة، التي تضوّع أدبها حتى قال لامسها: إنما أنا ألمس جونه[10].

---

(١) يعني أبا زيد السروجي صاحب مقامات الحريري.

(٢) مسار: جبل عال من جبال مديرية مناخة من حراز باليمن (المقحفى ٢ : ١٥٠٨).

(٣) بلد باليمن بالشمال الغربي من صنعاء (المقحفى ١ : ٢٥٨).

(٤) سبق ذكره في الجزء الأول: ٤٧٤.

(٥) قلوص: الناقة إذا اسرعت براكبها.

(٦) بلد باليمن سبق ذكره في ج ١ : ٤٦٣.

(٧) بلد من وصاب سبق ذكره ج ١ : ٤٦٣ وهنا تورية بدنّ الخمر.

(٨) الجرَّاني: نسبة إلى جرانة بضم الجيم قرية من محافظة إب وأخرى بجبلة وثالثة بالفجرة من النادرة والمعنية هنا الأولى مشهورة بجودة القات (الشجر المعروف عند أهل اليمن).

(٩) ساقط من (ش).

(١٠) الجونة: سلة صغيرة مغشاة بالأدم تكون عند العطارين، وسبق ذكرها في الجزء الأول ص: ٦٣٢.

قوله من قصيدةٍ أجاب بها على أخيه الحسن، ومدّ فيها لجواد فكره الرّسن[1]:

دع العيس تَذْرَعُ عَرْضَ الفلا ... إلى ابن الضِّيَّاء وإلاّ فلا
إلى ماجدٍ لم يزل دائماً ... يبيد العِدَى ويشيد العُلا
همامٌ شجاعٌ له همَّة ... على النَّجم منزلها قد علا
يرى المجد كسباً بسمر القنا ... وإن أتعب الجسم أو أنحلا
مليك إذا جئته سائلاً ... فما أوسعَ البَذْل ما أجزلا
أبى الفخر إلاّ علاه التي ... على جيد ذا الدهر منها حُلا
إذا مدّ رمحاً دنا ساجداً ... له القَرْن يسحب شَحْم الكُلى
فيا طالب الجود من غيره ... طلبت المحال ولن تعقلا
فدع مدح كل فتى في الورى ... ودع ذكر كل فتى في الملا
وشنّف بذكر مليكٍ يُرى ... إمام الملوك وتاج العُلا

منها:

فيا صاحِبيَّ لما تَتْعبان ... أَلَمْ تَعْلما حالتي في «ثُلا»
فلي قِصَّة ما جرى مثلها ... على أحد وابحثا واسألا
غزال تَنَائى وقد كان لي ... حبيباً يطوف بكأس حَلا
من الثغر لا من دنان الخمور ... وشَتَّان بين اللَّما والطِّلا
ولما رآني سمير السهى ... أسير القيود بأقصى البِلا
تجانف عني فيا وِحْشتي ... لقيدي ونفرة رِيم الفَلا
ويا جيرة السَّفح سفح النقى ... سَلُوا الجَفْن هل بالكرى كُحّلا
تظنُّون أني لكم تارك ... ببُعْدي وأن فراقي قِلا
فحاشى وكلاّ فلم أنسَكُمْ ... وقَلْبي الشجي عَنْكُمْ ما سلا

---

(١) الرسن: الحبل تربط به الدابة.

وله من أخرى:

مـالـي إذا سـجـعـت سـواجـع | فـاضـت عـيـونـي بـالـمـدامـع
شـوقـاً إلـى ظـبـي الـصَّـر | يـم وخـشـف هـاتـيـك الـمـراتـع
ظـبـي لـه ثَـمَـر الـحـشـا | مـرعـى وآمـاقـي مـكـارع[1]
لله قـلـبـي كـم يـكـون | لـهـاجـرٍ عـنـي ومـانـع
مـا زال يـوهـمـنـي الـوفـا | وتـلـوحُ لـي مـنـه قـواطـع

وله:

ألا إنّ فـي ذا«الـدَّن» أهـلاً وجـيـرةً | إلـيـهـم فـؤادي الـمـسـتـهـام طـمـوحُ
أحـنُّ إلـيـهـم كـل مـا ذرّ شـارق | وأسـكـب دمـعـاً فـي الـثَّـرى وأنـوحُ
وأسـأل عـنـهـم كـل غـادٍ ورائـح | وإن رمـت كَـتْـمـاً فـالـدمـوع تـبـوحُ
أقـولُ وفـي الأحـشـا مـن الـبـعـد لـوعـةٌ | وفـي الـعـيـن مـن دَمْـعـي الـغـزيـر قـروحُ
إلـيـك إلٰـهـي أرفـع الـصّـوت بـالـشـكـا | وأنـت بـأسـبـاب الـلـقـاء سـمـوحُ

ولد أخيه ضياء الدين إسماعيل بن محمد بن إسحق[2]

تنازع عليه القماط والسَّرج عند ولادته، لما لاحت لكل منهما مخائلُ نجابته وسيادته. فالنجابة له حلّة، وبينه وبين السيادة أَتَمُّ خلّة. صَدْر في النجباء أجل، اقترن بتحقيق الطلب للعلوم كما اقترنت بتحقيق الطلب أجلّ، أسلس من العرفان مقاده. ورَفَع على علم فَضْله نار ذكائه الوقّادة، فأصبح الأبيّ له طائعاً، وأمسى ذكره الطيّب شائعاً، شاب تسابق إليه المجد ونبت عارضه، واخضرّ روض فضله بجميمه وبارضه[3]. لمع في أفق المَجَادة برقُه. ولاح في شَعَرِ شبابه الأسود من صبح نبله بينه وبين اللّدات[4] فرقُه. قفا من أبيه سننه، وأحيا في المعالي سُننه،

---

(١) المكارع: جمع مكرع الموضع الذي تكرع الدواب فيه الماء.
(٢) نشر العرف ١: ٣٩٤.
(٣) سبق شرحه في ج ١: ٢٨٩.
(٤) الأتراب.

وما أبين ذلك السَّنن، وأحسن تلك السُّنن، رمى الغرض من العُلا فأصاب، وأدّى زكاة محامده فقد ملك منها النّصاب[1]، منحه الله ما يباري به الصّدور ويناضل، وأفاء ظلّ علم عليه يحسده عليه أفاضل، ناظرٌ للعلم ودارس، عامر لكل رَبْع منه دارس، اقتنص منه شارداً. وورد نميراً بارداً، سحابته في أفق المعالي مطنَّبه، وخيل همّته في ميدان الفضائل مجنَّبة[2]. سبقت به إلى كلّ غاية، وجرت به وعليها من الافتخار راية، فعجز عنه المسابقِ طراداً. ولم يبلغ من إدراكه في شوطه مُرادا، فما خَطَّ عبارة، ولا جاراه في حَلَبة عِبَارة، فهو خِدْن همَّةٍ عليّة وقرين فضائل جليَّة. ونزيل رتب من ثراء المجد مليَّة، همع وَدْقُه، ونفثَ فيْ عقد السّحر شدقه، لم يزل بحراً يركب قاصده غارب غرابه. وبرًّا يَسْبح نزيله في نهره فما سرى بهِ في سرابه، رأيته في مقام أبيه الجَمَال[3]، وهو مع الحداثة في أبلغ رتبةٍ من الكمال، فما على فضلٍ حواه زيادة، لأنه ممَّن أدرك قَصَب السبق لمّا ركض جيادَه. وهو يُبَوِّءُ أباه رتبة إجلال، ويعظّمه تعظيماً لا يعدّ معه في شيء من الإخلال. يقوم حوله على قدمهِ، ويدركه بعد ذلك عظيم ندمه. لو أنّه قام على رأسه، وذلك يحقر ويقل، قيام الخيال في الماء الذي بأيدي النسيم قد صُقل، أداء لحق الأبُوّة، وحق التّعليم الذي رادف عليه حبّوة، فكم تقلَّب على أتمّ النعم في حِجْره، وكم أسفر له من الهداية طالع فجره، حتى ورث عرفانه منه في حياته. وسقى غروسه الباسقة متدفق مياته، نال منه ما لَمْ يَنَلْه ولد من والده، وتلقَّى من يمن إقباله عليه طارفَه مضموماً إلى تالده، فإذا هو بسعيه الحميد، يتمايل في حلل العرفان ويَمِيْد. قد أحرز ما أحرزه الكُملا. ونال مرجوّاً صالحاً وأملا، إن ناظر فغالب لا مغلوب، وإن حاجج فسالبٌ غير مسلوب، تربّع في ذرا الفضل واحتبى، وحبا مستمعي نفثاته من درر الفصاحة بما حَبَى، عن نفثات أسكر من المُدام.

(١) نصاب الزكاة: القدر المعتبر لوجوبها.
(٢) المجنّبة: الفرس تقاد إلى الحروب ولا تركب.
(٣) يعني محمد (جمال الدين).

وخطابٍ ألذُّ من اليسر بعد الإعدام.

وله إليَّ مكاتبات جمَّة التَّعداد، حلوة التِّكرار غير مسؤومة التِّرداد، كأنّها اللؤلؤ النسيق قد [افترّ][1]. والثغر من المليحة إذا غازلت بطرفٍ من طرف الشَّادن الربيب أفتر، مبنيَّة الأبيات ولكنها عن خلوص الودّ معربة، مميلة للأعطاف بسماعها فما (ألحان السَّواجع)[2] عندها إلاّ غير مطربه. أثبتها في كتابنا المسمّى: «رق المكاتبة وحرّ الألفاظ من المحاورة والمعاتبة» فله أدب به تفرّد، وجواهر نظم تَنافسه عليه الخُرَّد، لو وضع مكان الزهر لاستغنت به البروجُ، ولو تفتح بأكمام الزهر لزهت به المروجُ، تحبس الخمرة في دنانِها، إذا ادّعت نَشْوة كلماته عند دَوَرَانها، قبل أن يسلب تاج الحبب من فوق رأسها. ويتبدَّد درّه المنضد من صدر كاسها، كم هام اللبيب في بناتِ فكر له كرائم، وصار بأطماعه الأشعبيّه في منالهنّ كرائم[3]، وهَيْهات ما رامهنّ رائم إلاّ خاب مرامه. ولا حاول إدراك الغرض منهنّ إلاّ أخطأت سهامُه، فمن شعره المنتقى، ونظمه البديع في غُزلان النقا.

قوله:

فـؤاد فـي الـصّـبـابـة مـسـتـهـام	ودمـع مـثـل مـا انّـهـمـل الـغَـمَـامُ
وجـسـم قـد بـراه الـشـوق سـقـمـاً	وطـرف لـيـس يـعـرفـه الـمـنـامُ
وشـوق لـيـس يَـبْـرح فـي ازديـادٍ	ونـار فـي الـظـلـوع لـهـا اَضـطـرامُ
وقَـلْـب ذابَ مـن وَجْـد شـديـد	إذا نـاحـت عـلـى الأيـك الـحـمـامُ
تـنـوح عـلـى الـغُـصـون بـكـل رَوْضٍ	نـضـيـرٍ لـلـزّهـور بـه اَبـتـسـامُ
وتـبـدي عـنـده سـرَّ الـتَّـصـابـي	ودَمْـعـي فـي الـخـدود لـه انـسـجـامُ
وتـشـكـو الـبـعـد وهـي لـهـا جـنـاح	كـمـا يَـشْـكـو الـتّـبـاعـد مـسـتـهـامُ

---

(١) ساقط من (ش).

(٢) تورية بكتاب الصَّلاح الصَّفدي المسمى الحان السَّواجع بين المبادي والمراجع وهو مجموعة رسائل الصفدي إلى أصدقائه وقفت على عدة مخطوطات منه بمكتبات اليمن.

(٣) رائم: طالب.

وتزعم أنها في الوَجْد مثلي ... وليس بِقَلْبها أبداً غرامُ
نعم إن كنت مثلي أسعديني ... على ما بِي إذا جنَّ الظلامُ
ونشكو ما بِنَا من حرّ وجدٍ ... ونُغلن بالشكاية يا حمامُ
ونَقْتِسم الغرام ولَيْس عيباً ... علينا يا حمام ولا ملامُ
فمِنْك النوحُ والعبرات منّي ... فقد عَزّ التسلي والمَرامُ

وقوله:

هلموا بني العلياء إن كُنْتُمُ صَحْبي ... وعوا من حليف المجد نُصْحاً مع العتبِ
نصائح ذي رأي سديد مجرّب ... يدوم مدى الأيام في الصّحف والكُتُبِ
نصائح أمليها يكون بها الهُدَى ... إذا قلتم سَمْعاً لنصحك يا صحبي
نصائح تمحو الضّيم مِنّا بأسره ... كمَحْو بياض الصُّبح لليل والشُّهبِ
ألا عيشنا في ذا الزمان وأهله ... على الضّيم إلاّ مثل ما القبر في التربِ
إلامَ التغاضي والسُّكوت وإنّما ... يليقُ بمن يَخْشى من الموت في الحربِ
ألسنا أسود الحرب نحن فما لنا ... بِأَيْدي أعادينا نهان بلا ذنبِ
أما العزّ في أطراف رمحٍ مثقّف ... وفي الأعوجيّ النّهد والصّارم العضبِ
فقوموا بجدٍّ واجتهاد وهمَّة ... نُشِيد المعالي بالصّوارم والقضبِ
ونَبْني لنا في المجد بيتاً ومنزلاً ... ومرتبةً تعلو ارتفاعاً على القُضْبِ
ولا تشتروا حُبّ السلامة والبقا ... بِبَيْع المعالي تربحوا أفحش السبِّ

وقوله:

دعوني وذكر الغانيات الشوارد ... وكفّوا فما طَبْعِي لكم بمساعدِ
فإنّي وحقّ المجد لا أعرف الهوى ... ولا حام قلبي حول تلك المعاهدِ
وأنّيَ لا أصبو إلى الغيد إنّما ... أهيم واصبوا بالعلا لا الخرائدِ
فإنّي من قومٍ كرام أعزّة ... هم عضدي والله عند الشدائدِ
يرون طُلاب العز والموت دونه ... ألذُّ من النوم اللذيذ لساهِد

هو المجد لم أطلب سواه فإنّه أعزُّ اكتساب وادّخار لماجدِ
سأتبع آثاراً لجدي ووالدي وأجهد نَفْسي في اكتساب المحامدِ
وأجني ثمار المجد بالسّيف والقنا على رغم أعدائي ورغم حَواسدي
فما المرء إلا من ينال بِعَزْمه أعالي المعالي في الزّمان المعاندِ
وكم موقفٍ للحرب شاهدت هَوْله وكم لي في نَيْل العلا من مَشاهدِ
ولله يوم ما أشد قتاله بِفَضْلي فيه القرن أعدل شاهدِ
تظلّلنا فيه سحائب عِثْير همت بدماء لا بماء الموارد

وقوله:

لا وخمر في الشفات أسْكرت بالرشفاتِ
ولآلٍ من ثغور في عَقيق من شِفاتِ
وغصونٍ من عقود لنهود مُثْمراتِ
ورياض من خدود زاهيات ناعماتِ
وجَمَال يوسفي قَصَرت عنه صفاتِي
وعيون قد رَمَتْني بِسِهام قاتلاتِ
يا لها من لَحَظَاتِ فاترات فاتناتِ
وزمان يا سقاه الله سُحبًا هاطلاتِ
زمن الأنس عليه قد توالت حسراتي
ووصالٍ قد حلا لي في ليال سالفاتِ
في مغانٍ عاليات مع غوانٍ غالياتِ
ما رأيت المدح يحلو في سوى زاكي الصِّفاتِ
الضّيا ابن ضياء الدين رب المكرماتِ
من رقا في المجد بَيْتاً فوق أعلا النيّراتِ
حاتمي الجُود حَقًّا علويّ السَّطواتِ
أحنفيّ الحلم بحر العلم فيّاض الهبات

يـا ضـيـاء الـديـن خُـذهـا   كَـلـمـاتٌ طَـيّـبـاتِ
حـسـنـت بـالـمَـدْح حـتـى   حُـسِـبَـت مـن حـسـنـاتـي
وإذا أبـصـرت عـيـبـاً   فـإقِـلْـنِـي عـثـراتِـي
وتـفـضّـل بـجـوابٍ   رائـقٍ عـن كـلـمـاتِـي
مـن نـظـام لـك قـدحـاً   كـالـثّـغـور الـبـاسـمـاتِ
وابـق فـي الـخَـيْـر ودم فـي   الـنـعـيـم الـمـتّـصـلاتِ

وقوله في قصيدةٍ:

وافت تـهـادى فـي حـلاهـا والـحـلـل   مِـسْـكـيَّـة الأنـفـاس فـاتـرة الـمُـقـل
كـحـلاء غـانـيـة يـروقـك حـسـنـهـا   كالبَدْر بل كالشمس حُسْناً بل أجل
هـجـرت زمـانـاً والـفـؤاد مـحـلّـهـا   فشهدت منها العطف بعد على المحل
جـمـعـت أفـانـيـن الـجـمـال فـلـم يـزل   وصـفـي لـهـا بـالـمـفـردات وبـالـجـمـل

وقوله:

عـلام مـطـوّق روض الـحِـمـى   تـنـوح وتـبـدي جـهـاراً هـواكـا
وتـشـكـو الـفـراق وفـي كـل حـيـن   تـعـانـق فـي الـدّوح غـصـنـاً أراكـا

وقوله:

ومـجـلـس لـلـهـو فـي روضـةٍ   قـد نَـصَـبَ الـدوح عـلـيـنـا خـيـام
لـم نـخـش نـمـامـاً بـسـرّ الـهـوى   وهـو لـديـنـا فـي زهـور الـمـقـام

وقوله:

لـلّـه مُـسْـنـد زانـه تَـضْـريـبـه   فـغـدا لأعـيـن نـاظـريـه مـعـجّـبـاً
قـد طـعّـنـت إبـر الـخـيـوط حـواشـيـاً   مـنـه فـجـاء مـطـعّـنـاً ومـضـرّبـا

كتبت إليه مجيباً عليه، وقد كتب إليّ وأرسل طيّ كتابه بشيء من نظمه ونظم أبيه المولى محمّد بن إسحق دام علاه. وهو إذ ذاك مسجون بقصر مدينة صنعاء حُميت عن الطوارق، ونظم عمَّيه الحسن وعبد الله، حرساً عن الأسوأ بهذا المنثور، وهو ما لفظه:

سلامٌ ألطف منظراً من ورد الخدود، وألذّمن من الوصل بعد القطيعة والصدود، وأغلى قيمة من اللآلي، وأطيب رائحة من مسك الغوالي، وأبهج من الزُّهر في البروج، وأندى من الزَّهر الممطور في المروج.

يرد إلى مقام مولاي الذي له سوانح أدبٍ كالمها، يحدث الغرام بها والهيام بمحاسنها في القلوب كَلُمها، فله رمح قلمٍ من سبج المداد سنانه. وروض طرس الفوائد ثمره والرَّقم ثنانه، نسل الملوك الّذين هم فرسان الجياد ذات السَّنابك، وبدور الأسرة الّذين تقول الشمس لكل بدرٍ منهم: ألسنابك، بدر العلا الذي ماله محاق. ضياء الدين إسماعيل بن محمد بن إسحق، لا زال جليس طروسه، مستجلياً من العليا وَجْه عروسه، جانياً من دوحه المظلّ حلو غروسه، متناولاً من غصون النعم أثمارها، محسناً في ليالي شبابه المسوَدّ أسمارها، مجتلياً في أفلاك السعادة أقمارها، ما شقّ البَدْر بحر الغسق، وأرتنا النّجوم بانتظامها عِطْف النَّسق، وَنَشرَ الروض مطرفُه الرقيق. وأهدى له الصّبح كافور الطَّلّ في حِقاق الشَّقيق، وألمت به الصَّبا إلماماً، فَشَقَّت من عَذَبِ الأشجار جيوباً وأكماماً.

هذا وانه ورد عليّ من مقامه، ما نَعَشَ النسيم فبري من سقامِه، وهو ما لوالده من النَّظم الذي جناته ألفاف، المتّسق اتّساق الثغر اللؤلؤي عن جوهره الشَّفاف، خمرة أدبٍ فضّ عنها ختام الدّن، فصُبّت في كؤوس بلّورية، وسرت نشوتها في البدن. فأكرم بما قاله ذلك الهمام، الذي هو في جميع الفنون على الإطلاق إمام، فهو في المنطق نتيجة فكرٍ وإن لم يؤجد الأخسّ في مقدمتي أبيه.

وهو في النحو المتضوّع عرف تفاحِه فطالما توجع منه سيبويه[1] بنصف اسمه وهو وِيْه، ذو المَدّ الذي ما شانه القَصْر فإن شئت الاستخدام، قلت: وإن قُصِرَ فيه، وإن أردت الجناس. قلت: وإن قُصِرَ في القَصْر، وأديب العصر، فإن لاحظت الاستخدام. قلت: الذي سكرت بآدابِهِ خمرته، وإن رمت الجناس ورعاية

(١) إشارة إلى ما ذكره مترجمو سيبويه أن معناه بالفارسية رائحة التفاح.

السجع. قلت: خمرة العصر، وَرَدَ عليَّ عقد ذاك النظم فأضيم به اللؤلؤ وأضير، وحيّاني نَضِير روضهِ بزهر الإنسجام، فبادرت بالاستخدام لمُراعاة النظير. روض التزمت أغصانه لا بالخمس بل بالعشر، وهِمْت بالالتفات إليه لمّا لفَّ أنواع الزُّهور فطاب نشراً، فما أطيب ذلك اللَّف والنَّشر[١]، فللَّه درّ قريحةٍ ألَّفت منه بين ذهب ألفاظٍ ودرّ معاني. وتركت كل أديبٍ لمحاولةِ مَثال ما جاء بهِ أيّ عانى، هيهات، لقد تقرّحت دون ما جاء به القرائح، وأيس الأدباء عن إدراكه فلم ألق غادياً في سبيل إدراكه ولم ألق رائح. وكذلك نَظْم أخويه المولى الشرف، والمولى الفخر. لقد أهديا ما يُعد عنده الجوهر قد نحت من الصَّخر. وكذلك نَظْمك أيها المولى الضياء، وهو ختام ذلك الشَّراب الدائر، وشِعْرك أيها المالك فإنه في الأقطار المثل السائر، فما رأيت إلا كلّ نفيس غال، ولا سمعت من تلك المعاني إلاّ استطراد أسلوبٍ في إيداعه للحسود إيغال.

وما زلت أداوي به فؤادي لمّا لم يملَّه؛ لأنه عنده غاية الأمل. وأعلن بهِ للناس وأقول فيما لا يستحيل بالانعكاس[٢] «لم أداوِ فؤاداً ملّ». فأوتار المسرة لديّ في رنين، لما زُفّت إلى تلك العرائس. وقالت لسان السعادة: بالرفاء والبنين.

فللَّه درّكم من سادةٍ ليس لفضلكم من جاحد. ولله درّكم من قادة أتتهم الفضائل منقادة. ولله دركم من أجلاء لهم فطن ملتهبة وأذهان وقّادة. يفتقر نظمكم إلى شرح الأربعة[٣]، وتخرب بمعموره أبيات من عَمَرَ من الأدب مربعه. بعثت إليّ بالمدامة من ذلك النظم البديع. أستغفر الله فما نعتت المدامة بسوى المرارة والتَّصديع. ما عرفت ما ذا أقول فيه، وقد ظفرت منه بكل معنى أصطفيه، إن

(١) سبق شرحه في الجزء الأول: ٩٤.

(٢) ما لا يستحيل بالانعكاس عند أهل البديع سبق شرحه في الجزء الأول: ٣٨٧.

(٣) لم أقف عليه ولعله يعني شراح المتنبي الأربعة: الواحدي والمعري وابن جني والعكبري وانظر الأربعة في القناع المرني: ٣٣.

قلت: هو الدُّر، فالدُّر منشأه بين حمأة وطين. وهذا نشأ في صدور نقيّة من أولاد الأنزع البطين.

وإن قلتُ: هو الذهب، فالذهب لا يصلح إلا باللّهب. وهذا سُبك في جوانح بالفوائد العلميّة مثلوجة، وذاك لا رائحة له. وهذا له نسماتٌ بالعرف الطّيب معلوجَه.

وإن قلت: هو الأنجم، فهي تغرب وتهوى. وهذا لم يغرب من فلك الطروس ولم يهوِ كما تحبّ المهج وتهوى.

وإن قلت: هو الزَّهر المطلول فهذا لم يذوِ، وذاك إذا لم تزره الغمامة يذوي، فما هو إلاّ شيء لا كهذه الأشيا. وما هو إلاّ نفيس قد حلا الكون ومدّ عليه من حلله وشياً، فقد أثبتناه لكم الجميع في تراجم. يصير كلّ حاسدٍ عند إفصاحها بما لكم من الفضل أيّ واجم. ونشرنا من مداده كساءً كالليل، وقد طرّزت الأنجم منه دامساً. وضممنا إليه ما لجدّكم إسحاق من الملح، فكان لكم ياأهل الكساء خامساً. وزدنا مؤلّفنا بما لكم الجميع كمالاً، وأودعنا ذلك العقد في عنق الحسناء فزادت به جَمَالاً، حتى نافستها عليه الحسان الخرائد، ورمت لديها من أجله بالعصائب والعقود والقلائد. والتمسنه منها هبةً أو عارية، فضنّت به عليها، وقالت: لا والله ولو عوّضت عنه بقرطي ماريه[1]، وهي الآن تبرز بِه في أبهى زينة، وبهاء وبَهَجْ. وتنصّ عنه جيدها الذي ما له قياسٌ نصّاً يهيّج بالغرام وهج المُهج.

نعم وما تراخى الجواب لجهل حق، وتثبّط لكون بدر ودّي قد انمحق. لا والله أنا ذاك الذي يرى لكم التقديم في المزيّة، ويزيّن بحلل محبَّتكم المفوفة رواه وزِيّه، فرتبتكم عندي رتبة الفاعل لا رتبة المفعول. ومقامكم في منتهى الأوج[2]

---

(١) سبق ذكره.

(٢) الأوج: معرب أوك بالفارسية بمعنى العلو وعند أهل الفلك يطلق على نقطة مشتركة بين ملتقى السطحين المحدبين (محيط المحيط: ٢١).

كما علم الله مجعول، إلا أنكم بعثتم لي من تلك الآداب ما ألهاني، فما أفقت إلاّ الآن، وقد عطَّلت كأسه الملآن، ولمّا صحوتُ من الخُمار، حسرت عن بنت فكري الخِمار.

وقلت لها: هل لك بالزَّفاف إلى محلّ، قد زاحم بمناكب منازله في السُّمو زحل، وخدم صاحبه منه عبدٌ أسود[1]، وزالت بمجاورته نحاسته فجاءته السَّعادة في أسلس مِقْود، فقالت: نعم. ذلك هو الجود الأعم، ثم توجَّهت في حفظ الله توجّه العروس المزفوفة، وأعطافها في أردية الدِّيباج الناعم ملفُوفَه، وقد غنَّت لها الحُلا إلاّ خلخالها فصمت، فتراها وصلت حبل ودّها بحبل ودّك، ولحبل غيرك فَصَمَت. فأنزلها منك على مقتضى أخلاقك بمحلّ الإكرام. وارعها رعاك الله بمروج السَّوانح ومراتع الآرام. وحقِّق قولي بإصداقه في توفير الصَّداق، ورشّ مواطىء أقدامها بماء البشر منك؛ فإنه مغداق، فما طمعها في مال تستفيده، وإنما جُلّ قَصْدها في خطاب تَسْتجيده؛ فإن رأيت فيها بعض صباحة، واطلع ليل شعرها، وهو المداد من جبينها صَباحَه، ففيها مسحة من آدابكم، وعليها رونق من نَظْمكم الذي تَرْصيف درّه من دابكم. غاضت في خاطري ففاضت، وساست قريحتي جموحها في ميدانه وراضت، وساومت لساني شعركم في درّه النفيس وراضت.

إلا أنكم جئتم بتلك البلاغة نظماً وهو أصعب وأنا جئت بها نثراً وهو أسهل، فلا يجهدن خاطر فيه ولا يتعب. فاستنشق من هذا المنثور عرفه. وقد تجد بينه نرجساً يفتح لاستجلاء طلعتك الضيائية طرفَه، وأسأل الله أن يعجّل لمولاي الجمال بالفرج، ويرفع عنه أسباب الضيق والحرج، ويطلق سهمه الذي أمدّ بالمد من كنانة القَضْر، ويخلص من منازل الحصر شخصه الذي جَلَّت فضائله عن الحصر. وكذا سائر إخوته وسادتي، الذين تثبت بهم في الأدب وسادتي، ويجمع بيننا وبينك وبينهم، ويريح إذ يزيح إن شاء الله تعالى بعدهم وبينهم.

---

(١) سبق شرحه في الجزء الأول: ٤٣ ويعني زحل وقد اشتهر عند أهل التنجيم بأنه نجم نحس.

هذا والسلام عليكم الجميع، ما أصغى المحبّ لأخباركم بإذن سميع، فهزَّ عِطْفه الخبر السَّار، وعاد من الخبر المحزن بخاطرٍ ذي انكسار، فلم يفك قلبه من إسار غمّه، حتى يفك لهم إن شاء الله تعالى ما ضاق من الإسار.

أخوه وابن عمّه القاسم بن الحسين بن إسحق[1]

عَلَمُ عِلْمٍ نُصب ورفع، وبرهان على وجود الأفاضل في العصر ما دُفِع، وَوِتْرٌ في رتب السادة ما شفع. قارٍ للعلم ودارس، عامر لكل ربع من الأدب عافٍ ودارس. روض فاح عَرَاره، وبدر ما عراه سَرَارُه، وبحر لم يدرك قَرَاره، ذو بئر من العلوم شطون[2]. تتظلع من مائه العذب البطون، يتناول بالأرشية من الأقلام، ويصبّ بدلاء العبارة على العلماء الأعلام، فيلذّ لهم بَرْده، ويروق من دُر حَبَابِه سَرْده، ما أنفح نَسَمَات زهرة، وما أشدّ غمور نهره، تفوح هذه في الآفاق، وتخرّ هذه عند الاندفاق، فيطيب الجوّ عرفًا، ويحلو الشراب البارد غَرفا. الفصاحة له إلى أقصى ما يريد مناله موصِلَه، والبلاغة قد وصلته من الإجادة فيها بأتمّ صلة، فكلما حبَّر من ألفاظه الفاصلة، فما هو إلا من البلاغة قد ألفى صلة.

لم يعتمّ اللَّيْل من النّجوم الزَّواهر، بمثل ما اعتَّم مداده عن ألفاظه البواهر، روض أدبٍ وريف. ينشر حلل نباتٍ وريف. تختال فيه النسيم عجباً إذا مرَّت. وقد أرسلت خلفها أذيال ردائها وجرَّت، وهي سكرانة من شراب نهورِه، مائلة الأعطاف من نشر زهوره، لا من فض الدنّ المختوم، عن خموره، يميل بها السكر يميناً وشمالاً ويساراً، وتظل تتعثَّر بأذيال الورق تعثُّر السكارى، فيجعِّد النهر في وجهها ويقطِّب، ويعالجها برش مائه على جسدها السقيم علاج حكمةٍ وطبْ.

وله بنات فكر فواتن حور، لا يخشى عليهن من الدّرر النسيقة فوات نحور، بل قد ظفرت أعناقهنَّ من العقود بكلّ يتيمة. ورُصّفت عليهن من اللآلىء في

---

(١) نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ٢: ٣٢٢.

(٢) بئر شطون: بعيدة القعر.

مقابلهن ثغورهن القويمة. فالكلّ من هذه وهذه جواهر. والجميع منهن على الحقيقة نفائس بواهر، لا يدري لاثمهن ما[١] يلثم، أدرراً في الأعناق أم فرائد في المَبْسم؟. وله معتّق نظم ما أنشأه لشاربه وما أسكره، وحلو شعرٍ لم يذق بعده اللبيب ما عقده النباتي[٢] وابن سكّرة[٣]، فما زهور الرُّبى، جمّشتها[٤] نسيم الصبَّا، وما دُرر البحور، رصّفتها الغواني في النحور. كم غادة ناهدة هي له بالفضل شاهدة، برزت من مِداده في بَراقع سود، تسطوا بألباب الرجال لا ما تسطوه الأسُود.

ولمّا استوطن حصن كوكبان، وزَهَرَ نَجْمه في سماء أكنافه واستبان، وتفتَّح فيه أدبه البديع، تفتح الورد في أيَّام الربيع، وظهر فيه ظهور النرجس في الشتاء. وقد غازلته عيون الغيد مفتخراً عليها بما أتى، وشمخ ذلك الجبل، بسجاياه الكريمة ونبل، ولم يزل متنزهاً في مسارحه، مرسلاً على أوابد الفوائد منقضّ جوارحه، لبث فيه مدة يسيرة وأياماً قلائل. وقد فصَّل الربيع لبطاحه من سندس الأوراق غلائل[٥]، طرّزها بالزهور، وسجّفها بالأطلس[٦] الأزرق من النّهور.

وكنت أنا إذ ذاك بمدينة صنعاء ومِصْرها. أحوسُ[٧] بمدِّ الأقدام حول قَصْرها، إلا أنه نقل إليّ من المحامد عنه ما أقام على فضله، فحكمت بسبقه أعدل شاهد، وزيّن بحلاه من أيامه أجمل ناهد، فاشتقت إليه شوق أديب إلى أديب. أنتظر وصوله انتظار القطر من السفح الجديب، قبل أن يجمعني وإيّاه سِلْك. ويقول لي الزّمان مشيراً إلى شمائله: هلا تَهْتم بتلك، وأنا مرتقب لرؤية وجهه السَّعيد، ارتقاب الأمّة للإسفار من هلال العيد: متطلّعاً لقدومه تطلّع الحديقة إلى الغيث

---

(١) في (س) ما يلثم.

(٢) (٣) سبق شرحه قبل قليل.

(٤) سبق شرحه في الجزء الأول: ٥٤٨.

(٥) سبق شرحه قبل قليل.

(٦) نسج من الحرير الرفيع.

(٧) أي يتخلَّل الديار.

الهامِع. وقد أخذ الشوق إليه من فؤادي بأزمَّة المجامع. وهامت لساني بمحاورته لما طرق من أخباره المسامع، فأسعدت الأيام وإسعادها قليل، وأذنت بالاجتماع ولم تدرِ أن فيه برء العَليل، ولم تتفطَّن أن في اللقاء إثلاج صدورٍ تنقع الغليل. فَأَقْدَمْتُه إلى صنعاء على رغم أنفها. وعلقت نفائسه من تلك المدينة بمحلّ قرطها وشنفها، وما ذاك إلا أنَّ أمرها في غاية الإشكال، لولوعها بَيْن النظراء من الأفاضل والأشكال، فاجتمعت به غير مَرَّة، وسمعت من كلماته حُلوةً غير مُرّة. جالسته في عدَّة مجالس، فما جالست إلا الرّوض. وساجلته فقالت ألفاظه، وقد أردتُ التفريق بينها وبين اللآليء: غوض. قطفت الورد من مغرسه بلا شوك، ولبست المطرف المطروز بلا حوك، وذقت من ذوقه ما هيَّج بقلبي نوازعَ شوقه إلى مبادرةِ مَجَالسه، ومطاردة مُجَلِّيه تحت فارسه، واجتنا فواكه الفوائد من مغارسه. فكم تفضّل علينا بدرّة وجَادَ لنا، بما نازعنا عليه مغاصّ الدُّر وجَادلَنا. ما ألفيت له في الشبَّان نظيراً، ولا لاقيت من مقامه إلاّ روضاً نضيراً. من طلب شَبَهَهُ طلب ما هو أعزّ من العنقا. ومن ورد غدير غيره فما ورد إلاّ رنقا[1]، مع اعترافٍ لذي الفضل وإنصاف. ووصف له بأكمل ما يكون من الأوصاف، غير منافسٍ مع أنّه أهل للمنافسة، ولا معافسٍ في الغمص لحقّ المبّرز في الفضل، وما أقبح في حقّة المعافسة[2]. ما نثَرَ أديب لديه درّ بيانه، إلا نظمها على الأجياد بِيَدِ استحسانه. ولا قَطَف له من حديقته زهوره، إلا أفاض عليها من إعجابه بماء نهوره، ولا أملى عليه قريضه، إلا نَشَر عليها من الثناء حلةً طويلة الأذيال عريضه، ولا أسمعه انسجامه، إلاّ أدار في مجلس الأنس جامه، يزهره ويتمايل طرباً، ويذوب تلهفاً وَحَرَبَا. حتى يصير الجزع درّاً، ويعيد العبد المملوك سيداً حراً، ثم ما زال قدمه بصنعاء مع رسوخه، مقيداً في مساجدها بين يدي شيوخه، عاكفاً على الطَّلب مكبّاً، هائماً بغواني الفوائد ولها محبّاً، ما طرقت سمعه فائدة إلاّ رَقَمَها، ورصفها في أسماط سطوره ونظمها، مع

(١) ماء مكدّر.

(٢) المعافسة: المعالجة في الصراع.

خطّ كسلاسل النُّظار، يتخاصم عليه من المليحة والمليح الكفّ والعذار. فهو نقشٌ لأكف رعبوبه[1]، وحروف لصحيفة سالفةٍ مكتوبة.

وشعره مما يَشْمخ في الرتبة ويعظم في القدر، يقل في حقّه أن يكتب بذهب الشمس على قرطاسٍ من لُجَين البدر. يغرق الفكر في بحر قرطاسه السويّ، فإذا هو بكل حَبْل من حِبَال أسطره يَلْتَوي. كم له من عقد منضود قد رصف! وكم صف في سطوره بنات فكره! فما جَهْل الأديب منهن قد رصفّ.

من ذلك **قوله**:

حبيبي ما هذا التَّجافي الذي أرى　　وتَرْويع قَلْبي بالذي أنا خائفُ
تناسيتَ عهداً بيننا أكَّد الهوى　　وصِدْق وداد لم تُشِبْهُ الزخارفُ
فبَدَّلت لقيانا بعاداً ووِدَّنا　　قلاً وبدا لي غير ما أنا عارفُ
وصَدَّقت أقوال الوشاة ورُغتني　　بهَجْرٍ جرت منه الدموع الذّوارفُ
وما برح الواشون حتى ارتموا بنا　　وحتى قلوب عن قلوب صوارفُ
فعد للذي بيني وبينك مُقْسماً　　عليك بما ضُمّت عليه المصاحفُ

وقوله[2]:

قسماً بمن لو خاله　　بدرُ الدَّيَاجي ما تجلّى
وهلال حسن ما رآه　　الطرف إلا وآستَهَلاَّ
وبما سقاني من حميّاً　　حبّه نَهْلاً وعلاَّ
وبما دعت أجفانه　　قلبي فدان لها وذَلاً
لا حِلْتُ عن حبِّي له　　ولو انّه لدمي آستَحَلاَّ
ولألقين بمهجتي　　في حبّه إمّا وإلاّ

وقوله: وكتب بها مجيباً على بعض إخوانه الأدباء الظرفاء، كَثَّر الله تعالى

---

(١) بيضاء حلوة ناعمة (سبق شرحه في ١ : ٣٤٣).

(٢) أوردها في نشر العرف ٢ : ٣٢٣.

عددهم، وفسح في الحياة مددهم، ووفّر في العلم والأدب مَدَدهم:

لِمْ أخذوا عن الغوير جانباً ... وأصبح الحادي بهم مجانباً
ولِمْ أسروا بينهم عن بائعٍ ... بحاضر السُّقم فؤاداً غائباً
ماذا على الحادي بهم لو أنّه ... أمَّ من الغور طريقاً لاحباً[1]
وما عليهم عندما تجمّلوا ... لو أصحبوا القلب المعنَّى قالبا
واستصحبوا وَهْماً يريهم جهرة ... أمراً يقيناً لا خيالاً كاذبا
يوري ويروى من دموع ولظى ... جوانح ركائباً وراكبا
ويحمل الأنضاء من زفيره ... حادٍ على احتمالها المتاعِبا
لو قرأوا ما كتبت عَيْني على ... صَفْحة خدّي لأقرّوا الكاتبا
لما رأوا مُحَرَّماً سلوّهم ... عليك يا قلب فصَبْراً واجبا
يا رحم الله وفيّاً في الهوى ... قضى أسى وما قضى مآربا
وفي سبيل الحب قلب ظنَّ من ... أورده خوض المنايا صاحبا
لمّا دعا داعي النَّوى سِرّاً بهم ... أضحى له من قبلهم مجاوبا
وتلك من عادات قلبي في الهوى ... يفهم خافٍ ويلبّي ناعبا

منها في المدح:

من أذلل الأسد سطا وأخجـ ... ـل الشمس علاً وأبخل السحائبا
وفاق في عِلْم ونَظْم من رأى ... أسلاكَه يَختقر الكواكبا
قد كاتب العبد بُدرٌ فانثنى ... من ماله يقاضِيَ المكاتبا
أحمد في الاسم وفي القول وفي ... الفعل فقل قد جمع المناقِبا
ولا محال بعد ذا لمادح ... لذا أرى اختصار مدحي صائبا

وقوله وكتب به مجيباً على ابن عمّه ضياء الدين إسماعيل بن محمد بن إسحق متّع الله تعالى بآدابه، وقد كتب إليه أبياتاً مصحوبةً بصحن شديد البياض،

---

(١) الطريق الواضح.

حسن الرونق فيه ريحان مضمَّخ بالطيب المتضوع، وأكثره من الريحان الأسود:

بعثت بريحان حوى كلّ طيب ولطف وحسن للعيون تبرَّجا
وأقبل في صَحْن حكى خدّ أغيد فلا عذر إن أبدى غذاراً مسبَّجا
وأصحبته رَوْضاً من النظم مؤنقاً فأصبح مرأى الغصن في الروض أبهجا
فأهلاً بروضي حسن نظمٍ وأسطر وروض غصونٍ بالغوالي مضرّجا
أتتنا بليلات الذوائب غبَّ ما سقاها رقيق النَّظْم غيثاً مثجّجا
نظام إذا ما الكفّ لامس طرسه رأيت لماء اللطف فيه تموّجا
يضلّ عقول الناسكين نسيبه ويفتح باباً للصَّبابة مرتجا
لقد هزّ ما أهديت عطف مسرتي ونبَّه لي داعي الغرام وهيَّجا
وفاح شميم المسك عند وروده فلم أدرِ من أيّ الرياض تأرجا
وزال به همُّ الشجيّ وكَرْبِهِ وقال لعينيه انظرا وتفرّجا

وقوله وكتب به أيضاً إليه في صدر جوابٍ عليه منثور، وسحر من البلاغة مأثور:

كتابك أحْلى في فؤادي من المنى وقد ضمنت في نَيْلها راية الظفَر
وألطف من مرّ النسيم عشيةً تحل لِثَام اللَّيل عن لَعَس السَّحَر
وأبهى من الدّر اليتيم منظماً وأبهج في عيني من الشمس والقمر
وأحسن من خدٍّ أسيل معذّر ومن زهر روض بلّه مدمع المَطَرْ
وأعذب في أذنيَّ من صوت من غدا به القلب مشغوفاً ومن نغمة الوتر
وأشهى إلى كلّ الجوارح من لقاً وضم لمعسول المراشف ذي حور
وأعظم في قلبي سروراً ونشوة من الماء ممزوجاً به صافي السَّكر
وليس كتاب ذاك بل هو جَنَّة معانيه روضات وألفاظه نَهَرْ
تجمَّع فيه كل حسن مفرق وأبرز من غرّ الفضائل ما بهر
نظام عليه يحسد السَّمع ناظرٌ وخطّ عليه يحسد المَسْمع النَّظر

ويعجبني من قصيدةٍ كتبها إلى بعض إخوته الظرفاء، ممَّن رقا في قصور المحامد مقاصير وغرفا، يستدعيه إلى متنزّه عجيب، ومجمع كلّ ماجد حلاحل كريم نجيب. يبدأ بذكره البادي ويختم به الخاتم. وذلك في الروضة[1] التي بخلت على سائر الرياض بأثمارها مع أنّها تعزى إلى حاتم[2]، متنزّه تَنَمْنَم عذار نباته. وانتبه طرف نرجسه من سُبَاتِه، ويستطرد لغزاً في سنانير[3]، وهو ما يصنع من شواء اللحوم ويودع التنانير. وذلك **قوله**:

واغتنم جود اللَّيالي إن ... بَدَّلتك الصّفو بالكَدرِ
وإذا ما ساعَفَتْك بما ... رُمْته كُنْ غير مُعْتذرِ
إنما إحسانها خُلَس ... مثل وقع الطّائر الحذرِ
وأرى ذا اليوم سامحنا ... بِنَعيم غير مُنْتظرِ
ضَمَّ شملي والسرور به ... تحت ظل الغَيْم والشَّجرِ
بين صَحْبِ كالبحور فلا ... تَنْكرنَّ اللفظ بالدررِ
من إمام عالمٍ فطن ... وهمام ماجد خَطَرِ
خفَّفت أعلام نخوته ... مُرْقِصات الشّعر والفِقَر
وحديث من حلاوته ... كاد يُلْهي راقم الزُّبرِ
وَسْط روض مغدق أنف ... مؤنق مستملح نضرِ
ضاحك للأنس مبتسم ... عن ثغور الزَّهر والنَّهر
قد أدار النّهر منطقه ... رصّعت من يانع الزَّهرِ
والشتا بالتّبر مَوَّه من ... دوحه أوراقها الخضرِ
فغدونا من ظلالهما ... ونجوم الزّهر في سحرِ

---

(١) سبق ذكرها في الجزء الأول ٩٣ وص: ٣٧٦.

(٢) يعني حاتم بن أحمد بن عمران الهمداني اليامي الذي تنسب إليه الروضة، وتورية بحاتم الطائي المشهور بالكرم.

(٣) جمع سنَّارة: وهو الحديد الذي يشك فيه اللحم ويوضع على التنور كما أشار المؤلف.

فَـأجْـل عـنَّـا لـيـل ذلـك مـن   وَجْـهـك الـوضّـاح بـالـقَـمَـر

وقال:

لـقـد وهـمـوا آثـار عـض بـخـدّه   ومـا هـي إلاّ لـو رأى الـحـق واهـمُـه
تـجـعّـد مـاء الـحـسـن فـي وَجَـنَـاتـهِ   نـسـائـم أنـفـاسـي مـتـى أنـا لاثـمُـه

وقال:

أوسـعـت خـدّ الـحِـبِّ لـيـلـة زارنـي   لَـثـمـاً غـدت آثـاره فـي صَـحْـنـهِ
يـامـا أمـيـلـح مـا صَـنَـعْـت فـإنّـه   فـاق الـمـلاحُ بـنـقـش خـاتـم حـسـنـهِ

وقال:

لـمّـا بـكـى الـمَـخـبـوب مـن عـارضٍ   لاحَ عـلـى خـدٌّ لـه دنّـسـه
قـلـتُ غـسـلـت الـحـسـن عـن وجـهـه   يـا عـمـره بـالـمـاء والـمـكـنـسـة

وقال:

وقـالـوا: نـرى حـبّ الـشـبـاب وقـد بـدا   عـلـى خـدّ مـن تـهـوى فـهـل أنـت قـاطـعُـه
فـقـلـت: وهَـمْـتـم إنـمـا مـاء حـسـنـه   وقـد خـاضـه لـحـظـي تـبـدَّت فـواقـعـه

وقال:

قـالـوا لـنـا: لانـت خـلائـقـه   بـعـذاره وأبـاح مـا مَـنَـعَـا
قـلـنـا: لـقـد يـنـعـت مـحـاسـنـه   وكـذاك يـسـهـل قـطـف مـا يَـنَـعـا

وقال:

تـلا فـجـلّـى عـلـى أقـرانـه وجـلا   هـمٌّ الـشـجـيّ بـمـا أولاه مَـسْـمـعـه
فـيـا جـديـد فـؤادي لِـن لـنـغـمـتـه   ويـا جِـبَـال وقـاري أوّبـي مـعـهُ

وقال في إيهام التأكيد:

أضـحـى بـخـط عـذاره ذا شـوكـةٍ   وبـه عـلـى مـلـك الـجـمـال ثـبـت ثـبـت
كـذبـوا الـذي قـالـوا سـيـوف لـحـاظـه   مـن بـعـد مـا رأوا الـعـذار نـبـت نـبـت

وقال:

وَرِثَـتْ عـيـون مـعـذّبـي ... فَـتْـك الـمـهـنّـد عـن كَـلالَـه[1]

ذات الـسـهـام لـهـا الـولاء ... فـدع الـتّـعـصـب عـنـك لالـه

وقال:

لـقـد كـمـلـت مـحـاسـن مـن هـويـنـا ... فـأخـجـل حـسـنـه بـدر الـتَّـمـامِ

ودبّ عـذاره فـي عـارضـيـهِ ... كـمـا دبَّ الـفِـرَنْـد عـلـى الـحـسـامِ

وقال:

مـاذا بـخـدّ مـعـذّبـي ... أثـر الـشـتـاء وفـرط بـرده

لـكـنَّـه لـمـا دنـا ... مـن بـعـد جـفـوتـه وصـدّهِ

قـبّـلـتـه فـتـصـدّأت ... مـن زفـرتـي مِـرآة خـدّهِ

وقال:

إن قـيـل نـعـسـان الـجـفـون بـخـدّه ... أثـر الـشـتـاء فـذاك قـول مـفـتـرى

بـل تـلـك عـيـنـاه تـنـاثـر كـحـلـهـا ... فـطـفـى عـلـى مـاء الـخـدود كـمـا تـرى

وقال:

لا تـركـنـنَّ إلـى مـقـالـة واصـفٍ ... فـالـوصـف مـغـلـطـة الـصـدوق الـخـيّـرِ

ودلـيـل ذا الـمـرآة أصـدق واصـفٍ ... أبـداً وتـكـذب عـنـد وصـف الـنـيّـرِ

كتب لا زالت أيامه في جبهة الدّهر غرة، ولا برح لإنسان عين الدّهر قرّة، على هذا المقطوع الموصول بالمحاسن فمن اللازم حفظه. ما حرره قلمه الشَّريف بعد إيراده فيما بعَث إليّ من نظمه ما لفظه: وذلك لأنَّ المرآة إذا قوبل بها نيرٌ يمكن النظر إليه كالهلال والقمر والكوكب الكبير، والمصباح رأى ذلك النيّر فيها اثنين أو ثلاثة. وقد يبلغ إلى أربعة، وذلك حسب حسن جوهر المرآة وصفاها، فإن المرآة الحسنة قد ينطبع فيها للنّير أربع صور، وتتفاوت أيضاً تلك الصورة في

---

(١) الكلالة والسهام والتّعصيب من عبارات علماء الفرائض.

الصِّغر والكبر، وهو عجيب. ولم أرَ من سبقني إلى هذا المعنى، والله أعلم. انتهى كلامه بلفظه.

وكتب من إنشائه ما يروّح الأرواح، وهي رسالة من المنثور الذي فاح، إلى أخيه الضياء. هطل على روضه الحياء، وقد أهدي له في شهر رمضان حبوب فوفلٍ[١] مصطنع، يمرّ عند طعمه ما تدلى من فواكه الأثمار وينع. وهي في العرف ما يجمع من الدّار صيني وغيره من الأفاوية مطيباً بالمسك والعنبر، ويُعقد على النار بالسكّر، ويجعل حبوباً، وأكثر ما يستعمل في شهر رمضان، لتطييب خلوف الصائم.

والرسالة اللطيفة هي قوله: يقبّل أعتاب المقام الرفيع، ويخدم أبواب الجناب المنيع، دامت سعوده وعلت بنوده، وعزّت جنوده، وازدحمت وفوده. في نعمة مفترّة المباسم متجددة المواسم، بأردية يضم شملها برد الاستجابة، ويفتح لها أبواب القبول صدق الإنابة. سيّما في خواتم الشهر الكريم، وأوقات التجلّي من هذا الأوان الفخيم. وينهى فرط رغبة شقيقه، وشدّة محبة صديقه، في أن تشمله دعواتُ الحضرة الشريفة. وتَلْمحه بركات الذِّكر له في المواقف المنيفة، حتى توصل إلى تَحْصيل مَقْصده بأسباب لطيفة، فبعث بفصوص هذه الخواتم، ودنانير ابتياع اللذّات في هذه المواسم. دنانير ضربتها بنان الكواعب، ورَسَمْتها برسم سلطان المسرّة خطوط الرواحب[٢]. تلوح عليها للأنس تباشير، وتتهلل للناظر من وجوهها تلك الأسارير. حبوب فوفلٍ يروق وصفها، ويشوق عند الاجتلاء أثمرت بها شجر النعم. واقتطفتها أكفُّ الكرم، لا بل جواهر جَلَتْها يد التركيب، بعد استخراجها من مَعْدِنَيْ الحلاوة والطّيب. أجزاؤها العود والعنبر، وخالص المسك الأذفر، وسكر كقطع التبر المسبوك، أو فصوص تيجان الملوك. قد باشرتها يد

---

(١) الفوفل: ثمر نبات يعرف في الهند، وهو هنا له صنعة أخرى.

(٢) الرواحب: مفاصل أصول الأصابع.

اللطافة فحسن علاجها[1]، وقدّرت أجزاء تركيبها فاعتدل مزاجُها، وبرزت في شكل عجيب، وزيّ في مقام الاختراع غريب.

كانت لذّة لبعض الحواس فعادت للخمس، وإن راح بديع مرآها يجلّها عن اللّمس، كأنما هي أقراط التبر. أو مخاتم قوارير العطر، أو عشارات[2] المصاحف، أو زهرات نقوش المطارف، أو دَرَق العقيان، أو أوساط زهور الأقحوان، أو سرر الخرائد، أو أطراف الكعوب النواهد، أو براجم بنان الملاح، أو خواتم حُسْن في الخدود الصباح. لا بل هي خيلان[3] خدّ السرور، ونقط بيكار[4] دوائر الحبور، ودواء داء الغموم. ودرياق لَسْع حيّات الهموم، وعنصر الطرب والأفراح، المتمسكة بأذيال مشابهته الرّاح.

فلولا حكتها أشكال الفواقع، ما وقعت من النشوة في تلك المواقع، ترفّعت عن عدّها في المفرحات، وتنزّهت عن عدّها في دستور مع تلك النزّهات. فما تشرّف بتصوّرها ذهن الرئيس[5]، ولا صدّق بوجود مثل هذا الجوهر النفيس، لطفت فكأنها منجمد النَّسيم العليل. قد زرّت عليه برود قُدَّت من ثوب الأصيل، شهية عطرة، حُلْوة نظرة، لطيفة تذوب على اللّهوات، ذكيّة تعرف مواقع الشهوات، يلوح بِشْرها، ويفوح نَشْرها. شائقة الطرف، عابقة العرف، لا تُزوى أحاديث الطيب إلاّ عنها. ولا تهوى أنفاس الحبيب إلا لقربها منها. يطوي منشورها كل مكان، ويغني رسولها عن الاستئذان. فلجمعها المحاسن حازت المدح بالاستحقاق، ولكونها حبّات قلوب تضمنتها صدور الأحقاق[6]، فتلقّها من القبول

---

(١) في (ب) حلاجها.

(٢) العشارات عند أهل اليمن هي الورقة التي توضع على المصحف والكتاب كعلامة يفهم منها انتهاء القراءة.

(٣) جمع خال وهو النقطة السوداء على الخدّ (معروف).

(٤) ويقال لها البركار آلة ذات ساقين يرسم بها الدوائر واللفظه فارسية.

(٥) يعني ابن سينا.

(٦) جمع حقة سبق ذكرها قبل قليل.

بموكب الشوق، واعرض نفيس جواهرها على محكّ الذوق، لتعلم أن الإطناب في وصفها إيجاز، وأن كل حقيقة للحسن مستعملة فيما سواها مجاز.

وسلام على شريف مقامك يُحْكيه لطفها، ويفوح منه في كلّ حين عَرْفها ورحمةُ الله تعالى.

ولما أرسل إليّ بهذه الرسالة التي هي في غاية اللطافة، وَمَنَّ عليّ بهذه النَّفَثَات التي أفرغها في قالب الظرافة، كتبت إليه في الجناس، **قولي**:

عَلَم الهدى المَرْفوع قال رسالةً ... كالدُّر تَصْحبها حُبوب الفَوْفلِ
ولذاك إذ ألفى الأفاضل سمطها ... نادى بصدق القول ما ألفوا فَلِي

ويعجبني من نفيس منثوره، وسجعه الذي يعدّ في الأدب من خير أموره.

قوله:

كنت في روضة حاتم[١]، والزَّمن إليّ عن المسرّة باسم، فخرجت في بعض الأيام في إخوان لي من أولاد الإمام[٢]، إلى بستان تمَّت محاسنه، وغبطه ناظره وساكنه. قد مَاسَتْ قدوده، وخَجل وَرْده من عيون نرجسه فاحمرّت خدوده، وَذَهَّب الشتاء خضر أوراقه فاصفرّت بروده، وخاف سهام الغمام، فستر أرجاءه بالنَّمام، والنَّبت قد اخضر شاربه وعارضه، وَطَرْف النسيم قد ركضه في ميدان الأزهار رائضه، والنَّهر يطرّز أرضه، ويمسح بِذراعه طوله وعرضه، فاشتقنا إلى شقيق الأرواح المزري حلو حديثه بمعتَّق الرّاح.

المولى الحسين بن الحسن بن الإمام القاسم[٣]

(من رداع)[٤]

سحابٌ مجلجلٌ وغيثٌ جلجال[٥]، وسيّد ألبس حليّ فضله غادة الزمن

---

(١) هي الروضة ضاحية بصنعاء سبق ذكرها.

(٢) يعني إمام اليمن الأسرة الحاكمة في ذلك الوقت.

(٣) نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ١: ٥٤٦.

(٤) بلد باليمن سبق شرحه في الجزء الأول: ٣٣٠.

(٥) الجلجال: الرعد المطبق بالمطر.

الأسوار والأحجال، ولي أقطار يافع[(١)]، وهو غلامٌ يافع، فسكن منازل الزهراء[(٢)] وأجرى من جُوده خلالها نهراً. ورفع في البيضاء[(٣)] رايته البيضاء، وفاض سلسال نوالِه في ساحاتها فيضاً، وزهت به رداع، وأصبحت حَرَماً تجبى إليه ثمرات المتاع، صَدَّرته الإيام فأحسنت، وعبرت لنا بوجوده فامتنَّت، فأقسم بما شمخ من [أمره][(٤)] وقدره، وبما سما من مجده وفخره، أنّه لَمِنْ الأمراء الأعيان. والملوك الذي ارتقص بجودهم عِطْف السَّمْهرية[(٥)] اللّدان.

قرأ ذوو العلا في مجموع الأيام سَطْره، وأمَّ بنو الحاجات حرمه فنالوا الرفد كله لمّا ولوا وجوههم شَطْره، مع شجاعةٍ ودهاء، يستنزل من الفلك غامض السُّهى، وحُسْن تدبير وتَصْريف، وصِنْعه تنكير وتعريف ورأي أسدّ، يَفْترس به رُبَّ أسد. يشتت الكتائب ويبدُّدها، ويرسل السِّهام النافذة إذ يسدّدها. راضته المآرب، وحَنَّكْته التجارب، عن عزيمة أحزميَّة، وشنشنةٍ أخزميّة[(٦)]، نام الجاهل لمّا استيقظ، وتلقَّى حوادث الزمن بقلبٍ فظّ، لم يرهب العظيم من الطوارق، ولم يرعه منها ضرب الأعناق والمفارق. وهو في أثناء ذلك يقرأ العلم. ويصيّر حرب الحوادث عنده كالسّلم، وقد رأيت من كتب الأدب، التي تنوب بما تضمَّنته عن برد الشّنب. شيئاً جرى في تصحيحه قلمه، وَنَشَرَ لهزم جيوش الغَلَط فيه عَلَمه، ممّا يدلّ على همّة وقّادة، وفكرة صالحة نقّادة، وذوق سليم وطبع مستقيم.

ولم يزل ملكاً مطاعاً مهيباً. ولم يبرح بَدْره في فلك الإمارة بعيداً قريباً، حتى نصب له الزَّمن من الغَدْرِ شباكا، وحلل من حَزْمه عن معاطف الرياسة حِبَاكا، فأخذ خدعاً واغتيالاً، واستدرج من محله مكراً واحتيالاً، وقبض عليه ابن أخيه في

---

(١) يافع بلد وقبيل سبق في الجزء الأول: ٦١١.

(٢) الزهراء بلد هناك في يافع.

(٣) البيضاء: مدينة مشهورة باليمن انظر (المقحفى ١: ٢١٠).

(٤) ساقط من (ش).

(٥) السمهرية: الرماح.

(٦) سبق ذكر هذا المثل في الجزء الأول: ٣٥.

قرية سأمة[1]. وحاشاه من أن أقول جرعة العذاب وسامه. وشوّه محيّا مجده بعد كمال وسامه، وإنّما ترقَّب من أسده الهصور غِيْله، وقَصَد بالمكر والخداع غيله، حتى استخرجه من بين أشباله، بغرائب حيل لم تكن على باله. غنم من فهده نومته[2] على أنَّه يقظان. وعدا عليه وهو غير مؤمل لما جرى ولا ظانّ، لسلامة طويته وطَبْعه، واستقامة غَرْبه ونَبْعه، فهجم عليه في ظلام الليل، واعتمد المثل السائر وهو قول العرب: الليل أخفى للويل، مع تشتّت أصحابه في القرى وتبدّد أنصاره بالعرى، فما انتبه بازه الأشهب إلا وهو في القفص، ولا عرف بحقائق الاغتيال إلا وهو في حبائل القَنَص، ولا التفت إلى الحذر إلا وقد أحاطت به من الجهات الأربع الغُصص، فسري به ولكنه لم يحمد عند الصباح ذلك السّرى، وندم على إجابة الدّاعي وقد جرى من دمع خواصه ما جرى، فسجن بمدينة صنعاء، وقصر في قصرها مَنْعاً، والصَّارم يغمد في قرابه. والأسد قد لا يفارق ضيق غابهِ، فلبث في السجن بِضْع سنين، وتوارى به كما يتوارى في البطن الجنين. لزم ليثه عرينه، وقامت على فضله بما قاساه أيّ قرينة، يرتقب المسالمة من دَهْر لم يزل مبرقاً ومرعداً، ويقول له لسان حاله: استعمل خصوماً في طاعتك ومُرْعِدَى. ولمّا فكّ الزمان عن عنقه غلة، وزعم أنه أثلج صدره بمرامه ونقع له غلّة. أطلق من محبسه، وتعرَّى من الضيق عن ملبسه بعد طويل من الدّهر، عاد ما أُسِرَّ من فضائله إلى الجهر، وتفتح في جوانب روضه بعد أن ذوى متنوّع الزَّهر، ومنع عن الرجوع إلى رداع، بعد أن فارقه على الرَّغم، وطاف به طواف الوداع، فلزم في صنعاء زاوية خموله، وحُبس عن التنفس عاطر قَبوله[3]. لم يزل متجرّداً لتقواه، منيباً إلى ربه أيّ منيب أوَّاه، سميره في الدّجا العبادة، فهو لذلك يَغْشق الليل كأنّه لديه غادة، وجهها البدر وشعرها الظلام، وثغرها الدر التي راق سلك لآليها في الانتظام.

---

(١) قرية في جبل الدار من مديرية عنس واعمال ذمار (المقحفي).

(٢) إشارة إلى أن الفهد يضرب به المثل في كثرة النوم انظر حياة الحيوان ٢: ١٥٦ ط دار الألباب.

(٣) القبول: ريح الصَّبا.

مابرح على ذلك إلى أن مات، وقد لاقى ما لاقاه المعتمد بن عبَّاد بأغمات[١]. أخذه الحمام على غرّة، وانتزعه من بين الحشايا والأسرّة، فعظم مَضرعه على صنعاء ومن فيها، وعمَّت مصيبته عاقلاً وسفيهاً، حتى نَدَبْته الوُرْق في الوَرَق، وتوقّعت الرّياض من دموع نهورها للغرق. واصفرّت في فصل الشتاء أرواق الغصون من الفرق. تشقّق عليه الصَّبا والجنوب. ومن الدَّوح الباسق الأكمام والجيوب، وقبر بقبّة السيد أحمد بن حميد الدين في خزيمة الشهيرة. وإذا ضريحه بادي الأشعة كأنه شَمْس الظهيرة. سقى الله من ترابه مسكاً سحيقاً وحيًّا حصى جدثه ياقوتاً وعقيقاً.

وله شعر أنضر من الزهر في الخمائل، إلاّ أنّه أقل من إنصاف الدهر لذوي الفضائل، ممَّا أثبته له صاحب ترويح المشوق[٢]، وهو نظم يُهَزُّ من الطرب به القدّ الممشوق.

قوله:

في أفرق الشغر كم أقاسي — من عادل بالمرام أفرقْ

يلوم جَهلاً على حبيبٍ — أذوب في حبّه وأفرقْ

وقد ذيّلت بيتيه هذين لما راق فيهما الجناس بأبيات مع اعتماد الجناس فيها، فقلت:

أغصّ بالدمع من عيوني — عند طويل الجفا وأشرقْ

فهل أرى منه شمس حسن — أبهى من الشمس لي وأشرقْ

أشكوا الجفا ثم لا أراه — قد لان منه الفؤاد أورقْ

أنشر شكواي فوق خدي — بالدّمع في الانسكاب أورقْ

يشجي فؤادي إذا تغنّى — مطوّق في الغصون أورَقْ

---

(١) أغمات: ناحية في بلاد المغرب قرب مراكش انظر ياقوت (معجم البلدان: ١ : ٢٢٥).

(٢) سبق ذكره في الجزء الأول: ٦٣.

ولده السيد محمد بن الحسين، إماميّ المذهب الطبيب[1]

جواد سابق، وروض نَشْره عابق، شمسٌ، لا فالشمس تنكسف، بدرٌ لا، فالبدر ينخسف. استغفر الله هو أعلى فلكاً، ولذا أعدّ مِلكاً، ولست بمخطٍ إذا قلت ملَكَا، من أبناء الملوك الأكابر، ونَسْل الأئمة الذين تهتزّ لذكرهم المنابر. فهو يفخر من شخصه بنسيب، ويسحر الألباب من شعره بنسيب، سيدٌ طابت مغارسُه، وزهت به مدارسه، وشمخ به عصره، وزها بفضله مِصْره.

له سجايا يحمد ما طاب من خِلالها، وسحائب كرم ترى الودق يخرج من خلالها، صَعَدَ به المجد وارتقى، وتخيّره الفخر فانتقى. له في العلوم رتبة سامية، واختيارات انفرد بها حتى تبع مذهب الإمامية[2]. فانتعشَ به منه ما كان خاملاً، وأصبح عود عصاته وقد هزّه عاملاً[3]، فصار له هذا المذهب علامة، لما نشرَ حلل التشهّر به ولم يَخْشَ ملامه، وظل يذود برمح قلمه عَنْه كل طاعن، ويدعو إلى النزول بربعه كلّ مقيم وظاعن. فلِسَان حال العلا تنادي بملل الملأ، إذا سرت فهذا أمامي، وإذا صرت مؤتمّاً فهذا إمامي.

حتى طعن عليه من آل الرسول ونقم، وقالت محررات مسائلهم: لم نسكن في سوحِهِ ولم نقم، لأنه قد اطّرح كتبهم وراءه ظهريًا، لمّا اقتطف من أوراق الأماميَّة زهراً يروق نداوةً ورِيًا. وله في الحِكْمة والطبّ، مسرح رحيبٌ مُعشب، زهره الغضّ باسم الثغور، فهو غير مقطّب، فكم أحكم العلاج، وعَدَّل بنظره المزاج. وأحال إلى العذوبة الأجاج، ونظر إلى العلّة في البدن كما نظر إلى الماء باطن الزجاج، لو عالج عيون الغيد لشفاها من المرض، أو لو نظر في سقام خصورها لأبراها ممّا عرض، حتى تعود في وفرة الأرداف، فيضيق عنها الوشاح المفصّل بدُرر الأصداف، ولو جسَّ نبض النسيم ولمس، لما طَمر بِسُقْمه في عَرَق

---

(١) نسمات السحر: ٣: ١٠٨ نفحات العنبر خ البدر الطالع ٢: ١٦٥، نشر العرف ٢: ٦٠٢.

(٢) يعني مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية.

(٣) تورية بالعامل وهو الرمح والعامل من العمل والفعل (معروف).

الطلّ وانغمس، ولو داوى أوراق الغصون لسكنَ منها الخفقان، أو لو نظر في عيون النّرجس لأزال من أحداقها صفرة اليرقان، أو لو حاول مداواة قلب الشقيق لمحا من تاموره الأحمر القان:

وطِبّه لم يُبْق في عَضرنا ... سوى نسيم الرّوض فينا عليل

ولم يزل للأيام بمنزلة الحبيب، حتى أناخ به ما يعجز عن دفعه الطَّبيب، فانقطعت عنه حكمته، ونغّصت من الحياة نعمته، كَسَرَ الموت حِقَاقه وقواريره، وجعل من تُراب القبر وحصبائه قواريره، لا زال نفيس تلك العقاقير بماء المزن معجوناً، ولا بَرِح هو مقصوراً في خيام الجِنان إذا كان غيره في النيران مسجوناً.

وله في الأدب ألذّ مَشرب، وكلمات هي إلى نسبة اللآلىء أقرب. فله نظم يشتعل ذكاؤه عنده لهبا، وله نثرٌ أقسم أن منثور الرياضَ عنده لَهَبَا، فكم نظم منه في عقوده، وكم عدّ من ذهبه نقوده. فاشترى منها أجمل ذِكْرى، وأخذ من الثناء عليه الإطراب والإطراء. وذلك أنفس ما يكتسب وأحسن ما يشرى، من ذلك قوله في قصيدة، أبرزت شارد معنى يقول الغير: لم أصيده:

لله أيّام الوصال ... والدَّهر متسع المجالِ
والأنس دانٍ والهوى ... ريّان يَخْطر عن دلالِ
والحبّ يَجْمعنا به ... وصلاً ليالٍ كاللآلي
خود محيّاه البهي ... بحسنه مثل الهلالِ
في خدّه الورد الجني ... وطرفه سيف القتالِ
وبثغره العَذْب الشهي ... شراب إسفنط[1] حلالِ
وبقدّه مَيْل الغصون ... إذا تثنّى باعتدالِ
وإذا ضميت بعشقه ... أهوى بِمَبْسمه الزلالِ
والزهر يضحك في الرّياض ... كنَسْمة ذات اعتلالِ
والسحب تبكي والهزار ... بفرعهِ يملي أماليِ

---

(١) المطيب من عصير العنب.

والـــرّاح مـــثـــل الـــتـــبـــر فـــي كـــأس يـــدور عـــلـــى انـــتـــقـــال
والـــزيـــر[1] يـــحـــكـــي لـــلـــنـــديـــم صـــفـــات مـــعـــســـول الـــجـــمـــال
والـــشَّـــمـــل مـــجـــتـــمـــع بـــدهـــر مـــرّ حـــالـــي فـــيـــه حـــالـــي
مـــا قـــطّ لـــي فـــي غـــيـــره أرب عـــلـــى مـــرّ الـــلـــيـــالـــي

وقوله في أخرى[2]:

غـصـن نـقـا فـي الـقـلـوب يـنـعـطـف يـشـمـر بـدراً يُـقَـلِّـه هَـيَـفُ
مـصـوّر فـي جَـبِـيْـنـه بَـلَـجٌ وصـاد عـيـنـيـه تـحـتـهـا ألـفُ
لله أيـامـنـا بـزورتـه والـروض زاهٍ بِـجَـمْـعِـنـا أنـفُ
[والـطـيـر فـي أيـكـهـا مـغـرّدة وضـاحـك الـبـرق جـفـنـه يـكـفُ][3]
سـقـى الـحـيـا مـا مـضـى ولا رعـيـت لـيـالـي الـصـدّ إنـهـا سُـدف
ولا لـعـا لـلـعـذول كـم كـلـم مـنـه لـكَـلْـم الـعـذول[4] يـنـعـطـفُ

المراد بقوله: ولا لعَا هي بالعين المهملة الكلمة التي يدعى بها للعاثر كما ذكره أئمة اللغة. ويقال في المثل العربي: لا لَعَا لفلان، أي: لا أقامه الله من عثرته، والعرب تقول للفرس الجواد والناقة النجيبة إذا عثرا: تعساً لك ولغيرهما لعاً لك.

قال الأعشى[5]:

بـذات لـوث عـفـرنـاه إذا عـثـرت فـالتَّـعـس أدنـى لـهـا من أن أقـول لَـعَـا

---

(١) سبق شرحه في الجزء الأول: ٥٤٦.
(٢) أوردها في نشر العرف ٣: ١١٤ ط الدراسات ونسمة السحر ٣: ١٠٩.
(٣) ساقط من مطبوعة نسمة السحر.
(٤) مطبوعة نسمة السحر (الفواد).
(٥) من قصيدة أولها:
بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا واحتلّت الغمر فالجدين فالفرعا
ديوانه: ٢٢٤ ط المكتب الإسلامي.

وقال الأخطل[1]:

فَلاَ هدى الله قيساً من ظلالتها ... ولا لَعَا لبني ذَكْوان إذ عثروا

وقال أبو العلاء المعرّي في بعض قصائده:

عسى جدّ تعثّره الليالي ... يقال له لعّا ولمن يُقَال

وقال أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري في بعض قصائده كما قرأت ذلك في ديوانه[2]:

وقال لَعَا للعاثرين وقد رأى ... ذنوب رجال فرّطوا في العواقبِ

وقال أيضاً في قصيدة أخرى[3]:

أمولعةٌ بالبين رب تفرّق ... جرحت به قلباً بحبّك مولعاً

ومن عاثر بالشيب ضاعف وجده ... على وجده إن لم تقولي له لَعَا

وقال أبو الحسن التُّهامي رحمه الله تعالى[4]:

فلولا العطايا إنها سُنَّة له ... لما قال للدنيا إذا عثرت لَعَا

وقال خليلنا إبراهيم بن صالح الهندي:

وقولا لَعَا عند النهوض لعاثر ... عزيزٌ عليه أن يقال له لَعَا

وقلت أنا في الجناس:

عثرت في الحب حين همت به ... وجداً وسالت مدامعي ولعا

فكم أخٍ قال لي: سلمت وقد ... رأى عثاري بصبوتي ولعَا

ونقلتُ من خط صاحب التَّرجمة له رحمه الله تعالى في تشبيه الورد، **قوله**:

---

(١) ديوان الأخطل: ١٠٧ ط صالحاني.

(٢) ديوان البحتري ١: ١٧٤ ط دار صادر.

(٣) ديوان البحتري ٢: ٣٣٨.

(٤) ديوان التهامي: ٢٧٩ من قصيدة أولها:

أبان لنا من دره يوم ودَّعا ... عقودًا وألفاظاً وثغرًا وأدمعا

وقائل لِمْ مدحت الورد قلت له ... من حُسْنِهِ حين يبدو لي ومن نَمَطه
كأنّه كأس ياقوت قوائمه ... زمرّد وبقايا الرّاح في وسطه

كتبه في بعض التعاليق الأدبية عند إيراد المشهور في تشبيه الورد أيضاً. وهو قول الأديب ابن الرومي وهو على هجانته من أبدع التشبيه وأعجبها وأغربها[١]:

وقائل لِمْ هجوت الورد قلت له[٢] ... من شومه حين يبدو لي ومن سَخَطه
كأنّه سُرْم بغل حين سَكْرجه[٣] ... عند البراز وباقي الروث في وسطه

أخوه يوسف بن الحسين بن الحسن[٤]

مرتفع ما زاحم الفلك له منكباً، وجوادٌ ما جاراه من أقرانه من كبا، وبدر سجد له من إخوته أحد عشرِ كوكباً، والشّمس والقمر من أبويه، لأنه أغرى بالفضائل فقيل له: ويه. ذو غرّة هلالها مرقوب، له أوراق فصاحة هي قميص يوسف في طرف يعقوب، كريم سموح سخي، جميل المحيّا، فإذا نظر إلى البدر، قال: هذا يوسف وهذا أخي. هو لسرّ الأدب عَيْبة، وهو كامل لا ترى الأعين لنقص به عيبه. له بنات أفكارٍ، تلد رقيق المعاني وهي أبكار، واضحة الميسم، عذبة المَبْسم، إذا سوّد قرطاس بمداد آدابه، فكأنه نفض على أوراقه البيض صبغ شبابه. يهز القدود ولا كهزّ النسيم، ويَفْعل بها ما لا يفعله المُطْرِبان، صوت الحبيب، ونغمة الوتر الرخيم.

رأيته بصنعاء المحروسة، وهو يجتني ثمار العلم من أشجارها المغروسة، وإذا هو محلّق[٥] للقراءة غير مقصر[٥] في سعيه[٥]. وقد أجرى في روض العرفان

---

(١) خزانة الأدب لابن حجة ٢١٦ والغيث المسجم ٢: ٢٦٦ وديوان ابن الرومي: ٤: ١٤٥٢.
(٢) الديوان «معتمداً».
(٣) الديوان: حين يخرجه.
(٤) نشر العرف ٣: ٣٩٧.
(٥) هنا تورية بالتحليق في القراءة وهو حضور حلقة العلم، والحلق هو حلق الشعر في الحج والعمرة، والتقصير كسابقه والسعي معروف.

نهره لسقيه، وشمّر لرعيه. فَقَعَدْتُ عنده لأعتصر قَنْده[١]، ونازعت شيخه من المذاكرة بردها. وشممت من نسيمه العبقة بَرْدها، وقطفت من حديقته نرجسها ووردها. واجتلوت محيّاه واستنشقت رَيَّاه، وتجاذبنا أهداب المذاكرة أنا وإيّاه، فإذا صفاته أسكر من الخمر، وانفح من العنبر الأشهب على الجَمْر. أو ألذّ على ذوي الهمم من نفوذ الأمر، ولو امتد من عمره [أنيق][٢] الرداء، وأخّرت تمزيق حواشيه اللطيفة أيدي الردى. لبلغ مبلغاً عجيباً، فإنه كان فاضلاً نجيباً، لكنّه عاجله الحمام بالهجوم، فغيّب عن فلك الدنيا منه ومن كلماته البدر والنجوم، سبق السيف العَذْل وسطاً على الشجاع الجبان الأذل.

وغلب الناصر للفضل من خذل، ذوى غصن أدبه المائس، وأودعت منه في حقّ القبر تلك النفائس، لا زال جَدَثه بغيث الرّحمة مسقياً، ولا برح مقامه في الفردوس ممتنعاً، فلم يك من غيره مرقيّاً، ما هجم سرحان[٣] الفجر الأورق على صرح السماء اللأزوردي الأزرق. وبادره الصبح فقلع منه مسامير الذهب من الشهب الزّاهية المشتعلة ذات اللهب.

ولمّا كتب إلى بعض الأخلاّء قصيدة أجبت عنها أنا، وَسُقْت إليه من روض الجواب الوريف حلو الجنى، وله شعر ينوب عن الشراب، ويسمع عن مداده، سجع الحمامة من الغراب، قال رحمه الله تعالى[٤]:

الغَيْم قد أصبح مِثْلي رقيق ... يبكي على بان اللِّوى والعقيق
والرَّعْدُ شوقاً أنَّ من أنَّتي ... وفي حَشَى البارق نار الحريق
وساجعات الوَرْقِ قد أظهرت ... مِثْلي غراماً بالقَوام الرَّشيق
ناحت على غصن كنوحي على ... غصن لجين مُثْمِر بالشقيق

(١) السّكر تشديد السين والكاف يستخرج من القصب.
(٢) ساقط من (ش).
(٣) الذئب سبق شرحه في الجزء الأول: ٣٤٥.
(٤) أوردها صاحب نشر العرف ٣: ٣٩٩.

والغصن يثني العطف لما غدا ... سَكْران من خمر النَّدى لا يفيق
فقم بنا نسعى إلى مجلس ... يطفي حريق القلب منه الرحيق
من خمرة حمراء مشمولة ... كأنّها في الكأس ذوب العقيق
يديرها ساق له وَجْنة ... حمرا ومخضرّ عذار أنيق
كأنما مقلته صارم ... دمي بها في كل حال أريق

وقال رحمه الله تعالى:

تعجّبوا إذ رأوه روضاً ... شاهد طرفي به افتتانا
وقد رأيت الخدود زَهْراً ... لما رأيت القوام بانا

وقال:

من شاهدوا خال الحبيب بخدّه ... عجبوا لأن الحسن أودعَ فيهِ
ماذلك خال في الخدود وإنّما ... إنسان عيني خدّه يُخكيهِ

هذا المعنى لطيف مطروق ولم يحسن نظمه، ولا أجاد سَبْكه، فأحسن منه قول بعض الظرفاء ومنه أخذ رحمه الله تعالى:

وجه إذا رمقته عين ناظره ... تخاله ترفاً قد ذاب أو قطرا
يظن ناظره خالاً بِوَجْنته ... وذاك إنسان عين الصبّ فيه يُرى

وقال القاضي زين الدين عمر بن مظفر الوردي رحمه الله تعالى[1]:

لحبيبي شامةٌ في خدّه ... لا علا قدر حسود شأنها
ربّ عين دهشت من حسنه ... نسيت في خدّه إنسانها

وقال القاضي ناصح الدين الأرجاني رحمه الله تعالى[2]:

وأغيد رقّ ماء الخدّ منه ... فلو أرخى لشاماً عنه سالا
تبين سوادها الأبصار منه ... فحيث لحظت منه حسبت خالا

---

(١) ديوان ابن الوردي: ٢٣٥ و٤٥٤ ط دار القلم الكويت.
(٢) لم أجدهما في ديوانه.

وقال أبو الحسين علي بن أحمد الديباجي في مثله[1]:

يا حبذا قمر تَزَرْفن[2] صدغه ... واخضرّ شاربه وزاد جمالا
فكأن أسود ناظري في خدّه ... لما نظرت له تمثّل خالا

وقال ابن صابر المنجنيقي[3]:

أهلاً بوجه يروق حسناً ... صيّرني حبّه خِلالا
قد رق حتّى نظرت فيه ... سواد عيني فخِلْتُ خالا

وقال صاحب الترجمة رحمه الله تعالى في رجل خرج مع أصدقاء له إلى بعض المحلاّت وقد أركب أمّه على جمل فسقطت من فوقه، فانكسرت يدها واسمها عائشة:

توهّم لمّا أرادوا الخروج ... مع الخارجين اقتراب المحل
فلاقى وقد رَكِبَتْ أمّه ... لأجل الخوارج يوم الجَمَلْ

ولما كتب إلى بعض العلماء من كوكبان قصيدةً عَوَّل علي في أن أجيبه نظماً ونثراً. فأجبته بقصيدةٍ وكتبت معها من المنثور. **قولي**:

لمّا هزت الغصون قدودها، وضَرَّجت الورود خدودها، وفَتَح النرجس طرفه تفتح شاخص وباهِتْ، وفاخرت زهور الروضة الخضراء نجوم السماء الزرقاء وبَاهَتْ، وتحركت عذبات الدوح، وأشرق الرَّبع والسُّوح، واهتزت الأرض وَرَبَتْ، وتقلبت الأطفال في حجر الأوراق وربت. علمت أن نسيم الصبا قد خَطَر، مبلول الأذيال بقطرات المطر. وأن كل ما وقع من ذلك فرحه بوروده، ومسرة بنزوله خلال الروض ووروده، فإنه وفد من النّدى ببردٍ ومن الأحباب بسلام.

---

(١) لم أجده، والديباجي في الوافي بالوفيات هو الحسن بن أحمد ومحمد بن سعد ومحمد بن الحسين انظر ج ١٤: ٣٥.

(٢) زرفن صدغه جعلهما كالزرفين والزرفين حلقة الباب أو كل حلقه.

(٣) وفيات الأعيان ٧: ٣٥ توفي سنة ٦٢٦هـ.

وانطوى نشره على لِيْن محاورتهم لا على خشونة عتبٍ وملام، وتضوّع الحِمَى منه بأطيب أرج، وجاء بقول المبشر بعد اليأس بالفرج، وتخلل حول قصورٍ ودرج. ورفع القصور في الغرف المشيَّدة ولا حرج، فَخَلَعَتْ عليه الغصون حلل الأرواق، وناولته من الزهور المتنضدة في أجيادها الأطواق.

وقالت: اقبل مني هذه الصلة العائدة، وإليك هذه (الأنفال)[١] التي جادت بها قدود القضب (المائدة)، ونثر الغيم على أقدامِه من لؤلؤ قَطْره أنفس نَثَار، ورَشَّ له الطريق بنداهُ، فكادت قدمه مع البلل لا تَسْلم من العِثَار، فاستبشرت أنا لعلمي بما أجنَّه تحت أذياله ذلك النَّسيم، وتلقَّاه إقبالي عليه بوَجْهٍ طلق وسيم، فَتَّشت عن طواياه فبدا لي منه ما يسَرّ، وأخذت ما تيسّر من أخباره وتركت ما عسر، فإذا أنا أجد ريح يوسف لولا تفنيد الحمائم، واشتمّ نفسها العطر لولا أنها ضحكت على أزهار الكمائم، ما ذلك الريح إلا ريح مولاي الذي طاب شميمها. وقيل فيها: إن لم تكن هذه الحدائق فهي نسيمها، ومالكي الذي عقد من ملابس الفضل إزاره، وأنطق على غصن أقلامه من جزل الكلام هَزَاره. وصاغ لساق العلياء من نضار شِيَمه خلاخل، وأجمع الأخلاّء على فضله فلم يستثن منهم خلّ واحد فيقال: خلا خل، وزاحم بفصاحته البلغاء الأعلام. وتمشت حميًّا بلاغته في مفاصل الأقلام، فمالت أعطافها سَكَرا، ونطقت بما أبقى له في الأعقاب ذِكْرا، حرس الله مَجْده، وحمى غوره ونَجْده. وزاده في حَرَكَاته وسكناته عزماً ونجدة، وعليه من الله السلام السلام، والإكرام الذي لا تحيط بضابطه الأقلام، ولا تَحْتوي عليه عبارة مطوّلة ولا كلام. ينزلان بِسُوحه أصيلاً وسَحَراً، ويتضوّعان بما يدع منثور الحدائق هباءً منثوراً بالعَرَى، ما ضحكت بثغر البرق السَّحاب، حتى دمعت عينها لكثرة الضحك بماء من قطرات الرَّباب[٢]. وما هوى قبس الشمس في كانون الغرب واضطرم، فتطاير منه شرر النجوم في فحم الظلماء لا جرم.

(١) هنا تورية بسور القرآن (المائدة) و(الأنفال).

(٢) السحاب: سبق شرحه.

وصلتني من منظومهِ الغادة. جرى في ذلك بي على العادة، فكم من مليحةٍ إليّ من شِعْره قبلها زُفّت، وخريدة على جبينها أقراط الذهب قد رَفّتْ، نزلت بسوحي نزول الغيث، ومشت إليّ على ديباج القرطاس مَشْي السحابة لا عجلٌ ولا ريث، جَلَتْ لي في برقع الحياء محيّاها، وأحيت فؤادي قبل وصولها بريّاها، فإذا أنا سكران ثمل، لم أملّ عناقها وعنه لم أمِل، فللّه أفضاله وما فعل، فقد شفا بالمذاكرة بعد ما كان بالمقاطعة قد أعلّ. وأصدق ما كنت أتمناه فأعرضت عن ليت ولعلّ. فَتّشْت قرطاسه البديع، وتأمّلت في ليل مداده، فإذا هو ليل الرَّبيع، لما كانت الورود في جوانبه[1] محلولة العُرى متفتّحة الأزرار، تُودِع النَّسيم من النشر الطيب الأخبار المكتومة والأسرار.

أستغفر الله ليل الربيع كنهار السرور قصير، وهذا الليل من الحِبْر المذكور طويل، لتصديره من البلاغة كل نفيس نضير. نسأل الله أن يحفظ أنامل حرّرته، ويصون فكرةً في هذا المنثور الواصل إلينا قد قرّرته، والسلام.

ولده أحمد بن يوسف بن الحسين[2]

سيّد كسادة، لا يخشى على فضله كَسَاده، شهاب له قَبَسٌ. فالبدر من نوره اقتبس، بهمةٍ صَعَدت المحل الأسمى، وأبكت عين النجم وفَطّرت كبد السماء، فقالت له لسان حال العلاء، لما فات بسبقه جملة الملأ: إلى أيّ غاية تحث عزمك، وإلى أي غرض تسدد سهمك، ولم تر خلف غايتك غاية، وليس وراء ما بلغته نصالك مرمى ولا نهاية.

أليس قد ركزت رمحك في كلا زحل، ونصبت بها الراية، فما أعلى ذلك المحل، أقسم أنّه حَمَل من المجد ثِقَلاً، وبالغ في العلم قراءةً ونَقْلاً، وأطلع طرسه مسكاً إذا أطلع الروض بَقْلاً، ترعرع وبَرَعَ، وصَكّ أسماع الحساد وقَرَعْ، بثناء عليه يفوح، ووصف نور فخار عليه يلوح، فما استطاعوا أن يطمسوا له ذكراً، ولا

---

(١) في (ش) جانبه.

(٢) ويلقّب بالحديث لعنايته بالسنة النبوية (نشر العرف ١ : ٣٠٦).

طمعت نفوسهم أن يكتضّوا من معانيه بكراً، نشأ كريماً ماجداً، وهائماً بالمعاني واجداً. إن مدح لم ينصف، وإن وصف فكأنه لم يوصف، لأنها تزدحم صفاته الجميلة عدّاً، فلا يدري الواصف بأيّها يُمْسك أو يَبْدأ، مع سَمْت حسن، وفصاحة ولسن، فأكرم به من كامل، وأكرم بقلمه من عامل، إن هزّه فمثّقف، وإن ألقاه من يمينه فلما صَنَعَه سَحَرة الكلام يتلقّف، إذا مرّ النظر في أوراقه المرقومة، فكأنّما مرّ على حديقة مرهومة[1]، أديب تهذّب طبعاً، وسدد إلى الأغراض غرباً ونبعاً[2]، وزهرة تحت خمائل الخمول، وشراب خُتِمَ عليه كما خُتِم على الشمول، فهو خامل الذات شائع الذكر، كليل الجفا من الزمن صقيل الفكر، تضوّع مسكه وإن انطبقت عليه الغالية، ويظهر درّه من أطباق الصّدف على الأجياد الحالية[3]، وما زلت للقاهُ متطلعاً، وإن كنت من فواكه شعره متضلّعاً، فالأديب يتطلّع إلى الأديب، ما لا يتطلّعه المغرم إلى الحبيب.

وكنت متوقّعاً من الزمن أنى لم أره، وأني لا أسابق في ميدان المحاورة ضُمَرة، لأنَّ الدهر مُوْلَع بعكس المقاصد، وَطَرْفه وهو رقيب الأفاضل من حيث لا يشعرون مراصد. ولمّا جَمَعَتْنِي أنا وإيّاه من صنعاء هالة، ازددت بالقرب من قمره السّاطع في ليل التقاطع جهاله، فبينا أنا للاتصال أتمنّى، وبينا طائري يترنّم شوقاً إليه ويتغنّى، إذ أنا به وقت صلاة الجمعة في الجامع الكبير، قد قَعَدَ بجنبي فكأنّما رسى على يميني من الرجاحة ثبير[4]، لسكينة عليه قد لبس شفّها، وطمأنينة وقار في ثيابِه اللطيفة لفّها، فسررت برؤيته، ووقع اقتراحي على أمنيته، فأملى عليّ من فوائده. ونصب لي فواكهها على موائده، فاقتنصت أوابدي وشواردي، وظفرت منه لآليء الذي بصلاتي وعوائدي، صلات من العلوم والآداب لا غير. وعوائد ثبتت

(١) سبق شرحه في ج ١: ١٣٣.
(٢) سبق شرحه في الجزء الأول: ١٣٣.
(٣) العنق الخالي من الحلي.
(٤) جبل معروف بمكة المكرمة.

في عنقي كما ثبت الطوق في الحمائم من الطير، ثم اجتمعت به في بعض المقامات، اجتماعاً كأنّه الطيف في بعض المنامات. وقد أَثْبَتُّ له هنا بما أثبت الفلك من الزواهر، ورصّفت من فوائده في أسماط الصدور هذه ما رَصَّفت الغواني على أجيادها من الجواهر، فمن شعره الذي سحر، ونسيم نظمه الذي هبّ وقت السحر.

قوله من قصيدة نبويّة، ونفثةٍ فصيحة علويّة، تكذب بليل مدادها ما تقوله المانويّة[(١)]:

يا ليت داري لداركم أمم	فتستريح الأيانق الرسمُ
أنضاء طول المسير أنحلها	فالحرف نون أدقها قلمُ
إذا اعتراها اللغوب أنحلها	شوقي لها عزمةً فتعتزمُ
كأنّني والمطيّ أعملها	بالرفع والنّصب عامل وسمُ
كأنّها والبِقَاع تلفظها	معنى دقيقٌ في الذهن مرتسمُ
لكن حرام على الرِّجال غداً	ظهورها إن بنا بلَغْنَكم
والعيش خفض لها بلا نصب	إن ضمّ شمل اجتماعنا إضمُ
شوقي إلى جِيْرة بذي سلم	شطّوا وفي مُهجتي محلهم
قد شفّ جسمي ضناً وأنحله	وشفّ منها اصطباري السقم
يا صاح كَرّر عليّ ذكرهمُ	فإنه في مسامعي نغم
والله ما في الحياة لي أرب	إن طال ما بيني وبينهمُ
يا ليت إني لتربة وطئت	نعالهم بالجفون ألتثمُ
سقمي وشوقي وحسرتي ولهي	مِنْهم إليهم عليهم بهم
وأنّهم بي وحقّ قدرهم	منّي لأولى وحقّ ذا لهمُ
سقى ثرى طيبة الغمام فلي	بها هوى لا أراه يَنْكتمُ
نعم حبيبي هو الحبيب سوى	أني لذاك الجناب أحتشمُ

---

(١) إشارة إلى قولهم بالظلمة والنور، والمانوية سبق ذكرهم في ج ١ : ٩٧.

وله:

فبم التَّواني والهُدَى العَجَلُ … وإلى متى التَّسويف والأملُ
أملٌ على أمل وكم أملٍ … قد حال دون بلوغه أجلُ
إن كنت تأمل أن تعيش غداً … فلقد أردت الخُلْد يا رجل
ما هذه الدنيا بدرا بقًا … كل إمرىء عنها سَيَنْتَقِلُ
لا تطمئن إلى زخارفها … إن المقيم بها لَمُرْتحلُ
واسلك مسالك معشرٍ لهم … دار المُقامة في غدٍ نزلُ
واعلم فإن الجَهْل مَنْقصة … وَٱعْمل فإنّ لبابه العملُ
وانظر إليك بعين محتقرٍ … فالنفس فيها الزيغ والمللُ
واجعل رجائك في الإلٰه غداً … سبباً به الأعمال تَتَّصلُ
لا حول إلا بالإلٰه ولا … شيء سواه عليه نَتّكلُ

وله مضمناً:

ونُبئت من أهواه أضحى يسبّني … بقول كعضبٍ ذي غرارين[1] باتر
فقلت ولم أهجر مقالة شاعر … عليم بأحكام المحبة شاعر
وقد زادني أن نال منّي هوى له … هنيئاً مريئاً غير داء مخامر

وله:

لا تشرب الراح إلاّ من يدي رشأ … يفتَرّ في كفه عن درّ مبسمه
يسقيكها طرفه صِرْفاً ويُمْزجها … بها إذا شئت لا بالماء من فمه

وله:

بِنَفْسي من أذوب أسى عليه … واكتم حبّه جهدي وأخفي
أغار عليه حتّى من عيوني … إذا أبصرته فأغض طرفي

---

(١) مثنى غرار حدّ السيف.

وأضمر في الفؤاد له عِتَاباً إذا خاليته يوماً بلطف
وتسعف ساعة منه بِلُقْيا فأبهت لا أكلّمه بحَرْفِ

وله في مليح يكنس منزله. وقيل: هو لغيره:

لمّا بدا في يده مكنس مِسْكِيٌّ ثغرٌ عَنْبري اللَّعَسْ
قلت له: أقبح بها مِهْنَةٍ فقال لي: ما عِيْب ظبي كَنَسْ

وقلت أنا في مليحةٍ تكنس منزلها أيضاً:

قد كَنَسَتْ منزلها غادة إلى وِصَالي لم تكن آنسة
فقلت للإخوان لا تعجبوا يا قوم هذي الظبية الكانسة[1]

ولصاحب الترجمة في مملوكة سوداً ذات محاسنٍ:

وذات عين شكلا تحسبها غصناً غدا وهو من دَمٌ ضرجُ
سوداء من مهجةٍ بها سكنت لها من المسك اللون والأرجُ
نضا عليها الشَّباب من كلف سواده والعيون والمُهجُ
غيداء إن رق ناظراً دعجاً في مِثْلها فهي كلها دعجُ
ما إن رأت مقلتي لؤلؤة عصما سواها وجسمها سَبَجُ
رأى بها القَلْب شبهه فغدا كأنه بالشبيه ممتزجُ

وله فيها أيضاً مضمّناً:

وأسود فوق حسن الخدّ خال عزيز عن غرامي فيه خالي
أقول له وقد شاهدت فيه محاسن بَلْبَلَتْ فِكْرِي وَبَالِي
«وأن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بَعْضُ دَمِ الغزال»

وله في الأسود الجميل أيضاً:

تعشقته لون الشبيبة أسوداً وحسبك حسن راق للبيض منظراً

---

(١) سبق شرحه في ج ١: ٤٦.

حبيبٌ إلى كل النفوس محبب كأن كان من حبّ القلوب مصوّراً

وهذا النمط، والدرّ الذي له سمط في الغلام الجميل الأسود، والمليحة التي تقود القلوب السود إلى حبّها بألطف مقود. قد تَلَعَّب فيه الأدباء بالمعاني. واسمعوا منه ما يطرب المثالث والمثاني. قال ابن قلاقسٍ في جارية سوداء أيضاً[١]:

ربّ سوداء وهي بيضاء معنى نافس المِسْك عندها الكافور
مثل حبّ العيون يحسبه النا س سواداً وإنما هو نورُ

وهو من قول الأديب أبي الحسن علي ابن رشيق رحمه الله تعالى[٢]:

دعا بك الحسن فاستجيبي يا مسك في صَبْغَةٍ وطيب
تِيْهي على البيض واستطيلي تيه شباب على المشيب
ولا يرعك اسوداد لون كمقلة الشادن الربيب
فإنّما النور عن سواد في أعين الناس والقلوب

وقال الصابي في غلام جميل أسود[٣]:

لك وجه كأن يمناي خطـ ـته بلفظ تَمَلّه آمالي
فيه مَعْنى من البدور ولكن نفَضَتْ صِبْغها عليه اللّيالي
لم يشنك السَّواد بل زاد حسناً إنّما يَلبس السَّواد الموالي
فبمالي أفديك إن كنت روحي وبروحي أفديك إن كنت مالي

وقال هو أيضاً في غلامه يمن وهو أسود[٤]:

قد قال يمن[٥] وهو أسود للذي ببياضه استعلا علوَّ المحاسن

---

(١) وفيات الأعيان ٥ : ٣٨٧ والغيث المسجم ٢ : ٢٧٣ ولم أجدهما في ديوانه المطبوع.
(٢) ديوان ابن رشيق: ٤٦ ط العمرية، الغيث المسجم ٢ : ٢٧٣.
(٣) وفيات الأعيان ١ : ٥٣ يتيمة الدهر: ٢ : ٣١٥.
(٤) يتيمة الدهر ٢ : ٣١٤ ط العلمية.
(٥) اليتيمة «رشد».

ما فَخْر وجهك بالبياض وهل ترى　　أن قد أفدت به مزيد محاسن
ولو أن مني فيه خالاً زانه　　ولو انّ منه فيّ خالاً شانني

وقال الزين جبريل المصري في المليح الأسود[1]:

وخادم قد حباه القلب حبَّته　　حُبّاً له وكسته صبغها المقلُ
كأن ما هو في خدّ الجمال لمن　　براه خال وفي أجفانه كحلُ

وقال غيره فيه أيضاً:

أعجب ما فيه أنّ رؤيته　　تكحلُ زرق العيون بالدعج
فديته من مهفهف غنج　　كأنه مِزود من السَّبج

وقال غيره فيه أيضاً:

وأغنّ مسكي الإهاب ووجهه　　يبدي جمالاً زانه الإشراق
فكأنّه لمّا تكامل حسنه　　وَرَنَتْ إليه بِطَرْفها العُشّاقُ
من فرط إحداق العيون بحسنه　　خلعت عليه سوادها الأحداقُ

وقال أحمد بن بكر الكاتب فيه أيضاً رحمه الله تعالى[2]:

يا من فؤاديَ فيه　　متيماً لا يزالُ
إن كان للّيل بدر　　فأنت للصّبح خالُ

وقال ابن أبي سلمة رحمه الله تعالى:

يكون الخال في خدّ قبيح　　فيكسوه المحاسن والجمالا
فكيف يُلام مشغوف على من　　تراها كلها في العين خالا

وقال هو أيضاً:

لام العواذل في سوداء فاحمة　　كأنها لِسَواد القلب تِمْثالُ
قد هام بالخال أقوام وما علموا　　أنّي أهيم بشخص كلّه خالُ

---

(١) مطالع البدور في منازل السرور ١ : ٣٠.

(٢) الغيث المسجم ٢ : ٢٧٢.

وقال شبيب النمري رحمه الله تعالى:

سوداء بيضاء الفعال وهكذا ... حسن النواظر خصّ بالأضواء

فإذا جننت بحسنها لا بدعة ... إنّ الجنون يكون بالسوداء

وقال آخر:

وسوداء الأديم تريك وجهاً ... جرى ماء النعيم بِصُخْنَتَيْهِ

رآها ناظري فصبا إليها ... وشِبْه الشُّيء مُنجِذَب إليه

وقال ابن خفاجه في مليح أسودٍ يسبح في الماء[1]:

وأسودٌ يسبح في لجّةٍ ... لا تكتم الحصباء غدرانها

كأنّها في شكلها مقلةٌ ... زرقاء والأسود إنسانُها

وقال آخر فيه أيضاً[2]:

يا أسودٌ يسبح في بركةٍ ... فقت الورى حسناً وإحساناً

كنت بخدّ الحسن خالاً وقد ... صرت لعين العين إنساناً

المولى الأعظم[3] يوسف بن المتوكل على الله من ضوران المحميّ[4]

هو بحرٌ وبر، خلع على المعالي حلل خزّ لا شَمْلَة وبر، روض سيادة مُعْشب الساحة، وعضد إمامه كم للمقتر في أنامله من راحة، يرسل رياح وعوده، فتكون نشراً بين يدي إفضاله وجوده، تنشاء بهاْ سحائب مداده الجون في آفاق الطروس، فتمطر البارد العذب على ظمآن القلوب والنفوس، فلا يدري المستجدي

(١) ديوان ابن خفاجة: ٢٦٤ ط دار صادر، الغيث المسجم ٢: ٢٧١.

(٢) الغيث المسجم ٢: ٢٧١.

(٣) نسمة السحر ٣: ٣١٥ نفحات العنبر (خ) البدر الطالع ٢٠٠٢/٣٥ نشر العرف ٢: ٩٠٤ الأعلام ٨: ٢١٨.

(٤) حصن مشهور باليمن سبق ذكره ج ١: ٢١١.

وقد أمّه أمّا. أهمعت غمائمه عليه نضاراً أم ما، يجود حَتّى بالعتاق الشوازب، لمّا لازم الجود عليه ضربة لازب، تَسْحب السحاب من الخُيَلاء ذيل المطر، إذاقيست بكفّه في النوال لأنّها ظفرت بالوطر، أطلق النوال بعد أسره، وجبر عِضْوه بعد كسره، يضحك كفّه بالندا على حدائق قد تكللت بالنّدى، فكم بين روضٍ يثمر الذهب والجواهر، وبين روض يطلع الثمار والأزاهر، ذو غيث من النوال مِهْطال، وغصن في روضة المجد قد طال، فهو زوج غادةٍ من العلا غير مِعْطال، فاضل في فضله تفرّد، وسيف لقطع أعناق الملحدين قد تجرّد.

كما أرانا من أوراقه الكمائم، وأسمعنا من غراب مداده سجع الحمائم، ذو عرفان يموج بحراً، فيقذف على شاطئه ما يحلّي سالفاً ونحراً، مع عفاف وزهد، هذا سكّر حلو وهذا شهد، حقرت لديه العظائم وذَلّت، وصغرت عنده الزّخارف الدنيوية وقلّت. ونُسْك وتقوى، عليه النّفوس لا تَقْوى. لمّا التزم من العبادة أشقّها، وفرى بُمْدية الصّبر حلّة الاستراحة وشقها، فالتزم عبادة داود ابن إيشا[١]، وألبس طائره من الطاووس ريشاً، فهو يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويسبح في لجج عجز عنه القوم عوماً.

وهكذا من أراد لحوبائه فطاماً، وأرهف لها من سيف المخالفة سطاماً[٢]، وهو مع هذه الخلال في طبع أروح من بارد الظلال، ألطف من نسيم خطر، عقيب وقوع الطلّ وانهمال المطر. قرأ في مبتدأ شبابه وريعانه على والدي الذي حيّاه في العلم بمنثوره وريحانه. حثّه والده المتوكل على اجتناء عذقه المتعَثْكِل، وأوجب عليه ملازمة روضه المخضَلْ، فأصبح وباتَ تحت أفيائه الممدودة للتحصيل وظلّ، واهتدى بنجوم نرجسه المنيرة وما ضلّ، فإذا هو يقتطف من خلال زهره الباسم، ما لا يقتطفه من الجناء الداني في رياض أمّ قاسم[٣]، فما اللسان المثني إلاعليه لا

---

(١) هو نبي الله داؤد عليه السلام.

(٢) حد السيف.

(٣) إشارة إلى النحوي الكبير بدر الدين حسن المعروف بابن أم قاسم بن عبد الله المتوفى سنة ٧٤٩ صاحب الجنى الداني في حروف المعاني (معجم المؤلفين ٣: ٢٧١).

على المغني[١]، بلغ ببركته من الفنون الغاية، ولم يغرب عليه من كتب التفسير معنى كلّ آية، ثم لمّا كمل اجتهاده، وطال في نظر صلاح المسلمين سُهاده، دعا إلى الإمامة والدهر ألين من ثمامة، وتكنّى بالمنصور، ومدّ لواء عدل عليه مقصور، فتجَهَّم له بما لم يخطر على بال، وقسا في طاعته فوق قسوة الجبال، فكأنه من حبل رُمّه، فما أسعده إلى تمام مقصده. وفي الحقيقة لم يُسْعد الأمّة، والدهر إلى الناقص أميل طموح، كما أنه على الكريم بخيل غير سموح، فآل به الحال إلى السجن والقيد، وأفضى أمره مع من عاداه إلى المكر والكيد، فلو لم يكن يوسف مِصْره، والكريم ابن الكريم في عصره، لما سجن وحبس، وتَلَقّاه الدهر بوجه قد عبس، فكأنه قيل له: قد شاركت يوسف الصدّيق في اسمه وخصاله. فلا بد لك أن تشاركه في سجنه ونكاية نصاله، ثم خلص بعد ذلك من الشدّة، وعَكَف في زاوية الخمول المدة بعد المدّة، يَقْتطف ثمار علوم طيّبه، قد غذّتها في منابتها قطرات نداه الصَّيبة. يغض الروض لديها بثمراته من الحسد والقهر، رأيته بصنعاء في يوم عيد، وقد برز إلى المصلّى شخصه السعيد، فرأيت نور الإمامة يَلْمع من قَسَماته، وشَمَمْت رائحة الخلافة تفوح من نَسَماته. وقد ارتدى برداء الوقار، وتقلّد من ذكائه بِذْي الفِقَار. ورايته ثانياً بقصرها، ومشاد ربعها ومصرها بِحَضْرة إمام الزمن، وخليفة أقطار اليمن. في يوم غدير كأنّه بحر ماج، قد أدمجت الزينة في أثناء يومه أيّ إدماج.

ولم يزل في لقائي راغباً، وإلى موائد محاضرتي ساغباً[٢]، وإلى الآن لم أحظَ بمحاورته، ولم يُسْعدني الدهر من بَخْره إلى مجاورته، ولم يسمح لي الزمن البخيل بمحاضرته، أستغفر الله فقد حاضرت يوسف من لحوم الأنعام على المائدة[٣]، وحاورته على خوانٍ لبعض إخوانه وقد مدّت الأيدي للطعام لا للكلأ

(١) إشارة إلى كتاب مغني اللبيب في النحو (معروف).
(٢) ساغب: جامع مع تعب.
(٣) توجيه بسورة يوسف والأنعام والمائدة.

رائدة في بعض ليالي رمضان الكريم على سماطٍ قد رصف، لا تحتوي العبارة على ما حواه إذا نعت أو وصف، فذاكرني ألطف مذاكرة. وتَضولج قلمه فإذا قلبي له كره، فلعب بِلُبّي كيف شاء، ولكنه حشا بفوائده الحَشَا، وذكر لي استفادته على والدي.

وقال: بركات أبيك احتويت من العلم على طريفي وتالدي، جزي عني بجنّة نعيم، ولا برح له رضاء الله بالأجر أيّ زعيم. وقد رأيت له كلاماً على نكتٍ أدبيّة، تدير ما لا تديره الأكواب الحَببِيَّة، تدل على الذوق السليم، والفطنة التي يشفى بترياقها السليم[1]. وما برح للإسلام ركناً، وما زالت دار الدنيا تشرف به سكناً، حتى رحل إلى مدينة عمران البون، ولم يدر أن بينه وبين فسحة الأجل أيّ بون، فوافته بعد استقراره المنيّة، وكدّر الحمام موارده العذبة السنيّة، فأدرج في أكفانه، وعدّ أهل القبور من ضيفانه، وقبر بقبّة ملصقة في الجامع، وعلى ضريحه الآن برق من الأنوار لامع، يمطر به من جفون من طاف بتابوته غيث من الدموع هامع، لا برحت زليخا الحور تراود يوسف عن نفسه، ولا زالت متلقية له في الفردوس بغاية من أنسه، ولا انفكت الغمامة والنسيم هامعة وخاطرة على رمسه.

وله أدب غضّ، يكره لديه المدام ويُبْغض، حتى يقطِّب في وجهها شاربها، . ويبدد المنتظم من عقد حبابها مقاربها. منه قوله مجيباً مبرزاً من نفائسه عجيباً:

أمنوّع الألحان في القُضِبِ ... رفقاً بقَلْبِ متيّم صبٌ
أذكرت في الروضات إلفتنا ... ومقامنا بمعاهد الشّعب
أيّام لا نَضغي لذي عذل ... سَمْعاً ولا نلوي على عتبِ
لله أيام أتت ومَضَتْ ... وَمَضْت ومِيْض البرق في السحب
أتشفّع الأيام زورتها ... وتعيد حلو المطعم العذب
يا ماضياً في العيش عد كرماً ... فلأنت روح الروح والقلب
لا تَنْس ما عوَّدتنا فلنا ... عهد عليك بمَخْضر الصَّحبِ

---

(١) اللديغ سبق.

بـمـقـام تـاج الأكـرمـيـن ومـن هُـوَ فـي ذويـه الـبـدر فـي الـشـهـبِ
زيـد الـذي يـروي مـكـارمـه فـي فـي أقـاصـي الـعـجـم والـعـربِ
مـن سـارت الـركـبـان تَـمْـدحـه طِـيـبـاً لـهـذا الـذكـر فـي الـرَّكـب
أحـبـب بـهـا ذكـري فـقـد جـمـعـت جـيـشـاً يـفَـرِّق زُمْـرة الـكـربِ
نـاهـيـك مـن مـولـى عـلاً ونـداً أكـرم بـه مـن مـاجـدٍ نـدبِ
بـثـنـاهُ تـعـبـق كـلّ نـاحـيـة طـيـبـاً ويـطـرب كـل ذي لـبّ
يـا واصـفـاً عـلـيـاه مـنـشـرحـاً لا يـنـقـضـي مـن عـدّهـا عـجـبـي
أمـا عـلاه فـلـسـت أحـصـرهـا أنَّـى أطـيـق حـسـابـهـا حـسـبـي

وقوله في مملوكة اسمها عينا:

وربّ راءٍ لـلـفـتـاة الـتـي قـد أبـرزت طُـرَّتـهـا غَـيْـنـا
صـادٍ إلـى ريـقـتـهـا عـاجـبٍ مـن حـاجـب يـحـكـي لـهـا نـونـا
وصِـدْغـهـا كـالـلّام مـع مَـبْـسـم كـالـمِـيْـم قـد جـاء كـمـا شـئـنـا
مـن جـاءنـا يـسـأل عـن وصـفـهـا يـروم إيـضـاحـاً وتَـبْـيِـيـنـا
كـيـف الـمـحـيّـا كـيـف ذاك الـبـهـا مـا الاسـم كـيـف الـخـد قـل: عَـيْـنـا

أقول في هذا النظم التوجيه بالحروف المعروفة، وهو ظاهر. وفي قوله عينا تورية مربعة، ولأنه أراد بقوله: عينا يقابل قوله: كيف المحيا عين الماء ومنه ماء المحيّا. وأراد بقوله: عينا يقابل قوله: كيف ذاك البهاء عين الشمس، وأراد بقوله: عينا يقابل قوله: كيف الخدّ عين الذهب لأن خد الحسناء طالما شبّه بالدينار من الذهب سيما الجواري السّمر. وأراد بقوله: عيناً يقابل قوله: ما الاسم استفهاماً اسم المملوكة المذكورة، فكان في قوله: عينا التورية المربعة كما ترى، وهو ظاهرٌ.

وقوله في رجل تزوج، ولما زفّت إليه زوجته طرقها الحيض عند الزفاف:

هـل زالـت الـحـمـرة عـن ضـاحـك وهـل نـقـي الـخـد خـان الـنـقـا

وهل أتى الفتح كما يرتجى ليوسف ذي المجد خدن التُّقى
بلَّغه الله قصارى المُنى في هذه الدار ودار البقَا

قلت: وفي هذا النظم التوجيه بألقابِ معروفة من ألقاب علم الرمل، وهي «الحمرة» و«الضاحك» و«نقى الخد». وفيه الجناس بين النقى بالنون والتقى بالتاء المثنيّة الفوقية. والبقا بالباء الموحدة.

وفي التوجيه بالضاحك من علم الرّمل التورية، فقد ذكر المفسرون عند تفسير قوله تعالى في ذكر سارة[1] زوجة[2] خليل الله إبراهيم عليه الصَّلاة والسلام (فضحكت فبشرناها بإسحق) أنَّ المراد بالضّحك هنا الحيض، فقوله: ضحكت، أي: حاضت. وعليه قول الشَّنفرى:

تضحك الضبع لقتلي هذلٍ وترى الذئبُ لها يَستهل

تضحك أي: تحيض لأكل لحومهم، أو أنها كما تزعم العرب تستدخل ذكور القتلى ولشدة الشبق تحيض، والتي تحيض من الحيوان المرأة والضبع والكلبة والأرنب، ومن الطيرالخفّاش. وأما أبو عثمان الجاحظ فأنكر حيض الضَّبع، وقال من رآها، وقال بعض المفسرين في الآية الكريمة أنّ المراد بالضحك فيها الضحك المعروف، لأن تفسير الضحك بالحيض غريب.

وأما بيت الشنفرى فليس ينصرف فيه الضحك إلا إلى الحيض فقط.

وكتب صاحب الترجمة عليه السلام من نظمه إلى السيد الأديب يوسف بن يحيى بن الحسين المعروف بصاحب دار حرير رحمه الله تعالى المتقدم ذكره في هذا الكتاب[3] يلومه على عدم ذكر القاضي العلامة الأديب شهاب الدين أحمد بن

---

(١) الأصول سارية.

(٢) في (ش) جارية.

(٣) انظر ترجمته في الجزء الأول: ٤١٧.

صالح بن محمّد بن أبي الرجال رضي الله عنه في كتابه المسمى: «نسمة السحر، في ذكر من تشيع وشعر».

قوله:

سرت النَّسيم وما تُمسِّك ذيلها ... بأبي المكارم والفضائل أحمد
يا ليت شعري ما الذي قد صدّها ... من أن تمر بذلك الروض النّدي

وله:

ما بال قلبي إذا ما ظاعن ظعناً ... يؤمّ صنعا التي طابت لنا سَكَنَا
كالبَرْق يخفق خفقاً لا هدوّ له ... والبَرْق يسكن والخفّاق ما سكنا

وله مضمناً:

هذا سوار ماله من مشبه ... من مصمتٍ ومجوّف ومنمنم
قد قال كلّ مفوّه في وصفه ... «هذا السوار لمثل هذا المعصمِ»

وله:

أعجبت من نَبَأ التي بذّت ولا ... سبب أبان صدودها وبعادها
لا تعجبي فالريم ينفر إن رأت ... أسد العرين وإن أراد ودادها

وكتب إليه الشريف الظريف، عماد الدين يحيى بن إبراهيم الجحّافي لا برح جدثه أشبه شيء بالرّوض المريف، نثراً أرق من دمع الطلّ في عيون النرجس، وخدود الورد، وألطف من مثنى السموط على اللَّبَّات إذا رصف من الجوهر الفرد، قد فصَّل تاجه بفصوص نفيسة من المنظوم، وأدمج في أثناء فِقَرِه من شعره ما لعله انتزع من ثغر ذات كشيح مهظوم، نقلت ذلك من خطّه، وباهيت بالمنضود منه مسرود الدّر حتى رميته بهضمه وحطّه. وذلك قوله:

أما بعد أن يتجلّى وجه التحية ويتبلّج، وتتبرج ذاتها بزينة ولا تتحرّج، ويتضوّع نشرها في مقام يوسف بن الخليفة ويتأرّج، فإنه يجب أن تصغّر هذه

الرسالة الخد، ويتجاوز سيف عينها الحد، وتمدّ إلى لحيةِ الملال ورأسه اليد، وتدير عليه كأس الملامة، وترمي بين يديه بشرر نسأل الله منها العافية والسلامة، وتخاطبه غير مبالية، وتشير إليه بأصبعها السبَّابة تالية: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾[١]، فأنت بأسرار أبكار الأفكار علاّمةٌ وقتنا:

ما حال تلك الظبية الآنسة | لا برحت في مهجتي كانسة
وهل عيون العِيْن من غير ما | نوم كعينيها ترى ناعسة

وهل اعتقدت أن نهب القلوب، عند ذوي الحسن شَرْط في الصحّة والوجوب، وأن الدلال سنّة مؤكدة، وأنّها بالمحافظة على التجنّي متَعَّبدة، فإنّها سلكت في من يهواها مسلك السامري، وتنكبت مذهب البهازهير[٢] والحاجري[٣]، وأمّا أنّه «ليس لمخضوب البنان يمين»[٤]، فذلك شيء لو كشف الغطاء ما ازددت يقين. وهذه قد اختضبت بالمداد، فكيف تحل محبّها من نفسها وقلبها وإنسان عينها السَّواد، مع أنّ أمرها قد شاع وذاع، وافترعتها الأبصار والأسماع، وفاح نشرها في الآفاق ولا أقول مخافة التورية: وضاع[٥]،ولكنها لم تواصل إلاّ الأكفاء، ولا تصاحب إلا من يصونها من الإقواء[٦] والإيطاء والإصراف والإكفاء[٧]، مثل زيد بن الإمام والحسين بن علي حفظهما الله تعالى. وأطلق في الشكر لهما والثناء عليهما البنان والأقلام والأفواه، وزادهما كمالاً، فكفى لها بمواصلتهما فخراً، فإنهما الملكان اللذان تنافس فيهما الشعرى العبور الشِّعرا، وتودّ النثرة[٨] أن يكون

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٦.
(٢) سبقت ترجمته في ١: ٥٧.
(٣) هو عيسى بن سنجر الحاجري انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٣: ٥٠١.
(٤) من قصيدة مشهورة للمجنون.
(٥) ضاع تضوع انتشرت رائحته.
(٦) من مصطلحات أهل العروض وهو اختلاف حركات الروي وهو من عيوب الشعر.
(٧) من مصطلحات أهل العروض سبق شرحها ج ١: ١٢٣.
(٨) من نجوم الزراعة.

في مدحهما نثراً. ولقد سمعت أنهما لمّا أبرزت لهما أنواعاً من السحر وأجناس. أخذ كلّ منهما يتلو قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]، ولو عرفا ما ألفته من الصدّ، لما تركا قراءة قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾[2]، وآخر ما أقول وإن كان العتب فيه طول، أنّي السبب في خروجهما من العدم إلى الوجود، فلولاي ما كان للأقلام في طاعتهما ركوع ولا سجود:

مقلتها الكحلاء قد أصبحت ... للورد في أوجائها حارسة
أن تَجْتَنِي عيني أزهارها ... يوماً فقد كانت هي الغارسة

وما ساءني إلا أنّها صفت بينها وبين غيري المودّة، وبرزت له دوني في أخلاقٍ مستجدة، وذلك في شرعة الأدب رِدّة وأيّ ردّه:

قد فاقت الشمس ولكنها ... عني دلالاً أبداً شامسة
مشرقة إلاّ إذا قلت: يا ... شمس الضحى أبصرتها عابسة

ومع إعراضها عني، وتباعدها منّي، فقد هزّتني البواعث إليها، ورفرفت حمائم الأشواق إليها، فصَبْراً على بعد ذاتها، وشكراً لدنوّ صفاتها:

ذات جمال باهرٍ لم تكن ... في الوَصْل منها مهجتي آيسة
مليحة قد رُزِقت حُلَّةٌ ... من البها صارت لها لابسة

وقد آن لي أن أجنح إلى السلم، واستعمل في حقّها الحلم، فهي سكرانة من خَمْر الصِّبا، وظبية غريرة فإذا نَفَرَت فالنِّفار من شأن الظِّبا.

وهكذا من أفرط في الرغبة، وأظهر من حسن الظن مزيد المحبة:

في بنت عشر بعدها أربع ... موصولة بالسَّنَةِ الخامسة

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٦

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٠٢.

مـــائـــســـة الأعـــطـــافَ ريَّـــانـــةٌ   يـــا بِـــأَبِـــي قـــامـــتـــهـــا الـــمـــائـــســـة

وأعود إلى مدح من افتتحت هذا السؤال باسمه، ونظمت هذا العقد النفيس بَرسْمه، وكَنَّيت بالظباء العين عن نثره ونظمه، فأقول: وبالله التوفيق، ونسأله الإعانة على مراعاة ما يجب للصَّديق:

يـــا قَـــلْـــب دع ذكـــر عـــهـــود الـــصِّـــبـــا   ودَعْ رســـومـــاً فـــي الـــهَـــوَى دارســـة
واذكـــر فـــتـــى الـــمَـــجْـــد الـــذي نَـــفْـــســـه   صـــارت لآيـــات الـــعـــلا دارســـة

ذاك الذي بلغ أعلى مراتب البلاغة، وبلّغ السحر الحلال إلى الأسماع والأبصار وأَحْسَنَ بَلاغَه، وأتى بأنواع من الحلى مسبوكة في قوالب الحسن مُصاغة، وأظهر في الفصاحة صِيْغةً استقلّت بنفسها، وجَلاَ عروساً انفردت في الحسن عن بنات جنسها:

مِـــصَـــبـــاح فـــهـــم وذكـــاء غـــدت   قـــريـــحـــتـــي مـــن نـــوره قـــابـــســـة
كـــم أبـــرزت فـــكـــرتـــه غـــادةً   عـــلـــى كـــراســـي حـــســـنـــهـــا جـــالـــســـة

لكنها توارت عَنّي بالحجاب، وضُرِب بينها وبيني بسورٍ له باب، باطنهُ فيه الرحمة وظاهره من قبلِه العذاب. والسبب هذا الذي ألومه وما أعذره، وأشكوه وإن كنت طول الزمان أشكره:

مـــن يـــده الـــبـــيـــضـــاء مـــن غـــيـــر مـــا   ســـوء لأمـــلاك الـــســـمـــا لامـــســـة
غـــيـــثٌ بـــه اخـــضـــرّت ريـــاض الـــعُـــلا   وأورقـــت أغـــصـــانـــه الـــيـــابـــســـة

ناهيك من رجلٍ آيات براعته متلوّة، وعرائس بدائعه مجلوّة، وخزائن أفكاره من ذخائر البلاغة مملوءة:

غـــنـــيَّـــة مُـــثْـــريّـــة طـــالـــمـــا   تـــيـــمّـــمـــتـــهـــا مـــهـــجـــتـــي الـــبـــائـــســـة
طـــامـــعـــةً فـــي درر لـــم تـــزل   لـــهـــا الـــذّراري هـــيـــبـــةً نـــاكـــســـة

قد كادت الأيام ترويها، والليالي تحفظها وتمليها، وأصبح لها لسان الدهر

منشداً، وسار بها من لا يسير متهماً ومنجداً، وغنَّى بها من لا يغنّي مفرداً[١]، كما قال أبو الطيب المتنبي، والله جلّ جلاله حسبه وحسبي، والسَّلام.

ولده العلاّمة إسحق بن يوسف[٢]

عالِم إن لم أشهد له بالعلم فقد شهد له عرفانه، وكريم أثنى عليه لمّا مدّ سماط إفادته من الطلبة ضيفانه، ومسهَّد في الإكباب على الدفاتر تشهد له بذلك أجفانه. سدّد من الإيضاح سهامه، وأصاب من الغواية الشاكلة والهامة. ما قصَّر في تحليق دَرْسه، ولا ترك في العلم شيئاً من ثمرات غَرْسه، فكم ذاق منها حلواً، وصار في اجتناء أطايبها لأبيه تلْوى، فهو من كل فن قد تضلّع، وهو إلى مخبآت كنوزه قد تطلّع، حتى أخذ منها ما صار به مليّاً، وصاغ لغادات من شِيَمِه الكريمة حُليّاً، فإذا الأقراط عليها خافقه. وإذا العقود مناسبة لثغورها موافقه، يقود الفوائد بلطف مقاده، ويقيّد الشوارد بسلاسل السّبج من مداده، ويفحص في المسائل العلمية فيشوق أنظار العلماء بحسن انتقاده، ما نظر في مسألة إلا رقمها، ولا وقف على درّة إلاّ وفي أسماط سطوره نظمها، لهمَّةٍ قد سمت سُمُوّ الكواكب، وحمّلتها بناتُ نعش على المناكب، وفاتت كلّ ماشٍ وراكب، لو رزق البدر كماله لما شاهه من الكلف قبح، ولو كسيت النجوم أنواره لما محا سطورها من صحيفة السماء كفّ صُبح.

عين الله تحرس من شِيَمه ما هو أهل للحراسة، وتذود عن ثمر دوحة يد الجاني فلا تنال غراسه. لقد طارت فضائله في الأقطار، ونفح في الخافقين منها الذكيّ المِعْطار، سار بها ساربها، وتحمَّلها من أكباد الإبل ضاربها، فما قُطْر إلا وله فيه ذكر. كما أنّه لا دقيق من فنون العلم إلا وله فيه دقيق فكر. فهو سديد

---

(١) ديوان المتنبي: ٣٧٣ والبيت في الديوان هكذا:

فسار بها من لا يسير مشهراً   وغنّى بها من لا يغني مغردا

(٢) نشر العرف ١: ٣٢٤.

النظر في الغوامض، حديد البصر في إدراك برق الدقائق الوامض. وخَطّه أميل إلى الملاحة، ووجه قرطاسه في غاية الصَّباحة، فلو رقم في كفّ الحسان، لاستغنت به عن نقش البنان، وكان أبوه به برّاً شفيقاً، لا يرى من خمرة شفقة به مفيقاً. يقول: الحمدُ لِلَّهِ الّذي وهَبَ لي علَى الكِبَر إسحق، وَمنَّ عليّ بطلوع بدر منه لا يعتريه المحاق، ولم يزل به مفتوناً افتتان صب، لمّا رفع له ذكره بغير تعب ونصب:

والمرء يفتن بابنه وبشعره   لكن ذلك فتنة العقلاء

وهو أهل بأن يفتتن بمحامده، ويفتخر به في هذا العصر على أماجده، فوالده به الفخار. لا بصلصال كالفخّار، إنما يفخر بماجدٍ يا له من ماجد، إذا نظره البرق هوى من فلكه له في خضوع ساجد:

يقبّل البدر ترباً أنت واطئه   فللتُّراب عليه ذلك الأثرا

وأمّا آدابه الغضّة، ونجومه التي هي على مردة الحساد مُنقَضَّة، فلا تسل عما تحار عنده، ولا تعصر من حلوه إلاّ قنده، ففي السؤال عنه إعنات. وفي تجاهل العارف هنات وأيّ هنات، فلو رامت الحسان الغواني، ورامت وجردن عزماً لها لم يكُ بواني، في أن تُدْرك من بنات فكره جمالاً، وتنال وفوراً من سماتها وكمالاً، لما وقعت على غير عناها، وقد فاتها قصدها ومناها، فطالما لاقت هند وأسما عنا، في مبارات بنات فكرٍ له أودعها قلوبنا وأسماعنا.

لله ما أعذب كلامه! لله ما ألطف نظامه! لله ما أطرب حَمَامه! لله ما أبهى وأبهج كِمَامه!

وأما منثوره فمنثور الحديقة، سَقَتْه قبيل الصبح غمامةٌ غديقة، يميل لسماعه الطروب الفاره، كما مال النَّشوان، وقد جَسَّ المطرب عروق أوتاره، طالما خلب لُبّي، واستل من بين الظلوع قَلْبي، بإدماج آدابه في أثناء محاورتي، وإملاء بعض أشعاره عند مقامرتي، وإطلاع شهب منثوره في ليل مسامرتي، ممّا يدير على

المحبين الرحيق، ويهوى بالباغضين ريح إسحق[١] في مكان سحيق، ولمّا توفّي أبوه بِعَمْران، وانقضى بين نجميهما الاقتران، رأى من الحال ما أغاضه، وأجرى دمع حسراته وأفاضه، فرحل إلى مدينة ذمار، وحمى بها من عرضه ذمار، وخمل خمول الكنز في مَدْفنه، واختفى اختفاء الذهب في معدنه، طاوياً حشاه على ألم، تتجافى عن المضاجع منه الجُنوب، لما عدّ الزمن محاسنه عليه من الذنوب، شعراً[٢]:

وأعـظـم مـا ألاقـي أن دهـري   يـعـد مـحـاسـني لـي مـن ذنـوبـي

وكان يأوي إلى متنزه له نضير، يغيظ به الوارقة[٣] ويضير، يصقل به صداه ويلتقط اللؤلؤ من نَدَاه، وقد سقط عليه الطَّلّ، وحلَّت منه العيون العطل، وأصاب طرف[٤] النرجس به أرق. ولبس من الأوراق ما هو من السندس أرقّ، وشعره يَنْضَمُّ إلى الدُّر ويُنْظم في سموط نجوم الأفلاك. فلا شك أنه الحقيق بأن ينضمّ إلى الدّر وينظم في تلك الأسلاك.

فمن شعره الذي يقلقل الدرّ في صدفه، ويخجل النجم الزاهر تحت غدفه، وشعره الذي يقال لمتعاطيه: مالك في الخمر عنده من حاجة. هذه نفثاته هي السلاف المعتق وهذا قرطاسه الزجاجة، فاكتف بتناول ما يكفيك بابتسامه من تلك عن التقطيب، وجانب منها الرائحة الكريهة، واستنشق من هذا متضوّع الطيب.

قوله: ممّا أجرى به حِبَره، وطرّزته حواشي الرّق فكفانا عن منّة الخز والإبرة، يستدعي من بعض أقاربه أنثى من الحمام، ليوالف في داره بينها وبين ذكرٍ

---

(١) الريح قشرت الأرض بوجهها.

(٢) من قصيدة للشريف الرضي مطلعها:

ألان جـوانـبـي غـمـر الـخـطـوب   وأعـجـلـنـي الزّمـان إلى الـمـشـيـب

ديوانه (٢).

(٣) الشجرة الكثيرة الورق.

(٤) ساقط من (ش).

من الحمام، أيضاً ينوح من القلق والهيام، لا يدخل تحت طوقه أن يبقى فريداً بلا أليف، وأن ينتقل وحده من غصنٍ إلى غصنٍ في الرَّوض المنيف:

أَبْلِغْ إلى الورقا تحيّة أورق — عن صدق ودّ من فؤادٍ شيّقِ
واشرح لمَسْمِعهما كمال صفاته — وجمال منظره وحسن المنطقِ
الورد تَنْشره حواشي بُرْده — واللاّزورد بجِيْده المتطوِّق
فكأنه لهب من الكبريت في الإ — نبيق فيه بقية من زئبقِ
من أخضرٍ نضر وأصفر فاقع — بادي الشعاع وأحمر في أزرق
وتشاهد النسرين في أعطافه — والنار حشو رمادها المتعلقِ
فكأنه فلق الصّباح يضيء في — شفق يلوح خلال غيم مطبقِ
يروي الأغاني بالسَّماع ويحفظ الـ — ـقانون في النّغمات حِفْظ محقّقِ
لو أن إسحق النديم رآه أسـ — ـمعه من الألحان ما لم يسبقِ
وكفاه ألحان السّواجع كلفة الإ — عراب والمنظوم سجع مطوقِ

وله:

فهمت بكلِّي سرّ معنى خطابه — فأخرسني إعجازه عن جوابهِ
وقد صار جسمي من نحولٍ ورقة — كرَسْم حروف خطّها في كتابهِ
ولو كنت حرفاً كنت شاهدت صورتي — ولكنني معنى حروف خطابِهِ
ولو كنت معنى كنت شيئاً وإنّما — أغاليط عِشْق قد أتى بعجابهِ

وله:

لعمرك ما في الدهر يوم مسالم — ولا في الورى شخص عن العيب سالم
فأيّ خطوب الدهر أنكر مسّها — وفي كل حين للخطوب تزاحم
فما كانت الدنيا نعيماً وإنّما — أهين بها لمّا عصى الله آدم
أتطمع في خفض من العيش رائقٍ — ورفع ولم تعمل عليك الجوازم
فكم رام هذا من مليكٍ متوّج — مهيبٍ تحاماه الأسود الضَّراغم

أطاع له شرق البلاد وغربها | وألقت عليه عربها والأعاجم
توهّم أن قدنال منه مراده | فأيقظه صرف الرَّدى وهو نائم
فقد جَرَّد الدهر الخؤون لحربنا | سيوف عَناً تنبوا لديها الصَّوارم
إذا ما انتضاها لم تصب غير مَقْتل | وإن جرحت لم تَشْفِ منها المراهم

وله: في وصف حِصان أشقر:

وأشقر تحكيه البروق إذا اختفى | بجنح سحاب من غُبَار أثارهُ
رأى الشفق القاني وقد لاح نوره | فطار إلى أفق السّما فاستعارهُ
ولمّا جرى نَهْر السما بعد فجره | توضأ منه فاستتم شعاره
فَصَلَّت جياد خلفه قد تيمّمت | ثراه وعادت لم تشق غبارهُ

وله:

لم يبق لي حسنك الفتّان من سَبَبٍ | إلى الحياة ولكن قدّر اللّهُ
قلبي لديك وأفكاري عليك وأمر | ي في يديك وروحي أنت إيَّاه
لقد تملكت مني كلّ ما بيدي | كأنّما أنا لفظ أنت معناهُ

وله يستهدي حِبْراً كأنّه فحم يذيب خلال جمره من كلامه تبراً:

أيّها الحَبْر جد بشيء من الحِبْر | يسير فكَمْ به لك من يد
هذه النون نحوكم قد تلت سا | ل وقالت أين الكريم المسوّد
ولقد شاب رأسها فلهذا | عاملتها الأقلام بالهجر والصدّ

وله:

كن لاجتماع الرأي مجتهداً | ودع التفرّق إنه نَحْس
زهر النجوم لو انّها اجتمعت | لم يبق لا قمر ولا شمس

وله بيت مفرد:

لا ينصف المرء من لم يصف خاطره | يوماً ويَمْنحه الإنصاف إن صافا

وقلت: أنا قبل أن أقف على هذا:

لا ينصفنك من صافاك خلّته فلا تقل ذا خليلي طاب أوصافا
فما وجدنا خليلاً في بني زمني يولي المخالل إنصافاً وإن صافا

وكتب صاحب الترجمة من المنثور زهر الجمان، والكلام الذي هو في حكاية فضل صاحبه ترجمان، إلى بعض إخوانه الخلّص، قبل أن ينقبض ظل العيش ويتقلّص، يستدعيه إلى منازه بئر العزب، وحظائر أعنابها المسبوكة من عين الذهب. وذلك في شهر رمضان الكريم سنة ثمان وثلاثين ومائة و ألف سنة ١١٣٨:

الحمد لله الذي نزهنا في رياض نعمه الزاهية، وأوردنا حياض كرمه الصافية. وأشهد أن لا إلٰه إلا الله شهادة طامع في العفو، وأصلّي وأسلم على محمد القائل[١]: «روحوا هذه النفوس بشيء من اللهو».

أما بعد: فلما كانت المعاهدة بالرسائل أوكد عهد في شرع المودة والمروءة، وعَرْض النَّصيحة لِغَيْر طالبها حسناً في عرف الأخوة. أحببت أن أعرض على الأخ الكريم رأياً رأيته، وأدلّه على غرض رَمَيْته، وهو الدعاء إلى جنان معروشة. ورياض بالسندس والإستبرق مفروشة، أحداق النرجس بها قد حَدَّقت، وحدائق المنثور قد أحدقت، وخدود الورد قد تبلّجت، وثغور الأقاح قد تفلّجت.

فانظر الأمام هل ترى[٢] إلا المطارف من نَسْج الغمام، واصرف نظرك من نحو اليمين، هل تجد إلاّ الورد والياسمين، ثم ألحظ إلى اليسار. هل ترى إلا جداول الأنهار، واصقل صدى النظر، بالتحديق إلى هذه الخضر، واصرف دقائق الأفكار إلى حقائق حدائق هذه الأزهار، فقد أتت الزهور في إبداعها، بفنون البديع على أنواعها، فانظر في تقدم الزهر في (الظهور)، لمّا أصلتت حوله صوارم، وإلى لطف (براعة الاستهلال) التي دلّت على المراد بألطف إشارةٍ حسب مقتضى الحال، ولا لاحظ الورد معنى (التورية) في التستّر بالأكمام، وأتت أصابع المنثور

(١) حديث روحوا القلوب ساعة وساعة رواه الديلمي وأبو نعيم والقضاعي عن أنس رفقة (كشف الخفاء والإلباس ١: ٥٢٤).
(٢) ش هل تنظر.

بـ (التفويف) و(الإبهام)، وشَمَّر الزنبق ساقه للـ (استخدام) لما خفقت على الورد أعلام الإمارة وتسعرت نار الجلّنار فأبدع في هذه (الاستعارة).

والنسيم قد وشا بما في طيّها من (الإشارة)، فجاء بـ (الطيّ والنشر)[1] بألطف عبارة، فنمّ على النمّام وقد بالغ في كتمان ضميره، وسرق الكحل من عيون النرجس بغير شعوره والجوّ قد رقّ أديمه، وقرّ نسيمه، وصفت سكائكه[2] عن كدورات الهباء، وصفت على رياضهِ أذيال نسيم الصبا، فكأن الغصون سكارى والنَّهر حمياها، أو عروس نصبت مرآةً لترى محيّاها، فأوقاتها كلها غرر، وساحاتها كلها سَحَرْ، ليلها كليل تهامة، ونهارها لا حرّ ولا قرّ ولا مخافة ولا سآمة، وطالما رقَّصت الأغصان نسيم الأسحار، وحرّكت أوتار العيدان سواجع الأطيار، فهي طرباً تترنّم بالتغريد، فلو طربت الجمادات لذاب لها الحديد.

فهيهات أن تفعل في العقول المثاني ما تفعله هذه الأغاني، ويا بعد ما بين الطير والطار، ونغمة المِزْهر والهزار، وبالجملة فما يفي[3] بحقيقة ما هنالك الوصف، فقد حف بها اللطف من يمينٍ وشمالٍ وأمام وخَلْف. وإذا قام برهان العيان، تساوى في البيان باقلٌ وسحبان[4].

والحمد لله على جزيل الإنعام، والصَّلاة والسلام على محمد الذي حَسُن به الختام، انتهى.

قف أيها اللبيب هنا على نفثات سحريَّة وكلمات هي نسيم أصيلية سَحَرية، وما أحسن فيها براعة الاستهلال بقوله: الحمد لله الذي نزّهنا في رياض نعمه الزاهية، بذكر التنزّه وهو الخروج إلى البستان. وهو بهذا المكتوب يَسْتدعي المكتوب إليه إلى منازه بئر العزب كما ذكرناه، وهو الخروج إلى البساتين.

---

(١) براعة الاستهلال والتورية والتفويف والإبهام والاستخدام والاستعارة والإشارة والطي والنشر من أنواع علم البديع سبق شرحها انظر الجزء الأول.

(٢) الهواء في أعالي الجو.

(٣) ش بقي.

(٤) مشهوران أحدهما يضرب به المثل في العي والآخر في الفصاحة.

قال ابن السكيت في فصل ما يضعه العامة في غير موضعه: خرجنا نتنزَّه إذا خرجوا إلى البساتين، وإنّما التنزّه التباعد عن المياه والأرياف. ومنه فلان يتنزه عن الأقذار، أي يباعد نفسه عنها.

وقال ابن قتيبة[1]: ذهب أكثر العلماء في قول الناس خرجوا يتنزهون إلى البساتين أنه غلط، وعندي ليس بغلط لأنّ البساتين إنما تكون خارج البلد، فمن أراد أن يأتيها أراد البعد عن المنازل، ثم كثر حتى استعملت النزهة في الخضرة والجنان. انتهى كلام ابن قتيبة.

وأقول: ليت صاحب الترجمة ـ أطال الله أعوامه وزان به قوامه ـ قال في هذه البراعة الاستهلالية، الحمد الله الذي نزّهنا في رياض نعمه الزاهية ونزّهنا في حقّه عن الاعتقادات الفاسدة الواهية، لكان ذكر التنزه في الفقرة الأولى لطيف، وهو الخروج إلى البساتين. وذكر التنزّه في الفقرة الثانية لطيف أيضاً، والمراد به التنزيه من السُّوء والعيب. يقال: نزّهت الله السوء إذا برأته منه. ويقال: نزّهت عرضي إذا برأته من العيب. وقد كتبت إلى صديق لمّا دعاني للتنزّه بروضة حاتم قولي في الاستخدام:

أجبتك لمّا إن دعوت إلى اللقا ... أزورك في روض زها وتزورني
وسارعت للتَّنزيه فيه مبادراً ... وقد حزته عن كل عيب يشونني

قوله: في هذا المكتوب أو عروس نصبت مرآة لترى محيّاها. هذا التشبيه والاستعارة في غاية الحسن واللطف الذي يذهب بالعقول، فللّه دَرٌ المنشيء من سَحَّار للألباب، وفاتح من البديع لمقفل الباب.

وقد كنت: أنا أتيت على هذا المعنى قبل أن أطّلع على هذه الفقرة كما علم الله تعالى. وذلك لما بُنِيَتْ لإمام العصر أيده الله تعالى الدار السعيدة بمتنزّه حدة المحمي على البِرْكة العظيمة في نهر حميس المعروف.

---

(١) أدب الكاتب: ٣٨ ط الدالي.

فقلت:

دار لمولانا الإمام وبِرْكة ... قدّامها ما إن تزال لديها
فكأنها الحسناء تبرج زينة ... وضعت لها المرآة بين يديها

وقلت أيضاً:

كأنما دار مولانا وبِرْكتها ... قدّامها تصقل النكباء باطنها
مليحة بين أيديها لها وضعت ... مراءة لترى فيها محاسنها

ومن هذا قول الآخر:

كأنما النهر وقد حفّت به ... أشجاره وصافحته الأغصن
مرآة غيد قد وقفن حولها ... ينظرن فيها أيَّهن الأحسن

قوله في وصف رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: الذي حسن به الختام لا شك أنّها قد فاحت الرائحة الطيّبة من مسك هذا الختام قبل أن نفضه ويدار علينا مُعَتَّقه. وقد ورَّى مَتَّع الله بآدابه، وجعل مسك الختام بين آداب المتأدبين في قوله الخِتام، لأنه قصد أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو ختام الأنبياء كما هو عند ذوي الذَّكاء، أوضح من الشمس وأجلى من ابن ذُكَاء[1]، وقصد أنّ ذكره هنا ختام لهذا المكتوب. وهذا الفن يسميه البديعيون: (حسن الانتهاء)[2]. فللّه در فكرة حامت على منهل هذا الختام.

ولله در هذا السيد العلاّمة الأديب الأحوذي الذي خلب الألباب يحسن بيانه، وعَقَد السحر الحلال ما بين أقلامه وبنانه و(في الأيام بقايا وفي الزوايا خبايا).

أخوه محمد بن يوسف[3]

بدرٌ أشرقت غرته، وروض نفحت زهرته، من آل المتوكل الأكارم وأقمار

---

(١) الصّبح (ثمار القلوب: ٢٦٤) وذُكَاء: الشمس (المرصع: ١٤٢).
(٢) انظره في خزانة الأدب ٢: ٤٩٣ ط شعيتو.
(٣) نشر العرف ٣: ٢٢١ ط الدراسات.

هالة الترائك[1] والصوارم. المَجْد عليهم قد قَصُر، والفخار فيهم قد حُصِرْ. قد باؤوا بالمحامد، وأتوا عطاء على المائع والجامد، طالما ملأوا بالمواهب الحجور. ونهضوا على الصنائع بأوفر الأجور. فالألسنة بشكرهم ناطقة، فطالما وضع الثناء عليهم تيجانه ومناطقه[2].

وهذا الفرع المنبي على كرم الأصل، والسّهم النافذ في شواكل الأعداء نفوذ النصل، قد استبدّ[3] من شريف الخصال، ما صال به على الحساد أيّ مصال. ووسم معه بالفضل من أيّام الحَمْل والفصال، مع شمائل كأنّها صَبَا، ما تعلَّق بها لطيف إلاّ صَبا، مسح بها من النسيم الناصية، فانبرت في لطفها، وَمَيَّلت غصون البان راقصة عن عطفها. ومدّ يده إلى الرياض فأينع الحلو من قطفها. قد ابتسم به ثغر زمان عابس. وقد لبس من مطارف علياه رقيق الملابس، فبرز في أعلا زينة، وسلاً بِشَيِمه خواطر حزينة، العَلْيا نصيبه، والمِداد مِسْكه وطِيْبه، فلا يبرح يقرّر المسائل، وَيحَرّر النظم الذي هو لرقّته سائل، أن تكلّم في مسألة أفاد. وإن قال شعراً أو نثراً أجاد، أما فكرته إلى الغوامض فواصله، طالما أبرز من الإبداع في النثر فواصله، مع وقارٍ لا يطمع فيه القلق، وسكينة كأنّها في ليل شبابِه طلوع الفلق. لو تحرك رضوى وثبير. ما تحرّك راسخُهُ و(لا ينبئك مثل خبير)، رأيته بمدينة عمران[4] فرأيت لبيباً، وصِدْتُ أوابد لفظه فاقتنصت غزالاً ربيباً، وخمائل شبابه مثمرة، وليالي شعره السّود مقمِرة، ثم رأيته بجامع صنعاء، وقد خضع له العزيز دنعا[5]، وهو في حلقه الدرس كالقمر في هالته. وقد ساقط النجوم الزاهرة في أثناء مقالته، فإذا البدر بالشهب محفوف. وإذا هو في مطارف أنواره ملفوف،

(١) بيضة الحديد يضعها المحارب على رأسه.

(٢) جمع منطقة سبق شرحه في الجزء الأول: ١٧٤.

(٣) في ش استبدل.

(٤) مدينة باليمن سبق ذكرها ج ١: ٢٩٦.

(٥) دنع: ذلّ.

فقعدت بجنبه مستفيداً، ولِمَا عندي من العلوم، وهو القليل مستزيداً، فسمعت منه ما لم يُسْمع. وقد جمع من الفوائد ما لا يُجْمع، وهو يراجع شيخه بترجيع الحمائم. وقد تفتّق غصن قلمه عن أزهار الكمائم، احتبى فإذا هو الجبل قد احتبى، وحبى بالفوائد أقرانه فمَا أوفر تلك الحُبَى، فاستَرْسِل في أمداحه يا قلمي. وانتشر في الثناء عليه من الأوراق يا عَلَمي.

فما رأيت أهلاً للمدح إلا أيّاه، ولا وجدت خليقاً بالثناء إلا مُحَيَّاه، ولا استنشقت من أفاويه[1] الذكر أطيب من ريّاه، لا برح لعصرنا فَخْراً، ولا زال عند المُعْضلات ذخراً.

وشِعْره كالمدام إسكاراً، وبنات فكره لم يزلن أبكاراً، لم يطمثهن سواه طامث. وإنّما يسمع الغير من نغمتهنّ المثاني والمثالث.

أنشدني قصيدة له هي للإجادة مِعْيار. أشبه شيء في نظمها بنظم الشاعر المفلق مِهْيار. لا ليس له في الأشعار من شبيه، ولا يَقْتدر على سبك تلك القلائد إلا هذا النَّبيه، وهي **قوله**:

علّ أن يعطفه الشوق العطوف ... فهو للحلّة من قبل ألوفُ
مهبط الأنواء بل مر تبع ... للصّبا فيه ربيع وخريفُ
يسقط الطلّ على أكناف من ... يجتني أزهارها الظل الوريفُ
حيث ينأى الهمّ والغمّ معا ... وتواتي من يدانيها القطوفُ
وتلبّيك إذا ناديت مِنْ ... جانب القَصْر على السَّرعة هِيْفُ
لم يكن يلقف ما قد أفكت ... بابليّ هو بالسّحر عروفُ
يَغْلب الدل على مشيتها ... فتثنّى فتغنّيها الشنوفُ

---

(١) سبق شرحه في الجزء الأول: ٦٣٢.

أبلغ الكشح إلى الردف الذي قد شكا من جوره الخِصْر الضعيف
جمع الدهر بها الشمل فلما غَلِـ ـق الرَّهن عدت عنها الحتوفُ
دمعها منذ تنائيت ولم تلتفت منها على الخد ذروفُ
قلّ ما تهجر من قد أَلِفت في هواها فلها قلبٌ رؤوفُ
وانقباض النفس بسط للرضى عند ذي وجد له ذِهْن شريفُ
أيّها الغادي الذي أزعجه حرجف سار إلى الشام عصوفُ
مرَّ لا يَلْوي على ذي شَجن هزّه الدهر وعاقته الصروفُ
تارةً يُضْمره الغَوْر سرى عندما يُظهره النّجد المنيفُ
إن تكن عَرَّجت بالرَّبع الذي هو روض أخضر السَّفْح وريفُ
فَأقر عَنِّي العالم البحر الذي موجه بالدّر في البحر قَذوفُ
ألف إكرام عليه ما سَرَى من نسيم في الرّبا عَرْف لطيفُ
المجلّي في سباق إن جرت حَلْبةٌ في الفضل أو شُقَّت صفوفُ
أحوذي زيَّنته في العُلى من طراز الفضل والفخر شفوفُ
وترقّى رتب المجد إلى غاية فهو بأقصاها وقوفُ
يا رسولي نحو إبراهيم من نزلت في سوحه الرّحب الضيوفُ
قل له: قال أخو الوجد الذي هو في الودّ على العهد عَكُوفُ
ليت شعري أيّ ذنب كان لي إذ توالى منك وجدٌ ونحيفُ
هات حَقّق ثم وَرِّى واجتهد خِيفة الكاشح فالأمر مخوفُ

وقوله:

تمنّيت لما أن سمعت حديثها بأنّ حواسي الخمس قد كُنَّ مَسْمعَا
فلمّا تبدّت قلت ليت جوارحي عيوناً ترى من حسنها ما تَمَنَّعا
شبابٌ كما شاءت يكون وخلقة تراها كما شاء الإلٰه وأبدعا
وَحسبكها من فتنة لو تصَوَّرت لهاروت ألقته إلى الأرض مسرعا

المولى الأعظم عليّ بن الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن الإمام القاسم[1]

هو سيّد الملوك، وشمس العلا التي ما لها دلوك، سبط الكفّين، اللابس من العلم والأدب الشفّين[2]. له في المجد أعلى وأغلا قباب، ما دخلها قط غيره فدونها عليه إغلاق باب، هو للمعالي هيولى[3]، ومرتبته في مراتب نظرائه المرتبة الأولى، أيامه النيّرة غرر، ولياليه على جَبين الأيام طُرر، نور عَدْله ساطع، ولهذا بطشه قاطع، ذو جودٍ فاض، طرّز برد مجده الفضفاض، يمٌّ يخوض به العفاة، ونِيْل نَيْل يحقق وفاه[4]، وصادق وعدٍ يحرك به لسانه وفاه، آل إليه الملك من بين الآل، فظفر منه المستنون شرابٍ لا كالآل[5]. ابتسمت له الثغور، وانبجست عيون نواله، فهي لا تغور، فهو من كلّ جواد أجود، وقَلَمه في التيمن به لذوي الحاجات السهم الأسود[6]، سحاب ذو هيدب[7]، يخضب بوقع مطره ما أجدب، فكيف يمتري الغمام من علم أن أنامله موجودة.

وكيف يلتمس الغِنى من غيره من قد أفاض عليه جوده، صفرت كفّه وتربت يداه، إذا عدم من استمسك بذيل من نداه، لا ملأ الله راحته، ولا شحن بالخير ساحته، لأنّ نداه في سحب الخطوب قطر هامع، وذهب نواله في متكاثف ركامها برق لامع، وذكره في ملابس الأيام عطر فائحٌ، وسجيّته في عطل الزمان عقد لائح، حتى ثبت مدحه على ممرّ الآباد، ولا أرى دولته كانت تشبه إلا دولة

---

(١) وفاته سنة ١٠٩٦هـ (خلاصة الأثر ٣: ١٤٨ ونفحة الريحانة ٣: ٢٥٧ وكتابنا الأدب اليمني عصر خروج الأتراك الأول من اليمن: ٢٦٩ ونسمة السحر ٢: ٤٢١.

(٢) مثنى شف: الثوب الرقيق.

(٣) الهيولى: عناصر الكون عند الفلاسفة.

(٤) إشارة إلى وفاء النيل (معروف).

(٥) السراب.

(٦) السهم الأسود: المبارك يتيمن به من كثرة ما أصابته الأيدي (محيط المحيط: ٤٣٩).

(٧) السحاب المتدلي الذي يدنو من الأرض.

المعتمد بن عبّاد[1]، إلا أنه لم ينحس كما نحس، ولم يُبْخس في بضاعة الأدب كما بخسْ، أستغفر الله لا أرى المعتمد، إلاّ من بحر نواله المتلاطم يَسْتمد، بسق في الكُماة كل غصنٍ أنضر، لمّا سقاه ماء نواله فأورق من السلاح بورق الحديد الأخضر.

ابتهج الزّمان لدولته، وأحجمت الأسد عند صولته، وولي اليمن الأسفل، ففتح فيه من الجود بابه المقفل، فما لأهله دونه من والٍ، ولا لألسنته فيهم من تبديل لأنها أفرغت في أبهج منوال، أحكم نهيه وأحسن أمره، فانجلى به من الفخار طرفٌ أمره، فأيامه من الدّهر شرخ الشباب، وعطاؤه لنبت الآمال قطر الرّباب، منعم متفضّل، ألبس الأيام حللاً زاهيةً، وقد كانت بلبسه متفضّل، بجودٍ يباري الغمام، ويفلج قطره ثغور الأقاح في الأكمام، عاد به شباب الزمان بعد أن كبر، وأحيا دارس النّوال فما زال يتحدَّر حِلْو عوارفه من صبر[2]، ليث أين ما شاء سلك، إذ مدّ ثعلب رمحه خافه حتى أسد الفلك، يكلّم المعادي بلسان السنان، ويجلب الراحة إلى المُوَالي بجود البنان، أعلامه أنشر من معالمه، وأوامره أنفذ في الكتائب من صوارمه، ترتعد لهيبته السيوف، وترتعش السُّمر عند ملاقاة الصفوف، إذ رقى من ظهر جواده برجا، ودّ الهلال بأن يكون له سَرْجا، وإذا كتب في السلم ودّت الأعلام أن تكون له قراطيس والرماح أقلاما، وإذا طعن في الحرب تمنّت اليراعات لو أنّها أصبحت له رماحاً والأوراق أعلاماً، فهو بحر إذ ماج، وبرّ للبديع في ألفاظه إدماج.

وكان مقامه بالعلماء والأدباء يحف، فطالما بجيشهم الغالب على جيش الجهالة زحف، فهو بدر باهر، وهم نجومٌ حوله زواهر، وكان يقال له صيرفي الشعر، لحسن نقده، الذي به لكل نظم عنده سعر، ما انتقد أحدٌ انتقاده، ولاقاد أبيّات الأبيات مقاده، حتى ميّز الرديء من الجيد، وفرق بين العبد وبين السيّد،

---

(١) أمير من الأندلس (معروف).

(٢) تورية في جبل صبر المطل على مدينة تعز.

وهو مع سعادة الدولة وصولته في عدو الزمن أيّ صوله، لا يعرض عن مجلس استفاده، وَيَبْحث عن كنز علم لا يخشى عليه نفاده، فإذا هو ربّ عِلْم وعَلَم، تارة يمسك السيف، وتارةً يقبض القلم، يلبس حلة التواضع لأستاذه، ويساقط على روضه بارد وبله ورذاذه، اعترافاً للفضل وذويه، واجتلاء لمحيّاهُ الذي هو جَميل غير شَويه، ووفاء بحق من علّم وهدى، وصَدَعَ جبل الجهالة حتى خرّ انصداعاً وهدّا، وإنصاف الفاضل للفاضل زيادة في فضله، وإكرام النبيل للنبيل يعدّ من نُبْله، حتّى بلغني من الرائح والغادي، أنّه كان يمهّد فراش شيخه بيده ذات الأيادي، وحوله الخول والعبيد، لكنه يرعب أن لا يبلى الثناء عليه ولا يبيد.

وعلى الجملة فمحاسن خصاله عديدة، وملابسُ فضائله جديدة، لاتطمع الأيام في إخلاقها، ولا تطمع من جبلّتِه إلى تغيير أخلاقها، كانت تفخر به (جبلة) و(تعز)[1]، ويعلو به درّ الأدب ويرخص الفلز[2]، فإنه بحر لا تنجي من أمواجه الجزائر، وأسد زأر لمّا زار خريدة العُلا فهو على الحالين زائر، إلى أن طرقته أمّ اللّهيم[3]، وإذا سهم قوسه المسدد سهيم.

مات فمات الجود بموته، وفات في أسرع وقتٍ ففات بفوته، نازلَه الموت منازله العدوّ، وأبدل عيون محبيه لمصرعه السّهر بعد الهدو، فاجأه الحمام مفاجأة الوَجِلْ، وطوى أعضاءه المقدسة طيّ السّجل، خوفاً من بطشه، وزلزلةً لقواعد عرشه، صال عليه عند الوصول، فحطمت تلك الرّماح والنّصول، وإذا جودي ضريحه قد رسى، ورفع علماً على رأسه نار الأسى، ودفن بمدينة (إب). واكتئب لحادثه الباغض والمحب، وبَكَتْه جبله بدَمْع العينين من نَهريها، لَمّا ذوى من أخلاقه ومن روضها بعده غضّ زهريها، قبر بجنب الكاظمي، سقى ضريحه من الأفق هامع مزنه، وعزّ على ذافنيه فراقه وعلى كاظمي غيظ حزنه، وقد زرت قبره،

---

(١) مدينة باليمن سبق ذكرها في ج ١ : ٢٩٩.

(٢) الجواهر.

(٣) الداهية والمنية (المرصع : ٢٤٣).

وأرقت على روضة ملحده غيث عبرة، لا زالت السحب عليه منسحبه، وعيون القطر فوقه باكية مُنْتحبه، فإذا الغمامة عليه قد وقفت. وإذا قطراتها قد تتبعت آثاره ووقفت، سقى الله عظامه، ولقاه تفضّلاً منه إعظامه، وأسكنه من الفردوس أرفع الغرف، ما نبض عرق النبات بمرور النسيم ورق. ونزل القُمْري من الحدائق الخضلة في ورق، وما عطس صباحٌ بنشق كافوره، فسمّته الروض المطلول بأغاريد طيوره.

وله عرائس أشعار، وأبكار أفكار واضحة الجبين، ظاهرة الجمال المستبين، فاحمة الجعيد، سامية الجيد كحيلة الأحداق، لؤلؤية الثغر البرّاق، تميس دلالاً وعجباً، وتسلب اللطيف هوى وحبّاً، فكم ارتعش القلم لهيامه بِهِ، وهو ذو ثبات، كما ارتعش الغصن من الفرح بزيارة النسيم له وهو على فراش النبات، لأنه بلغ من البلاغة أقصى مراد، فطرسه لجياد أقلامه ميدان طراد، فهي فيه تتسابق عن جري مهيل، ومدادها عِثْيرٌ وصريرها صهيل، فهو حامي الحميًا. ومن ألفاظه مدير الحميّا.

وقد وقفت على ديوان له لطف نظماً وحجماً، وروضة مجموع وسماء أدب، راقت تلك وأنارت هذه في الحالتين نجما، فمما تبرَّح من بنات أفكاره عن زِينة، وترك القلوب عليه والهةً حزينة، واستأصل على الأفئدة بالوداد، وأسفر بوجهٍ في حالك البراقع، وما ذاك سوى المداد قوله(١):

لـمّـا رنـا ظـبـي الـخـمـيـلـة ... أصـمـى(٢) بـمـقـلـتـه الـكـحـيـلـة
رشـأ تـود الـشـمـس أن ... تـحـكـي مـحـاسـنـه الـجـمـيـلـة
والـبَـدْر يَـهْـوي أنّـه ... يـلـقـى لـرؤيـتـه وسـيـلـة
وكـذا الـسُّـيـوف إذا رأت ... ألـحـاظـه عـادت كـلـيـلـة

(١) أوردها صاحب نسمة السحر ٢ : ٤٢١.
(٢) مطبوعة النسمة: اضنا.

وشذاه لو حكت الصّبا سحراً لما دُعِيَتْ عليلة
والغصن لمّا احتال[1] أن يحكي القوام بكل حيلة
ناديت يا غصن الأرا كة لست من هذي القبيلة
يا برق إن جئت النقا ورأيت من قربٍ نخيلة[2]
فهناك مربعه وهاتيك السّفوح غدت مقيلة
بلغه أشواقي وقف واحذر وقوفك أن تطيله
فعساه يسعف صبّه ويَبِلُّ باللقيا غليلة
أو لا فأنهي قصتي لأخي المقامات الجليلة[3]
أعني ضياء المكرمات وصاحب الرتب الجليلة

منها:

جاءتك أبكارٌ تزفّ إلى علاك المستطيلة
سالت بِمَدْحك رقّةً تَخْتال في ثوب المخيلة
جاءتك وهي قليلة والمدح للفئة القليلة

وله قصيدة ضمن بيتي ابن لؤلؤة الذهبي[4] المشهورين في الحمامة:

صَبّ يكاد يذوب من حرّ الجوى ولانهمال جفونه بالأدمعِ
وإذا تنفَّست الصبا ذكر الصّبا ليالياً مرّت بسفح الأجرعِ
آهاً على ذاك الزمان وطِيْبه عبث الغضى وطني ومن أهوى معي
ما زال ومضُ البرق يذكي لوعتي ويهيجُ تذكاري لذاك المربعِ
وإذا تغنّت في الغصون حمامة هاجت بلابل قلب صبٍّ موجعِ

---

(١) مطبوعة النسمة: اختال بالخاء المعجمة (خطأ).
(٢) مطبوعة النسمة: مخيلة.
(٣) مطبوعة النّسمة (الجميلة).
(٤) سبق ذكره في الجزء الأول: ١٩٦.

سجعت على غصنٍ ولم تذق الهوى مِثْلي ولم تَدر الغرام ولم تع
(أحمامة الوادي بشرقيِّ الغضى إن كنت مسعدة الكئيب فرجعي)
(إنا تقاسمنا الغضى فغصونه في راحتيك وناره في أضلعي)

وقوله:

أيكتم ما به الصبّ المشوق وقد لمعت له وهناً بروق
وهل يخفي الغرام أخو ولوعٍ يؤرّق جفنه البرق الخفوق
ويسلو عن أهيل الجزع صَبّ جرى من جفن عينيه العقيق
إليك إليك عنّي يا عذولي فلست عن الصبابة أستفيق
فإن سمومها عِندي نَسيم وإن أجاجها عندي رحيق
فلو ذقت الهوى وسلكت فيه لما ضلت إليه بك الطريق
فلي قلبٌ إلى بانات حَزْوى طروب لا يملّ ولا يفيق
فآه هل ترى زمني بِسَلْع يعود وذلك العيش الأنيقُ
ويَمْنحني أحَيْبابي بوَصْل ويرجع بعد فرقته الفريق
فها قلبي أسير في هواهم وها دمعي لبينهم طليق

قوله: فإن سمومها البيت، مثله ما جاء لي في كلام منثور: وهو لا تلم صباً صبَا، فسموم الحب عنده صبَا، وأجاجه عذبٌ حلو، وشرابه لشراب السكر تلو، فاستنشق نسيمه فقد طاب، وادهق كاسه إن كنت تعرف الخطاب.

ومن نظم صاحب الترجمة رضوان الله عليه، قوله:

ظبي من الإنس غدا مفرطا في تِيْهه والدّل والعُجبِ
قلت له يوماً وقد رمت أن يرشفني من ريقه العذبِ
إياك والإفراط أنّي إمرؤ لا أرتضي ملك الهوى قلبي
فمذ رأت غيظي وقد راعها تَبَسّمت عن لؤلؤ رطبِ
ثم انثنت نحوي وقالت: أما تعفو فقد أقررت بالذنبِ

قلت لها: عطفاً فقد بان من   سيوف ألحاظك لي غلبي

قال السيد يوسف بن الحسين رحمه الله تعالى في كتابه المسمّى «نسمة السحر» بعد إيراده لهذا النظم ما لفظه[1].

قلت: أمّا[2] تهدّد الحبيب، فليس يليق بالأديب. انتهى قوله.

وأنا أقول: ليس في هذا النظم للمحبوبة تهدّد، بلا شك عندي ولا تردّد، كيف وقد قال: إنه قد بان من سيوف ألحاظها غلبه، يعني إن غلب بسيف ألحاظها وصار كالرقّ لها، مع أنّه ملك لا يجوزأن يغلبه غيره لأنه ذو سيوف حداد، ورماح صعاد، وخيول جياد، وفرسان جزيلة التّعداد، وهذا منه غايةٌ في التنزل لمحبوبه؛ وإنما أراد أن يبيّن سلطانه، ويوضح في رتب العلياء مكانه، وما هو عليه من المرتبة السامية، والعصابة التي هي عن أطراف مُلكه محاميه، وأراد أن يعلم المحبوبة أنّ غيظه غيض الملوك ذوي الشهامة والأنفة والرّفعة فنبهها على محله من المجد وأنّه خضع لها وهو ممّن يخضع له الثقلان، أليس تراه لما رأى روعها من غيضه أنسها وقال لها: عطفاً، وهذا منه غاية في اللين وانقياد سلطانه لسلطان الحسن، بينا هو في قساوة الحديد من سيوفه وأسنته عند قوله لا أرتضي ملك الهوى قلبي إذا هو في لين الثمام[3] عند قوله: قلت لها: عطفاً.

ومن نظم صاحب الترجمة رحمه الله تعالى لمّا رأى بعض بطانته ومعه رمح طويل. **قوله**[4]:

ما بطول القناة يعرف ذو البا   س ولا بالّلباس زين الرّجال

إنّما البأس طردك الخيل   بالخيل وطعن الكماة والأبطال

---

(١) نسمة السحر ٢: ٤٢٣.

(٢) مطبوعة النسمة (ما) خطأ.

(٣) الثمام: نبت ضعيف لا يطول.

(٤) أوردها صاحب نسمة السحر ٢: ٤٢٣.

في مجال غدا به النَّقع كالليـ ـل وأضحت نجومه من نصالِ[1]
يوم لا بارق سوى لمع سيفٍ وَذقه سال من دماء الرجالِ

وقوله من قصيدة نضيدة :

أكذا المشتاق يؤرّقه تغريد الورق ويقلقُه
وإذا ما لاح على أضم برق أشجاه تألقُه
يخفى الأشواق فيظهرها دمعٌ في الخدّ ترقرقُه
إيهِ يا برق أما خبرٌ مضناً قد طال تشوقُه

وقد نظمت أنا في هذا البحر والرّوي **فقلت**:

ذهبَيّ العنق مطوّقه يشجي المشتاق ويقلقُه
قد مال الغصن هوىً منه واهتز غراماً مورقُه
وعيون الزَّهر وقد حفَت بالرَّوض صباحاً ترمقُه
خفّف يا طَير فدَمْع الطل كدمعي منك ترقرقُه
أجفاك الإلف بلا سبب ونأى بعداً من يَغشقه
فتأس بحالي ها أنذا بعد الكتمان أحققُه
لكنّي أخشى أنفاسي في الروض المونق تحرقُه

وله قصيدة وجهها إلى أبيه الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم عليه السَّلام يحثّه بها على أخذ بلاد مكة المشرّفة ونواحيها، لما رجع الحاج، وحصل لهم المنع من الأتراك عن الحج في بعض السنن لأمر يطول ذكره ومستهلها **قوله**[2]:

لعمرك ليس يدرك بالتَّواني ولا بالعَجْز غايات الأماني
فما نَيل المعالى قط إلاّ ببيض الهند والسّمر اللّدانِ
وحزم دونه الشم الرواسي وعزم لم يكن أبداً بواني

---

(١) مطبوعة النسمة (فصال بالفاء خطأ).

(٢) أوردها صاحب نسمة السحر ٢ : ٤٢٢.

ونَفْس كلما جاشت أرته قرى نعمان ميلاً من عمان
ولم تك قط شيمتها لعلّي ولا من هَمّ همتها عساني
تخوض إلى المعالي كلّ هولٍ وليس لها عن العلياء ثاني

ولما دعا أخوه الإمام الزاهد العابد المولى المؤيّد[١] بالله أمير المؤمنين محمد بن المتوكل على الله عادت بركاته الناس إلى إمامته أجابه وتابعه وبايعه، لما تحقق أهليّته للإمامة، وقد أجمعت عليه الأمّة، مع أنّه كان يطلبها لنفسه وكتب إليه متمثلاً بقول سيف الدولة ابن حمدان مما كتبه إلى أخيه ناصر الدولة، وهو[٢]:

(رضيتك للعليا وقد كنت أهلها وقلت لهم بيني وبين أخي فرق)
(ولم يك بِي عنها نكولٌ وإنما تغافلت[٣] عن حقي فَتَمَّ لك الحقّ)
(ولا بد لي من أن أكون مصلّياً إذا كنت تهوى[٤] أن يكون لك السَّبق)

قلت: في قوله مصلياً تورية لأنه يصح أن يكون أراد به المصلي وهو ثاني خيل الحلبة في السباق، ولأن رأسه يلي صلوي السباق تثنية صلا، وهو العظم الذي عليه الإليتان، لأن المصلي يكون عند جانبي ذنب السابق عن يمينه أو عن شماله، وقد رَشَّح لهذا القصد بقوله: أن يكون لك السبق، ويصح أن يكون من الصَّلاة معناه أنه مع صحة إمامة أخيه يكون مصلياً صلاة الجمعة، لأنّ وجود الإمام الجامع للشروط عند البعض، شرط في صِحّة صلاة الجمعة. والصلاة فعلة من صلّى كالزكاة من زَكّى، وهي أيضاً مشتقة من الصّلاة، وهو العظم المذكورة، لأن المصلي يحرك صلوَيْه في الركوع والسجود. وبذلك عرفت التورية التي ما أظن الناظم قصدها ولو أنه قال: إذا كنت تهوى أن تكون مجلياً لكان أحسن، وإن كان قوله أن يكون له السبق بمعناه، لأن السابق هو الأوّل في خيل الحلبة فهو المجلى،

---

(١) انظر مذكرات المؤيد بالله التي نشرناها سنة ١٤١١هـ.

(٢) البيتان في يتيمة الدهر ١: ٤٦ والكامل لابن الأثير ٨: ٥٨، ووفيات الأعيان: ٢: ١١٦.

(٣) الوفيات: تجافيت.

(٤) الوفيات: أرضى.

لكن ذِكْر المجلى مع ذِكْر المصلي أجلى وأوضح، فلو أنه قال مع زيادة الجناس، كما قلت أنا:

رضيتك للعليا وقد كنت أهلها ... فما زلت للأجياد منها مجليّاً
ولا بد لي من أن أكون مصلّياً ... إذا كنت تهوى أن تكون مصلياً

ومن نظم صاحب الترجمة قوله:

قِفَا وانظرا يا صاحبيّ إلى الرّبى ... تزيل بمرآها الهموم عن القلب
وقد ألبست من أخضر النّبت سندسا ... وجاد عليها الغيث باللؤلؤ الرّطب
وأبرزت الأغصان أقداح زهرها ... لتَلْقف ما ينصبّ من درر السّحب

وقوله:

ظبي أتاني في الصّباح مقبّلاً ... كفِّي وآثار النعاس عليه
في مِطْرفٍ من أرجوانٍ صِبغُه ... أرخى حواشيه على خدّيه
كالبدر في شفقٍ وليس نعاسُه ... إلا لأن الخَمْر في شفتيه

وقوله: في مليح ضرب فأثر فيه الضرب حمرةً في مواضعه:

ما ضُرب الخدّ على رِيبة ... وليس بالضّرب لعمري حقيق
لكن رأوه صيغ من فِضّة ... فرصّعوه بفصوص العقيق

وقوله:

وقالوا حُسْن من تهواه ولَّى ... ودبّ عذاره في الخدّ نَمْلا
يريدوا يطفئوا نوراً تجلّى ... بعارضه ويأبى الله إلاّ

وقوله في الحمامة:

وحمامةٍ صدحت على فنن اللّوى ... غنّت فأزرت بالغريض[1] ومعبد[2]

---

(١) الغريض (المعنى المشهور).

(٢) كسابقه.

لـم أنـس أحـمـر كـفّـه لـمّـا غـدت ... تـشـدوا عـلـى مـخـضـرّ غُـضـن أمـلـد
فـكـأنّـهـا كـف مـن الـمـرجـان قـد ... قَـبَـضَـت بـراحـتـهـا قـضـيـب زبـرجـد

وقوله أيضاً:

أثـارت شـجـا قـلـب الـعـمـيـد حـمـامـةٌ ... ونـاحـت ومـا بـاحـت بـأسـرار شـوقـهـا
تـنـوح عـلـى غـصـن وتُـبْـدي صـبـابـةً ... وهَيْهَات ما حَمْل الهوى تحت طوقها

ذكرت هنا قولي في الحمامة أيضاً:

وحـمـامـةٌ غَـنَّـت عـلـى غـصـن عـلـى ... نـهـر جـرى فـي الـرَّوضـة الـغـنّـاء
ظـنّـت بـأن الإلـف مـنـهـا حـاضـر ... مُـغْـتَـرَّة بـخـيـالـهـا فـي الـمـاء

وقولي:

نَـسَـجَـتْ أنـمـلِ الـنـسـيـم عـلـى الـرو ... ض لـطـيـفـاً يـفـوت نَـسْـج الـحـيـاك
فـبـدا لـلـحـمـامـة الـظـلّ مـنـهـا ... تـحـتـه فـانـثـنـت بِـعَـبْـرة بـاكـي
ألـقـت الـطـوق إذ غـدت فـي نـواحٍ ... تـحـسـب الإلـف واقـعـاً فـي الـشـبـاك

ولد أخيه المولى محمد بن زيد بن الإمام المتوكل على الله[1]

أفضل راقٍ ظهر الجواد، وأفضل من بَيَّض غِمَار السَّواد، ما عقد اللواء على مثله ممّن يباريه، ولا نُصِبت الظلّة على ماجدٍ يشابهه ويجاريه. ولا تَجَمَّل بأرق من حلّة مجده من الفخار عارية، ما أنجب[2] جبلّته، وما أظهر في المحامد ملّته، وما أشرف فطرته، وما أنفذ إمرته، عليه مسحة من برارة آبائه. هي عنوان لما طاب في الانتشاق من أنبائه، بحار مكارمه غير مكفوفةٌ، ورياض أخلاقه بالزهور محفوفة، وخطُّه من أحسن الخطوط، له في أودية السطور البَهِجَة شطوط[3]، ولقد ودّ الغواني من رقمه مروط، ولآذانها من خالص ذهبه المسبوك قُرُوط، تتعلم منه

---

(١) نشر العرف ٣: ١٥٧. نفحات العنبر (خ).
(٢) في (ش) انجبت.
(٣) جمع شاطئ: معروف.

السَّوالف نمنمة العذَار، وتأخذ طرائق النقش منه للبنان ذات السوار، فكان في عهد المتوكل، المجلّي في الرتب لا الفسكل[1]، يُهَيْمن على العمّال في ديوان الحساب، ويَنْتسب إلى التيقظ فيه أتمّ الانتساب، فما ضاع مدخول ولا مخروج، ولا انحطت سماء نظام للملك بمالها من فروج، يحاسب حساباً يسيراً، ويفكّ من أغلال الأين والكيف أسيرا، بِعَطْف ما له بدل، وسَتْر على العوار قد انسدل، فكم ألجم عن العبارة محاسبه لا بأعداد متشابهة بل بأعداد متناسبة.

فهو بأفكار المحاسبين قد تلعّب، لأنه ذو ضرب راسخٍ في ضرب الجذر المكعّب، أسمع بكلماته الجذر الأصمّ[2]، وقصم سيف ذهنه من عرى الكتّاب حوله ما فصم، وله في علم التاريخ يد طولى، إذا عدّدت فيه الأيدي، فهي اليد الأولى.

وله عِقْد نَظْم مَنْسوق، شرى سمطه الغالي من سوق، وهو سوق [أدبِ من][3] الدّفاتر، لا يدخله ذو همةٍ قاصرة وعزم فاتر، ينفق فيه النفيس، ويبور في حافاته الخسيس.

وله من المَنْثور حديقة، تُسْقى من ماء اللطف بعين غديقه، صان الله محاسنه عن الشّين، وحاط عين الذهب من كلماته عن الجارحة المبصرة من العين، وأنار بدره من فُلْك نِعمةٍ طلع فيها فلالا. ولا زال الأدباء ينادون عند كلماته الفائقة: هكذا هكذا وإلاّ فلالا، ما بادرت في الصّباح الشمس، تتناول كاسات الزهور بالخمس، فترشَّفَتْ منها شراب النَّدى، وعند ذلك أفصح الطير على منارات الشجر بالنِّدا، يقول: الجدّ الجدّ على الشرب، والبعد البعد من المسكر بعد القرب، توهّماً منه أن ذلك من خَمْر القناني، قد صبّ من زهر الخطمي[4] في كؤوس الياقوت الأحمر القاني.

---

(١) الفسكل: الفرس الذي يجر في آخر الحلبة.

(٢) الجذر المكعب والأصم من مصطلحات أهل الهندسة والحساب.

(٣) ساقط من (ش).

(٤) الخطمي: نبات له خواص عند الأطباء.

كتب إليّ دامت علاه في شهر جمادى الأولى سنة أربع وأربعين ومائة وألف سنة، مقرّظاً لكتابنا هذا المسمى (طيب السّمر في أوقات السحر) وقد أرجع لي منه الجزء الأول بعد أن استدعاه مِنّا فطالعه. وذلك من النثر والنظم، ثم أرجعه. **قوله**:

القاضي الذي شغف بالفضائل فسما، وفاق النيّرين إشراقاً وعلواً وهُمَا ما هما. من أحيا شرع الأدب وجدّد، ونَظَم عِقْده بعد أن تبدد، شهاب الإسلام وبدر الأعلام أحمد بن محمد، حفظه الله وَحَيَّاه، وزان جبين الدّهر بإشراق محيّاه، وخصّه بسلام يتجدَّد، وتحيةٍ لطائمها[١] الذارية بختام مسكها عليه يتردّد. هذا وإنه وصل السّفر الذي أسفر عن مطالع البدور، وأشرق نور بلاغته وفاح نَوْرها في منازل السرور، فأما السّحر الحلال فهذه صفاته، وأمّا الروض النظير فهذه أزهاره ونفحاته، وأمّا الفضل بكليّته فتلك سماته.

وذلك ليس الأنموذج للبديع إلاّ زُبْدته، وللأدب الغض إلا أصله ومِحْتَدُه وعمدته. ما أبقت فيه البلاغة، فضلة للفاضل[٢] ولا لابن المراغة[٣]، فالوليد[٤] من الغيرة قد شاب، والزمن به قد راق فطاب، وتلذّذ بمطالعته السَّمَر وقرب من العتمة لطِيبهِ السحر، والصّبح بذيل الليل قد عَثَرَ، طوّل مؤلفُه في فصوله اللؤلؤية فلم يملل، وأوجز في نفثاته حتى ودّ المستملي لو أنه أسعف سعده بالمطول[٥]، فما (الفصوص)[٦] النفيسة إلا من حَصْباه، ولا (الدّر المنثور)[٧] إلا ما نظم من معانيه على الجباه، ولا اللؤلؤ إلا (شذور) فواصله المبتكرة، ولا (الجنى الداني)[٨]

---

(١) المسك وكل طيب يحمل على الصدغ.

(٢) يعني القاضي الفاضل كاتب الإنشاء في عصر صلاح الدين الأيوبي (معروف).

(٣) يعني جرير نبز أطلقه الفرزدق على المذكور.

(٤) يعني البحتري.

(٥) المطول شرح تلخيص المفتاح، والسعد يعني سعد الدين التفتازاني سبق ذكره.

(٦) يعني كتاب صاعد في اللغة.

(٧) كتاب في التفسير لجلال الدين السيوطي.

(٨) في حروف المعاني للمرادي سبق ذكره مراراً.

إلا من ثماره التي هي تحت أوراقها مستترة، ولا (الجوهر المصون) إلاّ ما اشتمل عليه عقده المكنون، وأما (قلائد العقيان)[١]، فإنّما هو مما التقط في سفوحه من إكام المرجان.

وهو ببراعته ولطفه (مغنى اللبيب)، غير مفتقرٍ إلى (التنقيح) و(التهذيب)[٢]، لا وحسن (المنطق) من صفاته، ونتيجة العرفان من مقدماته، وقطعية (البرهان)[٣] وصحّة مادته، حكم قاطع بأمكنيَّته وإجادته، فلقد ختمت بمؤلفه (رسالة البلغاء) ولا غرو فإنّه أحمد. وله وراثة الفضائل والفواضل من أبيه السابق، فمن عرفه صلى على محمد، فلا بدع إذا قلت في خطابه، ومشيت منه في واضح طريقه ومنهج صوابه شعراً:

حُزت البديع وكل مَغنى قد غلا ... وفتحت باباً للمفاخر مُقْفلا
إن الأولى الأحرار قد أبقوا لنا ... أدباً فلم أحرزت ذلك بالولا[٤]
إن كنت أعتقت الكرام عن الخطا ... فلأنت أولى بالوراثة أوّلا
نَظَّمت كل يتيمةٍ في سمطها ... عِقْداً يزان به الكمال مكلَّلا
تَهْواه كل جميلة في خِدْرها ... ليكون أحلى ما يكون من الحُلاَ
يا أحمد المَحْمود في أفعاله ... وخصاله وكماله إذ كُمِّلا
طالعت ما نَظَمْت قريحتُك التي ... نَسَجَت لذات الفَضْل صافية الملا
فرأيت ما بَهَر العقول وما عَسَى ... أني أقول وإن وجدت المِقْولا
واعذر فإنّ بضاعتي في مثل ذا ... مزجاة نظم لا يعدّ ولا ولا

هذا ما أمكن من المقالة، وقد قَصَّرت عن تأدية المراد لا محالة، فأقبل ما سَمَحَت به القريحة، وانتشق من أذياله وإن لم يطب رِيْحه، وعليكم أفضل السلام

---

(١) ما بين القوسين أسماء كتب معروفة عند العلماء.
(٢) النتيجة والمقدمة والبرهان من مصطلحات أهل المنطق.
(٣) أي حزته بالنسبة وذلك أن المعتق له حق الولاء فينسب المعتق بالفتح إليه.

ما طلع شمس وقمر، وما خامر قلباً سلاف (طيب السَّمر) والصلاة والسلام على محمد وآله سادات البشر[1]:

وإن قميصاً خيط من نسج تسعة وعشرين حرفاً عن معاليه يَقْصُرُ

فأجبته من النثر والنظم بقولي: لا شك أنّه طِيْب طيب السّمر، بما ضاع عنده مِمّا يتعطَّر به النسيم حين مرّ، وزاد منثوره نفحاً في أوقات السحر، بتقريظ سلب النّهى الراجحة وسحر، وَرَدَ إليّ وحبَّذا هو لما ورد، وحيّاني مبتسماً عن كاللآلىء والبَرَد، فطاش له عقلي مع وفوره، وتَشَّتت له لُبّي عند سفوره، وحِرْت ثم حرت ثم حرت، وناديت في ملاء الأتراب: لا شك أنّي قد سحرت، فاجتمع إليّ رب فاضل لا يجارى، زكا أصلاً وطاب فرعاً وشمخ نجارا.

وقالوا: ليس الأمر ما وهمت، وليس الخَبَر ما ظننته، فتهتّكت بما حواه وهِمْت، إنّما هذه بدور عليك قد طلعت، وشموس قد بزغت من مشارقها وسَطَعت، ولآلىء قد رُصّفت في أسماط الصدور، ورياض قد توشحت وتَقَلّدت بفصوص نفيسة من الزهور. فلمّا قيل لي: هي البدور والشموس، قمت بمهجة أزعجت بأشواقها، ولمّا قيل: هي اللآلئ بادرت الحسان إلى أن تنظمها في أطواقها، ولما قيل: هي الرياض مدت أيدي الندماء إلى اقتطاف أزهارها، وبسطت إلى اغتراف ما تحدّر على عذوبته من أنهارها.

فلما استوضحت الأمر غاية الاستيضاح، وتأملت تلك القلائد النفيسة والأوضاح، علمت أنها ألفاظ قَدْرَها غير مهضوم، وأنها نَفَثَات ساحرة من المنثور والمنظوم. دارت سواقيها بخمرة معتّقة، وسفرت في كؤوس البلّور مشنّفة بجواهر الحبب مقرطقة[2]، ينقص لديها الفاضل عبد الرحيم[3]، ويخرج من جنّة منثوره ويلقى من الغيظ في جحيم، ويرقص طرباً لها ويميد، منشئ بني أيوب عبد

---

(١) استشهد به صاحب سلافة العصر والكشكول.

(٢) المقرطق: لابس القرطق وهو مباذ وطاق واحد (معرب كرته الفارسية) (محيط المحيط).

(٣) هو القاضي الفاضل السابق ذكره.

الحميد[1]، يصبو إليها الصَّابي[2]. ويقول: لقد رميت للقصور عنها بأوصابي، فلا عتب عليّ ولا ملام إذا قلت: كلام الملوك ملوك الكلام، كيف لا أقول هذا، والناثر لها والناظم، الحاط بما حرّره لقدر الجواهر والهاضم، ربّ الأسمرين الرمح والقلم، ومولى الخافقين قلب العدوّ والعلم، العامر لركن المعالي بأيد، المولى جمال الإسلام محمد بن زيد، صان الله محاسنه، فكم بها من عين العدوّ محا سِنه. لله قلمه وما فَعَل، ولله قَدَمَه الذي بالثّريا قد انتعل، رقي إلى السماء فانتقى مصابيحها كلاماً، وقعد على الفلك فاستخدم بَدْره غلاماً، خصّني من تلك الأنجم بالزَّاهر المنير، وأرسل إليّ تحت بَنَفْسج الظَّلماء من نرجسها الذابل النَّضير، وجعل (طيب السّمر) أطيب من كل طيب، ورَصَّع روضه بلؤلؤ قطر هامع صِيِّب لمّا أثنى عليه وعلى واضعه، وأخذ ثمرالمقالة الداني من مواضعه، وخرج من رياض المنثور إلى سحر النظام المأثور.

نظام تتعلم منه الغانيات نَظْم العقود، ويرصِّف الساقي على مِنْواله تاج الحَبَبِ فوق رأس ابنة العنقود، ويقول من سمعه: هذا الحسن الموجود الذي هو عند غيره مفقود، فإن أراد السامع سماع نظمه، الذي أرخص الغالية[3] لمّا غلا، وفتح لي باباً لا طاقة لي على فتحه وقد صار مُقْفلا، فسأملي عليه ما قلته ممّا يجري مجرى الجواب، وأنا أعلم أني قد سلكت من الخطا طريقاً ليست في شيء من الصَّواب، ولم أسمعه الابتداء ضنَّة به وشحّاً، وحزناً من افتضاح نظمي عنده وقد نحا منه ما حقّه أن يُنَحَّى، ولكن أين من ينحو نحوه، أم أين من يُدرك من سُكْر نظمه صَحْوه، ولكنني لسُخْفي أقول مجانباً بحمقي لذوي العقول، زاعماً أنّي الصائح الحاكي وأنا الصَّدا، معتقداً أني قد جَلَوْت عن سيف ذهني لكليل الصَّدى:

نظمٌ من الأزهار قد نظم الحُلَى ... ولتاجه بالقَطْر دراً كَلَّلاَ

---

(١) هو الكاتب المنشئ في زمن بني أمية وليس بني أيوب، سبق ذكره في ج ١ : ٧١.

(٢) سبق ذكره.

(٣) العطر والطيب.

والـغـيـم ألـبـس غـصـنـه إسـتـبـرقـاً ‏ نَـضِـراً لـه غـيـث الـغـمـامـة فـصّـلا
لا لا فـإنـي قـد وهِـمْـت وإنّـمـا ‏ هو نظم مَن بالفَضْل قد طلب العلا
زفَّـت إلـيـه فـصـادفـت كـفـواً لـهـا ‏ مـن فـوق أحـسـاب الأنـام لـقـد عـلا
أعـنـي ابـن زيـدٍ لـسـت أعـنـي غـيـره ‏ عـزّ الأنـام جـمـالـهـم صَـدْر الـمـلا
مـن قـد تـلا آبـاءه فـي دَرْسـه ‏ آبـائِـهـم فـلـقـد تـلا لـمّـا تـلا
لـم يـتّـبـع لـمّـا مـشـى فـي نـهـجـهـم ‏ لا (نافعاً) لا (عاصماً) لا (قنبلا)[1]
قـد أهّـلـت بـعـلاه ربّ فـدافـد ‏ كـانـت بـلاقـع قـبـل ذاك فـلا فـلا
حـاز الـكـمـال فـلـم أقـل فـي حـقـه ‏ حـاشـاه نَـقْـصـاً مـا عـدا أو مـا خـلا
مـولاي جـاءت قِـيْـنـة مـن نـظـمـكـم ‏ نَـحْـوي وحَـيَّـتـنـي بـكـاسـات الـطِّـلا
قـد أرخـصـت دمـعـي عـلـى غـلـيـانـه ‏ وَجْـداً وأي رخـيـص سِـعْـر قـد غـلا
لـمـا تَـذَكَّـرت الـشـبـاب ومَـلْـعَـبـي ‏ وذكـرت مـأوى لَـذّتـي والـمَـنْـزلا
والـدَّهْـر مـقـتـبـل الـنّـعـيـم نـضـارةً ‏ وغَـضَـارةً مـن قـبـل أن يَـتَـحَـوَّلا
أيـلـيـق سـلـوانـي وحـزنـي وافـرٌ ‏ عـارٌ عـلـيّ بـأن يـقـال لـقـد سـلا
أسـتـغـفـر الله الـعـظـيـم سـلـوت إذ ‏ وافـى إلـيّ الـنَّـظـم مـنـك مـرفّـلا
دامـت عـلاك ودام مـجـدك شـامـخـاً ‏ مـا جَـرَّت الـنَّـسـمـات ذَيْـلاً مـسـبـلا

هنا أقف على تعب ولغوب، وأريق ما اشتمل عليه هذا الكُوب، فإنه شراب لا ينشئ الأعطاف، ولا يثنى على من بِهِ بين النَّدامى قد طاف، ليت الساقي في مجلس مولاي ما نصب ساقه، وليته أراق خارجَ الدار حميمه وغَسَّاقه، فإنه يجل قدراً عن إدارة المُدامة في مقامه الذي دون ارتقائه أهوال، فَضْلاً عن الحمأ المسنون الواجب اجتنابه على كلّ حال من الأحوال، لكن تغاضيه تغاضي الحليم، وعذره عذر المتحقّق العليم، بأنه لم يك عندي إلاّ مساوي، فما نظامي لنظامه الحَسَنُ مساوىء، فإذا قَصَّرْتُ فهذا غاية جهدي، وإن تأخَّرْتُ في الحلبة فهذا

(١) أسماء ثلاثة من القراء.

منتهى ما بلغ إليه نهدي[1]، وما أساء من اعترف، ولا أذنب تائب للذنب قد اقترف، أمدّك الله يا مولاي بأتمّ إمداد، ورَفَع قدرك على الأتراب والأنداد، ولا بِرَحْت إمام الكلام، وقد آن أن أختم هذري هذا بالتحية لكم والسلام.

ولما أَرْجَعَ إليّ هذا الكتاب، وقد كنت جددت له وقت عاريته إلى أجلٍ معلوم كتب إلي من النثر والنظم، **قوله:**

حرس الله القاضي الذي رتق من حلة الفضل ما فتقه الزمان ورفا، ورفع بنيان الأدب وقد كان عِيْف حين عفا، وخصّه بأفضل تحيّة وسلام، تحف به من يمينٍ وشمالٍ وخلف وأمام، وأنّه صَدَر السّفر النَّفيس، وهو خيرُ نديم وجليس، ولولا أن (الشرط أملك)[2]، وأنّ مخالفة أمر القاضي كبيرة، بلا شك، لجعلت ملازمته لازمة، ومنادمته لندماني جذيمة[3] خاتمة، ولكنت أنا وإياه كنخلتي حلوان[4]، ولا اتسلَّى عنه بثانٍ إلا أن يكون هوالجزء الثاني.

وذكرتم أنّا نرسل إليكم بما لنا من الشِّعر، ممّا لَمَ يَقُم له في سوق الأدب وزن ولا سعر، فأنا وإن كنت قلته فيما علمته، وإن جاش به صدري في بعض الأحيان، فما أحرزته ولا رقمته، وهو مع ذلك نَزْر يسير، وجواده في هذه الحلبة لا يَجْري ولا يَسِيْر، ولو كان في خزانتي منه شيء كنت بإرساله إليكم أسرع، ولو لم يكن في كنانتي منه إلا أهزع[5]، لكن العَدَم مقطعة الاختصاص، وإنما يلتقط الدرّ في مظان المغاص. وهذا المقطوع أصحبناه المرتحل، وهو أيضاً عجالة الراكب وبديهة المرتجل، فليكن ستر الإغضاء منكم عليه مسبلا، فاقبلوه على عجمته، فلا يكن معجمه لديكم مهملا، وهو:

---

(١) الفرس سبق في ج ١: ٨٤.

(٢) سبق الحديث عنه في ج ١: ٢٧٠.

(٣) يضرب بهما المثل في طول الصحبة (ثمار القلوب: ١٨٢).

(٤) كسابقه يضرب بهما المثل في طول الصحبة انظر (ثمار القلوب: ٥٨٩).

(٥) سبق شرحه في الجزء الأول: ٢٢٧.

إذا ما الزمان صفا والمنى تهاديك منه بنيل الظَّفر
وقالت لياليه ما يشتهي فقل عند ذلك (طِيب السّمر)

السيد علي بن صلاح بن عز الدين الديلمي[1]

من الغراس[2]

هو طَيّب الغراس، وممّن له بخرائد المعالي تعريس وإعراس، فَرْع طال وطاب وماجدٌ ملأ من محامده وِطَاب[3]، وسيّد إليه يبلغ الثناء وينتهى الخِطاب، ما اختطّ شاربه وطرّ، إلاّ وقد قضى له من المحامد وطر، من بيت إمارة ووزارة، فهو غُصن حمل على رأسه من الفضل هزاره، فأضحى يرتل تغريده، ويعرب اللحن ترديده كمل قبل أوان وقت الكمال، وانعملت له المآرب غاية الانعمال، وأيام الصِّبا لزنده قادحة، وحمائم أوقاته على غصون الشباب صادحه، له من حلل الفضل وشِيْعة، ومن زُمِر الأرقَّاء والغلمان أتباعٌ وشِيْعة، لأنه من قوم خضر[4] المناكب، ومِمَّنْ تزان بهم المجالس والمواكب، في عيش أنضر من الوجه الحسن، وأحلى من المنّ، وألذّمن الوسن، رأيته بالغراس. وقد مارس ما هو صَعْب المراس، وركب من الجدّ الثَّبج، وعذاره قمرٌ من اللؤلؤ لها هالةٌ من السَّبج، ومعاليه في ثَغْر الدولة المسعودة أرق من الفَلَج، وَشَعَرُهُ أسودٌ غربيب، كأنّه زمان الفاضل في حظّ الأديب، ينتقل من دواوين إنشاء، إلى مجلس درسٍ يقرأ فيه إن شاء، إلى ظَهْر خيل قرح[5]، تسير عن زهوها وتمرح، وكان لابن عمّ والدنا يحيى بن الحسن من الأتراب، وبينهما من الصداقة ما لا يلحن بوصفه الإعراب، مرّت لهما أيام اتسعت في اللَّذة مجالا، وليال لو وقعت منها نقطة في وجنات

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) سبق ذكره في ج ١: ٦٤٣.

(٣) الوطاب بالكسر: سقاء اللبن من الجلد.

(٤) قولهم خضر المناكب أي عاشوا في خصب عظيم لأن الخضر، هي من أسباب الخصب (محيط المحيط: ٢٣٨).

(٥) أي خيل طلع سنه فهو في قوة نشاطه.

الملاح لكانت خالا، ومات وهو حَدَث، وكدّر نعمته من الحمام حدث، فأعاضه بعد سِعَة الغرف ضيق جدث، خضد الموت عوده، وحصد زرعه قبل أن ينجز له من فسحة الأجل وعوده، فإذا نسيمه البارد سَمُوم، وعسله المشتهى سُموم، فخلع خِلَعَهُ ولبس أكفانه، لَقَّاه الله تعالى رَوْحَه وريحانه.

وله نظم يترجم عن حَمِيْد خلاله، كأنه نهر يدفّق النهر من خلاله: منه قول من قصيدة ومعانٍ كآرامٍ مصيدة:

أعلمتم ما تَصْنَع الأحداق ... بالمعنَّى وتفعل الأشواق
ماضيات في حالها تجزم الأ ... مر فماذا يحاول المُشْتاق
فهي سودٌ كأنّها[1] البيض تفرى ... بشباها فَرَدَّها لا يطاق
أتراه يرجو المحبّ خلاصاً ... من غرامٍ وقلبه خفَّاقَ
فمحال من المشوق ارعواء ... عن هواها ودمعه مهراق
وغصون قد أثمرت بِبِدُور ... كاملات لا يعتريها محاق
أشرقت في منازل الحسن تزهو ... بضياء إذ زانها الإشراق
أعذولي أقصر فأنت خليّ ... لم تذق ما تذوقه العُشَّاق

السيد المحسن بن الحسن بن علي ابن القاسم بن أبي طالب[2]

من روضة حاتم درّة صَدَف، وزهرة غذَف، كامل في الخصل، قاطع ذهن كالنَّصل. ما هو إلاّ فرع طال على الأصل، وركب سيفه حداً بلا جنس له ولا فصل، انتقاه الفضل من بين أحبابه، كما أن العزم الأبيّ أربى به على أربابه.

سعى للمجد وانبرى، ورقى في جامع الفضل مِنبراً، لمّا تعَلَّقت همته بالأكناف، وجاءت سجيته بالأنواع من المعالي والأصناف، ما تنفست الصَّبا بأطيب

(١) في (ب) لكنها.

(٢) نشر العرف ٢: ٣٦٥ ط الدراسات.

من ذكره ولا فضّت الزجاجة بأعتق من معتقة فكره، ولا اهتزّت بمثل نسيمه الغصون، ولا تقلّدت الغواني بأنفس من درّ لفظه المصون، فماء قريحته فضيض[1]، وطَرْف طرفه غضيض، فله شعر يقال للأديب: أنزل منه بوادٍ غير جديب. وخذ منه عقداً عن الجواهر قد كفاك، طالما قالت له الأيام وقد أملاه: لا يُفْضِضَ الله فاك. ما أحسب النجوم إلاّ منه قد صوّرت، ولا أعتقد الشمس عند بهجة ألفاظه إلاّ كُوِّرت، تعالى الله ما أودع فيه من كلّ معنىً يصطفيه، لو مازج النَّسيم لما اعتلّ، ولما عجز عن النهوض من الروض المطلول، وقد رشح ذيله وابتل، وهو مع ذلك لا يعدّ نفسه سرّياً، ولا يرى أنّه مع سماته الوسيمة قد غدا بالشموخ على أقرانه جريّا، مع اعتراف وإنصاف لمنِ كملت له في الفضائل الأوصاف، ما رأيت له ولا لأبيه، من ندّ في ذلك ولا شِبيه، يعطي الفاضل من الثناء عليه حَقَّه، ويودع فصوصه النفيسة من حفظه في أحرز حقّه، مزمّلة بالقطن صونا، يمشي على عجل لحِفْظها إذا مشى غيره على الأرض هوناً.

وله بِنَا أشد اختلاط، فكم سدّد إلى غرض مقامي فيه أنفذ سلاط[2]، يَقْصدني قَصْد البدر لمنازله، وَيَرْغب في محاورتي رغبة الرّيم إلى مغازله، فاستَجْلِي في أغلب الأوقات محيّاه، واستجلي في أوقات السرور حُمَيَّاه، طالما استنشقت من أكمام الزَّهر في روضة ريّاه. وخلوت في مقام الأنس بالعلوم والآداب أنا وإيّاه، بَيَّاه السلام العطر عنِّي وحيّاه، كم أحسنت مراجعتي له وحِواري، وكم أصبحت تحت ظلّه البارد أُواري أُواري[3]، يدهق عليّ من حديثه كأسه، ويقطف لي من روض أنسه ورده وآسه، تفض الدنان عن شرابه العتيق، وتفرّغ الزجاجة ذهبه في كؤوس العقيق، وللأدب الغض لدينا تناقل، ولحضور غوانيه خفة ولأردافها تثاقل.

---

(١) أي محبوسة أو مترددة.

(٢) السلطة بالكسر السهم الدقيق الطويل جمع سلط وسلاط.

(٣) الأوار: معروف وهو العطش.

آخذ منه كأس المحاورة، وحيناً أعطيه، وأرمي ويرمي الغرض بسهام الفكر فلا أخطيه ولا يخطيه، في مجالس قد تخلّت عن الكدر، لا يُسْمع فيها إلا طير بأغاريد الآداب قد هَدَر، فهو على الندامى أخف من الصَّبا، وألطف من جرمها إذا مرّ على حدائق الربى، لو أنه تخلل أو جال بين العقود المرصوفة والعنق الحال، لم تشعر به الغانية للطف جُرمه، ولم يتبدّد عقد من تلك العقود بعد نظمه. ما خالطه مخالط إلاّ هام بخصاله، ولا جالسه مجالس إلا صال على الأحزان بِنِصاله، وقد أملى عليّ أشعاره، فاعتمدت في مجالس الأدب من أدبه إشعاره، بعد ما قلّدت به الدرّ ذلته وعاره.

كتب إليّ في شهر رجب الأصب سنة أربع وأربعين ومائة وألف سنة، وقد وقف من تأليفنا على كتاب (الأصداف المشحونة بالجواهر المكنونة) قوله:

أفـي الـقـرطـاس سـحـرٌ أم مـدام ... ومـسـك الـحـبـر ثَـمّ لـه ختـامُ
أم الأوراق روض مـسـتـطـاب ... تـغـنّـت فـوق أغـصـنـه الـحـمـامُ
لـعـمـرك ذاك أم خـمـر عـتـيـق ... تـدار لـنـا دهـاقـا أم نـظـامُ
نـظـام مـثـل مـاء الـمـزن مـعـنـى ... يـحـسّـنـه مـع الـلـطـف انـسـجـامُ
أتـى مـن عـنـد مـن سـلـبـت حـشـاي ... مـكـارمـه إذا ذكـر الـكـرامُ
شـهـاب ثـاقـب سَـهْـل الـسـجـايـا ... قـريـع الـمـجـد سَـيِّـدنـا الإمـامُ
إمـام الـعـلـم إمـا عَـنَّ نـحـوٌ ... وصَـرْف فـيـه أو سَـنَـحَ الـكـلامُ
لـه (الأصـداف) تـضـحـك بـالـلآلـىء ... كـمـا ضـحـكـت مـن الـفـنـن الـكـمـامُ
و(طـيـب) الـسـامـريـن أجـل طـيـب ... و(مـر قـوم) يَـجِـمُّ لـه الـلـئـامُ
فـفـي تـألـيـفـه أبـداً عـجـيـبـاً ... تـقـرّلـه الـجـزيـرة والـشـآمُ
ومـلء مـسـامـع الأيـام فـيـه ... ثـنـاء والـلآل بـهـا ركـامُ
فـيـا شَـمْـس الـهـدايـة دُمـت فِـيْـنـا ... مـعـافـاً لا تـضـار ولا تـضـامُ
(فـقـد حـسـنـت بـك الأيـام حـتـى ... كـأنـك فـي فـم الـدهـر ابـتـسـامُ)
وقـد وافـى الـجـواب إلـى مـحـبٍّ ... كـمـا وافـى إلـى الـروض الـغـمـامُ

وما جهدي وقد جارى المجلّي		بِسَبْق لا يطاق ولا يرامُ
وعذراً أنّني قصَّرت نظماً		ومن كَشْف القناع فلا ملام
فسامحني فمِثْلي لا يجاري		إماماً نظمه الجيش اللهامُ
ودم في نعمة وهنيّ عيش		عليك صلاة ربك والسلامُ

فأجبته بقولي مرتجلاً:

هنيئاً لي فقد عذب الغرام		بمن قَصَرت وضَمَّتها الخيام
خيامٌ ضاحكت فيها بروقاً		بِثَغر الزَّهر مبتسماً كمامُ
لدمعي مثل غيث السُّحب فيها		وللشّعر الذي رَقَّ انسجامُ
بروحي غادة سَجَعَتْ حليّ		عليها حين مال لها قوامُ
وما مالت وحاشاها لِعَذْل		فيُثْنيها على الصبّ الملامُ
غزالٌ ترتعي ثَمَرات قلبي		فأين الشيح منها والخزامُ
لها عطف لها طرف فهذا		قَضِيب للطِّعان وذا حسامُ
أراه يميل في المطروز غصناً		سَقَتْه في منابته الغمامُ
فلولا خوف سهم اللحظ منها		لغنَّى فوق مائسه الحمامُ
أعانقها وأبكي عن لآلٍ		بها الدُّر النظيم إذاً يضامُ
فبين عقودها والثغر منها		وبَيْن الدمع يشتبه النظامُ
وَوَسْواس الحليّ إذا تثنَّت		عليها في تشاجره خصامُ
أباحت ريقها لي بين درٌ		نفيس لا ينال ولا يرامُ
تسلّيني به رشفاً وعندي		فؤاد ما تسلّيه المُدامُ
فلي من عذّلي دهر عليها		وعمرٌ مثل ما يهب اللِّيامُ
بِجِسْمي والنّسيم وخصرها قد		وحق جمالها عَبِثَ السقامُ
ولست أخاف صولتها بِطَرْف		عظيم الفَتْك مذ صلّ الحسام(١)

(١) الحسام عند أهل لقب لمن يسمى محسن.

حسامٌ ماسخٌ أعناق قَوْم | إذا ما ثار في الهَيْجا صدامُ
لبيب كامل فَذّ أديب | جليل فاضلٌ فَطِنٌ همامُ
يحف به من الأدباء إن ما | تصدر فيهم الجيش العرام[1]
وكم قد حاولوا إذ ذاك ما قد | أراد منالـه سام وحام
له قَدْر رفيعٌ حُطّ عنه | لنقصان به البدر التمامُ
ونظم قد تفرّد فيه لما | يشاركه بمنهجه الأنامُ
فجوهره يجلّ عن التجزّي | وليس بممكن منه انقسامُ
أتاني نَظْمه فشفا فؤادي | وبلّ به على ضمأ أوامُ
جوانح مهجتي ثلجت وفاضت | عليها وابلاً سحب ركامُ
بديع الانسجام علي دارت | لها نَهْلاً بوَقْت الأنس جامُ
فأتحفَني به دامت عليه | مواصلة الأدى النِّعم الجسام
بَنَى قَدْري على رَفْع منيف | كما بُنيت على كَسْر حذام
عليه ما تغنّى الطَّير وجداً | سلامٌ فاح عن طيب سلامُ

وأنشدني في المقطعات قوله:

وخشف بالخوافق حين أسقى | خشافاً للمحبّ غدا موافق
سبا العُشّاق أفئدة غدت في | يديه بالهوى أبداً خوافق

وقوله:

أفدي الحبيب الذي في لحظه حور | بدا كبَدْر السَّماء لما علا فرسا
وعندما لاح لي من فوق صهوتها | أدخلت قَلْبِيَ في بَحْر الهوى فرسا

وقوله:

قل للحبيب الذي بالشَّمس مصطلياً | في الصّبح أَفْدِيَ منه اللّحظ والحَوَرا
يا أيّها البدر قم منها على عجل | فالشَّمس لا ينبغي أن تدرك القمرا

---

(١) الجيش العرام: القوى الشديد.

وقوله:

هذا عليّ من سبا مهجتي ... وجاءني مثل الهلال المنير
لمّا أنا أرسلت دَمْعي له ... حزناً وصححت (حديث الغدير)

وقوله:

قد قلت لمّا بدا مليحٌ ... كالبَدْر في مقلتيه سحرُ
من ذا الذي يا حبيب قلبي ... سَمَّاك نجماً وأنت بدرُ

قوله:

يا ساكناً في مهجة ... منِّي حواك وسيعها
أي القلوب تريده ... ولك القلوب جميعها

وقوله:

يا وجيه الدين يا من ... زار أرجانا البهيّة
بِقَوام مِثْل رُمْح ... وعُيون بابليّة
وجفون قد غَزَتْنا ... بسيوف حَسَنيّة

وقوله:

صديقي في الورى اسمع نصيحاً ... ولا توقع فؤادك في الشِّباكِ
تجنّب طرف من أهوى وحاذر ... فقد عَرَّضت نفسك للهلاكِ

وقوله:

أقول ومسوَدُّ ذاك العذار ... على جَمْرة الخدّ منه نزل
عجبت لحسنك كيف انقضى ... وسلطان عزّك كيف انعزل

وقوله:

يا فاتني تَيَّمْت كل الورى ... بالحُسْن ما تَيَّمْتِنِي وَحْدي
سلبْت قلبي بعذار غدا ... كاللاَزَوَرْدِ سال في الورد

السيد يحيى بن لطف الباري[1]
من ذمار

ذو فضل ومجد، توشّح بزهره غور ونجد، وهو في العلم بعيد المدى، يَبْتك عرى الجهل من عرفاته بحدِّ المُدى، ظفر بكُلّ مطلوب، وورد بارد المشروب، لم يبرح في حِبِر الحبور رافلاً، ولم يزل الدهر الحسود عن نعمته غافلاً. طالما ظلّ مكرّماً مبجلاً، حتى جاءه صِرْف زمانه معجّلا، فجرت له نَكْبة، توجب من الدمع سَكْبه، وتضرم من القلب ناره، وترفع من الحزن مناره، حصره دهر أسأ، فلبس ثوب انكسارٍ وأسى، وإذا هو غير منصرف كفعل عسى[2]، حتى أصابه الكمد، وانقطع من حياته الأمد، والأيام في إسعاده تُبْدِي لا، حتى رضي من الحياة بالممات تَبْديلاً، فمات بِغَبنه، ودِهِي مع أَمْنه، فأصبح طريح ضريح، وكل قلب عليه جريح، وكل طرف لم يَزَلْ به قَرِيح.

قُطِف ثمره وقد طاب يَنْعاً، وأصبح في حافات المجد المُنيف يُنْعى، وكنت أطمع في لقياه، وأرغب من كأس إفادته في سقياه، والدَّهر يَعِدُ ولا يُنْجز، ويطنب تارةً وتارةً يُوجِزْ، حتى نُعِيَتْ نفسه، وانطبق عليه رمسه، وفقدت محاسنه، وأقفرت مساكنه، واكفهرّت مواطنه، فعدت بعد الطَّمع باليأس، واستوحشت من خيبة الأمل بعد إيناس، بَاكَرَتْ ضريحه كل غادية، ولا بِرَحْت تُندبه من الحمائم كل شادية، ما أَبْدَتْ الدفاتر سواد المداد، فكأنّها لفَقْده لبِسَتْ ثياب الحداد، ولم أقف من شعره، ولم يهد إليّ من نفائس درّه، غير قوله مذيّلاً لشعر بعض الناس، الذين يأتون في كلماتهم من الغرائب بأجناس:

لـهـا نـغـم مـطـرب مُـقـلـق ... غـداً إسـحـاق عـبـداً لـه يـوصـفُ
وقـد زاد قـلـبـي ولـوعـاً بـهـا ... فـقـل لـلـعـواذل لا تـسـرفـوا
فـأيـن اصـطـبـار فـؤادٍ إذا ... أتـى جُـنـد لـحـظٍ لـهـا يَـزْحـفُ

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) يقول النحاة: عسى تأتي فعلا ماضيا ناقصاً جامداً من أفعال الرجا يرفع المبتدأ وينصب الخبر.

فهاك نظاماً غدا آيةً فأين اللبيب الذي ينصفُ

أقول: جند اللُّحظ هنا استعارةٌ، والجامع بين المستعار والمستعار له، أن الجند الذي يزحف من شأنه ولازمه السُّيوف والسهام، واللحظ شُبه عند جميع الأدباء بها، فهذا هو السَّبب الداعي لهذه الاستعارة، وإلا فهي استعارة إذا خلت عن هذا التأويل ركيكة.

السيد محمد بن علي بن محمد بن عامر[1]

من ذمار سيفٌ أودع قرابه، وسيد بينه وبين الإمام القاسم[2] قرابة، نَسْل قوم خلقوا للجِهَاد، وترفعوا من الخمول عن منخفض الوِهَاد، أداروا على العدا كأس الحتوف، بأنامل السمهريّة وراحات السيوف، واقتطفوا شقائق الدماء في روض المعارك الأنضر، من خلال أغصان الرماح وأثناء ورق الحديد الأخضر، فهم آساد أبطال، لا يعتري حُجّتهم الواضحة في المجد إبطال، أصبح صيتهم صَيِّتاً، ينادي إلى العلا من كان ميّتاً، فدمع المخالف لهم هامر، لمّا لاقى من ليوثهم ما لاقى مجير أمّ عامر[3].

لهم مع أئمة الحق، سَبْق شجعان المناصرين لهم أَلْحق، من كل باسل يمرّ بكفّه العاسل، وكريم لولا نار بأسه الملاصقة للأسمر[4]، لاخضرّ غصناً من ندى أنامله وأورق وأثمر:

مــن كـل مــن لــولا تــسَـعَّــرُ بــأســه لاخـضـرّ فـي يُـمْـنـى يـديـه الأســمـر

(١) انفرد بذكره.

(٢) يعني الإمام القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٠٢٩هـ. انظر مؤلفاته ومصادره في كتابنا (مصادر الفكر العربي: ٦١٠ ـ ٦١٧).

(٣) بيت شعر مشهور ينسب لأعرابي:

ومن يصنع المعروف في غير أهله يجازى الذي لاقى مجير أم عامر

وأم عامر لقب الضبع انظر المستقصى للزمخشري ٢: ٢٣٣.

(٤) الرمح معروف

فهذا السيد شبل من آساد مفترسة، وفرع من غطاريف على متون الصَّواهل محترسة. له من الفضل جَدَدٌ بيِّن، ومن الأقلام عِطْف ناعم ليّن، ومن الفخار حلةٌ مطروزة، ومن المجد قناة بيد الحزم مهزوزة.

وله درّ نظم يوزن، يسرّ به المحب على أن الباغض له يحزن، فمن رياضه الذي تضَوَّعَت ريّاً، وشموع أبياته المضيئة في ليل المداد فما القنديل والثريّا.

قوله:

ربّ ليل نعمت فيه وعندي سمرٌ كلهم بهيّ جميلُ
واجتليت العذراء من فوقها الإ كليل طَرْف الرقيب عنه كليلُ
في مقام كأنّه برج سُعد والثريا تضيء والقنديلُ

المراد بالثريا هنا ما يُصْنع في الولائم والأعراس ومواسم الأفراح من الشموع المجموعة المسرجة، ولذا قرنها بِذِكْر القنديل مع إرادة الإيهام بالثريا، وهي النجوم المجتمعة المعروفة، ولذا ذكر برج السعد.

القاضي محمد بن صلاح الفلكي[1] الفرائضي الذماري

ملكيّ السمات بل ملكي، إذا رأته شموس المعارف وأقمارها ونجومها قالت: هذا فلكي. نشأ بباب الفلاك[2]، وقرأ العلوم فإذا هو لإبانة الغامض مِلَاك، جذوة ذكاء يتوقّد، يحلّ الغامض وقد تعقّد، أمّا في الفقه والفروع، فقد لبس درعاً لا تشابهه الدروع، فما نفذ إليهم سَهْمٌ قادحٌ ولا رمحٌ طاعن، فكل مجادل تصدى لمخاصمته فقد قعد في الملاعن[3]، إذ تتبّع الرخص، وتجَرّع الغصص، فعليه لنصرة المذهب (الضمان) و(الكفالة).

(١) انفرد به المؤلف.

(٢) سبق.

(٣) مواضع التبرز أي مواضع لعن الناس.

وإليه انتهت لمدافعة الخصوم (الوكالة)، وأمّا في علم الفرائض فقد راض منه ما عجز عنه ألف رائض. إذ هو فيه من ذوي السهام النافذة التي تصيب، وممّن اكتضّ أبكار المسائل لأنّه قصرها بالحجب وزيّنها بالتعصيب[1]، أغرق الخصوم وهدم فوقهم ردماً، وورث ما خلّفوه فأرانا ميراث الغرقى والهدما، يحكّم الحساب ولا عقاب، ويزيح عن وجه المخمّرة من المسائل النقاب.

كم جَبَر الكَسْر، وقابل ذوي المسالة، فمن نظر إليه قال: هذا إمام الجبر والمقابله، صفت من العلوم مشاربه، واتّسعت في أوديتها مساربه، فارتعى فيها المهزول حتى سمن، وَوَرد من غدرانها ما هو بوروده قمن، ما ماج بحر علمه إلا توقّع الغرق، ولا أشرعت رماح أقلامه إلا أصاب جيش الجهالة الفرق. ، ورد عليه سؤالٌ عَنَى به الفحول، وعزّ على أبكار الالباء إلى إيضاح مشكله الوصول، فرفع لبسه، وفتح حبسه، وهو مشهور عند أولي المعارف. يتجمّلون به ولا كتجمّل الحسان بمطروز المطارف.

ولم يزل في الظلمات مصباحاً، ولم يَبْرح معدن إفادته مبذولاً مباحاً، فهو في ذَمَار، يحامي عن ذِمَار، إلى أن نزل به طارق الموت، ودعاهُ إلى البرزخ منادي الفوت، فأصبح رَبْع العلوم بعده مقفراً، وغرب منه بَدْر الهداية، وقد كان مسفراً، لا برحت تربته الزاكية مبلولة الذيل بدمع السحب الباكية، ما ذرّ شارق، ولمع في الجوّ بارق.

وله شعر موزون، ودرّ كلام مخزون، يفرج كرب ذي فؤاد محزون.

كتب إليه بعض المسترشدين سائلاً، ونظم هذه الأبيات التي لم يبرح نهرها سائلاً. وهي **قوله**:

أيّها القاضي الذي حاز علماً   وذكاء وفطنة ألمعيّة
جاء في الذكر آية حار فكري   في أساليب نَظْمها العربيّة

---

(١) الضمان والكفالة والوكالة والحجب والتعصيب من عبارات أهل علم الفرائض والفقه سبق شرح أمثالها فيما مضى.

جاء في الكعب بالمثنّى صريحاً وأتى في المرافق الجمعيّة
وهو في آية الوضو غير خافٍ عن عليم بهمّةٍ فلكية

فأجابه بقوله:

أيها الكاتب الذي من سناه يخجل البَدْر والدّراري المضية
شابَهَ الفاضل[1] المفوّه نثراً وحكاهُ بديهة ورويّة
في سؤال وعِقْد نظم لآلٍ في أساليب آيةٍ قدسيّة
(جاء في الكعب بالمثنى صريحاً وأتى في المرافق الجمعيّة)
وقع الجمع في المرافق رَغْياً للذي حوله من البشريّة
وكذا طالت العرانين قدجا لقوم من خُلّص العربيّة
وكذا حبّة المذاكير فافهم واعتبر بالقرابة الأصليّة
وكذا شابت المفارق قدجا وما غير جانب الفرديّة

ولمّا توفي صاحب الترجمة،وأهمله الصديق والموت أعجمه، وحصل في الكون ما حصل، ووصل إلى القلوب من الحزن عليه ما وصل، رثاهُ جمّ غفير، وبكاه خلقٌ كثير، بدمع من لؤلؤ القريض. نظم سلكه ذو جسم لفراقه مريض، وقد نادته الحور الحسان: هلمّ إلى عِنْدي. ومن جملة النادبين له صاحبنا وخليلنا الشيخ صارم الدين إبراهيم بن صالح الهِنْدي، رحم الله الناظم والمنظوم فِيْه، ما عذبت في الألسنة نفثات فِيْه:

مات أخو العلم فابكِ منتحباً بمدمع في الخدود منسفك
فها نجوم الفضاء هاوية مذ حلّت اللّحد صورة الفلك

وأحسن منه قولي:

مات فظلّ الورى لمَضرعه في لَيْل حُزْن عليه محتلكِ
وهذه الشّمس في محارتها تدور من حزنها على الفلكِ

---

(١) يعني القاضي الفاضل سبق ذكره.

وقلت مع زيادة الجناس:

مـات قـاضـيـنـا فـنـاديـت جـوىً نـفـس أمّـا الـحـزن فـيـه فـلـكِ
قـلـت لـلـشـمـس وقـد دارت لـه مـا فـقـدت الـيـوم قـالـت: فـلـكـي

الشيخ إسماعيل بن أحمد القحيف[1]

من ذمار

شيخ معارف، طرز منها مطارف، نجم في الأفق ثاقب، وبدر معالٍ هالته المناقب. وصبٌ بالعلا لما واصلته على رغم مراصد ومراقب. من بني القحيف الذين ما عاملهم الدَّهر بميل وحيف، وإنّما ابتسم في وجوههم ابتسام البوارق، فأمنوا من حوداثه البوائق الطوارق، فحول كُمَلاء كُتَّاب، قد وقف السعد من أبوابهم على الأعتاب، تَفْتخر بهم دواوين ذوي الأمر، وتَحْسدهم البدور فتَنْقلب النجوم على الجمر.

قد برعوا في علم الحساب، فما لأرباب الأدب إلى كمالهم انتساب، فأعدادهم متناسبة الفرد والزوج، ومربعة قواعدهم قد صعدت إلى الأوج، يسمع حديث قسمتهم (الجذر الأصم)[2]، ويتقيد لحكمهم الجذر المطلق فهو بهم قد اعتصم.

كم فيهم من فحل قد تلعّب بتقسيم ذي (الاسمين)[3] و(المكعّب)، مع كمالٍ يهتزّ له عطف الزّمن، وسجايا إذا اشتريت فما لها غير الأنجم ثمن، وهذا الشيخ لم يَقْف لهم طريقاً، ولم يساكن في الدواوين منهم فريقاً، وإنّما شغل نفسه من العلم بحسابه، ورَغِب في تحصيله واكتسابه، وَتَحَمَّل مطرفه الأنيق واكتسى به، فباء منه بالجُمل، وقضى منه الوطر والأمل، مع عبادة وصلاح. قد قَضَيا له بأهنأ فلاح، وشَرَى بهما برق سعادته فلاح، ولم يزل على طلب العلم مُكبّاً، ولخرائد

---

(١) نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ١ : ٣٤٢.

(٢) سبق مثله وهو من مصطلح علم الحساب.

(٣) ذو الاسمين هو المقدار المكعب وهو ما يعبر عنه باسمين كخمسة وجذر ثمانية (محيط المحيط: ١٤٣١).

الفوائد المخدّرة في الطروس محبّاً، يهيم بها ما لا يهيم بالغواني، ويتوصل إلى وصلها بكل ما لا يعدّ معه في شيء من التواني، حتى آن للدنيا فراقه، وطُمس بيد المنيّة من بدره إشراقة، وتساقطت من غصن شبابه ثِمَاره وأوراقه، وطمس بيد دامت على ضريحه الدِّيم، وأفاضت على مَلحده من قطرها أيّ يمّ، وهو من الشيعة معدود، فله فيها رسم غير محدود، ونظمه غالي الأثمان، وشعره مما يقصر عنه القحيف بن سليمان[1]، قد طبع طبع الصَّوارم، واشتمل من النفاسة على نفثات الأكارم.

كقوله:

سواي بسحر الأعين السود يسحر ... وغيري تُشبيه الغواني وتأسرُ
وما أنا ممّن يدخل العِشق قلبه ... فَيَمْلكه قهراً وينهى ويأمرُ
قبيح بمِثْلي أن يقال صَبَا به ... غلامٌ أو استهواه ريم مخدّرُ
إذن قصّرت عن غاية المجد هِمّتي ... ولا عُدّ لي في منتهى الفخر مفخرُ
ولا كَرَمت نفسي ولا طاب منشأي ... ولا اختال بي بين الخِمْيسين[2] أشقرُ[3]
ولا احتل مشطوب الغرارين[4] راحتي ... ولا لان لي في مُلْتقى الجيش أسمرُ
ولا عَلقت كَفِّي اليراع ولا أتى ... لساني بمَنْظوم من الدرّ يزهر
ولا صَدَقت لي في الوصيّ محبّةٌ ... أكتمها خوفاً فتأبى فتظهرُ
خليفة خَيْر المرسلين ومن له ... مَنَاقب في الذّكر المنزّل تذكرُ
أبرّ فتى لبّى وأكرم من سعى ... وأفضل من صلّى الصلاة وأطهرُ
وأشجع من أمّ الكتيبة حاسراً ... ومن بأسه درع حصين ومغفرُ
عليه صلاة الله بعد نبيئه الـ ... ـمطهّر ما يطوي حديث وينشرُ

---

(١) هو القحيف بن حمير بن سليم العقيلي المتوفى نحو سنة ١٣٠هـ شاعر كان معاصراً لذي الرمة (الأعلام ٥: ١٩١).

(٢) مثنى خميس: الجيش الجرار سمى بذلك لأنه يقسم إلى خمسة أقسام.

(٣) أشقر: صفة للخيل.

(٤) مشطوب الغرارين: السيف ترك عليه أثر من أثر الضرب سبق.

وما بقيت في القلب منّي صبابةٌ　　تهيج لذكراه فتقوى فتقهرُ

وقوله:

سواد سطور في بياض الدَّفاتر　　ألذّ وأبهى من سواد المحاجرِ
ونقط حروف الخط أحسن موقعاً　　من الخال في صَحْن الخدود الزواهرِ
فذا مَذْهبي طِفْلاً وكَهْلاً ويافعاً　　شُغِلت به عن آنسات الجآذرِ
وجَاريت محلول العقال من الهوى　　وغيري في أسر العيون الفواترِ
وربّتما حَنَّت إلى البيض مهجتي　　ولكنها بيض الظّبا والبواترِ
وتاقت إلى السّمر اللدان صَبَابةً　　ولكنها سُمْر الرماح الشَّواجرِ
وأهوى الكميت الصرف طبعاً وإنما　　أردت من الجرد العتاق الضوامرِ

وقوله مضمناً:

يقولون لي: ما هذه الكُتُب التي　　تنافس في درس لها وتواضبُ
فقلت لهم: من مذهبي فرط عشقها　　(وللنَّاس فيما يعشقون مذاهب)

قلت: الكتب التي كانت عنده معشوقة فكان ينافس في درسها صاحب الترجمة رحمه الله تعالى ويواضب على ملازمتها، هي كتب الفقه لا غيرها من كتب سائر الفنون. وهي مشتملة على ذكر مذاهب الفقهاء فلذلك لَطُفَ عندي قوله، (وللناس فيما يعشقون مذاهب).

الفقيه يحيى بن علي الذانبي[١] الذماري

ما هو من أذناب الناس، وإنّما هو من رؤوس الأكياس، ارتفع جانبه واتسعت في رياض الفضل مذانبه. كاتب نفح في أوراقه الأرج، وأديبٌ ألف من كلماته ومداده بين الدرّ والسّبج، هو لسماء المجد زهره، ولروضة الفخر المونقة زهره، بأقلام تنوب أنابيبها عن الأسل، وتيقّظ لو رزقته عيون الملاح لما استأصل عليها الكسل، وخطّ أبهى من عذار تنمنم، قد أفصح في جَنَبَات الأوراق عن فضله

(١) انفرد بذكره.

وتَرْجم، فهو ممّن قطف ريحانه طريًا، وسَرَى في ليل مداده فأصبح سريًا، رأيته بحصن المنصورة[1] وجُمَل الفضائل عليه مقصورة.

وفاح لي من شمائله، ولاح لي من خلال خَمائله، ما يُدُلّ على طيب رياضه، وعذوبة ماء حياضه، ثم لما وفد إلى حصن كوكبان المشيّد وتسلسل في حدائقه نهره الذي هو بسلاسل النَّسيم مقيّد، تمّ لي به الاجتماع، وتمايل عِطْفي من الطرب به بعد الاستماع، فاجتمعت به وما اجتمعت إلاّ بفاضل، وناضلته في الآداب فما رأيت مثله من مناضل، مع إعجابه بنفسه، إعجاب المغرم الشيّق بعرسه، وغرامه بفضائله، وزهوه بما استلطف من شمائله، فهو أزهى من ديك[2]، سيما إذا قال له مادحه: كلّ ذوي الفضائل تفديك.

ومن أمثال الوقت، (ثمرة العجب المقت)، وله في المحاضرة أغرب نَمَطْ وأبكار معانٍ لا يدركها شَمَط[3]، مع حفظٍ واطّلاع يرتقي بهما إلى شامخ التلاع، وإطلاق لخيول المذاكرة، وتَقْليد بدرر ألفاظه لأعناق المحاضرة، فأوقاته لم تزل به أعياداً، يصيب حاسده بها أعيادا، لمّا أطلق وحلّى جياداً وأَجْياداً.

وأشعاره من الصّبا ألطف، وزهراتها ناعمة المقطف، يميد لها ابن ميادة[4]، ويجعل القدّ المُهَفْهَف له الارتقاص عند سماعها عاده، حفظت منها طرفاً، وسمعت من لطائفها طُرَفًا، فلا أدري عند طربي لها، وسكري بشرابها الذي ما غفل عنه طوقي ولا لها، أهي أوتار تحرّكت للطرب، أم هي عقار تتوجت بالحَبَب، من ذلك قوله:

عهدي بأنّ الريح عند هبوبها ... كالسَّهم تجري تارة وتسابقه
وأرى قوامك للتأوّد مكثراً ... فأظنّها وقفت عليه تعانقه

---

(١) بالقرب من ذمار سبق ذكره في ج ١: ٦٥٨.

(٢) المثل في المستقصى ١: ١٥١.

(٣) الشمط اختلاط الشعر الأبيض بالأسود.

(٤) ابن ميادة: هو أبو شرحبيل الرماح بن أبرد شاعر هَجَّاء توفي سنة ١٤٩هـ (الأعلام ٣: ٣١).

وقوله:

عَرِّض على الخلّ واشك وَجْدي عَسَى بِوَعْد اللّقا يفرّج
فإن تثنّى وهزّ عطفاً أو سنّ لحظاً فلا تعرّج

قلت: هذا المقطوع فيه التورية لأنه يقال: عرّج تعريجاً إذا مَيَّل وأقام وحبس المطيّة على المنزل كتعرّج، ويقال في هذا الزمن: لا تعرّج على فلان أي لا تعول عليه ولا تطلب منه كذا، وبذلك عرفت التورية.

وقوله في غلام جميل كان بيده الطَّابع الذي يُطْبع به الأوراق بعد وضع العلامة فيها من ذوي الأمر ونحوهم:

يا رشأ قلّدت أمر طابع إذ كنت مطبوعاً على سَفْك دمي
قد ظهرتِ لصَبْوتي علامة فإن ترد تخفي الهوى فاطبع فمي

أقول: هذا النظم في غاية اللطف والرّقة، ولا سِيّما مع قوله (إذا كنت مطبوعاً على سفك دمي) إذ فيه مناسبةٌ للمقام ومع قوله أيضاً (قد ظهرت لصبوتي علامةٌ) فإنّ الطبع لا يكون إلاّ مع العلامة، وَثَّم نكتة لطيفةٌ، وهي أنّ طابع الأوراق لا بد قبل الطبع على ما أراد طبعه منها أن يمرّ لسانه وشفته ليحصل في الورقة بعض بلل، فيظهر الطبع ويتوضح خطّه. فإذا حصل الطبع من هذا المحبوب على فم هذا المحبّ فلا بد أن يمرّ لسانه وشفته على فمه، فيحصل ما يحصل من اللذة وإنجاز الأرب الذي حوله يدندن العاشق، فانظر إلى هذا المقطوع تجده بأسباب المحاسن موصولاً.

وقوله في الهجو وفيه معنى حسن لطيف في بابه:

قيل لي لم أرقت ماء المحيّا لبخيلٍ يشحّ عن مُعْتَفِيه
قلت: لي حاجة أردت قضاها فاقتضى لي إراقة الماء فيه

قلت: ولو أنه قال في البيت الأول (لبخيل كالمستراح سفيه) لكان أحسن وأليق بقضاء الحاجة وإراقة الماء، كما لا يخفى على اللبيب مناسبة تصويبنا لما بعده من البيت الثاني.

صاحبنا عبد الله أحمد المعروف بعبد الله سرور الذماري[(١)]

نجيبٌ ذِكْره مخلد، وأديب من نَسْل العبيد مولّد، أسود الأديم، فهو مسك النَّديم، كأنّه إنسان مقلةٍ وَسْنَا، فدرّ نفثاته الأبيض يَزْداد بمخالطة سَبَج لونه حسنا، كأنّما قدّ لونه مع لطفه الذي سحر، من ذوائب الغيد أو من ساعات السحَر.

يؤخذ من سواده لخدود الحسان خيلان[(٢)]، كما يوجد من سواد بلالٍ شامات للحور والولدان، ما كأن نقط الشقيق إلاّ مَعَ لونه، ولذا جعله في جوفه مبالغه في صونه، فهو إنسان عين الزمان، والمسك المَفْتوت في صحائف هذا الأوان، ما جدّ ماجدٌ إلاّ فتر عن سَيْره، ولا غرّد قمري بلاغة إلاًّ قَصَّر عن طيره، صعد جبل الفخار في النبلاء، فما رآه فاضلٌ إلاّ وناداه: يا عبد الله، ويا طالعاً جبلاً، ويا رجلاً، ولكن لغير مُعَيَّن. فَضْله على كلّ من نودي موضّح مَبِّين، فصيح ما غاص من العروض في البحر، إلاّ استخرج من الدّر ما حلًّى به النحر، نَسَّق من لآلئ نظمه لصدور السّطور قلائد. وسَبَق غصن قلمه بماء اللطف فهو مائد، مع خط زهت حروفه، وامتلأت من الحسن ظروفه، إلاّ أن سجيّته البيضاء بالسوداء قد مزجت، ونسيمه الباردة بِمسكها السحيق قد عُلِجَتْ له بسط يَتْبعه القَبْض. وله سكون يتبعه حَرَكة النَّبض، فطبعه منحرف، وممتنعه منصرف، وصفوه بالتكدّر قد عرف، سريع الاستحالة، قليل الاستقامة على حاله، يتلوّن تلون المنثور، له حديث في التضرّب مأثور. بينا هو في صورة ملكٍ كريم، إذا هو وحاشاه في قالب شيطان رجيم، يستحيل في الحال خمره خلاً، طالما لطارق وسواسه قد تخلًّى، سَاكَنَ طوارقه فطوى رقّه، وألقى قرطاسه بيده لا بمشقّه، وإنما هو لملل يطرو، ولضيق عطن يعرو، ولو لم يكن حلية الفضل لما لازم الوسواس. ولو لم يكن ذا أنس بالمعالي ما استوحش من الناس، ومع ذلك فهو من الصَّبا ألطف جرماً. وغَرَضَ الظَّرافة بغير سَهْمه لا يُرمى، أطوع للنَّديم، من أعطاف النَّشوان لنغمة الوتر الرَّخيم، يميل مع خليله كيف مال، ميلان الغصن مع نَسْمة الشَّمال. وهو لي

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) جمع خال سبق ذكره.

صديق، وصَوْب ربيع غديق، أقسم بأوقات أنسه ما ألفيت له نظيرا في أبناء جنسه، فمنادمته رحيق، وَنَفَحات مجالسته مِسْك سحيق. فكم نهار لنا حلا ومَرْ، وكم ليلٍ استطبناه واستطابه السَّمر. تَقَضّى كبَرْق وَمَضْ، أو جفن انفتح بعدما غَمَضْ، مضت لنا أوقات في ساحاتٍ رِحَاب، لم يُعِبْها شيء من النقص إلاّ تقَضّت أسرع من قوس السحاب، نادمني في ليالٍ فأحسن في المنادمة. وقد تمَنَّى قربه البدر فأراق السماك الرامح من الشفق في المُنَى دمه، لمّا قام زنجيّ الظّلام في الخدمة على ساق، بعد أن تَمْنطق من الثريّا بِنِطَاق، فيه درر الدّراري في غاية الاتساق، وأكفّ النسيم ليانع الثمار مقتطفه، يرمي بها ثُعْبان النهر عن أقواس الغصون المنعطفة، ولكنه قد ألبسها قبل رميها له الزّرد. زرداً صِيغ لا من الحديد بل من جواهر البرد، قبل أن يُعَرِّي من الصبا أفراسه، ويحلّ عن عاتق النشاط بيد الأشد أمراسه، وأتمسك منه بشيء لا أدري أهو ذنَبُه أم رأسه:

وقد نظمتنا للرضى راحة الهوى فنحن اللآلي والمودة أسلاك

إذ كان يفد إلى كوكبان وفود النَّسيم إلى حديقة غنّاء، وينزل به نزول الصَّادح على الأغصان المائسة غنّى. وكان يكره مدينة عمران ويذمّها. وطالما اجتنب دخولها فلا يؤمّها، يرى النّار في القرب من جنّاتها[1]، ويعدّ أنكر الأصوات من سوانيها رخيم رنّاتها. ولم يَنْظر لطيب نجرها، ولم يقسم من حياضها بفجرها، ونزل في بعض الأيّام بلاد (حجّه)، وقضى فيها مناسك أوطاره وأدّى حجّه، فبدأه بها اعتلاله، وشرع من نظام عيشه اختلاله، فَحُمِل على نَعْشه عليلاً، كما حمل سقيم النسيم على نَعْش الأشجار بليلاً، فلما وصل إلى المدينة المذكورة ووافى بقعتها المذمومة لا المشكورة، وافاه حِمامه، فصَمَت حَمامُه، بعد أن كانت ذات سجع مطرب، وبناء ألحان عن الأوتار معرب، فمات بها ميتة غريب، وهكذا الزمان لم يقض أربه منه أريب. فطالما اطمأن فيه النّاقص والكامل أريب، ولأجل ما حواه من حَمِيْد السّمات. عامله الدَّهر بنقيض قَصْده في الحياة، وبعد الممات.

(١) تورية ببلد هناك بالقرب من عمران.

سَقَت السحاب ضريحه أمزانّها، ولا برحت محامده زينةً للدّهر، أشان غيره أيامها أم زَانها، ما نفذ كافور النّهار فصار في العدم، فرعف بذلك منخر الأفق من الشفق بِدَمْ.

وله سورة متلوّة في الشعراء، ونظم صَيَّر بأبياته المشيّدة سائر الأدباء بالعراء، تسكر به خَمْر القناني، وتَقْهقه له الأباريق وتُطْرب به المثاني.

منه قوله في مليح بدا على خدّه حبُّ الشباب، كأنّه لؤلؤ الرطب أو منتظم الحباب:

يا حبّذا سالف المحبوب حين زها ... عليه حبّ شباب طاب فاتنُهُ

الحَبُّ ذو العصف والرَّيحان فيه بداً ... من العذار فرقَّت لي محاسنُه

وقلت أنا فيه قبل أن أقف على هذا، وهو قول الغزي الآتي ذكره(١):

لا تحسبوا ما قد تبدّى على ... وجنته الحمراء حَبّ الشباب

وإنّما ريقته خمرة ... طفا عليه كاللآلي الحباب

وقلت فيه أيضاً:

أجدت النظم لمّا أن بدت لي ... بحبّ خدود من أهوى ظرائف

ففي حبّ الشباب دقيق معنى ... تخمّر للأديب به لطائف

وقال فيه ابن لؤلؤ الذهبي(٢):

تعشّقته لدن القوام مهفهفاً ... شهيّ اللُّمى أحوى المراشف أشنبا

وقالوا بدا حبّ الشباب بِوَجْهه ... ويا حبّذا وجهاً إليَّ محبّبا

وقال بدر الدين حسن الغزي في مليح بشفته حب(٣):

توهم إذ رأى حباً يحاكي ... على شَفَتَيْه حَبّاً(٤) في عقيق

---

(١) هو الحسن بن علي بن حمد، بدر الدين الغزي المتوفى سنة ٧٥٣هـ (أعيان العصر ٢: ٢١٤).

(٢) الوافي بالوفيات ٢٩: ٢٧٩، والغيث المسجم ٢: ٢٢٨.

(٣) الغيث المسجم ٢: ٢٢٨.

(٤) الغيث المسجم: درّاً.

فقلت له: وحقك ليس هذا ... سوى حَبَبٍ على كأس الرَّحيق

ولصاحب الترجمة في مليح يلقّب ابن سلم:

ما لابن سلم قد غدا ... فَضّاً فلا يَصْغي لعتبي
سفَكَتْ دمي ألحاظه ... ماذ ابن سلم ذا ابن حرب

وله:

قد تصدّى لقَتْلِنا منه لَحْظ ... قلَّل العاشقين بالفتك عدّا
فاعجبوا أيّها الأنام لسيفٍ ... صُقِل الخدّ منه كيف تصدى

المراد بالتصدّي هنا للقتل التفرّغ. يقال: تصَدَّيت للأمر إذا تفرّغت له مع الإيهام بتَصَدّي السيف من الصَّدَى، وهو ما يَعْلق جوهر السيف من الدّرن. فلذا قال: فاعجبوا البيت، معناه أنّ لحظه سيف صقيل مجلوٌ عن الدرن، فكيف تصدّى مع ذلك الحال، وأصل هذا قول الحاجبي[1] رحمه الله تعالى[2]:

إنّ السيوف كلّها ... قواطع إذا انجلت
وذا سيوف لحظه ... إذا تصدّت قتلت

آخر:

لا واخَذَ الله ألحاظاً سفكن دمي ... فهنّ سيفٌ على الأحشاء مسلولُ
وإن تصدّت لقَتْل العاشقين ففي ... أجفانها مرهف الخدّين مصقولُ

وله:

مقامنا الجنة طُوبَىٰ لمن ... نال من اللّذة فيه المنى
فهاتِ لي الكأس بلا ريبةٍ ... فالخمر في الجَنّة حَلَّتْ لنا

ومثله: قول المولى الحسين بن عبد القادر رحمه الله تعالى في تائيته:

---

(١) هو أحمد بن محمد المعروف بالحاجبي من المعاصرين للصّفدي ذكره في الوافي بالوفيات ٨: ١٦١.

(٢) الوافي بالوفيات ٨: ١٦٤.

الخمر بالنّص حَلَّت في الجنان فلم يا جنتي حُرِّمَت من فيك رَشْفات

وهو مأخوذ من قول محمد بن الرومي المعروف بماي ماي ممّن ذكرهم الشهاب الخفّاجي رحمه الله تعالى في كتابه ريحانة الألباء وزهرة الحياة الدنيا[١]:

راح حلالي شربها في جنةٍ والخمر في الجنات حَلٌّ شرابها[٢]

والأصل في الكلّ قول القاضي ناصح الدين الأرجاني رحمه الله تعالى[٣]:

كأس من الخَمْر الحلا ل شربها للقوم سُكْرُ
في مجلسٍ هو جنّة ولذاك فيه تحل خمر

وله يذم ويماجن صديقاً له يلقّب بدرت بضم الدال المهملة وسكون الراء بعدها تاء مثنيّة فوقية:

أقول للنيرات لمّا بدت بمُشْتَبْهم الظّلام
هل درت يوماً على أخس قالت: نعم (درت) في الأيام

وكتب إليّ من النظم والنثر يطلب استدعائي له إلى قبّة لنا، منافةٍ في كواها وطاقاتها وجدرانها كثيرٌ من الجام[٤] المصبّغ المتنوع أنواعا مختلفة، والمتلوّن ألوان كثيرة، وذلك بدارنا المحروسة المشيّدة بمدينة شبام كوكبان المحميّ.

قوله:

أمولانا الشهاب وخير من قد دعوناه إلى نيل المرادِ
تفضّلك العميم له علينا يد طالت لها فينا أيادي
ونحن الآن نطلب منك شيئاً يسير وسط منزلك المشادِ
منادمةً على شرب الحميّا وما هي غير نَظْمٍ في سعادِ
عليه من البديع ربيع لفظ تبدّى لا بمُنْسِكب العهادِ

---

(١) من شعراء ريحانة الألباء ترجمته في الجزء الأول: ١٥٨ من الكتاب المذكور.
(٢) ريحانة الألباء ١: ١٥٩.
(٣) ديوان الأرجاني ١: ٣٨٨ ط الجيل.
(٤) الجام: عندهم الزجاج الملون الكثيف.

ولــكــن حــاكــه ذِهْــن لــطــيــف ورَصَّــفــه بــديــع الإنــتــضــادِ
ويــتــبــع ذاك طــيــب مــن طــعــام ومَــشْــمــوم يــعــطّــر كــلّ نــادي
فــأنــت لــذي الــقِرى مــن غــيــر مــنّ بــذا كــأبــيــك مــوفــور الــرَّمــادِ
فــلــي قــلــبٌ إلــيــك ولــي فــؤاد بِــحَــرّ الــقــيــظ صــادٍ أي صــادِ
ودم مــا قَــامْ فــي غــصــنٍ رطــيــبٍ تــحــرّكــه الــصَّــبــا فــي الــروض شــادي

يا مولاي الشهاب، الفاتح إلى المعالي ألف باب، صِيْنَتْ ذاته الكريمة ودامت راحته التي هي دِيْمة، قُبّتك هذه المشادة على هام الأنجم، التي يقال لك إن شاء الله تعالى على مرّ الأبد: فيها دم، قد غازلت البدور في الأفلاك. وباهت النجوم المشرقة بعلاك، لنا إلى القيلولة في روضتها شوق الحمام، ولنا تطّلع إلى زهرها المتنوّع وما ذاك سوى مصبّغ الجام، فقد تلوّن جامها كما تلوّن المنثور، وجرت خِلاَلَها من أياديك العميمة جداول ونهور، فبالله عليك إلا افتتحت جنّتها لنا. وقلت: ادخلوها بسلام، وقرّنت لنا روضتها بروضة أخلاقك التي هي أخلاق الكرام، نتعاطى فيها كؤوس آدابٍ دائرة، ونغترف شراب العسل المصَفّى من أنهار كُتُب في المقام حاضرة، فإذا انقضى مقام التعاطي، ووقفنا من بحر العروض على الشاطي، بَسَطْت لنا بين أيدي الإخوان، أطايب الطعام على أنهج مدود من الخوان، نأكل تارةً من ذا وحيناً من هذا، ونجعل ملاذّ المأكول لنا من المخمصة ملاذاً، فتفضّل فأنت أهل التفضّل، وتأمل فيه هذه الحاجة، وهي ظاهرة من غير تأمّل، وأوصلنا إلى هذا المقصد حَسَب عادتك، وأرِدْ هذا الذي أردناه فلا يتمّ إلا بإرادتك. وقد أدلينا إلى مولاي بهذا التقاضي، ومن جميل صنعه تَلَقّي هذه الإساءة بالتغاضي، لا بالله ما أحسبها عندكم إلاّ حسنه موفورة، لِسِعة مكارمك التي هي حديقة ممطورة، ومولاي جمال[1] الدين في هذا العقد الواسطة. ومالكي شرف الإسلام في طرفيه الرابطة، ونحن منتظرون للجواب، انتظار الأرض المقفهرّة لواقع الرّباب. والسلام على أخلاقك السنيّة، والرحمة من الله عليها الرّحمة الهنيّة، تتعاقب علَى حدائقها في البكر والعشية.

(١) يعني والد المؤلف رحمه الله محمد بن الحسن الحيمي.

فأجبته من النظم والنثر بقولي:

قريض كالجواهر في انتضاد ... أرصّفه بأعناق الخرادِ
أكلّل أو أفضّل تاج كسرى ... به حسناً على قدر انتقادي
أتاني من أديب كان منه ... ملاطفتي على وَفْق المرادِ
ومن قد حَلّ من إنسان عيني ... على صونٍ بمنزلة السَّوادِ
أعبد الله أسرع نَحْو داري ... هلمّ إليّ فضلاً باجتهادِ
هلمّ لمنزل مني وقَصْدي ... إذا ما كنتَ تدريه فؤادي
لقد أسندت نظمك للآلىء ... وقد جنّبته عَيْب السِّنادِ[1]
أدرت عليّ منه خمرةً لا ... أفيق لها إلى يوم التَّنادِ
فدم ما فَتّحت شمسٌ عيوناً ... لنَرجس روضةٍ سَلَبَتْ رقادي
وما رشفت بثغر لؤلؤي ... لدى أزهارها ريق الغوادي

وصلتني قطعة من حديقة، سقيت أزهارها من عين غديقة، لا ولكنه الفلك الدّوار هبط عليّ بنجومه، وهجم على خاطري في ساعة غفلة، فارتعت لهجومه، وجَمْت على خبالٍ ومحارة، وتبلّدت وقد وردت عليّ منه بشارة، ثم تأمّلت، فإذا هي سطور مرقومة. وليس شيئاً من تلك الأمور المظنونة الموهومة. تشتمل تلك الأسطر على كلام لرقّته كاد يقطر، وقد أدمج في خلالها. وكان من جملة مقالها، أن أخذت منه الرأي في زيارة من أحبّ، وأنا للتقاطع أبكي مع الورقاء وأنتحب، وأخاطب المحبوب على غيبته، فأقول: هل يليق أن تهجرني وأنت حِبٌ، فثملت سكراً لأخذ ذلك الرأي والتماسه. وبادر قلبي إلى سَبْحه في نهر السرور وانغماسه، فأقبل إليَّ أيها المستفهم، قبل أن يعزم قلبي على تصديعه بأشواقه ويهمّ، وبادر قبل أن يطير فؤادي من الفرح، وسَكّنه بوفودك إليّ حسبما اقترحت أمراً له أقترح، فلا أعدّ نزولك بداري إلاّ نزولاً لليلة القدر.

---

(١) السناد من عيوب الشعر وهو اختلاف ما يراعى قبل الروي من الحروف والحركات. انظر المعجم المفصل في اللغة والأدب: ٧٢١.

ولا أحسب اجتلائي لمحياك إلا اجتلاءً لليلة البدر، إمش إليّ على هامة الكواكب، واركب من أشواقك إلى مقامي أحثّ المراكب، فتلك القبّة الحالية، وتلك الغرفة التي لم تكن عن المحاسن بخالية، قد تَهَيَّأت لوفودك، وتَزَيَّنَتْ لورودك، وملأت جامها من خمرة المسرّة، وطالت أركانها افتخاراً بك حتى كادت أن ترد نهر المجرّة. أقدم علينا بالرَّحب والسعة، وانهض إلى مقامنا في أمنٍ وفي دعة، فانتهاز الفرصة ملكه، والتواني ينتج الهلكة، والسَّلام عليك ما حنّ صديق إلى صديق، فبكا أيام تدانيه بدمع غديق.

الفقيه الحسن بن أحمد النصيري(١)

من رداع(٢)

هو للأدب نعم النصير، وهو النّاظر إليه بعين خبير بصير. صَيْرفي شعر لم يخل عن النقد، وجليس دفاترِ أحسنِ الحَلّ والعَقْد، لو أرادت البدور نيل فلك مجده الذي يدور، لمّا ظفرت بغير التكلف، كما أن مسابقه في طرق الفضل ما وقع على سوى التخلف.

ذكره في المحافل إمام، ونظمه في مجالس الأنس مُدام، له ذهب نظم غنيّ عن الطَّرْق، وانسجام شعرٍ أرقّ من ابتسام السّحاب عن مفلج البرق، وفدا إلى حصن كوكبان، فلاحَ لي من غرّته وأدبه كَوْكَبَان، وجالسته مراراً، وأوسعني وأوسعته مزاراً، واجتنى من غصني كما اجتنيت من غصنه، وشرب روضه من مزني كما شرب نباتي من مزنه، وعذاره يتلو سورة النّمل. وفي ليل شبابه يُجْمع الشمل، فرأيت له بالأدب هياماً، ورأيت له باللطائف ولوعاً وغراماً، ولمّا قُضِيتْ مآربه، وصفت من نيل نيله مشاربه، سار كما سار القمر في الفَلَك، ونهض كما نهض النَّسيم في الحدائق وسلك، ولم ألبث بعد فراقه غير اليسير، حتى وفد إليّ خبر

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) بلد سبق في ج ١ : ٣٣٠.

وفاته بقلبٍ كسير، فقالت العُلا: إلى أين مصيري، وقد عدمت في ابناء الزمان نصيري، ومات وهو رَيَّان شباب، وتوفى وهو رنّان رباب، وَشَعَرَهُ أغدف، وقُطْن مشيبه بيد الدّهر لَمْ يُنْدف:

أيّ نــاجٍ ولــلأهــلّــة فــي الأفــق   قــســيٌّ تــرمــي الــورى بــنــبــالِ

حيّا الله لحده، وأحيا ذكره بآدابه بعده، ما ظهر سرّ الحمامة وناح، وفتَّ على مِسْك الليل كافور الصباح.

ومن أشعاره التي قام بها على الفضل دليله، ومات لحَسدِها من نسيم الروض عليله. قوله في غلام معذّر، مات في حبّه وهو معمّر:

عــذار مــعــمــر كــالــلاز حــســنــاً   وكــلّ مــعــمّــر لا بــد يَــفْــنَــىٰ
فـإن سـمـحـوا بـعـشـقـتـه جـمـيـعـاً   فـقـل (أن تـخـرجـوا مـنـهـا فـإنّـا)

وله في مملوك حبشي جميل مشروطٍ على أنفه، اسمه بلال:

أفـدي الـذي رقـمـوا لـه مـن اسـمـه   فـي أنـفـه شَـرْطـاً غـدا يـحـكـي لا
لا تـعـجـبـوا فـالـبـدر وهـو شـقـيـقـه   رقـمـت بـه (لا يـظـلـمـون قـتـيـلا)

وله في غلام جميل صائغ من اليهود يصوغ الفضة في روضة أنيقة:

مـن آل إســرائــيــل صــادَفْــتــه   فــي رَوْضــة أزهــارهــا غــضَّــة
بَـدْر يـسـيـل الـتِّـبـر فـي خـدّه   وكّـفـهُ يـلـعـب بـالـفـضّـة

ولما وفد إلى حصن كوكبان المحميّ أرسل إليّ في فصل الشتاء بكتاب (روض الآداب)(١) للشيخ شهاب الدين الحجازي رحمه الله تعالى، لأنظر فيه واستدعى مني كتابي المسمى (عطر نسيم الصَّبا)، فبعثت به إليه وكتبت معه من النظم والنثر قولي:

بـعـثـت لـنـا روضـاً مـن الأدب الـذي   به بَحْر شعرٍ ليس يقطع بالخوض

---

(١) روض الآداب مجموعة أدبية للشهاب الحجازي أحمد بن محمد بن علي المتوفى ٨٧٥ هـ ذكره صاحب كشف الظنون: ٩١٦.

فإن طاب عِطْر للنسيم فقد سرَت إليك به والله من ذلك الرّوض

وصلني ذلك الرّوض وهو بنداك مَطْلول، وحَيّاني نَسيمه الرّطب، وإذا هو صحيح غير معلول، روض لم يَخْلق الشتاء بَهْجته، ولم تَحْرق الشمس ديباجته، على أنّ هذا الفصل، قد جرّد من الاكفهرار أي نصل، لمّا تمكّن من البلاد الجدب، وأعلنت الحمائم على مَيّت الرياض بالنَّدب. وهذا الروض لم تندبه حمائمه، ولم تتقلص من البَرْد كمائمه، بل قد راق مصونه، وترنّحت غصونه، غصون تتعانق من الأشواق، وتغرّد على معاطفها ذوات الأطواق، من كل طير للسَّجع قد أَلِفْ، كأنّه على الغصن المنصوب همز على أَلِفْ، فحييت عنّي أيّها الفتى، لما حييتني من هذا الرّوض بفاكهة الشتاء[1]:

هناك قد جاء غريباً على شوق من الأعين والأنفس

فاكهةٌ لم يلمسها كفّ جان، وثمرة جَنّة لم يطمث حورها أنس ولا جان، إنما تُقطف بأهداب المقل، وتذاق بفم السَّمع لمن غقل، وصدر كتابنا (عطر نسيم الصبا)، المشتمل من ذلك الروض على عرف أزهار الرُّبى، فإن طاب، طاب لك أريجا، فالفضل في ذلك لروضك الذي برز بهيجاً، وإن لم يطب فما مثلي من يطيب منثوره، ويروق في الآداب المسطورة مسطوره، توجّه إليك وكنت أودّ لو أنّي المتوجّه، وأرجو له القبول، وقد كنت قبل لم أترجّه، حتى علمت من أخلاقك إيناسه، وتيقّنت من حسن بشاشك أنواعه وأجناسه، فخذ شوقي إليك من لسانه، واجْتَلِ إذا حَكَمْت له بالإجادة خرائد حسانه. فربّما عَبَّر عن ودّي فيما يعيده من الأخبار ويُبْدي، فإني أنا المحبّ، أجاوب الطير المنتحب، فمعاطفي إلى لقائك نَشْوى، وليس القلب بمريضٍ حتى أتحفه بمزوّرة[2] من الدعوى، إنما أنا في ودك سليم الطويّة، أنظم على فراقك ولو لحظةً من البكاء عقوداً لؤلؤيّة، فصدّق دعواي ولا تطالبني بشهود، فشوقي كما علم الله إليك لا إلى ذات النهود، هذا وإن كنت

(١) للمسلم بن الوليد ديوان مسلم: ٣٢٤ والوافي بالوفيات ٢١: ١٨٧.
(٢) سيشرح هذه اللفظة فيما بعد.

مطالباً إلى تحصيل الشهادة على أنّ ذلك في شرع الأدب وإن أكثر المحبّ بعَاده ليس عادة، فلي شاهدٌ عدلٌ، وهو قلبك، ويزكيه بالعدالة التي لا جرح فيها أيها المشاحح لُبّك، وهذه يميني المتمّمة مبذولة، وهذه طويّتي - ولا أقول سخيمتي - بيد الاختبار مسلولة، وأسأل الله أن لا يقدر بيني وبينك فراقاً، وأن لا يشوّه بدر أنسنا فيوليه من التنائي محاقاً، والسلام.

قولي: وليس قلبي بمريض حتى أتحفه بمزوّرة من الدعوى، في المزوّرة تورية لأنّ الدعوى المزوّرة معروفة، و(المزوّرة) أيضاً اسم طعامٍ معروف يُطْبخ من غير لحمٍ للمريض الذي يَحْتمي، ولهذا قلت: وليس قلبي بمريض، فاعرف المراد، وما أظرف قول الشيخ الأديب بدر الدين ابن الصاحب رحمه الله تعالى وتلطّف ما شاء[1]:

حبيبٌ لي طبيب لم يَزرني   سِوى بالطَّيف في ظُلَم الليالي
رأني ناحلاً من فرط شوق   فأهدى لي مزوّرة الخيال

وقال الأديب كشاجم رحمه الله في هجو من ادّعى الشرف[2]:

شيخٌ لنا من مشايخ الكوفة   نِسْبته للمريض موصوفة
لو مَسَخ الله قمله غنماً   لم يعط منها لسائل صوفة[3]

وقال شهاب الدين الخفاجي رحمه الله تعالى[4]:

مودّة تشتهى مزوّرة   منها احتمى ذا المريض حين قلا

وقلت أنا في رجل زوّرعلامة إمام الزمان ثم مرض:

زورتها علامةً   في رقّها محرّرة

---

(١) خزانة الأدب ٢: ١٩١ ط شعيتو.

(٢) ديوان كشاجم: ٢٧٦ ط الخانجي وريحانة الألباء ٢: ٣٠٧.

(٣) الديوان: ما طمع الخلق منه في صوفه.

(٤) ريحانه الألباء ٢: ٣٠٣.

أنت مريض مُوْجَعٌ		وهذه (مزوّرة)

وقلت مع الجناس في مليحةٍ زرتها وقد ومرضت:

قد زرتها في مرض		فهي إذاً مع الفَقَرَه
مزورة طعامها		كما ترى (مزوّرة)

وقلت فيها وقد صنع بعض الجيران لها هذا الطعام المذكور، وفي عرف أهل هذا الزمان يسمّى ما جاء من الجيران وغيرهم من الأصدقاء للمريض من الطعام زيارة، ففي النظم تورية:

مرضت فجاء الأقربون لها بما		كول يتوق إليه أرباب الشَّره
فطعامها عند الزيارة وهي إذ		قد زوّرت في الحالتين (مزوّرة)

الفقيه الحسن بن جابر العفّاري[1]
أصلاً الضوراني منشأ ومحلاً

فاضلٌ لخدّ الحسود في الترب عفّار، وظريف عدّ في الأدباء لما أنجبته عفّار[2]، لأنه أصلٌ له ومنبع، ووطن لآبائه ومربع، إلا أنه استوطن ضوران. وضُرب عليه من علمه وأدبه سُوران، فهو به الآن غُرة، ولياليه في جَبْهة الأيام طرّة، تضحك الرّياض في وجهه بثغر أقاحها من المسرة، إذا طفت على كأس نظمه من الحباب الفواقع، ارتاع له الندماء فألف منهم قائمٌ وألفٌ واقع، مع لطفٍ كامل أطوع للنديم من اليراع للأنامل، لا بل أطوع من الغصن للصَّبا، لا بل أطوع من العقل لنشوة الصِّبا، لاقيته بمدينة رداع، وطفت حول كعبته طواف الزيارة ثم طواف الوداع، فكنت أتمتّع منه بأطيب ثمر، في وقت حلا مذاقاً وأسرع في مروره، فأسفت على ما حلا ومرّ، إذ دارت لنا كؤوس المحاورة، وجرت بنا أجياد

---

(١) انفرد المؤلف بذكره.

(٢) بلد في اليمن.

الأنس في مضمار المسامرة، وقد عاد مسكه كافوراً. وصار نصيبه من الشّيب نصيباً موفوراً، إلاّ أنه حاضرني من أدبه، ونَثَر عليّ من شهبه ما يُقْصر عنه شبّان الزمن، ويغبن بائعه ولو كانت الدّراري له ثمن، وله أشعار تكاثرت، وزهرات نظم على بساط الرّوض تناثرت، حَضَرني الآن منها، ما يروي حديث الطيب عنها، قوله في رجلٍ اسمه يحيى، يَنْتَعِشُ بِغَيْثه نبات العلم ويحيى، كان يحضر عند العلاّمة المغربي[1] لقراءة النجم[2]، ويسمعه عليه أوان المغرب وقد دقّ من النهار عظيم الحَجْم.

وهو قوله:

لمريد يحيى قلت لما قال لي ... كم بيننا ومحل يحيى الأنجب

إن سرت بكرة يومنا وافيته ... مستوضحاً للنَّجم عند المغربي

ذكرت هنا ما نظمه خليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى في مليحٍ يقرأ على العلاّمة المغربي المذكور، وهو قوله:

وشادنٌ تيمّني ... بدرٌ ثغر أشنب

كأنه بدر ضحى ... تشرق عند المغرب (ي)

وقوله:

أيا مالكي جد بفيض النَّدى ... عليّ فذا البخل مستقبح

لكي أنظم الدّرر مَدْحاً لكم ... فإنّ اللُّهى للهى تَفْتَح

ومثله قولي:

ما ينظم المرء مدحاً في ذوي شرفٍ ... إلاّ إذا البشر من تَنْويلهم مُتحت

إن اللهى عند ضمّ اللام فاتحةٌ ... لها سريعاً إذا ما اللام قد فتحت

---

(١) يعني الحسن بن محمد المغربي سبق في أهل صنعاء في الجزء الأول: ٣٧٦.

(٢) يعني شرح الرضي على الكافية.

وقلت أيضاً في النثر: إن رمت أيها العظيم مدحاً، وطلبت في الثناء عليك لزند الأفكار قدحاً، فأجزل الصّلات والعطايا، فإن النّوال للوصول إلى سوح المحامد مطايا، ولا تَبْخل من المال بما ينفد، على من يجود لك بالذّكر المخلد، فاللُّهي المضمومة اللام، تفتح اللهى التي لامها مفتوحة بمشق الأقلام. انتهى.

قال السيد العلاّمة عبد الرحيم بن عبد الرحمٰن العباسي رحمه الله تعالى في كتابه (معاهد التنصيص في شرح شواهد التلخيص) في ترجمة أبي الطيب المتنبي ما لفظه[1]: ويحكى أن المعتمد بن عبّاد اللّخمي صاحب قرطبة وإشبيلية أنشد في مجلسه بيت المتنبي الذي من جملة قصيدته المشهورة.

وهو **قوله**:

إذا ظفرت منك العيون بنظرةٍ   أثاب بها معنى المطيّ ورازمه

وجعل يردده استحساناً له، وفي مَجْلسه أبو محمد عبد الجليل بن وهبون الأندلسي، فأنشد ارتحالاً:

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنّما   تُجِيَد العطايا واللّهى تفتحِ اللّهى
تنبّأُ عجْباً بالقريض ولو درى   بأنك تروي شعره لَتَألَّها

وهذا مثل قديم قاله أبو سعيد القصار في جعفر بن يحيى[2]:

لابن يحيى مآثرٌ   بَلَغت بي إلى السّهى
جاد شعري بجوده   واللّهى تفتح اللّهى

اللُّهى بالضم العطايا، وبالفتح مجتمع لهاة الحلق انتهى كلامه بلفظه وحروفه:

ولصاحب الترجمة رحمه الله تعالى يستدعي من بعض السادة أقلاماً للكتابة وقد عزّ وجودها:

---

(١) معاهد التنصيص ١: ٣١.
(٢) معاهد التنصيص ١: ٣٢.

يا مالكاً فاق على مَنْ مَضى وزاد بالجُودِ وبالحِلْمِ
احتجت أقلاماً فوجّهت مَنْ يأخذها فاحتَجّ بالعُدْمِ
فكنت إذ لم يجدوها كمن يسائل الصمّ عن الصمِّ

وله ملغزاً في شال[1] بالشين المعجمة:

فما اسم شيء نشا فيما الحياة به تجلّه العرب إن حازته والعجم
إن شئت تصحيفه فالماء منحدر وإن قَلَبْت أتى مقلوبه العدم

وله في زمازم الماء:

تأمّل في الزمازم هندباتٍ ولذّة شربهنّ إلى الطباعِ
وذاك للطف مخرجه فكانت مذكّرة بأيّام الرضاعِ

وله وقد وصل إلى محل يسمّى الرباط وكان مسيره والمطر ينهمل عليه صبّاً غزيراً:

وصلنا سد مِشورةٍ وجزنا فوافى الغَيث منحلّ الرّباطِ
وكنّا مطلقين فلم ينفّس علينا من أذاه سوى الرّباطِ

وله وقد صحبه دليل ببلاد آنس إلى محل اسمه الجاهلي:

بآنسٍ حزناً على عالمٍ بالطّرق فيها عارفٍ كاملِ
فأمّنا العالم في طُرْقنا وقادنا فيها إلى الجاهل (ي)

وأحسن منه ما جاء لي في كتابي المسمّى (تحقيق[2] من عرف لرحله الشرف) وذلك لما وصلنا في الشرف المذكور إلى محلٍّ يسمى الجاهلي أيضاً، وفيه قبر عالم يلقب بالعالم، زرناه ودخلنا مشهده، فقلت:

في مشهد العالم قد ذقت ما يُطيب للوارد والناهل
يا حبّذا من فاضلٍ في الورى وحبّذا العالم في الجاهل(ي)

وله أرجوزة نظمها في تحقيق معرفة الأوقات التي يسافر بها تجّار الهند

---

(١) الشال في عرف أهل اليمن الرداء من الصّوف ونحوه.

(٢) انظر ما كتبناه عنه في كتابنا الرحاله اليمنيون: ٦٧ ـ ٨٢.

ويفدون فيها إلى بندر المخا المحروس ويرجعون إلى أرضهم، وذلك عند ركوبهم البحر ذهاباً وإياباً:

أرجوزة مفيدةٌ عجيبةٌ تضمّنت فوائداً غريبة
للحسن بن جابر العقّاري وفّقه الله اللّطيف الباري
مَنظومة في سفر التّجار تجار أهل الهند في البحارِ
عمدة أهل الهند في خروجهم إلى المخاء وابتدا ركوبهم
على حساب أحكموه في العدد من أوّل النيروز ما مرّ الأبد
لأنّما استدلا لهم في الأحكام بابتدا نيروزهم في الأيام
لا يحسبون أنجماً وأشهراً وإنما عمدتهم ما سترى
وأنه اختصّ بِهِ الأعاجم فهو لهم على الحساب حاكم
لكنّه يَجهله أهل اليمن فَكَشْفه لعلمه من الحسن
مبيِّناً على حلول الشّمس ليعرف الحكم بغير لبس
وعندهم فأوّل النّيروز حقيقةٌ وليس عن تَجويز
على مَسير الشمس في الأفلاك إن أخذت خمساً من السِّماك
فإن مضت فيحسبون آتيه من بعدها ستين يوماً ومِية
وهم مقيمون بأرض الهند حتى تمرّ كلها بالعدّ
وبَعدها ركوبهم للخضرم[1] إذا مضت تسع من المقدَّم
فلا تزال سفنهم في سَبْح إلى نهار عاشرٍ في النطح
فسَيْرهم في البحر أربعينا حتى يوافون المخا يقينا
وذاك عند الهند مائتان من أول النيروز في الحُسْبان
وعندها تكامل المراكب إلى المخا وتَكْثر العجائب
ومن أتى الميقات ذا ولم يصل فقد غدا متوهاً على وجل

---

(١) الخضرم: البحر.

ثم يقيمون به عن السّفر ... مائة يوم ثم خمسة عشر
إلى ثمان إن مضت في الجبهة ... ثم يؤم كل سَفْرٍ وجهه
وبعضهم مسافر إذا المئة ... مرّ له من بعدها ثمانية
ولا يقيم بعد هذا مركب ... فإن أقام ثم سار يَعْطب
أو يغتدي متوّهاً في البَحْر ... تَخْبِسه الرياح عن أن يجري
فهم يعودون إلى بلادهم ... من ابتدا النيروز في حسابهم
على ثلثمائة وعشرة ... وخمسة من بعدها مقرّرة
هذا على مرّ الزمان حالهم ... يرثه عن شيبةٍ أطفالهم
سبحان من ألهمهم لذاكا ... حتى اهتدوا بفضله المسّاكا
في لجّ بحر هائلٍ خطير ... أمواجه كالجبل الكبير
ليست له سواحل قريبة ... بل لجّة شاسعة مهيبة
ولا يحطُّون لهم شراعاً ... من أرضهم إلى المخا إجماعاً
لأنّهم في الليل والنهار ... يواصلون السّير في التّيّار
تبارك الهادي لهم والمانح ... حتى استبانت لهم المصالح
ثم صلاة الله ذي الجلال ... على النبي المصطفى والآل

الشيخ محمد بن الحسين المرهبي(١)

من إب

خاتم أنبياء القريض، ذو الباع في العروض الطويل العريض، بدر استنار، وصدر رُفِع له المنار، سبقت أطرافه أفراسه، وتوالت بمكنونات المعالي أعراسُه. له في العلم يداً لا تطاول، وله في العرفان مرتبة لا تحاول، فَحْلٌ من الفحول لا يزول عن الإجادة ولا يحول، هام بالعلا وليس عليه من بأس. قبل أن يلبس خدّه من الشعر لباس آل عباس(٢)، لازم حضرة الملوك، وترك وطنه

(١) نفحات العنبر (خ) نشر العرف ٣: ١٢٣، والأدب اليمني: ٤٩٥ ـ ٥٠١.
(٢) يعني السواد ولعل الصواب أن يقول قبل أن يخلع.

مرهبة[١]، من كلّ ملك يأمر الهبة بالفيض عليه، فلم يزل يقول له: مُرْهِبة، حتى تفيض علينا بكل مَعِنى، يفحم بوافرة اللسان المثنى.

وكان لدى علي[٢] بن المتوكل ذا حقّ واجب، يعدّه لدولته عيناً ما عليها حاجب، يزهو به موكبه، ويتجمل بوشيه منكبه، وتصفو به مجالس أنسه، وتعقد عليه محافل درسه، وتثمر بفوائده دوحات غرسه، فجرى به الزَّمان من السعادة على مرادها، ونظر إليه من أيامه ولياليه ببياض عين وسوادها، فتدلت رياحينه لما اخضرّت بساتينه، وكان أحد وزرائه، يعتمد الثاقب من آرائه، فله آراء لموافقة الإصابة مارست.

وإذا جبال الأعداء عند زلزتها مارست، يشدّ أزر رماحه بأقلامه، ويضم من مسطورات ترسله أعلاماً إلى أعلامه، إلا أنّها كانت تفرط به الحدّة، فيخلق بتشرسه أرداناً ذات جِدَّة، ويصمم على لين هزله وإنما يستعمل حدة، فيسيء الأدب في حق مخدومه، فموجود تصدّره في الدست كمعدومه، يتطاول على من حقّه له أن يتقاصر، ولا يبالي بسيفه وقلمه إذا صلّ أو صرّ، ينفث نفثة صلف، ويصون بدره الكامل بكلف، وينشر ويلف ثياب إساءته، فيقال له: لقد قبح بك نشر ولم يرق بك لف.

ولكنه كان يحتمل له مخدومه ما يبدر، ويَسْتَكمل هلاله الناقص قبل أن يبدر، لمّا تحقق فضله، ولم يجعل حاله لديه فَضْلَه، لا يريه إلاّ أن قبيحه حسن، وأن حبله الغليظ ألطف رسن، يتلقّى تجَنّيه تلقي المحبّ لتجنّي المحبوب، ولا يظهر عليه إلا أنّ ذلك الجاري غاية المطلوب، فلا يأنف منه أنفة الملك المطاع، وإنّما يبالغ في إطفاء نار غَيْضه أنّى استطاع، مع أن طباع الملوك، وَعْره المرور والسلوك، ما خلا هذا الملك، والعقد الذي في جِيْد الزمان قد سلك، فكرم الأخلاق له سجيّة ونسيم طباعه سهلة سجسجية.

---

(١) مرهبة: قبيلة من يكيل منازلها في غرب مدينة ذي بين (المقحفى ٢: ١٤٩٥).
(٢) سبق ذكره.

ولم يزل هذا الشيخ في أنعم حال، ولياليه ذات عنق من نفيس البلهنيّة[1] حال، إلى أن مات ذلك الملك، فنظم درّه في سلك الحوادث وسلك، وذاق بعد العسل عَلْقماً، وساور من النوائب أرقماً، وتقلّص عنه ظلّ العطاء، وخلت يده فإذا هي كأفاحيص القطا. وهكذا الدّهر طالما غال، وعامل بالجور، فهو أجور من أبي رغال[2]، رأيته وقد ضاق عيشه، ولم يضق عليه وقاره ولم يستفزه طيشه، لمّا وفد إلى كوكبان ذا خاطرٍ كسير، وهو في أغلال أكداره كالأسير.

ينقاد للدهر خاضعاً، ويخاطب الخطوب متواضعاً، وله بنات أفكار غريبة النمط، نظم على أعناقها عقود المعاني وسمط، لا يمسّها الكبر ولا يلامسها الشَّمط، فكم ليلة من مداده سرى بها، ففاز بشراب الآداب لا سرابها، أَرْوَح من رضاب الراح، والذّ على الظمأ من الماء القراح.

ما رأيت له في الشعر مبارياً، ولا عملت لجواده في حلبة النظم مجارياً، وقد طالعت من شعره مجموعة، وأصغيت لكلمات نظمه المسموعة، فوقفت منه على سحر غير محرّم، ودخلت كلّ بيت منه، فإذا هو بيت مكرّم، ممّا لو سمعه المتنبي لفت في زنده، أو المعرّي لخبا بعده التضرّم (سقط زنده) إن نظم القصائد المطوّلة أغرب، وأمّا المقطّعات اللطيفة فلم يكن له فيها مشرب، فما أشاد منها بيتاً، ولم يُصَبّ على مصباحها المتّقد زيتاً.

وكان بآدابه ذا زهو، لمّا عمر في إيوانه أقوى إيوان وبهو، وسجد القلم في جوامع الطروس، وقد أقاس نظمه بنظم غيره سجود سهو، فقد ذكر بعض العظما. وروى عنه أحد العلما بأنه لا يسلم لفاضلٍ فضلاً، ولا يولي كلّ خاطب لأبكار

---

(١) سبق شرح هذه اللفظة في الجزء الأول: ٥٤٦.

(٢) أبو رَغَال جاهلي قديم قيل كان عاملاً لصالح النبي عليه السلام فأرسله إلى قوم من ثمود فأحل لهم الحرام. وقيل كان دليل الحبشة حين جاؤا لهدم الكعبة يضرب به المثل في الظلم والشؤم وهو الذي يرجم الحاج قبره قال جرير:

إذا مات الفرزدق فارجموه ... كما ترمون قبر أبي رغال

(المرصع: ١٤٥).

بنات الأفكار إلاّ عضلا، يعتقد أن العلم عليه مقصور، وأن الأدب فيه لا في غيره محصور، وهو حقيق بأن يدّعي ما له أن يدعيه، وخَلِيق بالمُنْصف أن يسمع لدعواه ويعيه، فإنه جاء بالمعجز، وأفحم المُطْنب والموجز، وقد حَصَّلت أرجوزته في سيرة الإمام الناصر، وهي منظومة لا يحصر طرف محاسنها الحاصر، وكان بينه وبين خليلنا الشيخ إبراهيم الهندي منافسةٌ وإحماض، ولِبَرْقِ تقادحهما بالشعر في سحب الأوراق إيماض، طالما كَلَم كلّ أحد منهما صاحبه كِلَماً لا يَبْرَىٰ. وطالما كسر صحيح عرضه كسراً لم نر له جبراً، فما تعاملا بحلم ولا تغاضي، بل خرط كلّ منهما لكلم الآخر مضارعاً للسيف الماضي، من هجو لا يليق بأدبهما الغضّ كره ما يكون إلى من عرف فضلهما وأبغض، فبينهما داء الضَّرائر، وتنافس الأبيَّات من الحرائر، قضى بذلك التَّحاسد بين ذوي الأدب، والتَّنافس الذي حَثَّ كلا منهما على القدح في حق الآخر ونَدَب.

ولم يزل في آخر عمره ممتحناً، متوجِّعاً من أترابه على سكان القبور لا المُنْحَنىٰ، يندب في جبله زمانه، ويعتاض من دمعه عن عقد انتثر بعد نظمه جمانه، يتأسف على عيش أخضر، وروض زمن أنضر، بمقام عليّ بن المتوكل وحضرته، وسفحه الناشر لاستبرق من خضرته، وقد أخفاه الكون من الحوادث، فما أبداه، وأنزله النّجم في عينه والليل في سويداه، ولم يزل باكياً على الشَّباب بدمع أجفانه، لمّا جاءه بياض المشيب بنموذج من أكفانه، فمات وهو من الزمان مكلوم، وفارق من هذا العالم ذوي إحن ولوم، أخفاه الرمس، وبكَتْه عين الشمس، رعى الله ما فقده من خلاله، وجعل ضريحه روضاً يخرج الودق من خلاله، ما بكت الغمامة، شجواً لنوح الحمامة، وأطلع الفجر سوسنه، وجَلاَ الصبح من محيا الشمس ما يعد في الحسن أحسنه.

ومن شعره: العذب الهاني، ونظمه الذي هان عنده نظم ابن هاني[1]، وأنواره الساطعة في كل آنية، وأنواره المطلولة التي لها الأكف جانية.

---

(١) هو أبو نواس يعني الحسن ابن هانئ.

قوله:

أنـا الـشـجـي فـدع عـذلـي وتـفـنـيـدي ... واذكر معافيك من شجوي وتسهيدي
مـاذا عـلـيـك إذا أفـنـيـت مـن جَـلَـدي ... دمعي على معهد بالسَّفح معهود
هـذا الـعـقـيـق ولـي فـيـه قـديـم هـوًى ... أضحى حديث حداة العيس في البِيْد
هـذا الـعـقـيـق فـإن أبـخـل عـلـيـه بـه ... من الدموع فإنّي غير معمود
وإن ثـنـتـنـي الـثـنـايـا عـن ربـاه فـلا ... وردتها من ثغور الخُرَّد الغيد
ألا أطـيـل عـلـى كـثـبـانـه أسـفـي ... وربَّ يوم مضى لي فيه كالعيد
لا أخـلـفـتـه الـغـوادي كـلّ مُـنْـطـبـق ... بالبَرْق محلول وَبْل غير معقود
فـإنـمـا الـعـيـش لـذَّات قـضـيـت بـهـا ... وليس ما دونها عندي بمعدود
أوقـات قـصـف قَـضَـيْـنـا واجـتـنـا زهـر ... بالكف والثَّغر من ورد وتَوْريد
بـالـغـادة الـرُّود قـد أسـلـفـتـهـا سـمـراً ... شبيهه الظبي ذات العين والجِيْد
مقسومة الحسن في الأقمار إن سفرت ... وفي القَمَارى إذا غنّت على العُوْدِ
مـا حـدّثـت قـطّ إلا وهـي ضـاحـكـة ... أحبب بدرّين مَنْثُور ومَنْضُود
وفـي لـواحـظـهـا الـبـيـض الـرِّقـاق ولا ... تناقضٌ إن وصفناهنّ بالسُّود
ألقى الغواني لها ثوب الجمال كما ... ألقى الورى لعليّ بالمقاليد
يـمّ الـعـوارف فُـلـك الـمـكـرمـات ومـن ... أرست سفينة جدواه على الجود
رام الـعُـلا قـبـل أن يُـلـقـى تـمـيـمـتـه ... وعدَّ طفلاً أريباً في الصَّناديد
وخـيّـلـوه نَـبـيـلاً فـي صـبـاه وكـم ... تَبَيَّن المجد في أعطاف مولود
إن أبهم الخطب واستعصت مفاتحه ... فانزل بكشّاف كربٍ منك محمود
بقيت يا بن النبيّ في عمر نوح وفي ... عَزْم الخليل وفي ملك ابن داود

قوله: هذا العقيق فإن أبخل عليه بما، والبيت الذي يليه، فيهما من الانسجام البديع [الاستخدام بالضَّمير][1] كما هو ظاهرٌ.

---

(١) ساقط من (ش).

وقوله: يمّ العوارف، البيت فيه التورية في الجود لأن الجود هو السماح، والجودي بزيادة الياء هو جبل بالموصل وقيل: بقرب الموصل، وعليه استوت سفينة النبي نوح عليه الصلاة والسلام، كما قال الله تعالى (واستوت على الجودي) ولذا رشح للتورية في البيت بذكر اليمّ والفلك والإرساء والسفينة حيث قال: رست سفينة جدواه.

وقد سبقه إلى هذه التورية خلق كثير من الأدباء قال: إمام الأمداح النبويّة شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد البوصيري رحمه الله تعالى في مدح الإمام الشافعي رضي الله عنه[1]:

بقبّة قبر الشافعي سفينة	رست من بناء محكم فوق جلمود
ومذ غاض طوفان العلوم بموته	استوى الفلك من ذاك الضريح على الجود

وقال ابن النبيه رحمه الله[2]:

ملك إذا ما طما طوفان راحته	أرسى سفينة راجِيْه على الجودي

وقال نور الدين بن علي العسيلي[3] رحمه الله تعالى[4]:

بكفك طوفان تروّي به الملا	وعهدي بالطوفان يأتي بِتَنْكيد
ولا غرو إن أرست به سفن الرجا	ببابك يا مولى النوال على الجودي

وقال القاضي العلامة شهاب الدين الخفاجي رحمه الله تعالى ممّا ختم به كتابه المسمى (طراز المحاسن) وهو:

أستغفر الله مالي بالورى شغلٌ	ولا سرور ولا أنسي بموجود
عمّن سوى سيدي ذي الطول قد قطعت	مطالبي كلها مذ تمّ تَوْحيدي
للبِرّ أقدام تسعى قبل ما وصلت	أرست سفينة آمالي على الجودي

---

(١) لم أجدهما في ديوانه.

(٢) ديوان ابن النبيه: ٣٦٧.

(٣) سبقت ترجمته في ج١: ٢٣١.

(٤) ريحانة الألباء ٢: ٢٠١.

وقال صاحبنا الأديب يوسف بن علي رحمه الله تعالى في بعض قصائده عند ذكر الممدوح:

عُمّر فينا عُمْر نوح إنّه ... جاء بطوفان النوال المجدي
فحملت سفينة الرجوى من الـ ... آمال مالا ينتهي بعد
فما استوت بإصرها إلاّ على ... يدٍ له معروفة بالجود (ي)

وقلت أنا:

لم أنس في الناس كريماً غداً ... نظيره لي غير موجود
في بحره قد لجّجت فلكه ... حتى استوت منه على الجود (ي)

فائدة: استخرج زكي الدين بن أبي الاصبع رحمه الله تعالى من قوله تعالى، ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١) أنواعاً كثيرة من البديع(٢):

منها: المناسبة التامة بين: اقلعي، وابلعي.

ومنها: المطابقة اللفظية بذكر الأرض والسماء.

ومنها: المجاز في قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾. ومراده مطر السماء.

ومنها: الاستعارة في قوله: اقلعي.

ومنها: الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ فإنه عبّر بهاتين اللفظتين عن معانٍ كثيرة.

ومنها: التمثيل في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، فإنه عبّر به عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بغير لفظ المعنى الموضوع له.

ومنها: الإرداف في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾، فإنّه عبّر عن استقرارها في المكان بلفظ قريب من لفظ المعنى.

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٢) سبق شرح بعض هذه الأنواع من البديع وانظرها أيضاً في خزانة الأدب لابن حجة الحموي.

ومنها: التعليل لأنّ غيض الماء علّة الاستواء.

ومنها: صحة التقسيم إذ استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حالة نقصه.

ومنها: الاحتراس في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إذ الدعاء عليهم يشعر بأنهم مستحقو الهلاك احتراساً من ضعيف يتوهّم أنّ الهلاك شمل من يستحق ومن لا يستحق، فأكّد بالدعاء المستحقين.

ومنها: المساواة لأنّ لفظ الآية الكريمة لا يزيد على معناها.

ومنها: حسن النسق لأنّه سبحانه قصّ القصة وعطف بعضها على بعض بحسن ترتيب.

ومنها: ائتلاف اللفظ مع المعنى لأنّ كل لفظة لا يصلح معها غيرها.

ومنها: الإيجاز لأنّه سبحانه قصّ القصة بلفظها مستوعبة في أقصر عبارة.

ومنها: التسهيم لأنّ أول الآية إلى قوله: ﴿أَقۡلِعِي﴾ يقتضي آخرها.

ومنها: التهذيب، لأنّ مرادات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن وعليها رونق الفصاحة لسلامتها من التعقيد.

ومنها: التقديم والتأخير والتمكين لأن الفاصلة مستقرّة في قرارها مطمئنة في مكانها.

ومنها: الانسجام وهو تحدّر الكلام بسهولة كما ينسجم الماء، وباقي مجموع الآية الشريفة، هو الإبداع وحسن البيان، فإنّ السامع لا يتوقف في فهم المعنى ولا يشكل عليه شيء من هذا الكلام، وهذا النظام يعجز عنه قدرة البشر. انتهى ما أشار إليه ابن أبي الأصبع[(١)].

---

(١) انظر الكلام على هذه الأنواع وصلتها بالآية الشريفة المذكورة في تحرير التحبير لابن أبي الأصبع ١٩٨ و٢٠٢ و٢٠٧ و٢٨٩ و٤٢٥ و٤٥٨ و٦١١.

قلت: أما نوع المجاز الذي قاله في قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ وأنّ مراده مطر السماء لأن السماء من أسماء المطر. ولذا قال الشاعر في نوع الاستخدام[1]:

إذا نزل السماءُ بأرض قومٍ ... رعيناهُ وإن كانوا غِضابا

فالمراد المطر في قوله: (إذا نزل السماء) فغير مسلم له بل الظاهر أنّه تعالى يريد الحقيقة، ولا وجه للعدول لابن أبي الأصبع إلى المجاز مع إمكان الحقيقة، لأنّي أقول: سياق الكلام مع ذكر الأرض في الآية فيه غاية الإعلام ونهاية الإشعار بأنّه لم يقصد المطر وإنّما قصد بالسماء السقف المرفوع لتحصل المطابقة التامة بين الأرض والسماء، وأيضاً فإنه لو أراد بالسماء المطر لقال: اقلع بالتذكير، كما قال الشاعر في البيت: (إذا نزل السماء)، ففي التأنيث دليل واضح على أنّ المراد بالسماء: السقف المرفوع بلا لبسٍ.

ولصاحب الترجمة رحمه الله تعالى:

رشأ من الهِيْف الأوانس ... قد بات لي سَحَراً مؤانس
نَشْوان من خمر الشبا ... ب مُهَفْهف الأعطاف مائسِ
حُلْو المقبل بارد الأنفاس ... سَاجِيْ الطَّرف ناعس
وافى وقد هَدَأت عيون ... الدار من واشٍ وحارس
فجَلَوْت منه الشَّمس في ... غسق وجُنْح الليل دامس
وسقَيْته راحي فلا ... نت لي خلائقه الشَّوامسِ
وأبيح لي في سُكْره ... ما كان منه الصَّحو حابس
وأخذت منه طائعاً ... ما كُنْت آخذ منه ناعس
ولمست من أعطافِهِ ... ما لا يلامسه ملامس
لم أنس ليلة بات لي ... ذاك الغزال بها مجالس
والظَّبي منه كانس ... خجلاً وغصن البان ناكس

---
(1) البيت لجرير ديوانه: ٤٥٨ وخزانة الأدب ٢: ٧.

أفديه من مستوحش   قد صار بي في الوصل آنس

يا من شهدت بحبّه   حرب البسوس وحرب داحس

أشبهت يا ريم الكناس   محاسناً صنم الكنائسِ

ألبستني حلي الضنا   وشغلت قلبي بالوساوس

عجبي لطرفك كيف يُسْهِر   ني بحُبِّك وهو ناعس

وكليل جَفْنك كيف جدّ   ل دارعاً منّا وتارس

وضَعيف خصرك كيف صُلْت   به على الشرس الممارس(١)

تِه كيف شئت فما أرى   لك في الدها أبداً مقايس

كلاّ ولا لأميري المف   ضال في الأمرا مجانسِ

زين المواكب والكتائب   والمنابر والمجالس

نِبْراس آل القاسم الغرّ   المياميين النبارس(٢)

سيف الخلافة من بهِ   رغمت من الأعدا معاطس

رِئْبال أَرْباب الدّروع   فقيه أصحاب الطّيالس

أسد له الفرسان في   متعارك الهَيْجَا فرائس

تَعِسَ الذي أضحى له   في الجُوْد والإقدام قايس

بعمارة الوهاب ثم   بِصِنْوه أُنْس الفوارس

كم بين من يعطي الخسيس   وبين من يعطي النفائس

هذا الذي واسى وقد   عزّ المواسي والمؤانس

بَحْر السَّماح ومن تهلّل   وَجْهه والجَوّ عابس

نطق إذا ازدحم النّدى   بكل مرؤوس ورائس

تحنو الرؤوس للثم أخمصه   وتزدحم القلانس

---

(١) في (ب).

وضعيف خصرك كيف صلته   على الشرس الممارس

(٢) جمع نبراس (معروف).

عـارٍ عـن الـعـورات كـاس ... مـن خـلال الـفـضـل لابـس
مـولاي دعـوة آمـلٍ ... مـن عـطـف قـلـبـك غـيـر آيـس
فَـأزِحْ بـصـبـح رضـاك عـن ... قَـلْـبـي مـن الـكـرب الـحـنـادس
وألِـن لـي الـزَّمـن الـذي ... مـا زال قـاسـي الـعِـطْـف شـامـس
وإلـيـكـهـا عـذراء تـرفـل ... مـن مـديـحـك فـي مـلابـس
عـربـيّـة لـم يـأتِ قـط ... بـمِـثْـلـهـا فـي الـحـسـن فـارس
شـردت عـن الـمـصـري[1] ومـا ... هـجـسـت مـن الـحِـلّـي بـهـاجـسِ
كـلا ولا عـثـرت عـلـى ... فـكـر الـفـحـول بـنـي مـكـانـس[2]
فـانـجـز لـهـا بِـدَرِ الـنّـضـار ... وزفـهـا زفّ الـعـرائـس
وبـقـيـت مـا بـقـيـت تـنـا ... شـدهـا الأكـابـر فـي الـمـجـالـس

قوله: ألبستني حلي الضنا. البيت، استعارة الحلي للضّنا، استعارة ركيكة لأنّ ما بينهما جامعٌ يسوّغ الاستعارة من أحدهما للآخر، ولا بُدّ من ذلك عند علماء هذا الفن، وكان اللائق به أن يقول: حلي البكاء لأنّ الدموع هي التي تُشَبَّه باللآلئ عند جميع الأدباء إن كانت خالصة، وبالذهب إن كانت مشوبة بالدم انظر إلى قول الأديب ابن النحاس رحمه الله تعالى في قصيدة الحائية المشهورة:

إنـمـا حـلـي الـمُـحِـبّـين الـبـكـا ... أي فـضـلٍ لـسـحـاب لا تـسـحُّ

وله:

ذات الـمـلاحـة حـلـوة الـثَّـغـر ... هَـجَـرت ومـا طُـبِـعـت عـلـى الـهـجـرِ
بـيـضـاء لـو أهـدت ذوائـبـهـا ... لـلـيـل فـلّ صـفـائـح الـفـجـرِ
هـيـفـاء تـحـت نـطـاقـهـا كـفـل ... مـلء الإزار كـأنّـه وِزْري
بـأبِـي وبِـي أفـدي مـحـجّـبـه ... في الـقـصـر تـحـكـي ظَـبْـيـة الـقَـفْـرِ

---

(١) يعني الشاعر ابن النبيه المصري.

(٢) آل مكانس شعراء مصر منهم: الشاعر عبد الرحمٰن بن عبد الرزاق، انظر في ترجمته (كتاب بني مكانس) لإبراهيم الدسوقي ط مصر سنة. ١٩٩٠م).

لم أنس إذ وقفت تسارقني ... ألحاظها من جانب السِّتر
يا عاذلي اقصر ودع عَذَلي ... فهواي مقصورٌ على القَصْر
لو لم تكن صورت من أُحدِ ... ما جئت تعذلني على بدرِ
إن كنت لا تدري بما صنعت ... تلك العُيون فإنّني أدري
لولا مواقعهنّ في كَبِدِي ... لم أدرِ كيف مواقع السِّحرِ
ولقد أهاجت صبوتي سحراً ... في الغور هاتفه من السِّدْرِ
قد شفّها ما شفّني فيها ... ما بي من الأشواق والذكرِ
وتجانس الإلَفَان وَآشْتبها ... في الحسن من قَمَر ومن قُمْري
باتت تجاذبني التحسّر في ... ظلّ البشام وشاطئ النَّهر
حتى تولّى اللَّيل منهزماً ... بغداف ظلمته إلى الوكرِ
وانقضّ باز الصّبح يطلب في ... أوج السماء مواقع النسرِ
وغدا النسيم يشبّ من فرح ... بلقا الصباح مجامر الزُّهرِ

وله يخاطب بعض أهل العصر وقد ألف كتاباً، ويصبّره ويؤاسيه ويذكر جفاء الدهر للأفاضل:

رأس القضاة وعين الفتية الأدبا ... أما الثناء كما تهوى فقد وجبا
وللشدائد غايات تزول بها ... ما أجدر المرء أن يرضى بما كُتبا
وللإمام أدام الله دولته ... رأي جميل سيُنْسِينا بمن ذَهَبا
مهلاً قليلاً فإنّ العسر يَتْبعه ... يُسْرَان في قول من لم يَنْطق الكذبا
لا تيأسنَّ إذا ما كنت ذا أدبٍ ... مَعَ خمولك أن تستخدم الشّهبا
بينا ترى الذَّهب الإبريز مرتبكاً ... في الترب صار لتاج الملك مرتكبا
(لا ترحمنّ أديباً فاته ذهبٌ ... وارحم أخا ذهبٍ لم يدرك الأدبا)
الدهر أخرس ألهته جِبِلَّته ... بشكله فلهذا يبغض الخُطَبَا
لو ينصف الدهر في أحكامها لأتى ... لفاضل العصر زيد إن يطأ عَقِبَا
آمنت بالله ربي لا شريك له ... لقد أتى الدهر في أفعاله عَجَبَا

لحكمةٍ ما أخيل الفضل بينهم ... نقصاً وعاد نفيس الدّر مخشلبا
سيرجع الرأس رأساً بعد آونة ... بين الورى ويهين الأحمق الذّنبا
يا فاضل العصر يا من لا نظير له ... ما كل يوم ينال المرء ما طَلَبَا
(الموت أعذر لي والصبر أجمل بي ... والبرّ أوسع والدنيا لمن غلبا)[1]
من كان يأمل خير في أخي ثقةٍ ... فما أعدّك إلا المعقل الأشِبا[2]

وله كَتَبَ بها إلى الشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي الشامي رحمه الله تعالى إلى مكة المكرمة لما توجه حاجاً في سنة اثنتي عشر ومائة وألف سنة، فلمّا وصل إلى بندر اللحية المحروس عاقه عائق، فلم ينفذ ولم يتم له مقصده، فقال:

صدرت تحثّ بها المطية ... في اليمّ مثقلة وطيّة
وصّافة لك شوقها ... لرفيع حضرتك العليّة
ولها لواعج جملة ... في حب طلعتك البهيّة
من عاشقٍ لك بالسما ... عِ لما منحت من العطيّة
ومرغب للغير فيك ... كذا السَّجايا المرهبيّة
شَيخ ولكن نَفْسه ... في الشر صَبْوتها صبيّة
يهوى الدنيّة والنُّهى ... لعلوّه تأبى الدنيّة
فالحرب بينهما سجال ... في الصَّباح وفي العشيّة
فيروم طاعتها وقد ... جبلت مخالفةً عصيّة
فيصول آونة ليَقْهر ... ها فيلقاها قويّة
وتكِرّ طوراً نَخوه ... فتراه في الشّيم الأبيّة
لكنّه في حاله ... يعفو فتُوْقِظهُ الحميّة
بالمصطفى يا مصطفى ... لا تُنْبِقِنِي عَرض البليّة
جد بالدّعا لي سَيّدي ... بإزاء هاتيك البَنَيّة

---

(١) تضمين بيت للمتنبي وهو آخر القصيدة ديوانه: ١٠٠ ط دار صادر.
(٢) الأشب: الملتف حوله الأشجار حتى لا يصل إليه.

واسأل لي التوفيق والتأ ... ييد من رَبِّ البريّة
ولقد خرجت إلى رضاه ... وحجّ بِنُيته بنِيّة
وأتيت سيف البحر أطلب ... من سواعيه مطيّة
من بعدما أعددت لي ... في البر لو ساروا حنيّة[1]
فحبست عمّا رمته ... بالعذر لا عدم المشيّة
فأصولنا معروفة ... ومن التُّقى ترك التّقيّة
فليعلم الأصحاب أني ... لم أحامِ الأشعريّة
لكنّني أرجوا لهم ... ولنا نجاة بالسويّة
فالكل بين معظم ... ومنزّه فَاذْرِ القضيّة
وتجاف عن تَضْليل أعـ ... ـلام الطَّريق الأحمديّة
وتَمَلَّ بالنعم التي ... حولتها رطباً جنيّة
وعليك من بعد النّبي ... وبنِيْه أصناف التحيّة

وكتب رحمه الله تعالى إلى السيد الحسن بن المطهر الجرموزي[2] من المنثور رسالةً أشار فيها إلى مسائل علميّة أصولية دلت على سَعَة عرفانه تفتقر إلى شرح لطيف، إن بَلَّغني الله قَصْدي في فسيح الأجل، فسأضع لها شرحاً لطيفاً أوضح به مقصده وأبين منها مراده رحمه الله تعالى، إن شاء الله:

وهي قوله:

مولاي أبقاه الله مرشداً إلى الأقوال الشارحة، معرفاً للحجّة الواضحة، مجدداً للأوضاع الحكمية، مقرراً للقوانين النظرية، باحثاً في العلوم العقلية والنقلية، ناظراً في أنواعها التَّصورية والتصديقية، ملزوماً للإسعاد، معروضاً للعناية والازدياد، قابلاً للألطاف الإلٰهية، قبول الجسم للأبعاد، وأن من له جميل الاعتقاد فيك، وحسن الاعتماد بعد الله عليك، المُدْلي إليك بحق الكون على حبّك، الذي أشبه التأليف

(١) حنية: ناقة.
(٢) سبقت ترجمته.

في اقتضاء صعوبة التّفكيك، قد رأى الظهور في الكمون، وزهد في الحركة من الأكوان ورضي بالسُّكون، فالاجتماع لا ينافس عليه، والافتراق لا يحزن فيه، فهو لا يَسْتفهم عنه بكيف، ولا يُسَاءَلُ عنه بأين، ولا يستزار منفرداً كأنه الإضافة لا تتحقق إلا بين شيئين.

قد تَجَرَّد عن أعراض برّك فلا كيف له ولا كم. وتخلّى عن الجنس والفصل والخاصة من معروفك، فلا يعرف بالحدّ ولا الرسم، ما لذكره من الخارج إلا هويّة، ولا للعناية به في نفس الأمر إلاّ حقيقة اعتبارية. كالجوهر الفرد موجود لا موضوع، والصوت المتولد من تموّج الهوى بين قارع ومقروع أو قالع ومقلوع، كأنّه فارق أهل العدل، ووافق الجبرية في إنكار قضية العقل، فصوب مذهب النّجار، وما خطأ من أجاز الرؤية بحاسّةٍ سادسة كما قال ضرار.

ووهّى دليلي المقابلة والموانع، وادان بما دان الأشعري من وجوب الرؤية سمعاً بالأدلّة القواطع، أو رأى رأي ابن الملاحمي في قطع الصّفات، وجعلها أموراً زائدة على الذات، وأنكر حقيقة الأشياء كالسوفسطائية(١)، وصانع العندية منهم والعنادية، وتردد في تفضيل اللاأدرية، وهجّن قول أبي هاشم في الصفة الأخصّ، ونهى الإعراض عن الجسم مقالة حفص، أو نفى وجود الزمان واحتج بأنه لو كان قارّ الذات [لاجتمع الماضي والحاضر فيتّحد اليوم ويوم الطوفان، أو كان غير قارّ الذات](٢) لزم تقدّم بعض أجزائه على بعض بعد ما لا يتحقق إلا بزمان، فيكون للزمان زمان. أو أنه محال تأباه الأذهان، أو زعم أن الأجسام غير متناهية ولا مرئية، وأن الوجود زائد على الماهيّة، وأن المتواتر غير مفيد العلم كما ادّعت السمنية(٣)، أو قرر طفر النظام، ونصر راية في تداخل الأجسام، وأثبت المعاني كالأشعرية وجعل الصفات أغياراً لله كما ادعت الكرامية(٤)، أو قال إن الله

---

(١) سبق ذكر في ج ١: ٣٦٠. (٢) ساقط من ش.

(٣) من الفرق الكفرية ينكرون ما لم يشاهد بالحواس (القلائد في تصحيح العقائد للإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى: ٣٩).

(٤) نسبة إلى محمد بن كرام من المجسمة (القلائد: ٤٦).

يعلم بعلم لا يوصف بقدم ولا حدوث كما ظنت الكلابيّة، أو نفا ثبوت الذوات في العدم، وقال في عالميّة الله تعالى قول هشام بن الحكم.

ومال إلى توقيف الأسماء، واحتج للقول بأنّ الاسم عين المسمى، وجنح إلى رأي جهم في الأفعال، ودان بأن الله تعالى يكلف المحال، أو تحاشا[١] فقال بالكسب. وقال في فساق الأمّة بقول جعفر بن حرب، أو صحح ما قاله مقاتل من أن الفاسق لا يستحق العقاب. وأوجب قول أبي القاسم من إيجاب إعادة ما انحبط بالتوبة من الثواب، وأجاز على الله اللقب، واعتقد معتقد عَبَّاد من أنّها لا تصح التوبة من المسبب قبل وقوعه بعد وقوع السبب.

وقال بجواز التَّفَضّل بالثَّواب، وأنّه لا يجب على الله إعادة المتاب. وخالف الجمهور، وقال في الخلا بقول أفلاطون أنّه البعد المنظور. أو حَسَّن رأي الأطراقيّة[٢]، وقوى مذهب القادرية[٣]، وزعم أن الدَّليل لا يفيد القطع، وبرهان التَّمانع يتحدّ عليه المنع، وأن الكبيرة لا تخرج فاعلها عن الإيمان، وأنّ الجنة والنار موجودتان الآن. وأن القدرة غير صالحة للضّدين، وأن الإمامة ليست مقصورة على البطنين، وسلب أمير المؤمنين الأفضلية، وحثّ على التزام مذهب البصرية.

وزيّف فيه مقالة البغدادية، وزيّف حديث الغدير. وقال في خبر المنزلة معدود من المناكير، وضَعّف حديث الطير.

وقال في خبر السطل والمنديل دليل الوضع عليه ظاهر. وقصر آية التطهير في الزوجات[٤]، وأن خبر الكساء لم يثبت عن الثقات، وأن طريق الإمامة العقد والاختيار، وبيعة أبي بكر بإجماع من المهاجرين والأنصار، وأن تقديمه للصلاة إيماءً إليه بالإمامة لا ينكره إلا الغلاة.

وإن خطأ أهل الجمل مغفور، ومعاوية في حربه علياً مأجور، وأنكر سَمّ

---

(١) أي مال إلى مذهب الحشوية.

(٢) الاطراقية: من الكرامية (القلائد: ١٢٧).

(٣) لعله القدرية.

(٤) يعني أمهات المؤمنين.

الحسن. وقال بقول ابن العربي: أن الحسين لم يقتل إلا بسيف جده المؤتمن. وأجاز التولي من الجائر، وصَحَّح حديث: صلوا خلف كل مؤمن وفاجر.

أما والله لو قال مثل هذه المقالات، واعتقد رجل هذه الاعتقادات لما استحق قطعاً، ولا استوجب منعاً، ولكان له من الحق ما ينصر عليه. ومن العناية ما يلفت جيد العناية إليه، فكيف والعقيدة عقيدة العدلية، والطريقة طريقة الصالحية من الزيدية، قد نظمنا الاعتزال، وجمعنا في النحلة أصول عمر وابن عبيد والغزال[1]. وهذه نفثة مقروح، وأنَّةُ مقدوح يلتمس له الشفاء والله حسبي وكفى، والسلام.

والده الشيخ الحسين بن محمد المرهبي[2]

شيخٌ وقور، من قوم هُمُ الصُّقور، إن هزّ رمح يراعه، هزم الجيش يوم قِراعه، ما سَهْم قلمه بعاصف، فله صرير في الطرس كأنه رَعْد قاصف، جبل أناةٍ جُبل على الرّجاحة، وصادق وعدٍ لا يُرَى من وعده إلاَّ نجاحه. بحر يَقذف من اللؤلؤ كباره، وأديب أدار شمول البلاغة في كأس العِبَارة.

وكان بينه وبين الشّيخ إبراهيم الهندي ما بينه وبين ولده، من التَّحاسد الذي أحَلَّه كُلٌّ منهما في خلده، وقد دار بينهما من الهجاء، ما لا ينبغي من ذي حجّى، فما زال كل منهما يَطْعن برمح قلمه في حق صاحبه وقرينه، ويفضّل ضبع الحِمَى على الأسد الهاصر في عرينه، وبالسَّبك يعرف فَضْل الذهب. ووراء الدخان ما يضيء من اللهب، وكلاهما أهل للمدح، وعِرْضهما المصون ليس يَقْبل القَدْح، إلاَّ قدح زِنْده الواري، لكن من الخلطاء من يبغي بعضهم على بعضٍ كما قاله الباري، وشعره لا يساوي شعر ولده ولا يقاربه. هَيْهَات لقد فاته خُفّ البازل كيف غاربه[3]، فبينهما في التفاوت ما بين الدرّ والحصى، وبين قلميهما ما بين العامل اللَّدن وبين العصا.

ونظمه مع ذلك قليل، فما نقع من الزمان به الغليل، ولا شفى بنفثاته النسيم

---

(١) يعني واصل ابن عطاء رأس المعتزلة.

(٢) انفرد بذكره.

(٣) الكاهل أو ما بين السنام والعنق من الجمل.

العليل، وما برح يزداد به الدَّهر حسناً، وتَكْتحل بإثمد مداده عن الدَّهر الوسنا، حتى نَزَل به من الحمام الخطب، وفَلَّلَ سيفه بعد الصقل والشطب، وأودع في صدف اللّحد لؤلؤه الرّطب، فجاور نُزَّال القبور، وظفر من رضوان ربّه بتجارة لن تبور، لا زالت الرحمة عليه تترى، وسواري الرضوان تنهمل على جدثه قطراً، ومن شعره الذي سمع، وأدبه الذي جمع.

قوله:

فؤادي مملوء الجوانح في الهوى بجمرٍ من الوجد المبرّح وَهَّاج
على شادن للشوق [إزعاج][1] نحوه وقد غاب عنّي حسنه أيّ إزعاج
سباني عذار فوق مُبَيَّضٍ سالف كمِسْك غزال قد تفتت في عاج
وخدٌّ كوَرْد الرّوض نَقَّطَه الحياء وطَرْف كحَدِّ السيف أسوده ساج
أهيم نهار الوصل وجداً به كما أحنّ من الهجران في ليله الدَّاجي
فويلي على بَدْر تمنّع في الهوى بمنزلةٍ ما إن تنال وأبراج

قوله: أسوده ساجي لا شك أن التورية له هنا قد تأتت لأنه يصلح أن يكون قوله: ساجي من قولهم طرف ساجي، ويصلح أن يكون منسوباً إلى السَّاج، وهو ضرب من الشَّجر يرشحه لهذا المعنى ذكر العاج في البيت الذي قبل هذا البيت.

وقد ذكرت هنا ما حكاه مولاي وأستاذي الوالد قاضي القضاة جمال الدين محمد بن الحسن بن أحمد الحيمي الكوكباني رضي الله عنه، قال: خطر لي في بعض الأيام أن أنظم نظماً يشتمل على التورية في الساجي لإمكانها، فحكيت للمولى الحسين بن عبد القادر رحمه الله تعالى بما خطر لي. قال: فما مرت لي أويمات[2] مع حفظه لما ذكرته إلاً ونظم المَعْنى في مراعاة النظير بين الساجي والعاجي في قصيدته التائية، فقال:

يا من سبا طرفه الساجي ومبسمه الـ ـعاجي صَبًا له بالعشق سكرات

(١) ساقط من (ب).
(٢) (ب) أيمات.

فقلت لمولاي الوالد: هذا المعنى قد جاء لإمام الأدب الشيخ جمال الدين ابن نباتة المصري رحمه الله تعالى لما قال في مطلع جيميّة له[١]:

واحيرتي بظلام الطُّرة الداجي ... وشَقْوتي بنعيم المَلْمس العاجي

ويا ضلال رشادي في هوى صَنَم ... لا شيء أفتك لي من طرفه الساجي

قلت لمولاي الوالد أكرم الله نزله في غرف الفردوس: وقد أحسن الجمال ابن نباتة هنا بذكره للصّنم؛ لأنّه ربما نحت من العاج والساج، فقال: لا شك فيما ذكرت ولكنه لم يتنبه لهذه الدقيقة سواك، فإنها غامضة وربما خفيت عن الأذكياء.

وقلت: أنا مع اللف والنشر المرتب:

اعذر فَدَتْك النفس يا عاذلي ... فَلَسْتُ في الفتنةِ بالنَّاجي

من طرف محبوبي ومن خدّه ... فتنت بالسَّاجيِّ والعاجي

أحمد بن عبد الله الجماعي[٢]

هذا من نجد أيّب[٣]، زفت إليه من بنات فكره بكرٌ وثيب، فاجتلى من حسنها ما لا يلتفت عنده إلى الأقمار والشموس. ونال منها ما نال على أسرّة الدّوي ومنصة الطروس، وغازل منها دمية ما غازل مثلها ناكح العروس. سعى للأدب بلا تواني، وأرقص بنظمه الأغصان وقدود الغواني، لمدام أدبه كؤوس وزجاج، ولرماح أقلامه أسنّة وزِجاج[٤].

له نظم تصفر لديه المدامة، وتخلع طوقها عنده قلائده الحمامة، يَفْعل بالعقول ما لا تفعله الأسحار، ويميل بالعقول مَيَلَان الغصون بِنَسْمَة الأسحار، فشعره المُسْكر المُسَكَّر، مما يحلو في أفواه الدّوي منه المَكَّرر، سيما الموشح الحميني، فإنه يقول له: الذهب أفديك بعيني، يترنم به ذو الغناء والطرب، فتطرب

(١) خزانة الأدب ٢: ٥٨ ط دار صادر.

(٢) انفرد بذكره.

(٣) لم أجده.

(٤) جمع زج: الحديدة في أسفل الرمح ويقابله السنان في السيف.

الورقاء من الحَجل وتستتر بالعذب، قد طَيّره في الخافقين، وقلّد به من الشرق والغرب العاتقين، وهو من بيت رياسة، ومن قوم بنوا من الفخار أساسه، وانقاد لهم الكون ومن عليه بزمام السياسة.

قد جمع بين الطّارف والتّلد، وتضوّع منه طِيْب شميمها ولا بدع لأنه عنبري[1] البلد، إلا أنه هائم في غرامه وأيّ هائم، يخرجه عن حدّ المعقول سجع الحمائم، إذا أنس لمع البرق، لم يكن بينه وبين المجنون فرق، وإن خطرت نسيم، فقد الجليس والنّديم، لأنّه يذوب فيسيل من مكانه، فلا يبقى غير أزره اللطيفة وأردانه، لرقّة فيه سيّالة، وجبلّة عن السكون ميّالة، حتى تغيّر أمره، واستحال خمره، إلى أن صار في زي هائم، ومال إلى السياحة في الأنجاد والتهائم. وولج تحت أشجار الخَبَال، ولم يخطر له حال الدنيا ببال، فغيّض أَسَدَه، وذاب قلبه وجسده، وتخلّق بأخلاق الفقراء، ودرس في كتب الحقيقة[2] وقرأ، حتى أشبه حاله حال عبد الهادي السودي وخاض في عباب خطر الأمواج، ولم ترسِ فلكه على الجودي، حتى رست سفينة رحله في الساحل، وقرّبت له المنيّة من أيام عمره المراحل. فحطَّ بساحة المقابر رِحاله، واستراح من تَعب الحياة على كلّ حاله، أَلْبَسَ الله قبره من النّبات حلةً حاكها من الغيث حائك، وضوّع من تربه الطيب الشميم مِسكة الصائك[3]، ما تناشد الرواة أشعاره، فأصبح في الخافقين فائحاً، وأمسى بَرْق إجادته من خلال سحب الدفاتر لائحاً.

ومن شعره الذي لم يوجد في دنانيره نقدها، ونظمه الذي نازعتني فيه الغانية ظناً منها بأنّه عقدها. قوله من قصيدة أبياتها مشيدة:

صدودك أصداني إلى مَنْهل العتب وقدّك أبدى ميله عادة القضبِ

(١) لعله يعني عبيد بن أيوب العَنْبري من شعراء العصر الأموي كان يهيم في مجاهل الأرض ويستصحب الوحوش (الأعلام ٤ : ١٨٨).
(٢) يعني كتب التصوف.
(٣) طيب يتخذ من المسك.

أيا مغرماً بالذّنب أجريت أدمعي عقيقاً على صَحْن الخدود فما ذنبي
ويا فَلق الأنوار مارحت مشفقاً بهذا النَّوى في الحبّ من فالق الحَبِّ
شريت شمول التِّيه تظهر ما خفى فيا حَرَبي والسرّ يظهر في الشَّربِ
أعَاذَكَ ربّي من جحيم بمُهجتي تؤجّجها ريح التَّشوق بالشَّبِّ
إذا قلت: صِلْني قلت ما زلت باللقا تدافعني عن ورد آدابك العذب
ومن لَفحة الهِجْران تُبْدي لطائفاً وفي النَّار تُبْدي نفحة المندل الرطبِ
أما ومواضٍ من جفونك أشهرت لقد ألهمت حالات هذا الجفا غَضْبي
رفضت الوفا في ذيل عجب جَرَرْته لجُمْلة عذّالي وأسهمها نصبي
عجبت لخصر منك زاد نحافة وهَضْماً من الأرداف كالهائم الصبِّ
وطرفك أضحى وهو ذو النون في الضَّنا يُسَاهمني يا منية النفس والقلبِ
سأعصي خليلي إن نهاني عن الهوى وسَاوَمَنِي الإعراض عن طاعة الحبِّ
وأستَعْذب التَّعْذيب والنَّوح والبكا وطعم الرِّضى والسخط والبعد والقربِ
إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضى فأين حلاوات الرسائل والكتبِ

قوله: عقيقاً على صحن الخدود، وما ذنبي، فيه التورية اللطيفة التي تلألأ عقيقها، وصار ما ذنبي فيها ياقوتاً على الحقيقة، لأنّه يحتمل ما في قوله: وما ذنبي استفهامية والمعنى أنك أيّها المغرم بالذنب واقترافه إلى محبّه وهو أنا. أجريت دمعي على صحن خدّي عقيقاً أحمر، أي: دماً فهو يشبه العقيق الأحمر، وما علمت لي ذنباً إليك، فأخبرني ما ذنبي، ويحتمل أن يكون قوله: ما ذنبي كلمةً برأسها عطفاً على قوله عقيقاً، أي: أنك أيها المغرم بالذنب واقترافه إلى محبّه وهو أنا أجريت دمعي على صحن خدي عقيقاً أحمر، أي: دماً فهو يشبه العقيق ويشبه (ما ذنبي)، لأن (ما ذنبي) من الفصوص الحمر التي تشبه الياقوت الأحمر البهرمان سموّه بذلك على لسانه، قالوا: كأنه يقول: ما ذنبي أن لا أكون ياقوتاً، فما في الحقيقة استفهامية وإنما مزجت الآن بغيرها وصارت من جملة الاسم لهذا الفص، وما سمي بهذا الاسم إلا كأنه يتظلم ويتوجّع من عدم كونه ياقوتاً حقيقياً، ولونه

لون الياقوت النَّفيس الأحمر، ما بينه وبينه من فرق قط في اللّون، وإنما يفترقان في الخواص، فخواص الياقوت خاصّة شريفة متعددة، نصّ عليها مؤلفو كتب خواص الأحجار كالتيفاشي[1] وغيره.

وقوله: شربت شمول التِّيه البيت، الشمول بفتح الشين المعجمة المشدّدة اسمٌ من أسماء الخمر، كما هو معلوم ظاهر، وهي هنا مستعارة للتِّيه، وهي استعارة حسنة لأن التائة بجماله، كالشارب عند إثماله. والمعنى: أنك شربت شمول التيه، فأظهرت بالشّرب لها ما خفي لديك من أسرار بيني وبينك في حبّي لك. كنت لا أودّ إظهارها وبثها بحال من الأحوال، فواحزني ممّا جرى ووقع من الإظهار والبث ولا غرو أن يقع ذلك منك، فإن شارب الخمر يظهر أسراره ويتكلم بما في نفسه ويبرز الكامن عند السكر، ممّا لا يود عند الصحو أن يطلع عليه أحدٌ، وقد نظمت أنا في هذا المعنى، مما لعله يفضّل على بيت صاحب الترجمة.

فقلت:

لا لا تلمني بعد رشفي لما ... عُتِّق في فيك من الخمر
إذا أنا بحت لمن لامني ... من غير قصد فيك بالسِّر

وقلت:

كتمت سرك مع رشفي لخمر لَمَا ... في فيك يا من سبا عقلي بِنَاظِرِه
هذا ومن شأن سكران المدام بأن ... يبث من غير قصدٍ سِرّ خاطره

وقلت:

عجبت يا محبوب قَلْبي وقد ... حفظت أسراري أن تُعْلَمَا
هذا على أنك مع حفظها ... ما زلت سكران بخمر اللَّمى

القاضي قاسم بن صالح بن محمد بن أبي الرجال[2]

له في الأدب مجال، وبنات فكر جميلة، وإن كان من بني أبي الرجال، لا

(١) التيفاشي: أزهار الأفكار: ٧٣.
(٢) انفرد بذكره.

يمتري سامع شعره، وخائض بحر عروضه الذي لا يوقف على قَعْرِه، بأنه جاء بالسحر في نفثه، وأتى بما يهيّج من المشتاق دفين حزنه وبثّه، سِيّما (الحميني) فإنّه برّز فيه، ونال منه ما حكم معه أن الخمر في نفثات فيه.

وشعره في الحكمي ذو قلّة، وروضه فيه لا يُعْرَف وَبْله وطَله، من خفيف وزنه الذي يثير على الوامق كامن حزنه، ما نظمه في حمامة ساجعه، أرّقت بتغريدها العيون الهاجعه، بكت لفراق إلفها، وخَضَبَت من قاني الدَّمع مخالب كفّها، لمّا عظم شوقها، وضاق عن حَمْل الهوى طوقها، فأمست تنوح على القضيب، وتردّد شجوها على الفرع الرَّطيب، فكأنّ الغصن بكفها الأحمر، قلم ترقم به شكواها في ورق الروض الأخضر، أو كأنه رمح زبرجدٍ قويم، تهزّه براحتها النسيم، حملته لتطعن به زهر البهار[1]، ولذا بدا من الخوف والفرق في غاية الاصفرار، وما ذاك إلاّ لمّا خامرها الوهم، وقادها فرط الحدس والفهم، على أنه محبّ لأليفها على صونه، استدلالاً عليه بِمُنْتَقِعِ لَوْنِه.

وهو قوله:

أساجعة الروض مهلاً فقد ... أذبت فؤادي الذي قد وَقَدْ
أمَلْت من الغصن قداً غدا ... لسَجْعك منثنياً عن مَيَد
صِفِي للمحب ولا تكتمي ... هل الإلف عَنْكِ نأى أو شرد
ولو كنت في العشق مثلي لما ... بدا منك طوق عليك انتضد
وَخَضَّبْت كفاً وغَنَّيت في ... فروعك لَحْناً يثير الكَمَدْ
قِفِي واسمعي سرّ قلبي فما ... بقي لِيَ بعد التَّنائي جَلَد
قفي بَثّ بثّ الهوى راحةً ... وإن كنت إظهاره لا أود
ولكنَّ للحب قسراً كما ... كما عرفت من الحكم ما لا يرد

وقال أيضاً:

خطرت بقدٍّ كالقضيب الأسمر ... لمّا انثنى ورنت بِعَيْنَيْ جؤذر

---

(١) زهر أصفر معروف (سبق ذكره).

وتبسّمت عن درّ ثغر أشنب مزجت سلافته بماء الكوثر
حلو الفكاهة بنت عشر زانها إحسان منطقها وحسن المنظر
ودنت فجاذبها الحيا فتحيّرت في المشي بين تقدّم وتأخر
قالت: رأيتك في التلاقي راغباً حتى دنا فدهشت قلت لها: اقصري
إن العيون البابليّة سحرها سلب العقول بلحظ طرْفٍ أحور
ونضت نقاباً كالظّلام معسْجَداً وجلت محيًّا كالصّباح المسفر
فرأيت بدراً فوق غصن ناضرٍ لَدِنِ القوام على كثيب أعفر
عانقت عسّالاً وذقت معسّلاً من خمر مبسمها الحلال المُسْكر
ولثمتها لم أدر من ولهي بها قبلت فاها أم عقود الجوهر
وَرَنَتْ فسلّت من رناها صارما وتمايلت عطفاً فهزّت سمهري

وقال:

أراقب أيّ وقت فيه يطلع هلالٌ بالثريّا قد تبرقع
مضى متلفّتاً كالظّبي لاوٍ لسالفتيه عاطي الجيد أتلع
يهزّ على نقى الأرداف غصناً عليه حمائم الأفلال(١) تسجع
ويبسم عن بديدٍ لؤلؤي سنا لألائه بالنّور يطلع
حكاه البرق لكن فات عنه حلا شنب الثّنايا حين يلمع
وأعرض تائهاً عنّي دلالاً وأتعبني تجنّبه وأوجع
وحيّا بالتّحيّة من بعيد وما حيّا بها حتى تودّع
وقلت لمهجتي ذوبي دموعاً وقلت لقلبي العاني تقطّع

وقال:

سأبلغ نفسي الذي تشتهي اتـ ـكالاً على الله ما دمت حيْ
ولست بناءٍ لها عن هوى إليه دعتني ولو كان غيْ

---

(١) الأفلال: الأقراط سبق ذكرها.

فـنـهِـيـنِي لـهـا سـوء ظـنٌ بـه ... وذلـك أعـظـم ذنـب عـلـيْ

فـغـفـرانـه عـمّ كـل الـورى ... ورَحْـمـتـه وَسِـعَـتْ كـلّ شـيْ

وقال:

يـا ربِّ قـد عـودتـنـي عـادةً ... إنـي إذا مـا اشـتـدّ بـي أمـري

لـم أدر سـبـحـانـك إلاّ وقـد ... فَـرَّجـتـه مـن حـيـث لا أدري

ولـم تـزل نَـعْـمـاك بـي دائـمـاً ... سـرًا مـع الـلـطـف الـخـفـي تـسـري

وقال:

أقـول لـه وقـد أضـنـى فـؤادي ... رويـدك أيّـهـا الـجَـفْـن الـمـريـض

خُـوَيْـلَـكَ[1] فـي خـدودك بـيـن نـارٍ ... يـنـادي لـلـجـفـون بـأن أفـيـضـوا

أقول: معنى حسن كامل أدّاه لفظ ناقص، لأنه نسب الخال والخدود إلى الجفن لمّا خاطبه بقوله: خويلك في خدودك. والخال والخد للمليح الذي له جفن مريض لا للجفن نفسه، ثم أنّه قال بأنّ الخال في الخدود ينادي الجفون بصيغة الجمع بعد أن أتى بالجفن بلفظ الإفراد في البيت الأول حيث قال: أيها الجفن المريض، فكان القياس بأن يقول: الخال في الخدود يناديك، ويقيم وزن البيت على هذا الأسلوب مع أنّه يريد التلميح وشَمّه من الاقتباس إلى قوله تعالى: ﴿**أفيضوا علينا من الماء**﴾، ولم يرشح بذكر الماء في النظم قط، مع أنه أشعر بأن هذا الجفن غزير الدموع، وما يكون غزيره إلا لعلة فيه أو أنّه جفن باكي، ولا معنى لبكاء المليح إلا أن يكون في مأتمٍ أو نحوه، مع أنّه لم يشعر صدر النظم بشيء من هذا المعنى، وإن قيل أنّه ينادي جفون العشاق بأن يفيضوا ماء البكاء فحسن، لكنه لم يرده قط والأحسن منه قولي:

الـروض مـن نـار قَـيْـض ... شـكـا الـلّـهـيـب إلـيـنـا

نـادى الـجـداول جَـهْـراً ... بـأن أفـيـضـوا عـلـيـنـا

وقال صاحب الترجمة أيضاً مضمناً:

---

(١) تَصْغير خال (معروف).

لم أنس أصغر خمرةٍ حيًّا بها ساقي المدام ساعة الأسحار
من فوقها زبد الحباب منَظَّم وكأنه صدأ على دينار

وأصله قول ابن خفاجة في تشبيه النقع إذا ثار فحال بين الرأي له وبين الشمس[1]:

والنقع يستر من سنا شمس الضحى فكأنه صدأ على دينار

قال القاضي الفاضل صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى في كتاب غيث الأدب الذي انسجم، شرح لامية العجم في الكلام على هذا البيت ما لفظه. قلت[2]: قوله صدأ على دينار فيه نظر، لأن الذهب من جملة خواصّه أن لا يعلق به صدأ، ولا يَرْكبه ولا يبليه التراب. انتهى كلام الصفدي بلفظه.

قلت أنا: نعم صدق الصفدي رضي الله عنه فيما قاله من خواص الذهب، ولذا قال الشاعر:

إن الدّنانير لا تجلى إذا عتقت ولا يزاد على النَّقش الذي فيها

ولكن لا صدى عندي على دينار هذا التشبيه من ابن خفاجة، وما كدت أقضي العجب من الصفدي تجاوز الله تعالى عنه على فحوليته حيث قال: فيه نظر أليس للتأويل فيه مجال ما. وما أراه عندي ينخرط إلا في سلك التَّشبيه الخيالي، وهو المعدوم والتَّشبيه الوهمي غير المدرك بأحد الحواس الخمس، ولكنّه بحيث لو أدرك لكان مدركاً بها. والاستعارة التخييلية وهي أن يذكر المستعار له ثم يقدر المستعار منه في صورة خيالية وهمية لا حقيقة لها ولا ثبوت، وإنّما تكون على جهة الفرض فقط، وإلاّ فمعناها لم يتحقق حسًّا ولا عقلاً، بل يكون المستعار منه شيئاً متوهّماً محضاً، وينخرط أيضاً في سلك تشبيه المعقول بالمحسوس الذي نصّ عليه علماء البديع أنّه أعلى مراتب التشبيه طبقةً قالوا: لأنه يدل على سلامة ذوق

---

(١) ديوان ابن خفاجة: ٣٧ من قصيدة طويلة أولها:
سمح الخيال على النوى بمزار والصبح يمسح عن جبين نهار
(٢) الغيث المسجم ٢: ٢٦٠.

المشبّه ولطف تخيّله وصحة فطنته.

وقد سمى بعضهم هذا النمط في التشبيه (التشبيه التخييلي) وهوالذي لا يمكن حصوله، وبعضهم يعبّر عنه بالخيالي، لأنّ مبناه على الإدراك مثل تخيّل بحر من مسك مَوْجه ذهب، فما هذا حاله لا وجود له في الحقيقة، ولكنه ممكن في الخيال كما ترى.

ومنه قول الصنوبري[1]:

وكَأَنَ محمرّ الشقيق إذا تصوّب أو تصعّد
أعلام ياقوت نَشَرْن على رِماح من زَبْرجد

من المعلوم أنه لا يوجد ولا يمكن وجود أعلام الياقوت ورماح الزبرجد ولكنه تشبيه تخيِيْلي، ومن هذا الباب قول بعضهم[2]:

كلنا باسط اليد نحو لينوفر[3] ندي
كدبابيس عَسْجد قضبها من زبرجد

ومثله قول أبي الغنائم الحمصي رحمه الله تعالى[4]:

خود كأن بنانها من صِبْغه النقش المزرّد
سَمَك من البلّور أمسك في شباك من زبرجد[5]

وكذا يكون عندي بيت ابن خفاجة من هذه الأنماط التي ذكرنا، ويكون معناه أنه لو أمكن أن يعلق الصَّداء بدِيْنار الذهب، لما كان إلا مِثل النقع على الشمس،

---

(١) ديوان الصنوبري: ٤١٦ ط دار صادر.
(٢) معاهد التنصيص ٢: ٤.
(٣) النيلوفر: ضرب من الرياحين يتدلى على ثمر داخله بزر أسود واللفظة أعجمية انظر (محيط المحيط: ٩٢٦).
(٤) معاهد التنصيص ٢: ٥.
(٥) في معاهد التنصيص:
سمك من البلور في شبك تكون من زبرجد

وهو لا يلزم من هذه العبارة تعلّق الصَّداء بدينار الذهب، وإمكانه أصلاً، فحينئذ اندفع اعتراض الفاضل الصَّفدي وتنظيره على هذا التشبيه كما ترى.

ومما يحسن إيراده هنا ما نَظَمْته أنا في خطاب من خشي على خدّ مليح يقطّ الشَّمعة أن يَعْلق به صداها:

لا تخش من صدأ الشموع لخدّه ... محقاً فتطمس محقه أنوارا
أو ما سمعت بما حكاه مجرّب ... إن الصّدا لا يَعلق الدِّينارا

الأمير[1] أحمد بن عبد الله الزُّوم آغا من حبيش[2]

هذا من بني الزوم، المعدودين من رؤوساء القوم، فهو فرع من أصل ثابت، وغصن يغذَّى بماء السّحاب في أزكى المنابت، ومالَ بلطف الرياح، وصَعَد في الجوّ حتى طاول الرّماح[3]، وهو في الأدب من أعزّة مِصره، وممّن جاء بالشراب العتيق في عَصْره، فسكرنا من خمرته بالنَّشر، وتناولنا كأس صِيتِه لا بالخمس بل بالعشر.

ولم تزل تفد علينا أخباره، وتُذْهل عقولنا من نَظْمه أسحاره، يدار علينا منه شراب سُكّر ونبات، ويطاف به علينا فلم نبرح نصبح عن مذاق حلاوته ونبات، حتى عَلِمنا أنه من أفاضل الزّمن، وممّن تَزَيّنت بوجوده ساحات اليمن، فهو توريد بوجنات حبيش جِبْلة، وخلخال ذهب على سيقانها العَبْلة، فأحمد[4] ممتنع عن الشين، يحتاج إلى عيبٍ يقيه من العِيْن.

وله شعر غَلا سَوْما، ونفى من أعين الحساد نَوْماً، وأوردهم الحِمَام، وقاد إليهم من نكت الزّوم الموت الزُّؤام، فممّا سَمِعته منه. وروي لي حديث الرقة

---

(١) نشر العرف ١: ١٧٥.

(٢) حبيش: مديرية في الشمال الغربي من إب (المقحفي: ٤١٢).

(٣) مبالغة يعني السماك الرامح من النجوم الفلكيه.

(٤) تلميح إلى قول النحاة أحمد ممتنع عن الصَّرف وهو ما جاء على وزن أفعل الذي لا يؤنث بالتاء انظر موسوعة النحو والصرف: ٥٢٥.

عنه، مِمّا أصبح به ذَيْل النَّسيم بلِيْلًا، وطرف الغادة الحسناء لحبِّه عليلاً.

قوله:

إن لم يكن لي من لحاظك جاني ... فعلام عن خدّيك تحمي الجاني
فلقد حَمَا نعمان جَدّك سفحة ... عن قاطفٍ لشِقَائق النعمان
لا تَنْكرنَّ دمي مراقاً في الهوى ... ما بَيْن مرهف ناظرٍ وسنان
يا طلعة البَدْر التي لتمامها ... رمُيَت بدُور التّم بالنُّقصان
وتمايلت هِيْف الغصون لقدّه ... كلَفاً ورُحْن نواكس الأذقان
الله في قلبي المقطَّع في الهوى ... يوم النَّوى بصوارم الأجفان
وبمقلة أجرت عقيق دموعها ... وَقْفاً على الأيام في نَعْمان
وبمُهْجة ذهبت لخدّ مُذْهب ... وسوادها خال على الأوجان
أرأيت إن بدَّدْت عقد مدامعي ... أيكون لي من درّ ثغرك ثاني
أو زيد في عَيْنيك أسود ناظري ... حَتّى تفوق نواظر الغزلان
هَيْهات لا دمعي عليك بمنقضٍ ... كَلّا ولا شوقي إليك بفاني
كلا ولا مَرَضِي يزول فإنّما ... مرض الجفون بسُقْمه أعداني
ما السُّقم في جَسَدي عليك بزائل ... وسقام خَصْرك دائم النُّقصان
يا عاذلي والشان أنك شائن ... بل شانىءٌ دَعْني عليه وشاني
أتلومني جَهْلاً ولم تَدْر الهَوى ... يوماً ولم تعرف سِوَى الهَذَيان
وتظل بالعذل المرير تشوب مَنْ ... حُلو الهوى ما كان في حُلْوان
دعني فلو شاهدت وَجْه معذّبي ... ما رُخْت إلاّ عن فؤاد عاني
ولو استعمت السّحر من ألفاظه ... لَسِمَعْت ما يُنْسيك بالألحان
فجزاء شَرْطي في الغرام بأنّني ... حَيّ الصّبابة مَيِّت السُّلوان
لا أنثني لِهَرَا العذول وإن ثنا ... غصن النقا بِزَعازع البهتان
أبداً ولا ألوي على غير اللِّوى ... وسفوحه ومراتع الغزلان

وقوله:

دعـانـي والـهـوى بـرٌّ رقـيـق دعـانـي والـمـجـاب هـو الـصَّـديـق
ومـا عـقّـت عـقـيـق الـدّمـع عـيـنـي لـفـرقـتـه فـلـيـس بـهـا عـقـوق
ومـن لـي والـغَـضَـى قـلـبـي وداري بـأن يـطـفـأ لـجـانـحـتـي حـريـق
ولـو عِـيـسـى أتـى يَـحْـيِـي سـلـوّي لـلاقـى فـي الـعـيـا مـا لا يـطـيـق
وهـا جـسـمـي وَهَـى مـن فَـرْط سُـقْـم بـه خَـضْـر الـرَّشـا الـغـانـي حـلـيـق
بـديـع الـحـسـن فـي خـدّيـه أضـحـى لِـبَـدْر الـتـم والـزَّهـر الـشَّـقـيـق
نـعـمـت بـه وروض الـحُـسْـن غـضّ وغـصـن الـقـدّ ريّـان رشـيـق
يـديـر كـؤوس ألـحـاظٍ ولـفـظٍ حـديـث الـخـمـر بـيـنـهـمـا عـتـيـق
لـيـال كُـلَّـمـا مَـرَّت بـفـكـري حـلاوتـهـا تـكـدّر مـا يـروق

وقوله من قصيدة أجاب بها على بعض أترابه:

أذِلِ الأعـنّـة وانـزل الـجـرعـا وأغـب فـفـي ورد الـهـوى جَـزَعَـا
ورض الـمـدامـة تَـنـبـري شـفـقـا تـحـت الـسَّـنـا فـي لـيـلـة درعـا[1]
تـحـكـي زجـاجـتـهـا مـجـاجـتـهـا فـتـخـالـهـا قـد ألـبـسـت دِرْعـا
إيـهِ أبـا عُـمَـر[2] أفـد جـلـدي طـبّـاً يـداوي مـهـجـةً لَـسْـعَـا
وأدر عـلـى عـيـنـي مـشـعـشـعـة ضـاءت لـهـا أكـوانـهـا لَـمْـعَـا
وتـغـنَّ إن سَـقَّـيْـتـنـي قـدحـاً لـتـقَـرّ مَـعْ عـيـنـي بـهـا سَـمْـعـا
وعـلـى أعـالـي الـجـزع بـارقـة لاحـت سَـقـى الأهـلـيـن والـجَـزْعـا
شـقّـت ثـيـاب الـلـيـل مـوهـنـة وتـجـلّـدي أوفـت بـه صَـدْعَـا
وجـرى طـلـيـق الـدَّمـع مـسـتـبـقـا لـيـفـيـد تَـقْـيـيـد الـكَـرَى وَضْـعـا
مـهـلاً بـريـق الـجَـزْع حَـسْـب فـتـى لـولا الـهـوى لـمّـا يُـرِق دَمْـعَـا
وسـرى الـصّـبـا الـنّـجـدي مـنـطـبـعـاً بـالـمِـسْـك فـاعـتـلّ الـهـوى طَـبْـعَـا
فـنـشـقـت مـن ريّـاه عـرف ثـرى بـالـروح والـريـحـان مـسـتـرعـى

(١) ليلة سوداء مظلمة.
(٢) في (ش) عمرو.

رعياً لها من تربة نسجت ثوباً لها من زَهرها صُنعا
ولسربها سرب جآذره آساده بلحاظها صَرْعى
وبمُهجتي جذلان ذو بخل أفرغت في حبيٍّ له الوسعا
للحسن زرع منه أخرج ور د الخدّ شطأً يا له زَرْعا
وترى الحشاشة سَهْم ناظره وتراه وِتْراً يرتمي شَفْعَا
ونضت سيوف الهِنْد مقلته وجفونه تُفْني الدّما نَزْعا
جفنان هاروت هما نكسا للسّحر فاحذر منهما خَدْعا
وانظم إذا ما كنت ذا غزلٍ في ثَغْره دُرٌّ ولا بِدْعا
ثغرٌ إذا ما الدّر جانسه نظماً أبانَ الفرق والجَمْعا

وقوله:

بروحي شقيقة شمس الضحى وقَلَّت لها الروح لو تسعف
تكلَّف بدر الدّجا إذ حكى سناها بَوَجْه له يُكْسَف
لقد فرّ ظبي اللوى إذ بدت وراحت غصون النقا تُقْصَف

وقوله في مليح يحمل لواء:

حمل اللواء من لو شهد ت جماله ما لمت عاشق
فلواؤه وقلوبنا كلّ تراه عليه خافق

وقوله مضمناً في مليح أسود:

من آل حامٍ غرير كله حورٌ قد صِيْغ إنسان عين الحسن للقمر
ألقى الشَّباب عليه لون بردته وزيد فيه سواد القلب والبصر

وكتب إليه خليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى نظماً ونثراً في يوم مطر وقع، فتخلف عن الوصول إليه، فقال:

لمّا هممت ارتحالاً عن دياركم ولم يرِغكم فراق العِلْم والأدب

بَكَتْ سما أرضكم شَجْواً وبعضكم في الأنس يرقب ضِحْكاً بارق الشهب

أقسم لولا أن الغيث يمنع المساف[1] المسافر، لقلت لطرفي إشفاقاً من ملالكم في المسافر، وكنت لولا خوف من له الخفّ والحافر، سأرحل ولا أرى منكم للذمام خافر، فإن وفيتم زرتموني البارحة لا عدمتكم المفاخر، والسلام.

فأجابه بقوله:

يا للعجائب كم أقضي على عجبٍ من صارمٍ[2] قاطع عهدي بلا سبب
بذلت روحي عِلْقاً ما له ثمن له ويزعم نَكْث العهد واحر بي
وهل ملالٌ لمن وَلاّه مهجته يا ضيعة العمر بين الشَّك والرِّيب

أقسم لولا أن الموارد قد تمنع المصادر، لتقدمت أمامك إلى المخادر[3]، وإن كانت القلوب من فراقك قد بلغت الحناجر، فلا ملال، وودّك مما تعقد عليه الخناصر. ومن الوفاء أن تزورنا زيارة هذا الواكف الماطر، فإني منذ فارقتك كما علم الله تعالى ساهٍ ساهر، والسلام.

ولمّا أعجب الشيخ إبراهيم، طائر لديه من الحمام التي تهيم، قد سلب الحسان أطواقها، وجَلَب إلى كلّ مهجة أشواقها، ولبس زَهْر الزُّهور ريشاً، وأخذ ألحانه المشجية عن داود[4] بن إيشا، يهيم بحمامة جعلها إلفاً له على الغصون، وأظهر على الفروع سر غرامه المصون، قد تفيأ رَفْرَفِ الورق، والتقط جمان الطلّ الذي صفا ورق، يَحسبه حباً منظوماً، كان ذلك منه موهوماً، يساعد المحزون على النُّواح، ويطابق المَسْرور بالغنا مصفّقاً له بالجَنَاح، تارةً في مأتم يبكي، وتارةً في مجلس أفراح يترنّم ويشكي، أخذت الشيخ إليه الهزّة، بعدها أخذته عن اقتناصه العزّة، فكتب إليه مستدعياً، ولحقّه العظيم عليه مسترعياً فقال:

---

(١) كذا.

(٢) الصّارم عند أهل اليمن لقب لمن يتسمى بإبراهيم.

(٣) المخادر: بلدة شمال مدينة إب (المقحفي: ١٤٤٦).

(٤) هو نبي الله داود عليه السلام.

يا أحمَ[1] بالخُلْق المفتَرّ عن زَهَر ... كالروض غبّ سماء العارض الهَتِنِ
إبعث لِعَبْدك بالورقا وصاحبها ... مطوّقين كطوقي منك بالمِنَنِ
وَمُرْهُمَا يُسْعدا في الحبّ تَوْح فتىً ... يَبْكِي عَلَى القَدّ إذْ نَاحَا عَلَى الغُصُنِ

فأجابه بقوله:

مَوْلايَ مَوْلايَ إبراهِيم ذَا المُنَنِ ... وَمَنْ لَهُ الفَضْل فِي هِنْدٍ وَفِي يَمَنِ
بَعثتَ بالدُّرّ للوَرْقا أتقْنُصُها ... دُرُّ نَفِيسَ اللآلي غَالِي الثَمَنِ
إذْ أعَجَبَتكَ عَلَى الأغصَانِ تَغْمَتُها ... مُذ جَاوَبَتْ إلْفَهَا فِي عالِي الفَننِ
فأمْهِل الصَّبَّ حَتى اللّيل يَجْمَعنُا ... وَقَدْ شَدَت مِثلَ لحنِ الحاذق الفَطِنِ
لا زِلتَ مَا غَرّدَتْ مِنْ فَوْق أغْصُنِها ... فَشَوَّقَتْ مُستَهَاماً نازِحَ الوَطَنِ

وقال: صاحب الترجمة لما صار طرفه كليلاً، وقد بلغته وفاة الشيخ إبراهيم الهندي فإنه كان له خليلاً، وذلك بروضة حاتم، لا برحت تتبختر على جَدَثه في تلك الروضة النَّسائم، ولا زالت تبكيه على غصونها نائحات الحمائم، فتدمع لبكائها بالواكف الغزير عيون الغمائم، وتبادرها الأغصان لمسح دموعها بالمناديل المطرزة بأزهار الكمائم.

أهيلُ أزَالِ عَظَمَ اللّهُ أجْرَكَمْ ... بِشَيْخ عَلوْم لِلْبَلاغَةِ خَاتِمِ
قضَى فَانْقَضَىَ فَنّ القَرِيض أمَا ترَوا ... حَبِيباً[2] ثوَى يَا قوم رَوْضَة حاتِمِ

وأحسن منه قولي في وصف كريم بروضة حاتم المذكورة:

مَذ نَزَلْنَا سَفْح مَنْ قَد ... عَمّ صُحْبِي بالمَكَارِم
قُلْتُ لِلْقَوْمِ هَلِمُّوا ... هَذِهِ رَوْضَةُ حَاتِمْ

وَلمَّا وافته المنية، ومدت يد الحِمَام لاقتطاف ثمرته الجنيَّة، وأراد عدو الأفاضل وهو الزَّمان، بأن ينثر من جيده نَفْسة عِقْد الجمان، صدمه بمعرة موته، وَدَهمه بجَيْشٍ عظيم من ساعات فوته، فما خدش إلا وَجْهِ حُسْنه، ولا صرم إلا ما

---

(١) ترخيم في اسم أحمد.
(٢) يعني أبا تمام الشاعر المعروف.

قوي من متنه، جدع مارنه[١] بيده، ونَثَرَ العقد من جِيْده، شوّه أيامه لما قَوّض خيامه، فبكاه الكون، بِدَمْع الغمام الجون، وقد فارق منازله، وتبَرَّجت له الحور مغازله، رثاه الشيخ محمد بن الحسين المرهبي، وَحَباه من النَّظْم بأنفس ما به الفاضل حبى، وأرّخ ساعة كان له بها انتقال، ونثر عليه دموع نظمه فقال:

ما راق لي بعدك يا أحمد ... نَجْد ولا الغور ولا ثهمدُ
ولم يطب بعدك لي مأكلٌ ... ومشرب كلا ولا مرقدُ
وكيف لا أبكي على ماجدٍ ... نظيره في النَّاس لا يوجدُ
إن أنا لم أحمد ربي على ... ما سرّ أو ما سا فمن أحمدُ
أحمد يا بن الزوم غادَرْتني ... مسَهَّد الأجفان لا أرقدُ
خَلَّفت نار الحزن في مهجتي ... تسعَرُ لا تخبو ولا تخمد
ألبسك الله ثِيَاب الرّضى ... وكنت في زمرة من يسعدُ
نزلت من قبرك في روضةٍ ... تَشْهد منها جنّة تخلدُ
قطوفها دانيةٌ دائماً ... نعيمها متّصل سرمدُ
بفوزه صَرَّح تاريخه ... في جنة عالية أحمدُ

أخوه الأمير الحسن بن الزوم[٢]

أقسم بإمارة آبائه، وعمارة مَجْده بهمّة حوبائه، أنه معدودٌ في نمط الأجلاّء، وممّن ملأ بِرقم مناقبه سجلاّ، من أهل الثروة، وممّن لبس من النعمة فروة، لو تجمل الروض ببرود مجده التي لم تخلقها الدهور، لاستغنى بها عن ثياب الرَّبيع المطروزة بالزّهور، ولو مازج شراب نعمته البحر المالح لساغ، أو لو سقى به ورد الخدود لما دبّ عليه عقربُ الأصداغ، رأيت له مجموع أدبٍ بخطه، قد زيّن وجه قرطاسه بِخِيْلان[٣] نقطه من منظوم ومنثور، وقصص تعدّ من خير مأثور، قيد

(١) المارن: الأنف سبق مثله.

(٢) انفرد بذكره.

(٣) خيلان: جمع خال سبق مثله.

الشوارد فأحسن في تقييدها، ونظم سطوره فرمى عقود الغانيات بتَبْديدها، ممّا يدل على ذوق سليم، وأنّ منه فوق كلّ ذي علم عليم، بخط أقرب إلى الملاحة، ووزنٍ للأشعار دلّ على الرّجاحة، فقد تلا أخاه في الأدب، وانسلّ إليهما اللّطف من كل حَدَب، مَنَّ الله تعالى عليهما بما مَنْ، فلهما من النقائص أي مأمن، حتى قالت لسان حاله: أنا حسن، وهذا أخي قد منّ الله علينا وساق. وله الحمد جُمَل الفضائل والمحامد إلينا، رعى الله تعالى عَهْدَيْهما ولا صرف عن الذِّكر الجميل نَقْديهما، ما أَبْلَل النَّسيم من سَقَمه بالبَلَل، لمّا عرق بِرَشْح الطلْ من أخضر الأوراق في الحُلل، فبشَّر بصحته الطائر الغرد، حتى صفق بأكفّ الموج النهر المطرّد.

ولصاحب هذه الترجمة نظمٌ كم أفحم مزاحمه وألجمه، دلّ على قوّة عارضة، تُضعف في السباق معارضه، لو مازج الصّرف من المدام لاستمر خمارها ودام، فلا يَصْحو من سفّ لها كاسا، ولا يرفع من صرعه خماره له رأساً، فممَّا اخترت له من نظمه وكله مختار، وأطربت له السَّامع من كلامه فما الحاجة إلى نَغْمَة الأوتار، وانتقيته انتقاء كبار الدّر، وَرَّصفته في سماط هذه الأسطر.

قوله من أبيات كتبها إلى أخيه أحمد بن عبد الله وقد فارقه:

وفَارَقَتْنَا رياض من شمائلكم ... لنَوَرها بِكَمام المَجْد تنويرُ
أزري بزهر الدّياجي في مجرّتها ... من زهرها الغضّ منظومٌ ومنشورُ
لهفي على طِيْب أوقاتٍ بكم سَلفت ... كأنها لذنوب الدهر تَكْفير
راقت ورقّت حواشيها وزبرجها ... كأنها في ثَنَايا العمر توشير[1]
فاللَّيْل كاليوم مصقول سوالفه ... كأنه فوق خدّ الدَّهر تَعْذيرُ[2]

وقوله في مليحٍ يسمى عامراً:

أتاني سائل عن اسمِ خلِّي ... وما رَبْع الوداد فقلت ظاهر

---

(١) التوشير: وشرت المرأة أسنانها إذا حَدَّدتها دققتها فهي واشرة.

(٢) من العذار: معروف.

خرابٌ ودّ كلّ النّاس عِندي ... إذا ما كان ربع الودّ عامر

وقوله:

ثلاث قافات بلينا بها ... القوت والقهوة والقات

ثلاث آفاتٍ تقضّت بها ... للعُمْر ساعات وأوقات

وقوله رباعيّة:

إياك بأن تقيم ... في السّوح غريب

والأرض وسيعة ... لمن كان لبيب

ما تَنفع بُقْعة ... من الأرض زهت

لم يمنحك الزّمان ... منها بنصيب

وقوله في مروحة من المندل:

مروحة فاقت على غَيْرها ... في شَكْلها والشَّمّ ذاك العجيب

مهما طلبت الريح منها فما ... يُمْكنها تهديه إلا بِطِيْب

إن نشرت كانت كبدر السما ... أو جمعت كانت ككف الحبيب(١)

وقوله في دار مُرْتفعة المحل، وحولها رِيَاض وأنهار حافّة بها من جميع جهاتها:

دار الشَّريف بربوةٍ مُخْضرّة ... بَيْضاء تُحكي الشّمس عند شروقها

والرَّوض مثل الطّوق فيها محدق ... فهي الحمامة والرِّياض كطوقها

أو أنها الحسناء فوق منصّةٍ ... والنّهر حِجْل قد غدا في سُوْقها

وقوله في بخيل:

لا تدعه يجول بالفكر لمّا ... جئته سائلاً ولو للحقير

بُخله قد نهاه عن بَذْل فلس ... كم على مثله بكا في الضمير

---

(١) علق في (ش) لو قال أو طويت لتمثلت له المقابلة.

ولما أرسل له الفقيه محمد بن الهادي العلفي خَزّان بيت المال بشعير عوضاً عن معتاده من القمح المقرّر المعلوم الجاري عليه كل شهر من شهور العام:

بدّلت قمحي شعيراً يا ابن عثمانا   ولم يكن قوتنا من قبل أو كانا
فأنت أولى به مني ولا عجب   أليس أنكما من نسل مروانا

قلت: المقصود بمروان مروان الحمار والحسيك للحمار الشعير، وهو أحسن ما تحسكه الدواب، ومن خواصه تسمينها، وإهزال بني آدم إن داوموا أكله، معناه: فأنت ابن الحمار أولى به منّا. وذلك لأنّ الفقيه المذكور راجعٌ في النسب إلى بني أميّة ومنهم: مروان الحمار المذكور، ولما علم هذه الواقعة الشيخ البليغ جمال الدين محمد بن الحسين المرهبي المتقدم ذكره رحمه الله تعالى، قال:

تنازع في فلان ناسبوه   وكاد يطول بَيْنهم الشجارُ
إلى من ينتمي في عبد شمس   وآل أميــة منه نجارُ
فمذ خزن الشَّعير علمت حقاً   بأن أباه مروان الحمارُ

وقال: صاحب الترجمة في مليح يجالسه رجلٌ يلقب بالسَّيفي:

ما كان ذاك الوصل لمّا مضى   إلا كماضي السُّحب بالصَّيف
أمّا الهوى فالطرف أوفى بِهِ   يا أسرة العشاق بالسَّيف (ي)

وقال فيه أيضاً:

يا حسنه لما سرى مقمراً   يجتاب جنح الليل كالطَّيف
أحور قد عذّب قَلْبي هوًى   ما بين نار الخدّ والسَّيف (ي)

وقال فيه أيضاً:

أمّا غرامي والهِيام به   فهما جميعاً جلّ عن كيف
كيف احتراسي من حبيبٍ غدا   يغزو بسهم اللحظ والسّيف (ي)

وقال في غلامٍ يغار عليه أبوه وهو إذ ذاك أعور:

على فزع دنا كالظَّبي يعدو   فحدّقت العيون هوى إليه

مـلـيـحٌ لا يـغـار الـظَّـبـي مـنـه وعـيـن أبـيـه قـد غـارت عـلـيـه

قلت: في قوله: غارت تورية حسنةٌ، لأنه يصح أن يكون غارت عليه ماضياً من قولهم غار الماء غوراً، وغؤوراً، أي: سفل في الأرض، وغارت عينه تغور غوراً وغؤوراً إذا دخلت في الرأس، وغارت تغار لغةٌ فيه.

قال ابن أحمر: أغارت عينه أم لم تغارا، فبذلك توضّح أحد وجهي التورية، ويصحّ أيضاً أن يكون فِعْلاً ماضياً من قولهم: غار الرّجل على أهله، يغار غَيراً، بِفَتْح الغين المعجمة وغاراً وغيرة، مصدر إذا أصابته الغيرة والحميّة عليهم.

وقال بعض العلماء: الغيرة كراهة شركة الغير، وبذلك توضّح الوجه الثاني من التَّورية. وقال رحمه الله تعالى:

مـن الـمـوانـع قـرب مـفـرط ولـذا ما إن ترى الوجه عين المرء في الصور

كالشَّمس في البعد تكسو البدر حلّتها والقُرْب يكسوه ثوب الخسف والضرر

وقال مؤرّخاً وقد رَكَّب روشانٌ[1] أنيق في بعض الدور المستجدة لبعض الملوك:

قـلـت فـي رَوْشـان مَـلْـكٍ هـو بـالـسُّـعـد مـتـوّج

وقـت مـا رُكّـب أرّخ أذهـب الـحـزن وفـرّج

قلت: ما أظنه قَصَدَ التورية هنا في قوله: وفرّج لأني نقلت هذا التاريخ من خط يده، فلو قصدها لنبّه عليها لا محالة، وهي ظاهرة، فالوجه الأول من وجهي التورية أن يكون قوله: وفرّج من الفرج بالتحريك، وهو مختلف فيه.

فقال بعضهم: هو شرح الصدر بلذة عاجلة. وقال آخر: إنه انتفاخ القلب بما يلتذ به. وقال آخر: هو لذة القلب بنيل المشتهى وأكثر ما يكون في اللّذات الدّنيوية البدنية.

---

(١) الروشن والروشان الكوة كأنه معرب روزن (قصد السبيل ٢ : ٧٥) وهو هنا بناء خارج عن أصل الجدار يطل على الشارع ونحوه.

وقال الجوهري في «الصحاح»: الفرج بالتحريك من الغمّ، تقول: فرج الله عنك غمّك تفرج بكسر الراء انتهى كلامه، يرشح لهذا المقصد في البيت. قوله: أذهب الحزن، والوجه الثاني من وجهي التورية أن يكون قوله: وفرج من التفرّج، وهو التنزه والنظر فيما تتكشف فيه اللذة الجالبة للأريحية، الكاشفة عمّا يتعجّب منه موجبةٌ للتقصي من الهمّ من التفرّج، [وهو الانكشاف أو من الفرجة بفتح الفاء وهي التقصي من الهمّ][1].

وقال مؤرّخاً لوفاة الأديب على بن عبد الرحمٰن كاشف الآتي ذكره رحمهما الله تعالى:

يـــامـــن تـــولّـــى حـــمـــيـــداً ... فـــي طُـــول طَـــوْل ومـــنٍّ
أرّخـــت مـــوتـــك عـــدّاً ... ســـكـــنـــت جـــنـــة عَـــدْنِ

وقال في مرثيةٍ له:

ماذا أقول وصَدْع الخطب أعياني ... وصامت الحزن أبدي نُطق أعياني
وكيف أشكو إلى الأيام شِيْمتها ... شَكْوى السّليم إلى صلٍّ وثعبان
وبِيْضها لم تزل في البحث دائبةً ... على خبايا اللّيالي بَحْث إمعانِ
والفضل قاضٍ على الدنيا بِقَتْلتها ... فليس تودي بذي نقص وحرمانِ
فلا يغّرنك صفو من مودّتها ... فصفوة السّم تدني الحين للجاني

أبوهما الأمير عبد الله بن محمد آغا الزّوم[2]

أبوهما هذا شيخ كبير، إذا احتبى فثهلان أو ثبير، ينفح من أعشابه المخضرّة متضوّع العبير، صدرٌ إن قيل من الصدر، بدرٌ من منازل العلا ينقص عنه البدر، إن كان شخصٌ تفرّد بالمجد، فما هو سواه، فإني ما سمعت بعظيمٍ غيرُه قط قد

(١) ساقط من ش.

(٢) انفرد بذكره.

حواه، فأكرم بهِ مِن أمير، تحدَّى بذكره السَّمير، مبجّل معظم آغا[١]، يباري العلماء والبلغاء، قد تكَلَّلت سماه بنجوم المحامد، وأحيت هِمّته من خصال الفخار كل هامد.

وجرى في خدمته من الكون المائع والجامد، فما أمر إلاّ أطيع، وكلف المأمور ما لا يستطيع، لجلالةِ عليه ومهابة، ووقارٍ قد ملأ إهابه، ما أُمّر على سريّة، إلا أطاعته جملة البرية، وارتعدت لصولته الآساد الجريّة، عليه يعقد اللّواء، ويجنح الحفل إليه ويترك السّوى، ما ارتقى القاصد له عقاب سمارة[٢]، إلاّ لاحت له على مضربه من البشاش أماره فيهتدي إليه منها بقبس، ويتولّى أمر إكرامه عند النزول به وما عبس، وشعره نفيس جداً، لم يزل في تَنْضيده مُجدّاً، لو مازج مدامة الماء لعاد خمراً، [ولو طارت شرارة من ذكاء معتصره لعادت به فحمة الليل جمراً][٣]، لم أظفر منه بغير رباعِيَة، حمدت بها في طريق الأدب مساعِيَه، رمى بسهمها عن قوس الغمام، فأصاب الغرض إصابة الهمام، ما ترك فيه لغيره منزعاً، ولا كان إلاّ هو للإجادة مفزعاً. وهو قوله:

ما هزّ قوامه دلالاً وَمَرَحْ إلا ملا الفؤاد بشراً وفرح
شَبَّهت عذاره على وجنته شمساً طلعت وحولها قوس قزح

قلت: جعل العذار هو المشبّه بالشَّمس كما ترى، والمشبّه بها إنما هو الوجنة في نظمه. وأيضاً: الوجنة إنما تشبّه بالوَرْد والشقيق ونحوهما وهو اللائق، والذي يليق ويحسن، وعليه أطبق زمر الأدباء، تشبيه الجبين بالشمس، فليته قال:

مخضرّ عذار فاتني حين سرح كالطَّوق على الحمام غنّى وصدح
شبّهت جبينه وقد حفّ به شمساً طلعت وحولها قوس قزح

أقول: أخطأ صاحب الترجمة رحمه الله تعالى بتسمية قوس الغمام بقوس

(١) الآغا لفظة تركية بمعنى الرئيس أو السيد انظر مع الدولة العثمانية لحسين مجيب المصري: ٢٤.

(٢) سمارة: قلعة ونقيل (عقبة) فيما بين إب ومدينة يريم (المقحفى: ٨٠٩).

(٣) ساقط من (ش).

قزح، وما هو بأوّل سار غرّه القمر، ولا بأوّل من قطف هذا الثمر، فإن القوم من الصَّدر الأول ومن تبعهم قد رموا عن هذا القوس فأخطأوا الغرض، فقد نصّ الحافظ ابن الأثير، رضي الله عنه، في النهاية[١] بأن قال جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٢]: «لا تقولوا قوس قزح، فإن قزح من أسماء الشياطين». قيل: سمي به لتَسْويله للنّاس وتحسينه إليهم المعاصي من التقزيح، وهو التَّحْسين. وقيل: من القزح، وهي الطرائق والألوان التي في القوس واحدها قزحة، أو من قَزَح الشيء إذا ارتفع، كأنه كره ما كانوا عليه من عادة الجاهليّة. وأن يقال: قوس الله تعالى أمانٌ من الغرق. انتهى ما نصّ عليه ابن الأثير مسنداً نصّه إلى الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه في الجنة: أنّ قوس الغمام أمان من الغرق، وقال بعض الحكماء إنّه انعكاس من شعاع الشمس في الماء الذي في السحاب، وعِلْم الله به ما لا علم المخلوق الضعيف.

وممّن أخطأ في تسمية قوس الغمام بقوس قزح، عبد الله بن المعتز لما قال[٣]:

أشبّه سرعة أيّامهم ... بِسُرْعة قوس يسمى قزح
تلوّن معترضاً في السماء ... فما قيل قد تمّ حتى نزح

وأخطأ أيضاً الأمير مجير الدين بن تميم رحمه الله تعالى لمّا قال يفضّل الأرض على السماء، في المفاخرة بينهما[٤]:

يا جاعل الأفق مثل الأرض حجّته ... بالشَّمس إذ بزغت والبَدْر حين وَضَحَ

---

(١) النهاية في غريب الحديث ٤ : ٥٧.

(٢) في هامش (ش) حديث ابن عباس لا تقولوا قوس قزح الحديث أعلّه ابن الجوزي بزكريا بن حكيم الحنظي وضعفه أحمد والنسائي وابن المديني، قال السيوطي لكن ذكره ابن حبان في الثقات وقد احتج النووي في الأذكار بهذا الحديث على كراهة أن يقال قوس قزح انتهى.

(٣) ديوان ابن المعتز ٣: ٢٣٩ ط عالم الكتب.

(٤) الأبيات في فوات الوفيات لابن شاكر ٤: ٦٠.

كم من شموس وأقمارٍ إذا سرحت   في الأرض طِرْتَ عليها خفةً وفرح
ولا تقل قزحاً في الجوّ زَيَّنه   في كل غصنٍ نرى في الأرض قوس قزح

وتبعه في هذا الخطأ الشيخ عز الدين الموصلي رحمه الله تعالى، حيث قال في الحمامة:

مذ غنّت الورق على عِيْدانها   كَمَ خلع الجوّ عليها من ملح
تدرّعت سحباً وحاضت شفقاً   وطوّقت أعناقها قوس قزح

فاللائق أن يقال له: قوس الله أو قوس الغمام، أو قوس علاّن أو قوس السّحاب أيضاً.

ولله درّ سيف الدولة رحمه الله تعالى، أوّلاً بتعبيره عنه بقوس السّحاب، وثانياً بما أبرزه من حسن تشبيهه، فإنّه ما ترك لغيره في هذا القوس منزعاً، حيث قال(١):

وساق صبيح للصّبوح دعوته   فقام وفي أجفانه سِنَة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم   فمن بين منقضٍ علينا ومنفضّ
وقد نشرت أيدي السحاب مطارفاً   على الجوّ دكناً والحواشي على الأرض
يطرّزها قوس السّحاب بأصفر   على أحمر في أخضر إثر مبيضّ
كأذيال خود أقبلت في غلائل   مصبّغة والبعض أقصر من بعض

وقد أغار على هذا التشبيه السيد الواثق(٢) بالله رضي الله عنه، فقال:

ويوم دجنٌ بدت قوس الغمام به   تُحكي الزمرّد محفوفاً بمرجان
كأنّها حُلل الحَسْنا مرادفة   والبَعْض أقصر منظوراً من الثّاني

وقال صاحب الترجمة رحمه الله تعالى مضمناً ومكتفياً:

---

(١) الأبيات في وفيات الأعيان ٣: ٤٠٢.

(٢) هو الواثق بالله هارون بن محمد بن هارون الرشيد العباسي المتوفى ٢٣٢هـ (تاريخ بغداد ١٤: ١٥ وتاريخ الخلفاء: ٣٦٧ وفوات الوفيات لابن شاكر ٤: ٢٢٨).

ألا سرّني يا مالك الأمر بالندا ندًا قد غدا بالهَمْع للغيث مشبها
فقد قال كندي[1] النظام وصدره (لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها)

وأصله قول أبي الطيب المتنبي الكندي[2]:

لمن تَطْلب الدنيا إذا لم ترد بها سرور محبٌ أو إساءة مجرمِ

وفي هذا البيت: الطباق بين السّرور خلاف الحزن، وبين الإساءة، وهي نقيض المسرّة، وبين المحبّ والمجرم. قال الشّيخ أبو بكر ابن حجّة رحمه الله تعالى في شرح البديعيّة[3] أنّه متفق عليه أنه من الطباق الفاسد، فإنّ المجرم ليس بضد المحب بوجهٍ ما، وليس للمُحِبّ ضد غير المبغض. انتهى كلام ابن حجة بلفظه.

قلت: نعم، لا شك أن ضدّ المحبّ المبغض، فكان من حقه أن يقول أو إساءة مبغض، لكنها حكمت عليه القافية الميميّة إلى أن يقول أو إساءة مجرم، وعندي أنّه ليس ببعيدٍ أن يكون هذا الطّباق صالحاً لا فاسداً كما زعموا فلا وجه لاتفاق الأفاضل من البلغاء على أنّ هذا البيت معدود من الطباق الفاسد، لأن للتأويل فيه أيّ مجال يتقوّم به صحة المقال، لأن المجرم هو المذنب من الجرم بالضمّ، وهو الذنب فهو مبغض لمن أذنب إليه لا محالة له وما ذاك إلاّ أنّه ما اقترف الذنب إلى المذنب إليه إلاّ عن بغض كامنٍ.

وأيضاً فإن المجرم في اللّغة هو القاطع والمصارم من قولهم جرمه إذا قطعه وجرم النخل جرماً بسكون الرّاء إذ صرمه، فالمبغض مقاطع مصارم لمن أذنب إليه وسبب المقاطعة والمصارمة البغض، الذي أوجب النفور عن المبغوض وعدم الأنسة إليه.

---

(١) يغني أبا الطيب المتنبي.
(٢) ديوانه ٣: ٢٧١ بشرح البرقوقي.
(٣) خزانة الأدب: ١: ١٦٠ ط عصام شعيتو.

وقد سمّيت أنا هذا الطباق المعنويّ الذي نصّ عليه أئمة البديع، وحقيقته عندهم أن يعدل الناظم للبيت الذي فيه الجناس المعنوي إلى ما يرادف اللفظة التي يحصل بها الجناس اللفظي، وذلك لا يكون إلاّ في النظم خاصةً لا في النثر، لأنّه يضطر الناظم إلى استقامة الوزن في البيت فيعدل عن اللّفظة إلى ما يرادفها كما عدل المتنبي في بيته هذا عن المبغض إلى المجرم، وإن لم يكن اللفظتان مترادفتين لكنّهما يؤولان عند اللبيب إلى معنى الترادف، وإن لم يكن ترادفاً حقيقاً.

قلت: هذا بعد إسنادي فيه للعلم إلى علام الغيوب. ومنوّر القلوب فعِلْمه منتهى المراد والمطلوب.

الفقيه علي بن عبد الرحمٰن كاشف(١)

أديبٌ بدر السماء عند كلماته كاسف، ولطيف كَشَف الحجاب عن مخدّرات اللطائف، فلقّب بالكاشف، رُبِّي في اليمن الأسفل فراق طبعه، وتغذّى العذب، فزها غربه ونَبْعه(٢)، فهو ألطف من نسيم، وأطوع من نديم شدا حمامه بين وَرَقٍ، بلحن راق لسامعه وَرَقَ، فمال منه عطفاً، وزاد رقةً ولطفاً، قد نظم من الشعر سهلاً، ودأب فيه صغيراً وكهلاً.

يستعمل في شعره لغة العامّة، ويطلع في سماء طرسه بدورها التامّة، فيلذّ نظمه للأفراد، ويلبسون منه ما يزري بمطروز الأبراد.

وله في نظم التواريخ طرائق جادّة، ومادّة من الله تعالى أيّ مادّة.

من نظمه الذي يعجز عنه السري(٣)، ويلطف كما لطف عرف الطلّ في خدّ الورد الطّري، حتى تغار منه خدود الملاح. وقد بدا لها في أبهج منظرٍ ولاح.

---

(١) انفرد به المؤلف.

(٢) سبق شرحه.

(٣) يعني السري الرّفاء سبق ذكره في ١: ٤١١.

قوله:

قــد جــاءنــا الــورد الــطــري ... مــكــلّــلاً بــالــمَــطَــرِ
يــحــكــي خــدود أهــيــف ... يــنــدى بــرَشْــح عــطــر
يــا حــبّــذا الــورد جــنــاً ... مــن نــزهــة لــلــنَّــظــرِ

وقوله: مؤرّخاً لخان عظيم:

لــقــد شــاد فــخــر الــهــدى ... مــحــلاً رفــيــع الــبــنــا
مــنــازل لــلــمــكــتــريــن[1] ... فــيــهــا الــبــهــا والــسَّــنــا
فــوائــد فــيــهــا لــه ... أقــرّت بــهــا الأعــيــنــا
فــمِــنْــهــا الــثَّــواب الــذي ... يــرجِّــيــه مــن ربّــنــا
ومــنــهــا الــكــرَى دائــمــاً ... فــيَــقْــبَــضــه دَيْــدَنــا
ويَــغْــنَــى بــهــا دائــمــاً ... فــتــاريــخــهــا بــالــغــنــا

وقوله: مؤرّخاً له أيضاً:

هــذي الــمــنــازل شــيــدت ... لــهــا ابــتــهــاج وشَــرَح
الــمَــخــبــشــي قَــدْ بــنــاهــا ... لــه بــذلــك نَــجْــح
وفــيــه ربــحٌ فــأرِّخ ... (بِــنَــاه خَــيْــر وربــح)

وقوله له مؤرّخاً لخان آخر:

وهي سمسرة[2] عمرت بمحروس مدينة جبلة حفظ الله تعالى أكنافها:

فخر الهدى قد بنى مَحَلّه ... للسَّفر فيها يحط رحله
أبدع صنّاعها بناها ... قامَتْ على ذلك الأدلّة
نال بها أجرةً وأجراً ... قد حمد العالمون فِعْله
فهاك تاريخها بيانا ... (سمسرة للكرى بجبلة)

---

(١) المكترين: الموجرون أي الذين يأخذون المنزل بالأجرة.
(٢) السمسرة في عرف أهل اليمن الخان الكبير ينزل فيه المسافرون.

وقوله مؤرّخاً لدار عمرت في المدبغة من حافاة جبلة المحروسة:

بـنـى الـحـسـيـن مـنـزلاً　　وشـاده وفَـرَّغَـه
مـن تَـخْـتِـه سـائـلـةٌ[1]　　مـن فـوقـه بـيـت الأغـه
بـجِـبْـلـة قـد شـاده　　تـاريـخـه (بـالـمـدبـغـة)

وقوله يؤرّخ روشناً صنع من الأخشاب ورُصّع بالصدف:

يـا روشـنـاً لاح بـأعـلـى الـغـرف　　جـدّده بـدر الـهـدى والـشَّـرف
قـد رصّـعـوا شُـبَّـاكـه بـالـتـحـف　　تـاريـخـه (الأخـشـاب فـيـهـا صـدف)

وقوله رحمه الله تعالى يورخ صندوقاً أنّقه صانعه:

صـنـدوقـنـا هـذا الـجـديـد الـذي　　صـانـعـه مـا مِـثْـلـه مُـنْـتِـبـه
حـوى لـنـا كـل ظَـنِـيْـن ومـا　　نـودعـه فـيـه فـلا يَـشْـتـبـه
لا يـخـتـشـي مـنـه فـواتـاً كـمـا　　تـاريـخـه (يـحـفـظ مـا حـلّ بـه)

وقوله مؤرّخاً لبيت بناه الوجيهان عبد الرحمٰن الخطيب وصنوه عبد الرحيم:

بـنـى الـوجـيـهـان بَـيْـتـاً　　وكـلّ بـان مـفـيـدُ
عـلـى تُـقـى أسّـسـوهـا　　والـعـالـمـون شـهـودُ
سـيَـسْـكـنـاهـا بِـخَـيْـر　　ونِـعْـمـة لا تـبـيـدُ
تـاريـخـهـا حـيـن تـمّـت　　(بـيـت الـخـطـيـب جـديـدُ)

وقوله مؤرّخاً لبيتٍ بناه حسين بن كيوان:

بَـنـى ابـن كـيـوان بـيـتـاً　　مـن فـوق كـيـوان[2] نَـجْـمـه
عَـمْـري لـقـد طـاب مـنـه　　حـدّ الـبـنـاء ورسـمـه
فـهـو الـسَّـعـيـد وهـذا　　سَـهْـم الـمـسـرّات سـهـمـه

---

(١) السائلة: مجري السيل.

(٢) كيوان زحل وفلكه (قصد السبيل ٢: ٤١٦).

من حَلَّه زال عنه   همّ الفؤاد وغمّه
كم طاش من ذي وقار   لحسن مرآهُ حِلْمُه
اسم له هاك أرّخ   (بيت السعادة إسمه)

وقوله مؤرّخاً لدارٍ أيضاً:

عمر الكاتب بن فعلان بيتاً   فاق دور الأنام عرضاً وطولاً
كتب الشّوم فوق بَابَيْه سطراً   هي دار الفنا فصبراً جميلاً
عُمِرت في مجاعة فلهذا   جاء تاريخها (غلاءً وويلاً)

وقوله يؤرّخ داراً بناها بمحروس مدينة تعز العزيزة المحل، المولى عماد الدين يحيى بن محمد بن الحسين بن الإمام القاسم عليه السلام والنظم لسان حال للدار المذكورة، وهو:

أنا إيوان سيّد شاد ركني   خيرُ مَلْك سعى إلى المجد سَعْيَا
شادني للفَخَار فوق محلٍّ   زحل تحت أخمصيه الثريّا
بانتصابي رَفَعْت خفض المعالي   يا أخا المكرمات رفعاً عليّا
فلذا نادت السعادة أرّخ   (شاده في تعز للعدل يحيى)

وقوله يؤرّخ خزانة من الخشب، يودع في أثنائها المضنون به من النشب:

ذي خزانة من حادها عجب   قد نجرها نَجّار من حجب
بالشوافي[1] قرية قبال إب   أرّخوها من (خشب الطّنِب)

ولمّا وفد خليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى إلى اليمن الأسفل، أتحفه صاحب الترجمة بخردل، وهو الخردل[2] الذي يصبّ على الطعام ويعدّ نوعاً من الأدام، وهو معروف، وطبعه مألوف، فكتب إليه مداعباً له ومماجناً، ومباكراً له من الأحماض بحلو فاكهةٍ ممّا جنا، لأنه كان يداعبه أيّ

(١) الشوافي: قرية من جبل خضراء من مديرية حبيش وأعمال إب (المقحفى ١: ٨٨٣).
(٢) حب شجر معروف من أنواع الحُرُف (معجم النباتات ٢: ١٩٧).

دعاب، ويماجنه أيّ مماجنةٍ تسدد إليه أسهم الجعاب[1].

قوله:

يـا حـبّـذا خـردلاً بـعـثـت بـه أهـدي لـنـا عـرفـك الـذي عـرفـا
فـاح شـذا نـشـره بـحـجـرتـنـا فـدلّـنـا إن دلّ قـد حُـذفـا

قلت: ليته قال: دَلّ على أنّ دل قد حذفا، ليكون جناساً تامّاً ومن هذا قول ابن دانيال[2] في الفخر الصائغ[3]:

قـد كـنـت بـالـفـخـر ذا ضـلالٍ إذ جـئـتـه مـخـلـص الـوفـاءِ
حـقـيـقـةً إذ دعـوه فـخـراً وكـان فـخـراً بـغـيـر فـاءِ

وقول ابن الرومي في قداح مخروطةٍ[4]:

هـي مـخـروطـة لـعـمـري ولـكـن سـقـطـت طـاؤهـا مـن الـخـراط

ومنه ما ذكره ابن الجوزي رضي الله عنه في كتاب الأذكياء[5]. قال في الباب الرابع والعشرين منه ما لفظه: وصف لشاعرٍ طِيْب خراسان، فسافر إليها، فلم تعجبه، فقال:

تـمـنّـيـنـا خـراسـانـاً زمـانـاً فـلـم نـعـط الـمـنى والـصبـر عـنـهـا
فـلـمـا أن أتـيـنـاهـا سـراعـاً وجـدنـاهـا بـحـذف الـنّـصـف مـنـهـا

السيد قاسم بن مطيع الله[6]

هو للبدور تِرْبها، لمّا حل منزله إثمد عيون النجوم تُربها، ذو أخلاق لو صبّت في الكأس، لما تلقّى الندماء خمرة الدّنان إلا بالإبعاد والإركاس، أو لو

(١) جمع جعبة كنانة السهام (معروف).
(٢) سبق ذكره ج ١: ١٠٨.
(٣) الغيث المسجم ٢: ٢١٩ والمختار من شعر ابن دانيال: ١٠٠.
(٤) لم أجده في ديوانه.
(٥) الأذكياء: ١٩٥ تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي ط بيروت سنة ١٤٠٥.
(٦) انفرد المؤلف بذكره.

مزجت بها المدام، وقد انتصب ساقيها على قدمه واستقام، لمّا قطب في وجهها شاربها عند دورانها في المقام.

له أقلامٌ هي في الطروس غصون في روض وسيم، كم رعى في نباتها المخضّر المخضل إنسان عينٍ وسيم، وكم غَرَّد على تلك الغصون من فصاحته حمائم قد هزّها من أنامله نَسيم، فقد ظلم نفثاته الغرر، من أقاسها باليواقيت والدّرر، أديب إذا رصف كلامه، بدّد من عقد الغواني نظامه، فهو ممّن نظم درّ البيان وسلك، وممّن مشى في طريق الشعر وسلك، إلا أنّ نظمه أقلُّ من هِبَات البخلاء، على أنه جميعه مختارٌ فما قيل فيه عدا وخلا، وأكثره في المجون والدّعاب، والدّر بمخالطة المرجان لا يعاب، ولم يحضرني الآن ممّا قال سوى قوله كما نقله النقّال، وحملت خفيفه إليّ العيس ولم تحمل الأثقال:

أنعم بوصل ولا تبخل به أبداً	يا بدر حسن على أرض الجمال بدا
رؤياك يصقل ما في الطرف من كمهٍ	فأي طرف رآك الآن قد رمدا
بالبيض والسمر تحمي في الكناس فلا	تنال إلا بِهَوْل يجلب الكمدا
(فالحبّ حيث العدا والأسد رايضة)	أرى عدواً عليه أو أرى أسداً

قوله: رؤياك يصقل البيت، قد وضع الرؤيا فيه مقام الرؤية، وهو من وضع بعض المصادر في موضع بعضٍ. والصَّواب: رؤيتك، لأن الرؤية مصدر رأىَ في اليقظة، وهو المراد، والرؤيا مصدر رأى في المنام. قال الله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾[1]. وقال سبحانه ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾[2]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾[3]، وقد وهم مثل هذا كثير من الفحول.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٠.

قال الصّفدي رحمه الله تعالى: وهذا الغلط قد وقع فيه كثيرٌ من الفضلاء، انتهى كلامه[1].

أقول: منهم أبو الطيب المتنبي في قوله يخاطب بدر بن عمار، وقد سامره إلى آخر الليل[2]:

مضى الليل والفضل الذي لك لا يمضي ورؤياك أحلى في العيون من الغمض

وقد أنكر ابن مالك والحريري وغيرهما، كما أفاده البدر الزركشي ورود الرؤيا للعينِ المبصرة، وغَلّطوا المتنبي في هذا البيت، وممّن استعمل الرؤيا مكان الرؤية خطأ أبو الفوارس سعد بن محمد الصيفي، حيث قال[3]:

علمي بسابقه المقدور ألزمني صَمْتي وصَبْري فلم أحرص ولم أسلِ
لو نيل بالقول مطلوب لما حرم الر ؤيا الكليم وكان الحظ للجبل

وكمال الدين ابن النّبيه رحمه الله تعالى، حيث قال في تائيّته التي مدح بها الملك الأشرف موسى شاه أرمن، وهي من غرر شعره[4]:

عكا وصور إلى رؤياك عاطشةٌ فانهض فقد أسكنت منهنّ جولات

ولا يقال: إنه أراد أنّها إلى رؤياه عاطشةٌ، يعني في المنام بطريقة المجاز، فإنّه إنما أراد التجوّز في اليقظة بدليل قوله: فانهض.

وأمّا قاضي القضاة صدر الدين علي ابن الآدمي الحنفي رحمه الله تعالى، فإنّه أخطأ في المصراع الأول، وأصاب في الثاني حيث قال:

طال اشتياقي إلى رؤياك يا ولدي يا من فتنت به من قبل رؤيته

هذا حيث قصد إلى رؤياك الرؤية في اليقظة، وإن كان قصده الرؤيا في المنام، كما هو محتمل له فلا حرج، لأنه ما خرج عن منهج الإصابة. ولم يأتِ

---

(١) الغيث المسجم ٢: ١٢٢.

(٢) ديوان المتنبي ٢: ٣٢٧.

(٣) هو المعروف بالحيص بيص، ديوانه ٢: ٣٤٢ ط بغداد.

(٤) ديوان ابن النبيه: ٣٦٢.

إلاّ ما بلغ من الإجادة نصابه، ويكون المعنى أنّه طال اشتياقي إلى رؤياك في المنام فضلاً عن اليقظة، فهي بالأولى والأحرى، فمنّ بالطيف الزائر أيّها الولد الذي فتنت به من قبل رؤيته، أي: قبل وجوده وخروجه من بطن أمه حتى يرأ بالعين الجارحة المبصرة، والبيت بهذا المعنى كما تراه ليس فيه مطعنٌ، ولكنه بالقطع لم يرد بالرؤى غير الرؤية بدليل قوله في آخر البيت: من قبل رؤيته، فالمعنى: أني مشتاق إلى رؤيتك، الآن، وكيف لا أشتاق إليها، ولا يحصل لي الولوع بك بعدها وبعد وجودك، وأنا فتنت بها بِك قبلها، أي قبل الولوع بك بعدها وبعد وجودك.

وممّن استعمل الرؤيا مكان الرؤية فأخطأ، العلامة شهاب الدين الخفاجي رحمه الله تعالى لمّا قال من النثر في ديباجة كتاب الرّيحانة ما لفظه[١]: ممّن رَكِبْت لرؤياه مطايا عمري، أو نابت عنّي في مشاهدته [عين][٢] أهل عصري، انتهى.

وقال: هو أيضاً عند وصفة الشمعة يمدح القاضي أحمد بن الجيعان ما لفظه[٣]: وأظنّ الشموع ما ذرت دموعها. وأطالت ولهها وولوعها، إلا لأنّها علمت فراقها رؤياه، وبُعْدها عن وجهٍ تستمد من سناه. انتهى.

وممّن استعمل الرؤيا مكان الرؤية أيضاً فأخطأ، الأديب حسين بن أحمد، الجزري الحلبي[٤] لمّا قال عند وصف الزهر يخاطب الممدوح ما لفظه[٥]:

تأسوا برؤياك ما أساء بنا   لا يُصلح القرح غير مرهمهِ

والسيد الفاضل ضياء الدين إسماعيل بن إبراهيم الجحافي الآتي ذكره، من أفاضل العصر، حيث قال في بعض قصائده:

فمتى أشتفي برؤياك مولاي   وسهمي إن نِلْت ذاك المعلاّ

وقوله: أعني صاحب الترجمة، فالحبّ حيث العدى، البيت صدره مضمّن،

---

(١) ريحانة الألباء ١: ١١.

(٢) ساقط من مطبوعة الريحانة.

(٣) ريحانة الألباء ٢: ١٩٠.

(٤) سبق في ج ١: ٦٢٤.

(٥) ريحانة الألباء ١: ١١٧.

وهو من لاميّة العجم المشهورة نظم مؤيّد الدين الطغرائي رحمه الله تعالى. وأصل البيت هكذا:

فالحبّ حيث العدا والأسد رابضةٌ حول الكناس لها غاب من الأسلِ

قال الفاضل القاضي صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى في كتابه (غيث الأدب الذي انسجم في شرح لامية العجم) عند شرح هذا البيت ما لفظه[1]: ولو كان لي في البيت حكم لقلت: فالحبّ حيث العدى كالأسد رابضةٌ وأبدلت الواو كافاً، والرماح ما تختص إلا بالأناسي لا بالأسود. وأيضاً: فالأسود ما من شأنها الألف للناس حتى تكون حولهم. فإن قلت: أراد بالأسود العِدَى، وذلك أنهم في البأس كالأسد، فأطلق ذلك عليهم مجازاً.

قلت: لا يتأتى ذلك، وهو قد عطف الأسد على العدى، فالعطف يدلّ على المغايرة فإذن الأسد غير العدى، وأيضاً هو قطع الكلام عن العدى وما ذكر لهم متعلّقاً، ووصف المحبوب؛ بأن الأعادي محيطون به، وحولهم الأسد. وهذه مبالغة في المنع من الوصول إلى المحبوب؛ لأن الإنسان أبلغ في الاحتراس من الأسد؛ لأنه ذو عقل وفكر وفهم، وليس للأسد غير البطش، انتهى كلام الصّفدي رحمه الله تعالى.

وأنا أقول: عفا الله تعالى عنك أيها الأديب الصّفدي، هذا الواو الذي قلت: لو كان لك في البيت حكم لأبدلته كافاً، هو عند الأفاضل أحسن من واو الصدغ المعقرب، وما ذاك إلا أنّ البيت به يزداد جمالاً؛ لأنّ المعنى مع الواو أنّ المحبوب نازل من الحيّ حيث العدى، وهم الرقباء والحراس من العواذل والوشاة، فهم أعداء حقيقة، وحيث الأسد رابضة، وليس بالأسد الأسود حقيقة، وإنّما المراد المجاز كما قال الشاعر من الشّواهد النحوية[2]:

(١) الغيث المسجم: ١: ٣٨١.

(٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة (شرح شواهد المغني: ١٢٢).

إذا اَسْوَدَّ جنح الليل فلتأت ولتكن خطاك خفافاً إنّ حراسنا أسد

فالمقصود بهذا اللفظ من الطغرائي مجازاً هم أهل المحبوب وأقاربه، ومن له به تعلُّق رحامة ممّن تأخذه الغيرة والأنفة والحمية عليه، فيحفظونه ويبالغون في حجابه ومنعه عن الغير حتى لا يتصل به غيرهم كما دلّ عليه قوله في هذا البيت، (لها غاب من الأسل) أي من الرّماح؛ لأن الأسود الحقيقية ليس غابها من الرّماح، وإنما ذلك غاب من الأسود الرّجال استعارة، ودلّ عليه أيضاً قوله فيما مضى من أبيات اللامية، شعراً:

إني أريد طروق الحيّ من أضم وقد حماه رماة من بني ثُعَلِ
يحمون بالبيض والسّمر اللّدان به سود الغدائر حُمر الحلي والحلل

وقوله فيما سيأتي منها:

قد زاد طيب أحاديث الكرام بها ما بالكرائم من جُبْن ومن بخلِ

لأنّ المعنى أنّ الرجال من أهل المحبوبة كرام، وهي وسائر نساء الحيّ بخيلاتٍ، كما هو المحمود في النّساء، ولَيْس الكرام الذي ذكر غير أقارب الكرائم، معناه: إنهم كرام عند نزول الضيف عليهم. ولذا قال: إني أريد طروق الحيّ من أضمِ البيت، وأما عند من يربد القرب من الكرائم المذكورات، فهم أسود رابضة حول أكناس الظباء التي هي النّساء ولها غاب من الأسل.

ومنه أيضاً ما أورده الصفدي رحمه الله تعالى في شرح هذا البيت لأبي إسحق الغزّي[(١)]، وهو قوله[(٢)]:

غريرة تخطف الأبصار شاخصةً من حولها ببروق البيض والأسلِ

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى بن عثمان الغزي المتوفى سنة ٥٢٤هـ ابن خلكان ١: ٥٧ الوافي بالوفيات ٦: ٥١.

(٢) الغيث المسجم: ١: ٤١٣.

ومنه أيضاً: قول إمام الأدب الشيخ جمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصري رحمه الله تعالى[1]:

أحسن بها ظبية بالسفح تمنعها أسد كماة لها من سمرها أجم

أمّا نظر الفاضل الصّفدي رضي الله تعالى عنه إلى ما أورده لابن قلاقس رحمه الله تعالى في شرح هذا البيت الّذي صوّبه، وهو قوله[2]:

وابَلائي من مخدّرةٍ دونها سورٌ وجدران
وأسود خاف سطوتها كلما حازته أجفان
ورقيب لو يلاحظها لتثنّى وهو غَيْران

فإنه عطف الرقيب على الأسود، فالأسود استعارة لأقارب المخدّرة المذكورة قطعاً، ومع هذا العطف بالواو في بيت الطغرّائي يشعر كلامه بالمبالغة في المنع من الوصول إلى المحبوب؛ لأنه اجتمع على المحبّ في منعه عن الوصول إليه خصمان عظيمان، وهم: العِدى من الرقباء والأسد من أقارب المحبوب، فكان الوصول إلى هذا الحيّ في حكم المحال إذ صار أعزّ من بيض الأنوق، فلم يقصد الطغرّائي بالأسد إلاّ المجاز لا الحقيقة، فلا وجه لقول الصفدي رحمه الله تعالى أنّ الإنسان أبلغ من الاحتراس من الأسد؛ لأنه ذو عقلٍ وفكرٍ وفهمٍ، وليس للأسد غير البطش.

ولو كان البيت على ما صوّبه الصفدي رضي الله عنه، وهو قوله: (فالحب حيث العدى كالأسد رابضةً) لكان فيه وجهان من الركة، الأول أنه لم يكن ثَمَّ مبالغة في المنع من الوصول إلى المحبوب من طريقين، وهي حراسة العدى وحراسة الأسد الرابضة، حول الكناس، كما هو اللائق، وإنما هو من طريق واحدة فقط، وهي حراسة العدى. وفي هذا ما فيه.

والثاني: استعمال كاف التشبيه يدل على أنّ فعل العدى يقصر عن فعل

(١) ديوان ابن نباتة: ٤٣٩.

(٢) ديوان ابن قلاقس: ٥٤٧ ط الكويت..

الأسد؛ لأن المشبّه دون المشبّه به، واللائق بهذا الحيّ تعظيم الأخطار حوله، وتهويل أمره الّذي لا يجانس الأهوال هوله، كما هو طريقة المحبّين ممّا يصفونه من تمنع أحِبَّائهم. ولذا أنّ ابن قلاقس عظّم أمر المنع عن المخدّرة التي ذكرها في نظمه السابق، فإن منعها وقع من أمور خمسة إذ صار دونها الخدر بكسر الخاء المعجمة، والسور بضم السين المهملة، والجدران بضم الميم[1] جمع جدار، والأسود من الأقارب، والرّقيب.

هذه خمسة موانع اجتمعت عليه، وقد نقول: بل أكثر من خمسة؛ لأنه قال: وجدران وأسود بلفظ الجمع، وقد يكون الجمع ثلاثة، كما هو أقله فما فوق. وذكر أنه لا سبيل إليها، بل لا سبيل إلى رؤيتها من بعيد؛ فإنه قال: ورقيب لو يلاحظها، معناه: ولكنه لم يلاحظها أصلاً، ولم يرها مع أنّ الرقيب أشدّ لصوقاً بخدرها للتحسس[2].

نعم انظر إلى قول أبي العلاء أحمد بن سليمان المعرّي[3]:

أيـا دارهـا بـالـخَـيْـف إنّ مـزارهـا قـريـب ولـكـن دون ذلـك أهـوال

لم يقل دون ذلك هول بصيغة الإفراد، فاعرف هذا أيّها اللبيب، وإيّاك والإصغاء لما صوّبه ذلك الأديب، من أنه لو كان له حكم في بيت الطغرائي، لقال: فالحب حيث العدى كالأسد بإبدال الواو كافاً؛ فإنه طمح به الانتقاد، وجمح به ذهنه الوقاد، وقد علم الصواب رب العباد.

السيد علي بن المهدي النوعة[4]

من ذي السفال ماجدٌ أبان من الفخار جِنْسه ونوعه، وعظيم بِقَلْبِ المعالي إليه أيّ غرام ولوعة، يقظ العزائم، وافر المكارم، غَيْث ربيع، باكر الروض المريع، فأصبح يزهو في حلل الأوراق وحلى الزهر، وينظم لآلئ القطر على أجياد

(١) كذا لعل صوابه الجيم.
(٢) في (ش) للتجسيس.
(٣) سقط الزند: ٢٢٩.
(٤) توفي سنة ١٠٧٢هـ (مصادر الفكر العربي: ١٤٣٨).

غصونه، فتخطر على صَرْح ممرّد من قوارير النهر، في رتبة لو جلاها لابن جلا، لوضع عمامته على الأرض تواضعاً له وخجلاً، ومجد تطأطأت له الرقاب، ومحيّا ما الشمس وقد أماطت من الليل عن وجهها أسود النقاب.

وله من علم التاريخ تضلّع، وإلى كتبه المزبورة تطلّع، حتى ألف فيه كتاباً لم يحضرني؛ الآن اسمه[1] وجمع فيه سفراً خرج عن حدّ المدح رسمه، فما الواصف لوصفه بمدرك، ولا المنصف لغيره في حسنه بمُشْرِك، ولي صنعاء فزها به قصرها، وسكن سفحها فتاه به مِضْرها، واخضرّت كروم روضتها فحسن عَصْرها[2]؛ لأنه عدل وما جار، وقطف فواكه علم تحت ظلال أشجار، فنال من العلم شرفه، وامتنع من النقائص للعدل والمعرفة، مع ثروة ووفر، نشأ فيهما وهو غلام جفر، فهو من العيش في رخاخ[3]، قد أناخ ركائبه منه في أعشب مناخ، برد ظلاً ورحب مربعاً، وعذب ماء وطاب مرتعاً، وكنت أرجو أن أراه. وأطرقه ضيفاً، فيوسع لي من الأدب قِراه، فما أسعد الزمان ولا فعل، وذهب الرّجاء بين ليت ولعل، حتى طرقني نعيه، طاب في الجنانَ رعيه، وله شعر منظوم، ووشي قريض مرقوم.

من أبياته التي ترد بأطيب فال، ونظمه الذي علا في ذي السّفال[4]. قوله في مليحٍ بيطار، لم يقض له من وعده أو طار:

هامَ قلبي بحبِّ بيطار خيل   قد برا سهم مقلتيه وراشه
كلّما رُمْت من هواه خلاصاً   جرّ من قوس حاجبيه كواشه[5]

وقوله من الجناس:

لا يحسن العبد الصنيع[6]   ولو فرشت له نمارق

---

(١) هو المسمى بكتاب الإقبال في التاريخ منه الجزء الثاني بمكتبة مجد الدين المؤيدي بهجرة سويدان انظر مصادر التراث بالمكتبات الخاصة باليمن ج ٢: ٢٥١.

(٢) تورية بعصر ضاحية من صنعاء.

(٣) رخاء العيش.

(٤) بلد من اليمن سبق ذكره.

(٥) الكواش هو ما يعرف عندهم بحذوة الحصان.

(٦) في (ب) الضيع..

فدع العبيد ومَلْكَها فلقد بلوت فما نما رق

وقوله في كتاب (المناهل الصافية)[1] للشيخ العلامة الإمام لطف الله بن محمد الغياث اليمني الظفيري رضي الله عنه:

من يخبر ابن غياث عنّي بما صَحّ عندي
إن المناهل لمّا وردنها جار بردي

قلت: ليس صاحب التَّرجمة بحاكم منصوب حتى يكون حكمه في قوله: صح عندي يَقْطع الخلاف، فأنا مخالفٌ له فيما اعتقده، وصح عنده من كون (المناهل) المذكورة مغترفه من بحر (الجار بردي)[2] العذب الفرات، فإن الشيخ لطف الله وفر الله أمره حَقَّق في كتابه المذكور تحقيقاً وافياً، ودقق مسائل علم الصرف تدقيقاً شافياً، فإن اغترف غرفةً بيده من ذلك البحر، فليست تلك الغرفة محيطةٌ بما تدفق من ماء تلك (المناهل الصافية)، وإنما الأديب إذ غاص ذهنه اللطيف لمعنى بديعي أبرزه في قالبه الحسن، وسواء كان معناه على حقيقة لفظه أم لا. وهذا السيّد الجليل لاحت له اللطيفة، فبادرها مبادرة المنهوم، ونظمها في أبهج زينة من رَصْف هذا العقد المنظوم، غير ناظر إلى كون ما ذكره في نظمه، وحكم به ليس على حقيقته، عفا الله تعالى عنه وسامحه.

أخوه السيد محمد بن المهدي النَّوعة[3]

لما ارتحلت إلى الغراس، وبالغت في معرفة رؤوس القوم ولم ألغ رأس، رأيته به نازلا، ولخرائد الرياسة مغازلا، تحت لواء بعض الملوك، الذين ما لشمس مجدهم من دلوك، فرأيت سيداً طويل باع، شرى المعالي بنقد أيّامه وغيره باع. قد لبس من الشرف مِغْفَرة، وركب من العلا فرساً ذا فره[4]، وقد خلط المسك

(١) سبق ذكره في ١: ٣٢.

(٢) تورية بأحد شراح كافية ابن الحاجب وهو الجار بردي (سبق ذكره في ١: ٢٤٧).

(٣) انفرد بذكره.

(٤) فره: نشط.

بالكافور في عارضه، وشيب الجميم[١] من شعره ببارضة، فلحيته شمطاء وكلماته مع ذلك تنظم سمطاً، فله من القريض، ألحان يضيع عندها مَعْبد والغريض[٢]، فمن نَظْمه الذي هو بحراً لاثماد[٣]. قوله مقرّظاً لنظم من يلقّب بالعماد:

أَبَرْق شرى في الرَّقمتين مع الفَجْر   أم ابتسمت مَغسولة الثغر عن در
أعين مهاة أذهلتني وإنّما   (عيون المهى بين الرصافة والجسرِ)
أم الخمر لا والله ما قد عَرَفْتها   أهل هكذا تَسْري المدامة بالسّكرِ
أَنَسْمة صبح عن شذا الروض باكرت   فأذكرت الولهان ماضٍ من العمر
أم السحر أم نظم العماد وشعره   فذاك هو القِسْم الحلال من السحرِ

أقول: قوله: فاذكرت الولهان ماضٍ من العمر، كان قياسه في الإعراب أن يقول: ماضياً لأن ما كان آخره ياء خفيفة قبلها كسرة كما هنا مثل قاضٍ لا يكون إعرابه تقديراً للاستثقال إلاّ في حالة الرفع والجرّ فقط، وأما في حالة النصب، فلا بد يقال فيه: ماضياً وقاضياً؛ لأن النَّصب خفيف، ولكنه قد ورد كثيراً في بعض اللغات أعني تقدير الإعراب في حالة النَّصب وحذف الياء كما تحذف في حالتي الرفع والجرّ، وربما تستعمل في النظم فقط، لأجل صلاح الوزن لا في النثر، وعليه قول الشاعر:

فلو أنّ واشٍ باليمامة داره   وكنت بأقصى حضرموت اهتدى ليا

إذ الأصل فيه: ولو أنّ واشياً، لأنه منصوب على اسمية أنّ المفتوحة المشدّدة، كما ترى، ومنه قول الإمام جلال الدين السيوطي رضي الله تعالى عنه في بديعيته المشهورة[٤]:

من جاءهم مُرْتجٍ من عزّهم شرفاً   يُوْلونه كَرَمًا يزهو بوصلهم

---

(١) جمع جمّه: مجتمع الشعر.
(٢) معبد والغريض سبق ذكرهما وهما من أعلام الغناء في ذلك الوقت.
(٣) ثماد وثمد: الماء القليل.
(٤) شرحها في كتابه شرح البديعية المسماة بنظم البديع طبعت بمصر سنة ١٢٩٨هـ.

الفقيه الحسن بن عبد الله شاوش[1]

من تعز كنت أسمع بهذا الأديب، فاهتزّ إلى لقائه اهتزاز القَضِيب، ولَمَّا وفدت إلى حصن (المنصورة) تبلّجت لي خرائد أدبه، وظفرت بِخمرة من شمائله مَعْصورة، ولكنّه رحل عن سفحها، ولمّا أتمتّع من نوافج أدبه بِنَفْحها، فما سَلَّمت أنا حتى وَدَّع هو، وقد كان ذلك الحصن به يزهو، ثم لمّا نزلت بَنْدر المخا، سمح الزّمان بملاقاته وسخا، وجلا عن شفّ التلاقي ومادَرَنَ وسخا، فاجتمعت به في وطنه، وسمعت طَيْره يغرّد على فَنَنِه، وذلك بمدينة تعز القاهرة. وديار المحاسن الباهية الباهرة، فاشتفيت بمجالسته، وعاملني بغاية مؤانسته، فكان لا يبرح عن مقامي بكرةً وعشياً، ولا يزال يتبوأ منه مكاناً قصيّا، يدير عليه من أدبه القراح، ما لا يلتفت عنده إلى معاطاة الرَّاح، يحاورني بأسنى الحوار، فأهيم بمراجعته ما لا أهيم بذات الشَّنَف والسِّوار، مرّت لنا أوقات سنيّة، لم يتفطَّن الزمن لقطف فاكهتها الجنيّة، شَكَرَ الله تعالى سعي المطايا، وأجزل لها من إخصاب مراعيها العطايا، لمّا أنزلتني بدار، كان يصابحني فيها بالمؤانسة عن بدار، وقد وجدته قِبْلة أدب، تنسلّ إليه اللطائف من كلّ حَدَب، راحته بأذيال المحاسن أمسكت، وفصاحَتَه تحقَّقت بين أرباب البيان سواء نطق أم سكت، ما تحرّكت لسان قلمه، إلاّ تلت الآيات البيّنات من كَلِمِهْ، حاك برد الفصاحة وَوَشّاه، ونسج رداءه الرقيق وحَشَّاه، منظومة الحكميّ والحمينيّ للأدباء شُمَّامات، فإذا تضوعا لعليل النسيم الحسود وشُمَّا مات. وقد أملاني من أشعاره ما رخص لديها الدرّ في أسعاره، سيما المَوَشَّح الحميني، الذي تقول الحدائق: لقد جئت عنده بِمَيْني، لمّا ادّعيت نضارته، وباريت غَضَارته، إلا أنّي لم أحرص على نَقْله، ولم أُطْلع في رياض الدفاتر غَضيض بَقْله.

قال في الاستخدام الدائرة كؤوسه بالمدام:

يـــا عـــاذلـــي كـــفّ الـــمـــلامـــة   لا تـــلـــم أبـــداً مـــشـــوقـــا
ذكـــر الـــلـــوى فـــقَـــلْـــبـــه   بـــالـــشّـــوق يـــحـــكـــيـــه خـــفـــوقـــا

---

(١) نشر العرف ج ١: ٤٨.

ومثله قولي في بعض القصائد مستخدماً:

ويخفق قلبي كاللوا متذكراً — لدهر به قد كان بالوَصْل مُخضَلاَّ

وقولي في مستهل بعض القصائد التي مدحت بها الإمام مولانا الوالد:

نَسْمة منها عَرَفْنا نفساً — قد أهاجت في فؤادي قَبَسا
فَتَمسّك بشذا أنفاسها — فعسى يشفى بها الوجد عسى
تَرَكَتْ قلبي اضطراباً كاللوا — إذ حكت لي منه ربعاً درسا

وقولي لأن اللّوى المقصور هو المحل، والممدود هو العلم، ففي المقصور تورية:

لي بالنوى قلب تذكر مربعاً — أضحى السبيل إليه كالمسدود
ذِكْر اللّوى مقصور عنه فأشبهت — خفقاته خفق اللوا الممدود

وقال صاحب الترجمة في تشبيه الفل الزَّبيدي وهو أسود[1] اللون:

انظر إلى الروض وزهر الرّبى — أحسن ما يعجب قلباً وعَيْن
كالحلّة الخضراء قد طرّزت — والفُلُّ أزرار لها من لُجَيْن

وقال رحمه الله تعالى في مليح أسود:

تَمَلَّكني رشا من آل حام — بخدّ الخدّ مسكه خال لونهِ
ترى لو كان بَدْر التمّ عيناً — لكان سواده إنسان عينهِ

وقال:

دمُ الطَّرفين من دَمْعي مراق — يسيل بسرعة لمزيد وَجْدي
أقول لسائل في النّاس هنذا — دم الأخوين يجري فوق خدّي

أراد بالأخوين هذا: الطَّرفين المتقدم ذكرهما في قوله: دم الطرفين. وفيه التورية بدم الأخوين، وهو العندم كما في ديوان الأدب للفارابي[2].

---

(١) كذا في الأصل ولعله سبق قلم من المؤلف لأن الفل وهو الياسمين يكون غالباً أبيض ولما يبين من المقطوعة الآتية.
(٢) ديوان الأدب ج ٢: ٣٠.

وفي القاموس: هو العندم أو البقم[١].

قال الشيخ تقي الدين أبو بكر ابن حجّة الحموي رضي الله تعالى عنه في شرح البديعيّة[٢] في سياق ذكر التوجيه ما لفظه: ومن التواجيه الغريبة اللفظية قول الشيخ زين الدين ابن الوردي. وقد كتب إلى بعض مخاديمه بسبب القضاء وأظنه شيخ الإسلام قاضي القضاة شرف الدين[٣] ابن البارزي[٤]:

جَنَّبتني وأخي تكاليف القضا فكفيتنا مَرَضين مختلفين
يا حيّ عالم دهرنا أحييتنا فلك التَّصرف في دم الأخوين

انتهى كلام ابن حجّة رحمه الله تعالى.

قلت: كأنّ هذا المخدوم عزل القاضي زين الدين وأخاه عن القضاء أو سعى في عزلهما، وأظنّ أنّ القاضي زين الدين أشار بقوله: أحَيَيْتنا إلى أنه سَلَّمهما من ذبح أنفسهما كما جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم في من تولي القضاء؛ (أنه قد ذبح نفسه بغير سكّين) فحسن مع الإشارة إلى الذبح ذكر الدَّم هنا، كما لا يخفى، إلا أنه لا معنى لقوله: مرضين مختلفين؛ لأن الذبح ليس بمرض بل هو هلاك؛ ولأن هلاكيهما لم يختلفان بل هما متفقان وهما: ذبحاهما بغير سكين، فكان الأولى لو أنه قال: فكفيتنا عَطَبين متفقين؛ لأن العطب بفتح العين المهملة، والطاء هو الهلاك، واللطيف هنا ما جاء لخليلنا الشيخ صارم الدين إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى في خطاب مليح هام به رجل اسمه صلاح الدين وكذا أخوه أيضاً، فقال مضمناً:

انظر لجَرْح حشاشتي في مرهم فدواي عندك يا أخا القَمَرين

---

(١) القاموس ٤: ١٥٦.

(٢) خزانة الأدب لابن حجة ٢: ٣٧١ ط كوكب دياب.

(٣) هو أبو القاسم هبة الله بن عبد الرحيم البارزي المتوفى سنة ٧٣٨هـ (البداية والنهاية ١٤: ١٨٢).

(٤) ديوان ابن الوردي: ٣١٩.

هـذا صـلاح هـام فـيـك وصـنـوه   فـلـك الـتَّـصـرف فـي دم الأخـويـن

وقد خمّس صاحب الترجمة قصيدة العلاّمة بهاء الدين العاملي، تخميساً تقصر بالرقم في وصف حسنه أناملي، وهي القصيدة التي مطلعها قوله:

يـا نـديـمـي بـمـهـجـتـي أفـديـك   قـم وهـاتـي الـكـؤوس مـن هـاتـيـك[1]

فسلك ذلك المسلك اللطيف، وجاء بكل معنى يهزّ عِطْف الظريف، حتى سمعت الأمير الحسين بن عبد القادر رعا الله من عهده سالفاً، وحلّى لأيام الدهر من أدبه سالفاً، يقول: والله لقد أجاد، وأتى لذلك الصارم بأبدع نجاد، فلو أني خمستها أنا أو أحد المجيدين الذين امتلأ ببدائعهم للأدب إناء، لمّا زدت ولما زاد، على ما جاء به هذا اللبيب، الذي له من الفصاحة ماء وزاد.

القاضي علي بن محمد سلامة الآنسي[2]

نحويٌّ جَمَع الفضائل جمع تكثير وسلامه، وفقهيّ أفاض عليه الكمال تحيّته وسلامه، ماهرٌ خبيرٌ، وَبُرْد على معاطف الأيّام حَبِيْر، ملأ الفضاء بالفضائل، وأظهر كلامه قصور الفصحاء فالويل لسحبان وائل، بحرٌ لا يمتطى ثَبَجه، وروض لا يبرح أرجه، سبق القضاة بالوخد والإرقال[3]، فهَجَرت مجالسهم لما فاقهم فرماهم بالنقص والاستثقال، قُلّد صارم القضاء، فهو في رِقَاب العصاة قد مضى، أحسن الله تعالى في الفضل إلهامه، فقد شَقّ من الباطل بماضيه الهامة، نَصَر الحقّ من يراعاته بالذوابل، وسَدّد إلى نحور المشاققين سَهْماً لم تشتمل عليه المعابل[4]، ارتدى بالعفاف، وَرَضِيَ بالكفاف وقال في ظل الصَّفح، وصبر من نار الاحتمال على اللَّفح، واستنشق من نَسِيْمه ما يطيب منه النَّفح، متجانفٌ عن سلوك الملاعن،

(١) في (ش) قم وملِ الكوس من هاتيك.

(٢) ملحق البدر الطالع: ١٨٩ مصادر الفكر العربي: ١٦٤.

(٣) الوخد الإرقال للبعير إلا بسراع في السير.

(٤) جمع معبله: النصل العريض في طرف السهام.

ذو أخلاق كزَهْر الرّبيع، باكرها الحياء الغاصب المربع، يطيب طيب منادمة الحِبْ، في روض بها البلابل تَنْتحب. وقد نَفَض من خده الأنيق، صبغ حمرته إلى وجنات الورد وخدود الشقيق، بعدما خلعت الصّبا خضر الحلل، عن مناكب الأشجار ذات النَّداوة والبلل، ولم يَزَل مفيداً فاصلاً، وفي رقاب الملحدين حساماً قاصلاً، إلى أن حصد الموت زَرْعه، وجفّف من الحياة ضرعه، عوّضه الله تعالى عن نَصَب الدنيا راحة، وأدارت عليه الحُور العين من شراب الجنان راحة.

وله من النظم مختاره، تحرّك أعطاف الأقلام أوتاره، فمن زهراته اليانعة، وحصون أبياته المانعة، وذلك في وسيم جميل، له غصن قدٍّ من النعمة يميل، أورق بالرياط[1] وأزهر بالأقراط، جَمْر خدّه في غاية التلظي، ودرّ ثغره مأمون التشظّي، نظره بعين العفّة، وكفّ عن اقتطاف ورد خدّه كفّه، غرّد بذكر محاسنه مفصح طيره، وذلك قوله وقد نسبه بعضهم لغيره:

أميل إلى الشكل المليح إذا بدا | أنزّه طرفي فيه ثم أردد
وما مقصدي فعل القَبِيْح وإنّما | أشاهد صنع الله ثمّ أوحّد

وقوله في بعض المراثي:

بكيت عليه من دموع تقلّدت | بها كا اللآلي كل غانية رود
تحَجّب عنا لا لذنب بحفرةٍ | فلما يُجِبْ جهر النّداء وقد نودي
فيا سفن الآمال في البحر فاغرقي | ولا تستوي ها قد هوى جبل الجودي
متى خفّ رضوى فهو في النّعش سائر | لمَلْحده فَوْق الرّقاب على عود
فيا لَيْت شِعْري هل أقول وقد مضى | لأيّامه الغرّاء في دهرنا عودي

قوله: كل غانيةٍ رود، الرّود بضم الراءا المشددة المضمومة، وسكون الواو بعدها دالٌ مهملة، ومثله الرّأد بالهمز، هي الشّابة الحسنة.

وقد ذكرت هنا ما جاء لي في التورية لمّا وصلت إلى تحت جبل مسور

---

(١) جمع ريطه: ثوب رقيق سبق شرحه.

المنتاب ببلاد كوكبان المحميّة وبه إذ ذاك نهر عظيم مشهورٌ يسمى الرودي بزيادة الياء، فقلت:

أهيم بماء في ربى مِسْور جرى ... وأَصْبوا إلى بِيْض بأعينها السُّود
فها أنا في الحالين صبٌ متيّم ... من النَّهر أو من غادة فيه بالرودِ

وقوله: متى خفّ رضوى بالراء المفتوحة والضاد المعجمة الساكنة بزنة كِسْرى، هو اسم جبل بالمدينة. ومعنى هذا البيت قد سبق إليه المتنبي لمّا قال:

ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى ... رضوى على أيدي الرجال يسير

وهذا البيت معدودٌ من محاسن أبي الطيب المتنبي. ولذا أنه قال للحاتمي في قصّته المشهورة معه، وقد أملاه أبياتاً من محاسنه من جملتها هذا البيت: أما يكفيك بإحساني في هذه الأبيات عن إساءتي في تلك، يعني أبياتاً كان أملاها عليه الحاتمي وعدّها من مساوئه، فقال الحاتمي: ما أعرف لك إحساناً، فإن قولك: ما كنت البيت، مأخوذٌ من قول ابن المعتز[(١)]:

قد ذهب النَّاس ومات الكمال ... وصاح صرف الدهر أين الرجال؟
هذا أبو العباس في نَعْشه ... قوموا انظروا كيف تسير الجبال

فقال أحدٌ من حضر ما أحسن قوله: قوموا انظروا كيف تسير الجبال، فقال المتنبي: اسكت ما فيه حسنٌ إنما أخذه من قول النابغة الذّبياني[(٢)]:

يقولون حصنٌ ثم تأبى نفوسهم ... فكيف بحصن والجبال جنوح

قال الحاتمي فقلت: إن أخذه فقد أحسن المأخذ وأخفاه، انتهى كلام الحاتمي رحمه الله تعالى.

وقلت: أنا في بعض مراثي مولانا الوالد قاضي القضاة جمال الإسلام محمّد بن الحسن بن أحمد الحيمي رضوان الله عليه ورحمته:

---

(١) ديوان ابن المعتز ٣: ٦٩ مع اختلاف يسير.

(٢) ديوان النابغة الذبياني: ١٩٠ ط دار المعارف.

ما كنت من قبل نعش منك معتقداً　　بأنّ رضوى على عنقٍ بمضطربِ

وقال صاحب الترجمة في مليح أحول:

أهواه أحول عين　　يحكي الغزال الغريرا

يرى لذاك عطائي　　له القليل كثيراً

إعلم أنّ الأدباء قد لهجوا بالنظم في المليح الأحول والرقيب الأحول أيضاً، وأتوا بمعان في ذلك ترنو إليها عين الإجادة المبصرة لا عن حول، كما أورد من ذلك نبذة طريقة الشيخ الفاضل صلاح الدين الصفدي رضي الله تعالى عنه في كتاب غيث الأدب الذي انسجم[1]، وغيره من ألباء السلف.

ولمولانا الوالد رحمه الله تعالى في المليح الأحول، نظم لطيف أوردناه في كتاب (رعى الأبّ)، وقد تقدم ذكره في ترجمته عليه السلام من هذا الكتاب، ولمّا نظمت أنا فيه عدة مقاطع، تشتمل على معان مختلفة عربية، ووقف عليها المولى الحسين بن عبد القادر رحمه الله تعالى نظم مقطوعاً فيه وأرسله إليّ وكتب معه من نظمه في خطابي.

قوله:

يا أبا العباس نظمكم　　ما رأت عيني له مثلاً

قد وصفتم أحولاً فغدت　　كل نفس تشتهي الحولا

قلت: لو قال: في المصراع الثاني من البيت الأول جنّة لا تختشي الحِوَلا بكسر الحاء المهملة، لكان أحسن لحصول الجناس بين الحِول بالكسر والحَول بالفتح. والحِول بالكسر هو التغيّر والانتقال، ومنه قوله تعالى: **﴿لا يبغون عنها حولا﴾**.[2]

(١) الغيث المسجم ١: ١٤٠.

(٢) سورة الكهف، ١٠٨ .

السيد علي بن أحمد الآنسي[1]

ذو فطنة عربية، ونفس عن المَدَانس أبيَّة، وهمّة شامخة المرقى، وغصون أقلام تَسْجع بها الورقا، اجتمعت به ببندر المَخا، فألفيته للمجد أباً وللفضل أخاً. وكان عن مجالستي لا يبرح، وفي رياض مساجلتي لا ينفك أبداً يسرح. يجلو عليَّ عرائس أفكاره، في مجالسٍ هي الجنَّة حقيقةً إلاّ أنّها لم تحفّ بالمكاره، فرأيته كاملاً، وإن كان حظّه خاملاً، إلا أنّ له سحابة لا تزال تمطر بدم الصَّحابة، فكم لاح لي من نفثاته الرّفض، وقد عامل ذوي الرّفع لا النَّصب بالخفض. قفا بذلك أباه لا أمه، قائلاً إنَّا وجدنا آباءنا على أمّة، فاعتقاده ينسب إلى أبي الجارود[2]، حتى ألجأ كل رود حَسْنَا إلى مقته، فهو الجا رود.

وكنت أراه كالنسيم عليلاً، وذيله من العرق لا النَّدى قد غدا بليلا، ولونه قد انتقع، والمنيّة تخاف عليه من أن يقع.

وله شعر قد زانت أثوابه جِدّه؛ لأنه ما لازم هزله فيه وإنّما لازم جَدّه. تفتقر الطروس إلى نظمه المرفوع على الرؤوس، افتقار الروض النضير، إلى زيارة الوابل الغزير.

أنشدني له: ويالله ما أنشد، وشدّ أزر الأدب بإملائي، فأغرب لمّا أن شد، وذلك قوله من قصيدة أضحت سوانحها وهي بشباك أسطري مصيده:

رَضَيْتك وهي كثيرة الخُطّاب ... ورأتك غاية مَطْلب الطلاّبِ
عَلَمْتِك أهلاً للوِصال فواصَلَتْ ... كَرْهاً من الرّقباء والحُجّابِ
فلطالما رام الرِّجال وصالها ... أو أن تمنّ لهم برَجْع جوابِ
وأراك عن إسعافها متمنّعاً ... ما أنت بالصَّابي ولا المتصابي
فامدد لها كفّ القبول فوَصْلها ... طوعاً لعَمْر أبيك أي عُجَابِ

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) أحد غلاة الرافضة.

عجباً لها أنّى أطاع عصيّها | وهي النّوار قليلة الآدابِ
ولطالما أردت بمرهف لحظها | رب العرين طرير حَدّ النابِ
يأبى الحصان البِكْر دون وصالها | ما شئت من حجب ومن أبوابِ
إلا عليّ فإنها مَنَّت بما | يحوى اللثام وما وراء نقابِ
ونقَعْتُ غُلّتي العليلة بالّذي | في ثَغْرها من عانق ورضابِ
وَضَمْمت ما زرّت عليه جيوبها | ضَمّ الفتى لحسامه القِرْضابِ
وظفرت بالوَصْل اللذيذ مذاقه | من غير ما مَنٍّ ولا إتعابِ
يا طِيْب ليلتي التي باتت بها | من فوق نمرقتي وفي أثوابي

أخوه السيد أحمد بن أحمد الآنسي[1]

رقيق الجلباب، وفي الأدب كثير الأسباب، طَرْسه جنة لها معانيه حور، وأشعاره غلمان مولّدون كلّ بمحاسنهم مَسْحور، وبلاغته في ليل المداد قناديل، وحُلَل فصاحته لا تحتاج جملتها إلى تفاصيل.

له غُصن يراعه، غرّدت عليه حمائم يَرَاعه، إذا ذكر الرّوض، هَزّ لِطَرِبه غصونه. وَفَتح من زنبقه ونَرْجسه آذانه وعيونه، وكان ذا وقاحة وصَلَف، قد لازماه كما لازم البَدْر الكلف، وخلاعه جاوزت الحدّ، وبذاءة لسان ما لسهمهما من رد، طالما مدح فَغَالاَ، وربّما ذمّ فما ترك لذامّ مقالاً، حتى ذمّ نفسه في شعره، وأرخص به ما غلا من سعره.

وقال: إنما بدأت بعرضي لأرضي به من الماقتين من أرضي، حتى لا يبقى لهم متسعٌ ولا مجال، ولا يَطْمع في ذمّي بعده أحد من الرجال، ولخوفه من بعض من هجا، وأوضح له في سبيل المذمّة منهجاً، رحل إلى البيت العتيق فنزله، وبقي هناك دهراً يحبّر مدحهُ وغزله، حتى عاد إلى اليمن، وقد جمع من شعره ديواناً غالي الثمن. وعوّل عليّ أن أنظر في إعرابه، وإصلاح ما جاء به في إغرابه، لأنه

---

(١) نسمة السحر ١: ٢٤٥ نفحة الريحانة ٣: ٥٩٦ سلافة العصر ٤٧٠ البدر الطالع ١: ٣٦ نشر العرف ١: ٧٤ وكتابنا الأدب اليمني: ٥٠٣ ـ ٥١٦.

عارٍ عن المعارف، وإن كان قد لبس من الأدب رقيق المطارف، فأصلحت منه المفاسد، وأنفقت من بضائعه الكاسد، وكان ذا بخل وإمساك.

يقول لنزيله: لقد خاب لديّ إصباحك وإمساك، يعد من ذوي التقتير، لما فَتَرَ عزمه في المعروف أبلغ تفتير، فلو لامس حاتماً لشحّ، ولو أمسك بذيل العارض المغدق لما رشح، إذا فارق ديناره، شبّ التلهف في جوانحه ناره، بل إذا فارق فلسه، فكأنما فارق ثاني الزّفاف عرسه، ولمّا غضب عليه بعض ملوك العصر، عامله بالتَّضْييق والشدة والعَصْر، نَوّع له المعاملة والنكال، وربط في بعض الاصطبلات بين ذوات الشُّكال.

وقد كان أقسم أن لا بد من حَزِّ رأسه، ومن تعطيل ما سبق في الميدان من أفراسه، وإذا هو قد أبرّ قسمه، وبغير السيف المشطّب قد قسمه، (ومن لم يمت بالسّيف مات بغيره) ومن لم يقع في الفخّ وقع في الشباك حذر طيره؛ لأنه آخر عمره حبس بجزيرة زيلع، وغربت شمسه خلف البحر ولم تطلع، فمات هناك مَسْجوناً، وعاد رطب نَخْله عرجوناً، وصار عقده مبدّداً بلا شَكّ. وقدم على ربه غريباً، فهو شهيد بلا شك.

وخلّف من المال شيئاً آل إلى أقبح مآل، أنّس الله تعالى غربته، ودمّث بالقَطْر الهامع من تربته، وشِعْره أنفس من شعر والده وأغلى، وأعذب من نفثاته في المذاق وأحلى، وأوضح في الألفاظ والمعاني منها وأجلى، كقوله من قصيدة أنشدنيها من لفظه لنفسه وأطلع لي منها نجوماً يتلألأ في ليل نقسهِ:

تبدّت بدوراً في ليالي الذوائب	ومالت بأعطاف الحسان الكواعبِ
جآذر غزلان رأينا لأجلها	مصارعنا ما بين طرف وحاجبِ
حواجب منها كالقسيّ وَبْعضها	تراه كمِشْق النّون من خط كاتبِ
هززن رماحاً واستَلَلْن صوارماً	فراغ الأسود الصَّيد روغ الثعالب
وبين ربوع الرَّقمتين ملاعب	على مِثْلها من أربعٍ وملاعب
لصون مواثيق الصَّبابة والهوى	تذال مصونات الدموع السَّواكبِ

بروحي ومالي من إذا مال قدّها أمالَتْ وقدّت كل قلب وقالبِ
بليت بواشٍ في هواها وكاشح وماشٍ إليها بالنَّميمة كاذبِ
وقومٍ لديهم في الخلاف مذاهب تخالف في باب الوفاق مذاهبي
وصاحبت دهراً عَلَّم الغَدْر أهله بصاحبهم والدَّهر أخبث صاحبِ
أخا اللوم دَعْني من ملالك في الهوى فلَيْس نسيب الحبّ لِيْ بمناسبِ
وما شَغَفِي بالهِيْف أضحى وإنّما بمطرّد الأكعاب عن كلّ كاعبِ
وأبيض مشطوب الغرار وأدهم أجول به ما بين خضر الكتائبِ

وقوله من أخرى أنشدنيها أيضاً:

سلام كنشر المسك يعبق ريّاه على مَعْهد بالرقمتين عهدناهُ
ودَهْر تقَضَّى كان في الحب مُسْعدي على قُرب من يهوى إليّ وأهواهُ
وغُصن شبابي فيه رَيَّان مورقٌ يميس إذا طَيْر الصبابة غنّاهُ
وإنسان لَهْوى هائم القَلْب مغرم إذا ما دعي داعي الغواية لبّاهُ
تنادمه الأتراب هِنْد وزَيْنب وما غير ترشاف الرّضاب حُمَيَّاهُ
وربّ غضيض الطَّرف يدهق جامه فيُسْكرني منه المدام وعيناهُ
يغنّيك أنغام المثاني بكفِّه ويغنيك عن حسن المُرخّم مَغْناهُ
وفي جِيْده عقدٌ حكى درّ لفظه وأحسن منه ما حَوَتْه ثناياهُ
حكى ثِقلاً وجدي بِهِ ثِقْلُ ردفه بخَصْر ضناهُ قد حكى جِسْم مضناهُ
ينوب عن الخطيّ[1] عادل قدّه وتَفْعل فعل المشرفية جَفْناهُ
حبيبٌ قسا قلباً ولان معاطفاً فما ألين الأعطاف منه وأقساهُ
حبيبٌ حكى البدر المنير تمنّعاً وفاق عليه في الجمال محياهُ
حبيبٌ تناسى عقد عهد مودتي ولست على طول القطيعة أنساهُ
فها أنا صبٌّ صَبَّ ماء جفونه بحب الذي أظمى فؤادي وأصماهُ

(١) الرماح الخطية سبق ذكرها في الجزء الأول: ٩٢.

يبين آيَ السحر رمز دلالة ويـنبئنا أنّ القطيعة لقياهُ
فهمنا به لمّا فهمنا رموزه وكم في الهَوَى مَعْنى خفيّاً فهمناهُ
أما خلت دمعي عَنْدَمَا عِنْدما هَمَا حكى لي أخبار العقيق وحاكاهُ
ألا ليت شعري هل يعود كما مضى زمانٌ وعيشٌ بالوصال قطعناهُ
لعلَّ ليالي الوصل ترجع بالمنى وقد يدرك الإنسانُ ما يتمناهُ

وقوله في مليح يكثر الشك في وضوئه:

وأهيف ذي شك غدا في طهوره على أنه فاق الملاح بلا شَكٌ
يشكّ قلوب العاشقين بقدّه فيا لك من قدّ تعَرَّف بالشك

وقوله في مليح دلالٍ يذهّب، وفيه القول بالموجب:

وفتّان اللّواحظ قلت لمّا سبا قَلْبِي بإدلال ودلّ
أدلاّل فقال ومُذْهبٌ قلت حَقًّا يا رشا لكن لِعَقْلي

وقوله في مليح يشبّ النار:

انظر إلى خدّه الفضّي كيف غدا إذ قابل النّار في تلوينه ذَهَبَا
ما زاد جمر الغضا في خدّه لَهبًا إلا وأسعر في قَلْبي له لهَبَا

وقوله في مليح رمدت عيناه:

قل للأولى سألوا عن حُمْرة ظهرت في مقلة الشّادن المكحول بالحَوَمِ
لا تنكروا حمرةً في سَيْف مقلته وكيف يُنْكر هذا بعد سفك دمي

وقوله مضمناً في مليح أصاب عينه وجع:

كلّ العيون لعين خلِّي فدْيةٌ وكذا النفوس هي الفداء لنفسه
قد أثّرت عين الرقيب بعينه ولكلّ شيء آفة من جنسه

وقوله في ذمّ بندر اللحية[1] المحروس، وقد كثر فيها الشذا بالمعجمتين،

---

(١) بلد باليمن سبق ذكره في الجزء الأول: ٥٣٢.

وهو نوع من الذباب:

مـا فـي الـلُّـحَـيّـة لـلأنـفـاس مـن نـفـس   والـمـاء والـعـيـش مـن كـدّ ومـن كـدرِ
ولـيـس فـيـهـا لـخـفّـاق الـنـسـيـم شـذا   إلا الـشـذاء الـذي إن حـطّ لـم يـطـرِ

وقوله: يوصي بأكل الأرز فيه وتجنّب أكل الحوت؛ لأنه يثقل في الباطن فيضر:

هـذي الـلُّـحَـيَّـة إن نـزلـت بـهـا   خـفّـفـت فـي الـمَـلْـبـوس والـقـوتِ
والـرّز أغـذى مـا أكـلـت بـهـا   فـاحـذر تـكـون كـصـاحـب الـحـوتِ

وقوله يطلب عبداً:

يـا أيـهـا الـمـولـى الـذي فـي الـثـنـا   لـم أخـل مـن أمـداحـه رقّـا
قـد صِـرْت رقّـاً لـكـم بـالـنَّـدا   والـيـوم أبـغـي مـنـكـم رقّـا

وقوله: يطلب جارية أو جواداً من الخيل:

شـرف الإسـلام يـا مـن   مـالـه فـي الـجـود ثـانـي
جـد بـإحـدى خـصـلـتـين   بـحِـصـان أو حَـصـانِ

وقوله وقد منع عنه بعض الملوك مصروفه من النقد المعتاد:

يـا أيـهـا الـمـولـى الـذي لـم يـزل   بـالـفَـضْـل والـمـعـروف مـعـروفـاً
مـصـروفـنـا مـا ٱلـوجـه فـي مَـنْـعـه   لا تَـمْـنـعـوا مـا كـان مـصـروفـا

وقوله في بعض ذوي الأمر، وقد أكثر خلوته مع الجواري:

أضـحـى يـواري نـفـسـه   لـيـصـيـر مـن جـنـس الـجَـوَاري
بـالله عـنّـي قـل لـه   دع الـجـنـاس مـع الـتـواري

وكنت أنا وإياه ببندر المخاء، وقد عاملنا الدّهر على بخله بالجود والسخاء، نجتمع اجتماع الفرقدين، ونرى الاجتماع كأنّه لازم دين، ونَقِف في وقت الأصيل على شاطئ البحر، وقد بَدَتْ صُفْرته على بياض الماء كما بدا عِقْد الذّهب على لُجين النَّحر، فتأخَّر في بعض أيامه عن الاتفاق، وسَقَطت درّته عن عقد الأخلاّء

والرفاق. فكتبت إليه على رأس القلم، ونصبت له الشوق على اليراع نَصْب النّار على العلم[1]. ما صورته:

يا بحر الأدب العذب، ومن فاخر هذا البحر بدرّ كلماته الرَّطب، ما بالك اليوم عن الاجتماع تخلّفت، وقد بدَرْت بدراً في سماء الأنس، وحاشاك من أن أقول لقد تكلّفت، فَبَادِر لزيارة البَحْر فقد اضطرب من الشوق، ورمى إلى السَّاحل من لآلئه فرائد الطوق، وتكدَّر بعد أن صفا أديماً، وجعّد وجه أمواجه لمّا لم يرضَ بعدك نديماً، فلا تك ممن أعرض وصدف، عن الدنوّ من لآلٍ قريبة المغاص وصَدَف.

ولا شك أنك شاعر صاحب عروض، فلا بد لك من بحر تغوص فيه لفرائد الأدب وتخوض، فأسرع فمثلك من أسرع، وأجبني فها أنا لباب أدبك أقرع، وبادر لتقف على الشّاطئ ونتعاطى من المدامة كؤوساً تلذّ للمتعاطي، وتنظر من الماء صروح قوارير قد مرّدت، ومن الحيتان خناجر لقطع عنق الجوع قد جُرّدت، ولنحلّي من لآلي اليم نحراً، ولنجاور أحد من أوصى بمجاورته الحكيم، حيث قال: جاور ملكاً أو بحراً، لا برح منه لك المدّ ولأعدائك الجزر، ولا زال لك من نفائسه الجم الكثير، وليس لحسادك منه حتى القليل النزر، يهدى لك لآليه وعندك أنفس منها، وينحوك بحيتانه وأنت لا تسأل عنها، وهل أهدي درّ إلى بحرٍ من أشباهه قد ملي؟ وهل قِيْد حوت إلى يمٍ عنده منه ما طبخ بالأفاوية وقلي. والسلام.

قولي: ومن الحيتان خناجر، هي استعارة مناسبة وقد سبقني إليها شهاب الدين الخفاجي رحمه الله تعالى فيما أورده في ترجمة علي العصامي المكّي[2] رحمه الله تعالى، وهو مما كتبه إليه في وصف سمكٍ بعثها إليه ما لفظه: كأنها خناجر، قطعت من الجوع الغلاصم والحناجر[3]. انتهى.

---

(١) الجبل.
(٢) ريحانة الألباء ١: ٤٢٦.
(٣) مطبوعة الريحانة: خناصر.

والأصل فيه قول الأمير مجير الدين بن تميم رحمه الله تعالى حيث قال في صياد البحر:

ولــربّ صَــيّــاد يــمــدّ بــكــفِّــه شَــبَـكـاً يـضـلّ الـطَّـرف مـنـه حـائـراً
يـلـقـي إلـى قَـعْـر الـخـلـيـج بِـدِزعـه فـيـعـود مـلآن الـعُـيـون خـنـاجـرا

قولي: وهل قِيْد حوت إلى يم إلى آخر الفقرة، قد أذكرني بقول القاضي صلاح الدين الصفدي مما كتبه إلى الشيخ الإمام جمال الدين محمد بن نباتة المصري رضي الله عنه، وقد أهدى له سمكاً[1]:

أهـديـتـه سـمـكـاً يـصـطـاد ودّك لـي فـلـيـس ذا سـمـكـاً لـكـنـه شَـبَـكُ
لا تُـنْـكـر الـتـمـر إذ يـهـدى إلـى هـجـر فـأنـت بـحـرٌ وقـد أهـدى لـك الـسَّـمـك

ومنه أخذ القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي أفندي المصري المذكور، ممّا كتبه إلى علي العصامي رحمهما الله تعالى قوله[2]:

أرســلــت أســمــاكــاً إلــى مــن مَــجْــده حــلّ الــفــلــك
أرأيــت قــبــلــي مــهــديــاً أهــدى إلــى الــبــحــر الــفــلــك

وكتبت أنا أيضاً إلى صاحب الترجمة ببندر المخا، وقد وصل إلينا حاكم من القضاة الأجلاّء يلقّب بالحدقي، فكان وصوله سبباً لعدم الاجتماع. (قولي في التورية):

مــولاي أبــدلــت إذ أيــســت عــن الــ ــوصــل عــيــونــي بــغَــفْــوتــي أرقــي
وكــنــت أرجــو الــوصــال مــنــك وقــد مــنــعــت مــن أن أراك بــالــحــدقِ (ي)

فأجابني بقوله:

مــولاي يــا عــيــن عــصــرنــا أدبــاً يــا مُــرْشــد الــنَّــاس أوضــح الــطــرق
مــا الــحــدقــي أن أراك يَــمْــنــعــنــي وأنــت عــنــدي بــمَــنْــزل الــحــدق

(١) الغيث المسجم: ٢: ٤٢٩.

(٢) ريحانة الألباء ١: ٤٢٧.

لله در الشّهاب[1] من رجلٍ	بهمّة قد سما إلى الأفق
يُملي على مِنبرٍ مواعظه	كأنه الوُرْق في ذرا الورق
دام لهذا الزمان زينته	كالطُّوق إذ زان أتلع العُنُق
ما رَصّع الأفق درّ أنجمه	وطَرّز السُّحب أحمر الشفق

والدهما السيد أحمد بن محمد الآنسي[2]

سيّد منشأه آنس[3]، وماجدٌ به مُتَوَحّش المعالي آنس، عَلمٌ لم يفتقر إلى تعريف، وريطه[4] فضل لا تحتاج إلى تَفْويف، فَصِيح مصقع، ومتكَلّم مصطع، ذو نفس مرةّ، وأنفة هي لِعَيْن المجد قرّة، وهِمّة قعساء، تقول للكَسْلان تباً لك وتعساً.

ولذا ركب الأخطار، وفارق الأوطان والأوطار، ورحل إلى أرض الحجاز، وركب اليم العميق وجاز، وتغرّب عن أهله زماناً طويلاً، وقَذَفَ نفسه في أودية لا تسمع الآذان في جنباتها إلا عويلاً، كل ذلك طلباً للمجد لا رغبة في سفوح تهامة ونجد، والهُموم بقدر الهِمَمْ، وما كلّ إنسان يَفْتخر بالرِّمم، حتى نزل بجوار البيت الحرام، وأناخ شملاله[5] بفناء من هنالك من الكرام، أقام بمكة المحمية الجوانب، وآوى إلى الأشراف بني الحسن فحمي بالمقانب، وَمَدَحهم لمّا أحسنوا له جواراً، وألبس مِعْصم دَوْلتهم الحسناء سواراً، وتَمَتَّع منهم بجود حُفّ بالعلا، وحظي بإكرام ازدادت أوطانه إليه معه بغضاً وقلا، فبقي هناك مكرّماً، في ربيع علا لم يلق محرّماً، يفاض عليه النعيم الوافر، في حِمى أسد كاشر الأنياب دامي الأظافر، وهو الشَّريف زيد بن محسن[6] المتهلل لاصطناع الجميل الضّاحك السنّ، فإنّه ذو

---

(١) شهاب الدين يعني المؤلف صاحب الكتاب.

(٢) انفرد بذكره.

(٣) منطقة واسعة في الشمال الغربي من مدينة ذمار (المقحفى: معجم البلدان ١ : ٩).

(٤) الملاءة إذا كانت قطعة واحدة والثوب الرقيق سبق ذكره.

(٥) الجمل أو الناقة.

(٦) هو أمير مكة تولى الحكم سنة ١٠٤١ وتوفي سنة ١٠٧٧هـ (الأعلام ٣ : ٦٠).

إفضال وإنعام، لا يقطع الغائص بحره وإن عام.

شمل بِنَواله الفقير والغني، وَوَرَد الجميع منهل إفضاله السَّني، تضيق عن مكارمه أرجاء فقد رجاها المعدم والمثري لها منه أرجاً، أقام على ذلك زماناً ثانياً عن أهله ودياره عِنَانا، ثم رجع إلىٰ اليمن بعد مدّة، وليس له غير الوثوق بالله عُدَّه، وعاد بعد أن أغلى فضله وسام، وأرجاؤها ضاحكةً في وجهه بثغور من الزهور ذات ابتسام، قائلة له بعد أن اطمأن واستراح: لك من أيامك ما تريد وإليك الاقتراح، فظفر بما يروم، ونزل في أوج لم تنله النجوم، ولم يزل الدهر يترع له وَفْره، حتى ملأ بجوهره صندوق الحفرة، وبرحلته هذه اقتداء ولده أحمد، ولذا قال في بعض قصائده التي لبَحَرها العميق مدّ، شعراً:

سأركب البحر بالعزم الأبي كما طواه من قبل بالعزم الأبيّ أبي

وكان صاحب الترجمة يُهمل حقّ الصحابة الذي أعجمه، قد انحرف عنهم أشدّ الانحراف، وقابل سابقتهم بعدم الاعتراف، بجهل وغَمَاره، فيهما على الهلاك أي أماره، فهو يرى الرفض فرضاً، ولا يبالي بطول يوم يلاقي فيه عَرْضاً.

وله مجموع نظم نظرت فيه، وتأمَّلت ما حواه من نفثات فيه، فلم تهزّ عطفي أوتاره، ولم أرتض له شيئاً أختاره، فإنّ شعره عن الحسن خال. لا ينزل مداده الأسود في خدّ الأوراق بمنزلة خال، فهو نظم منثور المعاني، له أبيات خالية المغاني، قد غسل بماء التَكَلّف، وتخلّف فيه عن جماعة الإجادة أي تخلّف، فما تَزَيَّن الأديب منه بِحُلّة، ولم يجد في مناهله ما ينقع الغلّة، لم أختر له من شعره غير قوله من قصيدة يمدح بها إمام الزمن، ويهنّيه بالقدوم إلى محروس الدامغ[1] من قطر اليمن.

قوله:

إليك وإلاّ فالمُوَمِّل قد أخطا وعَنك وإلاّ فالمُحَدِّث قد شَطّا

---

(١) بلد من أعمال جبل آنس (المقحفى ١ : ٥٩٩).

ومِـنْـك وإلاَّ فـالـكـثـيـر مـقَـلَّـلٌ | وعِـنْـدك أو فـالـعـبء والله مـا حُـطَّـا
إلـيـك أمـيـر الـمـؤمـنـيـن ألـوكـة | وما ضمّنت ذِكْر العقيق ولا السَّقطا
ولا الـطَّـلـل الـبـالـي بـقـادم عَـهْـده | ولا عِلّقت من حَوْله الشّنف والقُرْطا
ولـكـنـهـا سـالـت مـيـاه قـريـحـتـي | لـمَقْدمك المَيْمون من بعدما أبطا
تَـخَـاصـمـت الآفـاق فـيـك وكـيـف لا | وأنـت ربـيـع إن تـخـوّفـت الـقَـحْـطـا
أرى الـعَـدْل وافـى عُـنْـفـوان شَـبَـابـه | وقد [كان][1] منكوساً ولحيته شمطا
فـلـلّـهِ مـا أبـهـى وأبـهـج دولـة | لـنـا بِكَ قـد خَـوّلْتنـا التُّـرك والـقـبـطـا
وأفـرغـت لـلإسـلام تـاجـاً مـكـلَّـلا | بـكـل نـفـيـس ثُـمّ قُـلْـدتـه سـمـطـا
وعـجّـلـت مـن أوصـاف مـهـدِيـنـا الـذي | وعَـذْنـا بـه مـا كـان والله مُـسْـتَـبْـطَـا
متى يا ترى يـحـصـي صـفـاتـك مـادح | ولا سِيَّما إن كان حرف الرّوي الطّا
فـعـذراً أمـيـر الـمـؤمـنـيـن لـمـادحٍ | تـكـلّـف لا يـسـطـيـع حـلاً ولا رَبْـطـاً
فـخـذهـا عـروسـاً بـنـت فـكـر تَـقَـدّسـت | بـكـور مـعـانـيـهـا عـن الـوطـي والإيـطـا

ونقلت له من خطه في حصر خَيْل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

قوله:

هـذه خَـيْـل خـاتـم الـرُّسـل خُـذهـا | مـن لـسـانـي يـا أيّـهـا الإنـسـان
(سبحة) و(اللّحيف) و(الضَّرب) و(السـ | ـكـب) لـ(زاز) (ذو اللـمـة) (الـسـرحـان)
(مـرتـجـل) (أدهـم) (مـلاوحـهـا) (مـر | تـجـز) إن تـداعـت الـفـرسـان
وكـذا (الـورد) ثـم (يـعـبـوب) و(الـيـعـسـ | ـوب) قـال ابـن خـالـويـه حَـسّـان

الفقيه علي بن ناصر الخالدي الآنسي[2]

ريحانة الجليس، وشمّامة الأنيس، رقيق الشمائل، نَضير الخمائل، كريم الأخلاق، به المَدْح قد لاق، يعزّ له المُشَاكل والمجانس، ويقال: عنده صَدَق

---

(١) في (ش) عاد.

(٢) انفرد بذكره.

القائل أقْطع بجوده من أتى من آنس. وفد إلى حُضن مواهب الكريم، يَسْتَجدي إمام العصر وقد لزمه من الاحتياج الغريم، وأنا إذ ذاك خَطيب حضرته، وروض الإقبال يفرش لي ديباج خُضرته، فَقَصَدني بلا معرفة قديمة.

وكان نزوله عليَّ نزول القَطْر من أذيال ديمةٍ، كأنه الطَّل سقط في الصباح، على وَجَنَات الورد وثغور الأقاح، فهو بهذه عَرَق الخجل، وهو بهذه شَنَب ترشفه الشمس على وجل، وتَوَسَّل لي في نَيْل مقصده، وهو آيسٌ من هذا الباب من فتح موصده، فما انقلب إلى أهله إلاَّ مسروراً، بعد أن نقع له فؤاداً محروراً، وسعيت له فيما هو لخاطره أسكن، وَوَصْلته من عندي بما دخل تحت الطوق وأمكن، وسار وهو أشكر من الرَّوض للغَمَام، وأمدح من النَّسيم بلسان نشرها الأزهار الكمام، فللدُّر التقط، وعلى الخبير سقط.

ومن شعره ونثره الدّالين على فضله، ما كتبه إليَّ عقيب جمع شَمْلي بِشَمْله:

خطيب إمام العصر قائمنا المهدي أتاكِ بِبَخْس من هدّيته المهدي
إلى البحر قد أهديت جزعاً فلا تلم فإني على جهد أتيت بما عندي
أَتَيْتك من نظم بجزعٍ مثقّب وعندك أبهى الدرّ من جوهر العقد
فخذ ذاك فَضْلاً منك واقبله مِنَّة وإن كان أهلاً أن يقابل بالرَّدّ
أيا بحر عِلْم ما له قَطّ ساحل أفدت فقل لي ما يراد من السُّعد[1]
وأسمعتنا بالأمس وعظاً كأنه وقد قَطَّع الأحشاء صارمك الهندي
وذَكَّرتنا أمر المعاد وهَوْله وأوضحت نَهْجاً مُستبيناً من الرّشد
نعم وَأَصْغ يا نعم الملاذ فإنني سَأشكو زماناً قد نحاني بالكَدِّ
وكُنْ لي من نَيْل المراد وسيلةً وأنت بحمد الله تَعْرف ما قصدي
ولا زلت كهفاً للضَّعيف وملجأ من الدَّهر ما غنَّى الحمام على الرَّند

سيدي المولى القاضي العلامة الخطيب، الذي تضوّع ذكره بأذكى شميم

---

(١) يعني سعد الدين التفتازاني.

وطيب، زينة المعالي، وشَمْس الأيام وقمر الليالي: أحمد بن محمد بن الحسن الحيمي، طاب أباً وجداً، ولا برح في كَسْب المحامد والمفاخر مُجِدّاً، وخدم مقامه الرَّفيع، أسنى سلام يضُوع فلا يَضِيع، وأدام الله عليه ما مَنَحه من الرُّتب، وخصّه به من التَّبريز في فنون العلم والأدب، وأبقى صادحه على أغصان المنابر مغرّداً، ولتَذْكير الأمّة في المجامع معيداً مجدداً، فأقسم بالله تعالى ما سمعت كبلاغته، ولا طَرَقَ سَمْعي لفظ كلفظ خطابته.

أين سحبان منه، وأين قس بن ساعدة، هَيْهَات هيهات ما بلغ أحدهما رتبة له عنهما متباعدة. لقد فَضَح ابن نباتة بخطبه، وحَطّ العالي الشَّامخ من رتبه، لما ساقط من فوق منبره علينا الدرر، وضوّع في الجامع المقدّس بكلامه ما كسد عنده من الظباء مسك السُّرر، اللهم قِهِ العين، واحرسه عن كلِّ شين، نعم يا مولاي وأنا قد وصلت إلى مقام الإمام، وَوَفدت إلى حَضْرة هذا الملك الهمام، أستعينه على حاجات الزَّمان، وأطلبه من صُروف هذا الدهر الأمان، وأنت الآن خلاصة مقامه، ومن بلغ به عقد مملكته غاية نظامه.

أنت وزيره الذي بك يشد أزره، وأنت عَضُدُه الذي به يستقيم أمره، وقد رَجَوْتك إليه أعظم وسيلة بها أتوسل، وَجَعَلْتك لبلوغ مآربي وصله إليه بها أتوصَّل، وقد أنزلت أملي بك وعلمت أنه لا يخيب، ودَعَوتك إلى المعونة لي وأنت نِعْم المجيب، فإن جدّك الحسن كان غوث كل ملهوف، وممّن صَنَع المعروف إلى معروف وغير معروف، سار صِيْته في اليمن شرقاً وغرباً، وطار في سائر الأقطار بعداً وقرباً، فكان عِمَاد الدول المتوكلية عادت بركات صاحبها، ووزيرها وخطيبها الذي بلغت به منتهى مطالبها، وأنت فرع من ذلك الأصل. وبعضه من ذلك الكلّ فما بينكما فصل، صِرْت للدَّولة المهديّة عماداً منصوباً، وللخلافة المحمّدية خليلاً محبوباً، وتفضّلوا واسمحوا لنا بالخطبة التي سمعناها منكم بالأمس. وجودوا لنا بِتلك النُّجوم التي لا تُدْرك باللَّمس، لننشر بها فضلكم في البلاد، ونضرب به المثل

في الحاضر والباد، والسلام على سيدي في جميع الأزمان، ما التقط السامع من مواعظه نفيس الجمان.

القاضي علي بن صلاح المخلافي[١]

من كسمة[٢]

قَدَحَ للمعاني زنداً، وسقط على حدائق الفَضْل سقوط أندى، قاضٍ حكمه يَقْطع الخلاف وَيَزِّين المخلاف، وخطابه في مجلس القضاء يفضح السُّلاف، ويذكّر الأسلاف، رَضَع من أخلاف الفوائد دَرّاً، والتقط من مغاص الفرائد دُرّاً، طاهر القلب والثِّياب، مَحْمود الذِّهاب والإياب، خِصَاله الشَّريفة عند خصال غيره في التِّعداد أوّله، وغادة مَجْده يطيش إليها كلّ من علق بقلبه هيامٌ وَوَلَهْ.

أورق عوده، ووالته سعوده، وأمطرت سحائبه تُزجيها رعوده. وله في شعر العلماء سَهْم موفور، ومن مِدَاد النُّظم جَعْد مظفور، تبرز غادة فصاحته تَحْتة عن أوضح جبين، وتفتح بصارمي جَفْنها من مغلّق الدفاتر الفتح المبين، قد جاء بغاية الإغراب، لما تدلّت من حدائق نظمه ثمرات الإعراب، كتب إليه السيد يحيى بن إبراهيم الجحافي[٣]، الذي يسعى إلى رياض أدبه كل منتعل وحافي، يسأله عن حقيقة الجوهر الفرد، ويقتطف من حديقته طري ريحان وورد.

قوله:

يــا ذا الــذي قــد نــهــى عــن الــتَّــصــابــي نــهــاهُ
لــقــد تــحــيّــر ذِهْــنــي فــي الــجَــوْهــر الــفــرد مــا هــو
ومــا خــلاصــة قــول فــيــه بــه الــقــوم فــاهــوا
وهَــلْ يــجــاوز يــومــاً جــيــد الــحــبــيــب وفــاه

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) كسمة: مدينة وحصن في ريمة بالشرق من منطقة بيت الفقيه (المقحفى ٢: ١٣٤٥).

(٣) سيأتي ذكره.

فـجـد بـرأي سـديـد فـالـخَـيْـر فـيـمـا تـراهُ

فأجابه بقوله:

الـجـوهـر الـفـرد هـا هـو يـا مـن يـحـاكـي صـفـاهُ
جـزءاً تَـعَـذّر فـيـه أن لا يـجـزّأ سـنـاهُ
وعـدّ أصـلاً لـتـركـيـب كـل جـسـم تـراهُ
نـظـمـتـه فـي بَـدِيـع يُـنـبـي الـذي قـد قـراهُ

السيد العلامة الحسن بن المطهر الجرموزي[١]

من عتمة[٢] نجمٌ زهر في سماء عُتْمة، فأشرقت به من ليلها عَتَمة، وجواد ظَهَرَ سباقه، ورجع به الفَضل، وقد طال إباقه، اقتعد من المَجْد الذّروة والغارب، وزها بدره الطالع في أوج الفخار لا الغارب، شامخ اليَفَاع، مطرّز اليِفَاع، عالم لا يجارى، فمباريه أحمق من الحبارى، أخذ من كلّ فَنٍّ بِطَرف، وجاء من فوائده بطُرَف، مع حسن تَعْبير، يَنْفح من خلالة العَبِيْر، وليَ بندر المَخا، وجرت بأمره رياح السَّعادة رخا، فَخَضَعَ له من البَحْر عجَاجه، وكَادَتْ لا تتحرّك إلاّ عن رأيه أمواجه، التقى البَحْران وتَلاَطما، وكلاً منهما بمائه الغر قد طما، بَيْنَهما برزخ لا يبغيان، وفرق لا يَحْتاج واضحه إلى بيان، ذلك ملح أجاج، وهذا عذب سائغ الأمواج.

شعر:

وما يستوي البحران هذاك مالحٌ أجاجٌ وهذا طاب للنَّاس مورد

يموج العباب حول داره، ويَفْتخر على سائر الأمواه بجواره، يقول: أنا عبده، وهذه سفني جواري، وأنا أستمد منه وتستمد مِنِّي السواري[٣]، فكم أقرّ له بِحَقِّه العظيم، واعترف بأن درّ كلامه نظيم، وكم بين لؤلؤ تتزين به النحور، وبين

(١) نسمة السَّحر ١: ٥٦ نفحات العنبر (خ) نشر العرف ١: ٥٠٥.
(٢) عتمة: مدينة كبيرة من محافظة ذمار تقع بالغرب الجنوبي منها (المقحفى ٢: ١٠١٤).
(٣) السفن الكبيرة.

لؤلؤ ملقى في ظلمات البحور، وكم بين جوهر مُنَضَّد يستخرج من خلال عنبر المداد، وبَيْن جوهرٍ من بين حمأة وطين بلا انقياد(١).

رأيته بحصن المنصورة، وسمات الكمال فيه محصورة، فنظرته وصخرة وقاره راسية، بعد أن ألقى من الشّباب عمامته العباسية(٢)، وليس بياض مشيب ما خولط لونه بكدر ولا شِيْب، وسمعت من محاضرته ما يدبّ دبيب الرَّاح، ويميل بالأعطاف ميلان القدود الرّشيقة بالأفراح.

أبرد على الرياض من نزول الوَبْل، وأنكا لأكباد الحساد من وقوع النّبل، وهو يسبح في لجّ ثروة لا يقطعه إن عام، ويتدرّع لأسهم الفقر النافذة بسوابغ إنعام. وقد شَرَع عدو الأفاضل ـ وهو الزمان ـ في رَمْيه بحصى الحوادث بعد أن التقط من بحره الجُمَان، وتبديل عيشه الرغد بالنَّكد، وتَعْويضه عن السّكون بكدح وكدّ.

وله نظم لو نظر فيه الرَّوض الوريق، لما أرمدت فيه بعدها عيون الشقيق منه، قوله:

يا أيـهـا الـرَّشـأ الـذي ... مـا زال يَـغْـمـل فـيَّ لَـحْـظـه
هـلاَّ مَـنَـنْـتَ بـزورةٍ ... فَـضْـلاً ولـو فـي الـدَّهـر لـحـظـه

وقوله:

وبـي داء دخـيـل مـن غـزال ... رخـيـم الـدّل وَسْـنـان الأمـاقـي
سألـت جـمـيـع أهـل الـطِّب عنـه ... فـقـالـوا مـا دواه سـوى الـتّـلاقـي

وقوله:

عِـمَـامَـةٌ لِـيَ قـالـت ... مـن ذا يـكـون كـمـثـلـي
قـد كـنـت لـيـلـة هـجـرٍ ... فـعـدت لـيـلـة وصـل

ونقلت له رحمه الله تعالى من خطه قوله مُضمِناً:

---

(١) في (ش) انتقاد.

(٢) يعني السّوداء.

تجاوزت يا هند المليحة في الحدّ وصِلْت بسُوْد دونها البِيْض في الحدّ
وأغمدت سَيْفي مقلتيك بِمُهْجَتي وهل يَجْمع السَّيفان وَيْحك في غمد

أصله قول أبي ذؤيب[1]:

تريدين كيما تجمعيني ومالكاً وهل يجمع السيفان ويحك في غمد

وله في مليحة باكية:

وريم فلا أصل المحاسن فَرْعه تبدّى كبَدْر في الدّجا للنَّواظِر
رماني بِطَرْف أدعج مار ماؤه فطرّز شهب الدَّمع ليل الغدائر

وله في سجادة لبعض الفقهاء نسيها عنده فأرسل له بها:

سجادة القاضي الّذي ما مِثْلها والله أعلم
عودي إليه بسرعة فعليك كم صلّى وسَلَّم

والسابق إلى هذه النكتة، من صلّى خلفه الأدباء وسلّموا له بالسَّبق وسلموا عليه بالتحية، الأمير مجير الدين بن تميم، بقوله في السجادة أيضاً[2]:

أيا حسنها سِجَّادة سندسية يُرى للتُّقى والنُّسك فيها توسُّم
إذا ما رآها النَّاسكون ذوو الحجى أمامهم صلّوا عليها وسلموا

ومنه أخذ الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى قوله[3]:

إن سجادتي الحقيرة قدراً لم يفتها في بابك التَّعْظيم
شرفت إذ سعت إليك فأمست وعليها الصلاة والتَّسليم

ومنهما أخذ القاضي زين الدين بن الوردي رحمه الله تعالى قوله[4]:

سجادتي أذكرتني منك الذي كنت أعلمُ

---

(١) من أبيات الشواهد (خزانة الأدب ٥: ٨٤ ولسان العرب ٣: ٢٦٦).
(٢) خزانة الأدب ٢: ٧٤.
(٣) خزانة الأدب: ٢: ٧٥.
(٤) خزانة الأدب ٢: ٧٥ وديوانه: ٢٢٤.

أهديتها لمحب   صلّى عليها وسَلَّم

ونقلت من ديوان الشيخ شمس الدين محمد بن الحسين بن علي النَّواجي الشافعي المصري رحمه الله تعالى بخطه له، ما كتبه إلى قاضي القضاة نجم الدين بن حجّي، وقد أهدى له سجادة يمنية، قوله:

ألا يا إمام العصر يا قبلة النَّدى   ويا جامع الفضل الذي بك يعظم
بعثت لكم سجادة يمنية   معظمةً صلّوا عليها وسلموا

ولصاحب الترجمة في تشبيه زهر الزنبق:

انظر إلى الزنبق الأنيق وقد   أبدع في شكله وفي نَمَطِه
كمثل قنديل فِضَّة غرزت   شموع تبر تضيء في جسده

ولما وقف عليه المولى الحسين بن عبد القادر رحمه الله تعالى أخذ معناه وَسَبَكه سبكاً جيّداً وصَحَّح مَبْناه، فقال:

أتانا زنبق قد راق شَكْلاً   بِعَرْف كاد يَنْشر كلّ مَيْت
كقِنْديل من البِلَّور فيه   قَناديل اسْرِجَتْ من غير زَيْت

قلت: ليته قال: بنشر كاد ينشر كل ميت. والأصل في نظم السيد الحسن رحمه الله تعالى ما نظمه خليلنا الشيخ إبراهيم الهندي سقى الله تعالى عهده، فإنه أخذ مَعْنى نظمه منه، وهو قول الشيخ إبراهيم رحمه الله تعالى:

يا طيبها من ليلةٍ أزهارها   تحكي الكواكب في سماء زبرجد
من زَنْبق غَضّ ترى أغصانه   ما بين ميّاد وبين مُعَرْبد
فكأنه قِنديل فِضّةٍ مخلص   قد أشعلت فيه ذبالة عسجد

وقال الأديب حسن الزغاري[1] في تشبيهه أيضاً:

وزهرة من زنبقِ   أنوارها وهّاجة

(١) هو بدر الدين حسن الغزي (خزانة الأدب ١: ٤٣٤).

صفراء في مبيضةٍ كالرّاح في الزّجاجة

وللفقيه أحمد بن محمد الزّريقي المتقدم ذكره في القِسْم الأول من هذا الكتاب[١]:

انظر إلى الزنبق لما أتى مبتسماً عن شنب القَطْر
كتركش[٢] قد صِيْغ من فضةٍ نِباله ثُقِّف بالتِّبر

وقد أغار على هذا التشبيه الشاب الظريف، السيد محمد بن الحسين بن يحيى الحمزي الكوكباني رحمه الله تعالى المتقدم ذكره أيضاً في هذا الكتاب[٣]، إغارة يَسْتحق معها الرّدع، وسَرَقه سِرْقةً يستوجب بها القطع.

وكان سامحه الله تعالى دأبه التهجُّم على الأدب، والإغارة على المعاني فهو أفتك من درج ودب، بغير توقّف ولا احتشام، ولا مراعاة لحق الأدباء، ولا احترام، ولا مبالاة بِعواقب الافتضاح، إذا اتّضحت الفَضِيحة غاية الافتضاح، وقد أشرنا إلى ذلك في ترجمته عفا الله تعالى عنه فإنه قال في أخذ هذا المعنى:

وَزَنْبق في روضةٍ يُريك في الحُسْن العجب
كتِرْكش من فِضّة فيه نبال من ذهب

وقال الفقيه يوسف بن علي، الأديب العَصْري[٤] رحمه الله تعالى:

انظر إلى الزَّنبق في أوّل ما يظهر فض خَتْمه تَرَى العجب
كأنّه مكاحل صيغت من البلـ ـور في شكل بديع لم يعب
قد ضُمِّنت مراوداً من ذهب قد جعلت حروفها من الذَّهب

أقول أخذ الفقيه يوسف رحمه الله تعالى استعارة المكاحل والمراود من الفضة للأعماد القائمة ببطن زهر الزنبق، من فقرةٍ لي في رسالة كتبتها إليه، وهو قولي من المنثور: وقد نُثِرَت على أقدامه من المنثور فصوص مختلفة الأشكال،

---

(١) التركش: كنانة السهام.
(٢) انظر ترجمته في ١: ٣٣٣.
(٣) انظر ج ١: ٢٧٣.
(٤) أي المعاصر للمؤلف.

وقد اكتحلت[1] فَرَحاً به عيون النَّرجس من مكاحل الزّنبق بما في ضِمْنهما من الأميال.

وقال الحكيم شعبان سليم[2]، الأديب العصري المتقدم ذكره في تشبيه الزنبق أيضاً:

يا حسنه من زَنْبقٍ   من فَوْق غصن أَمْلَد
كأنامل من فضّة   ضمّت مطارق عسجد

هذا تشبيه جيد حسن، فإن تشبيه الزنبق كهيئة المطارق من الذّهب، ولكنه غفل عن بياض الأعمدة التي ركبت عليها، وقد استدركت أنا تَفْريطه في ذلك وغفوله عنه مع زيادة في المعنى.

فقلت:

أرى زنبقاً في الروض مثل أناملٍ   تمدُّ من البلُّور للّهِ ما أذكى
أنامل قد ضمت مطارق عسجد   هراوتها من فضّة سبكت سبكا

وقال الحكيم شعبان أيضاً مضمناً في الزنبق، والأصل لأبي العلاء المعري التنوخي[3]:

زنبق الروض قد تحيّر لمّا   لاح خدّ الشقيق أحمر قاني
واستحى حين شاب من أن يوا   فيه فغطّى المشيب بالزَّعْفران

وقال الأديب حيدر آغا المتقدم ذكره[4] في الزنبق:

وزنبق مجلس بين الندامى   كشيخ حاز لُطفاً في وقار
يُرِيْك إذا تلا (إنّا فتحنا)   عمود الصّبح في وسط النهار

ومن نظم صاحب الترجمة رحمه الله تعالى قوله في خطاب المحقق الملا

---

(١) في (ش) تكللت.

(٢) انظر الجزء الأول ص: ٥٦٧.

(٣) سقط الزند: ٩٥.

(٤) انظر الجزء الأول: ٦٣٨.

عبد الرحمٰن بن أحمد الجامي رضي الله تعالى عنه، يمدح شرحه المشهور على الكافية للشيخ أبي عمرو عثمان بن الحاجب دامت فوائده:

سامَيْت للنَّجم قدراً لله قدرك سامي
إن دار للنَّحو صَرْف فإن شرحك جامي

أقول: لا شك أن معنى هذا النظم قد سبقه إليه جماعةٌ من الأفاضل كما أورد ذلك العلاّمة الأديب شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي رحمه الله تعالى في ريحانته[1]، وهو قول شيخ الإسلام عمر بن عبد الوهاب العرضي الحلبي رحمه الله تعالى[2]:

لله در إمام طالما سَطَعت أنوار أفضاله من علمه السَّامي
ألفاظه أسكرت أسماعنا طرباً كأنّما الخمر يسقي من صفا الجامي

وقول الشيخ محمد بن الحنبلي رضي الله عنه[1]:

لكافية الإعراب شرح منقحٌ ذلول المعاني ذو انتساب إلى الجامي
معانيه تجلى حين تتلى كأنّما هي الخمر تبدو شمسها من صفا الجامي

وقول الشيخ عبد الله الدنوشري سقى عهده:

للّه شَرْح به شَرْح الصُّدور لنا كأنه الدّر أو أزهار أكمام
قد أسكر السَّمع إذ تتلى عجائبه والسكر لا غرو معزو إلى الجامي

وممّا لم يورده المذكور في ريحانته قول الشيخ شهاب الدين أحمد العناياتي:

إذا دارت كؤوس النحو يوماً فما سكري إذاً إلاّ بجامـ (ي)

وقول الآخر:

للّهِ شرح حوى التَّبيين واتّضحت فيه فوائد علم ذات أحكام
إن رمت تدرك علم النَّحو أجمعه فارشف سلافته يا صاح بالجامـ (ي)

---

(١) ريحانة الألباء ١ : ٢٨٠.

إلا أنّ صاحب الترجمة زارته الرَّحمة فجاء بما سَاغت معه خمرة جامه في نظامه، فلم يقطّب شاربها في وجهها المُبْتسم عن ثنايا الحبب وأحدثت النشوة في أعطافه؛ لأنه ظفر في نظمه بما فات الكل، وذلك لأنها حصلت له التَّورية الكاملة في النَّجم؛ لأنَّ النَّجم هو الكوكب، ونَجْم الدين الرّضي رضي الله تعالى عنه، هو أيضاً شارح الكافية، وكثيراً ما يعترض الشيخ ابن الحاجب في شرحه، فيدفع الجامي اعتراضه، فكان لقوله: ساميت النَّجم قدراً، موقعُ من حسن العبارة الواقعة في محلّها، ويكون لسهمها مرمى لطيف، ومقصد شريف مع لطف ذكر السّمو في قوله: ساميت.

وقوله: سامي، لأنَّ النجم الذي هو الكوكب سامي المحل؛ ولأنه قال: إنْ دار للنحو صرف، والصّرف هو الخمر الذي لم يمزج، فَحَصَلت له من البديع ما سمّيته أنا بإيهام مراعاة النَّظير، التي لا يوجد النظير لروضها النضير، وذلك الإيهام ما بين علم النحو وعلم الصرف.

وهذا ممّا فات الكل ممّن سمعنا نظمهم، في هذا المنهج كما ترى، إلاّ أن الصّرف الذي هو العِلم المعروف بفَتْح الصَّاد والصِّرف من الخمر بكسر الصاد. وقال بعض العلماء الصرف بالكسر صبغ أحمر خالص، ثم قيل لكلّ خالص عن غيره صِرْف؛ كأنّه صرف عنه ما يشوبه. وقال في المصباح[1] الصرف الذائب[2] الذي لم يمزج، ويقال: لكلّ خالص من شوائب الكدر صرف؛ لأنه صرف عن الخلط، ولذا سمّيته بإيهام مراعاة النظير؛ لأن الصرف من الخمر لو كان بفتح الصاد لكان فيه مراعاة النظير حقيقةً.

وقال: ولد صاحب الترجمة وهو السيّد القاسم بن الحسن الجرموزي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى:

---

(١) المصباح المنير: ٣٣٨.

(٢) المصباح: الشراب.

حوى الجامي نحواً قد قطعت عليه أيّامي
وأسكرني بما يحويه والإسكار للجامي

وقال القاضي العلامة جمال الدين محمد بن إبراهيم السحولي المتقدم ذكره:

أتى الفاضل الجامي بجامٍ وغيره بكأسٍ يروّي برده غلّة الضامي
وما بي إلى الكأس المبرّد حاجةٌ غَنَيْت عن الكأس الدّهاق بذا الجامي

وقال صاحبنا يوسف بن علي الهادي من أبيات يطلب سماع شرح الجامي المذكور على أحد الشيوخ، ومن هذا الجام صَبّ صبابة هذه الخمرة فأتى بحثالة الكدرة في قوله:

أيا كعبة العلم التي ليس دونها حجاز عن الطلاب منْ بإكرامي
وأقرأ ضيف السَّمع منك وسَقْيِه سلافة نحو نشتهيها من الجامي

أخوه السيد رضي الدين جعفر بن المطهر الجرموزي[1]

بحر متلاطم لا جعفر[2]، وبَدْر في الفلك المنيع أسفر، هو جعفر الطَّيار ذكره، ورَوْض الكمال الضَّائع نَشْره، غَيْث هامعٌ في جَدَاه، ولذا أصبح سَفْح الفضل مطلولاً بنداه، نجم أدب يتلألا، وبَدْر فصاحة يتعالى، شجاع يهزم جيش الفصاحة، ويجرّد من أغماد فهمه صِفَاحه، إذا حمي بين أرباب الفصاحة الوطيس. وقد التقت سمر الأقلام، وبِيْض القراطيس، رَوْض زهت فنونه، وترنَّحت في ملابس الأوراق غصونه، وتحدّرت في البروج النّاعمة عيونه، وبدا للهيام به على القمري السَّجوع جُنونه، ما سَمِعْت أذناي كأخباره، ولا حَمِدَتْ لساني غير آثاره.

رَوَى لنا معلول النّسيم منها صحيحاً[3]، وأبدت لنا الأيام من شَمْسها وجهاً صبيحاً، كان والياً وأميراً، يتفجّر من خلال أنامله شراب النَّوال نميراً، في نعمةٍ

(١) نفحة الريحانة ٣: ٣٩٧ نسمة السحر ١: ٤٧٥ البدر الطالع ١: ١٨٣.
(٢) جدول صغير.
(٣) الصحيح عند أهل الحديث (سبق شرحه في الجزء الأول: ٣٥.

أبرد من الظِّلال، وثروة أهنى من العَذْب الزلال، مع لطف رائق، لو تُصُوِّر لكان من جملة الحدائق، فنَسِيم الصبا بجنب لطفه سَموم، والمسرّات بِجَنْب مفاكهته غموم.

له ميل بالآداب الشاردة، ولا كَمَيْل الغصون بالنِّسَمِ الباردة، كم ذاق من ثمارها حلواً، وتمَتَّع من فواكهها بالمَن والسلوى، ملأ كؤوس المسامع من خمر آدابه، وقلّد أجياد الأقلام بفرائد خطابه، لأنه بَحْر بلاغةٍ عظيم الإمداد، إلا أن جمانه الكلمات وحماته المداد.

له قلم إذا جرى حُمِد في ليل مداده السُّرى، يتفتّق غُصْنه عن أثمار شهية، وتتفتح أوراقه عن أزهار بهيّة، ما تَفَتَّق عن مثلها غصن ولا تفتح. ولا انهدل رطيبه بأطيب منها ولا ترنّح، فنفثاته غيث ربيع، باكر الروض المُدْهَمُ المريع، وكلماته نسيم صبا، هزّت عذبات الرُّبى، حتى غنت الحَمَام لتَحْريكها، وصفت حمرة الغدير من تفريكها، فكم له من بنات فكرة مورَّدة الخدود، منظمة القلائد مرصَّفة العقود، يَسْلب النهى ضاحك ثغرها، ويُسبي العقول من المِداد حالك شعرها، تترنّح بأعطاف ليّنة اللمس دانية الأعطاف.

أخبرني صاحبنا السيد عبد الله بن أحمد بن المفضل، الذي طالما تناول سهم الاعتقاد من كنانته وتنضّل: إنه وقف بمحروس ضوران على مجموع من شعره يتناوبه الأقران قد اشتمل على أنفس منظوم، واحتوى من بَنَات فكره على كلّ خريدة ذات كَشْح مهضوم، وحكم له بالسَّبق فيما حواه كسبه، وشهد له بالفضل ومن شهد له خزيمة فهو حسبه[(١)]، فمن شراب جعفر الذي يَحْيَا[(٢)] به الربيع، وقطراته التي له الفضل بها حتى على الروض المريع.

قوله من قصيدة:

وَهَواك وهي يَمين من لا يَحْنث ... إني لعَهْدِك في الهوى لا أنكث

(١) حديث شريف سبق ذكره في ج ١: ٤٦٢.

(٢) تورية بجعفر ويحيى والربيع من البرامكة.

وحياة مقلتك التي أسحارها ترقى كما يرقى السَّليم[1] وتنفث
هيهات ما تغني الرَّقى وبِسِحرها تَجْتَثُّ أسباب الغرام وتَبْحث
ما حِلْتُ عن وَجْدي إليك ولا سلا قلبي ولا أنا بالصَّبابة أعبث
لا بانة الوادي مناي ولا الحِمَى قَصْدي وليس بغير حبك أبثث
وبعشقتي غَنَّى الهزار وزمزم الـ ـحادي وثَنّوا في النَّشيد وثَلّثوا
لا يستوي الخِلّان خلٌ مخلصٌ وداً وخِلٌ في الهوى يتشبث

وقوله:

قالت وقد أفنت لذيذ تصبّري ونَفَتْ لذيذ النَّوم عن أجفاني
إن رُمْت منّي زروةً في ليلة فاصْبر وليس لدي صَبْر ثاني

وقوله:

ومليح كالبَدْر وجهاً وكالظبي التفاتاً وكالقَضيب اعتدالا
كلّ فعل منه مليح وإن جار وأمّا الهِجْران والاعتدا لا

وقوله في مليح دَلاَّل:

من لي بمن لا أمل عشقه وقد غَدَا القَلْب قابِلاً مَلّة
دلّه قلبي بحُسْن منطقه حتَّى بسوق الحمام قد دلّه

وقوله:

تعانقت أغصان بان النقا فشَابَهَتْ أعطاف أحبابي
وَمُذْ صبا قلبي صَبَا صاحبي إلاَّ على الصَّاحب والصابي[2]

وقوله:

جاء الشّتاء وليس لي بُرْدٌ يقيني برده
لولاك يا نار الصُّدود نَعَيْت نفسي عنده

---

(١) السليم: اللديغ سبق شرحه.

(٢) تورية بالصاحب ابن عباد، والصَّابي الكاتب المعروف سبق ذكرهما.

وهذا من نمط ما جاء للفاضل ابن الأثير رحمه الله تعالى في منثور كتبه يصف البرد أيضاً ببلاد الروم، وهو قوله[1]: ومما أشكوه من بردها؛ أن الفرد[2] لا يلبس بها إلا في شهر ناجر، وهو قائم مقام الظّل الذي يتبرّد به من لفح الهواجر. ومن فرط شدّته لم أجد ما يخففه فضلاً عمّا يذهبه، فإن النّار المعدّة له تطلب من الدّفء مثل ما أطلبه. لكن وجدت نار أشواقي أشدّ حراً فاستطلينا بجمرتها التي لا تذكى بزناد، ولا تؤول إلى رماد، ولا يدفع البرد الوارد على الجسد بأشدّ من حر الفؤاد، وأنيّ كنت في ذلك كمن سدّ خلّة بخلة، واشتفى من عِلّة بعِلة (واقتل ما أعلك ما شفاك) فما ظَنّك بمن يَصْطلي نار الأشواق، وقد قنع من أخيه بالأوراق فضنّ عليه بالأوراق. انتهى.

ومما كتبته أنا إلى بعض الخِلاّن من جملة منثورٍ أصف بَرْد كوكبان اليمن المنيف حرسه الله تعالى، وهو ما لفظه:

وأما حصن كوكبان الذي هو بالغَمَامة قد التحف، فهو حصن يَمْنع من الجيش العرمرم، ولكنه لا يمنع من جيش البَرْد إذا زحف، فكم قد سَقَط على شامخه البرد، فبَرَد الأجسام بِمَبَارد الرّذاذ أشدّ البرد، حتى استحالت بعد بياض النرجس والزنبق إلى زرقة البنفسج، ولبست من قطن الثّلج المتراكم حلّة بيد الزّمهرير تنسج، بَرْد يصوغ الماء الذائب قِطَعاً من البلور الجامد، وتحيل الرّقراق منه إلى صخور راسية من الزجاج وجلامد، يَخْمد الوامق عنده نار غرامه، ويشكر الواجد منه أيادي ضرامه قد اقفهرّت منه وجوه الرياض النضرة، وقد احترقت من أنفاسه الحدائق الخضرة، عرَّاها عن حلل الأوراق، ونثر عقود زهورها، وقد اتّسق نضيدها وراق، لو قابل جهنّم لخمدت، ولو مازج غدران الشَّراب السلسل لما حُمَدت، فعليك بالتَّدثر فيه والتزمّل، وعليك بالنظر في صنع الله تعالى والتَّأمُّل، لتعرف قسمته وحكمته في قِسْمة الأوقات برداً وحرّاً، ولتقف على بعض عجائب

(١) المثل السائر ج ٣: ١٣٣.
(٢) مطبوعة المثل السائر (الفرو).

تقديراته وهلم جرّا، والسلام.

ولصاحب التَّرجمة السيد رضي الله رضي الله تعالى عنه في مشروط الخدّ:

بي أحمر الوجنة مشروطها ... لدن التّثني ناعس المُقْلتين
لو لم تكن عَيْناه مكسورةً ... لم تر من تحتهما خفضتين

ومثله قول خليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي فيه أيضاً:

بِي مشروط وجنةٍ أن تسَلْني ... عن رناه فكَابْنة الزُّرجون
وإذا ما سألت عن نضبه الشر ... ط فَضَبْط لكَسْر تلك الجفون

وله مضمناً ومكتفياً وكتب به إلى من أرسل له بِمَنٍّ[1] من الشمع، وأتبعه بالمنّ:

يا من إذا جاد يوماً ... يتابع المنّ بالمن
أحرقت بالمن قلبي ... (واحرّ قلباه مِمَّن)

أصله قول أبي الطيب المتنبي:

واحرّ قلباه ممن قلبه شبم ... ومن بجسمي وحالي عنده سقم

وله:

تشابه ذقني حين شِبْتُ وبغلتي ... فكلّهما في اللون أشيب أشهب
فوالله ما أدري على ما أتيتكم ... على بغلتي أم لحيتي كنت أركب

وقوله في قَبِيْلي ثقيل، والقبيلي عبارة في هذا الزمن عن الفلاّح، ففيه التورية:

يميناً ما حملت الدهر ثقلاً ... بأثقل من حكاية ذا القبيلي
نعم أنا حامل وَجْداً ثقيلاً ... ولكن ليس من هذا القبيلـ (ي)

وله في ثقيل أيضاً:

---

(١) المنّ: كيل أو ميزان، وهو رطلان وعرفا وشرعا أربعون أستاراً كل أستار أربعة مثاقيل ونصف مثقال.

تَـوَعَّـدنـا الـثَّـقـيـل ولـم يـقـيّـد بِـزَوْرتـنـا وقـد أتـت الـعـشـايـا
فـقـلـت الـصّـبـح مـوعـدنـا بِـرَغْـم إذا لـم يـشـكـر الله الـمـطـايـا

يعني أنها تسير بنا المطايا من أرضك أيها الثقيل، فيَشْكرها الله تعالى على ذلك، وهذا عندي في الكناية عن استثقال الثقيل والرَّغبة في مفارقته نهجٌ لطيف شريف.

ولما أملى عَلَيَّ صاحبنا الفقيه يوسف بن هادي رحمه الله تعالى قصيدة صاحب الترجمة الميمية، التي أثبتها له في كتاب الصادح رأيته معجباً بقوله فيها:

رحلتم وخَلّيتم مع الدمع جَعْفراً يـفـيـض فـلا أسطيع مع ذاك أكتم

فقلت له: نعم تمّت له التورية في قوله: جعفراً باسمه، لأن الجعفر هو: النَّهر الصغير، وقد رَشّح للتورية بقوله: من الدمع، وبقوله: يفيض، ولكنه عبّر بذلك عن نزارة دمعه وقلته، وهو خلاف ما يعبّر به المحبُّون عن دموعهم؛ فإنهم طالما وصفوها بالكَثْرة حتى استعاروا لها البحر ونحوه من الأمواه الغزيرة الكثيرة، والذي أوقعه فيما فيه منتقدُ، طلب التورية، فلعذوبتها يسوغ شراب هذا النهر الصغير ويكبر. ثم قلت للفقيه يوسف عفا الله تعالى عنه: قد قال إمام الأدب الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى في ذكر الجعفر مع زيادة ذكر الربيع:

خـلـيـلـيّ كـم روض نَـزَلْـت فـنـاءه وفـيـه ربـيـع لـلـتَّـزيـل وجـعـفـر

وقال القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر في وصف النَّهر مع زيادة ذكر الفضل والربيع ويحيى[1]:

إذا فـاخـرتـه الـريـح ولّـت عـلـيـلـةً بـأذيـال كـثـبـان الـنـقـا تـتـعـثّـر
بـه الـفَـضْـل يبـدو والـرَّبـيـع ومـن غـدا به الرَّوض يـحـيـى وهـو لا شـك جـعـفـر

وقال آخر مع زيادة ذكر يحيى:

(١) خزانة الأدب ٢: ٣٦٤ ط كوكب دياب.

مـحـيّـا بـه الـمـقـتـول يَـحْـيـى وكـم لـه   عـلـى وَجْـنـة الـغـانـي مـن الـدَّمـع جـعـفـر

وقال القاضي صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى مع زيادة ذكر خالد ويحيى والفضل:

فـوجـدي خـالـد والـشـوق يـحـيـى   وفـضـل الـسَّـقـم خَـلاَّ الـدَّمْـع جـعـفـر

إلا أن صاحب الترجمة رحمه الله تعالى تَمَّت له التورية باسمه، ولكنه فاته الفَضْل ويحيى والربيع وخالد، فحينئذٍ لا فضل.

ولما حجّ جعفر بن يحيى اجتاز بالعقيق في طريقه، وكانت سنة مجدبة، فاعترضته امرأة من بني كلب وأنشدته[1]:

وإذا مـررت عـلـى الـعـقـيـق وأهـلـه   يـشـكـون مـن مـطـر الـربـيـع نـزوراً

مـا ضـرّهـم إذ جـعـفـر جـار لـهـم   أن لا يـكـون ربـيـعـهـم مـمـطـوراً

فأجزل لها العطاء. أقول: ولقد تمّت لها التورية والتوجيه ومراعاة النظير بلا قصد. أما التورية فهي جعفر؛ لأن جعفر اسم من أنشدته الشعر ومدحته به. وهو أيضاً: النهر يرشح لهذا المقصد الآخر ذِكْر المطر في قولها يشكون من مطر الربيع، فبذلك عرفت التَّورية، وأما التوجيه ومراعاة النظير، فبذكر الربيع مع ذكر جعفر. وهذان الوجهان من البديع لم تقصدهما هذه المرأة بلا شك ولا مرية؛ وإنّما وقعا لِفِطْرة فصاحة عربية، وإن كانت مراعاة البديع ليست من شأن شعراء العرب والصَّدر الأول، ولم يَنْتبه لهذين الوجهين من البديع في نظم هذه الامرأة غيري ممن أورده في كتب التاريخ منهم: القاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان رضي الله عنه، والحمد الله المنعم على العبيد بما لا يبيد.

أخوهما السيد أحمد بن المطهر الجرموزي[2]

مهذّب شحذ صارمه الزّمان وَسَنْ، ورَقيق شمائل هو لعيون اللُّطف وَسَن.

---

(١) ابن خلكان ١ : ٣٢٩.

(٢) انفرد بذكره.

فأقسم بما قُسم له من المعالي ، أنه لمن منائح الأيام ومواهب اللّيالي؛ وإنه لواسطة العِقْد في إخوته وكلهم لآلي.

كريم الخِيْم والنَّجْر، ذو كَلمات ألذّ من الوصال بعد الهَجْر، وأشهى لدي السَّهران من سِنَة الفجر، لو صَحِبْته النَّسيم لزادت لطفاً، ولو مَرَّت على حدائق آدابه لتضوّعت عَرَفاً، شاعر له في الشعراء مجال، وأديب نفثاته الوسيمة ربات الحجّال، تُسْفِرُ عن وجه جميل، وتسبي ذوي النهى إذا بدت من ظفائر مدادها في الأثيث الأثيل، فدع عنك الغانيات وما لها من الأوصاف، واشتغل من كلماته بما يخجل بدر الأفق عند الإنصاف، شعره يشاكل من الدّر نسيقه، ويحاكي بافتراره وتضوعه ما اشتملت عليه الحديقة. فمن انسجاماته المرقصة، ونوافج مسك مداده التي هي للغوالي مرخَّصة.

قوله:

يا سَعْد إن آنست نار الأجرع ... فاخفض جناحك للمحل الأرفع
وامش الهوينا خالعاً من أجله ... نَعَليك فِعْل الخاشع المتطوّع
والثم ثرى تلك البِقاع فتُربها ... مِمَّا به برؤ اللديغ الموجع
واجعل لعينك من ثراها إثمد ... لتفوز بالحظّ العظيم الأوسع
وإذا بلغت إلى أعالي رامةٍ ... فأنخ مَطِيَّك ثَمَّ غير مروّع
وقل السَّلام عليكم أهل الهَوى ... من مُغْرم لولاكم لم يَخْضَع
صبّ بكم كَلِفٌ وما غير الأسى ... يمسي يسامره بطيّ المضجع
لا يَرْعوي أبداً للوم فيكم ... هَيْهات أن يصغي إليه أو يعي

أخوهم الحسين بن المطَهّر الجرموزي(١)

هو من بيت سمت دعائمه، وهو ثَمَرة من روض تضاحك كمائمه، حلقةٌ من سلسلة ذهبية، وواحد من زمرة أدبيّة، دوحةٌ ظَرْف نهرها النسيم. فَتَساقط منها

(١) انفرد بذكره.

ثَمَرات جَنَّات النَّعيم، لو أنصفه البَذْر، وعرف ماله من القدر، لتنحَّى من فلكِهِ خاضعاً، ولهبط في خدمته تواضعاً.

بعدت سماء مجده في العُروج، وتبَرّجت شَمْس فضائله في البروج، مع أخلاق أحبّ من الإبريز،لو رزقتها الحلل اللطيفة لم تحتج إلى تطريز، ترقص لنظمه القدود وتحَمرُّ خجلاً من جنى أشعاره الخدود. سمعت منها ما سمع النشوان من الأوتار، وَوَقع على ما وقع من الذَّهب بأكفّ ذوي الإقتار، فمن لؤلؤه المصون وأبياته التي تهتزّ لها معاطف الغصون، قوله من أبيات، تعدّ في صفحة الأدب من الآيات:

صاح ذا البلبل في الدَّوْح هَدَرْ ... فطما الدَّمع بخدِّي وانحدر
ما أحيلى نَغْمة الطير على ... غُصُنٍ نَضرٍ به يُجْلى البصر
أو رياضٍ جادها وَبْل الحيا ... وَهَمَا في كل حين وانْهَمر
تشكر الأرض لنا جُوْد السماء ... لم يكن يَزْداد إلاَّ من شَكَر
دَبَّج الأرض بأنوار الرُّبى ... فتحَلَّى كل دوح بالزَّهر

قوله: تشكر الأرض: البيت قد وقع لي نظيره في كلام منثور، وذلك حيث قلت أصف يوماً مطيراً: يومنا هذا يوم طاب مخبره، يحمد بعد ثلاث في الرياض أثره، قد نَشَر في الجو دُكَن حلله، واغرق المحل في خليج بلَلِه، جاد لنا بلآلئ المَطَرِ، وقضى للحدائق من أملها فيه الوَطَرْ، أدار على الغصون الشَّراب، وأرخى من الغَمام على وَجْه الشَّمس النِّقاب، ونَعَشَ النبات بعد موته، واستدرك الروض على فوته، حتى أمالت مدحه خطباء الحمائم على منابر الدُّوح، وانثنت عليه نَسيم الصَّبا بكلامٍ من النشر انتشر في السّوح. وشكرت الأيام فيه أيادي السماء، لما هَمَع عليها غيثها المِدْرار وهمى، أياد عَمّت بجزيل الأنعام، وأفعمت بالسّفوح بلآلئ القطر غاية الإفعام، وتَوّجت الغصون بفصوص الأزهار، ومزجت شرابها العذب بماء الأنهار، فالحمد لمسدي هذه النعم. وله المنّة على إفضاله الأعمّ.

أخوهم قاسم بن المطهر الجرموزي(١)

طَيْر بلاغة صَدَح، وأديب لِزَنْده الواري قَدَح، وأدار سلافة شِعْر ما اشتمل عليها قَدَح، سيّدٌ له في أموره عزيمة، يترك بها كتائب الخطوب هزيمة، وله فَضْل لو ناب مناب الشمس، لم يتخَلّل اللّيْل ما بين اليوم والأمس، وأخلاق بها يناضل، لو تخَلّق بها الزّمان لما أساء إلى الأفاضل، وكرم يباري الدّيم، وسماحة في لجّها يغرق اليَم، فهو من بَيْت شريف، لا تَطْمع الحوادث في دكّ ركنه المنيف.

وله في الأدب نَهْج مستوي، وفي نَظْم الأشعار عِقْدٌ لؤلؤي. وفي بحور العروض بحرٌ عذب يظمأ الأديب منه إلى الرّوي، فما العقود إذا رُصفت، ولا الحانات إذا قصفت، ولا النّجوم إذا بَدَتْ، ولا الحمائم إذا شَدَتْ، ولا الغادات إذا تبَرّجت، ولا النّسيم إذا تأرَّجت، ولا الرّياض إذا أيْنَعت. فَقَصَّر في حقها من لها نعت، بأشهى من أبياته، ولا ألطف في نظم القريض من آياته.

فمن زهره الباسم، ولآلئه التي هو لها ما بين نحور الغواني قاسم(٢).

قوله:

أفـدي غـزالاً كـلـه فـتـنـةٌ ... قـد لـذّ لـي فـي وَصْـفـه الافـتـنـان
فـمـا بـدا إلاّ رأت مُـقْـلـتـي ... بَـدْراً عـلـى دَعْـص عـلـى غُـصْـن بـان

قلت: ليته قال في البيت الأول:

أفـدي رفـيـع الـحـسـن مـن راق لـي ... مـجـنّـسـاً فـي وصـفـه الافـتـنـان

إذ ذِكْر البديع في صدر البيت يناسب ذكر الافتنان في عجزه؛ لأن الافتنان نَوْع من البديع معروف، وكذا قوله أيضاً مجنّساً؛ لأن الجناس من البديع أيضاً ضرب معروف.

وأقول: كان اللائق أيضاً في حسن الترتيب بدراً على غصن على دعص؛ لأنه أراد بالبَدْر الوَجْه وبالدَّعص الذي هو الكثيب الرّدف، وبالغصن القد، والوجه

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) تورية باسم المترجم له.

هو البدر الطالع على غصن القدّ، وغصن القدّ هو النابت على دعص الرّدف الذي هو الكثيب، وعلى هذا الترتيب مضى الأدباء من السّلف واستعملوه كما أشرنا إليه، قال ابن دريد رحمه الله تعالى:

غصن على دعص تأوّد فوقه قمر تألق تحت ليل مطبق

وقد نظمت هذا المعنى على الترتيب المشار إليه، فقلت:

جلا محيّاه على قدّه من فوق رِدْفٍ جلّ عن نقص
فشاهدت عَيْني به إذ بدا بدراً على غصن على دعص

أخوهم إسماعيل بن المطهر الجرموزي[1]

شمسٌ لا تأفُلْ، ولا تَبْرح في حلل الفخار تَرْفل، وبدر لايزال في منازل المجد يتنقّل، وماجدٌ استكثر من خلال المحامد واستقلّ بأعبائها فأعجب لمستكثر مستقل، رقيق الجلباب، في المعاني كثير الأسباب، تفوح منه أطايب الشيم، كما فاحت الأزهار غِبّ الديم، رَسَت من الحجى أطواره، واخضرت من الآداب أعواده، هِمّته تقرّب له البعيد وتطوى له، ومادحه لا يوفيه حقه إن بدأ في الكلام تقصيره وتطويله.

جاء على كبر الدّهر وهرمه، فأضحى يمزح به تَيْهاً بين عقيق الحمى وعَلَمه، وأصبح وقد كان فُنيَ صبره وعيل. يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ﴾[2]، رأيته بصنعاء وهو يجرُّ رداء عيشه الأخضر، والسُّعد يحفّه من الطِّيب والرق بعنبر، وسمعت من محاضرته، وَشَاهدت من بدائع مسامرته. ما يُنْسى عنده محاضرة الغادة الرود، وترفض لديه المسامرة بحديث الرَّقمتين وزَرُود، مما أمال عِطْفي، وزاد به لُطْفي، وتَعَطّرت بِنَشْره أذيالي، وتَمّت لي من مواعيد الزمان آمالي؛ لأنه في المحاضرة نبيه، لم أرَ له من نظير ولا شَبِيْه. ثم رأيته ثانياً بمدينة خَمِر، وقد نقض من سعادته ما عُمِر، بعد أن ذَهَب من عيشه الرَّوي، ووهن منه

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) إبراهيم، ٣٩ .

العظم وضَعَف القَوى، وعامله الدهر معاملة الجَهْلان، واخشوشن من لمس ردائه ما لان، وقد استطار فَخرّ مشيبه، وتدلى فجره الطالع لمغيبه.

ومن شعره قوله:

يا قَاتل الرحمٰن ألحاظنا ... كم ملأت أكبادنا بالشَّرار
تقامر الغيد ولا ترتضي ... غير السُّويدا دِرهماً للقِمَار

وقوله مضمناً وهو ببندر المخا المحروس، وقد شرى جارية جميلة:

يقولون المخاءُ به جوار ... فقلت وكم وكم غيدا شَرّيتُ
فأمّا مثل ما ضمّت ضلوعي ... فإنّي ما سمعت ولا رأيت

واعلم أنه قد اعترض عليه باستعمال (ما) هنا لمن يعقل، وصَوَاب الكلام هنا استعمالها لما لا يعقل، وها أنا أقول استعمال ما لا يعقل، هو الأغلب وقد ورد في من يعقل. ومنه قول الله عز وجل: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ إذ كان حق هذه الآيات الكريمة استعمال من فيها، ولكنّها أوثرت فيها ما على من لإرادة مَعْنى الوصفية؛ كأنه قيل في الآية الثانية، والشيء القادر الذي بنى السماء وطحا الأرض وسَوَّى النفس. ودلّ ذلك على وجوده وكمال قدرته، ولذا أُفرد ذكره. والمراد بالآيات بمعنى الوصفية، [أي: الوصفية][1] بما ضِمْناً، وإن لم توصف بلفظها إذ المراد أنها تقع على نوع من يعقل وعلى صفته. ولذلك بقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، وقد ردوه بأنكحوا الطيب منهنّ.

وقد ورد في لغة العرب من كلامهم: سبحان ما سخّركن لنا، ولورود هذا وأمثاله زعم قوم منهم أن ابن درستويه، وأبو عبيدة، وابن خروف وقوعها على آحاد من يعقل كثيراً مطلقاً.

---

(١) ساقط من (شن).

وقال السهيلي: لا تقع على أولي العلم إلاّ بقرينه لِمَا أنكره بعضهم وتقع على صِفَاتَ من يعقل كما في قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ﴾. الآية وعلى هذا حمل العلامة ابن حجر الهيتمي في شرح الهمزية قول ناظمها فيها:

وأتت قومها بأفضل ممّا حملت قبل مريم العذراء

ولمّا قال الإمام المهدي عليه السلام في كتاب الأزهار في بحث النكاح عند ذكر الزوجة: فلها الأقل من قيمة ما ادّعت ومهر المثل. قال رضي الله عنه: إنما جاء بلفظة ما في قوله: ما ادّعت. وقياس العربية أن يقول: من ادّعت إذ ما لمن لا يعقل، ومن لم يعقل؛ لأن لفظ ما هنا أجود ليكون عاماً للعبد ولبعضه، وإذا أريد بعض الحيوان لم يؤت بمن، وإنما يؤتى بما يقال: ما اشتريته من العبد نصفه أو ثلثه، ولا يقال: من اشتريته من العبد، وإذا اجتمع من يعلم ومن لا يعلم كان المجيء بما أولى كقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. ذكره في الغيث، انتهى كلامه عليه السلام - وهي أعني ما تتفرّد به دون من -، فإذا عرفت هذا فلا حرج على صاحب الترجمة، ولا اعتراض لما استعمل ما في نظمه هذا عوضاً عن من، إذ للمقال فيه مجال، ويكون المراد في النَّظم معنى الوصفية، كأنه قال: والشيء الذي ضمّته ضلوعي، والله أعلم.

وقد جوّز أيضاً استعمال من لمن لا يعقل، وبه دفع اعتراض من اعترض الشاعر في قوله (والغيث أبخل من سعى) فإن قال المعترض أنّ من لا تكون إلا لمن يعقل، وأفعل لا يجري إلا على البعض من الجملة، تقول: زيداً أفضل الناس فلا بد من أن يكون زيد من الناس. ولو قلت: زيداً أفضل الحمير لم يصح، وكذلك لو قلت: زيدٌ أفضل ما يقضم الشعير ويرعى الكلأ لم يجز، قال: فمن سعى لا يقع إلا على عاقل، والغيث ليس من هذه الجملة.

قال القاضي أبو الحسن الجرجاني رحمه الله تعالى في كتاب الوساطة[1]:

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٤٣٩.

وهذا الاعتراض يدل على تَقْصير شديد في العلم بكلام العرب؛ فإنها إذا وصفت الشيء بصفة غيره استعارت له ألفاظه وأجرته في العبارة مجراه، وإن كان لو انفرد [لانفرد][1] عنه بصفته غيره وتميّز دونه بعبارته.

فمن ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ لَمّا وصفها بالسُّجود جمعها بالياء والنون، ولا يجمع بهما إلا جِنْس من يعقل، ولكنه لمّا أجرى على الكواكب صفة من يعقل ألحقها في العِبَارة بهم. وكذلك قوله عزّ وجلّ حاكياً عن السمٰوات والأرضين (قالتا أتينا طائعين) لما حكى عنهما النطق والقول والطَّاعة والائتمار.

وهذه أوصاف العقلاء ألحقهم في علامة الجمع بهم، ثم أجرى الكلام على ذلك. قال عز وجل: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ وعلى هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٣٣﴾، وهو كثير في القرآن. وفي الشعر، فإذا جعل الغيث بَخيلاً، أو جَوَاداً ووجدا العرب قد أجازت ذلك وتكلّمت به جاز إلحاقه بالبخلاء والأجواد في استعمال العرب؛ وكأنه قال: الغيث أبخل السُّعاة، ولو قال ذلك لم ينكره منكر وإن كان هذا السَّعي [مقصور على أعلى العقلاء، لأنه السَّعي][2] في أتينا المعالي لا السعي على الأقدام.

وأنشدني بعض من أثق به لبعض العرب:

متى نوَّهت في الهيجاء باسمي ... أتاك السَّيف أوّل من يجيب

لمّا جعل السَّيف مجيباً ألحقه بمن تصح منه الإجابة من العقلاء، وقد جاء نظيره كثيراً.

أخوهم الهادي بن المطهر الجرموزي[3]

لست أنا ممّن مان، إذا قلت: إنه روح المعالي والناس جثمان، تخيّره المجد

---

(١) ساقط من (ش).

(٢) ساقط من مطبوعة الوساطة.

(٣) انفرد به المؤلف.

فانتقى، وصعد به الفخر فارتقى. فهيهات ثمّ هَيْهَات، أنه يدرك له أبناء الزمن هيئات. وقد انفرد بمنزلةٍ تقاعس عنها زحل. ونزل فوق الطباق بهمّته في أعلى محل، فما العيّوق وما السهى، بالنَّظر إلى رتبته التي أعيا كفّ الثريا مَسَّهَا.

أدبٌ تفتحت أزهاره، لما تكسّرت خلالها أنهاره، تفعل نفثاته بالألباب فعل السُّكَر، وتصنع كلماته بالأعطاف صُنْع الوتر، إذا تثنّت القدود، فهو ينظمه لها حادي، فإذا أظلم لَيْل المداد، فهو بنجُوم أشعاره فيه لنا الهادي[1]، قَضَيْت لسَمْعي من شعره أوطار. فَلَسْت بصاب بعدها إلى عود أوطار، ولست بمبالٍ أَلَبِثَ هزار الأغصان فوقها أوطار، فمن أبياته عُرِف الطَّرَبْ. ومن كلماته تعلّمت الحمائم الشَّدْوَ في العَذَبْ.

من أشعاره التي ارتقص لها غُصْن اليَرَاع وماد، وزَوَاهر نفثاته الطّالعة في ليل المداد. قوله في بعض القصائد:

لقد خانني الصَّبرُ ... وقد ضاق بيَ الأمرُ
فرفقاً أيها الحادي ... ومَهْلاً أيّها السَّفْر
قِفوا عَطْفاً على المضنى ... فقد أودى به الهَجْر
يراقب فِيكُم الأفلا ... ك لا يصحوا له سُكْر
وإن مرّت بذي سَلْم ... نسيم أو هَمَى قَطْر
تنَفّس فيكم الصّعدا ... فملؤ حشائه جمر
معنّى فيكم لا البان ... يُضبيه ولا القَضْر

السيد الهادي بن أحمد بن زكي الدين الجرموزي[2]

روض اخضرّت جوانبه، وتَسَاقطت من الثَّمر أطايبه، وابتسمت زهوره، واطَّردت نُهوره، وسَجَعت وُرْقه، وفُرِشت بالنَّبات طُرُقه، وبدرٌ أنار سناه، وسيّد أعرب عن مَجْده رُكْن العلا لما بناه، وصارم صقلته التجارب، ورمح هزّه الزمان

(١) تورية باسم المترجم له.
(٢) انفرد به كتابنا.

المحارب، أوقات دهره به زاهية، وعُيُون النَّقص والعَيْب عنها راقدة ساهية. واللَّيالي بمعاليه عن معالي غيره لاهية، فما أشبه صبح أيّامه بأصائلها، وأواخر لياليه الزاهرة بأوائلها، على أنه بديع الأعراق والأعراف. ولا بدع إن وُجِدَ به تشابه الأطراف[1].

له من الأدب البديع ما للحدائق من الربيع، فكم من خريدة حسناء، حَسَرَ عنها من المداد أردية دكنا، فبَدَتْ بأعلى زينة، تستفزّ العقول الرّزينة، وتَدْعو الأفئدة إلى الهَوَى، وتَقُوْد الخلي إلى الجَوَى، أبدى من الشّعر عجائبه ومحاسنه، ونفى بها من عيون الحساد مناماً ومحا سِنَه، فإن أردت على ذلك دليلاً، وإن شئت أن تعرف من الكثير قليلاً، فاسمع قوله في بعض القصائد مجيباً، وسَرّح نظرك فيه ترى عجيباً:

سَرَى طيفها وهناً إليَّ وحيَّاني ... فيا حَبَّذا طيف من السّقم أحياني
مضى للسُّرى يَجْتاب كل تَنُوفة ... ولم يُثْنه عن قَصْد مغرمه ثاني
أيا زائراً من بعد نأي وفرقة ... وعاود لمّا عاود النَّوم أجفاني
بعيشك يا طيف الأحبّة قل لهم ... أما عطفة تُرجى على المُذنف العاني
وهل ذاكري أحباب قلبي على النّوى ... أم البُعْد أغرى من أحبّ بِنِسْيان
على أن هذا الهَجْر والصّدّ منهم ... لحالان في شرع المحبّة حِلوان
وحُرْمة أيام الوصال التي مَضَت ... وطِيْب ليالينا بذِي الأثل والبان
لقد تلفت روحي اشتياقاً إليكم ... وهاجَتْ صباباتي إليكم وأحزاني
وقد كُدت أقضي بعدكم يا أحبتي ... ومن بَعْدكم ما كان بالموت أحراني

السيد أحمد بن الحسن الجرموزي[2]

بارعٌ حلب الدهر أشطره، وبليغٌ زَيّن كلامه أسطره، نفثاته جميلة المحَيَّا، ونسماته الباردة تفوح رِيًّا، روض أدبٍ نضير، نَسيمه عليلٌ وطرف نرجسه مريض

---

(١) توجيه في تشابه الأطراف من أنواع البديع سبق ذكره.
(٢) نشر العرف ١: ١١٧.

مطير، بطَلْعة كطلعة البَدْر، وصباحة تهيج بلابل الصدر، ذو محيّا وسيم، منح البدر بالكلف عليه وَسِيْم، قد دار على سالِفِهِ عذار، كأنّه سَبَج دبَّ على اللؤلؤ فاستدار، أو ظل امتد على النّور، أو مِسْك فتّ في صَحْن كافور، أو غيمٌ أحاط بالغزالة، أو محاق حفّ بالقمر أو هالة، أو نمل سَرَى، في أرض مثلوجة بلا مِرَا، فنور محيّاه أضوى من الشمع، وأخلاقه مع ذلك أصفى من الدمع، مع سَعَة في العيش، ووقار لا يخالطه الطيش، وحظٍ علا قدرا، لو رزقه ابن هلال[1] لصار بدراً.

وله مؤلف سماه (قلائد الجوهر في أنباء بني المطهّر) يتضمَّن سيرة أبيه وأعمامه، وإذا هو رَوْض يَبدو زهره من أكمامه، رأيته بجامع صنعاء، قبل أن يُوْليه الزمان عن مرامه صَرْفاً ومنعاً، وهو عاقد فيه لطلب العلم الحُبَا، وملتقط من ثمرات غصونه ما ساقطته نسيم الصَّبا، وماء النَّعيم يقطر من أديمه، وعرفه الطيب يفوح من شَميمه، ولم يزل قمراً منيراً، ولم يبرح رَوْضاً نظيراً، حتى نعته المنيّة، وهو في العُنْفوان، وفاجأه الموت الزّؤام بلا توان. فمات وهو في الشَّبيبة، وَهَصَرَ الحِمَام غُصونه الرطيبة، والموت مَيْدان طِرَاد، فمن سبق فيه فهو الجواد، لا برحت ثمرة ذاته جنيّة، ولا زالت زَهْرتها غضّة كما قطفتها يد المنيّة.

وله شعر هو الجوهر الفرد، أبقاه بعد تقضّية كما أبقى ماء الورد، حرّر فتدلى له الممتنع، وعُمَّم أقلامه بسواد مداده فتستر له المقنّع[2]. من ذلك قوله:

تدارك مُهجتي كرَماً ... ودع ما قيل عن كَمَل
فها أنا يا منى قلبي ... بهذا البعد عنك ملى

وقوله:

أرى من براني بهجرانه ... وأذكى حشاي بنار الفراق

---

(١) يعني به علي بن هلال المعروف بابن البَوَّاب، صاحب الخط المشهور توفي سنة ٤٢٣هـ.

(٢) يعني به المقنع الكندي المتوفى نحو سنة ٧٠هـ (الأعلام ٦ : ٣٢٠).

تـمـكّـن بـي سِـحـر ألـحـاظـه فـمـا يـشـتـفـي بِـرُقـى ألـف راقـي

وقوله:

لِــلّــه خــشــف لــم يَــزَلْ بِــبَــيْــنــه يُــتْــلِــفــنــي

كــم مــرّة وَدَّعــنــي وكــل مــن ودّ عَــنِــي

وقوله مضمناً:

وشـمـس مـلاحـة قـد قـلـت لـمـا رأيـت لـنَـمْـل عـارضـه دَبِـيْـبَـا

لـقـد أجـرى الـذى شـاهـدت دَمْـعِـي فـلا دانـيـت يـا شـمـس الـغـروبـا

وقوله:

تـجـنَّـى نـقـيّ الـخـدّ لـمـا طـلـبـتـه اجـتـمـاعـاً وولّى من مقاليَ غضبانا

فـقـلـت سَـتَـلْـقـاني غـدا بـك ضـاحـكـاً إذا صِـرْت من بـعـد الـمـلاحـة لَـخـيـانـا

وقوله:

لــلّــهِ خــشــف لــم تــزل وقــفــا عــلــيــه غــرامَــيَــه

أصــبــحــت مــمــلــوكــاً لــه والــعــيــن مــنّــي جــاريــة

وأحسن منه قول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله تعالى، ومنه أخذ[1]:

يـا سـيـدي إن جـرى مـن أدمـعـي ودمـي لـلـعـيـن والـقـلـب مـسـفـوح ومـسـفـوك

لا تَـخْـش مـن قَـوَدٍ يـقـتـصّ مـنـك بـه فـالـعـيـن جـاريـة والـقـلـب مـمـلـوك

وقوله:

وبـي رشـأ مُـنِـيـت بـه فـلـمّـا غَـزَتْ قَـلْـبـي لـجَـفْـوتـه كـتـائـب

رَجَـعْـت عـن الـتَّـصـابـي فـيـه عَـمْـداً ورحـت مـن الـغـرام بـه كـتـائـب

وهو من قول العلامة بدر الدين الدماميني المخزومي رحمه الله تعالى[2]:

---

(١) خزانة الأدب ٣: ٢٢٨ ط كوكب دياب.

(٢) خزانة الأدب: ١: ٤٠٩ ط دار صادر.

تـــدري لـــمـــاذا أتـــاك قـــلـــبـــي   مـــن عـــســـكـــر الـــوجـــد فـــي كـــتـــائـــب
أذنـــب ثـــم اخـــتـــشـــى فـــوافـــى   مـــن ذلـــك الـــذنـــب فـــيـــك تـــائـــب

وقوله رحمه الله تعالى في بعض الشعراء المغرمين بشرب الدّخان:

أقـول لـمـاهـر فـي الـشِّـعـر تـزري   مَـعَـانِـيْـه الـبـديـعـة بِـابْـن هـانـي
ألـسـت تـعـدّ فـي (الـشـعـراء) راسـا   فـقـل لـي كـيـف ملـت إلـى (الـدخـان)

أخوه القاسم بن الحسن الجرموزي[1]

بَلَغني عنه من طَيِّب الأعراق والأعراف، ما بلغ عن الحدائق المُزْهرة إلى الآناف، وسمعت من أخباره، ما يزيد الحسود من تباره، فهو أديبٌ شاب، لخمر كلامه بالمزاج شاب، حديث فضله مسلسل، ونهر مَجْده مطّرد سلسل، ريحان الخليط وشَقيق النديم، ورَوْضة اللّطف التي نشرت زهورها أيدي النسيم، ذو مشرب في الأدب هاني، وفَصَاحة يهون عندها ابن هاني[2]. فكَمْ لنفثاته من قتيل صبابة، وكم لأبياته من مُهج بالوَجْد مذابة، غرّيد الأقلام ساجعٌ بكلماته في الأوراق، وأغصان الهَوَاء متحرِّكة بنسيمها في رياض الأشواق.

وله في المحاورات، قِطَعِ كَلِمِ متجاورات، مع طبعٍ وسجيّة، تهبّ نسيم لطفها السجسجيّة، وهمّة سمحة التشمير فلا تلحقها الجِيَاد الأعوجيّة[3]، رأيته بعد أن وَلي القضا، وغصّ بالمتنازعين حوله الفضاء، ولَحَظهُ الزمان الساخط بعين الرِّضا، وأنزله بواد العقيق وسفح الغضى، فإذا هو وِتْرٌ ماله شَفْع، ومَنْصوبٌ للقضاء ذو رفع، يحكم بالقسطاس، ويكسر جَيْش المبطلين بأسمر القلم وأبيض القرطاس، فعِنْده الحق الصابح، ومَتْجرة في فَصْل الحكومة رابح، وهو بالتّحري حري. وفي الأحكام متوَقّف غير جريء، يَتَثَبّت فيها أي تثبّت، فلا يكاد يقال في

---

(١) نشر العرف ج ٢: ٣١٠ ط الدراسات.
(٢) يعني أبا نواس: الحسن بن هانئ.
(٣) سبق شرحها في الجزء الأول.

حبل التشاجر لقد بتّ، وشِعْره يُشْعر نسيم السحر، لو عطس عنه الصّبح لشمّتته الحمائم بالتَّغريد في الشَّجر، ينقص عنده يزيد الغواني[1]، ويرفل القلم منه في مَلْبس أرجواني، فَمَشْرب نظمه عذب المَنْبع، وحلل وشيه التي نسجتها يده يعجز عنها ذو الأصبع[2]، فمن شمول أدبه المتعالية عن المزار[3]، ومن قِطَع نفثاته التي تعاف عندها مقطّفات الجزار[4].

قوله في مليح عطار قُضَيت له من المحاسن الأوطار:

وعَطّار كثير الكِبْر والإعجاب والقسوة
ولا غرو إذا العطار كانت عنده نخوة[5]

ولمّا أنشدت هذا السيّد روح الدين وضيائه عيسى بن محمد بن عبد القادر فسح الله تعالى في أجله، أنشدني لنفسه قوله:

وشخص رأينا به نخوة يظنّ بها أنّه يَغظم
ولو كان بُقْراط في عَضره لقال له إنّها تهضم

ولصاحب التَّرجمة في رجل يلقّب بالغَمَام، وقد وصل إليه رسولاً بصلات وجوائز سنيّة:

أتانا الغَمام وفي كَفِّه جوائز أضحت تغيض العدى
وهذا التناسب مُسْتحسن لِكَوْن الغمام أتى بالنّدى

---

(١) كذا في الأصل ويرد في بعض المصادر ببريد الغواني بالباء الموحدة والراء المهملة لقب اطلق عليه لقوله:

فلا تدعوني بعدها إن دعوتني بريد الغواني وادعني للفوارس

انظر من لقب ببيت شعر للأستاذ أحمد محمد عبيد ص ١٨.

(٢) هو حرثان بن الحارث من بني يشكر بن عدوان سمي بذلك لأنه نهشته أفعى في أصبعه (المرصع: ٦٥).

(٣) جمع مزر بكسر الميم وهو نبيذ الذرة خاصة.

(٤) هو أبو الحسين الجزار شاعر سبق ذكره في ج ١: ٤٠٨.

(٥) تورية والنخوة: عند العطارين في اليمن نوع من الأعشاب تستعمل لغرض طبي.

وله فيه أيضاً، وقد حمل ورقةً من بعض أصحابه تشتمل على هجوه وذمّه:

هـذا الـغـمـام بـلـيـدٌ ... تـحَـمَّـل الـهـجـو عـنـوة
فـيـا لـه مـن غـمـام ... قـد جـاء يـحـمـل هَـجْـوه[1]

وله في رجل يرغب في مليح يتعلق برجل آخر يلقّب بالصائدي:

قُـلْـت لـه إذ هـام فـي شـادنٍ ... قـوامـه كـالـغُـصـن الـمـائـد
لا تـعـمـل الـحِـيْـلـة فـي أخـذه ... فـقـد غـدا فـي شـرك الـصـائـد(ي)

وهو من قول السيد عماد الدين يحيى بن إبراهيم الجحافي الآتي ذكره في الصائدي المذكور:

عـنّـفـنـي الـعـاذل لـمـا رأى ... صـبـابـتـي بـالـشـادن الـشـارد
وقـال مَـهْـلاً لا تـرمِ وَصْـلـه ... فـقـد غـدا فـي شـرك الـصـائـد(ي)

أخوهما عبد الله بن الحسن الجرموزي

متعلق بالأدب متشبّث، فجواده بعد جوادي أخويه المثلث[2]، أيامه في وجه الزمان غّرة، ولياليه في جَبْهة العصر طرّة، وبدور إقباله مشرقة، وخمائل شبابه مُثْمرة مُورقة، رفع له دُون مخدّرات الأدب النِّقاب، وهوى ساجع الفصاحة إلى رَوضه هويّ العقاب. ورأت الغيد درر ألفاظه فرمت عقودها من الرّقاب، وكان بينه وبين صاحبنا الأديب الشاب، السيد محمد بن الحسين الحمزي، لا برح ضريحه مخضرّ الأعشاب، ودّ متين العرى، ومكاتبات كأنها النَّسيم إذا سرى، ومحاورات إذا وقف عليها اللَّبيب، قال: الصيد في جوف الفرا، ومات وروض شبابه نضر، فإنه ممّن عاجله الزمان بمنجل هلاله فاختضر[3]، ما دبَّ عقرب صدغه إلا لَسَعَه، ولا جال جواده إلا قيل له إنّ لك في مجال المقابر لسِعَة، سقى حفرته الصَّيب الهامع، وضحك في جوانب لَحْده الزّهر على طرف من الغمامة هامعٌ دامعٌ، وحَثَّ

(١) قلت: الهجوة في عرف أهل اليمن الغيم الذي يحجب الشمس.
(٢) هو الفرس الذي يأتي بعد المصلّى (تاج العروس ٥: ١٨٨) ط الكويت.
(٣) اختضر: مات شاباً.

إلى قبره قوافل السّحاب بَرْقها اللاَّمع، وصَلّت عليه نسمات الرحمة؛ فإن ضريحه للمحاسن جامع[1]، ما تَضوَّعت نسمة السّحر رَيًّا، وقطفت كفّ الصّبح من حظيرة السماء عنقود الثّريا، وتختَّمت راحة الجو بفيروزج الصَّباح، وتناول الغُصْن في كأس الزنبق من خمرة الطل الحلال المباح.

ومن شعره الذي أَسْكر، ونظمه الذي عنده الدرّ لا يُذْكر، وحلاوة فيه التي يمرُّ بِجَنْبها السكر، ونفثاته التي فَضْله معها لا ينكر، قوله:

يقولون لي صف ما لقيت من الهوى ... وبُعْد الذي بالبِيْض والسُّمر قَدْ حُمِي
وكيف وقد سالت دموعي بأنني ... أعبّر عن شوقي وذا الماء في فمي

ومما قلته أنا هو:

لي الله من إنسان عيني فإنّه ... بِفَرْط البكا قد بَثَّ مكتوم أسراري
فَوَاعَجَباً منه أينطق بالبكا ... وفي فمه بالدَّمع ماء البكا الجاري

وقلت أيضاً:

يَقُول لنا الرَّوض الأريض أنا الذي ... إليه ظُهور السرِّ بالنَّشر ينتمي
فأنطق بالنَّمام عن نَفَس الصَّبا ... وأفصحها والماء بالنهر في فمي

وما أظرف قول الشيخ علاء الدين الوداعي رحمه الله تعالى[2]:

وأغَنّ ساجي الطَّرف ذي هَيَفٍ ... والواو في «وأغَنّ» للقسم
قالت خلاخله أيمكنني ... نُطْق وماءِ السَّاق ملء فمي

وقال آخر:

في فيَّ ماء فما اسطعت الكلام له ... لكن كفاني عن التَّصريح إيماءُ
وما تَرَكْت صريح القَول من حصرٍ ... عن الكلام ولكن في فمي ماء

وقال الشّيخ جمال الدين محمد بن نباتة المصري رحمه الله تعالى[3]:

---

(١) تورية بالجَمْع المعروف والجامع وهو المسجد (معروف).

(٢) خزانة الأدب ٣: ٣٠٧ ط كوكب دياب. (٣) ديوان ابن نباتة: ١٨.

أكتّم أخبار الهوى عن عواذلي ... وللطَرف منّي بالمدامع أنباء
فيا عجباً منّي لإنسان مقلتي ... يحدّث أنبائي[1] وفي فمه ماء

وأورد صاحب كتاب (حياة الحيوان) العلامة كمال الدين الدميري رحمه الله تعالى فيه عند ذكر الضفدع للواثق قوله[2]:

قالت الضِّفدع قولاً ... فَهِمْته الحكماء
في فمي ماء وهل ... يَنْطق من في فيه ماء

ومن الواجب إيراده هنا قول بعضهم:

استغفروا الله على أنني ... كَضِفْدع في وسط اليم
إن نَطَقت أشرقها ماؤها ... أو سكتت ماتت من الغم

وقال المولى الحسين بن عبد القادر رحمه الله تعالى في منثور له أجاب به عليّ ما لفظه.

ولقد أحسن بالخمول في هذه الأيام التي كلما استنطقت في وصفها قلماً، وأمليت من ماء المحابر فيه فما، وقلت له: انطق قال: وهل ينطق من في فيه ما. انتهى.

ومما جاء لي في منثور أيضاً قولي: فلا ذم لي ولا مقت لي، في حبّ من أصاب سهم مقلته مقتلي، فإن الهيام به عزّ وارتفاع، وسمو للحظ من الحضيض إلى اليفاع، فبيوت الفخار بعشقه لنا تبنى، فعن كل لَهْوِ إلاّ عن حبّه تبنا، فقد أفصح الطير عن هيامي به على غصنه الأسما، ونطق الرّعد بحنيني إليه، وإن كان في فمه من الغيث ماء، انتهى.

قولي: ولا مقت لي مع الفقرة التي تليها، فيها الجناس أيضاً كما هو ظاهرٌ، ومثله قولي في إيهام التأكيد نظماً، وهو:

تبنا وسلونا عن سلمى ... من لُطف الله وعن لبنى

---

(١) الديوان: أخباري.

(٢) حياة الحيوان ٢: ١٤٩ ط الشعب.

فغدت غرف الجنات لنا فضلاً لما تبنا تُبنى

وقول الشّاب الظريف محمد بن الحسين بن يحيى الحَمْزي في قصيدته التي كتبها إليّ وقد مضى ذكرها في ترجمته رحمه الله تعالى مورياً في المدح:

فبيوت التّقى تُشَاد لنا إن فَعَلْنا بالوَعْظ منه وتبنى

والأصل قول الشيخ الفاضل الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى في التورية[(١)]:

خليلي تَوَلّى العمر مِنّا ولم نتب ونَنْوي فعل الصّالحين ولكنّا
فحتى متى نبني بيوتاً مشيدة وأعمارنا مِنّا تُهدّ وما تبنى

وقال بعضهم وهو يشبه كلام البهلول:

بيوتنا[(٢)] تُبنى ونَحْن ما تُبنا
يا ليلة بتنا من قبل ما تبنى

السيد عبد الله بن إسماعيل الجرموزي[(٣)]

صديقي إذا جفاني الصديق، ورفيقي في طرق المسامرة إذا عَزَّ الرفيق، بيني وبينه ودّ أصفى من كل صافي، طالما أنصفني معه وقد عَزّ من أبناء الجهالة إنصافي. يَنْجذب إليه فؤادي فهو مغناطيسه، ويلذّ لي ما تَنْفث به أقلامه [وتجنّه][(٤)] قراطيسه، سلس الأخلاق المستلطفة، كأنها رَوْض أطاب مقطفه، لو مازجت البحر لعذب مالحه، ولو خالطت السملق[(٥)] المكفهرّ لاخضر كالحه، ألطف على الجليس من النّسيم، وأشهى إلى القلوب من المحبوب الوَسيم، يميل مع الصَّبا، فطالما هام بها وَصَبا، وطالما نفى عن مُجَالِسِه وَصَبًا، يقاسم الحمائم أشواقها، وينظم من لؤلؤ نفثاته أطواقها.

---

(١) خزانة الأدب ٢: ٢٢٨.
(٢) في هامش (ش) صححه هكذا: قيورناتبني
(٣) انفرد بذكره.
(٤) زيادة في (ب).
(٥) السملق: القاع الصَّفصف.

باسم الثغر من بِشره، معَطِّر الكون من نَشره، السِّيادة من بعض مابِهِ وسم، والمَجَادة أحقر ما له من الفَضْل قد قُسِم. زُفّت إليه العلى وقد صاغ لها من خصاله الحلا، جنى زهرات الإقبال من أيامه التي هي أيام المِهْرجان، ووفّر لغادة الحسن والمعالي وقد خطبها المهرجان. للّهِ همته وما فعلت، وللّهِ شيمته التي صعدت في الآفاق فَعَلَتْ، يتطلَّع إلى الأدب تطلّع الظمآن إلى النّهر، ويقع على دفاتره وقوع الطلِّ على الزّهر، كم ولي من قطرٍ فأحسن تصريفه، وأظهر بعد التّنكير من عدله تعريفَه. فإذا هو عاملٌ[1] ليس فيه مَطْعن، انقاد له الصَّعب الأبيّ وأذعن.

وشعره من أغرب نَمَط، يَهْتِم به الدَّفترِ الذي هو من البياض والمداد ذو شمط، منه قوله:

يا رَبِّ قد عظم الهوى وتحكمت ... أيدي النَّوى والخل جَارَ بِحُكْمه
ولقد شكوت إلى الأنام فلم أجد ... برءاً لجسمي من ضناه وسُقْمه
وفزعت مِمَّا بي إليك مرجيًّاً ... كَشْف الذي قد حلّ بي من همّه
فانظر إلى حالي وحلّ بفرجةٍ ... قلبي فإنني في حبائل ظلمه

وقوله:

حَتَّام أكتم من هواك عظيمه ... وإلامَ أصبر عنك يا ريم اللوى
وعلامَ هذا الصّد منك وطوله ... أبداً وحظِي منك هَجْرك والنَّوى
يا طالما كابدت فيك عواذلي ... وفؤادي المُضْنى بحبك مَا أرعوى

وكتب إليَّ وأنا وإيّاه بمحروس مدينة عمران في شهر جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف (سنة ١١٣٣) يلتمس منا عارية كتابنا المسمى «عطر نسيم الصبا». قوله:

يا سيدي وعمدتي ومالكي ... شمس الأنام الفاضل ابن الفاضل
تفَضّلا منكم على ذي لوعةٍ ... إلى رياض ذات زهرٍ ذابل
رياض آدابٍ كفاها جودكم ... لمّا همى عن هامعات الوابل

---

(١) العامل: الرّمح والعامل عندهم: القائم بأعمال الحكومة.

شوقي إلى تأليفكم فها أنا ... قد صِرْت ذا عقل إليه ذاهل
(عطر النسيم) حين فاح نَشْره ... في الصُّبح قد طاب وفي الأصائل
ما هبّ إلاّ طاش منه ذاهباً ... في طيّه معقول كل عاقل
للّهِ من أنشا بديع نَثْره ... ونَظْمه مُتّسقاً من كامل
ما ناله من خاض بحر درّه ... فكَيْف حال واقف في السَّاحل
للّهِ مولانا الشّهاب آخراً ... أتى بما عَزّ على الأوائل
إن قام قسّ في عكاظ خاطباً ... كان الذي قد كان في الجحافل
وإن بدا لدرسه في مجلسٍ ... رأيت منه بهجة المحافل
إن حرّر الإنشا فَدَعْ ما نَقَلوا ... على الفتى عبد الرّحيم الفاضل
ما قَطّ سحبان يعدّ عنده ... إن قال إلا أخرساً من وائل
وأن تقول نظمه مراجعاً ... فأحمد الكندي غير قائل
أبقاه من أولاه منه نِعَماً ... لا زال في عزّ وفَضْل شامل
ما انتشرت آدابه في مشرق ... ومغرب كالزهر في الخمائل

فكتبت إليه مجيباً ووعدته بوصول الكتاب المذكور من مدينة شبام كوكبان:

قد أعربت باللحن في الاصائل ... بلابل تبعث لي بلابلي
وذكّرتني للصّبا ملاعباً ... بها الصَّبا قد لطّفت شمائلي
أيّام ما بيني وبين لذّتي ... وبين من هِمْت بها من حائل
ربيبة قوامها غصن نقى ... إذا انثنى في ورق الغلائل
ما بَيْن جِيْدِ زين بالحلى لها ... وبين جيد للظباء عاطل
تخَطُر فيه وَهْوَ في وسواسه ... كقَلْب صَبّ في هواها ذاهل
ما بَيْن حِجْل ثابت في ساقها ... بالصّمت منه ووشاح جائل
من قدّها ونرجس في طرفها ... هِمْت هوى بذابل وذابل[1]

---

(١) ذايل: رمح أو سيف ويقصد قامة المحبوب والذابل الآخر النرجس أو الطرف.

تَبْسُم عن در حكى نظماً لمنْ فاق الورَى في السَّادة الأماثل
أخلاقه الروض الأريض ما سَقَى إلا بلُطْف كالنّهور سائل
مولاي فخر الدين قدْ بَعَثْتَ لي بالنّظم سِحْراً فاق سحر بابل
فكلّ إنسان رأى سطورة يقاد للجنَّة بالسَّلاسل[1]
نباته في الرّوض غير باقل إذ عد أعيا عنده من باقل
ساجَلْتني بما غلا وما أنا أهل له أفديك من مساجل
تطلب منه (العطر) وهو ضائع بالطّيب منْ خُلْقك في المحافل
وهو امتثالاً عن قريب واصل يالَيْته لو كان غير واصل
فإنه عن المقام قاصر ما تَحْته في أدب من طائل
واقبل جوابي أنْ أتى تفضّلاً ذا منتهى ما حَرَّرت أناملي
ودُمْت للرّق به مكاتباً ما سَجَع الطّير بغصن مائل

ولما نفذ من مدينة عمران المحميّة عاملاً إلى جهة (حفاش)[2] بضم الحاء بعدها فاء، وألف وشين معجمة. وجهة (ملحان)[3] بكسر الميم وسكون اللام بعدها حاء مهملة وألف ونون، بصيغة تثنية ملح. والجهتان في الحقيقة جهةٌ واحدة حُوّل لنا عليه بحواله في قضاء الدين، فأنفذنا إليه رسولاً، وذلك في سنة ست وثلاثين ومائة وألف (سنة ١١٣٦).

وكتبت إليه من النظم والنثر. قولي:

يا هنيئاً لراكب ولماشي أمّ عن شوقه ديار (حُفَاش)
وسقى أرضها ملثّ من القطر ولا أرتضي لها بالطّشّاش
رَوّها يا غمام واعرض لك الخير عنْ الغير من جميع العطاش

---

(١) إشارة إلى قوله ﷺ: عجبت لقوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل.
(٢) حفاش: سلسلة جبلية في بلاد المحويت بالقرب من جبل ملحان الآتي ذكره (المقحفى ١: ٤٨٢).
(٣) ملحان: سلسلة جبلية في غربي المحويت (المقحفى ٢: ١٦٣٥).

لم تفرّق فيها ظباء الغوالي مثلما فرّقت ظباء خداش[1]
هنّ في النور كالمصابيح والنو ر سقوطاً من فوقها كالفَرَاش
طاب ريحانها وإن كان نمّا مأ على روضها الوريف وواشي
غرّد الطير تحت ظل من الدّ وح عليها ممتعاً في عِشاش
مد فيها النبات رَفْرف وشي ناعم لَمْسه لطيف الحواشي
طرّز الزهر منه فوق غصون مائسات القدود أبهى قماش
كي يلذّ الثواء للفخر فيها بين وِرْد صاف وطِيْب معاش
سَيّد نَظَّم العقود من المجد كعِقْد النحور بعد التلاشي
قد نَشَا في العلا وأما سواه فعلى غير منهج الرشد ناشي
عُقِدَ التاج من فخار عليه إن زها غيره بِبَزّة شاش
وعلى الكسر قد بنى مهج الأ ضداد عن غيظهم بناء رقاش[2]
صلب عظم في كدحه للمعالي حين أوهى الأقران لين المشاش[3]
هاك مولاي أسطرا عن سواد من مداد أضحى كلون النجاشي
لو رأته الحسان بادرن منه لبياض الأكف بالانتقاش
صَدَرت هذه الحوالة في شيء حقير يظن فيه رياشي
فأرشني أقضي ديوني فديني لا أرى مَطْله كدين الإراشي
وَابْقَ ما صار سر روض حكى النمّـ ـام منه بضائع العرف فاشي
باكرت رَبْعَكَ السحابُ بغيث صادق الانهمال لا بالرّشاش

رعى الله أخلاقاً يَقْصر روض الربيع عَنْها، وتقتبس نسيم الصَّبا لطفه وطيبه منها. وحَرَس مقاماً هو مضرب السّيادة، وروض مَجْد لم يكن فيه عليلٌ إلا

---

(١) إشارة إلى المثل: تكاثرت الظباء على خراش (أو حراش).

(٢) هي رقّاش بنت عمرو بن ثعلبة صاحبة المثل (التجرد لغيرنكاح مثله) قالته لكعب بن مالك بن تيم الله عند ما قال لها: اخلعي درعك (المستقصى ١ : ٣٠٦).

(٣) الطبع أو النفس.

النَّسيم، فهو مفتقر إلى العيادة، وهو مقام مولاي الفخر[١]، الذي لا تبرح الغمامة تَبْكي في عرصاته بكاء الخنساء على صخر، أوحد النبلاء خصالاً، وأنفذ الماجدين في أغراض المحامد نصالاً، عبد الله بن إسماعيل الذي أتاه الله تعالى كتاب الأدب، فقال (إني عبد الله أتاني الكتاب) لا برح في أبلغ مسرة تَلْطُف لطف ما يجري بين المحبّ والمحبوب من العتاب، والتمس ممّن خصه بالمعالي، أن يوسّع له في الأيام والليالي، ولا زال في (حفاش) ذا طائر من النعمة يعرب بالألحان، ولا برحِ لَيَدْيه الباذلتين بَحْران سائغان شراباً، وإن احتوى عليهما (ملحان)[٢].

وعليه سلام كأنه رَشْح خدود الورد إذا طَلّ، وإكرام تحفّ كما حفّت جرم نسيم الصَّبا إلا أنه ما عَل، وإن كان يعرف من الندى الساقط في الصباح عليه قد بل. صَدَرت هذه البطاقة، التي هي باب إلى المعاهدة وطاقة، اقترحت على مولاي السَّيف[٣]، تعيينها إليكم بلا ميل ولا حَيْف، مطابقة لما من المحب في قارن[٤]، وَذَكَرْتم له من أنه يَقْطع من أنف الحسود المارن، بتعيين شيء إليكم تكون إلى الرعاية سبباً، ويطفو على كاس المحبة حبباً، فعجلوا بزلاج[٥] الرسل، واقطعوا عنق دين علي بسيف من تَنْويلكم إذا سَل، فإني عددت ديني بعد توجّه الورقة إليكم كأنه قد قضي، ومضيت في سبيل الاستراحة من الهمّ لمّا أضاء لي نجم الطَّمع فيكم وما أسعد ذلك المضيء، فعاملوني معاملة والدكم جعفر بن المطهر الفحل الأديب، للقاضي محمد بن إبراهيم السحولي، وقد أخصب بعيشه مرعاه الجديب، لما عين له الإمام المهدي إليه قضاء دين، وهو عامل يطعن نحور الأعداء في جهات (العدين)[٦]، وكتب إليه الأرجوزة التي سارت مسير الشمس.

---

(١) الفخر عند أهل اليمن لقب لمن يسمى عبد الله.

(٢) سبق قبل قليل.

(٣) السيف هنا لقب الأمير وغالبا ما يكون أحد أولاد الإمام الحاكم في ذلك الوقت.

(٤) قارن: قرية غربي مدينة عمران (المقحفى: ١٢٣٣).

(٥) زلاج في كلام أهل اليمن بمعنى تجهيز العسكر ونحوهم أو زلجة: بعثه أو أرسله.

(٦) العدين بلد باليمن سبق ذكره.

وفيها يقول رَوْض الحيا منه جوانب الرّمس:

إليك أشكو هَمّ ثقل دين ... أنقض ظهري صِفِرَ اليَدْين
أحرح صدري أسْهَر العَيْنين ... صَيّر عيشي[1] غالباً يسرين

فإنه وفّر له المعَيَّن، وأوضح مقتضى مكارمه وبيَّن، فعاد مفلسه في أوفر الغِنَى، وأعلنت حمائم آماله بمُطْرب الغنا، وما زالت وقد طوّقها بأنعامه تغنّي له بالثناء، وها هنا للعبارة أعتصر، ولما يقتضي التَّطويل أختصر، تخفيفاً على السمع الشريف. وأختم بالسّلام الذي لا أرتضي لديه روض الربيع الوريف.

فكتب إليّ مجيباً من النظم والنثر قوله:

وصلت في ملابس وقماش ... ذات قدّ يميس بالارتعاش
بنت فكر تجرّ ثوب افتخار ... في جلال وعزة ورياش
أخجلت كل وامق قد رآها ... بسرور وفرحة واهتشاش
يلتقيها المحبّ في كل حال ... بخُضوع وفرحة وبَشَاش
هي رَوْض الرَّبيع يَرْتاض فيها ... كل من كان فوقه تاج شاش
ساعدتني بِوَصْلها ولقاها ... لم تُطَع قط في المحبّة واشي
يا لها من مليحة في ثياب ... زانها حسن نسج تلك الحواشي
تُنعش الهمّة المريضة حتى ... هيّجت بالغرام قلب الطواشي[2]
فَبِهَا اليوم شُغْلَتِي وغرامي ... وبها اليَوْم لوعتي وانتعاشي
غادة في الجمال وهي قصيدٌ ... رَقْمها في الطُّروس كالانتقاش
نَفَسٌ نَفَّس المضايق حتى ... صِرْت من طيب ذلك النشر ناشي
حاك لي بردها إمام القوافي ... وجلاها لقاعد ولماشي
الصّفيّ الذي به قد صفا لي ... بصفاء الوداد لبّي وجاشي
أوحد النّاس في النّظام وفي النـ ... ـثر فها عرفه على الروض فاشي

---

(١) في (ش) عسري.

(٢) العبد الخصي.

الـخـطـيـب الأديـب هـذا فَـدَعْـنـي ... مـن خـرافـات مـصـعـب والـرقـاشـي
لا تـقـل ذا الـخـلـيـل هـذا ابـن حـمّـا ... د مـلاذ الـلّـهـيـف غـيـث الـعـطـاش
نـاد أمـا عَـلـمْـت كُـنـه عـلاه ... أيـهـا الـعـالـمـون لَـسْـتـم عـلـى شـي
فـلـه هـمـةٌ تـوسّـد فـيـهـا ... خـشـن الـلـمـس بـعـد لِـيْـن الـفِـرَاش
لـيـت أنّـي نـديـمـه طـول دَهْـري ... بَـعـد بُـعْـدي حـتـى يـطـيـب مـعـاشـي
غـيـر أنـي بـعـدت فـي طـاعـة الـمـو ... لـى ولـم ألـق غـربـتـي بـطـيـاش
فـافـتـخـاري بـخـدمـتـي لـعـلاه ... فـبـهـا قـد أرشـت خـيـر ارتـيـاش
كـل يـومٍ وكـلّ لـيـلٍ عـلاجـي ... فـي صَـلّاح الأغـمـار أهـل الـقـعـاش[1]
قـد أتـتـنـا تـلـك الـحـوالـة مـنـه ... وهـي عِـنْـدي عـلـى الـيـقـيـن كـلاشـي
حـقـرت فـي جـنـاب مـثـلـك لـكـن ... قـد كـفـى الـمـرء مـنـه حـسـن الـبـشـاش
فـتـراهـا أتـتـك مـن غـيـر نـقـصٍ ... تَـحْـت طـبـع خِـتّـامـه فـي الـحـواشـي
وسـلام عـلـيـك دمـت بـخـيـرٍ ... مـا أوى طـائـر إلـى الأعـشـاش

عمر الله تعالى الجناب العالي ببقاء زينة العلماء، وراس جهابذة الأدباء وتاج الحكماء الحلماء، زاده رونقاً إلى رونقه، وأطلع قَمَره المنير في منازل مشرقة، ولا زالت شمس فضله بأنوار الهداية مضية، ونجوم الاهتداء به سائرة في فلك تلك الحضرة العليّة، فإنها بالصفي[2] الوفي صافية المشارب، وافية الكمال بعذوبة منطقه، ففيها للطالب غاية المآرب، نقطة بيكار الفضائل والفضل. مركز المعالي في النباهة والفصل، أوحد المجدِّين في طلب المحامد، فهو لا يعرف الهزل، الخائض للدرّ في لجج البحور، المقلد به من الغوالي الحسان الأعناق والنحور، المالك لما رق وراق، من نَفَثَات البلغاء الفصحاء على الإطلاق. السَّابق لكل سابق في حَلَبة السِّباق، عَذْب المنطق الذي يهش لرقته المشتاق، الواحد في العَصْر الفريد في هذا الدَّهر، المُلْجم بفصاحته الحريري والبديع، الآتي من كلماته في

(١) القعاش: جمع قعشة في كلام أهل اليمن بمعنى الوفرة أو جمة الشعر غير مرتبة.
(٢) الصفي: لقب لمن يسمى أحمد.

الشتاء بزهر الربيع، شهاب الدين والملّة وصَدْر العلماء الأجلة. وبدر الفلك الذي تتضاءل له الأهلّة، وأوّل الأحباب في المنزلة وعنوان الأخلّة، أحمد بن محمد الحيمي، الذي أطفي بذكره ضيمي، زاده الله تعالى علوّاً إلى علوّه ومنح أدبه أصدق حلوّاً إلى حلوّه، وعليه سلام يجانس رقة ألفاظه، وإكرام يؤدي ما يجب له كاملاً، فلا يقتصر على أبعاظه[1]، ولا برحت التَّحيات إليه واصله، وشآبيب الرحمة على ساحات دياره هاطلة، وسوابغ النّعم إلى سوحه الكريم مترددة، وحلل الرَّحمة على عاتقه الشَّريف متجدّدة، تَعُمُّ منازله الكريمة بالمسك الأذفر، وتعرّفه بَعْرفها بأن له عند محبّة من الود الحظ الأوفر. وما عيّنه المولى السَّيف، صدر إليكم من خالص الفِضّة لا الزَّيف، ووجد المحب إلى الوفاء بحقّكم وَجْد المحب الشيق. وتوقه إليه كما لا يعزب عنكم توق الظمآن إلى الورد الريّق، فلا يقاس به حق الغير مع وجود الفارق، ولا يطرق باب الرعاية غيركم أبداً طارق، والطبع مجبول على الوفاء، وأسباب الوداد ثابتة على الصفا.

وهذا الجواب صدر مع شغل وافرة، ووردات متضاعفة مترادفة متكاثرة، وعليكم من التَّحيات الأطيب، والأجزل الذي لا يقدر الواصف على وصفه ولو أطنب.

السيد الشريف العارف محمد بن خالص ابن عنقاء الحسيني المكي الشافعي[2]

ثبت في زَبيد، ثبوت العقد في الجِيْد، فَزَهت به وازدانت، وقطف بأوديتها رطب علوم قد دانت، عظيم الهامة، طويل العنق والهامة، كأنّه غصن يميس، أو رمح ركز في الخميس[3]، من رام لحاقه رام الظفر بالعنقا، فلم يرد من غدران آماله الخابية إلاّ رَنْقا[4]، لا يرى الناظر له مثلاً، ولا يجد الطالب قريناً له في

(١) كذا صوابه أبعاضه بالضاد المعجمة.

(٢) من علماء اليمن في القرن الحادي عشر قتل في سجن سنان باشاسنة ١٠٤٥هـ (انظر الإحسان في دخول اليمن تحت عدالة آل عثمان).

(٣) الخميس: الجيش سبق ذكره. (٤) ماء مكدر.

طريقته المثلى، حتى يرى للخصي نسلٌ يغازل، وتأنس العنقاء فتألف المنازل.

له في علم أصول الفقه نون وصاد، فهو لا يدرك فيه حتى قال كل عالم[١] (أرى العنقاء تكبر أن تصاد) ومعرفته في سائر العلوم، مما يداوي بها الكلوم.

وقد وصف لي بعض العلماء حاله، وحَقّق لي من درايته ما يفضل به على غيره لا محالة، وكان إذا روجع، جاء للخصم بما يوجع، فما تقوم عنده له حجة، ولا يَقْدر أن يقطع بالخوض منه لجّة، لقلمه نَهْج في الفتوى بين، فألف غصنه من النعمة حرف ليّن، وقد وقفت له على أسئلة وجوابات، تزيل ما حك من الجهل في صدور من في مرض أصبح وجوى بات.

وله شعر يعرب عن فحوليته. يقال له: أعظم على من نظم الشعر وِتِهْ، طالما زان بدرّة عُنَقاء، وأزرى عنده بعبد بن قيس المعروف بابن عنقاء، على أن شعر العالم بادي التّكلف، ودرّه غير منتضد التوافق والتألف، تراه في رداء من التعمق والتقعّر قد لف، فمن نَظْمه السّهل، وأدبه الذي هو للمَدْح أهل، وآيات محمد التي لا ينكرها إلا أبو جهل، ممّا طار مطار العنقا، وزيّن بلآليه من الخرائد سالفاً وعنقا.

من ذلك ما أنشدني له بعض من لازمني ملازمة الغريم، من ذوي العلم الموفور، وذلك بمعمور مواهب الكريم. وهو قوله مضمناً:

عذّبتني بالهوى فالصّب في قلق والقلب في حرق والطرف في سهر
فاسمح بِطَيف يوافي في المنام إذا لم ترض يامنيتي بالوصل في سمر
بَعُدت في فلك لا يرتقى أبداً (يا أشبه الناس كل الناس بالقمر)[٢]

وقلت أنا في تضمينه مع الاستخدام بالضمير:

أشبهت بدر الدّجى لكنّ عن كلف به حميت فما في الخدّ من أثر

---

(١) من قصيدة مشهورة لأبي العلا المعري.

(٢) تضمين شطر بيت لعمر بن أبي ربيعة أول البيت:
كم قد ذكرتك لو أجزى بذكركم

نُزِّهت عنّي ولكنّي أصبت به (يا أشبه الناس كل الناس بالقمر)

لأن قولنا: نزّهت عنه أيها المخاطب أي عن الكلف. والمراد به الكلف الذي يعلق البدر، والوجه وهو معروف. والمراد به في الضَّمير الذي في قولنا: ولكنني أصبت به، الكلف الذي هو شدّة الحب والمبالغة فيه. ومنه قولهم: لا يكن حبك كلفاً، ولا بغضك تلفاً وأصله من الكُلفة بضم الكاف، وهي المشقة، يقال: كَلَّفه تكليفاً إذا ألزمه ما يشق كأنّ المحب كَلّف الحبيب ما لا يطيق.

وأصل هذا المصراع المضمن من الشَّواهد النحوية، والشَّاهد فيه إضافة كل إلى مظهر. والقياس أن يقال: كلهم بالإضافة إلى المضمر.

قال ابن مالك: وقد يخلفه المُظْهر، يعني المضمر واستشهد عليه بالمصراع المذكور. وقد ردّ عليه بأنّ كُلًّا هنا ليست للتأكيد، وإنّما هي نَعْت وليس شيء؛ لأن التي ينعت بها دالّة على الكمال لا على عموم الأفراد.

وكتب إلى صاحب الترجمة رحمه الله تعالى قاضي قضاة جبلة والمخلاف، وهو العلامة صالح بن عبد الرحمٰن الأفندي سنة ثلاث وتسعين وألف (سنة ١٠٩٣)[١] يسأله عن معنى بيت لأبي الطيب المتنبي وإعرابه قوله:

يا إمام العلوم أشكل بيت لأبي الطيب البليغ المجيد

أي يوم سررتني بوصال لم تُرُعني ثلاثة بصدود

(أيّ) موصولة أو استفهامٌ أو لِشَرْط أو الكمال الفريد

ولكل شَرْط ولسنا نراه ويحال الجميع للمَفْقود

وابن لي سررتني بوصالٍ هل له موضع صحيح الورود

وكذا نصفه الأخير أفِدْني حكمه مُسْرعاً على التَّسديد

فأجابه بقوله:

---

(١) قلت: لعل هذا التاريخ خطأ لأنهم ذكروا أن قتله ـ أعني صاحب الترجمة ـ كان سنة ١٠١٦هـ (انظر غاية الأماني: ٧٩١ ح إلا أن يكون المذكور هنا ابن المترجم له أو حفيده والله أعلم).

مَـرْحـبـاً مَـرْحـبـاً بِـنَـظْـم فـريـد ... مـن أفـنـدي الـبـلاد بَـيْـت الـقَـصِـيْـد
مِـرْحـبـاً مـرحـبـاً بـه غـيـر أنّـي ... لَـسْـت إلا بِـمَـنْـصـب الـمـسـتـفـيـد
غـيـر أنـي أجـبـتـه حَـسْـب فَـهْـمـي ... قـابـلاً خـاشـيـاً مـن الـتَّـفْـنـيـد
أيّ مُـسـتـفـهـم بِـهَـا غـيـر مَـحْـض ... بـل بـالإنـكـار شِـيْـب غـيـر مُـجِـيـد
وهـو ظَـرْف مـن لـيـس يـا صـاح وا ... لـجـمـلـة مـسـتـأنـف بـلا تـرديـد
وإذا مـا رفـعـت أمّـا سـروراً ... بـابـتـداء ولَـيْـس ذا بِـسَـدِيـد
فـيـلـيـه سـررتـنـي خـبـر عـنـه ... عـلـى حـذف رابـط مـقـصـود
ومـن الـتَّـاء لـم تـرعـنـي حـال ... فَـهْـو فـي مـوضـع انـتـصـاب مـشـيـد
وهـو الـنَّـعـت لـلـوصـال بِـحَـذْف ... الـرَّبـط أي بَـعْـده بـغـيـر سـمـود
أو لَـعَـطْـف بـحَـذْف فـاعـل ذا الإ ... نـكـار والـمَـنْـع مِـنْـه غـيـر بـعـيـد
وروى فـي ثـلاثـة رَفْـعـه فـالـحَـال ... مـمـنـوعـة لـفـقـد الـعَـقِـيْـد
أو فـقـدّر لـلـربـط مِـنْـك بـضـعـفٍ ... فـالـوجـوه «دون» جـحـود
قـالـه الـخـالـص بـن عـنـقـاء بَـدِيْـهـاً ... وصَـلَـواتـي عـلـى الـنَّـبـي الـحـمـيـد
وعـلـى كـلّ مـؤمـن مـع سـلامـي ... أبَـداً سـرمـداً بـلا تـحـديـد

القاضي عبد الله بن علي القعطبي[1]

من ثغر قعطبة[2] نديمٌ أخفّ من الصَّبا، وجليس أرق من أيام الصِّبا، دَبّ في الأعطاف شرابه، وأسمع سجع الحمامة من أسود شبابه غرابه.

له [في][3] فواكهه لطائف جنيّة، وثمارعن شراب السَّحائب غنية، لذّ في الأفواه طيب عناقيده، وأعيا الحساد لمّا قيّد الأوابد الأدبيّة، فيا ويحهم من عنا قيده.

له جذوة ذكاء، تشتعل كأنوار ذُكَاء[4]، حَسَنَ التَّخْيل والفَهم، مع خفّة في

---

(١) انفرد بذكره.
(٢) قعطبة: مدينة بالجنوب الشرقي من مدينة يريم (المقحفى ٢: ١٢١٧).
(٣) ساقط من (ب).
(٤) ذكاء: الشمس سبق مثله.

الحركة كخفّة السَّهم، وسرعة خطاب، حلا للمستمع وطاب، لا يصمت إلا قليلاً، ولا يُبْدي من ألفاظه إلا جَليلاً، فالوِشَاح يستعير منه القَلَق. والخرد الحسان تتعلم منه المَلَق، إلا إن قلقه يُنْشط ويريح، فحاشاه أن أقول أنه كريشة ساقطة في مهب ريح، وقد مَرَّ لي وإياه زمان يطيب ريّاه، ووقت تُسْكر حميّاه، بمدينة صنعاء المَعْمورة، ورَوْضة جامعها بين المسمورة والمنقورة[١]، على مسائل علميّة، وأنظار فهميّة حلميّة، ومذاكرة آداب، فما غير المذاكرة لنا دأب، في ليال على دُهْمِها[٢] من النجوم غرر. وعَشيّات كأنها فوق جبين البدر طُرَر. حيث يدبر لي من خطابه، ما يديره السّاقي في كأسٍ تَتَوَّج بِحَبَابه.

وله شعر كالأقراط، ونَظْم غريب الأنماط إذا أملى أبدى الغصن ميله، وإذا تضوع عَنْبره الأشهب أزرى بالأشهب بن رميلة[٣]، أسمعني منه ما أسمع الصَّادح، وأراني منه ما أورى من الزَّند القادح، إلا أني لم أقيّده من المداد بسلاسل السَّبج، ولم أقتدر أن أحبس من شميمه ضائع الأرج.

منه قوله في مليح يلقّب بالقليّة، بلي بِحُبِّه أعظم بلية، نَظَمه أيام عيد النَّحر والتروية، والقلية نوع من طبائخ اللحوم يُصْطنع في عيد النَّحر ففيه التورية:

وحــيــاة مــعــســول الــلّــمــى ... وكــفــى بــهــا عــنــدي إلــيَّــة
مــا اشــتــقــت عــيــد الــنَّــحــر ... إلا لــلــوصــول إلــى (الــقــلــيّــة)

وكتبت أنا إليه من الكلام المَنْثور أتشوق إليه وقد طالت غيبته عنّي ما صورته: وردت النَّسيم عليك شَيِّقة وأنا منها أشوق، وراق لَدَيْك سلامها وسلامي أروى وأروح وأورق، فها هي في الصّبح عليك قادمة. واجدة لشوقها إليك غير

(١) المسمورة والمنقورة موضع معروف في جامع صنعاء.

(٢) ليلة دهما: مظلمة.

(٣) هو الأشهب بن ثور بن أبي حارثة الدارمي التميمي، شاعر ولد في الجاهلية وأسلم ولم يجتمع بالنبي ﷺ ينسب إلى أمه رميلة (الأعلام ١: ٣٣٣).

عادمة، نازلة بروض جنابك، منيخةٌ لا عن عتابك بذرا أعتابك، بعد أن بلّت أذيالها، وَقَطعت من المسافة أميالها، وعَطّرت منها الجَيْب، بلا شك في إكرامك لها ولا رَيْب، تَبْتسم في وَجْهها ثغور الأقاح، ويغازلها من النرجس العيون الوقاح، تَلْطم خدود الورد لا عن حُزْن، وتشقّق جيوب الدوح المرتَّقة بخيوط المزن، لا تحاذر نماماً من الريحان، بعد أن تناولت من الزنبق كؤوس الحان.

فإذا أمنت بعد الخوف، وحصلت على الوصول بعد سين وسوف، واطمأنت على فرش الأزهار، ودارت عليها الخمرة من الأنهار، فباللّهِ عليك بالله عليك. ـ فإنها قد توجّهت عن لاعج وشوق إليك ـ إلاّ ما سألت عنها حرس الطيور، وبحثت عن الخبر اليقين عند كل منافس لها غيور، فهي جواسيس السحر والصبح، إذا جليت الشمس على منصّة الشَّرق عن وسامة لا عن[1] قبح، وقل: هاتي ما عندك من أخبار هذه النَّسيم القادمة إلى هذا السوح، تُملي عليك أخبارها على كراسي مرتفعة من الدوح، فإنك لا تخبر عنها إلا بِطِيب الأرج، ولا تجد في طيّها من محبّيك سوى المهج، ولا تدرك من أنفاسها إلا البَرْدة وإن مزجت من حرّ شوقهم بتلهّب الوهج، فإن أذيالها بدموعهم قد ابتلّت، ولا يضر كونها من ملامسة سقيمهم قد اعتلت.

أستغفر الله يا أخي لا أنسى من سلامي عليك مِسْكاً وعنبراً، ولا أغفل من إكرامي شيئاً ألطف من النَّسيم الذي إليك قد انبرى، يَقْطر من أهدابها كالنَّدى، ويفصح بتأدية ما يجب تأديته إليك منه كالحمام إذا شدا، فاستنشقه فإنه طَيّب، والتذّ بوقوع قطره فإنه صيّب، واقتطف منه ريحاناً ومنثوراً، واقرأ منه بيتاً واضحاً فإنه لم يزل مسطوراً، وأصخ سمعك لِتَغْريده، فإنه مطرب، وابن نفسك على قبول ما باكرك منه فإنه عن الأشواق إليك معرب. تالله إنّ غرامي بك غرام المجنون بليلى، وإن ردائي لم يزل وقد عرض ذكرك بدمعي بَلِيْلا.

أشتاق من ديارك إلى كل قادم، فما أنا من وجدان التَّطلع لأخبارها بعادم،

---

(١) في (ش) بعد.

أصور شخصك في الخيال فأخاطبه وقد دنا، وأجعل أنسي به بَيْن الوحشة لبعدك سجيّة ودَيْدَنا، فإن غِبت عَنّي فما غاب ذِكرك، وإن طَار طائرك الغرد فما طار وكرك، وليس ذلك الوكر سِوَى فؤادي، حَلَلته فجرَيْت من المطابقة[1] على مقتضى مرادي. فبالله عليك إلا ما أرجعت تلك النسيم إليَّ، وأمرتها كما أمرتها أنا بالمرور عليَّ، وحمّلها من سلامك ما أمكن، وأوقرها من أخبارك ما هو لجاشي من غيره أسكن، غير جائر على ضعفها فهي عليلة، ولا راشٌ له بماوَرْد التحية الكثير فإنها بليلة، وإن رأيت بعد أن تطيّبها بسلامك، وتعلق في أذيالها أسماطاً جوهرية من كلامك. أن تزورنا في إثرها لتضم سروراً إلى سرور، وتَمْنحنا حبوراً بوصولك إلى حبور، فعلى رحب وسعة مجال، وليس مَشْيك على الأرض ولكن على أعناق الرجال، لا زلت للإخوان مساعفاً، ولسرورهم بك مضاعفاً، ما اشتاق إليك محبّ أشجته الحمام، وقد أصبحت على الغصون تنتحب، والسلام.

---

(١) توجيه في المطابقة عند أهل البديع ويسمى أيضاً الطباق وهو الجمع بين متضادين أما اسمين نحو النهار والليل أو فعلين يبكي ويضحك انظر المعجم المفصّل ٢ : ٧٨٧.

القسم الرابع
في ذكر الأفاضل

ممّا يسامت بلاد كوكبان من الثّلاث الجِهَات، التي كَشَف معمورها عن نجابة فضلائها وأبان، إلى منتهى بلاد صَعْدة، أنجز الله تعالى لها من التّعاهد بالعِهَاد وعده.

عدنا والعَوْد أحمد إلى حديث سكان الغوير وثَهْمَد

لما كان ما حول كوكبان وقُطْره، وروضه المكلل بِوَبْله وقَطْره، من الثلاث الجهات فقط، التي على منازهها وَقَع الغيث وسقط، واجتنى المجتني ثمارها والتقط، وهي خلف ويسرة وأمام، لا قَطَعَتْ زَوْرتها في كل وقت غمام، قد احتوت على علماء، وأدباء رفعت يد الإجادة لهم عَلَمَا، من كل من له سيف علم وأدب لدم العدو سفاك، وكأس إفادة طالما قيل له طالب العلم والأدب سفّاك[1].

إلا أنه لا يمكن لأهل كل جهة إفراد قسم. ولا يَتَأتى لروح الفَضْل منهم أن يستقل بجسم، فهم في غاية النّزارة، وما كل ناسج طرّز إزاره، والنفيس قليل، وَطَرْف الانتقاء كَلِيل:

مـا أكـثـر الـنَّـاس ومـا أقـلـهـم　　ومـا أقَـلّ فـي الـقـلـيـل الـنـجـبـا

فجَوْهرهم لاَ يَنْقسم، ولا يتجزأ في رَسْم قد رُسم، لما تبدُّدوا تبدّد الجواهر وتَفَرّقوا في الجهات تفرّق الزّواهر، لم يَضَمّهم كَسْر بيت، ولم يَخْلُ متمنّي اجتماعهم عن ليت. اختلفوا جهاتاً إذ صاروا شتاتاً، واتفقوا فضائل لا يجحدها جاحد، ورموا بأسهم معاليهم عن قوس واحد، فكل من بمعاليهم فاخر، صار أنأى

---

(١) البليغ القادر على الكلام.

من الكواكب على الآخر. على أنه أقرب من حبل الوَرِيْد، أو من يدٍ إلى فم عند تناول الثَّريد.

فَلَمَّيْت شعثهم بعد التَّبديد، وجعلتهم ذاتاً واحدة مع التَّعْديد، وضَمَمْتهم ضم الدّرر في السلك، وجمعتهم جمع الدنانير في المُلك، واستعرت لهم ائتلاف العقود من الغواني، وانتظام الحبب من كؤوس ملآنة وأواني.

فإذا هم في بستان واحد من هذا التَّأليف المرسوم، بعد أن كان على حبل من طيورهم السَّاجعة على فَصَاحتها جزء مقسوم، وذلك من أقصى الحيمة[1] إلى تهامة، ممن سكن من الأودية البطن أو رقى من الجبال إلى الهامة، ومن أطراف حجة إلى السّودة إلى شهارة إلى سَفْح الشُّرف الذي لوّن منثوره، وذَهَّب بهاره، ومما يتّصل بها من البقاع التي يجوزها من جاز، إلى تخوم بلاد صعدة وأطراف الحجاز.

فأولهم وهو الحقيق ذكراً، وأقطعهم في الشَّراب سكراً، وغرُّتهم تسطيراً، وأنفحهم لذيل هذا المؤلف تَعْطيراً، إمام الحديث والأثر، والآخذ بيد كل منهما لمّا عثر، (الصحيح) الإسناد، (المرفوع) الراية في كلّ باد، فسَهْم إفادته (مرسل)، وماء معرفته (مسلسل) سلسل، ما حُسْن (عَنْعنته) بمفقود، وليس بـ(مضطرب) فيه إلا لواءه المعقود، كما أنه ليس بِـ(مَقْطوع) فيه إلا ذرائع الحسود والخصوم، بسيف من ذكائه كل جبل من الجهل به مقصوم.

القاضي العلامة الحافظ وجيه الإسلام عبد الرحمٰن بن محمد الحَيْمي[2]

أحفظ الحفاظ، وقس الألفاظ، حافظٌ يميل قلمه ويميس، ومحدّث يهزم

---

(١) الحيمة: بلاد واسعة غربي مدينة صنعاء (المقحفى ١ : ٥٥٠).

(٢) ما بين القوسين مصطلحات علماء الحديث.

(٣) البدر الطالع ١ : ٣٤٠ مصادر الفكر العربي: ٥٦.

عنده ابن خميس[1]، وأسد ينوم عن حفظه ابن فهد[2]، وسابق في الإملاء فلا يلحق بجواده نهد، فهو في الحديث ضخم الحجم، وشمس يَخْفَى من أنوارها ابن نجم[3] يَتَصَدَّع لديه ابن حجر[4]، ويتحفه من (تحفته) بالعجر والبجر، ويغلق (فتح الباري)[5] ولا يقدح من أبيه زنده الواري، فمسلسل نبات حديثه المُخْضل، قد شفا من داء الجهالة كلُّ قلب معضل، بُرْد علمه معرَّج، وحديث فضله مخرّج.

وهو آخر من درس في الحديث، ونشر من صحيحه الأثير الأثيث، وأرسل سنده بالمناولة، فهام الآحاد[6] والأفراد[6] لما ظفروا بالمناولة[6]، وذلك بجامع صنعاء الكبير، الفاضح عرف كُنَاسته لِنَشْر العبير.

وله يد في سائر العلوم، يطيش عجباً بها وافر الحلوم، من فوائد نسجت للعاري عن العلم بروداً، فهو إمام مجدِّد، جمع درّ الإفادة المتبدّد، فإذا طيره لألحان العرفان مغرّد مردِّد، وذكاؤه لِسَهْم من الإصابة مسدّد، شيخ المعقول والمنقول. المجرّد لسيفهما القاطع المصقول، يباري مع إكثار من العلم مع قل، حتى يقول لسان حالهم: إذا جاء نَهْر الله بطل نهر معقل، فَلِسَعة علمه المتشعّب، وحفظه الذي احتقر حفظ غيره احتقار المتلعّب، حفظ شيئاً من كتب الأشاعرة،

(١) الخميس الجيش والحرب وابن خميس اسم محدث لعله يعني به الحسين بن نصر بن خميس الجهني الموصلي الكعبي المتوفى سنة ٥٥٢ هـ (الأعلام ٢: ٢٦١).

(٢) بنو فهد جماعة من المحدثين من أهل مكة لعل أشهرهم جار الله محمد بن عبد العزيز المتوفى سنة ٩٥٤هـ (الأعلام ٥: ١٥٧) وهنا تورية بالفهد المعروف بكثرة نومه وبابن فهد المحدث.

(٣) هو محمد بن حمزة ابن أبي النجم، محدث من علماء الزيدية عاش في القرن السابع (مصادر العربي: ٤٢).

(٤) يعني شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ.

(٥) اختلط عليه ابن حجر العسقلاني المحدث بابن حجر الهيثمي الفقيه فالأول صاحب فتح الباري والثاني صاحب تحفة المحتاج شرح المنهاج في الفقه.

(٦) من مصطلحات علماء الجرح والتعديل انظرها في كتب مصطلح الحديث.

وأوقر منها بسعة اطّلاعه أباعرة، فنقم عليه لدى المؤيّد، وأراد الحاسد إخراب قَصْره المُشَيَّد، فَحَبَسه بِقَصْر صنعاء تأديباً، وزاد عصَاته المثمرة تشذيباً، لبث يسيراً وأطلق، بعد أن أرتج باب إفادته وأغلق، ومنع عن الالتفات إلى تلك الكتب، وتاب الزَّمان عن تنغيصه، وكان ظنّه أنه لم يتب.

فعاد إلى مجلس دراسته، وثنيت له الوسادة في حفظ ثَغْر العلوم وحراسته، فجرّد نفسه تجريد راغب، وعكف على موائد الإفادة عكوف ساغب. وله خَطّ ما قط ذو كتابة مثل قلمه قَطْ، ولا رأى أقلامه فيه كاتب إلا قال: هذه رماح الخَط[١]، تشهد له بحسنه شهدة[٢]، إذا ذاقت من أوعية الأوراق شهده. شعراً:

لوضعه شهدة بالوضع قد شهدت وقد تَبَرَّأ من ياقوته[٣] نسبه

فلو أدرك قابوساً[٤]، لأزرى به فإذا هو قد لاقى بؤساً، ما أحقه أن ينشد فيه استشهاداً، ما نظمته أنا مورياً في ناسخ ظَلّ خطّه في حلل حسنه يتهادى:

وناسخٌ قد وقانا بؤس ذي غلط غدا الكتاب به في الجِلْد محبوساً
بخطه وهو كالنَّقش البديع غداً تراه إذ فات ياقوتاً وقابوساً

وهو شيخ والدنا في خَطّه لما غدا مقرّراً، وأستاذه فيه الذي نَذَر عليه قِرْطاسه بما في بَطْنه محرّراً. وله في النَّثر والإنشاء، سلافة فِقَرٍ تُحْدث السرور والإنشاء، ما نثر إلا صيّر زَهْر الرياض هباء منثوراً، وغادر الدرّ في صَدَفه خاملاً، فلم يكن شيئاً

---

(١) الرماح الخطية سبق شرحها.

(٢) شهدة: بنت أبي نصر بن الفرج الأبدي فقيهة من العلماء في عصرها عاشت ببغداد وعرفت بحسن الخط توفيت سنة ٥٧٤ (الأعلام ٣: ١٧٨).

(٣) هو ياقوت بن عبد الله المستعصمي أديب اشتهر بحسن الخط توفي سنة ٦٨٩ هـ (الأعلام ٨: ١٢١).

(٤) يعني قابوس بن وشكمير أمير جرجان نابغة في الأدب والأنشاء توفي سنة ٤٠٣ هـ (الأعلام ٥: ١٧٠).

مذكوراً، نَثْره من دمع المحب أرق، فلِقَلمِه طلباً لمعانيه البديعية في ليل المداد أرق.

فما القاضي الفاضل في ترسّله، وإدلائه بحسن الفقر وتوَسّله، وما عبد الحميد بقلمه الذي يُميد، يُمْسك رمح قلمه الأسمر بيمينه. وقد تقلّد من جواهر كلمه بِثَمِينه، فيقول: هذا رمحي الذي أزداد به فَخْراً، إذا قال غيره (هذه عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى).

وله شعر شفا به أواما، متوَسّط في الحُسن والقبح، فكان بين ذلك قواماً، ولم يَزَلْ يُفْتي ويفيد، ويُبْدي في القراءة ويُعِيد، ويقرّب للطَّلبة كل بعيد، ويَغْتنم من الإفادة حَظٌ السعيد، يحتبي للدرس، فيقال: هذا جبل راسي، ويبرز بصدر الجامع، فتناديه الكواكب: مَهّد فراشك على راسي، حتى جاءه مالا يدفع، فهبطت شمسه من المحل الأرفع[1]، وغربت في ظلمة من اللحد، وجَحَد القبر أنوارها فما أقبح ذلك الجحد، فإذا هو في حفرته طريح، قد أحرز عُبَابه الضَّريح، شعراً:

وقد كان في وقت الحياة مَعينه بأمواج فَضْل تملأ السهل والوعرا

سقت تربته السّواري[2]، ولا برحت الجَوْر[3] لذلك البحر جواري، ومن عقود أشعاره الجمانية، وفصوص خواتم نظمه اليمانيّة. من شعر أرق متنه، ونسج من حريره ما لا يثبت عنده ثابت قطنة[4].

قوله مكاتباً لبعض من عليه استفاد، وأخذ من كنوز علمه التي لا يخشى عليها نفاد:

---

(١) تلميح إلى قصيدة ابن سينا العينية: هبطت إليك من المحل الأرفع الخ.

(٢) السواري: السحاب يسرى ليلاً.

(٣) غيث جور: شديد الرعد.

(٤) ثابت قطنة: هو ثابت بن كعب بن جابر العتكي الأزدي المتوفى سنة ١١٠هـ شاعر وفارس شهد عدة معارك (الأعلام ٢: ٩٨) ولا يخفى التورية هنا بين الحرير والقطن.

سار دمعي إليك مِنّي رسولاً حين أخليت رَبْعه المأهولا
وفؤادي استقر إذ أنت فيه يتراءاك بكرة وأصيلا
ونَسيم الصَّبا تحَمْل من وصف اشتياقي فيه حديثاً طويلاً
حَبَّذا قربك الذي كان أندى في فؤادي من النَّسيم بليلا
قَرَّب الله عهدكم من ليالٍ لم أكن لاقترابهن ملولا
أتلظّى جوى وفرط حنين إن تَذَكَّرت ظلّهن الظّليلا
وإذا ما احترقت[1] شوقاً فقولي ليت (لم أتخذ فلاناً خليلاً)
كنت أجني ثمار أنسك فيهن فبُدّلت بالنُّوى تبديلا

وكتب إليه واسمه أحمد في صدر كتاب قوله:

تملّكت رِقّ القول طرّاً ولم تدع لذي أدبٍ نَظماً يقال ولا نَثراً
يجود به بَحرٌ تَتَابع مدّهُ ولا عَجَب للبحر أن يقذف الدرّا
ومن ذا يجاري أحمداً خير من جرت بأوصافه الأمداح مُبْيَضُّه غرّا
فمن لي بلقياه ورؤية وَجْهه فأشهد منه الشَّمس والنَّجم والبَدْرا

وقال يخاطبه أيضاً رضي الله تعالى عنه:

تَمَلَّكت أسباب وصف الكمال ونَعْت المحامد قد فُزْت به
فمن معجز النظم حزت الذرا وفي النَّثر قد فقت في مُعْجبه
لنا بك فخرٌ على من مضى ففيك ادِكارٌ لمن يَنْتِبِه

وقال يخاطبه أيضاً:

مشرَّفةٌ ضمت لحسن بيانها بدائع ما يُمْلي البديع وما يحوي
أظن وَجِيْد العصر نَظّم درّها من البَحْر أو جاءت من العالم العلوي
رويدك ما هذي الأيادي فإنّني وحَقّك لا أبغي اللِّحاق ولا أنوي
لحَضْرتك العليا ضَنِيتُ تشوقاً وقَلْبي إليها الدّهر طول المدى يهوى

---

(١) في (ش) اقترحت.

وكتب في صدر مكتوب إليه وهو بحصن كوكبان اليمن المنيف، قوله:

عن أحمد يروي حديث العُلاَ شَيْخان أعني قَلَمي واللِّسان
ذا بَدْر أفق زائدٌ في السَّنا فاعجب لبدر ضَمَّه كوكبان

وكتب إليه بعض الأفاضل بطاقةً يَسْتدعيه إليها فنَهَض إلى مقامه في الحال. وكتب إليه من نظمه، قوله:

كَتَبْتُ إليّ ترغب في حضوري ورَبّ الفضل دَعْوَتُه تُجابُ
فقبّلت الكتاب وقلت سمعاً لأمرك مالكي وأنا الجواب

وقال: وكتب به إلى بعض ذوي الأمر، وقد أدرك منه ضَجَراً من سؤال من يسأله الإعطاء ويطلب منه التّنويل:

يا ابن النّبي وخيّر شخص لم يزل أبداً لكلٌ مؤمّل مأمولا
وابن الذين إذا اعتراهم طارق جَعَلُوا بُيُوت المال منه طلولا
والحائز الشَّرفين من علم ومن خُلِق تهلَّل وجهه مَصْقولا
والمُوقِدِي نار القرى لِعُفَاتهم فكأنها نار الفريق حلولا
والشائد البيت الرَّفيع بأنعم ما زال مَنْزل بِرّها مأهولاً
لا يلحقنّك ضَجْرة من سائل فدوام عزّك أن تُرَى مسؤولا

ومن شعره الغالي الثمن. قوله في حَصْر ما يحتاجه من شغف باستيطان مدينة صنعاء اليمن، حرست بآيات الذّكر، وحميت محاسنها التي يحار عندها الفكر:

صَنْعاء إذا كنت مشغوفاً بِمَسْكنها فاعدد لها من ذوات الحاء ما رسما
(حَبٌّ) و(حِبٌّ) و(حَمَّام) مَع (حَطَب) (حظيرة) و(حِمَار) (حِرْفة) و(حِمَى)

وقوله:

ألا أن نعماء العليل جليلة فلا يَطّرح تِذْكارها كُلّ عاقل
(ثوابٌ) و(تَمْحيص) و(لُطْف إعاضة) و(تَذْكير نَعْماء) و(إيقاظ غافل)

وقوله:

إذا ما شئت للآداب حِفظاً فبادر بالقِيَام ولا توقَّف
لذي عِلْم وذِي حُكْم وتَقْوى ومَقْدم والد ولقاء مُصْحف
فقد أَمَر النبي بِمِثْل هذا وبَيّن حُكْمه أبداً وعَرّف

ومثله قول الآخر:

يسنّ القيام لستٌّ أتت فبادر لها مسرعاً يا فَتَى
أبٌ مصحف عالم حاكمٌ كذا فِتْنة مؤمن قد أتى

وما أحسن قول المولى الأمير الحسين بن عبد القادر رحمه الله تعالى في النقل والتضمين:

وفتانة أنْكَرَتْ إذْ رأت قِيَامي لطَلْعتها إذ بَدَتْ
فَصِرْت لسَيّدتي منشداً (يسنّ القيام لستٌّ أتت)

ولصاحب الترجمة عليه السلام:

أحبّ حديث المصطفى وأودّه وأضبطه كَتْباً وأدرس كُتْبه
وذلك عند المصطفى لي شاهدٌ بحبّي له و(المرء مع من أحبّه)

ورد في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله أنت أحبّ إليّ من نفسي وأهلي ومالي، وإني إذا ذهبت لداري لا تطيب نفسي حتى آتيك وأراك، فإذا متّ أنت كنت في أعلى مقام، فأخشى أن لا أراك، فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فنزل عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم**﴾ الآية. فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «المرء مع من أحبّ»[1]. انتهى.

وفي معنى قول صاحب الترجمة قول الإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني رضي الله تعالى عنه. وهو[2]:

---

(١) البخاري ٨: ٤٨.

(٢) ريحانة الألباء: ١: ١٤٣.

وقائل هل عمل صالح أعددته يَنفع عند الكرب
فقلت حسبي خدمة المصطفى وحبّه (والمرء مع من أحبّ)

وقول شهاب الدين الخفاجي مؤلف الريحانة[١]:

وحَقّ المصطفى لي فيه حبّ إذا مرض الرَّجاء يكون طِبَّا
ولا أرضى سوى الفردوس مأوى إذا كان الفتى مع من أحبَّا

وقول بدر الدين بن رضي الدين الغزي العامري الشامي الشافعي رحمه الله تعالى[٢]:

من رام أن يبلغ أقصى المنى في الحَشْر مع تَقْصيره في القُرَبْ
فليخلصْ الحبّ لمولى الورى والمصطفى و(المرء مع من أحب)

وقول والده رضي الله تعالى عنه الرضي[٣]:

إن تَسَلْ حالة الذين اجتباهم رَبّهم عاجزاً وتطلب قرباً
أحبب الله والذين اصطفاهم تَبْق معهم فالمرء مع من أحبّا

وما أظرف وألطف قول القائل، ولعله الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى[٤]:

أحببت خالاً بان في خدّه يرتع في الماء به واللّهب
فخضت في ماء دموعي وفي نار هوى و(المرء مع من أحب)

قلت: إلا أنه هنا في قوله: مع من أحب استعمل من فيما لا يعقل، وهو الخال كما ترى. واللائق استعمالها في من يعقل، ولكنه قد جَوَّز أيضاً استعمال (من) فيما لا يعقل كقول الشاعر: (والغيث أبخل من سعى) كما جوّز استعمال (ما) لمن يعقل. وقد مرّ لنا فيه مزيد كلام في ترجمة السيد إسماعيل بن المطهّر الجرموزي رحمه الله تعالى.

---

(١) ريحانة الألباء: ١: ١٤٣.
(٢) ريحانة الألباء: ١: ١٣٩.
(٣) ريحانة الألباء: ١: ١٤٣.
(٤) لم أجدهما في ديوانه.

ولصاحب التَّرجمة من زَهْر المنثور حدائق، قد رُصِّعت بالنَّرجس والزنبق والشقائق. منها مكاتبات له نَبْتها أحوى، إلى جَدّنا قاضي القضاة الحسن بن أحمد الحيمي، لا زال في الرَّفيق الأعلى من جنة المأوى، قد أثبتها في ديوانه المسمى (لذة الوسن) وأتيت منها بكلّ جميل وسيم حسن. وإلى غيره من سائر الأعيان، الذي يهتزّ لذكرهم عِطْف القلم الريّان.

كتب إلى جدنا رضي الله تعالى عنهما، لما شَمّر للعزم إلى جهات الشحر[١] مجاهداً في سبيل الله تَعَالى يَسْتدعي منه معتاد مقرّر له قبل عزمه، ما لفظه:

المقام الذي تستهل غواديه بالنَّدى، وتقيض أياديه بالجدَا وتشرق أنجم علومه بالهدى، ويرجع إليه فيما عرض وشجر وخفا وبدا، وتشتبك آراؤه المسددة في تدبير أشرف دولة؛ فكأنّها لبرود الرياسة لحمةٌ وسدا، يَتَهَلَّل وجه فضلها عند طروق المآرب، ويتضاحك روض فواضلها؛ فكأنّها روضة جادتها خَمْس سحائب، لمولانا القاضي العلامة المُدْره الصّمصامة، شرف الإسلام الحسن بن أحمد الحيمي لا برح ذِكْره كاسمه ولا انفكّت المحامد داخلةً تحت حكمه ورَسْمه، ولا زالت الأقدار مساعفةً لقضائه وحكمه. شعراً:

ولا زال للأيام طَوْلاً على الورى ... وما الطَّول إلا أن يُطيل لك العمرا
بَلَوت أخلاء الزمان فلم أجد ... خليلاً يضاهي الماجد السَّري القدرا
تخيّره الرحمٰن عَيْناً لدولةٍ ... ينفّذ فيها الحكم والنهي والأمرا

وبعد أن تحط ركائب السَّلام بشريف مقامه، وتَهْبط ملائكة الإتحاف لتأدية سلامه، يقول مملوك حَضْرته، وأسير ودّه ومحبّته، الرَّافع إلى حَضيرة القدس شريف أدعيته: إن شَرْح شوقه لا تحيط به عبارة. وأن حديث أثنيته لا تفي به النصوص فَضْلاً عن الإيماء والإشارة، وتواتر لَدَيْه أن لسَيِّدي في هذه الأيام حركة إلى المقام الأمامي الشافي وربما تعقبها حركة أخرى لا يقوم بشأنها إلاَّ ذلك [الكافي][٢]، الذي هو في الحاجات علم مفرد. وفي المهمات صارم مجرّد، قد

---

(١) بلد من حضرموت (معروف).
(٢) ساقط من (ش).

انتقته يد الاختبار، واصطفته كَفّ الاختبار، فَوَجدْته ميمون النَّقيبة، وسَهْماً لم يكن في كنانة الدولة سواه، ممّن آراؤه لشواكل الأغراض مُصيبة. وكان المملوك قد استخرج من المقام الإمامي المعتاد من عند سيدي في كل عام، من قيمة الكِسْوة وجزيل ذلك الإنعام، فبادرت بِرَفْع تلك التَّذكرة إليه ليحل عليها كريم نَظَره، وليستمد فيها إن شاء الله تعالى بين يدي سفره، لتكون من الصَّدقة التي يقدّمها الأبرار، ويتيمّمون بها فيما يأملون من قضاء الأوطار.

وما زال المملوك مشمولاً بذلك البِرْ في كل عام، محبّوّاً بذلك الفضل الذي هومن أجزل الإنعام[١]:

ومن كنتُمُ أحبابه يا سروره ويا سَعْده إذ طال ذاك وإذ تَمَّا

ولنا بتلك الطَّلعة النَّفيسة تمام السّؤل، وبلاغ كل ملتمس ومأمول، والله المسؤول أن يجعل هذه الحركات، مقرونة بتوالي الألطاف وشمول البركات[٢]:

ما ابيضّ وجه المرء في طَلَب العلا حتى يسوّد وجهه في البِيْدِ

ويا له من سعى أرضى الخالق والمخلوق، وهِمّة أَرْبت على كل مقام فلا همة تدانيها ولا تفوق:

فافخر بمجدٍ قد حويتَ وسُدْ وقل هذا مَقَام الماجد الشِّمِّير

والله يحرس تلك السَّاحة، ويلقِّيها في جميع حالاتها أتمَّ نعمةٍ وراحة، ويضرب سرادق الحِفْظ عليها، وتَعْتقل عقائل الأماني عندها وبين يديها، بمحمد وآله صلى الله عليه وعليهم، والحمد لله أولاً وآخراً ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، جباراً قاهراً.

وكتب **إلى إمام الزمان** عليه السَّلام وقد بعث إليه بأغراضه ومطالبه على يد

---

(١) من أبيات لصلاح الدين الصفدي انظرها في أعيان العصر ٥: ٣٦٩.

(٢) من أبيات لأبي تمام انظر ديوان أبي تمام: ٤١٦ ط الخياط.

جدّنا المذكور رضي الله تعالى عنه، ما لفظه: المولى أمير المؤمنين، المطال له في الأعوام والسّنين، الذي وَسِع صَدْر المهمات، ودَفَع عزمه الملمّات، وحمل ثقل أعباء، وَسَار له في الخافقين حميد أنباء، وأبى له شرف منصبه ورفيع حسبه، وكريم منصبه، أن يعامل بِقَطْع المعروف، وتأخير المألوفَ مع قوة ملكته، وتوسيع دائرة مملكته.

وكان المحب أرسل إليه كتابين، وفتح له من التَّذكير بابين، يَسْتمد مقرّراً حقيراً، ومَطْلوباً يسيراً، يأتي مجموعه في كل عام، قَدْر مصروف واحد في يوم لجماعة لا يعدّون إلا من الأنعام، وقد أُسْتُعْطِفَ رسول اللهِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فعطف. وأعتب فعامل بالرِّفق ولطف، ولم ير على فاعل ذلك حرجا، ولا رآه قد سلك من الأدب طريقاً عِوَجاً، ولمّا أنشد حسان بن ثابت رضي الله عنه:

هام الشجيّ فَدَمْع العين يَنْحدر

القصيدة، اغرورقت عيناه بالعبرات، واتسعت عليه لرحمته وشفقته الحسرات، وعاد على الأنصار بما لا يخفى من خُلُقه العظيم، وعاملهم بما وَصَفه به رَبّه تعالى من أنه (بالمؤمنين رؤوف رحيم). ويعزّ علينا طَلَب القليل بِتَكْثير الرَّسائل، واستنزال الحقير بعظيم الوسائل:

وما كنت أرضى أنّ حالي كما تَرَى ... ولكنني راضٍ بما حَكَم الدَّهر

بل أقول كما قيل:

رَضِيْنا قِسْمة الرحمْن فينا ... لنا علمٌ وللجُهَّال مالُ[(١)]

وقد بعث المملوك هذا المطلب على يد فاضل لا يعدّ إلا الفضائل بِضَاعة،

---

(١) قلت أصله مأخوذ من قول الإمام تقي الدين ابن دقيق العيد:

لهم مريحان من جهل وفرط غنى ... وعندنا المتعبان العلم والعدم

انظر في الطالع السعيد للأدفوي: ٥٩٢.

ولا يرى إلا ما يراه مولانا من عدم الإهمال والإضاعة. وقد اتّخذ الأئمة والملوك الإحسان بَيْن يدي تجهيز الجنود جُنْدا. وعلم المتّقون أنهم لا يجدون من القيام بحقوق الخلق كحقوق الخالق بُدًّا. وإذا سيّرت هذه الألفاظ إلى عارف بحقّها، قابلها من البر بأنواع وصنوف، وعلم أنّها مما يستمد به المئين والألوف. كيف والمطلب حقير. والمطلوب خليفة ولا أقول ملك ولا أمير. وبيد الله سُبْحانه تَيْسير الأمل، وإصلاح النيّة والعمل، وتأييد مولانا على مناوئه بما يحتاج العدى عن كمل. بِفَضْل الله تعالى ومنته، والحمد لله أوّلاً وآخراً على نعم ما وصل إليهم من العبد نافذ ظنّه. والسلام.

قول الشاعر البيت[١] الذي أورده في هذا المكتوب، وهو قوله:

رضينا قسمة الرحمٰن فينا

قد تهجم عليه زين الدين عمر بن مظفر الوردي رحمه الله تعالى، فقال[٢]:

ما الأغنياء الأغبياء حجة   يُكْفيك أن القوم جهّال[٣]
رضيت بما يقسمه ربّنا   لنا علومٌ ولهم مال

وكتب القاضي وجيه الدين عبد الرحمٰن بن محمد الحيمي رحمه الله تعالى من المنثور يخاطب بعض الأدباء وقد عرض عليه قصيدة نظمها ما صورته: قلت جميلاً، ونظمت جزلاً جزيلاً، وأبدعت محاسن القول، وتفرّدت ببلاغة ما لغيرك بها قوة ولا حول، فما الوشي إلا ما حاكه لسانك، ولا النَّظم إلا ما عَقَده بيانك، ولا الرَّوض البهج إلا ما خطّه بنانك، ولا القريض إلاّ ما حام عليه فكرك وجنانك، ولقد تمتع المملوك برؤية ذلك العقد الفريد. ووقف على تلك المنظومة التي كلّ فرد من أبياتها قصر مشيد، فإذا هو الوشي المحبوك، والدر المنظوم والذهب المسبوك، فأنفذ ذلك النظام، وقلّد بتلك الدّرر جِيْد ملك همام، وأهدى

---

(١) في (ش) اللبيب.   (٢) ديوان ابن الوردي: ٢٧١.
(٣) الديوان: وإن هم عن حبنا مالوا.

الدّرر إلى بحره الذي تسحّ أياديه سحّ الغمام، وحقنا معاً أن ندعو لأيامه التي هي للزمن غرة. وفي رَبيع الفضائل زَهْرة، فجدّد الله تعالى ملابس النِّعمة عليه. وبسط موائد الفضل لديه، وأبقاه للعترة المطهّرة ملكاً يصرفها بأوامره، ويُوْقفها عند مواقف نَهْيه وزواجره. وسلام على جنابك الأشرف، وخُلقك الألطف. نعم وجدت هذا الشعر في الغاية من الحسن. تنتفي عن مُطَالعه أسباب الكرب والحزن، ليس فيه ما يحوّل ولا يبدّل، قد فاح من خلاله عرف المسك والمندل. يلتقط منه الدّر في بَحْر الرَّمَلْ، ويطلع بدره في أفق البلاغة طلوع الشمس في بُرْج الحَمَلْ، فأنقله من بادِيَةِ الأوراق إلى مدينة المجلّد، وأثبته في صحيفة الأمداح ليبقى على صفائح الأيام مخلّد. إن شاء الله تعالى والسلام.

ولمّا مات صاحب الترجمة بأزال صنعاء، ما زال بكل لسان حتى ألسنة الحمام يُنعى، فرثاه تلميذه الأستاذ اللاَّبس من الإفادة بمطروز اللاّذ، شيخ والدنا السَّيد الإمام، جمال الدين محمد بن إبراهيم بن المفضّل، خيّمت على ضريحه الغمام، فإنه أستاذه الأكبر، وشيخه الذي نَصَب له في جامع الاشتهار شامخ المنبر، فقال رضي الله عنهما:

أحسن الله يا أزال عزاك	مات عبد الرحمٰن بدر سماك
مات من حلَّ في العلوم محلاًّ	فوق بدر الدُّجى وفوق السِّماك
بعد مِصْباح فضله لا ضياءٌ	قد خفى ذلك البها من سناك
أوحشت بعده رُبَاك ومادت	وتَهَاوت كواكب الأفلاك
قد تبدَّلت عن علاك انحطاطاً	وتعطّلتِ من بهيّ حلاك
كان من نوره دجاك نهاراً	فغدا الآن في النِّهار دجاك
فتباكي إذا عدمت بكاءً	فبَديل عن البكاء التَّباكي
والبسي بعده ثِيَاب حِداد	ما لأيام حُزْنه من فَكَاك
لا ترومي بَغْلاً سواه بديلاً	من يضاهي كماله من يحاكي
عاش دَهْراً حليف حلم وعلم	بين فَضْلَيْ تواضع وانتساك

وقَضى عمره مفيداً مُجيداً ... في انتقاد الأبحاث باستدراك
غاب نِبْراس المشكلات فدعها ... في اشتباك من لَيلها وارتباك
قل لكُتْب العلوم في كل فنّ ... أين من كان إذ فراك دراك
وعلوم الحديث عن خيرِ هادٍ ... أين من بالإسناد عنه رواك
ولكُتْب الآداب نُوحي عليه ... إذ مَحَاه صِرْف الردا ومَحَاك
ولأقلامه التي تَنفث السّحر ... بخط باهٍ بديع الحِبَاك
بعد باريك لا ترجّي بديلاً ... فلّ بعد البَليغ حدّ ظباك
ولتِلْك الأخلاق تَزْهر حسناً ... يا رعى الله عَهْده ورعاك
آه يا داره يعزّ على القَلْب ... بلاؤه في لحده وبلاك
كيف بتنا من حزنه نتشاكى ... ليت شِعْري ماذا يفيد التّشاكي
يا لعيني إذ غاب مرآه عنها ... أن تصون الدّموع بالإمساك
أنكرت بعده المَعارف والدنيا ... فإدراكها كلا إدراك
جاد مثواك يا إمام المَعالي ... غدقٌ سُحْبه عليك بواكي
وبِدَار الرضوان حيّتك بالر ... يحان والروح عليه الأملاك

وقال تلميذه أيضاً السيد الفاضل العالم الأديب شهاب الدين أحمد بن الحسن بن أحمد بن حميد الدين المتقدم ذكره رحمه الله تعالى يرثيه أيضاً حقه رضوان ربه ويؤرّخ وفاته، ويذكر مقدار عمره:

إنّ وجيه الدين خير ... عصره عالي السند
خير ثقاتٍ قام بالمعلو ... م دهراً وقعد
وحثّ فيها عزمه ... حتى انتقاها وانتقد
بَحْر الكلام البرّ قا ... موس الصّحاح المعتمد
عاش سعيداً أو مضى ... على السّداد مفتقد
فأرّخوا (ميلاده ... بقل هو الله أحد)
وجاء تاريخ (الوفا ... الله ذو الطّول الصمد)

هـــذا وتـــاريـــخ الـــوفـــاة جـــاء مَـــجْـــمـــوع الـــعـــدد
بـــشـــارة إشـــارة عِـــنْـــوان فـــضـــل ومـــدد
بـــالله يـــا مـــن ســـعـــيـــه إلـــى الـــمـــعـــالـــي والـــرشـــد
يـــا جـــامـــع الـــشـــارد مِـــمَّـــا شـــذَّ عـــن قـــوم ونـــد
يـــا بـــاذل الـــنـــفـــيـــس فـــي الـــعـــلـــم ومـــن جـــدّ وجـــد
مـــا فـــعـــلـــت تـــلـــك الـــلّـــســـان والـــجَـــنَـــان[1] والـــخَـــلـــد
والـــكَـــلِـــمُ الـــغـــرّ الـــتـــي شَـــقَّـــت وروّت مـــن وَرَدْ
أقـــســـم لـــولا إســـوةٌ مـــرّت عـــلـــى مـــرّ الأبـــد
وأنّ بـــعـــد الـــيـــوم وا لأمـــس عـــلـــى الـــتَّـــحـــقـــيـــق غَـــدْ
لـــذبـــت مـــن فـــرط الـــشَّـــجـــا أو حَـــرِّه فـــقَـــدْ وقـــدْ
فـــاذهـــب حـــمـــيـــداً فـــلـــك الآ ثـــار والـــرأي الأســـد
فـــكـــلّ شـــيء صـــائـــرٌ بـــعـــد الـــبـــقـــا عـــلـــى أمـــد
عـــادت عـــلـــيـــك رحـــمـــة فـــعـــدّهـــا أســـنـــى الـــعـــدد
ولازمـــت مـــثـــواك مـــا أبـــرق بـــرق ورَعَـــد

ولما قبر بمقبرة مسكيّة الترب، روية الشرب، خارج مدينة صنعاء اليمن المحروسة تسمى جِزْبة الروض قريباً من مسجد السَّعدي المشهور بالمحاريق زُرْته في بَعْض الأيام، وقَعَدت عند ضَريحه المكرّم سويعة لأتلو عليه سوراً من كتاب الله المجيد، وَنَظَرْت عليه لوحاً كبيراً من حَجَر مكتوب عليه بالنّقر فيها بخط حسن من نثر تلميذه ونظمه، وهو السيد أحمد بن الحسن المذكور رحمه الله تعالى، فنقلت النثر والنظم جميعاً لإثباته في هذه الترجمة.

وصورة ذلك ولفظه:

الحمد الله الذي لم تزل براهين قُدْرته محدّثه عن حقائق مبدأ هذه الدار

---

(١) في (ش) البنان.

وختامها. ولم تَبْرح العبر تَشْهد بتناوط أيدي الأقدار إلى التقاط طوائف الوجود وأعلامها، حتى عرف بذلك أنّ العاجلة لا محالة منقضية، جَرَت بذلك الحكمة ومواضي أقلامها، وأصلي وأسلم على رسول الله وصفوته الذي خيّره ربّه بين حياة الدنيا والقرب إلى جنابه الأعلى فاختار لنفسه نعيم الجنّة وسلامها. ومضى بعد أن جرّعته المنيّة كؤوس الحتوف وحسته ذعاف سم حمامها.

وبعد، فهذا ضريح حافظ هذه الأمة وحِبْرها، ورَبَّاني هذه العصابة وبَحْرها. حامل لواء العلوم الدينية وأديبها، وخادم السّنة النبوية وربيبها، مفتّح أكمام دقائقها ومحييها، ومُجْري معين عيون الحقائق عن إفهام أرباب العلوم وذويها، مصقع أهل اللِّسان المقهقرة عنده عيون الخطباء، وفارس أهل البيان الذي صَدَع بكلمات الحق واخفض جناح من شَمَسَ عن الحق وأبى:

حبر سجاياه مثل الشَّمس ظاهرة ... على البريّة في سهل وفي جبل
يروي لسنّة طه كل مَنْقبة ... حمى حماها عن الأوهام والعلل
مجدّداً شَرْع دين الله مُجْتهداً ... في دَفْع ما شأنه من رأي ذي خطل
بحرٌ تَدَّفق بالعلم الذي وضحت ... به البراهين أما قيل هات قل
هو الإمام الذي شاعت مناقبه ... بَيْن البرية من حاف ومُنْتعل
أحيا رسوماً وقد كانت معطّلة ... ندعو إليها وما ندعو سوى طلل
فغيّبت وجهه الأحداث واستلمت ... له الرّزايا سناماً شامخ القُلل
يا ناعياً شَقَّ أسماعاً مفرّغة ... لدر إملاء علم الأعصر الأول
لقد دَهَمْت بدَهْماء الكروب على ... سرار بَدْرهم بالحادث الجَلَل
نعيت بدَرَاً به الأرجاء مشرقةٌ ... آهي على بدر أفق منة مكتمل
أجريت دمع أولي المجد المنيف وهل ... يفيد ذا الحزن جَرْي الدمع في المقل
قد أصبحت شَمْس أهل البيت كاسفةً ... سَيَّان بعدك وقت الصَّبح والطَّفل[1]

---

(١) آخر النهار عند الغروب.

سقياً للقياك لا سقياً أنكده بغفلة عن سجايا ذلك الرجل

أكرم به من علامة، روض العلم به نضير، وفهّامة شرّ ارتحاله في الأمة مستطير، ذلك القاضي الإمام العلامة النبيه، الرّحلة المحدث الحافظ الوجيه، وجيه الدين عبد الرحمٰن بن محمد الحيمي تغمّده الله تعالى بأشرف رحماته ورضوانه. وأسكنه بَحْبوح غرف جنانه، وضاعف له أقسام ثوابه وإحسانه، وكان انتقال روحه المقدسة ضحوة نهار الأربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الأوّل عام ثلاث وستين وألف (سنة ١٠٦٣).

القاضي أحمد بن ناصر بن محمد بن عبد الحق المِخْلافي[1]

عالمٌ ظهر فضله واشتهر، لمّا اشترى نفائس الفوائد بنقد السَّهر، سيف باضع[2]، وماجدٌ أتاه المجد وهو خاضع، فنال منه ما نال الشّهاب من الفلك. وسلك منه سبيلاً غيره فيه ما سلك، تحلَّى به من الزَّمن عاطله. وقام به من الدّهر حقه لما عثر باطله، سحاب مُجَلْجِل وروض متهلِّل. ضحكت كمائمه، وقَهْقَهت حمائمه، وزَهَتْ فنونه، وتعانَقَتْ غصونه، وصفّقت أوراقه، وفتحت من النَّرجس أحداقه.

أخذ من العلوم بكل طرف، وأعاد الزمان بمعارفه فتيّاً بعد الخَرَفْ، وصاد الأوابد، وأنفق من ذخائر علم هو لها رائد، بهّمة مع المشيب يخلق لها من الشبّان القشيب، وتحصيل من العلوم لكنوزها، وتبيين لما خفى من رموزها.

وأمّا في المحاضرة فما عثرت له على ثاني ولا سَمِعْت منه إلا ما سمع النّشوان من المثالث والمثاني، مع حِفظ للمُتْحفات والنّوادر، ومناهل لطائف ما الوارد إليها بصادر، طالما تمتّعت بفوائده. لمّا جعلني كالذي فأنعم عليّ بصلاته منها وعوائده، فكم من مجلس زيّناه بالحوار، ومقام حَلَّيناه من نفائسه بشَنْف

(١) نشر العرف ١: ٢٩٥ مصادر الفكر العربي: ٣٤٠.

(٢) سيف قاطع.

وسِوار، وكم نهار على المراجعة قطعناه وليل في المُسَامرة أطعناه، تودُّ الغانيات أن تمدّ ذاك منها بالغرر، وأن يسَتْمد هذا في زيادته مِنْها، بسواد الطُّرر. كيف وكم قلت: ليت مِسْك الليل على كافور ذاك لم يذر، وليت كافور النَّهار على مِسْك هذا لم يدع من بياضه شيئاً ولم يذر.

وأمّا أخلاقه فجديدة الملابس، ما رأى له وجه مقطبٌ ولا ثَغْر عابس، ولي القضاء، فضاق على الباطل رَحْب الفضاء، وأَضْبح الفرق بين المحقّ والمبطل جلياً، لمّا رفع العِلْم الشريف مقاماً عليّاً، وهو معدود من أكابر الشِّيعة، وممّن زيّن مجالسه من حبّ أهل البيت بالوشيعة، فكم كَسَر من نصب وخفض مرفوع قدره بلا نصب، وكم تَمَكّن من نواصي نواصب، وأحيا أرض التشيّع بغيث واصب. وهو الذي اعتنى بِجَمْع ديوان الحسن بن علي الهبل، وضمّ بيوته. التي هي منحوته من الدرّ لا من الجبل.

وفي ذلك أكبر دَليل على تَوَغُّله في التّشيع، وتهالكه عليه بلا تعفف ولا تورّع، وما أخطأ من جعل حُبَّ آل الرسول نصيبه، ونزل منه في المَرابع المونقة الخصيبة، إذا لم يُفْض ذلك إلى وَخِيم المَنْهل. ويؤول إلى رفض من لهم سوابق لا تجهل.

وله شعر ألطف من أخلاقه، وجواد نَظْم يُجَلّي عند إطلاقه، تصفرّ من الفرق لديه المدامة، وتَخْلع طوقها عند لآليه الحمامة، فمن مِسْك أدبه الذي فات غزال الكناس، ولطيف نظمه قوله مضمّناً مع الاكتفاء والجناس:

يـــا مـــن جـــفـــانـــي وَوَلّـــى   ومـــــا رعـــــى لـــــي إلاّ
خَـصَـصْـت بـالـجُـور قـلـبـي   (يـــا أعـــدل الـــنـــاْس إلا)

وقوله في الجناس:

ســألــت بــدراً ســبــا فــؤادي   وَصْــلاً فــرَدّ الــجــواب نَــهْــرا
وكــنــت أبــغــي ارتــشــاف ثــغــر   أراهُ لــلــسَّــلــســبــيــل نــهــرا

وقوله في الاقتباس من السنة الكريمة:

مـنـعّـم فـي الـقـلـب أفـديـه ... حُـرمـت خَـمْـراً حـلّ فـي فـيـه
رَهْـنـتـه قَـلْـبـي وقـد جَـدّ فـي ... تـلافـه لا فـي تـلافـيـه
وهـو بـه حـلّ فـقـولـوا لـه ... (لا يـغـلـق الـرهـن بـمـا فـيـه)

قلت: استعمل ما هنا لمن يعقِل، وقد جَوّز مثله وجاءت به النَّظائر كما حَقَّقناه في ترجمة السيد إسماعيل بن المطهّر الجرموزي رحمه الله تعالى فيما تقدم.

وقوله: وكل إناء ينضح بما فيه وكل مضمرٍ شيئاً لا بد أن يظهر من نفثات فيه.

وله:

بـمـهـجـتـي أهـيـف عـذب الـلّـمـى ... يُـسْـبـي فـؤاد الـزَّاهـد الـرّاهـب
كـأنّ فـي مُـقْـلـتـه مـغـمـداً ... سَـيْـف عـلـيّ ابـن أبـي طـالـب
رمـى فـؤادي حـيـن شَـاهـدتـه ... بِـسَـهْـم لَـحْـظ قـاتـل صـائـب
يَـلْـعـب بـي تَـفْـتـيـر أجـفـانـه ... تَـلـعّـب الـشـيـعـيّ بـالـنَّـاصـب

ولمّا قَدِمَ بعض أولاد الملوك، الذين لهم في المجد أيّ سلوك، إلى كوكبان الذي ارتفع قَدْره، وأسفر به من الفلك الأعلى بدره، وابتسم عن ثنايا الزهور ثغره، قَدِم هو صحبته، بعد أن أخذ للُقاء من به من الأعيان أهبته، فقدم عليه كما قدم الغيث الهتّان، على نبات البِطاح وأزهار البُسْتان، أو كما وَرَدَت الصَّبا إلى الحدائق، ونزلت بين مخضرّ الأوراق ومحمرّ الشقائق.

وهو إذ ذاك وزيره وخَطيبه، الذي يَهْتزّ لكلماته من المنبر رطيبه، فكُنْت أجتمع به أنا ووالدي وأذود بصارمه من الزّمان مجالدي، في ساعات نام عَنْها طرف الدَّهر. فتفتَّحت بها للسّرور عيون الزَّهر، واعتذر بها الزّمان، عمّا قدمه من الحرمان، فقبل عذره، ونسي لأجلها غَدْره. فلم نَزَل نحن وإيّاه، متفيئين بروضٍ غازله النَّسيم وَحيّاه، وعَطَّر أذياله بما نفَح من نشره وريّاه، نتناقل العلوم والآداب، ونَتَمَّسك من المذاكرة بالأهداب، وكاد أن يأتي بالمطالعة على جميع تصانيفي،

وحَصّل في إقامته شيئاً كثيراً من تآليفي، فتشَرَّفت إذ دخلت في ملكه، وصارت من الجواهر لما انتظمت في سلكه.

وَجَرَتْ بيني وبينه مكاتبات وتَلْويمات عن التّخلّف في بَعْض الأوقات ومعاتبات، ممّا قد أثبته في غير هذه الأوراق، ورَقَمْته في غير هذا التَّأليف الذي راق. من ذلك ما كتبه إليّ يَسْتدعي المقامة التي وضعتها أنا وسمّيتها (إبريق الزرجون في الترويح على المسجون) وهو قوله:

قل للشُّهاب الذي فاق الأنام علا ... مجلّياً سَابقاً في حَلْبة الفُضَلا
أدر عليَّ ابنة الزَّرجون من ملح ... بها كَشَفْت عن المَسْجون ما ثَقَلا
فإن شَوْقي إليها شوق ذي فزع ... إلى الأمان فبَادر لي بها عَجِلاَ
لا زلت ذا رُتْبة عَلْياء شامخة ... تعلو بها الشَّمس أو ترقى بها زَحَلا

فأرسلتها إليه وأجبته معها بقولي:

إن لَمْ يكن نَظْم صَدْر العالمين طِلا ... فشَنْف عين يحلّى العين منه طلا
شَهد ودُرّ فلا عَتَب عليّ إذا ... ما قلت لي ولجِيْد الغانيات حلا
ضربٌ من السّحر يسبي عقل ناظره ... فذو الحِجَى إن رآه طاش أو ذهلا
قد نَظَّمته وَوَشَّته أنامل من ... زِدْنا افتخاراً به لمّا سما وعلا
صَدْر النَّجابة بل صَدْر الكتابة بل ... صَدْر الخطابة في جَمْع قد اكتملا
أراد (إبريق زرجون) بعثت بها ... إليه حَسْب اقتراح صاغراً خجلا
وما احتشامي إلاَّ أن مَجْلسه ... حاشاه ما إن على خَمْر قد اشتملا
دامت معاليه لا نقص يناط بها ... ما شنّ قَطْر على روض وما هملا

وكانت له نسخة من شرح البديعية لأبي بكر بن حِجّة رحمه الله تعالى، وهو الشرح المسمى (تقديم أبي بكر)[1] ورأيته مغرماً به وبِتَصْحيحه، ومقابلته على نسخة صحيحة من ذلك الشرح، فكتبت إليه قولي:

---

(١) هو الكتاب الذي طبع بعنوان خزانة الأدب لأبي بكر ابن حجة الحموي.

شمس الهدى الشيعيّ حُبّ الوصي شعاره فِينَا بلا نكر
فما له أصبح من بعده مغرى بـ (تقديم أبي بكر)

فأجابني بقوله:

قل لخطيب العَصْر من فَهْمه يَذري بما يُخفى من السّر
ماذا الذي دلّك أني أمرؤ مغرى بِتَقْديم أبي بكر
لا شفةٌ فاهت بهذا ولا فِعْل به يَحْكم من يَذري
أبرأ إلى الرحمٰن من كل ما يُوهم أني جِئت بالنّكر
وعِلمكم يَكْفي بأني أرى تَقْديم صِنْو المصطفى الطّهر
وحَقّه لا مِلْت عن مَذْهبي فيه وعن ديني إلى الحَشْر
حَسْبي وصيّ المصطفى حيدر وعدّ عن زيد وعن عمرو

وكتبت إليه لَمّا كتب إليّ قصيدة بائية قصيدة في جوابها، ومعها من المنثور.
قولي: أقدّم بين يدي نجواي لك صدقة الاعتذار، وأقدم على خِطابك مع المَقْصور خالعاً في ذلك العذار، لمّا كاتَبْتني بقَصِيدتك التي أبدعت لجواهرها التأليف، وكلّفتني الجواب ومن شرط المكاتب عند الفقهاء التّكليف. فللّهِ غيث أدبِ عليّ منكَ دز، تنزّه صَافي شَرابه عن الأكدار مع أنه لا يخلو كل صاف من كَدَرْ، فها أبياتي وإن لم تَسْتحق قول هاك، فما نهاني نهاي عن الإبلاغ، وأرجو أن ينهاك عن النقد نهاك. ليست بقصور مُشيّدة، وإنما هي قُصور، وأبيات تَنْهدم بِنَفْخ الفَمِ لا بِنَفْخ الصور، عَرَضها المحبُّ عليك فعدم وقاره، لأنها كبيت العنكبوت في الوهن وكصفن الزنبور في الحقارة. شعراً[١]:

وهي نزر لو أنها من دموع الصّـ ـب لم تشف منه حرّ الغَليل
وكأنّ الأنامل اعتصرتها بعد كدٍّ من ماء وجه البخيل

---

(١) تلميح بالمكاتب: عند الفقهاء وهو الرقيق الذي تم عقد بينه وبين سيده على أن يدفع له مبلغاً من المال نجوماً ليصير حرًا.
(٢) من أبيات لأبي تمام.

وكانْ الأولى بطائري لو أنّه التزم سكوته وصَمْته، لأنك لمّا غَرَّدت على غصن قلمك بالعَتْب والنَّقص وصَمْته، فما أَصَبْتُ بعد نظمك إلا نزراً، ولا أبدأ بحر عروضي عند مدّك إلا جَزْراً. فأنا مُمْلق من البلاغة عند وفرك، ذو بطاقة حقيرة بجنب سِفْرك، فهل حسن أم لاق؟ أن يتطاول ذو إملاق، حَتَّى يأتي بما يمجّه السّمع ويلوح بارقه في سُحب الأوراق بما لا يهيج الوجد من اللَّمْع، لكني علمت أن سَتْر العوار لك سجيّة، وأن الرّيح الزعزع لديك نَسيم سَجْسَجيّة، فأرسلت إليك نَظْمي هذا مع ما ذكرت، وأهديته إلى مقامك، وهو أنفس ما احتكرت، فعَهْدي بالنظم عهد قديم، فلَيْس لي منه جليس ولا نديم، لأني ما وجدت في هذا العصر كريماً يمدح إذ يرجى، ولم ألف إلاّ لئيماً ليس له عرض يصلح أن يهجى، فاسترحت من المدح والذم، وسفكت دماء أهل الزمان من الإهمال بلَهْذم[1].

فأرني من يستحق المديح، وصِفْ لي من ذاك به يليق الهجو القبيح. أما من يَسْتحق المدح فقد عدم. وأمّا من يليق به الذم فموجود، لكن بيت ذمه بنَقْص النَّقص قد هدم. فقد كفانا نَقْصه مؤنة التكلّم، وإن ذَمَمْناه فهو كالميت لا يصيبه من الذّم تألّم. ليس بأهل للذم فما ظنك بالمدح. فالقدح في عرضه قدح للقادح وأي قدح.

ولما وردت قصيدتك على حِيْن غفلة، فكّت لي من هذا الباب الموصد قُفْله، وعلمت أنك مِمَّن يليق مدحه، ويطيب فيك لطائر البلاغة صَدْحه، فرجعت عن ذلك الاعتقاد، ونظمت فيك ما أعلم أنه لا يخلو عن الانتقاد، فاقبله تطوّلاً، ولا تلتزم عن الإغضاء تحولاً، وأحسن لسقطاته بحلمك تأوّلاً، والتقط من كلامي الحصى لا الدُّر. وذق من ألفاظي لا الحلو المشتهى بل المرّ. وتأمل نظمي تجد القصور ضِمْنه؛ لأن صَوارم ذِهْني، وخضرة أدبي كليلة ودمنة[2]، فلا تبذل في

---

(١) سيف.

(٢) تورية بكتاب كليلة ودمنة المعروف والكليل: المتعب ودمنة عفن النخل أو سواده.

الصّارم الكليل ثمن، ولا يغرك أيها الرائد خضرة الدمن. والسلام.

قولي: لأني لم أجد في هذا العصر كريماً الفقرة، والفقرة التي بعدها هما في معنى قول ابن الرومي(١):

أيست من دَهْري ومن أهله   فما بِهم من أحد يُرضى
إن رُمْت مدحاً لم أجد أهله   أو رمت هجواً لم أجد عِرْضا

قولي فأرني من يستحق المديح هو في معنى قول ابن الرومي أيضاً(٢):

قيل لي لم ذَمَمْت كل البرايا   وهجوت الأنام هَجْواً قبيحاً
قلت هب أنني كذبت عليهم   فأروني من يَسْتحق المديحا

ولما انتظم صاحب الترجمة في جمع صلاة الجمعة وحضره، وسمع بعض خطبي، وما أمليته على المِنْبر الشريف من خطبي المبتكرة. حملته الهمّة على العادة واشتعلت نار ذكائه الوَقّادة، لنَقْل ما سمع من تلك الخطب، والتقاط النَّوى منها، وعنده الرطب. فاسْتدعى مني ما سمعه، وهَشّ من القاصر لما جَمَعه. فعجبت كيف يَرْغب في الحصى من عنده الجمان؟! أم كيف يتوق إلى المهزولات من عنده السِّمان؟! فلم أر من تَجْهيز ذلك إليه بدّاً. ولم أستطع لما عوّل عليّ دفعاً ولا ردّاً. فأرسلت له بما اقترح. واعتراني لما عدّني في الأكابر الفرح.

وكتبت إليه مع ذلك من النَّثر قولي:

المطلوب من فضل ذي الأفضال. والملتمس من مواهب ذي الجلال، أن يطيل لوالدنا أوقاتاً وعمراً، ويمتّع بفوائده التي آنست زيداً وعمراً، ويزيّن فلك الوجود بِشَمْسه، ويشرّف مفرد القراطيس بخمسه، فأي مطلب أهمّ من هذا المطلب، وأي مورد أصفى من هذا المشرب، فإنه إن بقي، بَقيَ الفضل وأسبابه. وانفتحت من مُغلق المجد طاقاته وأبوابه، أليس هو فخر العصر؟، والمبرز من

(١) لم أجدهما في ديوانه.

(٢) ديوان ابن الرومي ٢: ٥٦٩ ط حسين نصار.

حِجَاب فَهْمه خرائد لا توجد في القصر.

هذا وإنها وردت منه بطاقة، عَقَدَتْ لإنسان محامدي نِطاقه، تتضمّن استدعاء الخطب، التي هي بأقلام منشيها حَمَّالة الحَطَب، فليست أهلاً بأن تكون طالبة، فكيف مطلوبه، أو جالبه لغيرها إلى سوق النَّفَاق، فكيف مجلوبة، ولكن اقتراحه المطاع، لا يمكن ردّه ولا يستطاع، فصدرت على خجل، ووردت في أعظم وجل مسبلة أردية الورق، مطويّة الحشا على الفرق، لعلمها أنَّ البحر الزحاف، غني عن الجزع بما عنده من درر الأصداف، وأنّ الروض الوسيم، بنباته المخضل لفي كفاية عن الهشيم، فإن البلاغة فَرْع هو أصلها، والخطابة قَوْس هو نَصْلها، والإنشاء روض هو غارسه، والتكلّم ميدان هو فارسه، فَلْيسبل عليها سِتْراً، فقد أجهد المسير فترا. والله يبقيه ما بقي ذكره، ويديمه ما دام شُكْره، فإنه المحمود بكلّ لسان، المذكور بالثناء في كل حين وأوان، ولا زالت مكارمه ما أرقصت الغصن حمائمه وما أرخى الجو من السحاب، رداء له من خيوط المطر أهداب. والسلام.

ولما رحل عنّا صاحب الترجمة، وغيّب عن برجنا من طلعة بدره ومن كلماته أنجمه، رحل السّرور في أثَره، وما زِلْنا نَسْتطلع المفرح من خَبَره، فأناخ بحضرة الإمام نياقه بعد أن أطال ذلك المقام الإمامي إليه اشتياقه، وأوى إلى حَرَمه، واستظل تحت أفياء كرمه، نزل عنده في أرفع مقام، وَقَدِمَ عليه قدوم العافية بعد سقام. فكان لتلك العين حَوَراً، وطالما شَكَت قبل مَقْدمه حَوَلاً وعورا، وأنيطت به الوزارة إناطة القلائد بالجِيْد، وأهديت إليه إنشاآته البليغة، كما أهديت الحلي إلى الغِيْد.

فلما رأى بعض الوزراء ما تَمَّ له، وعلم أنه قد نال من المعالي ما أمّله، وظَفِر من تمام الأرب بما أمّ له، سعى في المَكْر بِه سعي الأفعى، وأعمل له من المكائدِ ما لا يطيق له دَفْعاً، ونَصَب له شِبَاكاً لا كشباك الحباب. بل ألطف من نسيج العناكب وحاشى المصيد من رتبة الذّباب. فقالت له: لسان المعالي أمسك، فقد فاتك اليوم ما حظيت به في أَمْسِك. فما انتبه من رقدته، إلاّ وقد دنت منه

أسباب شدّته والنُّوب به من كل جهة أحاطت، والأماني مَزَّقت من الحلل ما له خاطت، فَجَرَتْ له نكباتٌ بها عرف فضله، فكيف يَسْلم من فجائع الدَّهر فتى له نبله؟ فإن الفاضل لسهام المصائب غَرَض، وجَوْهره النفيس لحوادث الأيام عَرَض، فاعتورته السُّجون، وسقى من الاعتقال ماءه الأجون، وحبس مَرةً بعد أخرى، وتاهَ به السجن على مقاصير القصور فَخْراً، وحُبس آخر مرّة بِبَنْدر عدن. ونزل بتلك الديار نزول الروح في البدن.

وصار إلى قَلْعة صِيْرة[1]، فطالت به أكنافها القصيرة، فما زال بها أسيراً، وما برح خاطره من الغربة كسيراً. وقد التوى بساقيه الأدهم، وأحاط بِخَاطره الغمّ والهمّ، وظَلّ سِجْنه لدرّه صدفاً، وبات مظلم مَنْزله لِبَدْره سُدُفا، حتى أحكم القانص صَيْده، وفَكّ الموت غُلّه وقيده، وحوّله من يمين إلى يسار. ونقله الحمام من مَنْزل سِجْن يرجى منه فك الإسار، إلى سِجْن قبر لا يطلق منه إلاً في المعاد، ولا يُرْجى له وقد ولج فيه زوال بَيْن وبِعاد، أغلَقَ الموت مقاصيره، وسَاقطت الدَّمع عليه مقاصيره، فأرسى على الشاطي ضريحه؛ كأنه مركب يَنْتظر من البحر إلى أن تهبّ رِيْحه، أو كأنه صَدَفةٌ قذفها المدّ. قد انطبقت على جوهرةٍ يشكر اليمّ بإنتاجها ويحمد، فأصبح للبحر جاراً؛ لأنه له في خصاله جارى، وشِبْه الشيء منجذبٌ إليه، ونظيره يسقط عن رغبة عليه، وعَمل بقولهم (جاور ملكاً أو بحر) لأن الملك طالما ملأ الأيدي بأياديه، والبحر طالما حلاً بنفائسه نحرا فيا لك من بحران قد اصطكان. ويا لك من عبابين لا يدخل مدحهما تحت الإمكان. ذاك يفخر بنفائسه وذا بسماته، وذاك يحلي النحور بدره وهذا بكلماته، باكر القطر من قبره ترابه وأحجاره، وسقته الغوادي المغدقة وإن كان البحر جاره، فماء المزن عذب، وماء البحر أجاج، وشراب الغمام صافي وشراب البحر يكدره اضطراب الأمواج.

---

(١) بكسر الصَّاد وسكون الياء جزيرة ترتبط بمدينة عدن من ناحية الشرق (المقحفى ١ : ٩٢٩).

الفقيه محمد بن الحسن الجيزاني الحيمي

ممن تأدب وبرع، وورد مناهل الفصاحة وكرع. روض أخضرت عذباته. ودب دبيب العذار نباته، أبرد من قطر الرباب، وأطرب من صوت الرباب، وأبهج من شرخ الشباب، ماكَرَّ قلمه بجواده، إلا أثار عرف المسك من مداده، أدبه مازج الأجساد ممازجة الأرواح، أو ممازجة الماء بخمرة الأقداح، فهو من دون بني العصر قد زفت إليه خزائن القصر، وافته في افكارها، فانفض ما لم يلمس من أبكارها وَعرَّف الغير بمحاسنها بعد انكارها، فله طبع أفرط في الحرارة، وسيف ذهن حَكَّمَ في خواص اللؤما غراره، فطالما ذم من مدح ونعق غرابه بعض مطوقه، الذي صدح وقدح، في حق من لزنده في الثناء عليه قد قدح، لما وجد العالم أشأم من سراب، وأكذب في المواعيد من سراب[1]، وقد مدح والدي بما يبقى بقاء الدهر، وخطب خرائد عطاياه في ما لهن من درر ألفاظه المهر، وأهدى إليه من نظامه في الأوراق حديقة الزهر، وقد أثبته في كتاب رعي الأب الذي هو أعظم وسيلة لي إلى الرب، ومن شعره قوله:

دقنك يا مولاي ما صَدَّني   فيك عن الصَّبوة والعشق
أنت طعام وأنا جائع   وهذه محرمة الحلق

ما في قوله ما صَدَّني نافية وليست بمعنى الذي، والمعنى أن طلوع العذار في خَدِّ هذا المعذر ما صَدّه عن صَبْوته ولا عشقه له وإنها زيادة في محاسنه وقد نَزَّل نفسه منزلة الجائع، وهذا المعذّر طعام أنيق مشتهى، والعذار محرمة الحلق، وهي في التعارف قطعة من الخبز اليابس الذي يأكلها آكل الطعام بعد شبعه، تسمى (محرمة الحلق) يعني أنها تجفف من الحلق آثار الرطوبة من الطعام المأدوم والأمراق ونحوها كما تجفف المحرمة آثارها من الكف، وقد لَطَف قوله محرمة الحلق مع كون العذار يستدير على وجه المعذر فتبلغ أطرافها إلى حلقه، ولا يبعد

---

(١) في المستقصى ١ : ٢٩٢ اكذب من اليهر. وهو السراب.

أنه قصد التورية بالحلق الذي هو إزالة الشعر بالموس وحَلْقه من منبته والله تعالى أعلم.

ولما دخل صاحب الترجمة مقام والدنا قاضي القضاة ومولانا سيف الحكومة الذي سَلّه الزمان وأنضاه محمد بن الحسن الحيمي، رَشَّ الغمام ضريحه وأفاضت عليه النسمات الفردوسية من الرضوان ضريحه وبمقامه الأرفع في القدر، أخواه الحافين به حفوف النجمين بالبدر، وهما يحيى وإسماعيل، ابتدر في الحال وقال من أحسن نظم قيل:

عِزّ الأنام ويحيى والضِّيا وهما ... إلى منازل فوق الشمس والقمر
تبوأوا فوق هام النجم مرتبة ... حتى غدى زحل منهم على حذر
ثلاثة ما رقا النَّسران حيث رقوا ... وكل ما طار من نسر ولم يطر
نالوا من المجد ما أعيا ... الأولى سلفوا من نسل آدم السامي أبي البشر
فقل لهم ليس في الأقوام فاتئدوا ... من لاحقٍ باعه في غاية القصر
لا زلتم في المعالي في بُلَهْنية ... منعّمين كما شئتم على سرر

قوله ثلاث ما رقا النَّسران البيت، ضمنه من أبيات البسامة الكبرى لابن عبدون وهي مشهورة، وما أحسن ما جاء للشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى في كلام منثور أو رده في كتابه (ألحان السواجع في المبادى والمراجع) واستشهد بهذا البيت وذلك مما كتبه إلى الشيخ جمال الدين محمد بن نباته المصري رضي الله عنه.

وقد أرسل له بثلاثة كتب فجاء في جواب الشّيخ صلاح الدين الصفدي عند ذكر وصولها إليه ما لفظه: يقبّل الأرض وينهي ورود الأمثلة الكريمة ثلاثاً، وقدومها عليه متواترةً حثاثاً، واستيلاؤها على الفَصاحة التي كانت لمولانا من جَدّه الخطيب ميراثاً، واشتمالها على البلاغة التي قد راح طينها نَفّاحاً وسحرها نفاثاً:

وثلاثة الشَّجر الجنيّ تكافأت ... أوراقها وثِمَارها وأرومها

فعلمت أنّ هذه الأمثلة الكريمة هي أثافي الفضائل، ومنطقة الجوزاء التي هي على عِطْفها المتمايل. وقلت: هذه الثلاث التي أعلت للأدب سرفه وشرفه. ورفعت إلى النّجوم طرفه، وجرّت على الأدب مِطْرفه، وهذه الثلاث التي هنّ من حاجة الفتى كما قال طرفة:

ثلاثة ما رقى النَّسران حيث رقت وكل ما طار من نَسْر ولم يطر

انتهى كلام الصفدي رحمه الله تعالى باستشهاداته.

قال السيد جمال الدين محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين رحمه الله تعالى.

قلت: الشيخ صلاح الدين رحمه الله تعالى لَمَح في هذا إلى قول طرفة، وهو:

ولولا ثلاث هُنّ من حاجة الفتى وجَدّك لم أحفل متى قام عُوّدي

لا إلى هذا البيت الذي ذكره، وذلك وهمٌ من الكاتب لا من المنشيء. وهذا البيت هو من البسامة الكبرى التي هي لابن عبدون في بني المظفر[1] ليس هو من قول طرفة. والحقّ ما دلَلْتُك عليه أيها المطالع. انتهى كلام السيد محمّد بن عبد الله رضي الله تعالى عنه.

قلت أنا: الحقّ ما دللتنا عليه أيها الفاضل من أنّ الصفدي لَمَّح في فقرته إلى قول طرفة، ولولا ثلاث... البيت. ولذا قال: وهذه الثلاث التي هي من حاجة الفتى. وأمّا البيت الذي أورده من البسامة، فليس من كلام طرفة، كما ذكرت أيها الفاضل. وأمّا قولك: إنّ ذلك وهم من المكاتب لا من المنشئ، فغير مسلم؛ لأن الصَّفدي حقيقة أشار في فقرته إلى بيت طرفة، فالفقرة مستقلة بِنَفْسها قد انقطع عنها ما وراءها من الاستشهاد ببيت البَسَّامة. فالاستشهاد به كلام مستأنف، والمحل محل خفاء وغموض، فغير مَلوم أنت أيها اللبيت فما طمح إليك وَهْمك وسارع

(١) قلت: هذا وهم من المؤلف والصَّواب بني الأفطس.

إلى تحريره انتقادك. ولو أن الصفدي، قال بعد قوله، كما قال طرفة. وهذه الثلاث ما رقى محلها نسر السمك الفلك، ولا بلغ من مرتقاها طرفة ثلاثة ما رقى النسران، البيت، لما التبس الأمر عليك. ولمّا أشارت أنامل الفضلاء بتخطئة تصويبك إليه ولا إليك. والله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وأقول: على قول الصفدي التي قد راح طيبها نفاحا وسحرها نفاثاً ليته قال: التي راح سحرها نفاحاً وسحرها نفاثاً يفتح السّين والحاء المهملتين في الأول، لِيُتم له الجناس الذي كثيراً ما يلاحظه في نظمه ونثره في السَّحر بفتحهما، والسِّحر بكسر السين المهملة، وسكون الحاء.

وقد يقول القائل: الطِّيب الذي جاء به في فقرته أليق بالنفح، وأنسب. ونحن نقول: نَفح السَّحر أيضاً لائق مناسبٌ؛ لأنه قد قيل: إن الزّهور وَقْت السحر أنفح طيباً في سائر الأوقات منها؛ لأنها تفتح فيه أبواب الجِنَان، فَيَسْري الطيب النافح من زهور الجنة إلى زهور الأرض.

وقد تتبعنا ذلك، فوجدناه كما قيل، وما أحسن قول الشهاب الخفاجي من فقر ريحانته في ترجمة أبي المعالي درويش محمد الطالوي رحمهما الله تعالى[(١)]: فكم سرح طرفي في رياض المنثور، فجنى من حدائقه بيد الفكر غضّ الزهور، ففاح ليل بلاغته في ليل حِبرة، ولا بِدْع للمنثور إذ عبق في عنبر الظلماء عبير نشره.

القاضي الوزير الحسين بن أحمد بن ناصر الحيمي[(٢)]

صدر وزارة، تعاهد المَجْد وزاره، ذو وزارات، تقصر في إحسانه بها العِبَارات، وزر للمَهْدي في الغراس. وهو حديث السِّن قليل المراس، فما أحد في تصديره لام، وذلك قبل أن يرقم في صحيفة خدّه من العذار لام.

---

(١) ريحانة الألباء ١: ٥٤.

(٢) انفرد بذكره.

رأيته في الدِّيوان يكتب وينشي، ويسكر الصَّاحي بخمرة كلامه وينشي، وهو في أجمل صُوَره، تَبْعث الرِّمم ولا كإسرافيل إذا نفخ صوره. وقد تمكّن من الكلام، وَدَخل جنّة الفَصَاحة بِسَلام، يكتب الخط البديع، وينمّق على جَنَبَات القراطيس زَهْر الربيع؛ كأنه يحرر للأيام به ما تَحْذوه في نَمْنمة عذاره، ويريها دبيب أسود ليله على أبيض نهاره، مع أخلاق كأنها الزَّهر، حفّ به متدَفّق النهر، يطيب طِيْب المسك المَفْتوت، الذي هو بمُسْتقطر ماء الورد مَلْتوت. ثم وزر للنَّاصر بحصن الخضراء. فما زال من العيش الرّغيد في غضراء أقبل عليه الحظ بجملته، ولحظه الجدّ بدَعْجاء مقلته، فنفذت أقلامه نفوذ الأسهم، وأطاعه قوم في علو المنصب هم ما هم، وشُدّت إليه القوافل، وجاءته من الأموال الفروض والنوافل، فجمع مالاً وعدّده. وفرق جيش العدو وبدّده، بحسن رأي أسد، يؤلف بين الثَّعلب والأسد، يتخلل في الأبدان تخلل الأرواح، ويُطْلع في لَيْل الحوادث غُرّة الإصباح، مع إنشآت فاضلية، يصوغ للجِيْد العاطل منها حليّة، فهو على غُصون الأقلام أصفر من بلبل، وذيل نَسَماته أعطر من ذَيْل نسيم قَدْ بُلّ، إن ألان الخطاب، فثمر حلوٌ في غصون رطاب، وإن خشن أبرق وأرعد. وأقام المخاطب من الفزع وأقعد، ثم ما برح لَدَيْه في أرفع دست قاعداً.

وما زال الإقبال مطاوعاً له مساعداً، حتى أدهم لَيْل خطبه وجنّ، وقلب له الدهر ظهر المِجَن، فتغيَّر عليه مخدومه، فإذا هو فقيد التَّصدر معدومه، سُلِب من الرياسة التَّاج، وأهزل فرس عزمه النتّاج، فحبس حَبْس الخمرة في القوارير، أو حَبْس الخرّد الحسان في المقاصير، أو حَبْس الفصّ النفيس في الخاتم. وبذلك تمّ له من اطراح الأثقال ما تمّ، حبس أولاً في حصن ثلا، السامي في الأفق على غيره عَلاَ، ثم نقل إلى جزيرة كَمَران، كما انتقل في البروج القَمَران، ثم في جبل بعدان إب، الذي لم يَزل فوقه ذيل السّحاب يَنْسحب، ثم أطلق فلزم من بيته الزاوية، وجثم أسده في عرينه غير مبالٍ بالكلاب العاوية، على سَعَة في العَيْش لا يستفزّه من إقلاله الطيش، وما زال مع خموله، على عموم الفَضْل وشموله، يشتغل بِتْحصيل الكتب، تائباً عن خِدْمة الملوك وغيره لم يَتُبْ، واسْتدعى من تَصانيفي،

وتَطَلَّع إلى الوقوف على بعض تآليفي، فأرسلت له بما حضر، وشرّفه بأعمال النظر، وحَصّل منها ما حصّل، ونَشَر من جُمل حللها ما فَصَّل؛ فإنه جمع من نَفائس الكتب خزانة، جمّل بها زمانه الجميل وزانه، فله بِجَمْعهما لهج ما، لمّا أحبها حُباً جماً، ثم وزر للمتوكّل، وجَلاّ في خدمته، فليس بالفَسْكل[1].

وكان يُنْشي بحضرته ما لا يُنشيه غَيْره، ويغرّد على أغصان الأقلام طَيّره، ولم يزل بمدينة صنعاء في خَضْرته، متفكّهاً في بستان مقامه وخضرته، حتى كُتبت له الشَّهادة. ووطّأت في أكناف الفردوس مهاده، لا زال بَدْره من الدم طالعاً في شفقه، متبلّجاً من الحَدَث في جوانب أفقه.

وشِعْره من القِلّة في غاية الغاية، فما رفع له منه عَلَمٌ ولا نشرت له راية. ولعله كان ذلك لا عن قصور لكن رأي فيه رأيه.

كتب إليَّ وقد أهديت له كتاب (الحسام المرهف في تفسير غريب المصحف)[2]:

يا أيها القاضي الكريم وخير من ساد الورى وَصَل الحسام المُرْهف
أثنيت في ملأ عليك فأصبحت يُثْني عليه في المقام المَصْحف
لله درّك إذ به أتحفتني فلقد حَبيْتَ بما حباه المُتْحف
وكذاك در مؤلف أبدى لنا تَوْضيح ما وهم الفحول فصحّفوا
لله درك في الوَرَى كم خَصْلة قد حُزْتها يَدْري بها من يعرف
ولَطَالَما أتحفتنا بمواعظ من فَوْق عودٍ لان منه المِغْطف
كم قد سَمعنا منك وعظا خر من ألفاظه صَخْر وذاب الصَّفْصف
لو يملأ الكُتَّاب كلّ صحيفة بثناك يا خَيْر الورى ما أنصفوا
لا زلت يا نجل الأكارم منعماً ومنعّماً في ظلّ رب يَلْطف

---

(١) الفسكل: سبق شرحه وهو من الخيل الذي يأتي آخر السباق.

(٢) من تأليف محمد بن إدريس بن الناصر اليمني المتوفى سنة ٧٣٦هـ تقريباً (مصادر الفكر العربي: ١٩).

فأجبته بقولي:

دارت على سَمْعي السّلاف القرقف ... فدع العواذل بالملام تعنّف
مَرَّت صبا نجد تعالى الله لا ... هي من صَبَا نجد أرق وألطف
زفّت إليَّ من الغواني غادةٌ ... قد لان منها كالرِّماح المِعْطف
قد رَفرف القرط اللّطيف بسالفٍ ... منها ورَقّ على قَوَام رَفْرف
زان القوام وطاب لي من كفّها ... عند التّجانس مِطْرف ومطرّف
منها دَنَانير الخدود بِمَنْعها ... عن لَثْم شَيّقها المتيّم تَصْرف
لا قد وهمت فليس ذَلك كله ... لكنها بالنّظم خُطَّت أحرف
جاءت إليَّ من الوزير كرَوْضةٍ ... قد طاب منها للجُنَاة المقطف
وعيون نرجسها عليها دَمْعَةُ ... من طلِّها في خدّ ورد تَذْرف
والغُصْن مال بها وفوق قوامه ... بَرْد من النّهر الزّلال يسجّف
هو بَدْر مجد كامل في بُرْجه ... ما شأنه عِنْد الكمال تكلّف
لا زال في دِسْت الوزارة صارماً ... عن رأيه فهو (الحسام المرهف)
حُفّت بهِ من ذي الجلال عنايةٌ ... ما هبّ عرف بالأطايب يعرف

ولما ثارت فتنة بقرية عَصُرْ[1] بفتح العين المهملة وضمّ الصاد المهملة أيضاً بعدها راء، وهي قرية من قرى مدينة صنعاء المحميّة كان من أقضية الله تعالى في عباده قتله هنالك في يوم عاشور الذي قتل في مثله الحسين بن عليّ عليهما السلام، وهو العاشر من شهر محرم الحرام سنة أربعين ومائة وألف سنة. فحمل إلى قبة كان قد أمر بعمارتها أيام حياته بِجَنْب الجامع المقدس الذي أمر ببنائه بمدينة صنعاء تحت القَصْر المعمور المشيد فدفن بها، وعول عليَّ بعض أولاده في وَضْع كلام منثور يكتب في جدرات القبة المذكورة قدّس الله تعالى روح من رمس بها، فكتبت ما لفظه:

---

(١) عصر: جبل في الطَّرف الغربي من مدينة صنعاء وتحته تقع القرية (المقحفى: ١٠٧٦).

الحمد الله الذي رفع مقام الشُّهداء، وأناف دَرَجَاتهم في عليّين بمباشرة من ظلم وعدا، أودع أرواحهم في أجواف طيور خضر تنتقل في أشجار الجنان، وأصلي وأسلم على رسوله الذي أريق دم ابن بنته الحسين بين صارم وسنان، يا له من صريع جُدّل بكربلاء، ويا له من مظلوم قيل لظالمه لا تقبل توبتك فمات بِكُرَب لا، فكان سيد الشّهداء لمّا قدم على ربه قتيلاً، وكان من الذين ظلموا ظلماً عظيماً لا من الذين لم يظلموا فتيلاً، حتى بكته السماء بالشَّفق من الإشفاق، وظَهَر غَضَب الرحمٰن على قاتله باحمرار وجه الآفاق. وَنَزل بجوار ربه ملطّخاً بدمه، وأفضى وجوده بأرض العراق إلى عدمه، أكرمه الله تعالى بالشَّهادة، وأكرم سائر القتلى في غير حق وأثجّ عليهم من رضوانه عهاده، وجعل منهم دفين هذا الضَّريح. ونظم في سلكهم هذا الصّريع الجريح، القتيل ظلماً وعدواناً، الملاقي من الرحمٰن الرحيم رحمةً ورضواناً، المودع من الأرض في نفق، الملطخ بنجيعه، فإذا هو بدر طلع من دمه في شفق، الواضع لعبادة الله تعالى هذا البناء المقدس، والمؤسس لأداء الفرائض هذا الجامع المطهّر، ونعم ما أسّس، ختمت أعماله المبرورة بالشهادة، ووطأ الله بها على سندس الفردوس مهاده. وهو القاضي الذي هو غير مستثقلٍ، والوزير الكامل، فإذا هو بِخصال الكمال، وكمال الخصال مخصوص، وزير تشدّ به الأزر، وبَحْر فصاحة عرف بالمد والجزر، وكاتب إنشاء إن شاء استنزال النجوم من أفلاكها. ونظمها بين شذور ألفاظه، فإذا هي تفكين[1] لعقودها في أفلاكها، فما عبد الحميد، عنده إلا في نهج من البلاغة غير حميد. وما القاضي الفاضل إلا وناقص لديه، فلا يَتَعرَّض إلى أن يفوّه به عنده، ولا يتعمد لذكر ابن عميد، يُنبت في أرض الكافور من الرق مسك المداد، ويجرّد أقلامه للترسل على الأعداء فإذا هي في سمر الصّعاد، فكم هَزَم جيوش البغي بجيش من رسالاته جرّار، وكم صادم بفُرْسان كلماته رعيل قتال كرّار، ولذا ندبه بعد قتله من قرطاسه وقلمه الأبيض والأسمر، وبكته السماء ولا بدع إذا بكت على الحسين بدمع من دم الشَّفق

(١) سلكين (من هامش ب).

الأحمر، شيعي الآل المملوّ علماً، المُشَارك للحسين بن علي عليه السلام في الاسم، ولم يكتف حتى شاركه في القتل ظلماً. فقتل في يوم عاشور كما قتل فيه، وتلقته الحور الحسان بكل ما يصطفيه، شرف الإسلام الحسين بن أحمد الحيمي، لا زَالت تتعاقب على ضريحه الولي والوسمي، قُتل بقرية عصر من قرى صَنْعاء اليمن، وكمن الحتف في جوانبها، وقد سبق في علم الله تعالى ما كَمُن، وذلك في يوم الأربعاء لعله عاشر شهر محرم الحرام سنة أربعين ومائة وألف (سنة ١١٤٠) حفّت به الرحمة من يمنة ويسرة وأمام وخلف.

ثم حمل ودفن بهذه القبة التي هي روضة من رياض الجنّة. كان قد أمر بعمارتها في حياته وهيّاها لضريحه، ولله الفضل والمنّة.

السيد يحيى بن أحمد الوَشَلِي النعيمي التهامي(١)

ليس بوشلي(٢) بل بحرٌ خضم، ترصّف جيده درة على الأجياد وانتظم، حديث فضله عالي السند، مرقوم بيد الذكر على صحيفة الأبد، إذا هبّت نسماته التهامية، أطفأت بعرفها من المهج ناراً حامية، فدع عنك نسيم نجد، إذا هيّجت الغرام وأثارت الوجد، ذو دوحة حلا ثمرها، وسماء مَجْد تجلّى قَمرها، وكؤوس كَلمات راق عصيرها، ورماح بلاغات وبراعات طاول العوالي قصيرها، تخضرّ بِقَطْر أشعاره الهضاب، وتتزيّن بِرَقْمه وجَنَات الغِيْد عن بديع خضاب، مع سجيّة سجسجية وهِمّة تسبق الأعوجيّة(٣)، ما هَمّت بشيء إلا أدركته، ولا زلزلت الجبل الراسخ إلا حرّكته، فماشية أدبه غير جَمّاً، وكنز فصاحته يغني من أحبّ المال حبّاً جماً، ما همى قطر شعره ولا همر، إلاّ اقتطفت من رياض الطروس فاكهة الثمر، إلاّ أنه لنأي داره، وبعد محله وتعذّر مزاره، لم يبلغني من نظمه المشتهى إلا على ما يستدل به على أنّه في الأدب المنتهى.

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) الوشل: الماء القليل.

(٣) الأعوجية: سبق مثله وهي خيل تنسب إلى الأعوج حصان لبني هلال.

من ذلك قوله في بعض قصائده، التي هي لشوارد المعاني من أقنص مصائده:

إليك وإلاَّ لا نجاح لطالب وفيك وإلاَّ لا مَديح لراغب
ومنك وإلاَّ فالمؤمل مخطىء وعنك وإلاَّ فالثَّنا غير واجب
يقول لي الحادي وقد جدّ في السُّرى وللعِيس وَخدٌ بين تلك الغياهب
وقد خالط النَّاس النُّعاس من السُّرى وهم بين ماشٍ في القفار وراكب
إلام التَّمادي في السرى يا أخا السّرى وحَتَّام قَطْع للربى والسَّباسب
أما حان للعيس المناخ فقلت لا مناخ سوى في سوح عالي المراتب

السيد محمد بن علي النعمي التهامي(١)

سيّد عظيم رئيس، يخمد بذكره في القلب الرسيس، الفضل له جلباب، فقد سلب بِسِمَاته من الأماجد ألباب، وَفَتَح من الثناء الجاري له على ألسنتهم الباب. مقدام جريّ شجاع، ما له عن أخطار المعارك من ارتجاع، طالما ألقاه إقدامه، في حومة وطيس تزل بالبطل فيها أقدامه، فكم ناداه العَشيرة عند تصادم الصفوف. ألقنا بين مشتجّر القنا ومشتبك السيوف، فهو سلالة أقوام، تقصر بالقتل عنهم الأعوام، فلا يمتدّ لهم أجل، لمصادمة الأخطر الأجل، مَجْدهم محترمٌ مصان. تحرسه السيوف القَاطعة والخُرصان.

وهكذا من خَطَب العُلا، الأنيقة الحلل النَّضيدة الحلى، لا يُنْهرها إلا الطِّعان والضّراب، على صَهَوات الخيل المُضَمَّر العراب، كم انتصبوا من الأعداء للأقران، فأغرقوهم من الدَّروع السابرية(٢) في غدران، قَفَا هذا الشبل آسادهم، وسرّ أولياءهم وساء حسادهم، بسيرة له حميدة، لم تَزَل المعالي بها عمَيدة، لازم الأبواب المتوكّلية ففاز، وغدا لأردان الأعيان بها أبهج طراز، يجالس الأكابر،

(١) انفرد بذكره.

(٢) دروع دقيقة النسج في إحكام.

ويخطب من الفصاحة على مَنَابر، بعد أن ربّته تهامة على الرّمل، وجمعت منه ومن لذات شبابه الشَّمل، لمّا هام بالقدود من بانها، وأغرم بالأرداف من كُثْبانها، هزّته نسيم أصائلها، وسلبته أغصان الدوح بِتمايلها، وغازلته رُبّ جائله في وشاحها، فزادت خَيْل صبابته في جماحها، وإذا طبعه ألطف من نسيم التَّهائم، وفؤاده أرق من كلّ فؤاد هائم، فله مع البسالة ماء رِقّة في الطبع أساله، يميل إلى الأدب وأربابه، حتّى أرقاه عزمه إلى الرتب العالية وأربى به، فله سورة متلوّة في (الشّعراء)، ونظم صيّر بأبياته المشيدة سائر الأدباء بالعراء، أشرق الكون نوراً من كواكبه، فلم تزل تقول: يا مهج الحسّاد زيدي اتقاداً فقد كَواكِ بِه، اخترت له من قصيدة منسجمة النظم. تبادر اللآلىء بالحط لمرتبتها والهضم.

قوله:

من لجَفْنِ جارِيْ الدموع مسهّد ⁂ ولقلب نيرانه تتوقّد
ولجسم قضّه المضجع الجا ⁂ في ووافاه هَمّه فهو مكمد
من دخيل من الغرام قديم ⁂ وحديث من السّقام مجدد
حالةٌ تذهل الحليم وحِبّ ⁂ حَلّ بالغور والمتيم أنجد
أين أحبابنا الأضنة منّا ⁂ أين مِنّا بالغور والرمل معهد
أهم في سواد عَينيني أم هم ⁂ في سُوَيْدا الحشا على البُعْد والصَّد
وعجيب تخيّلي واذّكاري ⁂ كَيْف والفكر بالهموم مشرّد
وأرى خاطري وإن جَذَبْته ⁂ فكرة للنّظام فهو مبدّد
أشرقتني بالرِّيق حالات دهر ⁂ تُشْرق الصّخر بالزلال المبرد
لِيَ منها حسن التّوكل والصّبر ⁂ وتَبْليغها الأديب الممجد
الأخ البر واسع السوح والصـ ⁂ ـدر الكريم الأغرّ يحيى بن أحمد
درة التاج بل يتيمة عقد الآ ⁂ داب ناظور، الفخار المشيد

الفقيه محمد بن حسين بن يحيى النعمان التهامي الضَّمدي(١)

تاج هامة، وجَمَال تهامة، أتهم ولكنّه في المعالي أنجد، ولم يرَ بدّاً في طلبها من أن جدّ، فأدركها بجده وجُهدِه، وعَلّقت عليه تميمتها وهو في مَهْده، لمّا كرّ خلفها من همّته بأنجب الجياد. فأدرك ما حَاولته هِمّته، قبل أن توضع على رأسه عِمّته، قرأ وتخرّج، وتنَزَّه في منازه العلوم وتفرّج، فهَوْ ذو عِرْفان موقّر، بكل شَاردة من الفوائد مظفّر، وشعَر مداده الأسود بطيب العلم مظفّر، ما هو إلا نُعْمان الزّمان، ومالك أزمّة المذهب في الأوان، مَعْرفته في الفقه فائقة، فلو أدركه النعمان لقطف شقائقه:

لو رآه النُّعمان في مَجْلس الدّر س لقال النُّعمان هذا شقيقي

وله في الأدب مشرب أهنأ، ومنهج حَيّر اللّبيب في تأمله وبلّد له ذهنا، مَنَحَه الله تعالى بما مَنَح فَسَنَح له من شوارد المعاني ما سَنَح، وَدثّره بحلل البدائع وزمّله، وقاد له بِرَسن الذَّهب الصّعب الأبي وَزّم له، طالما في مقامه قد افتتن، حتى قال متنوّع الرياض: أنا بافتنانه أفتَنْ.

كَمْ نظم الفرائد، وأرسل في طلب الكلأ من الأدب ألف رائد، فوقع على رياض فيها النَّجم والشجر، وتراب أنهارها وحصباؤها المسك واللؤلؤ الترب والحجر، فهو ينظم اللآلىء على كأس نظامه حَبَباً، ويسير على صفحة ماء بحور الشعر رملاً وخببا، فمن شقائقه النّعمانية، وعقود ألفاظه الجُمَانيّة، وسيوف أدبه اليمانيّة.

قوله:

ورود خدّك زادت مُهجتي تَلَفاً وعَلَّمت مقلتي التَّسهيد والدَّنفا
وسِحْر لحظك لما أن رنيت به أهدى لي السّقم بل أهدى إلى الكلفا
أسرفت يا هند في قَتْلي ولا عَجَب القَتْل طَبْعك فِيْنا فاتْركي السَّرفا

---

(١) انفرد بذكره.

أمّـا هـواك فـمـا أبـقـى لـنـا رمَـقـاً ... أصلاً وشـرّد عـن جفـنـي الكَـرَى ونَـفَـا
لـمـا مَـلَـكْـت فـؤادي بـالـهَـوَى عـبـثـاً ... جَـعَـلـتـنـي لـسـهـام في الـهـوى هـدفـا
أَجْـفْـوةٍ مـنـك أم ذا كـلـه صـلـفٌ ... بـالله بـالله خـلـي ذلـك الـصَّـلـفـا
وعـلّـلـيـنـي ولـو بـالـوعـد كـاذبـةً ... فـرّبـمـا كـان فـي وَعْـد الـمـحـبّ شـفـا
فـمـا تـحَـجّـبـت إلا زِدتـنـي قـلـقـاً ... ولا تـبـرّجـت إلا زِدتـنـي شـغـفـاً
الـبَـدْر وجـهـك حـتـى لا أفـول لـه ... والـلـيـل شَـعْـرك قـد أبـدى لـنـا سَـدَفَـا
وغـادة تُـخْـجـل الأقـمـار حـيـن بَـدَتْ ... وَجْـهـاً وتـخـجـل خـطّـي الـقـنـا هَـيَـفَـا
ضـعـيـفـة الـخِـصْـر مـهـضـوم مـوشّـحـهـا ... والـخِـصْـر أحـسـن شـيء مـنـه مـا ضَـعَـفـا
قـد أبـدع الله مِـنْـهـا خَـلْـقـهـا وبَـرَا ... فِـيْـهـا الـجَـمَـال وسَـوَّى قـدهـا ألـفـا
تشكو الخلاخيل منها كلما خطرت ... ضِيْق المجال ويَشْكو خِصْرها النَّحفا
تُـدْمى مـن الـلّـثـم والـتَّـقـبـيـل وَجْـنـتـهـا ... عـنـد الـعـنـاق ويُـدْمـي خـدّهـا تـرفـا
نـادمـتـهـا وظـلام الـلَّـيـل مـشـتـمـل ... على الرَّقيب وجَيْش الصّبح ما دلفا
فـبـات لـي ولـهـا مَـا الله يَـعْـلـمـه ... حـتى تَـبَـلَّـج وَجْـه الـصـبـح وانـكـشـفـا
فـحِـيْـن ولّـت تـوَلَّـت مُـهْـجـتـي مـعـهـا ... فـحَـسْـبـي الله مـن بـعـد لـهـا وكـفـى

قوله: وعلليني ولو بالوعد كاذبةً فيه لطف، وفي معناه غاية الظرف، وهو معنى مسبوق إليه.

قال السيد فخر الدين عبد الله بن الإمام شرف الدين رحمه الله تعالى[1]:

مـنِّـي عـلـيّ بـزورة أحـيـا بـهـا ... في أنس قـربـك أو عِـديـنـي واكـذبـي

وقال آخر:

عـلّـلـيـنـي بـمَـطْـلـب ... وامـطـلـي مـا حُـيِـيْـت بـه
ودعـيـنـي أفـوز مِـنْـك ... بـرَجْـوى تـطـلّـبـه

وقال مهيار الديلمي[2]:

---

(١) لم أجده في ديوانه.

(٢) ديوان مهيار الديلمي ١ : ٧٦.

يا ماطلي بالدِّين ما ساءني إليك تِرداد المواعيد بي
إن كنت تنجز ثَمّ لا نلتقي فدم على المَطْل وقل واكذب

وقال آخر:

أوعدتني وعداً جعلت لأجله أبداً غدوِّي في الهَوَى ورواحي
ولقد حَمدت المَطْل مِنْك لأنّه سببٌ إلى رؤياك كل صباح

قلت: الصّواب إلى رؤيتك فقد تقدم لنا كلام في الفرق بين الرؤية والرؤيا.

وقال الشريف الرضي رضي الله عنه[1]:

يُعْجبني مطل غريم الهوى لطُول تِرْدادي إلى الماطل

وقال مؤيد الدين الطغرائي[2]:

وتُعْجبني المواعد كاذبات لتِرْدادي إليه على المِطَال

قال الحافظ أبو سعيد السمعاني: سمعت الحافظ ابن عساكر الدمشقي يقول: سمعت سعيد بن المبارك المعروف بابن الدّهان يقول: رأيت في المقام شخصَ، وهو يُنْشد شخصاً آخر؛ كأنه حبيب له[3]:

أيها الماطل ديني أملي فيك تُمَاطل[4]
عَلِّل القلب فإنّي قانعٌ منك بباطل

وقال الشيخ شرف الدين بن الفارض[5]:

عديني بوصل وامطلي بنجازه فعندي إذا صحّ الهوى حَسُن المَطْل

وقد ضَمَّن هذا المولى الحسين بن عبد القادر رحمه الله تعالى، إذا كان يُوْفي

---

(١) لم أجده في ديوانه.

(٢) ديوان الطغرائي: ٣١٩ ط جواد الطاهر.

(٣) وفيات الأعيان ٢: ٣٨٤.

(٤) مطبوعة الوفيات: املي وتماطل (خطا).

(٥) ديوان ابن الفارض: ٨١ ط بيروت المصورة

العَسْكر المنصور ما هو لهم من الأعداد في بلاد وبيّة فاسدة الهوى، حتى وصلوا إلى بلاد صَحيحة الهوى فمَطَلَهم فقال:

إذا ما أقمنا في بلاد وبيئة نُوَفّي سَبَار الجُنْد[1] حتماً ولا فضل
ونَمْطل إن كنا بأرضٍ صحيحة فعندي إذا صحّ الهوى حسن المطل

قوله: أعني صاحب الترجمة: وجَيْش الصبح ما دَلَفا، هو بالدال المهملة المفتوحة يقال: دَلَفت الكتيبة في الحَرْب إذا تقدّمت، فمَعْنى البيت وجيش الصبح ما تقدّم، وهي استعارة حَسَنة لَمَّا استعار للصّبح جَيْشاً متقدّماً، ومنه ما جاء لي في كلام مسجوع منثور، وهو قولي: قطعنا ليلنا في مَقَام أسمى. قد قابل فيه روض الأرض روض السما، فهذا قد تدبّج بزهوره، وهذا بِنَرْجس النّجوم وبَنفسج الظلماء، لو لم يكن كعبه إيناس، لما مَدّ عليه اللّيل أسود اللّباس، ما شأنه أبداً قبح، حتى تقدّم جَيْش الصبح، فبدّد ذلك الجَمْع، وتساقطت النجوم للغرب تساقط الدَّمْع، أسفاً على شمل تشَتَّت، وجبل أنس قد تثبّت، فأرانا صنع كتيبة الروم، بالزّنج المنكسر وجَيْشه المهزوم، فإذا الجو صَحِيْفة محي منها سَوَاد الليل عن أسطره المرقومة، ورقمت فيها بقلم رَيْحاني من الفَجْر حروف بيّنة مَفْهومة، فكذا حال الدهر جمعٌ وتَفْريق، فالصَّبر يحسن في معاملته والإغضاء يليق، والسلام.

قولي: ورقمت فيها بقلم ريحاني إلى آخره. القلم الريحاني من أقلام الخط معروف. والمراد هنا: اخضرار الفجر في الشَّرق كأنّه الرَّيحان فقد يستعار له، قال ابن خفاجة رحمه الله تعالى[2]:

وقد نَسَمت ريح التّهامى[3] فنَبّهت عيون النَّدامى تحت ريحانة الفَجْر

---

(١) سبار الجند: جورهم وصرفهم.

(٢) ديوان ابن خفاجة: ٢٣.

(٣) الديوان: النعامين.

وقد يستعار له الفيروزج لاخضراره. قال صفي الدين الحلي رحمه الله تعالى[1]:

فيروزج الصّبح أم ياقوتة الشفق بدت فهيّجت الورقاء في الورق

وقد استعير الريحان للعِذار واخضراره أطبق عليه الأدباء، ونَصّ على استعارته زمر الألبّا، على تعاقب أعصارهم وتباين أمصارهم. قال قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان رحمه الله تعالى في رباعية له[2]:

في هامش خدِّك البديع القاني تَضحَيح غرام كلّ صبّ عاني
قد خرّجها الباري فما ألطفها من حاشية القلم الريحاني

وقال ابن عبد المنعم[3] رحمه الله تعالى[4]:

واحيرة القَمَرين منه إذا بدا وإذا انثنى يا خَجْلة الأغصان
كتب الجَمَال ويا له من كاتب سَطْرين من خدّيه بالرَّيْحان (ي)

وقال آخر[5]:

ومُهَفْهف يُحمي ورود رضابه بصَوارم سُلّت من الأجفانِ
كتب العذار بأحرف مسكيّة في خدّه سطراً من الريحاني

السيد صلاح بن محمد بن علي الأمير الحمزي الكحلاني[6]

أمير وابن أمير، هو للعلياء جليس وسمير، فَرْع سماء فإذا هو بالشُّهب محروس، وغصن بَسَق على أنّه في تُخوم المَجْد مغروس. صعد في المجد فما شمنا له بَرْقاً، وعلا فوق النجوم فاخترق الخرقا[7]، من قوم وَضَح شأنهم، وأناف

---

(١) ديوان الصفي الحلي: ٨٣ ط دار صادر.
(٢) فوات الوفيات ١: ١١٨.
(٣) هو محمد بن عبد المنعم ابن حواري المتوفى سنة ٦٦٩ هـ (فوات الوفيات ٣: ٤١١).
(٤) البيتان في فوات الوفيات ٣: ٤١٢.
(٥) لسيف الدين بن مشد، ذكرهما النويري في نهاية الأرب.
(٦) انفرد بذكره وهو جدّ الإمام محمد بن إسماعيل الأمير مجدد القرن الثاني عشر.
(٧) الريح الشديدة.

على الطِّباق مكانهم، لو كان عَزمهم صارماً ما نبا، أو جواداً لما قيل في حَقّه كبا، أو جَمْراً متّقداً لما خَمد ولا خَبا. لقّبوا بالأمراء، لمّا لم يطلع فلكهم إلاَّ قَمَرَا، اشتهروا بالشَّجاعة والإقدام، وعرفوا بالحَزْم ولذا ذِكْرهم اللائق دام، فمادحهم إذا أطرى، وهمع ثناه عليهم قطراً، وملأ بأوصافهم قطرا، كمن قال للمسك: ما أطيب عرفك، وللغزال: ما أطول جيدك وأحسن طرفك، وللبدر: ما أجملَ محياك، وللنسيم المتضوّع: ما أعطر رَيَّاك، وللّروض: ما أنظرك بهيجاً، وللعَنْبر ما أنفحك أريجاً.

وهذا الفرع الأنجب، قد فرض على نفسه التزام طريقهم وأوجب، وتخلَّق من العلم بِسِمات، وأحيا بطلبه منه ما مات، فهمّته تقرّب له البعيد وتطوى له، ومادحه لا يوفيه حقه أن أبدى تقصيره وتطويله.

وله في الأدب نهج واضح، وَوَرْد حديقة بمائه الطيب ناضح، فأدبه لعيون الخرائد دعج، ولثغورها اللؤلؤية شنب وفلج، وأقلامه في الطّرس غصون في روض وسيم، يغرّد عليها من فصاحته حمامٌ ويهزّها من أنامله نسيم، فمما ملأ كؤوس المَسَامع من خمر آدابه، وقلَّد جِيْد الأيام بفرائد خطابه فأبدى عجيباً. قوله مراجعاً مجيباً:

تغنّت على غصن الأراك بلابله ... وناحت فباحت للمَغَنَّى بلابله
لقد أفْهَمَتْهُ من معاني نواحها ... شُكى من أليف طال عنها تغافله
وكل أليف نَازح عن أليفه ... فلا شك في أنّ التباعد قاتِلُه
وأن اجتماعاً يَعْتريه تفرقٌ ... يَمُرّ وإن أسْقتك شُهداً أوائله
لحى الله دهراً دأبه الجور دائماً ... لقدحال ما بَيْن الأليفين حائله
كفى منه جوراً أنّه صار قاطعاً ... لِوَصْل الذي أحببت أني أواصله
جَمَال الهدى بَحر النَدَى مردي العدى ... جزيل الجَدَا من لا يخيّب سائله
كريم فكم أعطى الأماني تكرُّماً ... لقد أخجلت أيدي الغمام أنامله
له خُلُق ضاها النَّسيم لطافة ... وكف يحاكي السُّحب أن جاد وابله

فَصِيْح فما جاراه في النَّظم جِرْول ولا قَيْس ليلى والكُميت يماثله
أتاني نظام منك يا نجل قاسم هو اللؤلؤ المكنون والبحر باذله
يفوق ويُزْري بالجَواهر لفظه كما فاق أرباب المفاخر قائله
رَفَعْت به فوق الشوامخ رتبتي ونلت به ما كنت أرجو وآمله
تضمّن عتباً لا تقلّ أقلّه الرّواسي فما قَلْبي روَيْدك حامله
ومالي ذَنْبٌ قد جرى غير مَدْمع من البَيْن سالت في خدودي سوائله
وما كان بعدي عنك صدّاً وجَفْوة وكَيْف يُجَافي القَلْب من هو داخله
ولكن لم تَنْفكّ عَنْكم تصدني صروف زماني دائماً وشواغله
فرِفْقاً جَمَال الدين لا تك جائراً وكن عادلاً فالعدل يُحْمد فاعله
وعذراً فقد أهديت درّاً وجوهراً إليّ وهذا الجزع منّي مقابله
بعثت به لمّا طَلَبت إجابتي ولي حُسْن ظن فيك أنك قابله
ودم وابقَ في عزّ ومَجْد ورفعة وفي خَفْض عيش صافيات مناهله
وصلّ على المختار والآل كلما تَغَنَّت على غُصْن الأراك بلابله

ولده السيد إسماعيل بن صلاح الأمير(١)

ما أعدّه في الفضلاء إلا أوحدا، ولا أحسب أن سائق العيس قصد أفضل منه إذ ترنّم وحدا، هو لبيوت المجد بَهْو. ولذا أنّه لبس به الدهر غلائل الزّهو، عرفانه في النحو شائع، ومتضوّع درايته فيه يضيع عندها ابن الضائع(٢).

كان أوّلاً بمدينة كُحْلان(٣)، فهي له قرار، ثم تَوطّن صَنْعاء ذات الشيح والعرار. وهو الآن فيها يَخْتار مسائل العلوم ويصطفيها، ويتتبع آثار الفضلاء

(١) نفحات العنبر (خ) نشر العرف ١ : ٣٦٢ وهو والد الإمام مجدد القرن الثاني عشر محمد بن إسماعيل الآتي ذكره.

(٢) ابن الضائع هو علي بن محمد بن يوسف الإشبيلي، نحوي له شرح كتاب سبيويه توفي سنة ٦٨٠ هـ (بغية الوعاة: ٣٥٤).

(٣) كحلان: مدينة جبلية في الشرق الشمال من صنعاء.

ويقتفيها، يَحْترف بالخياطة، فَيَجْلوا من قلبه نِيَاطه، وهو إمام المِحْراب بالمدرسة، يلتقط ثمر الطَّاعة، وقد تَسَوّر مغرسه، فهو المجلِّي والمصلِّي، وهو المجلي لذلك الجِيْد والمحلي.

اجتمعت به لما وفد إلينا، ونزل بديار كوكبان كرَيْمة[1] علينا. وهو في شَرْخ شبيبته، ذو هيام بخريدة الأدب بما لا يهيمه بحبيبته، فإذا هو أرق من النّسيم طبعاً، وأوسع في المعارف من الأفق رَبْعا، ثم رأيته بصنعاء ثانياً. وقد أضحى عَزْمه عن العلم وانياً، لما صار نسيمه عليلاً، ولم يبرح لآلامه خليلاً، وقد وهت قوّته ونشاطه، وطوى بيد الأسقام بِسَاطه وانبساطه. وقد أملاني من شعره لما استمليته، واسفر لي وجه فصاحته فاجتليته، من ذلك قصيدة طويلة مطبوعة، أظهر من شرابها الحلو ينبوعه، ذكر فيها حَجّة، وأقام بها لفصاحته حُجّة، ووصف تأديته للمناسك، ومشاركته في تلك البقاع الشريفة لكل ناسك. منها قوله:

بلغنا المنى فالحمد لله والشكر ... إلى مكة من قَبْل أن تَدْخل العَشْرُ
وصَلْنا وصليّنا تماماً وإنّما ... صلاة الحجيج الأكثرين بها قصرُ
قَطَعْنا إليها البَحْر والبَر فانْطوى ... لنا عن قريب وانْقضى البَحْر والبر
تحُفّ بنا في البَحْر ريح وتَارة ... تحُفّ بنا في البر عِيْس لها الشكر
إلى أن وردناها صبيحة جُمْعةٍ ... مباركةٍ من بعد أن طَلَع الفجر
قدمنا فقدّمنا طواف قدومنا ... ببيت له في الذّكر قد عظم الذكر
وما زال تَكْرار الطوافات دأبنا ... إلى أن تقضّت فيه أيّامنا الزّهر
تردّدنا بين المقام وزَمْزم ... مع الرّكن والحِجْر الشّريف ولا حَجْر

وله من أخرى:

وافت على عجلٍ مخافة أن ترى ... لَيْلاً وما شَعَر الرّقيب وما درا
ووفت بما وعدت وعادت مغرماً ... دنفا يكاد لسقمه أن لا يرى

---

(١) كريمة: سحابة.

صبّاً أذاع الدّمع سرّ غرامه ... مهما جرى ذكر العقيق وما جرى
وإذا شرى بَرْق الغوير وحاجر ... باح الفؤاد إذا تألق أو شرا
وكذا الصَّبا النجدي يُصبيه إلى ... دين الصَّبابة والصِّبا مهمى سرى
كنت الخلي فأوقعتني في الهوى ... نُجْل العيون فلَسُت إلاّ ما ترى
جسم يذوب وعِبْرة وكآبة ... الحب يستلب العقول بلا مرا
ولقد لحى اللأحي الملحُّ وقال لي ... أو ما نَهَاكِ نُهاك من دون الورى
دَعْ عَنْك تِذْكار الصّبابة والصبا ... أو ما كفاك الشّيب ويحك منذرا
وتسلَّ عن هذا بذِكْر محمّد ... بَدْر الهدى غيث النّدى أسد الشرى
الماجد العلم الذي سبق الورى ... طرّاً وخلّف سابقيه إلى الورى
حِلْف الدفاتر والمحابر لم يزل ... في العلم من عَقْد الإزار مشمّرا

وله من أخرى:

ما غَيْر وصلك من داء الغرام رقى ... ومنذ غبت فطَرْفي لا يذوق رقا (د)
من لي بطيف خيال منك يُطْرقني ... أنا ونومي لِبَاب الطرف ما طَرَقَا
لله أيام وصل باللّقا سلفت ... مع الأحبّة لو دامت ودام لقا
ما هبّت الريح من تلقاهم سَحَراً ... إلا تنَشَّقت ريحاً طيّبًا عَبِقَا
وأهل جيرون جاروا بَعْد بعدهم ... ولم يراعوا عهود الصّحب والرَفقا
لي فيهم بدر حسن ما بدا أبداً ... في ظُلمه الليل إلاّ أذهب الغسقا
وأغيد يتمَنّى الغصن قامته ... ويحسد الظبي منه العين والعنقا
وناصح بجميل الصَّبر يأمرني ... وما درى أن صَبْري كلّه نفقا
وكيف يُحْمد صَبْري في مفارقتي ... محمّداً من لأعلى المكرمات رقا

وله من أخرى:

الآن باح غرامي المكنونُ ... لمّا تطاول بَيْننا ذا البينُ
ما هبّ من تلقاكم ريح الصَّبا ... ألا تحرّك لي شجاً وشجون

ويـهـزّنـي تِـذْكـاركـم فـكـأنّـه ريحٌ وأعـضـائـي لـديـه غـصـونُ
ولـقـد كَـتَـمْـت هـواي لـولا أنّـهـا نـمّـت عـلـيَّ مـن الـعـيـون عـيـونُ

ولما طالع كتابنا المسمّى (الأصداف المشحونة بالجواهر المكنونة) قرّظه بأبيات لطيفة، ونفثات ظريفة، ابتزّها الدهر من خزائن آدابي، وسَلَبَ شنفها الذهبي من آذان كتابي، فلم أجد الآن لها أثراً ولا عيناً. ولم أنس من إبريزها الخالص نضاراً ولا عيناً، فكتبت إليه من النظم والنثر أشكره. قولي:

نَـظْـم أم الـدر الـنّـسـيـق فـي الـجِـيْـد أم رَوْض أنـيـق
مـا زال يَـرْشـف مـنـه بـالأ سـمـاع مَـشْـروب رقـيـق
كـم جـدّدا الأفـراح لـي مـن لَـفْـظِـه راح عـتـيـق
حـيّـا الـضِّـيـاء[1] بِـخَـمْـرة مـنـه فـلا كـان الـرَّحـيـق
وأتـى بـعِـقْـد لـلـغـوانـي دره أبـداً يـلـيـق
يـا واحـداً فـي الـفَـضْـل مـا قُـفِـيْـت لـه أبـداً طـريـق
أتـحـفَـتْـنـي بـمُـدامـة مـن سُـكْـرهـا لا أسـتـفـيـق
فـاسْـلـم ودم مـا اهـتـزّ مـن مـرّ الـصَّـبـا غـصـن ورِيـق

وصلني منك ذلك النظم الذي حط قدر الدرّ بالهضم. شعر يهيم به الشّعراء حرباً، وتطير لمعانيه الجرادتان[2] طربا. لما رَقّتْ زجاجته، وحلّت في أمواه الدوي مجاجته، وقامت في مَيْدان السَّبق عجاجته. أدار خَمْرة الآداب في أكوابها. فقال: قلب الحسود إنما هذه جمرات أكوى بها، فهي خمرة يصيب كل رأس منها صداع لغيرة منه إذ قَصُر عن اعتصار مثلها له باع.

مدحت ذلك المؤلف أي مَدْح، وصدحت حمائمك بالثناء عليه أطرب صَدْح، بعثت لي من مواقع أقلامك بثنيّة[3] وعسلاً، على أنك نصبت لي منها

---

(١) الضياء عند أهل اليمن لقب لكل من يسمى إسماعيل.
(٢) سيأتي ذكرهما.
(٣) سيأتي شرحها للمؤلف.

تحت لواء القِرْطاس أسلا، إلا أنها أسل كلَّمتني بألسن أسنتها فما كلمتني، بل شحذت همتي للجواب، وزِدت بها صلابة في البلاغة فما كلَّ متني. وأتحفتني بروض بكى منه الروض وناحت حمائمه لما هَدَلت. فدمع منثوره قد تلوّن في أكمامه الذي انسدلت، فللّه أنت من منصف، يعجز عن مدحه البليغ إذا قيل له: صف.

والله تعالى يحرسك عن كل ما يعاف، ويذيقنا عَسل آدابك الذي هو للحاسد سُمّ ذعاف. ما التقط باز الصّبح الأشهب حبّات الدراري، وطرد عن التقاطها غراب الليل فطار فإذا هو في وكر الغرب ذا تواري، والسلام.

قولي: تطير لمعانيه الجرادتان. المراد بالجرادتين المغنيتان كانتا بمكة أو للنعمان ومع معرفة ذلك، أي قولنا: تطير طرباً فإن الطيران يناسب الجراد.

قولي: فهي خَمْرة يصيب كل رأس منها صداع، المراد بالرأس شريف القوم وعظيمهم والصداع يناسب الرأس، وقد ذكرت هنا ما قرأته في ديوان الإمام الزمخشري رضي الله عنه. وذلك قوله في بعض قصائده يخاطب عظيماً أصابه صداعٌ:

الرأس أنت فلا تستكرن إذا ... صُدِّعت هل ينكر التَّصديع للرأس

ومنه أخذ الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة المصري رحمه الله تعالى قوله[1]:

تحمَّل حيث كنت صداع قصدي ... فقصد سواك ما لا يستطاع
فإنك كنت للرؤساء رأساً ... فلا تنكر إذا حَصَل الصّداع

قولي: بعثت لي من مواقع أقلامك بثنيّة وعسلاً، البثنية بفتح الباء الموحدة وسكون الثاء المثلثة بعدها نون مكسورة وياء مثنية، تحتية وهاء: شيء يتخذ من جَيّد الحنطة وتسمّيها طائفة الأتراك زَرَده بزاي مفتوحة، وراء ساكنة ودال مهملة

---

(١) ديوان ابن نباتة: ٣١٢.

مفتوحة وهاء.

ومنه قول خالد بن الوليد يتجرّم من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين عزله عن بلاد فتحها ومهّدها: حتى إذا كانت بثنيّة وعسلاً عزلني عنها، وإلي هذا لمح السيد جمال الدين محمد بن عبد الله الحوثي الآتي ذكره في هذا الكتاب رحمه الله تعالى، لما قال في بعض قصائده التي مدَحَ بها بعض الملوك، وقد فتح بلاد صعدة الشام المحروسة:

صَيَّرت صعدة جنة ... أخذت من الفردوس خُلْده
وجَعَلتها بَثْنية ... وعلى لسان التّرك زَرْده

قولي: فدمع منثوره قد تلون في أكمامه، قد أذكرني بقول الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة المصري رحمه الله تعالى[1]:

واهاً لصب يوم جدّ رحيلكم ... تَغْبان بين الوجد واللّوام
يخفي بكمّيه ملوّن دَمْعه ... فكأنها الأزهار في الأكمام

وهو من قول كمال الدين بن النبيه رحمه الله تعالى في بعض قصائده كما قرأته في ديوانه[2]:

يؤثر[3] اللثم على خدوده ... فاعتاض عن لثمي بالتشامه
ومَرَّ يخفي خدّه بكمّه ... فقلت هذا الورد في أكمامه

ولده السيد محمد بن إسماعيل الأمير[4]

هو من فحول الشيّان، وممن أدرك الفَضْل وهو في الإبّان. يقظ لا يطمع فيه

(١) ديوان ابن نباتة: ٤٧١.
(٢) ديوان ابن النبيه: ٣٨٤.
(٣) الديوان: تكاثر.
(٤) هو علامة اليمن ومجتهدها مجدد القرن الثاني عشر وحاله أشهر من أن يذكر توفي سنة ١١٨٢ هـ.

الغفول، وشمسٌ ليس لها من فلك المحامد أفول. حديثه أروح من رضاب الرَّاح. وألذّ على الظمأ من الماء القراح، مع فِطْنة وحدّة، يوضحان من منطقه رَسْمه وحَدّه. رأيته يقرأ في عِلْم النحو، وإذا رقم بيانه فيه ما له محو. وقد شحذ من ذكائه اللهذم. واستحق هو وباغضه منه أفعال المدح والذم. وهو يَخْلف أباه في المدرسة في إمامة المحراب. فمبنيّها عن فضله الواضح في غاية الإعراب. وقد تمّ لي به الاجتماع، وظَفَرْت به بعد السّماع، فلا أبرح ولا أزال أتأسف على أوقات مرت باجتماعنا في أزال، هي عندي بمراجعته ألذّ من مغازلة الغزال. رأيته في معاش ضَيّق. والاحتياج إليه أي شيّق، يخرج سمّه من سم خياطه. ولا يزال من الهمّ في هياطه ومياطه، ثم وزر لبعض من انتصب. وظنّ بأنه قد رُفع عنه الوصب، فارتاش بعض ارتياش. وكاد أن تطيب له من التكدير المعاش. فأبى الفصل إلا تَنْكيده، وأعمل له الزمان أي مكيدة، فَوَهت عراه وفي وظنّه أنها أكيدة، فخرب ذلك البناء وانهدم، وعدّ ذلك الوجدان في العدم، وعضّ على أنامله من الندم.

وإذا المدّ قد جزر، وزَرّ على آماله اللج لما وزر. انتبه وإذا هو من الخبال في طيف، ولم يرَ بدّاً من رحلة الشّتاء والصيف. لما قال له الخطب الأجل: ماز رأسك والسيف، ففر فرار هائم، وضاقت عليه النجود والتهائم، والتجأ إلى حصن شهارة. وكاد أن ينادم الشّمس نهاره، لما نادم القمر في منازله ليله. وجرّ على زهر الزهر من ردائه ذَيْله. أبرك مطيّته وعقل، وقبل من ذلك الحصن النحر والمقل(١).

قد حال بينه وبين ما خشيه الخَوَّار، واستمسك لفرط صعوده بعرى الفلك الدوّار، فأنجاه عن الشرّ، وطوى جناح عزمه الذي نشر، وهو الآن هناك في أَسْر الغربة. وفي قيد الحَرَج والكربة، يستنشق نسيم الفرج. ولعلها تفوح له بمتضوّع الأرج. وكان يتّهم بالتَّرضية على معاوية، وأنه يجعل مَرْتبته لمرتبة المشائخ

---

(١) النحر والمقل مواضع بشهارة المذكورة هنا.

مساوية، فتحمل عليه الجم، وكلّ منهم لفرس مذمّتهم له ألجم. حتى ذمّ بجملة قصائد، هي للألسنة حصائد فإن الله تعالى هو عالم الطّوايا. وهو المطلع على مستودع الزّوايا، والحمل على السّلامة، علامة على الإيمان وأي علامة، وقد أملأني من نظامه، وأدار عليّ من مدامه وأدبه زهر في الكمام. ولؤلؤ قطر في قراطيس الغمام، كأنه النجوم في أفلاكها. لا والله بل اللآلىء في أسلاكها.

من ذلك قوله في بعض القصائد مجيباً، ناسجاً من حبر حبره رداء عجيباً[1]:

سَفَرَتْ وقد أرخت أثيب جَعيدها ... فتجَلَيتَ من تحت الظلام شموساً
يا لائمي دَعْني ونَفْسي والهَوَى ... فلكم بذلت على الحسان نفيساً
فالوَصْل من بعض يرجّى نيله ... والبعض ينظر ليله مايُوسا
يوسي جراح السيّف في عين الحشا ... وجراح أسياف الرّنا لا توسى
لو أنّ ما في القلب من مقل الدُّما ... يرجى الشفاء له لأعيا عيسى
إذ ليس موقعه يلوح لناظر ... بل إنما يشكي المصاب رسيسا
فإذا وعدتك بالسّلو فإنّما ... قَصْدي عليك بوَعْده التَّدليسا
فأطَل إذا ما شئت أو أقْصِر فَمَا ... ترتَدّ إلا خاسئاً مَتْكوسا
أنا لا أفيق ولا اللواحظ تنتهي ... أن لا تدير على القلوب كؤوسا
إلا إذا كنت الزّعيم بسلوتي ... أشفيت بالتَّفْنيد مني البؤسا
أنّى ولو شاهدت جند جفونها ... لرأيت تكسيراً يَفِلُّ خميسا
ودَهَشْت من فرق هناك ولوعة ... وغدوت مغشياً عليك كموسى
أما العيون فلا أقيس بسحرها ... إلا نظاماً كم أراح نفوساً
لمهذّب الأخلاق أحسن ماجد ... وأجلّ راق قد رقى بِرْجيسا
وشديد بأس في الحروب إذا سطا ... أحمى بحدّ الباترات وطيسا
أهدى إلينا من كواعب لفظه ... مطويّة الأحشا فصرت عروسا

---

(١) لم ترد هذه القصيدة في ديوانه المطبوع.

وقوله مجيباً أيضاً[(١)]:

يا ماجداً لو قيل أن الوَفَا ... جِسْماً لكنت الرُّوح من جِسْمه
أو قيل أن النّظم عقد لما ... كان سواك السّمط من نظمه
أو مُثّل اللطف كعين لَمَا ... مُثّل إلاّ بِك في رَسْمه
تَفْهم ما في النّفس من قبل أن ... يَبْدو فيالله من فَهْمه
أصاب قوس الحدس فيما رمى ... بِذِهْنك الصَّائب في سَهْمه
ألست في الغربة مستوحشاً ... جار عليه الدهر في حكمه
فَصِرت جاراً لي من جوره ... تذيب ما ألقاه من هَمّه
ما أنت إلا كنسيم الصَّبا ... في اللّطف لا حاشاك من سُقْمه
جليت في مِضْمار أهل الوفا ... لما جَلَيْت القلب من غمّه
ثم سلام نَشْره طيب ... وافى به نَظْمي في ختمه

ولما طالع كتابنا المسمى (عطر نسيم الصبا) الذي وضعناه ثلاثين فصلاً على نمط كتاب (نسيم الصبا) للشيخ الأديب الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب الحلبي رحمه الله تعالى كتب عليه مقرظاً مضمناً قوله[(٢)]:

وقفت على (عطر النسيم) فحرّكت ... معانيه من قلبي دواعي الهوى العذري
وسَرَّحت طرف الذّهن في جَنَبَاته ... فشاهدت روض النظم قد حفّ بالنثر
ففي كل لفظ منه روض من المنى ... وفي كل سطر منه عقد من الدّر

وكنت لما فارقته من صنعاء ورحلت. وله على الرَّوض المونق بالمنادمة أحلت، بعد أن مرّت لنا بالأنس ليالي. نظمت بالأخلاّء والإخوان في جِيْدها لآلىء، كتبت إليه أتأسف على ذلك الاجتماع التي تكدّر بعده وقتي وحيني. وأذكر ما وعدني به من عارية كتاب (الغيث)[(٣)] للعلامة بدر الدين الدماميني ما لفظه:

---

(١) ديوان ابن الأمير الصنعاني: ٣٧٨.
(٢) لم يرد في ديوانه المطبوع.
(٣) كتاب نزول الغيث سبق ذكره.

سلام إليك يهدى، ويختم بزيارتك وهو بها يبدأ، لا أقول بأنه كالذّهب، فإنه لا يصفوا إلاّ بعد صُلِيّه ناراً ذات لهب. ولا أنه كالعقد لأنه قد يتبدّد، ولا كالريطة المطروزة؛ فإنها قد تخلق بعد أن تتجدّد. ولا كالزهر فإنه قد يذوى. ولا كالزُّهر فإنها قد تهوى. بل أقول: سلام عليك كأعراقك الطيبة، وأخلاقك التي جادتها سحائب اللّطف الصَّيبة، يخدمك عني خدمة النّسيم للرياض. ويفد إليك وفود الغيث إلى الغياض. ويعبر عن شوقي وعساه أنْ يفي بمقصود. هَيْهات والله ما زَرْع اشتياقي إليك بمحصود، فإني ما اجتلوت البدر في اللّيل البهيم، إلا عبث بي الشّوق إلى محياك الوسيم، ولا شاهدت الدُّر، إلا ذكرت لفظك الذي يهتز له الحر، ولا دَخَلْت روضاً إلا ذَكَّرني بأخلاقك الشّريفة، ولا استنشقت نسيماً إلا تحسرت على شمائلك اللَّطيفة، فلهفي على ليالٍ من قربك، وأيّام عددت بها في سربك، لم يدع انقضاؤها في قلبي سوى الأسف المستمر، ولم يغادر بطرفي إلا دَمْعاً يجود بماء منهمر. وكنت وعدتني بذلك الكتاب ولم يصل، وذكرت لي إيناسي به بعد وحشة فراقك فما حصل. وهذه من نار أشواقي إليك قد عظم أمرها، فمتى تجود بنزول الغيث عليها لكي يخمد جَمْرها، ولديّ رَوْض من الأدب كاد أنْ يذوى، فتفضّل عليه بذلك حتى يدهم نباته الأحوى. ونسأل الله تعالى أن ينتظم الشمل عقداً، ويطرد بالتّواصل المستمر فَقْداً، ويكتب التلاقي كما كتب الفراق، ويكف يكفّ الجمع دمع الكآبة المراق، والسلام.

السيد محمد بن يحيى بن لقمان من كحلان(١)

ذو طاعة وذِكر، يَسْتغرق له فيهما أيّ فكر. كان إذا آن وقت صلاة انخلع عن الكون، وارتعشت جوارحه وانتقع منه اللون، يتوَجّه توجه مُخبِت، ويُنْبت جبله عن سفح مجانةٍ مزهر منبت، إلى أن يَفرغ من تأدية صلاته ووِرْدِه، ويفوح له روض المحاورة عن نرجسه وَوَرْدِه. فيتجرّد للمذاكرة تجرّد مشوق، ويهتزّ لها اهتزاز قدّ ممشوق. وكان ذا بدن شحيم وقلب رؤوف رحيم.

---

(١) انفرد بذكره.

وقد سامرني وسامرته، وقامرني في مَجْلس الأدب وقامرته، ولمّا انفصل عَنَّا إلى وطنه كحلان. أعلنت المنيّة في ندائه غاية الإعلان، فمات عُقَيْب انفصاله، واعتاض الهجر عن وِصَاله، سقي بغيث الرحمة ثراه، ووصلت بالغفران عراه، وشِعْره في المجون والهزل. وله فيهما ديوان نسجت حلله من ألطف الغزل. يضحك العابس القطوب، ويُنْسى بتحفة الرزايا والخطوب.

ومن نظمه (العباسة) قابل بها البسامة[1] وهي رَوْضة مجون بعَرْف من زهورها نَسَّامة. ذكر فيها من الشّعراء والأدباء عصابة، وأنباء بها على أنّه استكمل من الاطلاع على أسمائهم نصابه؛ لأنه عَرَّف منهم ذا تنكير، ونَقَّر على أوصافهم غاية التَّنقير. قوم لم يطلع على أسمائهم إلا ذو لبابه، ولم يعرف صفاتهم إلا من ذاق من علم التَّاريخ لبابه، ولم أسمع له في الجدّ غير ما كتبه إلى بعض النُّدماء. يَسْتدعيه إلى مقام يفوز باللذة فيه من أعمل نحوه قدما.

وقد بات لي فيه سميراً، وكاد ولم يعرس أن يكون أميراً، ونَحْن في مجلس لا يخالطه إلا الصَّفو، لما لبست السّماء من الليل حلة لا تحتاج إلى رفو:

وقد لمعت فيها النجوم كأنها   مسامير تبر في مِجَنٍّ حديد

وهو قوله:

قل للوجيه فدته نفسي ماله   لا يَسْتطيع إلى النهوض بِدَارا
كَمْ قد بعَثْنا نحوه رسلاً وكم   وافت إشارات إليه مِرَارا
فانهض إذا ما كنت ذا لطف ودع   قول الذي بالإنقطاع أشارا
فلقد تسابقت الجِيَاد من الصّفا   لما علونا فوقهن مهارا
إن الشّهاب إمام كل فضيلة   قد أوسع المُشْتاق منه مَزَارا
كم قد جنَيْنا من حدائق نَظْمه   أو نظمه في الحالتين ثمارا

(١) قصيدة نظمها ابن عبدون في رثا دولة بني الأفطس، والمعنية هنا البسامة المسماة جواهر الأخيار للعلامة إبراهيم بن محمد الوزير المتوفى ٩١٤هـ.

مـا بَـعْـد مَجْلِـسـنـا الـمـعـظّـم جنَّـة   تُـبْـدي الـشّـمـوع بـحـافـتـيـه نـارا
هـذا ولا زلـت الـمـطـيـع لـنُـدمـةٍ   مـا هـبّ نَـشْـر لـلـصـبـا أسـحـارا

الفقيه محمد بن أحمد بن حميد[1] من كحلان

من أولاد حميد الشهيد[2]، فهو درّة واحدة من عِقْد نضيد، رَضَع درّ المعالي وهو من الفضائل في حِجْر، ونشأ بين ذوي الذكاء والعقل فتوفّر له بالزّكاء حِجْر. وصار كَعْبة فضل له من حُسْن السّمات حِجْر. أديب أغرب في شعره غاية الإغراب، وإن كانت غادات نظمه عاطلةً عن قلائد الإعراب، فكم سمع منه لحنٌ ولا كلحن الأغاني. وكم عمرت أبيات قريضه، وإن كانت غير مأهولة المغاني.

وكان ضَخْمَ البدن على أن محاضرته جِرْيال دن[3]، يُنشىء الأعطاف إذا أنشأ، ويذيب القلوب بِنَفثاته ويضرم الأحشاء، إذا شبّب شَبّ الجمر، وإذا تغزّل أدار الخمر، وإذا خاطب هزّ القدود، وإذا عاتب أطلع ورد الخجل في الخدود. رأيته بمدينة ثلا[4]، والتقطت من مساجلته درّ الحلى، وأملاني من شعره القِسْم الأوفر، وحيّاني من مداده بالمسك الأذفر.

منه قوله:

إلـى الله اشـكـو كـاشـحـاً قـد سـعـى إلـى   شـمـوسـي بـقـول الـبـهـت مـنـه وأقـمـاري
وصَـــوَّر ذنـــبـــاً حـــيـــن زَوّر إفـــكـــه   ولا شـك مـن أنّ الـمـصـوّر فـي الـنـار[5]

---

(١) انفرد بذكره.
(٢) هو أحمد بن محمد المحلي الهمداني الوادعي المتوفى سنة ٦٥٢هـ (مصادر الفكر العربي: ١٠٧).
(٣) الخمر أولون الخمر.
(٤) مدينة بالشمال الغربي من صنعاء على بعد ٤٥ كيلومتراً (المقحفى: ٢٥٨).
(٥) إشارة إلى الحديث النبوي (المصور في النار).

وأحسن منه وألطف قول صفي الدين الحلي رحمه الله تعالى[١]:

لا غرو أن يَصْلي الفؤاد بحبّكم ... ناراً تؤجّجها يد التّذكار
قلبي إذا غِبْتم يُصَور شَخْصكم ... فيه وكل مصور في النّار

وقد ذكرت هنا قولي:

لقد سُلّط الخال الذي زان فاتني ... عليّ فأذكى في الهوى زَنْدي الواري
ثَوَى فوق خَدّ لم يزَلْ متَلَهِّباً ... فصَحّ لنا أن المسلّط في النار

ومن هذا الباب قول ابن العطار رحمه الله تعالى:

يا نازلاً منّي فؤاداً راحلاً ... ومن العجائب نازلٌ في راحل
أضرمت قَلْب متيّم أهلكته ... وسكَنْتَه والنّار مثوى القاتل

الفقيه المهدي بن محمد العشبي[٢]

أصله من بني عشب[٣]، والغصن الرطيب يطلع من الخشب، فهو ممن سَلْسلهم بالكدر لم يشب. وممن لهم من نقد الأدب الحاصل نشب. مَشْربه روي، وزنده وري، وروضه المخضر ذو غضارة ورِي. ذيل أدبه متعطِّر، ورمح قلمه متأطّر، تتحاسد عليه الأيام والليالي، كما تحاسدت على نظمه قلائد العقيان وسموط اللآلي. كان يفد إلى كوكبان ويَمْدح أعيانه، ويزيّن بالوصول إليه أوقاته وأحيانه، ويسلك في منازله مسلك النوم من الحدق. ويَنْزل على ساحاته نزول الماء الغدق، فتَبْتهج به أرجاؤها وتهتزّ، وتنتشر رياضه من حُلل الأوراق ما لا يَنْسجه ناسج الخز.

وله في نظم الموشح الحميني نهج قويم، يُخْبر أنّه من الشعراء، فهو في كل وادٍ من أضربه يهيم، وطريقه في غيره واضحه، ولآليه للعقود اللؤلؤية فاضحة.

---

(١) ديوان الحلي: ٣١٧ ط دار صادر.

(٢) انفرد بذكره.

(٣) من قبائل همدان نسبة إلى أعشب بن قدم (المقحفى: ١٧١).

كقوله:

أفـــدي غـــزالاً كـــحـــيـــل طـــرفٍ ... أســـهـــر بـــالـــصّـــد مـــنـــه عـــيـــنـــي
فـــمـــن بـــنـــي قـــوس حـــاجـــبـــاه ... وقـــدّه مـــن بـــنـــي غـــصـــيـــنِ

في هذا النظم التورية؛ لأن المراد بني قوس قوم وقبيلة معروفة، وكذلك بني غصين وقد منع المنصرف في قوله بني قوس، ومثله يعد شاذاً عند النحاة.

وقوله في مليح من مدينة تعز اليمن المحروسة:

وأغـــيـــدٌ مـــن تـــعـــز بـــثُّ أســـألـــه ... من أي حـاف الـغـواني الـخـرّد الـغـيـدِ
أجـاب مـن (حـافـة الـهـزّاز) قـامـتـه ... لـكـن أعـيـنـه مـن (حـافـة الـسـودي)

وفي هذا النظم التورية لأن حافة الهزّاز بتَشْديد الزّاي الأولى بمدينة تعز معروفةٌ، والهزّاز رجل يعدّ من الأولياء وعليه قبّة منافةٌ وشجرةٌ نابتة من أحد جوانب القبر، فتحت لنا كوّة في القبة، خرجت منها خشبة الشجرة حتى نفذت من القبة ثم تفرّعت فوق سطح القبة أغصانها وأوراقها، وقد زرته ونظرت هذه الشجرة المذكورة، وحافة السودي. كذلك بمدينة تعز المحميّة نسبة إلى الشيخ القطب عبد الهادي السودي[1] رضي الله تعالى عنه، ومن كان من حافته المذكورة فهو مشهور بحسن العيون وسوادها كما يقال، إلا أنه عَلِقَ بثنايا من كان بها سواد يشوبها كأنما طليت بالمداد. وقد شاهدت أنا ذلك فيهم وسألت عن سببه. فقيل إن ذلك شين جعله الله تعالى بثغور من هو من تلك الحافة خاصة متوارث فيهم، لأن الشيخ مرّ أيام حياته من بينهم وهو على حال زري، لأنه كان في صفة الهائم الخليع، فضجّوا عليه بالضّحك، فشِيْنت ثغورهم بذلك، وورثه الخلف عن السَّلف. والله تعالى أعلم بصحتّه.

وقوله وقد أهدى صينّية لرجل من أهل البيت عليهم السلام:

هـــديّـــة قـــد أثـــبـــتـــت مـــحـــبّـــةً ... قـــدّمـــتـــهـــا لـــصـــاحـــب الـــتَّـــمْـــكـــيـــن

---

(١) شاعر وصوفي معروف في اليمن توفي سنة ٩٣٢هـ (مصادر الفكر العربي: ٣٣٠).

مـن أهـل بـيـت طـيـب ونَـمْـل مـن قـال[1] (اطـلـبوا الـعـلـم ولـو بـالـصـيـن)

ونقلت له من خطّه قوله يخاطب ملكاً له جواد من الخيل يسمى السحاب وقد عزم في طريق [صحبته][2] رحمهما الله تعالى:

مـولاي مـا ألـطـف ريـح الـصّـبـا نـشـراً ومـا ألـطـف هـذا الـذّهـاب
فـنَـحْـن فـي ريّ وظـلّ مـعـاً إذ كـفـك الـغَـيْـث وهـذا الـسـحـاب

وقوله فيه أيضاً:

أيـا جـمـال الـمـعـالـي ومـن لـديـه الـجـمـيـل
خـفّ الـسّـحـاب وعـهـدي أن الـسّـحـاب ثـقـيـل

وقوله في امرأة حسناء اسمها آمنة:

سـألـت ذات الـحـسـن لـمـا رَنَـتْ بِـمُـقْـلـة سَـحّـارة فـاتـنـة
عـن الأحـاديـث وعـن إسـمـهـا وهـي بِـوَكْـر لـلـبـهـا صـائـنـة
قـالـت خـف الـرحـمٰـن يـا سـيـدي الـطـيـر فـي أوكـارهـا آمـنـة

وقوله وهو بيت لا ثاني له:

صـنـعـاء لـم تـقـم الـفـخـار وصـعـدة قـامـت مـفـاخـرهـا عـلـى (سـاقـيـن)

وساقين بلفظ التثنية جهة معروفة ببلاد صعدة المحميّة، وهي التي أرادها السيد الأديب يوسف بن يحيى صاحب دار حرير، المتقدّم ذكره لما جرت بها فتنة من أهل قضاعة الشام وحرب عظيم، قال:

انـظـر قـضـاعـة بـالـصّـعـيـد تـجـمّـعـوا لـشـبـيـه تـلـك الـحـرب في الاثـنـيـن
قـامـت لـهـم حـربٌ عـلـى سـاق وقـد قـامـت لـهـم أخـرى عـلـى (سـاقـيـن)

---

(١) الصينية: إناء معروف من الزجاج والصين يطلق غالباً في اليمن على الزجاج السميك الغليظ.

(٢) حديث اطلبوا العلم ولو بالصين سبق ذكره في الجزء الأول: ٤٥١.

(٣) ساقط من (ش).

وقال: أعني صاحب الترجمة في منزل حسن لبعض السادة:

حبَّذا مَنْزل لكوكب علم أحمد الآل سَيّد الفِتْيان
مذ رآه نَجْم السّماء منيراً وَقَفَ النجم وقفة الحيران

وقوله وقد وصل إلى حضرة بعض الملوك ومعه شاطر[١] يشطر على الحبال:

بَرَزْتُ إلى ساحات أحمد مالكي صفِيّ الهدى حاوي التّقى والمكارم
بشاطر فَهْمي فوق حبل مودّتي وميزان شعري بهلوان عزائمي

وكتب عليه بخطه: وبهلوان لفظه فارسية، معناها المصارع كذا نقلته من خطه. وقوله يخاطب من أعطاه حرفاً، وهو من الدّرهم قدرٌ معروف بلغة أهل اليمن:

يا كريماً فاق في سؤدده وسما في النَّاس مَجْداً وعلا
أنا في بابك عبد دَيِّن لست ممن يعبد الله على

في هذا المقطوع الجناس ما بين علا الذي هو الفعل من العُلوّ وبين علا الذي هو حرف جرّ، وفيه الاقتباس كما هو ظاهرٌ، وفيه الاكتفاء. وفيه التورية في الحرف المقدّر لأنه أراد لست ممن يعبد الله على حرف. قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ﴾ أي على طرف من الدين، والحرف كما ذكرنا من الدّراهم القدر المعروف. وبذلك قامت التورية.

وقد ذكرت هنا قول الشيخ زين الدِّين بن الوردي رحمه الله تعالى[٢]:

يا بدر تمّ نوره باهرٌ مَنْزله في القَلْب والطَّرف
صدغك حرف النّون في مَشْقه (من يَعْبد الله على حرف)

---

(١) هو البهلوان الذي يتسلق الحبال.

(٢) خزانة الأدب: ٣: ٢٣١ وديوان ابن الوردي: ٢٤١.

أخذه بقافيته وغالب حروفه ومعناه من قول شيخ الشيوخ الحموي رحمه الله تعالى[1]:

وبدر دجى لم يَنْتقل كسمِيّه ... ولكنّه ما زال في القَلْب والطَّرف
يلوح لعيني ماشِقاً نون صدغه ... فأعبد خلاقي على ذلك الحرف

وقلت أنا:

بحاجبه نون وصاد بِعَيْنه ... ومبسمه ميم به الدرّ يَنْضَدٌ
سأعبد ربي عن حروف بِوَجْهه ... فلَسْت على حرف له قط أعبد

ولصاحب الترجمة رحمه الله تعالى:

شهارةٌ فاخرت صنعا بمنقبة ... من العلو على صنعاء كالمثل
صنعاء كالبطن من (ظَهْر) ومن (ضلع) ... شهارة الرأس فوق (النَّحر) و(المقل)

شهارة بالشين المعجمة المضمومة الحصن المشهورة، وصنعاء المدينة هي أوضح شهرة من شهارة. وقوله: ظهر بالظاء المشالة، المراد به: وادي ظهر المعروف حول صنعاء، وكذا ضلع بالضاد المعجمة حولها أرض معروفة. والنحر بالنون والحاء المهملة والراء باب بحصن شهارة يقال له: باب النَّحر، والمقل بضم الميم وفتح القاف بصيغة جمع. مقلة: هو ماء معروف بالحصن المذكور، وقد أراد تَفْضيل حصن شهارة على صنعاء كما هو ظاهر.

ومثله قول الشريفة الظريفة زينب بنت محمد المعروف بصاحب العدين الأديبة العصرية الآتي ذكرها دامت فضائلها:

وقائلٌ لي أزال ليس يشبهها ... شهارة قلت: قف لي واستمع مثلي
أليس صنعاء تحت (الظهر) من (ضلع) ... أما شهارة فوق (النحر) و(المقل)

وقد جاءت التورية بماء المقل المذكور لخليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى في رباعية نظمها. فقال:

---

(١) خزانة الأدب ٣: ٢٣١ وديوانه: ٢٣٥.

ما حال مفارق لتلك الحلل سَهران وقلبه حليف الوجل
لا تسأل في شهارة عن دنفٍ لا يبرح شارباً لماء المقل

وقال الشيخ إبراهيم أيضاً في بعض المراثي التي نظمها:

هذا رثا الدامع العالي المنيف إذا قالت شهارة إن الدَّمع في المقل

وقال هو أيضاً:

إنّي رأيت شهارةِ مَغ طِيبها حوت العجائب والغرائب عن كمل
النَّحر من تحت العيون بلا مرا وهنا رأيت (النَّحر) من فوق (المقل)

القاضي جعفر بن علي بن تاج الدين
من الظفير[1]

ماجدٌ شَرَّف ظفيرة، وأرسلت عروس الأيام من لياليه ضفيرة، بحرٌ زاخر المدّ. وعالم قَصَر عنه القاضي جعفر[2] بن أحمد. حتى اعترف له بالنّكت[3]، لمّا جرحته أسهم فضله ونكت. وحَكَم له بِتَيْسير المطالب فإذا هو عن قلائده عاطل. وقال هو أولى مني بالفاصل بين الحقّ والباطل عارفٌ ما في عرفانه مرا. وضيف فاز في منازل العلوم بأطيب القِرَى. طار ذكره في الخافقين، فإذا هو جعفر ذو الجناحين[4] خاض من العلم في لجج. واطلع من المغاص جواهر الحجج، فقلّد بها أجياد أقلامه، وأودعها في صناديق أرقامه.

كان في عنفوان الشبيبة، وغصونه فينانة رطيبة، ذا مَيْل إلى الخلاعة واللهو، جارّاً أذيال خيلاء وزَهْو، يتعاطى شرب العقار، غير مرجّح لجانب الوقار. فإذا نَسيم صلاحه قد هَبّ فَنَزع عن غوايته. وجَنَح من العلم إلى روايته. وأكبّ على

---

(١) نشر العرف ١ : ٤١٧ مصادر الفكر العربي: ١٣٢).
(٢) من علماء اليمن سبق ذكره في ج ١ : ٥٢.
(٣) تورية بكتب القاضي جعفر المذكور وهما النكت وتيسير المطالب والفاصل.
(٤) يعني جعفر بن أبي طالب، الطيار (معروف).

الطلب أي إكباب. وفَتَح له من الدِّراية كذا كذا باب. وإذا هو صَدْر من الصُّدور، وقطب عليه رحا الإفادة تدور.

وكان للإمامة المؤيّديّة من أعيانها، تفزع إليه لإيضاح الآراء وتبيانها. ولما ورد إلى كوكبان السَّامي، زهرت به أوقاتي وزَهَتْ أيّامي، ورأيته قد ابيضّ عارضه. وعرض له من المَشيب عارضه، ورأسه كالثّغامة، يجانس بياضه بياض العمامة. وكنت أجتمع به مع والدي، وأهزّ منهما سيفي فضل فأدرأ مجادلي ومجالدي. في مقام يشدّ البدر للخدمة فيه من الثريا مناطقه، وروض مذاكرة فيه حمائم الإفادة بالسَّجع ناطقه.

وقد سَرَّحَتْ ذوائب عذبات الرُّبى، أكفّ الرَّبيع بأمشاط الشَّمال والصَّبا، وجَعّدت غدائر الغدير، أيدي الجنوب على أصداغ الرَّوض النظير، وبعث إليه والدنا في بعض الأيام بكتابنا المسمى (عطر نسيم الصبا) الذي ألّفته وأنا أروض جوادي في ميدان الصِّبا، يريد به إتحافه وإكرامه. فطالعه وصاد من مراتعه آرامه، ولما أرجعه كتب إليه من نظمه رحمه الله تعالى ورضوانه عليه:

هُنيت يا عزّ دين الله خير فتى ... مشمّر للعلى سَبّاق غاياتِ
بدر تكامل لما حَلَّ منزلةً ... علياء تسمو على السَّبع السَّمواتِ
طالعت تأليفه حتى ثملت به ... ولم أحنّ إلى جامٍ وكاساتِ
وسار إنسان عيني للتنزّه في ... حدائق قد زهت منه وجَنّاتِ
عَمْري لقد حاز ما قد حاز من ملح ... في الطِّرس تزهر كالزُّهر المنيراتِ
وجاء في نَظْمه والنَّثر منفرداً ... بين الورى بعقود لؤلؤياتِ
فقل لمن رام جَهْلاً أن يسابقه ... في شوطه جارياً هَيْهات هَيْهَاتِ
أن يدّعي الفضل من دون الورى فله ... فقد أتى ببراهين وآياتِ
هذا هو الفخر إن رام الفخار فتى ... يَسْمو إلى رُتَب منه عليّاتِ
فالله يُبْقيه ما دامت فضائله ... يُنسى فضائل أحياء وأموات

ومن تآليفه المفيدة، وتصانيفه التي هي عقود نضيدة. شرحه المسمى بهداية

الأكياس إلى عِرْفان أسرار لبّ الأساس. طالعت منه نسخةً بخطه، واستكملت ما أفاده فيه عن شَكْله ونَقْطه. ولما وقف عليه والدي وإمامي الذي حفّني بالعناية من خلفي وأمامي. قال في تقريظه رضي الله تعالى عنه:

قد قضى لبّ اللّبيب الفهم ... أنّ قاضي الحكم مولى الحِكَم
جعفرٌ نَجْل عليٍّ من رقا ... من محَلّ المَجْدُ أعلى القِمَم
شرح اللبّ فوفّى حقّه ... بِبَيان موضح للمُبْهم
ومُفِيدات من التَّحقيق لم ... يَنْحوها ما ألّفوا في القِدم
يا له مُطّلعاً مضطلعاً ... قد غدا في عِلْمه كالعلم
شرح صدر المنتهى[1] في شرحه ... والمتين المتن[2] منه فاعلم
كم حوى من حجج قد أصبحت ... في أصول الدِّين برؤ السَّقم
فَعَلَت في فِرَق الغي كما ... فَعَلَت في الحَرْب أسياف الكمي
قَسَماً أنّ الذي ألّفه ... نال في التّحقيق أوفى القِسَم
فتعالي وانظري يا هِمماً ... ذا التَّعالي وسموّ الهِمم
فجزاه الله في الدّارين ما ... يَرْتجيه من دوام النِّعم

الشيخ لطف الله بن المهدي بن الغياث[3]

من الظفير[4]

من ذرية سلطان المحققين يَعْسوب الفاحصين المدقِّقين. الحليم الوقور المنقض على أوابد الفوائد انقضاض الصُّقور. الشّيخ القدوة الإمام لطف الله بن محمد[5] تعاهدت مرقده الغمام، ولا برحت باكية عليه حتى يَضْحك لبكائها زهر

(١) تورية بكتاب المنتهى شرح مختصر ابن الحاجب للعضد.

(٢) المتن هنا يقصد به متن الأزهار وهو من أشهر كتب الزيدية.

(٣) انفرد بذكره.

(٤) الظفير بلد ومركز إداري من مديرية مبين وأعمال حجة تقع في قمة جبل شمالي مدينة حجة بمسافة نحو ١٥ كيلومتراً (المقحفي: ٩٧٥).

(٥) من علماء اليمن وفاته سنة ١٠٣٥هـ (البدر الطالع ٢: ٧١ مصادر الفكر العربي: ٣٨٣).

الكمام. وهو العلامة المتفرّد في الفنون، المفجّر خلال رياض الدفاتر من فوائده العيون. المفيد الذي لبس عصره للفرح به عند إسفاره، برداً مسّهما بأسود ليله وأبيض نهاره. واحد الاجتهاد، المستفيض صِيْته في الجِبَال والوهاد. جالينوس الطب وبقراطه.[1] الذي خفقت على جَبين الأيام الوسيمة أقراطه. صاحب التآليف التي يفخر بها اليمن. ويَشْتريها المشتري فتحقر دراهم النجوم وهي لها ثمن؛ كالمناهل الصافية في شرح معاني الشافية. وحاشية الشَّرح الصغير، ومختصر التلخيص، وشرح الحاجبية التي يتغالى في قيمته عن الترخيص. وكتاب الإيجاز وشرحه، الذي طرّز بديع طرحه، وحواشي الفصول، التي بها يستسهل إلى الصعب الوصول. وغير ذلك من المصنَّفات، التي ما شذّ عنها التَّحقيق ولا فات؛ فإنّه كان ذا تفنن حَتَّى في علم السيمياء[2]. فقد رويت له فيه أخبارٌ لا كأخبار علم الكيمياء. خرجت من طرائق هي أصح الصَّحيح، وزُكّيت بالتعديل فما في رجالها مجروحٌ ولا جريح.

وهذا الفرع من ذلك الأصل، وهذا السَّهم من ذلك النَّصل، ما رفع للعلا مقام إلا وهو فيه قد أقام. ذو لطف ودماثة، وعرفان كامل مع الحداثة. لطف فسلك مع كل أحد مَسْلكه، ومازج الأرواح فخفّ حتى على ذوي المملكة، ما هو إلا عطارد، يجاري النّدماء في ميدانه ويطارد، مع بدائع بداثة عجيبة، ومتحفات هي له وقد دعاها مجيبة. يحصل له عفواً، لا يستطيع غيره لطرزها رفواً.

وله خط بديع؛ كأنما مِعْصم الغانية له بنقشه وديع. به الأوراق توَشَّى، وبرقمه اللَّطيف تُحْشى، رأيته بمدينة ثلا. وقد ألبسها من محامده حُلَى، وساجلته وحاورته، وجالسته وخاطرته، وإذ خُبْره قد صغّر خَبَره، وخلع على أعطاف الكمال حِبَره. وقفت له بخطّه الحسن، على كتاب جمعه يشتري مطالعه في الليل فوائده

---

(١) طبيب يوناني مشهور سبق ذكره في الجزء الأول: ٥٢٤.

(٢) ضرب من السحر يحدث مثالات خيالية في الجو لا وجود لها في الحس (مفتاح السعادة ١: ٣٤٠).

بلذيذ الوسن، انتزعه من كتاب مطالع البدور[1]. وإذا فلك المحاسن ببدوره يدور. حذف من أبوابه ما استحسن حذفه، وزاد فيها ما اختاره فزاد على اللّبيب خِفّه.

دلّ على حذق وذوق سليم، يرقى بأنظاره الثّاقبة كل سليم، وسماه (البدور الطوالع من مطالع المطالع) وشعره يغلب عليه ركاكة المعاني، وأبياته واهية القواعد والمباني، فنَظْمه غير مختار، وسيف شِعْره غير بتّار. فكم لزم غمده ونجاده؛ لأنه غير ماضٍ لَمَّا كلّ بعدم الإجادة، لم أختر له غير قوله. وفيه دليل على حسن طوله مما كتبه إلى صديق له:

ما فيك لام ولا طاء ولا فاء ... ولست ممن إذا ما باينوا فاؤوا
رفْقاً بصبّ طويل النّوح ليس له ... في البَيْن صاد ولا باء ولا راء
يا من له في البرايا لا بليت بها ... عين لها العين ثم الباء والثاء
كم لي بقربك يا مولاي من فرج ... والتّاء والرا دنت بالبين والحاء

ومنها:

وهل تعلمت طول البين من حَسَن ... من غاب عنّا وغابت عنه أنباء
من لم يجئ منه تَضريح بقرب لقا ... به سلوّي ولما يأت إيماء
ما للتنائي وما للبُعْد من سَببٍ ... فبَعْدك النّاس كم ساروا وكم جاؤوا
خيم الأخلاّ وداد القرب بَيْنهم ... هَيْهَات أن يعشق البين الأخلاء
كم حلت عن قربنا حولا بلا سبب ... كم سرّ بالبعد عَنَّا منك أعداء
بحبّك النازل السوداء من كبدي ... وددت أني لمرأى منك زرقاء
دائي الوفاق الذي سَنّ الولوع بكم ... فداوني بالتي كانت هي الداء
فأوْلِنا طِيْب قرب لا يليه نوىً ... به عن البعد لاداناك إبلاء

وقوله:

وشادن جئت أشكوه جوى كبدِ ... قاست من الحُب ما زادت به كَبَدا

---

(١) يعني به كتاب مطالع البدور في منازل السرور لبهاء الدين الغزولي طبع مصر سنة ١٢٩٩ هـ.

يَفْتَرّ عند بكائي من تجنّبه ... فلا يزال مَدَى الأيام مُبْتعدا
فمن يجانسه فِيْنا فما فضَحَت ... به الثَّنايا نَظيم الدرّ مُنْتضدا
قد كَثّر العاذل النَّمام زخرفه ... للمَيْن وهو لِمَا قَدْ قاله اعتقدا
لا حِيْلة لي في من قوله كذب ... يسعى إليه به في الحال مجتهداً
يا رب فاصرف عذولاً بالملامة أو ... فاصرف فؤادي عن الظبي الذي شَرَدَا

قوله: فمن يجانسهِ فيْنا فماً، فيه الجناس، وهو مِثْل ما قرأته في ديوان صفي الدين الحليّ رحمه الله تعالى. قال: أنشدني القاضي العلامة علاء الدين كاتب السِّر بيتين في صَنْعه الجناس اللفظي وزَعَم أنهما لا يكاد ينظم مثلهما وهما[1]:

أحسن كل النَّاس وجهاً وفماً ... إن لم يكن أحقّ بالحسن فمن
حكى الغزال مقلةً ولفتةً ... من ذا رآه مقبلاً ولا افتتن

انتهى كلام الحلي رحمه الله تعالى.

قلت: وقد نظمت أنا في هذا الأسلوب، وإن لم يكن له رقته، فقلت:

وعاذلٌ أفاض من عيني دماً ... وهو لأرض الحب باللوم دِمَن
في طرفه عن حسن من أهوى عمى ... ففي مكاني بالملام قد عمن
ألزمني الزهد عنه ورَعاً ... وعن له عندي جنون ورعن

قوله: لا حيلة لي فيمن قوله كذب، فيه ما يشبه ضرب المثل ومنه قولي: في النثر: الكذاب يعجز الحيل، ولا تؤمن منه بوادر الغِيَل. والأصل فيه نظم الفقيه أبي الحسن التميمي الشافعي الضّرير[2] رحمه الله تعالى. وهو قوله[3]:

لي حيلة في من ينمّ ... وليس في الكذّاب حيلة
من كان يخلق ما يقو ... ل فحيلتي فيه قليله

---

(١) قلت: هما للعفيف التلمساني، انظر خزانة الأدب ١: ٩٠ ط شعيتو.

(٢) هو أبو الحسن منصور بن إسماعيل التميمي المصري الشافعي الضرير المتوفى ٣٠٦هـ (معجم الأدباء لياقوت ١٩: ١٨٥ نكت الهميان: ٢٩٧).

(٣) البيتان في وفيات الأعيان لابن خلكان ٥: ٢٩٠.

وقد أخذه مما أورده المبرد رحمه الله تعالى في الكامل[1]. وهو قول الشاعر:

إن النمـوم أعطى دونه خبري   وليس لي حيلة في مفترى الكذب

السيد المحسن بن الإمام المتوكل[2] على الله

من السودة[3]

ما عرف الإساءة فهو محسن، ولا ألف إلاَّ المجد في صِغَر السِّن. فنشأ عليه واستمر، وأسّس به أركان فخره الذي عَمَر، ربي من الخلافة في حِجْرها، واستمد من رخيمها بالطيب ونجرها، وارتقت في ليل شبابه غرة فجرها، وإذا قد أسفر له الصَّباح. وطَلَعت شَمْسُها عليه بالرَّباح، فطل يهتدي فيها بسراج، ويمشي في مناكب العلا فينال ما هو له راج. أحسن وغيره جَنَى، وأنشد لسان حاله معلناً:

والصفح لا يحسن عن محسنٍ   وإنما يحسن عن جاني

رأيته أولاً بالسودة، وإذا هو ذو سجايا مَحْسودة، يتمنَّاها البدر في تمامه. والرَّوض عند تضاحك الأزهار في كمامه، ثم رأيته بصنعاء ثانياً. وقد أضحى لعنانه عن التّكاسل ثانياً لما ولي وَقْفها. ووالت عليه سحائب اليسار وَكْفها. وظلّ ثمر إقباله يانعاً، وحدّ جامعها له جامعاً مانعاً.

وله أدبٌ يكاد لرقّته يشرب، وأبيات بناؤها عن فَضْله قد أعرب، أنضر من ماء الشباب، إذا ترقرق في رياض الحسن ترقرق الرّباب. تُنْثر عند نظمه القلائد، وَتَتَجَمَّل به من ناهدات الغواني الولائد. لو خيّر الصّدف بينه وبين الدرّ لاختاره. ولو بدا لحلو الثّمر في أكمامه لأسبل خجلاً من الأوراق أستاره؛ لأنه مستمر

---

(١) الكامل ٢: ٣١٢ منسوباً للمبرد نفسه.

(٢) نشر العرف ٣: ٣٥٨ ط الدراسات.

(٣) السودة: مدينة من أعمال عمران (المقحفى: ٨٢٨).

الحلاوة وثمار الروض تارةً وتارة، فما الدرّ النسيق، وما الخَمر العتيق، وما المِسْك الفائح الفَتِيق.

عين الله تعالى على كلماته. وشعره الذي عدّ من أجلّ سِمَاته. ولُطْف نظمه الذي لا يباريه الروض بِنَسَماته. وَوَجْه قرطاسه الذي لاح البدر من قسماته.

قال مما عَقَده سحراً، وخاض لالتقاط دُرَره من العروض بحراً، فحلَّى به جيداً منصوباً ونحرا، حتى تحلَّى به العاطل، كما تحلَّى جيد الغصن بدرّ القَطْر الهاطل:

تذكرت لو أن التذكّر أغناني ... زماناً تقَضَّى بين وجرة والبان
أسكّان صنعا دَعْوة من متيّم ... كَلِيم الحشى حِلْف الصبابة ولهانِ
سقى الغيث هاتيك القصور التي غدت ... تُضَاحك أرجاها بحور وولدان
وعيش على ظهر الكميت قطَعْته ... بحكم الهوى ما بين حان وألحان
ألاعِبُ أفلاك المَسَرة تارة ... وأسحب في ظلّ الشبيبة أرداني
إذا أضحكتني ألسن النأي تارةً ... عَطفت على تِذْكار صنعا فأبكاني
وهَبْ أنني في سَرْحة اللّهو راتع ... تُحرّك منّي الكاس أعطاف نَشْوان
فقل لِيَ ما لِلَّيل يبعث أشجاني ... لقد طال ليل الهَجْر بالمُدنف العاني

وقال:

أيا ورقة الدَّوح بالأجرع ... تغنّي وقيت الردّى واسْجعي
وبالله يا نَسَمَات الصَّبا ... خذي نَفَساً بالحمى وارجعي
وهاتي حديث زمان اللِّوى ... وتلك العشايا على لَعْلَع
ومن بعد ذا يا نَسِيم الصَّبا ... فبُلَّ ذيولك من أدمعي
وإن جئت وجرة حيث الهوى ... سقتها الغمائم من أربع
وقبِّل عَبِيْر ثراها وقل ... سَلام على ربة البُرْقِعِ
ويا صاح أني تَرَكْت الهوى ... وعِفْت طلا كأسها المترع

ومنها:

وعزٌّ بتركِ سؤال الرجا ... ل وكفّ الهوى عَنهُمُ وادفع
وكن قانعاً أثر الانخفا ... ض وكن آيساً منهم تُرْفع
وأنت العَليم بأن الزَّما ... ن خؤون لكلّ فتى ألمعي
وأن القناعة فيها الغِنى ... وأنّ الضَّراعة في المطمع

وقال:

كأنّ الزنبق المخضلَّ ... في أوراقه الخضر
أنامل غادة حَمَلت ... بها كأساً من الخَمْر
ونَرجسنا الأنيق حكى ... عشية بُلَّ بالقَطْر
صحافاً من لجين وسـ ... ـطهما لمعٌ من التِّبر
وأما الوَرْد في تشبيـ ... ـه قد حِرْت في أمري
فأكثر ما أمثّله ... بخدّ الكاعب البِكْر
وحِيْناً قد أشبّهه ... إذا ما شئت في شعري
مداماً أحمراً وسوى ... الذي قد قُلْت لا أدري

وقال:

ما لاح ذاك الوميض في الغلس ... فصار فوق الغوير كالقَبَس
إلاّ لمعنىً أكاد أفهمه ... فابْحث لتَغريف ذاك والتمس
كأنّما المزن أدهمٌ شرسٌ ... ولَمْعة البرق غرة الفَرَس
كأنما البدر غادةٌ حُليت ... وشَيّعتها النّجوم للعرس
كأنّما النجم شاردات قطا ... قد أمّت الغرب خَوْف مفترس
وفوق ذاك الكثيب غانيةٌ ... تميس عُجباً لنَغْمة الجرس
فهي هلالٌ ودون رؤيتها ... إن كنت تهواه هالة الحرس

وقال:

ولقد ذَكَرْتِك عند رَوْض زَانَهُ ... النوار من ورد ومن نِسْرِين
والورق في أفنانها وغصونها ... تأتي لنا بطرائق وفنون
والطلّ رقرقه النَّسيم فصار فو ... ق الزَّهر مثل اللؤلؤ المكنون
وترى الغصون على جداول مائه ... تحكي لنا الأهداب حول عيون
وبه الشقائق مائساً نعمانها ... لما اكتسى صبغاً من الزَّرجون[1]
والنرجس المَيّاس أضحى شاخصاً ... بِنَواظر من عَسْجد ولُجين

وقال:

علام تَهِيْج القلب وهو المتيّم ... بِوَمْضك يا بدر الدّياجي وتُؤلم
إذا شئت أن لا أدّعيك خديعة ... فبالله فوق الغور لا تتبسَّم
وبالله يا هذا النَّسيم الذي سرى ... عليلاً على رَوْض الحِمَى يتنَسّم
تحَمَّل سلامي رَدَّك الله سَالماً ... ولا زِلْت مَهْمَا رُحْت بالرَّوْح تنعمُ

وقال:

طال في تسويف وَعْدك ... يا حبيبي مَطْل عَبْدك
وكَميت الشّوق جارِ ... حَتّه مَنْصوب نَهْدِك
وعقود الصَّبر منّي ... حَلّها مَعْقودِ بَنْدِك
فبِسُلْطان غرامي ... فيك أوثِقْ عَقْد عَهْدِك
وأجرني من غَرام ... جار في عادل قَدّك
وأذقني حين لَثْمي ... فاك من باردِ شَهْدِك

وقال وفيه لزوم ما لا يلزم:

إني ذكرتك والهجير قد التظى ... وَطَفَا على فلك الرّكاب سرابُهُ
والجوّ مغبَرٌّ الجوانب موحش ... قد صاح للتَّرْحَال فيه غرابُه
والرَّكْب قد مالت بهم أيدي الكرى ... مِثل النّديم جَنَى عليه شَرَابُه

(١) الزرجون صبغ أحمر، والزرجون أيضاً الخمر.

والشّمس أَلبُست الوجوه ملابساً ... سَفعاً كما غشَّى الحسام قرابه
وتذكّري مضنى نأت أحبابه ... وتفرّقت أيدي سبا أترابه

وقال:

ورشيقة الأَغراب[1] ما سمحت ... يوماً بِغَيْر رواشق النُّبل
هيفا بأرقم شعرها رقمت ... في الرّمل ما أفلالها[2] تملي
يا لِلْهوى شيخٌ يحرّكه ... ساري النّسيم وساجع الأثل

وقال:

إني لمن قوم إذا ذُكرت ... أحسابها أصغى لها الدهر
يَمْضي على الحدثان حكمهم ... قَسْراً ويمضي النَّهي والأمر
تُغْنيهُم في كلّ معركة ... عن حسنهنّ البِيْض والسُّمر

وقال:

وما الشعر هذا من شعاري وإنما ... أجرّب فكري كَيْف يجري نجيبه
فأنظم في جِيْد الزمان قلائداً ... من اللؤلؤ المكنون فِيَّ رَطِيْبه
تقلّده البيض الغواني مَخَانقاً[3] ... ويَضبو شباب الحيّ منه وشِيْبُه

وقال يرثي بعض أقاربه، وقد لسعته من الحزن لادغات عقاربه. فجاء في ثياب الأسى وراح. وتناول كأس أسفٍ لا كأس مدامةٍ وراح:

جَادَ تُك سارية الغمام الجُون ... يا قَبْر دَغْوة ثاكل محزون
وغدت بذاك القاع ألسُن رَغْدها ... تتلو صحائف لوعة وحنين
ما لي أطيل لك الدّعاء وأنت لا ... تَذري بمَغنى كنزك المدفون
وأريت نَجْم الملك أو شِبْل الوغى ... حُيّيت من أفق له وعرين

---

(١) في (ش) الأعطاف.

(٢) الأفلال: الأقراط (سبق مثله).

(٣) شيء يشبه القناع تلبسه المرأة.

آهِ أخي إن كنت في رَمْس البلى متبدلاً خشن الحصى عن لين
تحويك من بعد الغلائل جُبّه من جَندل ووسادة من طِين
فلطالما قد كنت أرغب أنني أَحْويك بين أضالعي وجفوني
أضحت لقربك تُرْبة الدار التي أودعتها تزهو على دارِين
وإليكها شَرَف الأنام ألوكةً ممزوجة بلواعج وشجون
وافت جنابك للعزاء وللهنا بقدوم مجد شامخ العرنين
فأجز عزاها دمع عين سافح وأجز هناها بالدّعا المَسْنون

وقال:

إني قرأت على عَيْنَيْك ترجمةً تُنْبي بأنك عن هاروت نَقَّال
أو لا فما لفؤادي حين تَرْمقه يَغْتاله من عظيم السّحر مغتال
لا صَبْر أبقيت لا لبًا تركت ولا دَمْعاً كشِغري إلا وهو سَيَّال

القاضي علي ابن إبراهيم المعافى(١)

من السودة

حاكم السّودة وخطيبها، الذي تضوّع عن نَشْره طيبها. ومال تحته من غصون المنابر رَطِيبها. شمسٌ لها شروق، وسحابة لها من صرير الأقلام رعودٌ ومن انسيابها بروق. ذو وادٍ مخصب، وَنَسب شريف المَنْصب. فآباؤه الماضون أمرا، طالما اتخذ المتنادمون ذكرهم سَمَرا، يفتحون الثغور لِمَدْحهم بأقلام السماح. ما لا يَفْتح الملوك الثُّغور بعوالي الرِّماح.

وقد استبدل عن أعلام آبائه الخافقة، بعلوم حدائقها مخضَلّة ونهورها دافقة، أسعفه الحظ بها إسعافاً، فإذا مات غيره بالجهل فهو المعافى، فكان بينه وبين السيد إبراهيم بن المفضل، مودة هو لأزهارها من الأكمام قد تنضَّل.

وله في المروءة مسرح، وشاهدٌ على زكاء الأصل لا يجرح، فمروءته غدير

---

(١) انفرد بذكره.

ذو خرير. يَشْهد بخلافة عليّ عن الأنواء فقد صَحّ فيه خبر الغدير، عرفته أنا بمدينة عَمْران. وقد ران على قلب الزمان من جَهْلِ قدره ماران. إذ قصدت الأيام من ختامه فضّه، وسكبت بِنَار حوادثها سبج شعره فِضّه، فشاب عارضه وصوّح بأرضه في قضية يطول شرحها، ويُدْمي بإعادة الذّكر لها قرحها. ولكنني رأيته ذا صدر أرحب من ناديه. كأنما الخَطْبُ ضيفٌ قد عَرَّج بواديه، ونزل أمصاره العظيمة بواديه، يبسم في وجهه القاطب. وَيَتَلَقّى بالقبول منه أسباب المعاطب.

وله شعر حلَّى به معارفه، ونَشَر منه على أعطافها مطارفه، وأبان به في الفصاحة تليده وطارفه. كقوله رباعيّة:

العيد أتى ومنية القلب بعيد ... لا أحسبه وحق عَيْنيه بعيد
لو كنت لديه كنت بالحظ سعيد ... يا دهر إلام ترجع الوَعْد وَعِيد

وقوله:

عِلَّمه غصن النّقى ... مَيّسة فماسها
قلت له لا تَنْسه عن ... جُمْلتها فما سهى

هذا الجناس الذي جاء به هنا قد أخذه من نظم الشيخ مجد الدين بن مكانس رحمه الله تعالى في التورية. قال الشيخ شهاب الدين أحمد الحجازي رحمه الله تعالى في كتابه المسمى (روض الآداب)[1] ما لفظه: ومن غريب ما اتفق أن القاضي مجد الدين بن مكانس رحمه الله تعالى أنشد سَيِّدي أحمد بن وفا رحمه الله تعالى هذين البيتين:

أقول لِحِبِّي قم ومس يا معذّبي ... كمَيْسة خود نَكَّس السُّكر رأسها
ولا تسه عن شيء إذا ما حكيتها ... فقام كغصن البان لِيناً وما سَهَى

فقال له سيدي أبو الفضل: متى كنت تسرق نظم الناس وتدعيه لنفسك وأنشد:

أقول لحبي قم ومل يا معذّبي ... كميلة خود غَيّر السّكر حالها

---

(١) سبق ذكره.

ولا تـلـه عـن شـيء إذا مـا حَـكـيـتـهـا فـقـام كـغـصـن الـبـان لِـيـنـاً ومـا لـهـا

فلما سمعها مجد الدين تَعَجَّب، وصار يحلف أنه لم يطلع عليهما ويتنصَّل من ذلك. ويقول هذا من الاتفاقات الغريبة، فضحك سيّدي أبو الفضل. وقال: لما أنشدتَنيها ظهر لي في الحال هذا التَّحريف واستحقيتهما عليك، فأعجب بذلك. انتهى كلام الشهاب الحجازي رحمه الله تعالى.

قلت: حَسْبنا الله وكفى، هكذا فليكن دُعَاب الظرفاء، ومحاورة الأدباء اللُّطفاء. والله لقد أبدع أبو الفضل بما حُكم معه أن الفَضْل له. ولقد أبرز عن ذِهْنه الجَيّد هذا المعنى في غاية السهولة، فلهفي من الموت ما أخفى. ولهفي لصَرْصر المنيّة ما أطفى.

ومن هذا ما جاء لي في كلام منثور في وصف مليح وهو قولي: طالما تعلّم قدّه الرَّيَّان، وبالغ في أن يَميس مَيْسه الأغصان. حتى أحكمها وماسها، وحفظ ميلانه جميع أطرافها وما سهى.

ومن هذا النَّمط الظريف. والمنهج الرقيق اللطيف، ما كتبه القاضي العلامة بدر الدين الدماميني المخزومي إلى الشيخ الإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني رضي الله تعالى عنهما. وهو قوله(١):

حـمـى ابن عـلـيّ حَـوْزة الـمـجـد والـعُـلا ومـن رام أسـبـاب الـفـضـائـل حـازهـا
وكـم مُـشْـكـلات فـي الـبَـيـان بـفَـهْـمـه يـبـيّـنـهـا مـن غَـيْـر عـجـب ومـازهـا

أقول كان الأحسن لو أنّه قال:

وكـم مـشـكـلات لـيـس يـزهـو بِـكَـشْـفـهـا أبـان بـهـا أسـرار عـلـم ومـازهـا

فقال الشيخ شهاب الدين رحمه الله تعالى في جوابه(٢):

---

(١) خزانة الأدب ١: ٣٩٣ ط دار صادر تحقيق كوكب دياب.

(٢) خزانة الأدب ١: ٣٩٣.

بروحي بدرٌ في النَّدى لم يطع فتى نهاه وقد حاز المعالي فزانها
يسائل أن ينهى عن الخُود نفسه وها هو قد بَرّ العفاة ومانهى

ومن هذا النَّمط أيضاً قول القاضي بَدْر الدين الدّماميني المذكور رضي الله تعالى عنه(١):

وبِيْ وجَنْة حمراء زاد صفاؤها فأبدت صفاتاً أبدع الحُسْن كونها
فدع لائمي ينهى غزاليَ جَهْده فما أنا بالساهي صفاها ولونها

قلت: كان الأولى بالبدر رحمه الله تعالى أن يحوز الكمام ولا أقول التكليف بأن يقول:

فدع من نهاني يستريح بنَهْيِهِ فما أنا بالسَّالي صفاها ولو نهى

وكتب صاحب الترجمة إلى بعض العظماء كتاباً يحثه فيه على طلب العلم. قال من نثره في آخره ما لفظه: وأمّا العلم فهو أشرف مكسب، وإليه كل مكرمة عظيمة تنسب. ما شَرُفَ من لم يَطْلبه في الورى، ولا وُضع من تَمَسّك به بأمتن العرى، إلاّ أن غوره قعير، يُعْجز في قطع أوديته البعير. لا يدرك بغير النَّصَب، ولا يُحْرز بسوى الوصب، ولا يأنس إلاّ إلى ذوي الغربة. ولا يجابر إلا من كان به من فراق وطنه كربه، فشَمّر له حَمَاك الله تعالى ذيلك. وأشغل بطلبه نهارك وليلك والسلام. انتهى.

ومثل هذا ما قاله البديع الهَمَذاني رحمه الله تعالى: أمابعد فإن العلم بطي المرام، بَعيد المَقَام، لا يُدْرك بالسّهام، ولا يُرَى في المَنَام، ولا يُورث عن الآباء والأعمام. إنّما هو شَجَرة لا تَصْلح إلا بالغَرْس، ولا تُغْرس إلا في النَّفس، ولا تُسْقى إلا بالدَّرس، ولا يَحْصل إلا باستناد الحَجَر، وافتراش المدر، وإدمان السَّهر، وقِلّة النوم. وصِلة الليلة باليوم، ولا يدركه إلا من أنفق العَيْن، وجثا على العين. أيظن من أشغل نهاره بالجَمْع، وليله بالجماع، يخرج منه فقيهاً. لا والله

(١) خزانة الأدب ٢: ٢٢٣ ط شعيتو.

حتى يَقْصد الدَّفاتر، ويَسْتصحب المحابِر، ويَقْطع القفار. ويَصِلْ في طلبٍ بين الليل والنَّهار، ويوافق من الصبر برّاً طيباً. ومن التوفيق مطراً صَيّباً. ومن الهِمَّة تشميراً، ومن الدرس تقريراً، ومن النظر الثاقب تَحْريراً.

السيد أبو محمد إسماعيل بن إبراهيم ابن يحيى الجحافي[١]

من حبور

شقيق القمر وحديث السَّمر، معدن جواهر، وسماء زواهر، وشَمْس ظهيره، وعون من اتّخذه ظهيره، غُرّة شادخة، وآية غير منسوخة. وإنما هي لغيرها ناسخة. روضٌ له نظارة ولأعشابه غضارة، تأوّدت غصونه المائسة جَذَلاً وطرباً. وقضت لها نسيم أخلاقه من العناق مَقْصداً وأرباً. لبس من المجد برده المسَهّم، وكرّ في وجه العدى بجواد عزمه المطهّم. إمام علم بلا مرا، لم يزل له العرفان مخامراً، كم خاض بحوره ولجج. فتضوّع طيب صيته في الآفاق تضوّع نَشْر اليلنج[٢]. ما جهل شيئاً من الفنون. ولا جاءت بِمِثل تَحْقيقه السنون. وأما في الطِّب فهو فيه ذو القوة الطبيعية. والتَّدبير الذي يرجع إلى الروض في الشتاء أزهاره الرَّبيعية، فهو بغية السائل، وله فيه الذهن لا الجامد بل السائل، الجالي القاشر عن اللباب. فما بينه وبين الملطّف كثيف الحجاب. أعمق من اليم، وأطب من ابن حِذْيم[٣]، فلو كحّل عيون النجوم، لما كفّ نظرها من ضوء الصبح عند الهجوم. ولو عالج الغصن القويم لأبرأ منه ماليخوليا الملازم له من تَشْويش النَّسيم. ولم يحوجه وقد أصابه ميلان قدّه من الوِسْواس والمراقيا[٤] إلى أن يتلو عليه الهزار من ألحانه رقيته لما

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) سبق شرحه في ج ١: ٢١١.

(٣) المثل في المستقصى ١: ٢٢٠ وابن حذيم رجل من أطباء العرب قال أوس بن حجر:

فهل لكم فيما إلي فإنني ... طبيب بما أعيا النطاسي حذيما

(المرصع: ١١٤).

(٤) مارق من البطن.

غدا له راقياً، فهو طبيب آس لروض حكمته المدهم آس.

وهو الملاذ من الآلام فيما نَاب، فإنّي كنت أسمع مولاي الوالد يُطْنب في مَدْح معرفته في الطِّب غاية الإطناب. وكان معدوداً في الدولة المتوكّلية من صدورها، طالعاً في فلك سعادتها من جملة شموسها وبدورها. إن أنشأ وتَرَسَّل، فالطرس من مداده سبط الشعر المرسل. وهو إذ ذاك ذو حاشية أرق من النهر، وأخلاق أنضر وأعطر من الزَّهر. وكان بينه وبين جَدِّي الذي ظفرت من علمه بغية جدّي، مودة وألفة، وحُب ترك كل حِبّ خلفه، ومحاورات أدبية، ومراجعات كانت لها الطّوية السليمة سببية، وَوَرث والدي تلك الموَدَّة لا عن كلاله، وتَلَقَّاها بالتَّعظيم لما انطوت عليه من الجلالة.

فلبس الدهر من ذلك الود وَشْيا، وأتحف الكون من صَفْوة لا بشيء بل بأشيا. إذا كانت به حَبُور[1] تَزْهو في حلل حُبور، أيام إقبال الجحاف[2]، قبل أن يقصدهم الخطب بجيشه الزّحاف، لما نظرهم الزمان بعين سعده ولاحظ. فلا سعد لغيرهم عنده ولا حظّ، وهم إذ ذاك برامكة الزَّمن. وقد برز كل منهم في أوج الوزارة فليس فيها كَمَنْ كَمَنْ، ومبانيهم الشَّامخة تزاحم كِيْوان، ومقاصِيْر قُصُورهم تسخر بصاحب الإيوان.

وقد قَلَّدها الفلك بجواهر زواهرة. وفَتَح فيها روض السّماء من النّجوم عيون أزاهره، كما قلّدوا أعناق المسنتين بالمِنَن، وأنزلوا المعدمين في مُروج من أخضر الفَنَن. ولهذا السيد أدب غضّ، كم صَرَف عين ذهبه عن ملاحظة النظار وغضّ، فخمرة أدبه صَفْرا، تترك القلب من الحزن صِفْرا، تدبّ في الأعطاف، كما تَدَبّ في القدر النازل الألطاف، فأزهار روضه لم تمد إليها كف مقتطف ولا جان، وبَنَات فِكْره أبكار لم يطمثهن إنس قبله ولا جان. فمن دائرات أكوابها، التي مهج الحساد عندها تقول: هذه جَمَرَات أكوى بها. قوله من قصيدة اقتنص بها من

---

(١) سيأتي ذكرها.

(٢) هو الجحاف بن حكيم السلمي له ذكره في أمثال الميداني ٢: ٤٦٩.

المعاني الشاردة رب صَيْدة:

يا حياة النّفوس أنعمت بالوَصْل ... وكم قد مَنَحْت هَجْراً ومطلا
جاء هذا الوصال عَفْواً وما أحسن ... وَصْل الحبيب إن جاء سهلا
يا بروحي مليحة الدل تحكي ... في حلاها الغزال لطفاً وشَكْلا
بات طَرْفي من خدّها في جِنَان ... وفؤادي من حبها النّار يَصْلَى
بنت سَبْع وأربع وثلاث ... كل حِلْم في حبّها عاد جَهْلا

وقوله:

يا غائبون وفي قلبي محَبّتهم ... وعاتبون لبُعْد العَهْد بالكُتُب
شوقي إليكم محال أن أسَطِّرَهُ ... فالشّوق نار وأقلامي من القَصَب

قلت: ولكنها قَصَبَ السّبق في ميدان الطروس، التي تَقُوْم لديها الأقلام تعظيماً على الرؤوس.

وقد ذكرت هنا ما جاء للقاضي ناصر الدين شافع[(١)] بن علي رحمه الله تعالى لما وقف على شيء من نظم الشيخ شرف الدين محمد بن الوحيد[(٢)] رحمه الله تعالى، وهو ما كتبه إليه فقال[(٣)]:

أرانا يراع ابن الوحيد بدائعاً ... تَشُوق بما قد أنهجته من الطّرْق
بها فات كلّ الناس سَبْقاً فحَبَّذا ... يمينٌ له قد أحرزت قَصَبَ السَّبْق

وقد ذكر بعض الأفاضل بأن ابن الوحيد عفا الله تعالى عنه غضب[(٤)] لما

---

(١) أديب وفاته سنة ٧٣٣ هـ (الدرر الكامنة ٢: ٢٨١ ونكت الهميان: ١٦٣ وفوات الوفيات ٢: ٩٣).

(٢) أديب وفاته سنة ٧١١ هـ(الوافي بالوفيات ٣: ١٥٠ فوات الوفيات ٣: ٣٩٠ والدرر الكامنة ٤: ٧٣).

(٣) البيتان في الوافي بالوفيات ٣: ١٥٢.

(٤) قلت: هذا وهم من المؤلف وقد أعجب المذكور بما قاله ابن شافع وأن الذي غضب =

سمع هذا النَّظم وحملته الأوهام في معناه. وتفسيره على خلاف ما يَنبغي، ولو أنصف وعرف أن هذا النَّظْم ضربٌ من السّحر، وقِسْم شريف من أقسام البلاغة. وقد اشتمل على أبدع معنى، وأسس على أصَحّ مبنى. ولعلّه ظنّ أن جعل يراعه قصباً من التهاون به والتعريض بذَمِّه، وانحطاط قدره، وأن القاضي ناصر الدين لو أراد تعظيم شأنه لما جعله إلا رمحاً. وهذا من عدم الذُّوق ومعرفة الألفاظ ونَقْدها، ورُبَّ معنى مستقيم، حُمل على خلاف المراد وآفته من الفهم السقيم.

وأحسن من هذا ما جاء لإمام الأدب الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري رحمه الله تعالى في المدح. وذلك في بعض قصائده، وهو قوله(١):

شكراً لأقلامك اللاَّتي جَرَتْ لمدى ... في الفضل أبقى لنا عن شأوه التعبا
حَلَت وأطربت المصغي وحُزْت بها ... خصل السباق فسمّاها الورى قصبا

أقول: ذق أيها الذَّواق حلاوة قَصَبَ السكر في هذا النظم النباتي المذاق، فإن قوله: قَصَباً قد اشتمل على ثلاثة مقاصد، الأول: أنه قصد قصب السكر. وقد رَشَّح لهذا المقصد في صدر البيت بقوله: حلت بفتح الحاء المهملة من الحلاوة. الثاني: أنه قَصَد قَصَبَ الإطراب، وهي الشَّبَّابة المعروفة، وقد رَشَّح لهذا المقصد بقوله: وأطربت المصغي، الثالث: أنّه قصد قصب السبق التي نحن في سياق ذكرها. وقد رشح لهذا المقصد بقوله: وحُزْتَ بها خصل السباق، فكذا إن أراد الأديب يحوز قَصَب السبق في الأدب وإلاّ فلا، ولله درّ الجمال النباتي، وسقاه الله تعالى من عسل الجنة المصفَّى، وأجزل قسمه من شراب الأبرار ووَفَّى.

وقال جمال الدين بن نباتة أيضاً رضي الله تعالى عنه في قصيدة له أخرى(٢):

= هو الأخير في الجواب الذي كتبه عليه ابن الوحيد وعرض فيه بعماه (وكان ابن شافع اعمى) انظر المصدر السابق.

(١) ديوان ابن نباتة: ٥٩.

(٢) ديوان ابن نباتة: ٥١٢ من قصيدة أولها:

من عذيري من الطلا والأغاني ... وليال مرّت على حلوان

ويــراع فــي كَـفّـه هــو عــنــدي قَـصَـب الـسَّـبـق فـي الـعـلا والـرِّهـان

وقال صاحب الترجمة رحمه الله تعالى:

يـا كـاشـف الـكـرب فرّج هـمَّ مـنـقـطـع يَرُجوك لا الـحـاضـر الدَّاني ولا البـادي
واغفـر لعَبْدك إسمـاعيل مـا اكـتسـبت منـه الـجـوارح واستـر عـيـبه الـبـادي

وقال مؤرّخاً لمولد الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم بن محمد عليهم السلام:

خـلـيـفـة الله إسـمـاعـيـل مـولانـا أوفـى الـبـريـة عـنـد الله مـيـزانـا
في لـيـلـة الـنِّـصـف من شَـعْـبـان مولـده فـهـاك تـاريـخـه فـي شـهـر شـعـبـانـا

وقال مؤرّخاً لدعوة الإمام المذكور وقد دعا بمحروس الدامغ:

إمــامـنـا الــسـابـق الــمـجـلّـى إلــى أقــاصــي الــكـمـال بــالــغ
أرّخ لــبَــذر أنــار مــنــه لــمــا دعــا قــد بــدا بــدامــغ

وقال مؤرّخاً لما ألمّ السَّيْل ببيت الله الحرام. وسعى على رأسه إلى الكعبة والمقام، ونزل في المشاعر الكريمة في عام من الأعوام. ورغب في الوفود إلى مهابط الوحي المعظّمة، وتابع وَهَسه[1] إلى مواطن البركات المكرمة، حتى أناخ مطيته، وقضى من الزيارة مشيته، وقبل خال الحجر الأسود، وعانق أركان ليلى وما عانق إلا العلا والسؤدد. ولا غرو فوفود السّيل إلى مكة المشرّفة غير مُسْتنكر؛ فإن المؤرخين قد ذكروا من ذلك ما من حقه أن يذكر، كصاحب كتاب نشر الآس[2] وغيره من الفحول الأكياس، وهو قوله:

يا سائلي عن حديث السيل حين أتى أم القرى هاك مَحْض الحق حين جرى
ما جاءها السيل كي يمحو محاسنها وإنـمـا جـاء يَـنْـفـي الـسّـوء والـقَـذَرَا
أتـى إلـى الـحـرم الأمـن الـشـريـف لـكـي يـقـبّـل الـبـاب والأسـتـار والـحَـجَـرا

---

(١) الوهس: شدة السير والإسراع.
(٢) لم أقف على هذا التاريخ.

لكنه حين وافى البيت مَرَّ على ... تلك القناديل أطفأها وما شَعَرا
هذا وتاريخ عام جاء فيه أتي ... وافى وطاف بلَيْلَى[1] سَبْعَةً وسرى

وقال مؤرخاً لذلك أيضاً:

أتى السيل مجتاراً بمكة موهناً ... فطَهَّرها واجتاح منها أباطِيْلا
وما قَصَدَ الضُّر الشَّنيع وإنّما ... أراد من الركن المعظم تَقْبيلا
يقولون أرّخ كونه قلت فَاحْسبوا ... سمعت بأن الماء لاقى القناديلا

السيد عبد الله بن الحسين بن علي الجَحَّافي[2]
من حبور

سَيّد مليء صدر الدهر به جلالا، وماجدٌ مَدّ العصر منه في روضه ظلالا. شَدَّتْ به من الفضل سواعده، وثبتَتْ على أقوى أساس قواعده. مخضَّب الهِضَاب، حَميد الاقْتِضاب، لياليه السود على خدّ الأيام خِضَاب. سعى للفخار فأَدرك، وانفرد به فلم يُشْرك، وشَمّر للمعالي، فملأ منها الوِطَاب، وتجَرَّد عن النقائص كما جُرّدت التاء الاسمية عن الخطاب، منه مياه اللطف تقطر، وفي مروط سجاياه غادة العلا تَخْطر، وسحائب أنامله على رياض أخلاقه تَمْطر، من ذوي الكرم، وآل جَحّاف[3] الذي حماهم حرم، ومشيّد دورهم الشامخة إرم. قوم سار صِيتهم في الخافقين، ولان لهم الدَّهر كما لان الحديد للقين[4]، وأقبل إليهم السعد باسماً، وتضوّع لهم نَشْره في المشرقين ناسماً، فكَسَبُوا من الجميل ما يبقى، وفاتوا أهل المكارم في الميدان سَبْقا.

فهم رأس كرماء الزَّمن، وعِنْوان مفاخر اليمن، من كل ماجدٍ مكتمل. مال الزمان بشراب سجَيّته مَيْلة الثّمل، وهذا الكريم بعد فقدهم. قد عد الواسطة النفيسة من عِقْدهم، أحيا ذكرهم وإن لم يمت. لما صَار في كل طريق من المَجْد يَمُتْ.

---

(١) ليلى: كأنها من أسماء الكعبة.
(٢) انفرد بذكره.
(٣) هم جماعة المترجم له ينتسبون إلى الأمير ذي الشرفين انظر (المقحفى: ٢٩٣).
(٤) القين: الحدّاد.

وله رسائل إنشاء يدير منها الكؤوس إن شاء، تدلّ في البلاغة على تمكن وتصرّف، وتُغرب ألفاظها عن تلطّف وتظرّف، فللبلغاء من نار ذكائه اصطلاء واقتباس. ولهم من مَسْرود سُطوره إذا رقم دروع سابغةٌ في وَقْت بأس، وشعر كأنّه من الرّياض مختلس، ونظم كأنّه النجوم في الغلس، كقوله من أبيات مجيباً وقد سلك نهجاً عجيباً:

أهلاً بهنّ على التَّنويل والبخل ... وقَرّبتهنّ أيدي الخيل والإبل
القاتلات بلا أرش ولا قَوَد ... والماطلات بلا عُذْر ولا عذل
كان اللقاء إساءات بذي سَلَم ... إلى القلوب وإحساناً إلى المقل
من كل ريم فلا ألحاظ مقلته ... (كالسَّيف عريّ مِتْناه عن الخلل)
حليّه جيده لا ما تقلّده ... وكحله ما بعَيْنيه من الكَحَل

منها:

أغنت ملابس مدح أنت ناسجها ... عن رائع الحلي أو عن رائق الحُلَل
من كل بيضاء لم تَخْطر على خلدي ... من الأيادي ولم يبلغ لها أملي

وقوله: كالسيف عري، المصراع هو مضمن من لامية العجم للطغرائي، وهي مشهورة منشورة وأصل البيت يصف فيه نفسه هكذا:

ناء عن الأهل صفر الكفّ منفردٌ ... كالسّيف عري متناه عن الخلل

والخلل بالخاء المعجمة هي جمع خلة، وهي بطائن كانت تُغَشّى بها أجفان السّيوف منقوشة بالذّهب وغيره. وقد أحسن في هذا التّضمين إذ جعل الألحاظ كالسَّيف.

وكنت أنا قد ضَمَّنت هذا المصراع المذكور قبل أن أقف على تضمين صاحب التّرجمة هذا، وجعلت الطرف كالسَّيف المعرّى عن الخلل، وجعلت في تَضمِيْني العذار خللاً، لأن العذار المخضر يشبه الخُلّة، وهي البطانة المذكورة، فكان تَضْميني عند المنصف أحسن بهذا الاعتبار، وباعتبار إفراد الطرف مناسبة لقوله: كالسيف مفرداً، فهو أحسن من جَمْع صاحب التّرجمة لما قال: الألحاظ

مقلته والنظم المشار إليه، هو قولي:

قد شفّني الوجد في حبّي لخدّ رشا ... ما شانه قطّ نَبْت الشّعر في مقلي

فلحظة قبل ما يبدو العذار به ... (كالسَّيف عري متناه عن الخلل)

ومن منثور **صاحب الترجمة** ما كتبه مع هذه القصيدة التي أوردنا منها هذا التمثال قوله: وبعد فإنه ألقي إليَّ كتاب كريم، وأنهي إليّ تَشْريف وتبجيل وتعظيم من لدن مالك أزمّة البلاغة لمّا ألقت إليه قيادها، فَأطْنَب بها وأسهب وأَطْلَق في مَيْدان طرسه جيادها، وأطاعته أوابدها، وأمّت إليه شواردها، فشرّق تارة وَغَّرب، وأبدع طوراً وأغرب. ملك رقاب الإنشاء، فقال ما أراد، وتَصَرَّف في صناعتي منظوم ومنثور بما شاء فابتدأ وأجاب وأجاد. ما بلغت بلاغة الفاضل على فضله إلى كمال هذا النصّاب[١]، ولا صارت رسائل أبي إسحاق الصابي وإنشائه بالنّسبة إليها إلاَّ بمنزلة الصَّاب، بعد طلاوة معانيه وحلاوة مجانيه؛ كأنه لما تأخر نَسَخَ ذلك المتقدِّم، ولما تبحّر طمس آثار ذلك الحوض المتهدم.

أخذ من البلاغة على تنوعها بالنّواصي، ومَلَك منها الرّقاب، وفتح بجيوش ذِهْنه منها شامخ الصياصي[٢]، لما رقا على صَهَواتها الصّعاب. فهو السَّابي للفصاحة حتى صارت له عبيداً وجواري. المسامي إلى سمائها فلا تَنْفَكّ تأتيه من الأرض بالدرّ ومن السماء بالدَّراري، فلا عَجب إن أتى بالعَجَب العُجَاب، ولا استغراب إن سلك من البراعة في كل نوع وولج من الصِّناعة كل باب.

ذلك جامع الفضائل والفواضل، ومُلْحق الأواخر عجزاً عنه بالأوائل، واسع المكارم والآداب، صَفْوة ذوي المحامد والأحساب، الغني عن الإطناب، في إطرائه وتعداد كلماته بالإسهاب:

شمس صَحْو منيرة في ضحاء ... أخفاءَ تَرَى لذاك ونُكْرا

أحيا الله به شرف سلفه الأقدمين وقد فَعَل، وبَلّغه في الفَضْل والإفضال غاية

---

(١) الصاب: شجر مرله عصارة بيضاء كاللبن بالغة المرارة.

(٢) الصياصي: الحصون.

السُّؤل ونهاية الأمل. وشرح به للمعالي صَدْراً وأقرّ به للمعالي العين. والسَّلام عليه ورحمة الله ورضوانه يتعاقب بتعاقب الجديدين[1]:

تــحــيّــة ودٍّ مـــا الــفـــرات ومـــاؤه   بـأعـذب مـنـهـا وهـو أزرق سِـلْـسـال

ولا زالت معاليه مَحْسودة، والمعالي[2] آية المحسود، ونعم الله تعالى وأياديه محشودة، فإنها المطلوب والمنشود. هذا وأنه شَرَّفني بكتابه، وعَرَّفني بكنه كلامه وحقيقة خطابه، وَبَهَرني ما شاهدته ببصر البصيرة من آدابه، فللّه درّه ما أقوى عارضته، وما أحسن كلامه وأملح نادرته، وما أقدر ملكته على اقتناص الشَّوارد، واضعة[3] للتروي في جمع المحاسن من أعذب الموارد شعراً:

كـنـا نـظـنّـك تـهـدي الـقـول مـن كَـثَـب   فـجـئـت بـالـنَّـجـم مـصـفـوداً مـن الأفـق

ولقد سرّحت نظري في حدائقه، ورَوَّحت روحي ببهجة وَرْدِه وشقائقه ورضت فِكْري في روضه الأريض، وذهبت وجئت في سوحه الفسيح، فسحت في الطويل العريض، وجنيت من أثماره الجنيّة واجتليت عرائس أبكاره البهية السَّنية. شكر الله تعالى لموليها عظيم هذه الأيادي، ونَشَر فَضْله وأفضاله في الحاضر والبادي. قصيدةٌ أبو تمام عندها ناقص، وأبو فراس الحمداني عنها على عَقِبَيْه ناكص، ملكت طرائق البَلاَغة وتصَرَّفت فيها بالحلّ والعقد، واحتازت بالملك القهري تراث الشيخ عبد القادر[4] الجرجاني بالفرض والردّ[5]، استخدمت من أنواع البديع أحرارها، وسَلَبت بالاقتباس والتَّضمين شموسها وأقمارها، فكم ملَّحت ولمَّحت، وافتنَّت بالعكس والطرد، فأثبتت ومحت. ووَّرت آونةً وأفصحت، وجرّدت تارةً ورشّحت، وساقت المعلوم مساق غيره بأحسن سياق، ونَظَمت لآلىء التَّجنيس بأجناسه وأنواعه بأبدع اتساق، وفاقت أبا الطَّيب في إرسال المثل، وحصل

(١) الليل والنهار.
(٢) في (ش) والمعاني.
(٣) في (ش) وأصنعه.
(٤) كذا في الأصلين صوابه عبد القاهر ليتم له الجناس ولأنه اسمه هكذا عبد القاهر (سبق).
(٥) الفرض والرد من اصطلاحات أهل الفرائض.

من العجز عَنها بما قَدْ حصل، إلا أنها وافتني وقد عُطّلت أفراس الصِّبا ورواحله. وقَيّدني الكِبر بمُحْكمات التَّشكيل، فلم يبق لي إلا تِضهالاً، أجبت به لما دَعَتْني من خطابك صواهله. هذا جوابي والله المستعان. قلته على تلَجْلج لسان وارتعاش بنان، وهو المسؤول أن يحسن للجميع الختام. وإليه نرغب في نَيْل عفوه وعافيته وسكون دار السلام. والسلام.

السيد يحيى بن إبراهيم الجحّافي[1]

كان يلقّب نفسه بالعماد الكاتب، لما تَقَاصرت عنه المنازل وتقاعدت المراتب. وأنا أقول بل العماد الكاتب عنه يَقْصر. ومَنْهجه في النَّظم والنَّثر لمقالي هذا يَعْضد ويَنْصر؛ لأنه لبس في حَبُور من الأدب حلل الحُبور، وعَبَر بهِمّته على الشّعرى العبور، ذو طريقة من الأدب لم تُسْلك، وجواهر كلم في الأسماط لم تُسلك. أقسم بالله تعالى قسماً؛ أنه لأجلّ من أجزل الله تعالى له في الفضل قسماً. طالما أذاق الأفهام ما يَحْلو، وأَنْشقها منه رائحة عندها ترخص غوالي المسك فلا تغلو، فأزاحها ومثل ما جاء به يزيح، فلأجل ذلك أثبت بشر[2] قدرة العَبْد على الطعم والريح.

فكل أديب يشتاق لطائفه، فأقسم بالله تعالى أنّ كل طائفة من الأدباء حول بيته لطائفة. فأدبه أشهى من الرّضاب، مع خَطّ كأنه في وَجَنَاتِ الأوراق خضاب. تَرْتوي برقمه صدور الصّدور من الهُيَام[3]. وتطير الدفاتر إليه بأجنحة الأوراق من الهيام، فيراعه لتَحْرير الصَّواب غاية، ودواته عن الغلط نون الوقاية. فإذا هي نون العماد[4]، ولها فمٌ تنطق به في البيان وهي جَماد. وله عين في طلب العلا ساهرة، ونجوم ألفاظ زاهية زاهرة، ونَشْر أدب عبق، وخمرة إنشاء يتهافت عليها كل

---

(١) نفحات العنبر (خ) نشر العرف ٢: ٨٠ مصادر الفكر العربي ٣٤١ والأدب اليمني: ٥٢٥ - ٥٤٩.

(٢) هو بشر بن المعتمر من علماء المعتزلة توفي سنة ٢١٠ (الأعلام ٢: ٥٥).

(٣) الهيام بضم الهاء: شدة العطش.

(٤) العماد: عند أهل اليمن لقب لمن يسمى يحيى.

مصطبح ومغتبق. فله رسائل من ألطف الكلام المأثور، وحدائق سَجْع تدبّجت جوانبها بزهر من المنثور.

وعلى الجملة فإنه في النَّثر والنّظم فارس. وفي القَصَائد المطوّلة حلو الجنى طَيّب المغارس. وفي الحكمي والحميني ذو ملكه، لا يقيس بالإنسان ذو القياس ملكه. فطالما زيّن بنجومه الطالعة من الدَّفتر فلكه، نمطه في أدبه غريب، ونَهْجه فيه لا يَسْتطيعه القريب والبعيد. ما نهج أحدٌ نهجه، في سهولة ألفاظه وصِحّة معانيه التي تسيل من اللطف عندها المهجة، فنفثاته تسحر السّحر، لأنها أطيب رائحة من عنبر الشحر. ولذا قال في بعض رسائله وفقره التي هي إلى سلب الألباب من أعظم وسائله. وكلماته التي لفظها يسلب الحجى برقيقه وسائله: مع أني أفصح من نطق بالضاد. ولي في البلاغة المَنْهل الصافي الذي لم يصدّني عنه صَاد. والقصائد التي أقرّت لها بالسهولة: قفا نبك وبانت سعاد. وأنا أقول: هو إن طوَّل أجاد، وأتى برقيق برد لا كثيف بجاد. وإن نظم مقّطعات لطائف. فأقسم أنّ عدم الإجادة حول كل بيت منها لطائف، وطِيْبة في المحاضرة غير فاغم[1]، وصادحه في الأوراق عند المحاورة باغم.

فإنه في المجالسة والمساجلة أصمت من الخلخال، وحظّه في منازعة الآداب أسود من الخال. وكان يَعْتريه الذهول ويُهيم من التَّفكر في الجبال والسُّهول. لفرط رقةٍ تمكّنت من قلبه. ولُطْف استولى على لبّه. فإذا هو ذاهل اللبّ حَيْران، متشتت الفكر كالمحب الغيران. وهو ممن جهل الزَّمان قدره، ولازم مَحَاق العيش الكدر بَدْره، فقد عظم منه ألمه؛ لأن عيشه أضيق من ظل عيشه وهو قلمه، وسهل لنفسه من الزمن بالتأسّي صعب أوعاره. ولم يَجْعل الافتقار من مثالب فضله أوعاره.

قال في بعض قصائده وسوانح مصائده:

لا عيشتي تصفو ولا رَسْم الهوى   يَعْفو ولا جَفْني يصافحه الكَرَى

---

(١) أي: سد خياشيمه من كثرته.

(أسعى لرزق في البلاد مشتت ومن العجائب أن يكون مقتَّرا)[١]

وقد جمع بعض آل حجاف ديواناً من أدبه الذي هو بُستان للظرفاء بكل مشتهى حاف. [وكتبه بخط جحافي أنيق. فإذا هو رَوْض له من اللازورد بنفسج ومن الحمرة شقيق][٢]. سماه (در الأصداف، من شعر السيد يحيى بن إبراهيم جحاف).

وقد طالعته على نسق، والتقطت دراريه من ظلام مداده الذي هو غَسَق، فوَقَفْت منه على طراز مُذْهب. ووقَعْت على ما يقال عنده لذي الحجي: عقلك لا يذهب. ولكن جامعه لشعره لم يَسْتقص. فإذا ذلك المجموع كامل يعتريه من هذا القبيل نقص. وكان يتنقل في البِلاد، ويتخيَّر طِيْب الهوى من كل ناد، فتارة في حبور، وحيناً بصنعاء ذات الحبور. وزماناً بضوران أو بلاد كسمة، وآونه بذي جبلة التي سلبت من منطقه حدّه ورسمه. وطالما سكن ريمة، واصطاد من سفحها رِيْمَه. فهو خليفة الخضر في السِّياحة، وتِلْميذ الحمائم الفاقدة للإلف في النِّياحة. ما هو إلاّ نسيم خاطر، أو عارض مُقْلع ماطر. حيناً بالعُذيب وحيناً بالعقيق، ويوماً بالغرف المنافة ويوماً بقارعة الطَّريق. وقتاً بغور ووقتاً بنجد، ووقتاً يولع بالهزل ووقتاً بالجدّ، شعراً[٣]:

يوماً بحزوى ويوماً بالعقيف ويو ماً بالعذيب ويوماً بالخليصاءِ

بعد أن مضى له في اليَمن، زمان ناهيك به من زَمَن، أخضر السَّاحات والأكناف يسوق إليه كذا كذا من بدائع الأصناف. وشَبَابه أسود من خطِّه، وثغور الغواني تَبْتسم إليه عن لؤلؤ كأنه من لفظه. وهو في حجر البلهنية[٤] نائم، قد

(١) تضمين بيت ابن عنين.

(٢) ساقط من (ش).

(٣) لابن الخازن من قصيدة يمدح فيها الصاحب ابن عباد.

(٤) الرخاء والراحة.

عُلقت على عاتقه من عين الزمان تمائم، فلا يَسْمع النّوح إلا من الحمائم، ولا يعرف البكاء إلا من أجفان الغمائم. قبل أن يَفْطن لفَضْله الدَّهر، ويُذوي من حدائق عيشه الزّهر، ويَنُضب من روضه متدفّق النهر. وهو في ظلٍّ ظليل ما به أستغفر الله إلاّ النَّسيم عليل، تحت العوالي والصَّوارم، في حضرة من إليه قد عُزَيت المكارم. ابن عبّاد الزمان إلا أنه من الخطب في أمان، وابن معتز العصر، إلا أن رمحه لم يحطم بهصر، المولى على ابن المتوكل، البيّن مجده فهو غير مُشْكل، إلى أن مات ذلك الملك، وتبّدد عقده الذي سَلَك، فكان عليه من الحوادث ما كان، وتَحَرَّك حرف مطيّته بعد الإسكان. فإذا الأوطان به قد نَبَتْ. فإذا بعشب خضر الدمن له قد نبت، فما عَقَلَ له بعيرا، ولا أطفأ بالشَّراب الخَضِرْ في جوانحه سعيرا.

وله بِوَصْف حبور لهج، وطالما جاء من التَّشبيب بِعَيْشه الماضي فيه بما يسيل المهج، يتَعَصَّب لساحاته على التَّعميم، ويأتي في بديع ألفاظه بالتكميل(١) له والتَّتميم(٢)، يتحف بِمَدْحه غاية الإتحاف. فإذا هو أشدّ عصبية من الجحاف(٣). وقد أودعت كتابي هذا من نظمه ما أودع البَحر الصَّدف. وأبرزت تحت ليل مدادي منه ما أبرزه من النجوم الغدف. أثبت له من بديع الأنماط. ما أثبت ناظم الدرّ في الأسماط.

فمن جَوْهره الذي رَصَّفه، وكلامه الذي نَضّده وألّفه، وحبّره برقم حبره عن علم وعن معرفة.

قوله:

---

(١) التكميل من أنواع البديع هو أن يأتي الشاعر بمعنى تام ثم يرى الاقتصار على الوصف غير الكامل انظر خزانة الأدب ٢: ٤٧١ ط كوكب دياب.

(٢) من أنواع البديع انظر المصدر السابق ٢: ٢٩٤.

(٣) في المستقصى للزمخشري ١: ١٩٣ أشد عصبية من الجحاف وهو الجحاف بن حكيم السلمي (سبق).

مـن نَـظّـم الـدّر ومـن ألّـفـه ... في فيك عن علم وعن معرفة
ومرهف العَيْنين من سَنّه ... في باطن الجَفْن ومَن أرهفه
والسَّاعد المَسْبوك من فِضّة ... بَيْضاء من بالتِّبر قد طَرَّفه
من طَرَّز الكافور بالمِسْك مَنْ ... بالعود والعَنْبر قد زَخْرفه
هذا وقُلْ لِي غير مُسْتَنْكَر ... من وضع الوشم دُوَيْن الشَّفة
عَرَّف ما نَكّره مرةً ... ومرّة نكَّر ما عَرّفه
ما السَّحر من بابل إلا الذي ... تُذركه العَيْنِ بهذي الصفة
قُلْ غَيْر مأمور فلي مهجةٌ ... صَارت إلى ذلك مُسْتشرفة
إذا مضى طرفي مُسْتعجلاً ... أمسكه حُسْنك واستوقفه
وجملة الأمر بأنّي شجي ... أسلمني الحب إلى البلكفة[1]
تيّم قلبي قمرٌ طالع ... طَرّف أطرافاً له مُتْرَفة
قد خَلَف الحسن يميناً له ... مقبِّلاً فيَ يده مَضْحفه
لا حَلَ في وجه سوى وجهه ... فلم يَحُل من بعد أن حَلَّفه
هَيْهات أن تحنث فيها ولو ... جاءته شَمْس الأفق مُسْتعطفة
البدر في النِّصف على حسنه ... إن رام أن يُحكيه ما أنصفه
خَلاَ نسيبي في بهاه كما ... خَلّاً مديحي في أخي المعرفة
مَنْ صار موصوفاً وما إن له ... غَيْر المعالي أبداً من صِفَة
عبد إلى الرحمٰن سبحانه ... أضيف يالله ما أشرفه
رَوْض أريض قد دنا زَهْره ... منّي بغير السَّمع لم أقطفه

(١) البلكفة: كلمة ركبت من قول أهل السنة في رؤية الله سبحانه وتعالى أنه يرى بلا كيف أي بلا كيفية للرؤيا على خلاف رأى المعتزلة يقول الزمخشري:

لجماعة سموا هواهم سنة ... وجماعة حمر لعمري موكفة
قد شبهوه بخلقه وتخوفوا ... شنع الورى فتستروا بالبلكفة

(طبقات الشافعية للسبكي ٩: ٩).

ذو قلم كالرمح ما زاغ عن ... شاكلة المَرمى ولو حَرّفه
لا طعن فيه لحسود وقد ... أضحت له الحُسّاد مُسْتهدفة
عَلاّمة الدّهر فلو أنه ... أدركه الرازي لأسْتخلفه
فكرته صادقةٌ حَقّقت ... مفاتح الغيب[1] الذي صَنّفه

وكتب إلى الممدوح بعد هذا النظم ما لفظه:

نعم يا سَيّدي، أطلق الله تعالى في شُكْرك لساني وقلمي ويدي. هذا جناي وخياره فيه، وكل جانٍ يده إلى فيه، وقد فتشت بيت مالي، وافتقدت خزانة خَيَالي، فإذا هذا جملة المتحصّل، فلا أغرك وأقول إني قلته وأنا مستعجلٌ، فتلك مع المتعاطين للأدب حجّة داحضة، وأغلوطةٌ عين شُبْهَتها غامضة، والسلام.

وقوله يطلب من بعض الملوك حصاناً:

يا مليكاً به أنار زمانه ... جد بأقصى المنى فهذا أوانه
شُرَّ صَبًّا متيّماً غاب عنه ... وتنأى حِصَانه لاحَصَانه
هاته هَيْكلاً حكاه ولكن ... مِثل رهباته غدت غلمانه
مُدمج السّوق ليس يوجد فيها ... فهو عِلقٌ تغلو به أثمانه
ذو تليل سام ورأس لطيف ... فوق صَدْر كأنّه مَيْدانه
يسبق البرق والبُراق فما الطّيـ ... ـير وإن كان بالغاً طَيَرانه
طال في الكبرياء والتّيه والزهو ... وتحريك مَنْكبيه افتنانه
من رَقَى صهوةً له صار تَيْهاً ... مثل كسرى إن ضَمّه ديوانه
كم سما صاعداً ليأخذ عهداً ... بعَنان السّماء لولا عِنانه
أشهب اللّون يشبه العَنْبر الرّ ... طب الذي يَعْتني به خُزّانه
أو كزَهْر من البِنَفْسج غَضّ ... تتثنّى نعومة أغصانه

(١) يعني تفسير القرآن للفخر الرازي المسمى مفاتيح الغيب.

رِشْ جناحي به فإنّي هزار ناطق بالثنا عليك لسانه
أنا حَسَّان مَدْح كل كريم ساجلت وَاكف الغمام بنانه
كيف ينسى عهد الغوير ومَغْنى سَمَحت بالوِصال فيه حِسَانه
وأدارت عليَّ كاسات أنسٍ ووصال عذب المذاق قيانه
وتجاوَبْن كالحمام بصوت مُطْربٍ قد تكاملت أوزانه
في مقام إذا بَكى الغيم فيه لم يَزل ضاحكاً به أقحوانة
كلما جَدّ في البكا خجل الور د وأضحت مُخْمّرة أوجانه
وغدى اليَاسمين يبدي اصفراراً مذرآه وقد هَمَتْ أجفانه
ورأى بَرْقه شبيه حسام مُصْلت دام في الدّجى لَمَعَانه
صار منشوره إلى النّرجس الغـ ضّ بما قد جرى تشير بنانه
طالما غرّدت حمائمه الورق إلى أن تحركت أشجانه

وقوله في قصيدة يمدح بها شخصاً اسمه يحيى ويصف بندقاً له[1]، وحسن رمية به:

سقياً ورعياً ليحيى كلَّ آونة ما غرّد الطير في عالٍ من الشَّجر
يُصيب بالبُندق الرّومي إن عرضت دقائق الرَّمي ما يخفى من الشَّعر
يرمي فلا يخطىء المرمى وإن خطرت ملمّةٌ كان فيها ثاقب النظر
لما حكت يده الغيث الهتون غدت ترمي العداة بِبَرْق صادق الشَّرر
كأنما في يديه البَرْق يرسله إلى الأعادي بالآيات والسُّور
له مشاف يُحَاكي سنّ غانية كأنّه درة من أحسن الدرر
على فم يَنْفث النَّار التي كمنت في الجَوْف منه كمون النَّار في الحجر
كالطوق دار على الوَجْه الوسيم وقد يريك ما دار حول الشمس والقمر
ترى الدُّخان الذي يلقيه من فمه محلّقاً رائقاً في أعين الزّمر

---

(١) البندق عند أهل اليمن وهو ما يعرف عند غيرهم بالبندقية (معروف).

و(برمة) تَخفظ الجار القريب فكم ... من مقلة فَوْقها لم تخش من ضرر
ترى (المقص) عليها ساجداً أبداً ... لكنّه من أمور المشركين بري
و(السّلس) من حولها ما زال مُنتظماً ... كأنّه القَطْر منهلاً من المطر
وقد حوى كل (سلس) (إبرة) سُبكت ... من فِضّة فغدت من أحسن الإبر
لقد غدت آية الكرسي حين زَهَت ... أوصافه الكل بالأحجال والغرر

وقوله من قصيدة في وصف حسناء:

هذا وإياك من عطر بمعطفها ... فإنّه صَار بالأسرار مشّاء
وحِلْيها الكل كُنْ منه على حَذَر ... فما يُطيق لسرّ الحب إخفاء
إلاّ الذي حَلّ منها الزّند فهو وما ... في السّاق لم يتعوّد قط إغراء

قوله:

يقول لي العذول وقد رآني ... حليف هوى بمن فَضَح الغزالا
أبِنْ لي هل أنالك ما تَمَنَّى ... وهل تسلوه قلت له أنا لا

وله في مليح يلقب بالنونو:

وشادنٌ صار بالنونو مُشتهراً ... قد زانه حاجب بالنَّصر مقرون
إن قِيْل صِفْه وصف في الحال حاجبه ... موريا قلت كل منهما نونو

وقوله:

وسائسة بالصّد قلبي وقد غدت ... تثّنى من (السوسي)[1] في خَيْر ملبوس
وقالت مرادي إن أسوسك حين لم ... تصرّح بملبوسي فقلت لها: سوسي

ولما دخل كوكبان من بدره منازله، وارتقى منها غرفاً لها عيون النجوم مغازلة. ابتسمت الرّياض في وجهه بثغور زهورها. وغَطْرفت فيها الحمائم بتغريدها والجداول بتدفّق نهورها. من كل روض مدهم، ظلّه الأحوى يُذهب بالهمّ، كأنه

---

(١) نوع من الثياب في ذلك الوقت انظر مذكرات المؤيد بالله: ٨٧ (تحقيقنا).

الليل عند نشر ذوائبه، ولذا أسرجت قَناديل الزّنبق عن فتائلها في جوانبه، فاجتمعنا به أتم اجتماع، وطربنا لرؤيته بعد أن كنا نطرب به على السَّماع، ومَرَّت لنا أيام من رَيْب الدهر سُرقت، وعَيْنه نائمة على الصفو فما أرقت. في مجالس كأنها جنان، يدار بها من الأدبِ شراب الدِّنان، وجرت بَيْني وبينه، قبل أن يصادف رحيله وبينه، مكاتبةٌ أرق من النَّهر الجاري. إذ ألبس درع النَّسيم الجاري السَّاري[1]، وألطف من تخلل الصّبا، بين نرجس الحدائق وورد الرّبى. ذهبت بذهاب ذلك الصفو الذي تنزَّه عن الأكدار. وجرى الفلك فيه لخدمتنا بما نريد ودار، ولم أظفر الآن منها بسوى ما كتبته أنا إليه. وحثثته بالمبادرة بالوصول عليه، ونحن بمحروس العارضة[2]، وأسباب الأنس لنا عارضة، بمقام حفّ به نُدْمان، ليس فيهم متحسرٌ على فوات الصَّفو ولا نَدْمان.

قولي: أصبحت الحدائق، محمرّة الشقائق، مُخْضرة أوراق ونبات، يَصْلح أن نُصْبح بها ونبات، طيورها تريد أن تسجع، وعيون نرجسها تطمع في أن تَهْجع، وعليل نسيمها مفتقرٌ إلى العيادة، فما بسَقْمه الذي لصق بلطيف جسمه زيادة. فبالله عليك أيها النّديم إلاَّ ما بادرت لزيارة عليل النّسيم، ووافيتنا في أسرع من اللَّمْحة، ووفَّيت لنا كما عهدناه من سجيّتك السّمحة. فنَحْن في مقام جُمعت به الغرائب، قد انتظمنا فيه انتظام الجمان على التّرائب، فألحق الواسطة بالعِقْد، وأرغم أنف الزمان ذي الحِقْد. ولا تدع الكامل ناقصاً، واجعل الصفو عن الكدر خالصاً، فكيف يكمل جمعٌ لست من أبنائه؟ أو يَصْفوا مقام أنس لست في أثنائه؟ فهلَمّ مبادراً هلّم، وعلى الإزعاج لك لا تلم. وشاركنا في الدراية، فقد أشار علينا المشير بالاغتنام فحمدنا رأيه. وَرَفَع لنا الرَّوض من أوراقه راية. فنحن ولله المنة، في روض قد جردت لحرب الأكدار من نهوره مناهل وأسنّة.

---

(١) تورية والساري عند أهل اليمن في ذلك الوقت ثوب سَابغ تلبسه النساء.

(٢) قرية في عرض جبل كوكبان وينفتح سطحه الشرقي والشمالي على منحدر يطل على مدينة شبام أقيان (المقحفى: ٩٨٩).

أخبار نشره علينا غير خافية، لأنا تلقيناها من نباته عن النمام، وأخذناها من نهره غير صافية، باكرناه من قبل أن تباكره النّسائم، ويُسام في جنباته من الصَّبا سائم. فكل مِنَّا ناشط لمنظره غير سائم، وقبل أن يمتري الغصن درّ الأنهار. ويناط بجيده تمائم الأزهار، فخُذْ من الصّفو نصيبكَ، واحذر سهام التَّفريط أن تصيبك، فما ابتسم زمان إلا عَبّس، ولا أطلق نعيماً إلا حَبَس، ولا اخضر روض أنس إلا وافاه اليَبَسْ. لا برحت إلى النّعيم المقيم ناهضاً، في عيش يسر محِبّاً ويكبت باغضاً، ما نُدِف قطن السحاب بِقَوْس الغمام، فغزل خيوطاً من المطر نسجتها بديع حلة أيدى الغصون الخارجة من الأكمام، فَصَبغت بالأخضر وطُرّزت بأنواع الأزهار، وسجّفت بالدِّيباج الأزرق من الأنهار، فلبستها قدود الأغصان، ومالت دلالاً كالخود الحصان. والسلام.

وكتب هو في شهر القعدة الحرام سنة تسع ومائة وألف (سنة ١١٠٩) على كتابنا المسمى (سلافة العاصر). مقرضاً له من النثر ما لفظه: إلى هنا انتهت المحاسن ووقفت، بحسن هذه الرياض المستطابة، أقرت (الحدائق الوردية) واعترفت. ومن هذا البَحْر العذب الفرات استمدت (المناهل الصَّافية) واغترفت، فلقد بلغ مصنفها أعلى مراتب الإعجاز. واسْتعمل التشبيه والاستعارة والحقيقة والمجاز. وأحسن غاية الإحسان في الإطناب والإيجاز. وشرح بهذا الشَّرح صدر البلاغة، وبَلّغ الحسن إلى الأسماع والأبصار وأحسن بلاغة، وتجاوز في ميدان الفصاحة الغاية، وأظهر المعجزة والآية بعد الآية. وهذه المَلَكة التي يلاحظها علماء الكلام، وقوة العارضة التي نشأت من رقة هوى كوكبان وشبام. فلقد أتى القاضي شهاب الدين حَفظه الله تعالى بما أَشْرق حسنه وتلألأ، وتتابع مروره في مَسامع الخاصة والعامة وتوالى. وتراك الرَّائي والسَّامع للفصول اللؤلؤية[1] يقول: هكذا هكذا وإلا فلا لا، فأقسم بمفاتح الغيب[2]، أن الفخر الرازي دونه بلا شك ولا

---

(١) إسم كتاب في أصول الفقه لإبراهيم بن محمد الوزير المتوفى سنة ٩١٤هـ وكذا الكتابين السابقين.

(٢) للفخر الرازي سبق قبل قليل.

ريب، وأنه قد أدار علينا ماء الحياة، وأقرأنا في كتاب برء ساعة[1] التي تسجد له المصنفات على الجباه. فللّهِ در هذا الناثر الناظم، والفصيح الذي أشبه الصّادح حتى أصبح معارضه مثل الباغم[2]. والسلام.

وكتب إلى بعض أهل العصر رسالة تشتمل على نثر ونظم، كأنهما مدامة العَصْر، ومن منثورها في ذكر الحمام الذي ينتظم بالافترار له ثنايا البروق من ثغور الغمام.

قوله: فلقد أطربني سَجْعه، وشاقني جرّه ونصبه للعود ورفعه. ووافق في الحَرَكات والسَّكنات طَبْعي طبعه. وأعجبني من طاغوت[3] الهوى شرعه ومنعه. حتى صرت مثله أهوى موائد الغصون، وألهج بارتشاف الثغور وورد الخدود ونرجس العيون، مع أن التطفيل، ما كان مني ولا يكون. فلا شيء حَسَن من التَّطفيل، فالحمد لله الذي لم يَجْعلني من هذا القبيل. قل أعوذ برب الناس. أن أنبز بين المحبين بطفيلي الأعراس، فهذا في محَبّتي للحَمَام هو السبب، فإذا امتزجت بها امتزاج الماء بالراح فلا عجب، (فلكل جعلنا مَنْسكاً هم ناسكوه) والمرء مع من أحبّ. فطالما شكوت عليه من الزّمان، واقتديت به في الولوع المفرط بالأغصان، وجعلته في المطارحة بالأوراق من أكبر الأعوان، وخاطبته وأنا في بكاء ونحيب. وحادثته وقد جعلت الدمع سائلاً ومجيب، وأفهمته أني لم أكن في جميع الأمور كغيري.

وقلت له وقد وافق طيره طيري:

يـا حـمـام الـحِـمَـى اسـتـمـع	لـي شَـكْـوى مـن الـزَّمـن
فـي نـظـام إذا قـرعـت	اخـتـبـاراً قـفـاه طَـنْ

---

(١) كتاب ينسب لمحمد بن زكريا الرازي الطبيب.

(٢) إشارة إلى كتاب الصادح والباغم لابن الهبارية.

(٣) هو ما اطلقه الفقهاء على الأحكام المخالفة للشريعة.

كن به دائماً معي — فوق تلك الرُّبى تغنَّ
غنّ يا شادي الحَمام — بشعري هناك غنّ
وَارْفَعَ الصَّوت مجرياً — للأغاني على سَنَنْ

السيد زيد بن علي الجحّافي[1]

من آل جحاف، ومن جيش مَجْدهم على العِدى زَحّاف. وهم قوم لم يزل السّعد بهم في رَيْعان العمر أي حاف، بهم قامت الخلافَةِ المتوكلية، فلم تك أجيادها عن قلائدهم عاطلة ولا خليّة. منهم الوزراء، ومنهم الولاة والأمراء، ابتسم لهم السعد وقهقه، قبل أن يفطن الزمان ما نالوه وَيْفَقه. فكانوا برامكة عَصْرهم، لَمَّا قام الحظ الأوفر في نَصْرهم. وهذا الماجد فيهم هو الصَّدر. وفي سَمَاءِ معاليهم المَسْموكة هو البدر. بيده العقد والحل، وإلى مقامه كل ذوي الآمال تَرْحَل، ولي من المخا بَنْدره، لما قال الجدّ: ما أحق هذا بالمملكة وما أجدره. مع سعاده جاد الزمان بها له، ورِفعةٍ استدار معها مَجْده وبَدْره من النجاح بهالة. كأنما خَلَعَتْ عليه الرياض برودها، ونشرت فوقه من الأغصان والأوراق بنودها. وقد استعبد البحر فإذا هو لهيبته يَضْطرب، وبالجَزْر يَبْتعد عنه خوفاً بالمدّ إلى أفضاله يقترب[2]:

والبحر يرعد مَتْنه فكأنّه — دِرْع يسرُّ بمعطفَيْ مقرور

يقذف بين يديه بِدُرٍّ وَعنبر، وينكشف شاطئه من عدوّه، ومنه عن فاجر وعن بر. فما عرف المسك والإبليم[3]، وقد تضوع نَشْر صيته في ذلك الإقليم؛ لأنه كريم المعصر. وقلمه في التَّنويل طالما صَرْ. لا يَدْري الطالب إذا جاد له برفده، وَحَباه من برّ إفضاله بمدّه. أزاره الرباب، أم أمَّ ساحته العُبَاب، لو وقعت قطرة من

---

(١) نفحة الريحانة ٣: ٤١٠ وسلافة العصر: ٤٥٥ ونشر العرف ١: ٦٥٣.

(٢) لابن قلاقس ديوانه: ٤٤٩.

(٣) صغار السمك.

نداه على أرض ممحلة لأخصبت. أو لو أصابت أمواج البحر المالح لساغت للأفواه وعذبت. وكنت أسمع من والدي مَدْحاً له وثناء. فبَيْنه وبينه مودة ما صرف عنانها الزمان وثَنى، ورأيته بصنعاء معزولاً، وشاهدت قطن سعادته مغزولاً. وقد عاد سمين عيشه مَهْزولاً، إذ أخذ لئيم الدهر في انتهابه، بعد أن كمل الفضل بوجوده وانتهى به. وقد استولى عليه الكِبَر، وأبلى لابس الجديدين[1] منه الحِبَر، يودّ البَدْر أن يكون له قائداً. وعن حَزْن[2] الطريق إذا هم بسلوكه رائداً، وتتمنى الجوزاء إذ أضحى للمعين يستمد. أن تكون بيده عصا يتوكأ عليها ويعتمد، فهو أسقم من خَصْر؛ لأنه أعمر من نسر.

وله شعر كالدرّ في الصَّدف، والدَّراري في الغَدَف. تناوله من البحرَ ونظمه من الغانيات على النَّحر. لما جاوزه زماناً، منحه من نفائسه جُمَانا. قال في جارية له تدعى وَرْقِيه طال ما قال لها: أحيي محبّك بخمر ثغرك واسقيه:

وجاريةٌ حسناء تزهو باسمها ... على فتيات حين تُدْعى بوَرْقِيْهِ
إليك فهذا مِنْبر الحسن والبها ... فهبِّي إليه يا مليحة وارقِيْه
ورقي لمن يَهْواك وارعي ذمامه ... وعودي إليه ثم عوديه وارقيه

وقال في جارية حبشيّة تحمل مغرزاً فيه شمعتان مُسْرجتان:

وجارية من الحَبَش اللَّواتي ... سَلَبْن بِحُسْن سالفة وعين
أتَتْنَا في الظلام بِدَانِ شمع ... وقد غرزت عليه شمعتين
فأعجب ما أحدّثكم بأني ... رأيت البدر بين الفرقدين

---

(١) الليل والنهار، وهو هنا جسد الإنسان وثوبه قال أبو العلاء المعري:

أما الجديدان من ثوبي ومن جسدي ... فيبليان ولا يبلى الجديدان

(٢) ما غلظ من الطريق.

ولده السيد إبراهيم بن زيد الجحافي(١)

متطلعٌ لنيل الفَضائل، متنسّم نسمات آبائه الأوائل. سما به ذلك التَّطلع حتى تضَلَّع من المجد أي تضلّع. فالتقط الأنجم من الفَلَك، وسَلَك من المحجّة البيضاء من المجرّة فيا نعم ما سلك. فما نادم سِوَى البدر والشَّمس. وما جالس منهما إلا ما بادر لأنواره بالطَّمس. لما أشرق في المنازل، وكان فيها أشرف قاطنٍ ونازلٍ. ربّي في حجر والده في بُلَهنية، وتنَقَّل من قصور مقاصير قصوره في أبنية، لا يألف إلا الرفاهية والنّعم. ولا يَعْرف إلا فاضل الإفضال الأعم، وكلمة أبيه العليا وله من منهل السعادة سقياً، أيام ولايته، ووضوح آيته قبل أن ينسخ محكمها. ويُفْصح عليه من الخطوب أبكمها، وَخطّه من نقش الأكف وخضاب الخدود، تلقى وَضْعه من الآباء السَّابقين والجُدود. فهو خط جَحَّافي، غير ناقص بل وافي. بديع النّقط والشّكل والأحرف. يعظم به قدر النَّبيل ويشرف، فسَجْدة قلمه في جامع طرسه ليست ببعيدة عن الزخرف(٢). وقد ألّف في التاريخ كتابين(٣). وفتح من إيراد الآداب بابين. دلاّ على هِمّه سامية، وفكرة سهامها النافذة رامية، إلا أنها سهامٌ طائشة، لم تكن لها يد الإجادة رائشة؛ لأنه لم يحبّر فيهما العبارة. ولم ينظم من الدرّ صغاره ولا كباره. وأما كلامه فيهما واهي العُرى. وسيره في ليل مدادها غير مَحْمود السّرى، ولكنه فضل لا محاله، وتَسْطيرُ في صفحات الدّهر لا إمحى له. يدل على سموّ هِمّة، قد زَاحم بها مع شبابه من ذي الفضل همّة. رغب أن يَذْكر في صِنْف المصنّفين، ولم يلتفت إلى طعن الناقمين والمعنِّفين.

وله رغبةٌ في مكاتبه ذوي الأدب، فكم حثّ قلمه على التزامها وكم نَدَب. والغالب على نظمه الرُّكة، فلا شك أنه لم يحسن للعِقْد الفريد شكّه.

---

(١) نشر العرف ١ : ٢٥. مصادر الفكر العربي: ٣٤٠.

(٢) هنا تورية بسورتين من القرآن السجدة والزخرف.

(٣) هما كتابا: اللآلئ والمرجان في ذكر جماعة من الأعيان، وزهر الأكمام في محاسن أدب العترة، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن: ٤٤٤).

كتب إليّ قصيدة حائية على نمط قصيدة ابن النحاس. ولكنه للحَيْس المُشتهى مالَت ولا حاس، يَغْلب عليها عدم الإجادة. سَلَك فيها من اللحن الفاحش غير جادة.

ثم كَتَب لي قصيدة سينية أخرى، يتّخذها اللبيب في نفائس الكلمات ذخراً، مع منثور كأنه زهر المنثور، وفِقَر تعد من السّحر المأثور، فلا أدري أذاك من نَظْمه ونثره؟ أم هو من كلام من سلك في سبيل المجيدين وأثره، استنابه لما كان أفصح منه لسانا. وفارق من بَنَات فكره شويهات لما خطب من بنات فكر غيره حساناً. وهما:

زان القوام من المليحة طاسها ... ولطالما زان الغصون لباسها
جاءت لزَوْرة عاشق في لَيْلة ... مدّ السّتور بأفقها إغلاسها
لما تَبَدَّدت الغوانِيَ وانبرت ... يبدو بإسعاف المنى إركاسها
هي ليلة أنوارها قد أشرقت ... فكأنّ غرة أحمد نِبْراسها
صَدْر الأفاضل في بني الدنيا إذا ... ضَمّ الأفاضل في الثّرى أرماسها
ذو فطنة لو أدركته أوائل ... ما شاع فيها واستطال أناسها
ووفور حِلْم أن يحرّك حادث ... وإذا الخُطوب تَقَلْقَلت أجراسها
تعنو له الخطباء لما أفحمت ... من وَعْظه وأصابها إخراسها
ضربت لهم أخماس وسواس وقد ... سمعوه تَتْبعها إذاً أسداسها
تعلو مَنَابر في العلا طالت وقد ... شَدَّت بآفاق السما أمراسها[1]
في العلم أصبح ذا اجتهاد مطلق ... إن قيّد العلما به حُبَّاسها
وغدا المجدّد للعلوم بِغَيْر لا ... ريب يخالط ذا الحِجَى وسواسها
فَلَكَمْ مسائل أنهيت لمقامه ... في الحال زال عن الورى إلباسها
وله من الآداب أرفع رتبة ... هَيْهات يبلغ دونها أحلاسها

---

(١) جمع مرسة: الحبل يشد به الدابة.

قد ألّف (العطر) الذي نَفَحَاته ... فاحت فطابت في الورى أنفاسها
أبدى به في النَّاس معجز أحمد ... فتقاصرت هِمَم وأحجم ناسها
من بعده ماذا يقول عصابةٌ ... خرست وما تأتي به أكياسها
فأعيذه من شَرّ حاسد نِعْمة ... فَلَقَد تكثُر في الورى خَنَّاسها
صان الإله عن المكاره شَخْصه ... إن نازل الأعداء منها بأسها
دامت معاليه العلَيّة ما سَعَت ... خدامها أو ما انبرت حُرَّاسها

يقبّل مملوك المودة، الذي يتخذ له استرقاق الحب أيّ عدة. تُرْب ذلك المقام العظيم، وهو مقام مولاي القاضي الفاضل الذي تقاصر عنه الفاضل عبد الرحيم. العلامة في الفنون فما قصدت فناً، والفهامة في المعارف فما ذكره ذاكر إلا صرح وما كَنَّى.

أديب هذا الزمن بلا امتراء، وقس الخطابة فيه ولا افتراء. من سعت إليه المنابر سعي مشتاق، وتَفَتَّقت أعوادها منه عن زَهْر وأوراق. خطيب الخطباء فلا ينازعه منهم في سبقه منازع، والراقي أعلى درجة من الوعظ في حافلات المجامع. شهاب الإسلام أحمد بن محمد الحيمي، خطيب جامع شبام. لا زالت أوقاته أنضر من الرياض، ولا زالت نِعَمه أصفى من أمواه الحِياض، ولا انفكّت السّعادة له خادمه. والمَسَرَّات على مقامه الأرفع في كل حِيْن قادمة، وعليه سَلام طَيّب الهبوب، يعطر سِرّه جيب الصَّبا وأذيال الجَنُوب، يَسْقط على ساحاته سقوط مطر بعد جَدْب، ويرد إليه بالمسك الأذفر واعتلاج المندل الرطب، ما طاب ذكره في المحافل، وأدّيت من الثناء عليه الفروض والنوافل.

هذا وأني وقفت لكم على آداب غضة، وكلمات يُتْرك عندها خالص الذَّهب والفضة، وألفاظ هي الأسحار على أنها في الرقة نَسْمة الأسحار، فعجبت لدَهْر كرم بوجودك وهو والله بخيل، وزمان تَفَضَّل بك فإذا أنت لليله كالسَّحَر ولنهاره كالأصيل.

زَيَّنْت منه المَشَوّه واعتذر بايجاده عن إساءته فما موّه. فالحمد الله الذي

جعلك لعَصْرنا غرّة وعلامة، وأبداك بخدّ زماننا المورّد بفضلك خالاً وشامة. فلقد أنسيت من جملة العلماء من مَرْ، وفَرّقت عُصَبَ الأدباء وقد هززت عليهم من قلمك الرمح الأسمر. وقد طارت بي إليك الأشواق، حتى شابهت في الهيام بخلالك ذوات الأطواق.

وما زلت أتمنى مثولي بين يديك، وأقترح على زماني الوصول إليك، لأحظى منك بما حظيت به من كلماتك التي سَمعتها. وآدابك التي حرصت عليها فَجَمْعتها، ولَمّا وعدني الدَّهر بذلك وعداً بعيداً، رأيت أن أستعجل من محاورتك عقداً فريداً، فحَرَّرت إليك هذه الأبيات رغبةً في الجواب. ونَظَمْتها وأنا أعلم أنها ليست بكفء لكَ في الخطاب. لكن لم أملك نفسي عند تهافتها إلى جنابك، ولم أستطع دفع شَوْقها الكلّي إلى رجوع جوابك. فأسبل على الابتداء مني ذيل الستر؛ لأنك أهله، وأسعفني إلى ما اقترحه عليك خاطري. وقد أطغاه جهله، والله تعالى يطيل لك في الأجل. ويؤمّنك كل سبب يوصل إلى الوجل، ويقيك كل محذور بقدرته عزّ وجلّ، والسلام.

فأجبته من النثر والنظم بقولي:

أحيا المحب من الصبا أنفاسها ... فارتاح قَلْبي قبل دَارَتِ كاسها
قد مال عِطْفاً والغصُون مسرّة ... أبدى الترنح في الربى مَيَّاسها
أهدت سلاماً عاطراً من ظَبْية ... وَخشية تَنْفيرها إيناسها
بأبي وبي أفدي محاسنها وإن ... نَفَرَتْ دلالاً واستطال شماسها
فحشاي مرعاها ودَمْعي وِردها ... وجوانحي لا كالظّباء كناسها
نظمت لآلىء حليها في جِيْدها ... فكأنها من أدمعي رَجّاسها
للثّغر تنضيد السّلوس بسالف ... منها إذا ماست ولي وِسْواسها
فكأن إبراهيم قلّدها له ... نفثات نَظْم زان دراً ماسها
فله من الألفاظ درّ زينت ... عرسٌ به لما دنا إعراسها
أخلاقه زَهْرية يفتَرّ من ... ثَغر الحدائق في الشتاء عَبَّاسها

مـن آل جـحـاف أكـارم عَـصْـرهـم | أصـل الـريـاسـة فـي الـورى وأسـاسـهـا
نـيـل الـعـطـايـا فـي الأصـابـع مـنـهـم | تَـجْـري فـمـا مِـصْـر ومـا مِـقْـيـاسـهـا
قـومٌ إذا رَقَـمُـوا الـطّـروس تـبـلَّـجـت | شُـهـب الـحـروف ولَـيْـلـهـا أنـفـاسـهـا
كـم قـد رمـوا غَـرَضـاً بـحـسـن كـنـايـة | حـتـى تَـقَـرْطـس عـنـدهـم قِـرْطـاسـهـا
ألـفـات خَـطِّـهِـمُ مَـعَ نـونـاتـه | هٰـذى الـسّـهـام تـرى وذي أقـواسـهـا
سبقـت إلـى الـعـلـيـا بـهـم فـي حَـلْـبـة | لـلـفَـضْـل دون ذوي الـعـلـى أفـراسـهـا
يـا مـن إذا ذكـر الـسّـراة فـإنـه | لا غـيـر ذلـك صَـدْرهـا أو رأسـهـا
قـد جـاءنـي مـنـك الـقـريـض كـروضـة | دَلّـى الـثّـمـار عـلـى الـرؤوس غـراسـهـا
فـخـذ الـجـواب وإن غُـبِـنـتَ تـجـاوزاً | فَـضْـلاً فـأيـن مـن الـنُّـصـوص قـيـاسـهـا
واسـلـم ودُمْ مـا حَـفّ وسـط حـديـقـة | بـالـوَرْد مـطـلـولاً نـضـيـراً آسـهـا(١)

زَفَفْت إليّ المليحة في طاسها، وَوَجّهتها إلى مقامي في الرِّداء المفوّف من قِرْطاسها. فسارت في طريقها والنجوم قدّامها مشاعل وشموع تَتَّقد، وعليها من الإكليل، وشاحٌ فوق رأسها من الثريا تاج قَدْ عُقد. فدُهِشْت عند لقائه، وما أحقَّني بالدَّهش، وكم من فتى جميل قام إلى وجهها معظّماً وهش. حسِبْتُ أنها الشمس إليَّ زفت، وبالدَّراري المشتعلة من جميع جوانبها قد حُفّت. فإن كان قصدك سلب حجاي فقد سُلب. وإن كان طَمَعك في خَلْب لبي فقد خُلِب، فمهلاً حرسك الله مهلاً، فقد جَرَّعتني شراب الهيام مُهْلا، إلا أنّ حجاي قد فقد، وما كنت أظن ولا أعتقد، بأن الراسخ من وقاري يطيش، وأن المُغْرم إذا نظر إلى ما أبرزته يعيش. فكيف تطمع مني في ردّ الجواب، وتريد أني في محاورتك أجانب الخطأ وأصيب الصّواب.

وقد تبلّدّت هياماً وتلددت وجداً وغراماً، وثملت سكراً، وجئت شيئاً نكراً، واكتضضت منها بكراً، فما أدري هل أنا التقطت الدَّراري من تحت ليل المداد؟ أم

---

(١) في (ب) اسلسها.

انتقيت الدّرر المنتظمة من تليع الأجياد؟ أم فضضت الخِتام عن مدامه؟ أم سمعت نَغَمات الوتر أو تَغْريدِ الحمامة؟ لا والله ما للدّراري هذا التلالىء. ولا الدرر رواء تلك اللآلىء، ولا للمدامة ذلك الإسكار، ولا للحمامة ذلك الإطراب ولا الأوتار.

هيهات أين الثيبات من الأبكار، وأين السَّموم من نسيم صَبَا تنفست في الإبكار، وعلى الجملة أنها قصيدة، وليست كسائر القصائد، وكل بيت منها يشتمل على كذا وكذا غزال وأنا الصَّائد، إلا أنها استبدَّت كل ظبية منها بمحاسن فلا دريت أيّها أصيد، واستقل كل جيده منها بحبّ من كبار اللؤلؤ لا بحب الحصيد. وبسط كل غزال منها قوائمه إذا بسط كلب أهل الكهف ذراعيه بالوصيد[١]. قابلت ما جاء منك بالإجلال. وقلت للغواني الحسان: وأنتنّ قابلن بالصَّغار والإذلال، وتخَيّرت من تلك الكلمات قلائد لكنّ وذخراً، وإن كانت تلك النفثات كلها مما ينتقى فما هذه الدّرة بأحسن من الأخرى. فالله تعالى يصون محاسنك أيها المحاور، ويلبس الليالي من لآلىء منظومك ومنثورك أحجالاً وأساور.

قلت: جوابي هذا عن كلال بال. من زمان يَتَلَّقى الفاضل ولا يبالي بالوبال. ليته تلقَّاه بما تلَقَّى به النَّاقص، وليته عَرَف المبهرج المغشوش من الخَالص، شيمة الدَّهر هذه وبئس الشِّيمة. يتهدَّد من أغاضه بالمعالي وهو في المَشِيْمة، فما ظَنّك بعد كمال أوصافه. تالله ما يلقاه إلا بِعَدَم ما يجب له من إنصافه، ولو عَرَفَ نَهْج الإصابة، وحسم مادة أوجاع مهجةٍ منه مصابة. لتحقق أنه له زينة وجمال. فجمال العَصْر ذَوُوْه من أهل الكمال. نَفْثه مصدور عَرَضَت، طوّلت في الشَّكوى من الزّمن وعَرَّضَتْ. والسّلام الطيب على حضرتك، والله تعالى يمتّعنا من حدائقك بزهرك وخضرتك. حدائق لا تَقْفهر لفَضْل الشتا، ولا يُشيب لها من النَّبات مخضرّ العارض الفتى، لا سبيل عليها للإمحال، ولا تحول نَضَارتها سَوَاء اسْتَمَرَّ حال غيرها أم حال، يسقيها النَّهر المطّرد، ويشبّبُ لها الطَّير الغرد.

---

(١) في الأصل: الوسيط.

السيد الحسين بن محمد شعبان الجحّافي[1] الحبوري

أما السيادة فهي عليه مقصورة. وأما الفضائل فهي عنده غير محصورة، وأما المعالي فقد جليت له في أجمل صوره. أقسم بالليل من مداده إذا عسعس، وبالصّبح من قرطاسه بالعَرْف الطيّب إذا تنفّس. أنّه عندي أوحد الأفاضل خصالاً، وأنفذ من سدّد قوسه إلى العلياء نصالا.

أقلامه تَنْسَاب خلال السّطور، كما انساب حول الحدائق المونقة النهور، امتلأ غديره وطما، فنقع الأفئدة المُلْتهبة على ظما، وتفَتّحت من روضه الفنون، فابتهجت لمَنْظره اللطيف العيون. ازداد بالأدب ولوعه، وباينه في تَحْصيله هُجُوعه، فسمع مِنْه السّامع ما يحال وقوعه، صَفَت له منه مشاربه، واتّسعت في أوديته مساربه، فبَنَات أفكاره قاصرات الطّرف، وأتراب وقينات أشعاره مما تهزّ قدود الأغصان الأطراب، مع ذهن من الخصور أدق، ونقد أنفذ من سهام الحدق.

وهو الآن في حبور، يوليه الأدب أتمّ حبور، يتمايل في حلل لطائفه، ويتلفّع من الشّعر برقيق قطائفه. يتمّسك منه برياح النّعامى، ويشمّ من حدائقه الورد بين الخزامى. إن نظم فما الثغور والعقود، وإن نثر فماطَلّ العرق على ورد الخدود، وإن أملى شعراً، فبحر لا يُدْرك خائضه له قعراً. فتح من اللطائف البديعية الباب، وسَلَب بها من ذوي الحجى الراجحة ألباب، مع خط كالعذار المسلسل، قد أرسل ذوائبه السود فيما أرسل، فازدادت به سوالف القِرْطاس حسناً، واكتحلت بإثمد مداده رُبّ عَيْن وَسْنا. ورث الخط الجحّافي لا عن كلال. وصاد شباك السّبج منه رُبّ غزال، ضمّ إلى در ألفاظه سبج الحبر، وأجرى على فضّه الدفاتر عَيْن التبر، فخَطّه نفيس وشِعْره أنفس، ونفسه أطيب من نسيم الصبا إذا تنفس.

فكم له من كاسات مقطعات عليها من الحَبَاب فواقع، وكم له من غادات كلماتٍ عِليها من أسود المِداد بَرَاقع، من ذلك قوله:

---

(١) نسمة السحر ٢: ٥٧ نشر العرف ١: ٦٢٣.

بـــالله يـــا بَـــدْري هـــذا الـــجـــفـــا أنـــت مُـــجـــدّ فـــيـــه أم مـــاجـــن
غـــدوت لا تـــنـــطـــق بـــاســـمـــي قِـــلاً كـــأنـــمـــا اســـمـــي أَلِـــفٌ ســـاكـــن

قلت: نعم نص العلماء رضي الله تعالى عنهم، وهو المحسوس، بأن الابتداء، أي: الشروع في التلفظ بالألف الساكنة مستثقلة، لا يمكن لسكونها فلا بد من وصلةٍ إلى النطق بها. والوصلة هي اللاَّم المتحركة، وصاحب الترجمة لم يذكر أن الابتداء في النطق بالألف الساكنة لا يمكن. بل قال: غدوت لا تنطق باسمي، ولم ينبّه على الابتداء كما ترى.

وقد نظمت أنا هذا المعنى الذي قصده فاحترست عَمَّا نَبَّهنا عليه في نظمه من العيب، وزِدْته حسناً باستعمال الألف في قدّ المحبوب؛ لأنه يشبّه به فقلت:

مـــا زال قـــدّ الـــحِـــبّ فـــي مـــهـــجـــتـــي حـــبّـــاً ووجـــداً وهـــوى يَـــسْـــكـــن
بـــه بـــدأت الـــوَصْـــف والابـــتـــدا بـــالألـــف الـــسَّـــاكـــن لا يُـــمْـــكـــن

وأيضاً فالابتداء بالحرف الساكن ألفاً كان أو غيره لا يمكن، فهو متعذِّر. وقال ابن جنّي: بل هو متعَسّر، وما ذاك إلا أنه يتعذّر الابتداء به كما أنه يوقف في التلَفّظ على حرف ساكن أو شِبْهه لا لتعذّره بل إنما جعل الوَقْف على الحرف الساكن للاستحسان؛ لأن ختم الكلام وانقطاعه عما بَعْده يناسبه التخفيف والاستراحة والسكون أو شبهه أخفّ من التَّحْريك.

وما أحسن قول سراج الدين عمر بن الوراق رحمه الله تعالى(١):

يـــا ســـاكـــنـــاً قـــلـــبـــي ذكـــرتـــك قـــبـــلـــه أرأيـــت قَـــبْـــلـــي مـــن بَـــدَا بـــالـــسَّـــاكـــن

وقلت أنا:

ســـكـــن الـــفـــؤاد لـــذا ابـــتـــدأت بـــذكـــره فـــي وَصْـــف أهـــل مـــلاحـــة ومـــحـــاســـن
فـــمـــن الـــعـــجـــيـــب بِـــأنـــنـــي فـــي مَـــنْـــطـــقـــي لا بـــالـــتُّـــوصـــل ابـــتـــدى بـــالـــسَّـــاكـــن

---

(١) ورد في معاهد التنصيص للعباسي:

وقلت أيضاً:

أخْرت محبوبي ذِكْراً معا ... ذكري لغِيْد كلّها تَفْتن
مع أنه قد سَكن القلب إذ ... غدا سواه قط لا يَسْكن
فقلت إذ عاتَبْتني الابتدا ... في النطق: بالسَّاكن لا يمكن

وقال صاحب الترجمة:

أفدي الذي قد زارني في ليلة ... فأقرّ عيناً من لقاه ومسمعاً
لكنّها قَصرت عليّ لوصله ... فكأنه وَصَبَاحها طلَعَا مَعَا

وقال:

ولم أنس إذ مَنَّت عليّ بزوره ... أراحت فؤادي من صدود ومن بَيْن
فعانَقْتها حتَّى وها درّ عقدها ... فقالت: لخير ليت ذا الأمر أم حين
فقلت لها: هذا نثار مع اللُّقا ... وفي ساعة التَّوديع أقضيك من عَيْني

أقول: هذا المعنى ألطف من تتابع نَفَسَ الصَّبا، وأرق من مَشْيها على فراش الزهور في الربا، فراش نبات طرّز بتلوّن المنثور، وحُشيَ بالقَطيفة الخَضْراء من أوراق الدوح وسُجِّف بالأزرق من النّهور.

وقد تناوبه من أهل العصر ذوي الأدب، وتعاوره أرباب الحَسَب، فهو معنى متداول وثمره الطيب من أكمام الزهور متناول، إلا أن هذا الأديب تصَرَّف فيه تصرف الصَّائغ في الذَّهب. وأتى بشيء منه لا يكاد يُقْضى عنده العجب، يريح الفؤاد من صدود ومن بَيْن، ويهي[1] عنده عقد الدرّ المفصّل بخالص العين. تقول معادن الذَّهب: بهذا النَّظم يظهر شيني؛ لأنه فاق على كل شيء حسن، فإذا قيل لي فضّليه قلت: على عيني.

وسنورد له في هذا البحث أشباهاً ونظائر. واستطرد ما يكون التطويل فيه غير ضائر.

---

(١) يهي: من وهى: العقد انفرط رباطه.

قال الشيخ يحيى الخباز الحموي رحمه الله تعالى[1]:

قال عذولي والقوم قد رحلوا ... وقَصْده في مقاله حيني
أطلق دموعاً ما زلت تحبسها ... وطلّق النوم قُلْت من عيني

وقال إمام الأدب الشيخ جمال الدين بن محمد بن نباتة المصري رحمه الله تعالى[2]:

أفديه لدن القوام منعطفاً ... يسل من مقلتيه سَيْفين
وهَبْت صَبْري له فقال: عَسَى ... نومك أيضاً فقلت: من عيني

وقال أيضاً في مدح مصر المحروس[3]:

وفدّى لها من بلده كم نَثْرة ... فيها لأسراب الدموع أقاسي
وطن سهرت له وشابت لمّتي ... ونعم على عينيَّ ذاك[4] وراسي

وقال ابن أبي حجلة في شاذروان[5]:

وشاذروان ماء بات يجري ... كعين الصبّ رُوِّع يوم بين
إذا ما قيل جد بالما سريعاً ... يقول: نعم على راسي وعيني

وقال الشيخ شرف الدين عيسى العالية[6] في فروته[7]:

قالت لي الفروة: قم دَفِّني ... حتى أدفِّيك بحر دَينِ[8]

---

(١) خزانة الأدب ٣: ٤٥٣ ط كوكب دياب.
(٢) ديوانه: ٥٣٣ وخزانة الأدب ٣: ٣٣٧.
(٣) ديوان ابن نباتة: ٢٦٥.
(٤) الديوان: هواه.
(٥) البيتان في مطالع البدور للعزولي ١: ٣٩.
(٦) هو عويس (عيسى) بن حجاج الملقب بعيسى العالية (خزانة الأدب ٥: ٢٥٢) (الأعلام: ٥: ١٠٢).
(٧) خزانة الأدب ٣: ٤٧٩.
(٨) خزانة الأدب: بقلبين.

قلت لها: بالله ما تشتهي قالت غِشا قلت: على عيني

وقال الشاب الظريف محمد بن العفيف[1]:

حملت تسهّدي والشيب هذا على رأسي وذاك على عيوني

وقال مجد الدين بن مكانس:

يا من له شَعَر الهنود ومقلة الأ تراك ته يا مجمع الأجناس

إن تهدلي سهداً وشيباً أنني أرضى على عينيَّ ذاك وراسي

وقال صلاح الدين الصفدي[2]:

لقد شبّ جمر القلب من فيض عبرتي كما أن رأسي شاب من موقف البين

فإن كنت ترضى لي مشِيْبَيَ والبكا تلقّيت ما ترضاه بالرأس والعين

ونقلت من خط الشيخ شمس الدين محمد بن الحسن بن علي النّواجي الشافعي المصري رحمه الله تعالى له في ديوانه. قوله:

شغفت به رشيق القدّ ألمى فعذبني بهجران وبين

وقال: احمل مشيباً مع سهاد فقلت له: عَلَى رأسي وعيني

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي:

أكابد اللّيل في دَمْعٍ وفي أرقٍ وكلّ ذلك ألقاه بأجفاني

وقال تقي الدين بن حجة برأس العين وهو محل ببعلبك[3]:

ولما نزلنا بَعْلَبَكَّ تفكّهت عيوني وأذواقي وصلت على البين

وطالَبْتها يوماً برؤية مَرْجها وخضرته قالت: على الرأس والعين

وقال هو أيضاً[4]:

---

(١) ديوان الشاب الظريف: ٣٣٦ ط دار الكتاب العربي.

(٢) خزانة الأدب ٣: ٣٦٨.

(٣) خزانة الأدب ٣: ٥١١.

(٤) خزانة الأدب ٣: ١٤٥.

وفـوق طـرس مـشـيـبـي أرْخـو تـلـفـي وذلـك الـطِّـرس فـوق الـرأس مَـحْـمُـول

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة أيضاً:

مَـهْـمـا بـعـثـت جـوى وفـيـض مـدامـع فـعـلـى حـشـاي ومـقـلـتـي مـحـمـول

وقال أيضاً[1]:

يـا بـاعـثـيـن سـهـاداً لـي وفـيـض بـكـا مَـهْـمَـا بعَـثْـتم علـى العَـيْـنين محمول

ضمنه القاضي الغزولي مؤلف كتاب مؤلف البدور[2] رحمه الله تعالى، فقال:

إلى الـحـمى نـسـمات الـصبح إذ بعثت بـه نَـدَى ذيـل ثـوب الـدهـر مَـبْـلـول

قـالـت نـراجـسـه مـذ حَـدَّقـت ورنـت مـهـمـا بـعـثـتم علـى الـعـيـنين مـحـمـول

وضمنه أيضاً المولى الأمير الحسين بن عبد القادر، فقال:

كـم مـن كـتـاب عـذول قـد رمـيـت بـه نَـهَـزي شـبـام فـإنـي عـنـه مـشـغـول

فـقـل لـمـن بـعـثـوا فـي عَـتْـبـنـا كـتـبـاً مـهـمـا بعـثـتم علـى العـيـنين مـحـمـول

قلت: كُتُب العواذل مِمَّا لا يحمل على العينين اللتين أراد التَّورية بهما، وهما الجارحتان من الإنسان؛ لأن في ذلك غاية التَّعظيم لشأنهم، والرفع لمكانهم. وهو خلاف مقصوده، واللائق إطّراح كتبهم وعدم الالتفات إليها كما دَلَّ عليه قوله في النَّظم (من كتاب عذول قد رميت به) ففي النظم عيبٌ ظاهرٌ بمناقضة معناه، مع قَصْد التورية في العَيْنين بعيني الماء بالعينين المبصرتين من الإنسان، وأن تكون التَّورية غير مقصودة بعيني الإنسان. ولم يقصد غير عيني الماء، فلا عيب في التضمين، لكنه بلا ريب قصد التورية رحمه الله تعالى، فالعيب في النظم مما لا شك فيه[3].

---

(١) ديوان ابن نباتة: ٣٧٢.

(٢) يعني كتاب مطالع البدور سبق ذكره.

(٣) علق في هامش (ش) لا عيب في النظم والتورية واضحة فالمقصود التهكم هكذا حفظته من مولانا العلامة عيسى بن محمد بن الحسين رحمه الله كتبه ولده عبد الله ثم علق أحدهم: الحق أن نقد المؤلف في محله ولا يخفى على من له أدنى معرفة بالأدب اهـ.

وقال السيد عبد الله بن علي الوزير المتقدم ذكره من أهل العصر[1]. وذلك في منتزه حَدَّة المحروس، ونَهْرها المطرد المأنوس، المسمّى بخُميس الذي هو على الحقيقة سيل وإن كان قلبه ليس[2]. لا زال على رأسه متكسّراً، ولا برح الطير في الدوح متندماً من تَكَسّره متحسّراً:

ويوم نزلت حدّة أكرمتني ... وَخَلَّت بين من أهوى وبيني
وقلت لها قصدتك من أزال ... فأين أقيم قالت: فوق عيني

وقال الحكيم شعبان بن سليم وقد استدعى منه بعض الوزراء مرآة أنِفَة:

رسولكم وافى لمنظرتي التي ... على رغم أنفي توضح الأمر في الحين
أطعت امتثالاً أمركم وبعَثْتها ... وقلت: خذوها للوزير من العين

وقال الفقيه يوسف بن علي بن الهادي المتقدم ذكره[3] رحمه الله تعالى:

لله روض قد نزلنا به ... يُذهب ما بالقلب من رين
إن قلت للنَّهر إتني واسقني ... قال: على رأسي ومن عيني

وقلت أنا: وفيه أربعة مقاصد من التورية مع اللف والنشر المرتب:

لما تمنّت لنا حلياً وشربة ما ... وأدمعي وضياء جَلَّ عن شين
قال النّضار وقال النّهر حين جرى ... وقلت: والشمس قالت: ذاك من عينِ

وقلت:

لقد سألتني أن أصوغ حُلاً زهت ... لِجِيْد إذا نصّته أدنت به حيني
فقال النّضار الطَّلق وهو مموّه ... ببوطته قبل الإجابة: من عيني

وقلت:

قال النسيم لدوح في الرياض ذَوَى ... ونَرْجس فيه قد صِيْنا عن الشَّين

---

(١) سبقت ترجمته في الجزء الأول: ٣٩٥.
(٢) ليس: شجاع. وهنا يقصد مقلوب سيل (ليس).
(٣) ديوانه (مخطوط) ١٨١.

إلى البشارة هذا الغيث متّصلاً إليكما قد أتى من بعد ذا البين
فقال ذاك على رأسي وقال لها هذا وقد ظل مسروراً على عيني

وقال حيدر آغا العصري المتقدم ذكره[1] في كوفية:

كوفيةٌ أعجم أتراكها بِصِنْعة العُرْب من النَّاس
قلت لمحبوبي وقد ضَمَّها ضع هذه قال: على راسي

وقد سنح هنا ما قلته أنا ولم يخرج عن الإلمام الذي قُصِدَ في هذا الموضع، وهو:

أرى كِفَلاً للحب كالدّعص وافراً لحبّيه شاب الرأس من حرّ أنفاسي
رسى تحت خصر مثل جسمي فإن تروا مشيباً عراني اليوم فهو على رأسي

وقلت أيضاً مضمناً:

هِمْتِ بعَيْنيه وردفٌ له رسا فأغوى جملة الناس
فإن يقل خلّي عَلاَم الهوى قلت على العينين والراسِ

أقول: جَمَحَ القلم في الإيراد، وطال من جَواده في هذا المَيْدان الطِّراد. لكن من حق الأدب أن لا يُثْني عنان الإطلاق من كَثَب. والأدب فنون والحديث ذو شجون. والهِيَام في أودية الشِّعر شعبةٌ من الجنون، والشيء بالشيء يذكر فغير بدع ذلك ولا مستنكر. ما كان ذلك إلا ليعلم الواقف على هذ الذّخائر، ما منّ الله تعالى به علينا، من الظفر بنفائس ساقها وله المنّة إلينا.

فقد عَثَرْنا من الأدب على كنوز عليها غيرنا لَمْ يعثر. ونَثَرْنا منها على وجه القِرْطاس جواهر سوانا لها لم ينثر. لك الحَمْد ياوهّاب يا مانح، أعن على صيد مثل هذه السّوانح، أنت المعين، على نيل مَقْصد هو المشرب المَعِين.

---

(١) سبق ذكره في ج ١: ٦٣٨.

السيد الحسن بن محمد بن صلاح الجحّافي(١)

بَدْر طلع في سَماء المَجْد، وعَمّ نوره أقطار تهامة ونجد. ظهر واستبان وَسَرى بحديثه الرُّكبان، حَمَل رمح قلمه وجرّه، وَوَرَد بسلّم همّته نهر المجرّة.

له حياض مروة عَذْبٌ وردها، ورياض مكارم تَفَتَّح وَرْدها، من نسل قوم فصحاء، ما شرب خمرة أدبهم ذو ذوق فصحا، من آل جحاف الصدور. الطالعين في سماء الوزارة طلوع الشموس والبدور، الذين لهم درر نفثات مَنسوقة. لا تَصْدر إلاّ من الأعيان، فلا تصدر من سُوْقه، فكم اصفرَّ الذهب عند نفثاتهم وَجَلاً. لما أبدى قرطاسها عقود غادة كلماتهم وجلا، واستتر الدّر في ظلمات اللّجج خَجِلاً، خلب كلامهم السّامع، وأجرى نَسيبهم على وَجَنَات الورد من الطل المدامع.

وقد جَرَى هذا الفَاضل مَجْراهم، وسَرَى لنيل المحامد مَسْراهم، حتى في الخط الذي يباهي العذار، ويَعْتذر عن إبداء رَقْمه عنده أبلغ الاعتذار. ويسيل على الخدود من الحيا، ويَلْتوي التواء العقرب من العيا، فسيناته طرر، ودويّه لمسك مداده سرر. فللّهِ قلمه وما زَخْرف، لقد أقامه كالأسمر لما حرّف، وأَثّر في الطرس ما أَثّره النقش في الكفّ المترف.

وله منثور يعبّر عن الثّغور اللؤلؤية الباسمة. ومنثورٌ يعرب بمنظره ونشره عن منثور الرياض الناسمة. كتب إلى السّيد يحيى بن إبراهيم ملغزا، ولردن المحاورة والمذاكرة مطرّزاً، من النظم والنثر قوله:

يـا عـمـاد الـديـن يـا مـن	صـار فـي الـنّـاس مِـثـالا
وحـوى رأيـاً وعـلـمـاً	واطـلاعـاً وكـمـالا
لا يـجـاري فـي فـنـون	صـانـه الله تـعـالـى
هـاك لـغـزاً مـن مـحـبٍّ	صـادق الـلـفـظ مـقـالا
اقـبـلـوا قـولـي فـقَـلْـبـي	مـغـرم يـشـكـو الـنّـصـالا

---

(١) توفي سنة ١١١٦هـ، نشر العرف ١: ٥٠٢.

عـنـد هـيـفـاء كـبَـدْرٍ فـاقـت الـحـور جَـمَـالا
إن تَـثَـنَّـت فـكـذا الـبـانـة لـيـنـاً واعـتـدالاً
طـرفـهـا الـفَـتَّـان أضـحـى سـحـره سـحـراً حـلالاً
ارفـقـي وارثـي لـصَـبٍّ دَمْـعـه فـي الـخـد سـالا
ارشـفـيـه فـي الـثـنـايـا إن تـفـضَّـلـت زلالا
كـنـظـام مـن عـمـاد الـدين أسـنـى الـخـلـق حـالا
دام مـا الـغـصـن بـروض وارف الأوراق مـالا

وكتب من المنثور بعده ما صورته: ما اسم ثلاثي إذا حذفت حرفاً منه صار من أسماء الأرض بلا ريب، وإن قلبت طرفيه صار من أسماء عالم الغيب، وإن عكست ثُلثيه صار من السباع الضَّواري. ومحله ما تجرى عليه المنشآت الجواري. هو مرفوعٌ ولا يزال مجرور، وشأنه الحركة وليس فيها قصور، فأعجب من تناقض الأشياء. وعسى أن تجلى هذه العميا. والسلام.

أقول: لعل هذا الإلغاز في (بحر) لأنه ثلاثي الحروف إذا حذف منه حرفٌ واحدٌ وهي الباء بقي حرّ بضم الحاء وحرّ الرمل وحر الدار وسطهما. فهو اسم من أسماء الأرض الذي قال: إذا حذفت حرفاً منه صار من أسماء الأرض بلا ريب. والمراد بالحرف المحذوف الباء، ويمكن أنه أراد بالحرف المحذوف الحاء وبعد حذفها يبقى بر، والبر من أسماء الأرض ضد البحر.

وقوله: بأنه إذا قلب طرفيه صار من أسماء عالم الغيب جلّ وعلا وطرفاه مقلوباً الراء والباء فهو رب. وقوله: بأنه إذا عكس ثلثيه صار من السباع الضواري وثلثاه مع العكس رح لا يتمشّيا على قوله هذا إلاَّ أن يكون أراد الوعل. ولكنه يقال له: أرح بزيادة الألف في أوّله وهو الوعل المنبسط الظّلف.

قال الأعشى:

فـلـو أن عـزّ الـنَّـاس فـي رأس صـخـرة مـلـمـلـمـة تـعـيـي الأرح الـمـخَـدَّمـا

لأعطاك رَبّ العرش مِفْتاح بابها ولو لم يكن باب لأعطاك سُلَّما

والمعنى أن عزّ الناس لو كان في رأس صخرة ململمة أي مجتمعة مدورة ملساء لا يمكن صعودها حتى إنها تعيي الأرح المخدما بالخاء المعجمة والدال المهملة. وهو الذي عند رسغه من الأوعال بياض في سواد أو سوادٌ في بياض من الخدمة، بضم الخاء وسكون الدال، وذلك لأنّ الأوعال معرووفة بارتقاء الشوامخ من الجبال، ولا تسكن إلا فيه. قال الشاعر[1]:

إن الفرزدق صخرةٌ عادية طالت فليس تنالها الأوعالا

معناه: فلو كان عِزُّ الناس في رأس صَخْرة بهذه الكيفية حتى أَعْيت الأرح المخدّم في ارتقائها وسكونه بها لأعطاك الله تعالى مِفْتاحه، أولم يكن لها باب أبداً لأعطاك الله تعالى سُلَّماً بالغاً ترتقي على درجاته إلى رأس تلك الصخرة.

وكان الأولى بصاحب الترجمة أن يقول: وإن عكست ثلثيه وزدت في أوّله ألفاً صار من السباع الضَواري. وأما بقية الألفاظ في الإلغاز فهي ظاهره المعنى كما ترى. ومعنى قوله: مرفوع ولا يزال مجروراً، ففيه تكلف وبعد عن الأذهان، ولعله أراد بقوله: مرفوع إما أن يكون قصده أنه مرفوع على الابتداء في قولك مثلاً: بحرٌ مالحٌ، أو أنه مرفوع على الفاعلية في قولك مثلاً: ماج بحرٌ واضطرب بحرٌ ونحو ذلك. أو يكون قصد بالارتفاع ارتفاع أمواجه.

وأما قوله: مجرور، فهو سَيْر البحر وانجراره مع الرياح كانجرار النهر في سواقيه ومجاريه، والله أعلم.

نعم، كان يمكن صاحب التَّرجمة الزيادة في هذا الإلغاز بأن يقول: وإذا حذفت وسطه كان طرفاه اسماً لضده. وإذا صحّفت أول حرّف منه، فهو شيء يتقلّد من نتائج الملغز فيه بمنظوم عقده. وإذا تَصَحَّف وسطه كان سمة للأصل والحسب الذي سما. ومتى جعلت أول حروفه له ختاماً فهو اسم ليوم تراق فيه

---

(١) هو الرباح بن سبيح ذكره في الحماسة البصرية.

الدما وإذا قلبت ثلثيه في الهجاء، فهو شيء يزيد المهج وهجاً. انتهت لزيادة منا في هذا الإلغاز.

ذكرت هنا إلغاز لي في البحر[1] أيضاً كنت زَاوَجْت بين فِقَره نَثْراً أيام الشبيبة، وهو مما اشتمل عليه كتابنا المسمى (عطر نسيم الصَّبا) الذي فصّلناه ثلاثين فصلاً على طريقة الشيخ الأديب الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب الحلبي رحمه الله تعالى في كتابه المسمى «نسيم الصبا»[2] وذلك في الفصل السابع والعشرين، الذي هو فصل الإلغاز، وهو ما صورته:

أيها البحر الزاخر، والنجم الزاهر، والجواد السابق، والمورد الرائق. أبِنْ لي بانت عنك الشّرور، وزارك الفرح والسرور: ما اسم شيء أتى ذكره في القرآن، وامتدحت بأوصافه الأقران. ثلاثي الحروف، وما النون معدودة[3] منها في الإجمال. على أن نونه لا تفارقه بحال. ينتج فيطلق مع وجوده على ما أنتج لفظ اليتيم. تهابه أسد الشرى على أنه يرتاع من النَّسيم، يحلي غيره مع أن مذاقه غير مستعذب. وإذا حدث عنه بالعجائب[4] قيل: لا عجب يتقلّد تصحيفه بإنعامه الذي طاب ذكراً، ويفتقر إلى ما عنده قيصر وكسرى، قلبه رحبٌ وصدره وسيع، وجرمه لطيف وسيره سريع، إن مشت على ظهره الحرائر أهلكها، وإن مشت فوقه الجواري فعلى رأسه يجعل مسلكها، تمر عليه الصروف مدى الأزمان. ولكن لا تمسه لطروقها الأحزان. هذا ولا زلت متنزهاً في حدائق أمانيك، نائلاً من الدهر ما يرغم به شانيك.

---

(١) سبق ذكره في الجزء الأول: ٤٩٨.

(٢) عطر نسيم الصبا: ٢٠١ ط الدار اليمنية.

(٣) عطر نسيم الصبا (معاودة).

(٤) العطر «الخوارق».

الفقيه يحيى بن موسى الحبوري[1]

أديبٌ من حبور[2]. هَبّت نسيمه صبا لا دبور، خفيفٌ على الروح، تَنْجَبر بحديثه القروح، ما سمعت من حديثه أعذب، ولا شممت من ريح محاورته أطيب. كان يَمْدح والدي ويَسْتجديه، ويَسْتعينه على حاجته ويستَغْدِيه، وعذاره كخطه أسود، وسعده غير سلس المقود.

أخبرني بأنه مدح ملك المنصورة[3] وأبرز له خريدة قصيدته في أبدع صورة، فلما أكمل إنشادها أمره في المقام بتشبيه قلعة الدملوة التي شادها، فقال مرتجلاً، وأنشد في الحال خَجلاً، وظنّ أن ذلك الاقتراح له إلى ارتقاء آماله سلم، ولم يدر أن يكلم بما به تَكَلَّم:

كأنما القلعة هذي التي ... طالت وقد قِيل لها الدملوة
حسناء تزهو عن دلال بها ... إذ علقت في جيدها اللؤلؤة

قال: فَصَكّني الملك صَكَّة غضب، ووثب وَثْبة أسد لا وثبة ضَبْ، وأزال عمامتي عن رأسي، وتَقَلْقَل منه جبل راسخٌ رأسي، فخرجت من مقامه مكشوف الرأس، وأملي عند ذلك الجاري ذاوي الغراس، وما علمت لذلك الغضب سبباً في الظاهر، وإنما سألت خارج الباب الخبير الماهر، فقال لي: إنّ للملك جارية يسميها حسناء ذات وجه جميل ومقلة وسنا. تعدّ عنوان حظاياه، ويعلن منطقه في حبها بقضاياه، فكأنه ظنّ أنك في نظمك عرّضت بها. ولم تكن لهذه النكتة متنبهاً.

قال: فعلمت أن ذلك هو السَّبب لا محالة، وأسفت غاية الأسف على تلك المقالة. ثم أن الملك أمر بزُلاجي على الفور، فانفصلت عنه لا ألتفت على نجدٌ من أرضه ولا غور. فقلت له أنا: وله جارية تسمى دلال، فقولك عن دلال بها

---

(١) نشر العرف ٣: ٣٦٧ ط الدراسات.

(٢) حبور: مدينة جبلية في جنوب جبل شهارة (المقحفى: ٢٤١).

(٣) يعني الإمام المهدي صاحب المواهب سبق.

مما يوهم أيضاً بتعريضك في المقال، فعجب من هذ الاتفاق الجاري في هذه التسميتين على الوفاق.

الفقيه أحمد بن علي السلفي(١)

من بيت مجادة ورياسة، لا يصادف من رجا أهله يأسه، وإنما يظفر بما أَمّلَه، إذا توجه إلى نادي نداهم وأمّ له. بيت تعَلّقت بالفلك أكنافه، وزاحمت النيّرين في منازلها أكتافه. ما برز منهم ماجدٌ إلا قيل: سيدهم هذا. ولا تشأ منهم كريمٌ إلاّ اتخذه المعدم من حاجاته ملاذاً، فهم أماجدٌ صدور، تنافسهم الشموس والبدور، طالما أنيطت بهم الأعمال، فقضت من حسن سِيَرتهم الآمال، يرفقون بالرعيّة، ويسوسون عن فطنه والمعية، مع إسداء وتنويل، وإعطاء للمستجدي وتخويل، وثبوت على الشّيم الجميلة فلا تَحْويل.

وهذا الأديب لعقدهم واسطة، ولقلائدهم المتنظمة رابطة، ضَمّ إلى المجادة والكرم، استمساكه بحبل الأدب الذي اتبرم، ففَصّل التّاج بالفصوص، وضَمّ إلى القياسات النصوص(٢). كملت خصاله، وثقفت نصاله، وعظم على أرباب النقص مصاله. تقول لسان حاله: كل الأتراب خلفي. قد سبقتهم إلى العلا فسل في الأقران عن سلفي. كان يجتمع بنا في خَمِر(٣)، في يوم سعد لا يوم نحس مستمر، وشوكة الدولة قَويّة، وزَهْرتها من ماء الصولة رويّة، وقد طَلَع على ليل الشباب من فضله الصّباح. وخامره اللطف مخامرة خَمْر الصَّبا للصّباح، فتمسك بأذيال نسيمه، وتمَسكت بعاطر من روضه وشميمه، وضحكت في وَجْهي ثغور أزهاره، وقهقهت من البِشر متحدّرات أنهاره. وصدره إذ ذاك من الفضاء أوسع. وهو غير أكمه الأجفان في المروة ولا أرسع(٤). ندي الأسارير، صحيح القوارير،

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) القياس والنّص: من عبارات الأصوليين.

(٣) خمر: مدينة مشهورة من بلاد حاشد شمالي مدينة عمران (المقحفي: ٥٨٠).

(٤) رسعت عينه: التصقت والرسع مساد في الأجفان.

لا يعبس حتى في وجه العدو. قد لبس مِطْرف البِشر في الرواح والغدو، وتلفّع بمطروزه في اليقظة وعند الهدوّ، لا يبرح ذا طلاقة، ولا يوقع وقد عَقَد بحسناء الأخلاق عليها طلاقه. وله في الأدب أهنى مشرب، قد ارتقى منه ما فلك زحل منه أقرب، وقد مدح بَزْعمه الأكابر، وأنطق بالثناء عليهم ألسنه المحابر، أنصف في مدحهم ولم ينصفوه، وخلّدت ذكرهم أنامله وفوه. ومَدْحِ اللئام من الخَوَر، وعين نظرت إليهم رماها الله تعالى بالعَوَر. فما في الزّمان منصف، يقال لمادحه: صف، وشعره كثير، ونظمه للعزم مثير.

ذكر لي أن له مجموعاً من نظمه سماه: «روح النسيم النجدي في مدح الإمام المهدي»، ومجموعاً سماه: «الروض الباسم في مدح الإمام القاسم» ومجموعاً سماه: «الدر المنثور في مدح الإمام المنصور». ونظمه سيف به أقدم وسطا، وشعره يعدّ في الأشعار أمّة وسطاً. قد يلحن فيه ولا كَلَحْن الطير، ويبرز ما ينتقده عليه الغير. أنشدني له قوله:

لا تأمن الدهر الخؤون فطالما ... غَرَّ الورى يوماً وعاد إلى الورى
واغنم من الأيام إقبالاً لها ... فالدّهر أسرع ما يعود القَهْقرى
قم لا عدمتك في الورى متجَرِّداً ... لملام من نبذ العهود مشمِّراً
فبنو الزّمان جميعهم نبذوا الوفا ... وتصَلّفوا بَغْياً كآساد الشرى
إن رمت أشرفهم فأشرفهم غدا ... في القوم أوضعهم كذا قد قدّرا
صور تروعك منظراً وخلائقاً ... أفّ لها وغدت تسوءك مخبراً
غَلِطَ الزمان برفعهم فتَخاله ... متحسِّرا مما جناه مفكِّرا

وقوله:

وبي أحور العينين سَلَّت لحاظه ... لقَتْلي من الأجفان بِيْضاً مواضيا
وراشت من الأهداب للرَّشق أسهماً ... رَمْتني وكم أدركت منها مراميا

وقوله:

أهــدى إلــيَّ مــعــذبــي أتــرجــةً ... يحكي اصفرار أديمها جِسْمي النَّحيل
شَـبَّـهـتـه لـمـا أتـى يـسـعـى بـهـا ... كـالـبدر تَـحْـمـل كفّه شـمـس الأصـيـل

وقوله:

قـمـر الـمـحـابـشة[1] الـذي قـمـر الـنُّـهـى ... بـالـطَّـرف مـنـه فـاتـراً لَـمَّـا رَمَـقْ
عـلـقـت بـبـدر الـديـن مـنـه بـلـيـةٌ ... لـم تـبـق مـنـه مـن الـحـيـاة ولا رمـق

وقوله:

قَـسَـمـاً بـالـقـدّ مـعـتـدلاً ... كـالـقـنـا مـن صـالـح الـفَـرَوي
إنـنـي مـا زلـت أمـنـحـه ... مـن رقـيـق الـشـعـر ألـف روي

وقوله: وقد سار عنه صديق وصحبته غلام جميل يسمى رفيقاً:

سِـرْت بـدر الـهـدى نـحـو مـلـيـك ... لـم يـزل بـالأنـام بـرّاً شـفـيـقـاً
فـأخَـذْتَ الـقـلـوب مـنّـا جـمـيـعـاً ... فـلـك الله صـاحـبـاً ورفـيـقـاً

وقوله:

رشـأ تـفـرّد بـالـمـلاحـة والـمـلـق ... وسـبـا فـؤادي بـالـمـحـاسـن واسـتـرق
لاطـفـتـه وطـمَـعْـت مـنـه بـرَشْـفَـةٍ ... مـن ريـقـه لـمـا سـبـانـي واسـتـرق

وقوله مضمناً:

عـيـون عـن الـسّـحـر الـمـبـيـن تـبـيـن ... لـهـا عـنـد تـكـسـيـر الـجـفـون فـتـون
إذا مـا رأت قـلـبـاً خـلـيـاً مـن الـهـوى ... تـقـول لـه كـن مـغـرمـاً فـيـكـون

وقوله:

ألا كـلّ شـيء حـلّ بـالـحُـرّ هـيّـن ... سـوى رِفْـعـة الأنـذال غـثّ الـمـآزر
فـمـا هـي إلاّ أيّ سـهـم مـسـدّد ... يـكـون بـه والله شَـقّ الـمـرائـر

(١) المحابشة: بفتح الميم والحاء وخفض الباء مدينة وجبل شمالي حجة بنحو سبعين كيلومتر تقع فيما بين حجة وكحلان الشرف (المقحفى: ١٤١٣).

وقوله:

وَمُثَقَّلٍ قد ضاق مجلسنا به ... فمقامنا من أجله سُمّ الخياط
تَتَقَلَّص الأنفاس عند هجومه ... فكأنَّه كانون أقبل أو شباط

السيد إبراهيم بن الحسن بن المؤيد بالله[1]

من حصن شهارة[2]، وممن أَطْلع على ليله الطّويل نهاره، وممن غدا درّه على تاجه، وبزغ نَجْماً مضيئاً في المُنِيف من أبراجه. فهو الحصن الذي يرتقى منه إلى الفلك، فمن توطّنه فلا شَكَّ أنه لجواهر الشهب قد مَلَكْ، ومن حلّ في سمائه العليّة فلا ريب أنه مَلَكْ. تَوَشَّح بالنجوم، واتّزر بالغُيوم، وظهر على سائر البلاد. وطال على عاتقه من الغمامة النّجاد، منبع أئمة بهم يقتدى، وعقوة خلفاء بنجومهم يهتدى.

وهذا الفاضل ممن شرف به ذلك الجبل، وزاد به تطاولاً؛ لأنه نبيل ولمراعاة السجعة أقول نَبَلْ، بدر له من العلياء هالة، ما نظر البَدْر إلى مقامه إلاّ هَالَهْ. رأيته بصنعاء أوّلاً، والدهر رِقٌ لا يسعى في عِتْقَ أو وَلاَ، فرأيت تقياً برّاً تلوح الطاعةُ في غرة له غرّا، كأنها المصباح في الزّجاجة، والمشرفي اللامع في العجاجة، يبسم في وجهه حَبَبُ الكأس، ويتورّد حياء منه خدّ الورد المعذّر بالآس، وقد احتبى في جامعها الكبير؛ كأنه ثَهْلان الشامخ أو ثُبير. سعى إلى حلقات التدريس، وَشَمَّر أذياله للنّزول بِسَفْح المعالي والتَّغْريس. وهو يساقط لآلىء الإفادة من فِيْه، ويعالج عليل الجَهْل من دائه فيُشْفيه، ثم رأيته بكوكبان عند وفوده، قبل أن يحلّ النذير[3] برأسه وفوده. فإذا هو بالسّمات المؤيدية قد ارتدى. وخَبَر جدّه قد عاد بسيرته مبتدا، تقنع بالزّهد، وضمّ إلى زُبَد علمه الشّهد. وهو في العرفان علم، يَسْجد تواضعاً لفوائده القَلَم، أكرم بصفته من صفة، لم نلف معها من الناس مُنْصفه. وله

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) مدينة مشهورة من بلاد الاهنوم شمالي حجة (المقحفى: ٨٨٠).

(٣) يعني الشَّعر الأبيض، على قول بعض المفسرين.

محاضرة ألذّ من الوصل. ما لحدّها في مَنْطِقِه حبسٌ ولا لها عنه فصل. أحسن من نَيْل الوطر، وأبرد من غِبّ المطر.

وعلى الجملة فحسان فضله خُرّد. وأسهم أنظاره ما لها عن نحور الإصابة من رَدْ. حديقته تُنْبت الّشقيق والسوسن، وتبرد من النَّضارة ما يقال عندها: تعالى الله ما أحسن. ما له في الفَضْل شريك، يريك من خصاله المحمود ما يُريك، فالأمهات عن إنتاج مثله عقم. والشَّمال في الأسحار يعروها لحب شمائله سُقْم، ولم يزل مفيداً، وللعلم الشَّريف ولداً حفيداً. حتى نَزَغَ الشَّيطان بين المتوكل وبين إخوته، وأظهر من الصَّارم الذَّكر ما أجنَّه من نَبْوَتِه، وعمد إلى الجَوَاد فرماه بما لا يقال من كَبْوته، فكان من جملة من فر. وطلع بدره في ليل الفتنة وسَفَر، فَخَرَج من صنعاء من جملة من خرج، وارتكب ما ارتكب غيره من المشقة والحرج. وركب على فرس من الشِّقاق أجهدها الدهر بالعرج، فما تَمَّ له ولهم من الأرب نجاح، وكذب عليها الأمل كَذْب سجاح، فمات بأرض ما كان يرضى له الفضل بها يموت. وعقد الحِمَام لسانه المنطلق بالعيّ والصّموت، فقبر في أرض جرز، وضيق لحده فلزّ. وأصبح قبره بين القبور غريباً، وأضحى بعيداً من قبور أهله فلم يكن قريباً، وإذا هو درّة بين الحصا قد ألقيت، وجوهرة ابتذلت تحت الجنادل بعدما انتقيت، وزهرة في المقفهرّ من السباريت[1] ذوت، فما سقيت آنس الله تعالى غريبه، وجعل منزلته منه قريبة.

ولا زالت الرحمة عليه كالغيث تَنْصب، ولا برحت الحُور الحسان تسعى في خدمته فلا تنصب. ما انتفع بعده الطّالب بفوائده، وشبع جائعه المنهوم من ممدود موائده.

وله شعر كمل به علمه، وعرف به عقله وحلمه. منه قوله مورياً في مليح بمحروس مدينة صعدة. قد جرد من طَرْفه صارماً وأمال من قَدّه صَعْدة، وهو مني سهيل وهلال. الذين يعود الطّرف من أنوارهم ذا كلال، استَعْبدوا الحسن فدخل

---

(١) جمع سبروت: أرض قفر لا نبات فيها.

تحت رِقّهم، وخرست الألسن عندهم، فما تدري ما تقول في حقّهم:

يا شادناً شقّ فؤادي لوا ... على أعالي صعدة يخفقُ
ويا هلالي الوفا عطفة ... ويا سهيلاً طلعةً تُشْرقُ

ذكرت بذكر صعدة في هذا النظم ما نظمته أنا في رجل فَرَّ خوفاً من القتل إلى مدينة صعدة المذكورة حرست بآيات الذكر الحكيم.

فقلتُ:

قل لشرِيْد الموت لا بد للمو ... ت أن ينجز وعده
وكيف يَنْجوه في الورى هاربٌ ... قد فر من سيف إلى صعدة

ولصاحب الترجمة في مليحة قصيرة الذوائب:

قد قَصَّرتْ منها ذوابَاتها ... ولم يكن ذاك لأمر شنيعٌ
فكل من قد عابها جاهلاً ... قلت له هذي ليالي الربيع(١)

اعلم أن هذا فيه إلمام بما أورده سعد الدين التفتازاني رضي الله تعالى عنه في الشرح الصغير. قال: وقد وقع في بعض أشعار العجم النهي عن التعجب مع التَّصريح بأداة التشبيه، وحاصله لا تعجبوا من قصر ذوائبه فإنها كالليل ووجهه كالربيع والليل في الربيع مائلٌ إلى القصر وهذا المَعْنى من الملاحة والغرابة بحيث لا يخفى. انتهى كلام السعد أسعده الله تعالى في الدارين، والشعر الذي أشار إليه هو قول قائله:

أزلف مشك بار ... إن روى خنكار
أزلف خور أمد ... وإن روى خور نهار
كركوي هشت كونهى ... إن روى عجب مدار

وقد نظم هذا المعنى أيضاً القاضي شهاب الدين أحمد بن علي الهاجري الصعدي المدرس بمدينة صنعاء اليمن المحروسة، فقال:

---

(١) أي قصيرة.

قالوا لقد راق هذا الشخص إذ قصرت منه الذّوائب في مُسْتحسن الطُرَرِ
لا تعجبوا للذي في الشَّعر من قصر واستوضحوا العذر من شعري لذي الشعر
شعر كليل ووجه كالرّبيع وإن الليل فيه لمَيَّال إلى القصر

قلت الأحسن لو أنه قال:

قالوا لقد راق هذا الشخص لو طولت منه الذّوائب في مستحسن الطرز
فقلت: لا تعجبوا منها إذا قصرت واستوضحوا العذر من شعري لذي الشَّعر
شعرٌ كليلٍ ووجه كالربيع وإن الليل فيه لميَّال إلى القصر

وإنما قلنا: إنه كان أحسن لأنّ في النَّظم الأصل وجهين من النَّقد، أحدهما أن قوله: إذ قصرت بيان لوجه الاستحسان، وهو يَمْنع طلب الاعتذار له بقوله. واستوضحوا العذر البيت، الوجه الثاني أنه لا مناسبة بين قوله. قالوا: لقد راق، وبين قوله: لا تعجبوا حتى يقول لا تعجبوا كما لا يخفى.

وقال المولى الأمير الحسين بن عبد القادر رحمه الله تعالى ـ ولو لم يكن قوله من باب النهي عن التعجب ـ وإنما نظم المعنى وزاده لطفاً بحذف أدوات التشبيه، وهو:

يقولون من تَهْواه في الحُسْن كاملٌ سِوَى شَعْره ما كاد قَطّ يطول
فقلت محيّاه الربيع ولم يزل إلى قِصَر ليل الربيع يميل

وقال القاضي العلامة جمال الدين محمد بن إبراهيم السحولي[1] رضي الله تعالى عنه:

لا تَعَجَّب من الذوائب إذ هنّ قصارٌ فعندها الاعتذار
فمحيّاه كالرَّبيع جمالاً وليالي فصل الربيع قصار

وقال هو أيضاً رضي الله تعالى في المعنى:

---

(١) سبق ذكره في ج ١: ٣٩٩.

قـلـت وقـد أرْخَـتْ ذوابـاتـهـا قَـصِّـرتـهـا قـالـت لِـمَـعْـنَـى بـديـع
الـوجـه فـي الـشّـعـر ربـيـع بـدا في اللّـيـل واسأل عن لـيـالي الـربـيـع

وقال السيد عيسى بن محمد بن عبد القادر مما أنشدنيه من لفظه لنفسه:

لا تـعـجـبـوا مـن شـادن كـامـلٍ فـي حـسـنـه والشّـعـر مـنـه قـصـيـر
فَـوَجْـهـه أضـحـى ربـيـعـاً لـنـا وفـي الـلـيـالـي مـنـه نَـقْـص كـثـيـر

وقلت أنا:

أبـدى لـنـا هـذا الـمـلـيـح عـجـائـبـاً مـن حُـسْـنـه يـعـيـا بـهـا الـتَّـفْـسـيـر
إذ طـال مـنـه الـشّـعـر وهـو ربـيـعـنـا والـلّـيـل مـن زمـن الـربـيـع قـصـيـر

وقلت أيضاً:

يـا شـعـرهـا الأقـصـر أرسـلـت فـي خـدّ لـهـا عـن وَرْدِ لَـيْـل مـريـع
فـافـخـر عـلـى الـشّـعـر الأثـيـب الـذي طـال فـأنـت الآن لـيـل الـربـيـع

وقلت في منثور كتبته جواباً على بعض الظرفاء في ذكر كتابه ما لفظه: فتّشت قرطاسه البديع، وتأمّلت في ليل مداده فإذا هو لَيْل الربيع، لَمَّا كانت الورود في جوانبه محلولة العرى متفتّحة الأزرار، يُوْدعه النّسيم من النشر الطيب الأخبار المكتومة والأسرار. أستغفر الله ليل الربيع كنهار السّرور قصير. وهذا اللَّيل من الحبر طويل لتسطيره من البلاغة كل نفيس نظير. انتهى.

وقلت في النظم على غير هذا الأسلوب الذي جاء فيما تقدم من هذه المعاني، وهو:

إن هـجـرتـنـي طـال لـيـلـي بـهـا أو واصـلـتـنـي مـرّ لـيـلـي سـريـع
فـلـيـل هَـجْـري من لـيـالي الـشّـتـاء ولـيـل وصـلـي مـن لـيـالي الـربـيـع

السيد عبد الله بن أحمد بن الإمام المتوكل على الله(١)

أديبٌ قَلِقْ. سار إلى المعالي مُنْطلق، أطيش من فَرَاشه، وأَطْير من عقاب، وإن لم يكن حظه أراشه، سرى للتّم بدره، وسما إلى الفلك الأرفع قدره، ألبس ساق لياليه الحِجال، وأوسع في أيّامه لجواد فِكْره المجال. وفد إلى ثغر كوكبان فقابله بابتسامه، وظفر من نفثاته بِجَوْهر فرد لا يحكم عليه بتجزئته وانقسامه. فهو عليه مَقْصور، وفيه لا في غيره محصور، فحظيت منه بالمنادمة ولم أتمنَّ غيرها فكم حريص أراق المنى دمه، ولَمَّا تغيّر أمر اليمن، وبخس بها لذي الفضل الثَّمن، شمّر همّته تَشْمير الحازم، ونَصَب ساقه للسَّفر نصب الجازم، وفارق حبيبه وخلّه، وترك وطنه ترك الظبي ظله. وقالت لسان حاله: الصَّبر على الهوان ضلّة، وحَرّر بقلبه النية، على الرَّحيل إلى تَخْت القسطنطينية، إلى سوح السلطان خان بن عثمان، المشتري للعلا بأجلّ الأثمان. الحامي لحمى الحرمين، الثابت للقيام بشأنهما ثبوت الهرمين. خادم الكعبة والرّسول، النائل ببركتهما كل سؤل، ليفيض عليه من أيادٍ طالما هَمَلَت، وفواضل طالما عَمَّت وشملت، فكأن البَحْر غار من قصده لِبَحْر الكرم. الواصل مدّه من تخوم الروم إلى ساحة الحرم، أستغفر الله من هذه الاستعارة، فلقد ألبست كلامي هذا إلى آخر الزمان عارة، أليس هو نال من البَحْر الغرق، وأصابه بمائه المالح الشَّرق، ولو وصل إلى ذاك لما أغرقه إلاَّ بنواله العميم. ولما تَلَقَّى ذلك الغريب إلا بدُرٍّ من إفضاله يتيم. فالفرق ظاهرٌ بين بحر أهلك، وبين بحر لو بلغ إليه لقال: أنا أنسيك أهلك.

نعم فسار والأجل له قرين، وتَوَجَّه توجّه الفريسة إلى لَيْث العرين. فركب غارب البحر، وجاور من لآليه قلائد النَّحر، فحسده منه اليم فهاج، لما كان بحراً عذباً والبحر الحقيقي أجاج، حتى هاجت غيظاً أمواجه واضطربت، وانكسر المركب وإذا شمسه في اليم قد غربت، وظلّت درة ذاته بين درر البحر اليتيمة، وشمسه قد أزاحت بنورها من ظلامه عتيمة، ولو لم يكن صدف لؤلؤ الأدب الذي

(١) انفرد بذكره.

اشتمل عليه. لما انجذب إلى أصداف المغاص، وشبه الشيء منجذب إليه.

التقمه الحوت وهو مليم، ولم ينفلق له البحر، على أنّه من حوادث الزمان كليم[1]. لا زالت تقلّبه الأمواج من الرحمة جنباً على جنب، ولا برح بماء البحر مغسول الدرن من الذنب. وقد اعتاض عن خشونة تراب البر، لين الماء الناعم وفاغم العنبر، واستبدل عن الحصى بالدر الذي لم يثقب، واسْتَغنى بماء اليم عن قطر من الغمامة يرقب[2]:

ولما لم يسعه البر قبراً غدا البحر المحيط له ضريحاً

وقد أملاني من نظمه ما هو على فضله دليل، وأسْمعني ما يُنْعش به النَّسيم العليل، ويبرأ من عقابيل سقمه وإذا ذيله بعرق الطَّلّ بليل. كتب إليّ يستدعي كتابي (عطر نسيم الصبا)، وهَزّ عطفي من المسرة فكأنما رجعت إليّ أيام الصِّبا. وهو قوله:

رعى الله قوماً في رياض شِبَام لأخلاقهم نَفْح كزَهْر كمام
ولا زال منهلاً على عَرَصَاتهم وقد دبّجت بالزَّهر قَطْر غمام
لقد مَلَكوا رقّ الحقير بِرَغْيهم ولست بأهلٍ حرمتي وذمامي
أيا قاضي العليا سلامٌ عليك ما تثَنَّى قضيب من غناء حَمَام
وإن تَخل لما حَلّ قدرك في الورى سلامي الذي حبَّرته وكلامي
تفضّل بعطرٍ للنَّسيم فلي إلى تنَشّقه شوق أهاج غرامي
ولا زلت في وَجْهِ لذا العصر غرّة كغرة نَجْم قد بدا بظلام

فأجبته من النظم والنثر بقولي:

أزهر كمامٍ أم كؤوس مدام ودُرّ عقود أم سطور نظام

---

(١) تورية بموسى الكليم الذي انفلق له البحر وبين المترجم له الذي هو كليم من حوادث الزمان.

(٢) أورده الباخرزي في دمية القصر ١ : ١٧٧ ط التونجي سنة ١٤١٤هـ.

حباني به من لم يكن في أصوله ... من السَّادة الأعلام غير إمام

مرامي في ذاك النّظامي فكم له ... بأسهمه نَخو البديع مرامي

لقد شام طرفي حبره فوق طرسه ... فشام على الحسنا سواد وِشَام

وطال به إذ طاب وَجْدي تهتّكاً ... ومال به عِطْفي وزاد هيامي

فللّهِ فكر جاد لما أجاده ... به وشفا بالعَذْب منه أوامي

وهذا جوابي قلته عن بديهةٍ ... تقاد إلى تَكْليفها بزمام

وصلتني إشارة، خَلَعَ الروض ما عليه لوصولها بِشَارة، من فخر الآل الذين لهم الفخر، والملوك الذين يتفتَّت لهيبتهم الصَّخر. وصَله الله تعالى بكلّ مكرمة، وقضى من المعالي مَغْرمه. وباكره سلامٌ أثلج من الطَّلّ، وإكرام ترمى لآليه جِيْد الغانيات بالعَطَلْ، ما تدلّت من حدائق نَظْمه ثمرات الإعراب، وأدارت بنات أفكاره في كاسات حروفها خمرةً على الأتراب.

وهي أبياته المنظومة نظم العقود، الواردة وفي يدها إبريق مملوء من دم العنقود، نزلت بمقامي نزول الحبيب، ونظرت في علّتي من عدم الأنيس نظر الماهر الطبيب. فما أبهى لآلئها بين سَبَجَ المداد، وما أنور بياض طرسها المطرّز بالسَّواد. وصَدَر جوابي مسبلاً من أوراقه رداء الخَجَل. متلوناً وهو المنظوم تلوّن المَنْثور من الحياء والخجل، لعرفانه بتقصيره عن الابتداء، فقابله بالصفح فقد أساء بالإقدام والاعتداء.

وعطر نسيم الصبا، والمنثور الذي هبا، صَدَر إليكم يقبّل عنّي الأيدي. وكان الأولى أن تَسْمع به ولا تراه فإنه المعيدي، فمساوئه كثيرة ومحاسنه قليلة. لكنه غرّك من نظره بِعَيْن الرضى التي هي عن كل عَيْب كليلة، فانظر فيه لتعلم مخالفة الخبر الخبر. وضع الهنا من تجاوزك على النّقب منه والدَّبر. واعذر عن كبوة فيه، ونَبْوة مما لا تصطفيه، فإنه نتيجة دهر خَسَّت مقدّمتاه. وتأليف مجفوّ من الزمان في ظلمة الحيرة تاه. فالعتاب قبل العقاب، والخطاب قبل ضرب الرّقاب، والكلام قبل الملام، والسؤال قبل التوبيخ هذا. والسلام.

الشريفة العفيفة زينت بنت محمد بن أحمد المعروف بصاحب العدين[1]

من حصن شهارة، شريفة مصونة، ودرّة فخار مكنونة، قصر فضلها مشيّد، ودرايتها فوق ما سمع من زينت أمّ المؤيد. فهي شمسٌ أشرقت من خَلَل الحِجَاب. وظهر نورها كما ظهر نور الشمس من تحت سجوف السّحاب، كما قلتُ:

كالشَّمس أنوارها لنا ظهرت ... وذاتها لا تنال في الشَّرف

من بيت مجد سمت أركانه، وعلا على السبع الطباق مكانه. لها في العلم سهم موفًّى. وفي الأدب نهر من عسل مصفًّى، فكم انتثر عليها من قلمها رطب البلاغة سنيًا لما قيل لها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾. تنبّه بها إنسان المجد وهو نائم، كما تنبَّهت عيون الأزهار بأيدي النّسائم، وأيقظت الغامض منها بأصابع القطر الغمائم، وتوَشَّحت بنجوم السجايا سماء كمالها، وأسفرت فيها بُدُور المعالي عن يمينها وشمالها. وأقرّ الله تعالى بها من الأدب عينه، ورزقها من الظرف ما لا تذكر معه سكينة، فهي ظريفة لِبّه. قد وضعت على جِيْد العلياء لَبَّه.

لها يواقيت كلم يُتيه على نفيس الأحجار بالفَخْر، ولآلئ ألفاظٍ تعدّ عندها كلمات الخنساء منحوتة من صَخْر. كما قال فيها السيد الأديب يحيى بن إبراهيم بن جحّاف، مما تضمّنه ديوانه المسمى درّ الأصداف:

هيهات هيهات ما الخنساء تشبهها ... وإن رقت رتبة في النَّظْم علياء

دع ذكر بلقيس والزّبا إذا ذكرت ... يوماً ودَعْ غير مأمور زليخاء

عندها أمّ العلاء[2] تسفل، فحدّ ذهنها عند ذِهْنها قد فلّ، درّ نظمها عند نظمها حصى ولذا قيل لها: الحجارية. وهي تَتَعَفَّر بتراب روضها وقد اختار ذو

(١) نشر العرف ١: ٧٠٩ ومعجم النساء اليمنيات: ٩١ ـ ١٠٠..

(٢) أم العلا: شاعرة من شواعر العرب (أعلام النساء ٣: ٣٢٦).

الحجى ريّه. دع عنك أدب خنساء الأندلس والمغرب، وقل لها: أين الضَّرْب الموجع من الضَّرب المرقّص المطرب. يا حميدة[1] أو يا حمدونة، ما أنت عندها وما سعدونة؟، وأين تبلغ القرطبية[2] مهجة؟ وأدبها من مقام هذه التي سلبت به كل مهجة، وأين حفصة بنت الحاج[3]، يا بعد ما بين الياقوت والزجاج؟ وأين الفاضلة عائشة بنت الباعوني[4]، فلسان حالها تقول: هؤلاء الفضليات دوني.

كاملةٌ بها أركان الكتابة تبنى، وتشاد بما لم تشد به أركان كاتبه المستنصر لبنى. فهذه فخر النساء لا شهدة[5] بنت نصر، وهي زينة الزَّمان وجمال هذا العصر. أقول: لا شك أنها وَلأّدة[6] الزمان؛ إلا أنه لم يَبْتذل حجابها، فإنّها في العفة بلغت مبلغاً كاد معه أن لا يتصل بها أرحامها وأربابها. عفيفة غير مطروقة، ممنوعة عن الرذائل مصروفة:

مُـمَـنَّـعـة الـحـجـاب عـزيـزة لا ... تـســام ولا تــرام ولا تــضــام

مصونة حَصَان، ذات عرض محترم مُصَان، فأثلاتها لا تنحت، وآثار محاسنها لا تَذْهب بالحكّ والحت. وقد وقفت لها على ترسل وإنشا، لا يشاكله رِدَاء الروض الذي هو بالأطلس الأزرق من النَّهر مَحَشَّى، يَقْصر عنه القاضي الفاضل، فلا يجاريها فيه ولا يناظل، مع خَطّ هو سلاسل السبج، يفوح ريحانه المطلول بمتضوّع الأرج، وعلى الجملة فهي لكمال خصالها، ومضاء سيوفها ونفوذ نصالها، يكاد أن لا تعد من ربات الحجال، ولتعدد أسباب الفضائل في ذاتها تفضل على كثير من الرجال، كما قال أبو الطيب المتنبي:

---

(١) هي حمدونة بنت عيسى المري (أعلام النساء ١ : ٢٩٤).
(٢) مهجة القرطبية كانت من أجمل النساء ولها شعر (أعلام النساء ٥: ١١٩).
(٣) حفصة بنت الحاج الركونية شاعرة وأديبة من غرناطة (أعلام النساء ١ : ٢٦٧).
(٤) عائشة الباعونية عالمة وأديبة مشهورة توفيت سنة ٩٢٢ (أعلام النساء ٣: ١٩٦).
(٥) سبق ذكرها.
(٦) هي ولادة بنت المستكفي الأموي شاعرة وأديبة توفيت سنة ٤٨٤هـ (أعلام النساء: ٥ : ٢٨٧).

ولو كنّ النساء كمن ذكرنا　　لفضّلت النساء على الرجال

وهي الآن في حصن شهارة، بدر لم تبد الأيام نقصه وسَرّاره. أدام الله تعالى فضلها، وكثّر في عالم النّساء مِثْلها. ولها شعر سَمِعْته من بعض الأخوان، تعطّرت به النسمات وفاحت بنشره الأكوان. هو في الجزالة بمحل رفيع، وفي الانسجام بمقام بديع. ظفرت منه في سَالف الزمان، بما يعد عند جَيّد شعرها كالحَصَى عند الجمان، فحرصت على إثباته، ولم أقابل الزّمان فيه بإعناته. وهو قولها:

ألا من منصفي من جور خِلٍّ　　طمعت بأن أنال به رجائي
ليرفع رتبتي ويشيد قدري　　جهاراً غير مَجْحود الثناء
على من باعه من دون فترى　　ومن لم يَسْمُ خطواً من خطائي
ولا سَبْق له مثلي بمجدٍ　　وأين وأين أرض من سماء
يساوي بالبغاث الباز ظلماً　　ولم يدر الظّلام من الضّياء
فيا من قاسني بالضدّ مهلاً　　لقد قِسْت الثريّا بالثّراء

ثم أني ظفرت بعد ذلك من جَيّد شعرها بقولها فسح الله تعالى في أجلها، وكثّر في رياض الأدب، وهي الحمامة المغرّدة في زَجَلها. وأشجى الأفئدة بسجوعها. وفارق بنغمتها بين العيون وبين هجوعها:

شجى القلب من ذات الجناح سجوعها　　ولم تَضْطلي حَرّ الغرام ضلوعها
وأشجت وأبكت وهي غير شجيّة　　وقد لذّ في جنح الظلام هجوعها
ولو أنّ فيها بعض ما بي لما شدت　　ولو تشتكي وجدي لسالت دموعها
وبات يحنّ الرّعد من حرّ لوعتي　　وظلّت عهاد المُزْن يبدى خشوعها
ويَبْتسم البرق اليماني تعجّباً　　لِلَوْعة نَفْس طال منها ولوعها
بمن قد قسا قلباً وأعرض مُعْجباً　　وأضحى بِسَوْط البيْن ظلماً يروعها
فيا وَيْح نفسٍ لم تذلّ لعزّة　　وليس يراعى ذلّها وخضوعها
تلوذ بِصَبْر كي تصون كمينها　　فآونة يعصي وحيناً يطيعها

أفي الحق أن النّفس تبذل ودّها   وليس يكافى في الغرام صَنِيْعها
إليه بِطُول الإشتياق تشفَّعت   فلم يتلقَّ بالقبول شفيعها
وما سَلَكت يوماً سِوَى مَنْهج الوفا   وهَيْهَات عن تلك الطَّريق رجوعها
حفظت له سِرّ الغرام ولم أكن   لأسراره في الحبّ يوماً أذيعها
وكلّفني الواشون عنه تسليّاً   وأين لقلبي سلوة يستطيعها
غرست له في روضة القلب صبوةً   وقد ثبتت أصلاً وطالت فروعها

وقولها:

شرى البرق فوق الحمى واستطارا   فأورى بقلب المعنَّى أوارا
وباتت جفوني تريه البكا   وبات يُريني سناه افترارا
وساجلني بلسان الوميض   وأبكي سرارا ويبكي جهارا
فيا برق لا تَسْقِ إلاَّ العقيق   وذاك الجناب وتلك الديارا
وقبّل ثراها بدرّ الغرام   وكَلّل به زِنْدها والبهارا
وبَلّغ تحية عاني الفراد   لا يعرف النَّوم إلاَّ غرارا
وعَرّض بذكري وقل مغرم   سرى في سبيل الهوى ثم حارا

وقولها: تعاتب، مما يعجب له الكاتب:

ما بال أخلاقك تلك الحسان   يا بَهْجة النادي ونُوْر المكان
تنَكَّرت من بعد تعريفها   والحال ما امتاز بعطف البَيَان
أين الصفا والخُلُقْ المرتضى   حِيْن التَّداني والزَّمان الزمان
وَقْت إمام العَصْر من أذعنت   لأمره فيما مَضَى الخافقان
البَرّ إسماعيل ذاك الذي   كان من الرَّحمْن حَقّاً معان
من مِضْرها ألقت مقاليدها   إليه والهِنْد وأقصى عُمَان
فَرَحْمة الله على وَجْهه   تَنْهَلُّ ما دارت صروف الزّمان
سرعان ما أُنْسِيْت ذاك الصفا   والأنس في تلك المغاني الحِسَان

سقين أيامٌ بتلك الربى وذلك العهد وذاك الأوان
ما كدَّر الصفو وغال الوفا وما لذاك الصّدق في الود مان
متى أرى خطك يا سَيّدي يُدْني لي السّلوان بعد امتحان
عسى الحكيم العَدْل في أمره الرَّاحم الدَّيَّان ذو الإمتنان
مدبّر الأمر علىء ما يشاء في كل يوم منه أمرٌ وشان
يقضي لنا بالجَمْع بعد النَّوى من لِيَ بأن أنظركم بالعِيَان
ودم لكَسْب العلم ترقى العلا حتى تنال السَّبْق يوم الرهان

وقولها: مما كتبته إلى المولى علي بن الإمام، بعد أن طَلَّقها وباينها مباينة القطر للغمام، لما سقط على الأرض هاطلاً، وحلّى بلآلئه من جِيْد الغصن المائس عاطلاً. وقد تَوَجَّه إليه أحد أولاد أخيها مستمطراً لغمامة، قاطعاً بأن الاحتياج من خلفه والغنى من أمامه. وهو:

أصغ لي أيها الملك الهمام عليك صلاة رَبِّك والسَّلام
إليك ركائب الآمال أمّت تيقّن أن مَتْجَرها أمام
أتيتك شاكياً من رَيْب دهر به عزّ المُعين فلا يُرَام
به غاض الوفاء فلا وفاء به فُقِدَ الذمام فلا ذِمَام
ولا الآباء والأبناء فيه ولا الإخوان بَيْنهم التئام
وَفَدْت على كريم أريحيّ سخيّ ليس يعروه السآم
يجود بصافنات الخَيْل تزهو بعَسْجدها إذا شَحَّ اللئام
يجود بِيَعْملات العيس تنوء بأثقال يجاذبها الزِّمام
بكم لا شك تنتظم المعالي كسِلْك الدرّ يَجْمعه النظام
وأنت أبو الحسين أجل قدراً من الأكفا وإن جحدوا ولاموا
عَلَوْت عليهم كرماً وفَضلاً وما استوت المناسم والسّنام
(تلذّ لك المروة وهي تردي ومن يَعْشق يلذ له الغَرَام)

(لقد حسنت بك الأيام حتى كأنك في فم الدهر ابتسام)

هذان البيتان الأخيران مضمنان، وهما من شعر أبي الطيب المتنبي. ولقد ضمّن هذا البيت الأخير منهما إمام التضمين. المرتفع قدر نظمه عن التثمين، الأمير مجير الدين بن تميم الدمشقي رحمه الله تعالى في زهر اللوز، وهو غاية في بابه، فقال[1]:

أزهر اللوز أنت لكلّ زَهْر من الأزهار يأتينا إمام
(لقد حسنت بك الأيام حتى كأنك في فم الدهر ابتسام)

أذكرني هذا التضمين في زهر اللوز بما نظمه الأديب بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي رحمه الله تعالى في زهر اللوز أيضاً، وإن لم يكن من باب هذا التضمين، ولا في معناه. فقال[2]:

ما إن رأت[3] مقلتي عجيباً كاللّوز لما بدا نواره
اشتعل الرأس منه شيباً واخضر من بعد ذا عذاره

ومن هذا النمط الظريف قول أحمد بن صالح النشيلي[4] في زهر اللوز أيضاً:

لِلَّوز زهر حسنه يصبي إلى زمن التَّصابي
شكت الغصون من الشِّتاء فأعارها بِيْض الثياب
وكأنه عشق الربيع فشاب من قبل الشباب

وأنشدني بعض الظرفاء لصاحبة الترجمة وقد نسبه بعضهم إلى الأمير عبد الله آغا الزوم المتقدم ذكره. والله تعالى أعلم بناظمه، وهو:

---

(١) خزانة الأدب ٤ : ١٤٠ ط كوكب دياب.
(٢) الغيث المسجم ١ : ٢٩٤.
(٣) الغيث: ما نظرت مقلتي.
(٤) لم أجده.

رأيت الروض والأكمام فيه تفتّقه السّحاب بكلّ دُجْنة
سِوَى الكاذي[1] فلا يبديه إلاّ لموع البرق في داجي الدّجنّة
إذا ما سَلّ في الآفاق سَيْفاً بدى للروض في الكاذي أسنة

ولما قال صاحب (كتاب ميزان السياسة): من الكرم العفو عن سهو الذنوب، وترك البحث عن نَشْر العيوب. عقدت صاحبة الترجمة هذا الكلام نظماً، فقالت:

من شِيْمة الحرّ الكريم العَفْو عن سَهْو الذنوب
ومن المروة تركه للبحث عن نَشْر العيوب

ولما دعا للإمامة خالها السيد العظيم القاسم بن المؤيد بالله تعالى محمد بن الإمام القاسم بن محمد عليهم السلام. وتكنّى بالمنصور عارضه في الإمامة الإمام المَهْدي لدين الله تعالى أحمد بن الحسين بن القاسم رحمه الله تعالى، وكان ذا لهج بتكثير الجواري، واقتناء المَمْلوكات من السّراري. وقد كان جَرَى بينه وبين الإمام المؤيد بالله تعالى محمد بن القاسم عليه السلام بعض تفاوتٍ. قالت صاحبة الترجمة تجاوز الله تعالى عنها:

إن الخلافة زينت إكليلها للقاسم بن محمد بن القاسم
لا كالذي جعل الجواري هَمَّه وشقِيْ بحرب إمامه من قادم

ومن إنشائها التي رمت الشّهب من الأفق بحطّها، وقلائد كلماتها المنثورة ما نقلتها لها من خَطّها. وهو مما كتبته إلى أحد أزواجها، ورَصّفت نجومه المنتظمة في أبراجها. وهو المولى جمال الإسلام المتلعّب بأطراف السّمر من الرماح والأقلام. تاج الملك، وبَحْر الفلك الرامي لعداه بالهلك، غيث النوال الهتون، القاعد من التّخت والخيل على أنعم الأسرة والمتون. علي ابن الإمام المتوكل إسماعيل، لما عزّ تغاضيها عنه وصَبْرها عيل. وقد أطال في هَجْرها كل الإطالة، وأعرض عن تأدية ما يجب لها من الحق لا عن بطاله. تستعطف خاطره، وتذكر له

---

(١) الكاذي: زهر له رائحة طيبة يؤخذ منه دهن (تاج العروس ك ذ ا).

أشواقها التي ما زالت بين جوانحها خاطرة. فوصف لي الواصف أن رعده المزمجر القاصف. زاد بذلك في قعاقعه، واتسع خرق تشرسه على راقعه، أبرق لذلك الاستعطاف وأرعد. ومال إلى زيادة الجفاء وما أسعد، وما قرّب في الزيارة بل أبعد، ما نزع لهجره سهماً. بل زاد فيما كان يخاله وهماً. وهذا الإنشاء عندي إنشاء غريب، وضرب ماله في البلاغة ضريب. بالنَّظر إلى مكتوبات النساء، وبلاغاتهن التي تَبْعث كوامن الأسى، فإنه مما عجز عنه فحول الرجال، فكيف تأتي به من هي من ذات الأسورة وَرَبّات الحجال؟

وهو ما لفظه:

إن الكرام إذا ما استعطفوا عطفوا	والحر يغضي ويهفو وهو معترف
والصَّفح خير وفي الإعطاء مَكْرمة	وفي الوفاء لأخلاق الفتى شرف
والعَفْو بعد اقتدار فعله كرمٌ	والهَجْر بعد اعتراف فعله سرف
عاقب بما شئت غير الهجر أرض به	فَالهَجر فيه لإخوان الهوى تلف

الحضرة الجمالية التي أنافت على الجوزاء، وصارت إلى كل مكرمة تنسب وتعزى. يخصها منّي سلام ألطف من هبوب النَّسيم، خلال الروض الوسيم، وأرق من دَمْع محب مهجور، وأشجى من تأوّه مكروب، غالته أيدي الدهور، فهو بَيْن أسف منظوم ودمع منثور. ورحمه الله تعالى وبركاته ما همى مطر، وتبلج وميض برق في شَجر. صَدَرت من محبّ حظي بنهلة وَصْل صَيَّرت الأكباد عُطاشى، وسالف أنس أخلف بعده إيحاشا. يشكو من دَهْر أوسع أيام عقوقه طولاً وأيام برّه قصراً. وصَفْو وداد غاله فشابه كدرا. وكأس وفاء أخذه بلوراً وأعاده مدراً، أداره بالوصل خمراً فصيّره بالفراق مرّاً، فلَمَّا كاد أن يحمد باسترجاع ما شرد، اقترف المملوك ذنباً أقصاه فأعقبه الندم، وثاب إليه عقله بعد أن زلّت به القدم. طالما كابد العنا، وارتوى من آجن النّوى، وفقد الأرب ولم يظفر بالمنى. فهو بين طمع وإياس، ورجاء وإبلاس، يَبْني ويهدم، ويُقْدم ويُحْجم، فلما أبى القلب الكليم، جنح إلى التَّسليم، وطاوع وهو السليم، في استعطاف المالك. إمَّا هالك أو مالك،

راجياً أن يعود الخَلّ خمراً، أو يحدث الله تعالى بعد ذلك أمرا. فللّهِ سبحانه في خلقه نظرة بعد نظرة. يجبر بها الكسير ويقيل العثرة:

عسى كاسر العظم الضّعيف يعيده   بِنَظْرة عطف منه وهو خَبير
عسى وعسى يثني الزمان عنانه   فيأتي بِخَيْر والزمان يدور
فيَغقب جمعاً بعد بَيْنٍ وفرقة   وتحدث من بعد الأمور أمور

فالآن المملوك مستعطفاً، وبك مِنْك مستنصفا، شاكٍ منك عليك، متوسل بك إليك:

إليكم بكم في حُبّكم أتوسل   إذا عزّ عَنِّي ما به أتوَصّل
وأرجوكُمُ عطفاً عليّ ورحمة   وعَفْواً فإني تائب أتنصّل

فما أدري امتلقّ أنت عذري بالقبول، ومبهجي بالرِّضى حتى أقول:

حَسَم الصلح ما اشتهته الأعادي   وأذاعته ألسن الحُسّادِ

أم محوجي بعد الإفادة إلى قول أبي عبادة[1]:

فوا أسفاً حَتّام أسأل باخلاً   وآمن خوّاناً وأعتب مذنبا

فإن يكن المملوك أذنب ذنباً دعا إلى عقوقه، واطّرح لازم ما يجب من ثابت حقوقه. فالأولى بالمالك أن يَنْظر إلى مفاوتة العقول، والأجدر بالفاضل أن يعامل بما تكون له معه المزية مع المفضول. فهل يَسْتوي من الرِّجال ذو الحجى الراجحة وربّات الحجول، حتى يقابلهن بما قابل، ويعاملهن بما عامل، لا يكيل لهن بصاعهن، إلا من أشبه خسيس طباعهنّ، فللرِّجال عليهن درجة مرفوعة، وهنّ لديهم أمانة مودوعة. فما أسند إليهن سَيّدهن من الخير نسب إليه، وما سامهن من الخسف نقم به عليه. ومن عادات السادات أن تَتَفَقّد المماليك، وتوفي حقوق من هو في حكم التّمْليك، وإلاّ فأيّ نسبه إلى مكارم الأخلاق. وقد تَرَك من هو

(١) ديوان البحتري ١: ٩٦ ط دار صادر.

للرّحامة أولى بالإشفاق. وأين إشادة العدل واحتمال واعتماد الحلم؟ وقد صيرت حقوق الزوجية معدومة في الحكم:

جَرَتْ عادة السَّادات أن يتَفَقَّدوا أصاغرهم والمُكْرمات مصائد
سليمان ذو ملك تفَقَّد هدهداً وإن أخسّ الطائرات الهداهد

أليس من علق بأهل المكارم، فاز بالمغانم، لا كَمَنْ أورد على صاحبه العظائم، وجَرَّعه المضائم، فهو خليقٌ بلوم اللائم. تَصَرَّمت الدّهور وهو مطرودٌ مهجورٌ، ومضت الأيام وهو ممتهن بالصّدود(١):

مضى الزّمان فلا الماضي انتفعت به كلاّ ولا أنا في علم من الباقي

تلاحظ نظائره بالصّلات، ويحسب الإحسان إليه من الفتن المضّلات، هلاّ رعى مولاي الذي مال، محبّه وكان كمن قال:

نراعي جارنا ما دام فينا ونُتْبِعه الرّعاية حيث كانا

فيا لله العجب لم يَسْتفد المملوك من المالك إلا التَّعب. ولم يكسب على مرور الأيام إلاّ الإعراض والنّصب، فأي زمان يأتي بما يحب، وأيّ وقتٍ يوفّي ما يجب، وكم يصبر المملوك على الجفاء! لقد كاد أن يقول بَرَح الخفاء، هل يرضيك أن المعتزي إليك، ومن معَوّله بعد الله تعالى عليك، يَسْلقه الحساد بألسنة حِدَاد، وتَعْتريه الهموم والأنكاد، بإهمالك حقه بين الخصوم والأضداد، فهو مكلوم الفؤاد واري الزّناد، متعوذ بالله تعالى من شماتة الحُسَّاد. فهل يرثى لمأسور أهمله الآسر؟ ولمهجور اعتدى عليه الهاجر، فلا هو أطلقه من الوثاق، ولا هو من سُكْر هجره أفاق. عامله معاملة من أتى بالمُنْكر، وعاداه معاداة من لمودّته أنكر. وهو في رُتْبة التَّوحيد مُقيم. ما عرف الشرك فهو بكل وادٍ يهيم، ومع ذلك فهو متدرّع للصبر. وهل سِيْم إلاّ كريم؟، لم يثنه الصَّدود، ولا أوجب مللاً ما سامه المالك من نقض العهود، فإن سَيِّدي أبداً خفي عقوقه واطرح ثابت فرضه ولازم حقوقه،

---

(١) للبهاء زهير ديوانه: ٣٧٣ ونصه:
مضى الشباب وَوَلَّى ما انتفعت به وليته فارط يرجى تلافيه

وعدل عن مراعاة الأوِدَّاء، إلى جفوة القالين وصدود الأعداء. ولم يبحث عن الهفوة. وسبب الإهمال والجَفْوة، ولا فَحَص عن المقتضى لهذه النَّبوة. ولا تتبع الحامل على هذه الكَبْوة، فإن الكريم لا يعجل، ولا يلوم الصَّاحب على الزلل، حتى يعرف كَنه السَّبب ويتحقّقّ الموجب لاطراح شروط الأدب، وينبغي له أن يفتح من التأويل أبوابه، ويلاحظ من الزَّلل أسبابه، فإن وَجَد مدخلاً للتأويل، أو شبهةً تدلي به إلى عذر جميل، َمَله على أحسن تأويله، وصرفه إلى جهته من غير تَحْويله وتبديله. وإن لم يكن للزّلل في التأويل مَدخل، ولم ينظر له عذراً ولم يخل، نظر حاله بعد زلله الواقع الواضح، وذَنْبه الذي هو له فاضحٌ، فإن ظهر له ندمه، بعد أن قد زلّت قدمه. فالنَّدم توبة، والخجلة أوبة، ولا ذنب لتائب، ولا لوم على آيب. وقد قال بعض الحكماء: شفيع المُذْنب إقراره وتوبته اعتذاره، ومن لم يحسن إلى التائب قبحت إساءته. وقال بعض الأدباء: أوسع ما يكون مغفرة. إذا ضاقت بالمُذْنب المعذرة، فالذي ينبغي أن لا يكلّف المذنب لذنبه عذراً. ولا يَطْلب منه لما أسلفه من كسر هفوته جبراً، ويلجأ إلى ذل التحريف. ويواجه بخجل التعنيف:

والعذر يلحقه التحريف والكذب وليس في غير ما يُرْضيك لي أرب
وقد أسأت فبالنعما التي سَلفت إلاّ مَنَنْت بعفو ما له سبب

وهل يحسن من قل وفاه، وأطال للمحبين في جفاه، وساءت خلائقه وضاقت طرائقه، ولم يكن فيه فضلٌ للاحتمال، ولا صَبْر على الإذلال، فعامل على الجفوة، وعاقب على الهفوة، واطّرح سائر الحقوق، وقابل على العقوق بالعقوق. فلا بالعَفْوَ عَامَل، ولا بالصّفح جامل، وقد علم أنّ نفسه قد تطغى عليه فترديه، وأن جسمه قد يسقم عليه فيوذيه، وهما أدلاًء إليه وأخصّ به وأحنى عليه، من صديق قد تميّز بذاته. وانفصل بأدواته، فيَطْلب في نومه ما لا يجده من غيره يظفر به في أمسه. ويريد من غَيْرة لنفسه ما لا يجده من نفسه. سِيّما لمن فاء متنصلاً، وانبرى يستعطف متذللاً، معترفاً تائباً، مقرّاً بالذّنب آيباً، إن هفا فلغير قصد، وإن أذنب فبِغير عمد.

فعلى الكريم المفضال أن يأخذ بقول من قال ولم يأل في المقال:

أقِلْ ذا الود هفوته وَقِفْه ... على سَنَن الطّريق المستقيمة
ولا تُسْرِع بِمَغْتبة إليه ... فقد يَهْفو ونيّته سليمة

وقول الآخر:

إذا ما حال عَهْد من صديق ... وحاد عن الطّريق المستقيم
فلا تَعْجل بلومك واستدمه ... فإنّ أخا الحِفَاظ المُسْتديم
فإن تك زَلّة منه وإلاّ ... فلا تبعد عن الخلق الكريم

وقول الآخر[1]:

وكن معدناً للخير[2] واصفح عن الأذى ... فإنّك رآء ما علمت وسامع

فإن يكن المملوك هفا هذه الهفوة متعمّداً، وجنى هذا الذنب قاصداً له متجردا، فقد تاب عما تعمّده تَوْبة متندِّم، وآب عَمّا قصده وتجرّد له أوبة مستسلم. فإن رأى المالك أن ينظر نَظَر راحم مُسْتعطف، إلى نادم على ما أسلفه متلهّف، فأجدر النّاس بالاغتفار، أقدرهم على الانتصار، وأولاهم بالمَغْفرة. ذو يد عالية مقتدرة، شعراً:

فهِبْني مسيئاً كالذي أنت واهمٌ ... فعفواً جميلاً كي يكون لك الفضل
وإن لم أكن للعَفْو أهلا لسوء ما ... أتيت به جهلاً فأنت له أهلُ

وقد قيل مما يحسن به التمثيل:

إن كان ظنك أنني لك ظالم ... فارحم لأن تُسْمى بأنك راحمُ
حَسْب القِصاص من المسيء بأنه ... جَرْح يجرِّح والسّعيد مسالمُ
إن أَجْن عن جهل إليك جناية ... فجزاؤها هذا العقاب اللازمْ

---

(١) ينسب لأبي الأسود الدؤلي.
(٢) الديوان «الحلم».

فاقنع به واذكر قديم مَوَدَّتي — فالعهد فيما بَيْننا متقادمُ
من كان ليس بِنَادم متدارك — فأنا الذي مِمَّا تجنَّى نادم
كانت هناةٌ وانقضت ومن الذي — مِنَّا وليس له تعدّ جرائمُ
أذنبت ذنباً أستحق عقوبة — لكن وُدّي في الحقيقة سالمُ
ولك السيادة حُلية ومكارم الأ — خلاقٌ منها في يدَيْك خواتم
فاقبل مودّتي الجديدة أنني — فيها لمَجْدك لا لودّك خادمُ
وإلى الرّضى عدني وللحُسْنى أعد — حتى تقوم على الصفات علائمُ

وبعد شريف السلام، يدوم بدوام الأيام. ما ضَحَك برقٌ وبكى غمام، وافْتَرَّ زهرٌ وسجع حمام، وطاب للرّسائل مبتدأ وحسن ختام. انتهى.

أقول: تأمل أيها الناظر، وتمسك بهذاالمنثور العاطر. هل رأيت من كلمات ذوات الخمار. أم سمعت من نَفَثات من يرمين القلوب من حبّهن بالجِمَار، ما يشاكل هذا الكلام الذي هو سلافة الإنشاء، أو يشابه هذا المطرف المؤنق الموَشّى. المسجّف بالأطلس الناعم والمحشّى. سبحان المانح لهذه العفيفة بهذا الطّريقة البديعة الظريفة. لقد غارت من هذا الدرّ المنثور عقود نحرها، وكادت أن تُبَدِّدْ من الغَيْظ قلائد صَدْرها. تَشَاكل الأمر والتبس، فلا يَدْرى هذا الدرّ منتزع من حليها أم من ثغرها الذي ما عَبَس. لا شك أن الله تعالى يؤتي فضله من يشاء، ويودع سر الاختيار من يريد فإذا هو قد فشا، حتى يستفيض في الخافقين، ويدور من الكون على العاتقين.

القاضي أحمد بن سعد الدين المَسْوري(١)

من شهارة، شرفت به مواطنه المَسْورية. وقال القادح في زنده المشتعل بلا قدحٍ لم ألمس وريه؛ لأنه وَرِّى بلا قَدْح. وأضاءت به الآفاق عن ذبالة المَدْح، هو ذو همّة لو رزقتها الشمس لَرَقَتْ عن السّماء الرابعة، أو لو سعد بها منحوس زحل

(١) وفاته سنة ١٠٧٩ هـ (خلاصة الأثر ١: ٢٠٤ البدر الطالع ١: ٥٨ مصادر الفكر العربي: ٥٦).

لترفع عن حلوله في السماء السابعة. عالمٌ عمل بما علم، وروض عرفان عليه الندى ينسجم، فهو سعد الدين[١] في المعارف. وهو أنبه في نسب جمع بين التليد والطارف.

يحفظ من علم الأديان والأخبار فنونه، ويصدق لمن يخيّل فيه سعة المعرفة ظنونه، سيما علم الصرف فأحمد[٢] عنه غير ممتنع. وليس هو بنيل اليسير منه مقتنع، ما لتمثيله فيه مثال، ولا صحيح علمه فيه معتل ولا إعلال. وكان بخطه يحصّل الكتب، وإذا تاب غيره عن تعشّقها فهو لم يتُبْ. يظمأ إلى الفوائد الشوارد، ما لا يظمأ العطشان إلى خَضِر الموارد. ويهيم بالإفادة والاستفادة، ويجود للطلبة منه بأسنى الرّفادة. يُقَيّد الأوابد من رقمه بالسَّلاسل، ويُحْمي حبى محجبات المسائل من أقلامه بالعواسل، ويضبط ما رَقَم ضَبْط العلماء، ولا يجد للعكوف على النقل نصباً ولا ألما، مع خَطّ بلغ من الحُسْن إلى الغاية، وأحكم المتشابه من حروفه بالنَّسخ على أنها لم تنسخ منه آية.

أخذ عن مشايخه ما أخذ، ونفذ سَهْم قلمه فيه إلى ما غَيْره من الأقلام فيه نفذ. وانفرد في طريقته المثلى، وإذا هو نسيج وحده فذّ. أفضت عزماته في خصاله التي يقال عند الإجمال: دَعْ تفضيلها، إلى أن فضّلت على سائر الخصال، فهي تفضي لها تفضيلها. وقد أجاز لَجدّي بعض مَسْموعاته، وأذن له على شرط الشيوخ نَشْر شيء من مجموعاته.

وكان ينفِّر عن الدنيا ورعاً، فطالما لاحظ العفاف عنها ورعى، فهو مخشوشن الملبوس، سواء عنده النّعمة والبؤس، يزهو من التّشيع في لباسه. ويعدّ محبة أهل البيت عوذة لبأسه. تولى الوزارة وما عبس، وهدى الأمّة من آرائه بقبس.

أقام ركن الخلافة المؤيدية[٣] وأودها، وعدّ في نظرائه محبّها الخالص وأودَّها. رفع لها بآرائه اللواء، وأعلى كلمة صاحبها على السّوى، لما تَدَبّر الرأي

---

(١) يعني سعد الدين التفتازاني. (٢) سبق شرحه.

(٣) يعني الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٠٥٤هـ.

فدبّر، وحَرّر رسائل التوّعد وحَبَّر، ونصب الفخاخ والأشراك، حتى صاد صقوراً حائمة من الأتراك، فطارت من اليمن من غير أوكارها، وأخرج كلّ فرد منها إمّا راضياً أو كارِها. قال: ليس بعشك فادرجي، ولا تضيقي لذلك ولا تَحْرجي، فاستبد عند ذلك المؤيد. وعمرّ أركان الخلافة وَشَيّد، وأصبح بجر ذيلٍ لا يقصر، لمّا ظل له في كل المواطن يَنْصر، حتى حصر عند تِعداد مناقبه من يحصر، وتوَلّى له الخطابة، وهزَّ من أعواد المنابر رطابه. وكان عنده للضّعفاء عظيم النفع، يدفع عنهم الشدائد ويدفع لهم نواله، فهو على الحالين ذو دفع.

له بِوَعْد الفواضل إنجاز، يوصله إلى غُرف الفضائل إن جاز، فأكرم بدولة سعدت باستوزاره، وأحسن بسيرة له جانبت ما نسب إلى غيره من أوزاره. ثم لما قَضى المؤيد نَحْبه، وضَيّق عليه الموت رَحْبه، ومزّق الحمام في الآفاق سُحبه، عَضَدَ أبا طالب، وأمر الله تعالى غالب، وكان يلقبه بالفيل الأبيض، ولم يدر أن جداره عن قريب يتقيّض، وأبى عن إجابة دَعْوة المتوكل. وقام في وَجْه صاحبها كالمتنكّل، فأخذ أبو طالب في ثلا أسيراً، وظلّ خاطره من إمساكه كسيراً. وسُيِّر إلى المتوكل على حال جميل، وكحّل من مسافة السير إلى حضرته بميل بعد ميل، فقال بعض القضاة للقاضي، وقد صار في ذلك الحال مستقبلاً للسيف الماضي: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾؟ لمّا عزّ المُجير وعدم الكفيل، ثم إن المتوكل استوزره، فشدّ رداءه ومئزره، على شجا منه في الحلق، ووجع لا يبدو لأحد من الخلق، وعفا عنه على قذى في العين، واستحسن بدر وزارته ولم يبد بها شيئاً من الشين. حتى مات وجانبه مهاب، منير الأضواء إلى أن غاب منه شهاب وعلى الجملة فجميع خصاله حميدة، هامت بها المعالي فهي وامقةٌ عميدة.

وشعره شعر عالم، وأدبه عن الانتقاد غير سالم، ما طاب لي السكون في بيت قد عمره، ولا اجتلوت من فلك قِرْطاسه شَمْسه ولا قَمَره. فأبياته أطلال، وقلائده أغلال. شِعْره كثيرٌ غير طيّب، فغيث إجادته غير مثج ولا صَيّب، يدخل في مجلّدين حافلين، ولكنهما عن مراقي الحسن في منزله سافلين، ونَيّراهما في

فلك الاستحسان معدودان كالآفلين، وأكثر نظمه في الإلٰهيات والزهد، وبهذا المعنى نقول لقد خلط الزّبد بالشهد.

قال رضي الله تعالى عنه يحث الإمام المتوكل على حرب أهل حَضْرموت الشحر، ومن يشابههم ممن يتمسك بالتَّمْويه والسحر:

عزمت على اسم الله بالفَتْح والنَّصر ... وباليُمْن والإيمان تَصْدع بالأمر
وبالبَركات الناميات توَجَّهت ... عزائمك الكُبْرى لحزب ذَوِيْ الكبر
وبالباقيات الصَّالحات نَشَرت مِن ... لواء الهدى أكرم بذلك من نَشْر
وبالله تَسْتَهدي جنودك حيثما ... تؤم وبالأملاك والسّادة الغرّ
بِدَعْوة خَيْر المرسلين دَعَوْت في ... العباد فأبشر بالبَشارة والبشر
دَعَوْت إلى ربح الجهاد وحَبَّذا ... تجارته للصَّابرين من التَّجر
تَوَكَّل على الحيّ العزيز الذي له ... جُنود السّما والأرض والبحر والبر
فقد صَدَق الميعاد في نَصْر حزبه ... وخزي ذوي الإلحاد والزّيغ والمَكْر
فيا بن رسول الله وابن وصيّه ... وسِبْطيه وابن القاسم القائم البَرّ
جزاك إلٰه العرش عَنَّا ثوابه الـ ... ـسني من الدّنيا ومدّخر الأجر
شَرَحْت صدور العالمين بهذه ... العزائم فاستَبْشر بشارحه الصَّدر
غضبت لربّ العرش واخترت نَصْره ... وذلك عند الله عازمة الغُفْر
أعدت لدِيْن الله عادات سادة ... أقاموا قَنَاة الدِّين بالبيض والسُّمر
تَهَنَّ أمير المؤمنين فإنّما ... جنودك جُنْد الله تقدم بالنَّصر
تهنَّ بما أوليت دام لك الهنا ... وبلّغت فيما تَرْتجي غاية الفخر
ودُم وابْقَ للإسلام تَرْفع ذِكْره ... كما رَفع الرحمٰن ذكرك في الذّكر
وَحّرض جنود الحق في قطع شأفة العـ ... ـدوّ رماه الله بالهُلْك والبَتْر
وأمددهم في ظلمة الليل بالدّعا ... ووصّهم بالذّكر لله والصَّبْر
إمام الهدى لا زِلْت تَرْفع للورى ... هَدَى وتُريهم واضحاً مَنْهج البرّ
وترفع للتَّوحيد والعدل رايةً ... على شُرفات في عُمَان وفي مِصْر

وتَنصب في أقصَى العراق لواك الأ ... غرّ وفي الغرب القصي على يسر
وتمحو بما آتاك ربك من هدى ... ومن حجج بيض عقابيْل ذي الكفر
أمَدَّك مولاك الكريم بغارة ... من الملأ الأعلى المكرّم بالطهر
وأولاك منه ما تأمل من رِضَى ... ومن درجات عنده لذوي الشُّكر
ولا زلت أواهاً منيباً مبارك النقـ ... ـيبة في طيّ الأمور وفي النَّشر
تقيم عمود الدين من كل وُجهة ... وتُظهر معروفاً وتزجر عن نكر
لك الله جار في أمورك كلّها ... ونعماؤه تَسْري إليك بلا حَصْر
لك الله عون ناصر ومؤيد ... وأعداؤك الهاوون في هوّة الخُسْر
لك الله مولى حافظ حيث وجّهت ... ركابك من سَهْل البلاد ومن وَعْر
لك الله مولى حافظ حيث وجّهت ... جنودك من بر البلاد ومن بَحْر
لك الله ثِقْ بالله لا ربّ غيره ... وأرسل على الأعداء قاصِمَة الظَّهْر
جنود دعاء الليل فالله ضامن ... إجابة من يدعوه في السِّر والجَهْر
وأنت أمير المؤمنين وليّه ... فلا تَخْش من سوء ولا تخش من ضُرّ
وأعداؤك الفُجّار أعداء ربهم ... وقد خاب من عادى وناوى ذوي الأمر
وأنت قرين الذكر والحق والتُّقى ... وهم قرناء اللَّهو واللَّغو والغَدْر
لَشَتَّان ما بين الفريقين في الهدى ... فريق على عدل وآخر ذو جبر
تهَنَّ أمير المؤمنين جِهَادهم ... ومالك عند الله ربّك من ذُخْر
وطهّر بقاع الأرض منهم فإنّهم ... شرار الورى لا يعرفون سِوَى الشَّر
وهنّ جنود المؤمنين بما حووا ... وما قد نَحَوه من جهاد ومن نَصْر
هنيئاً لهم رِضوان رَبّي عليهم ... هنيئاً مريئاً دائم المَجْد والفَخْر
ولا تنسنا والمُسْلمين من الدعا ... بمَرْحمة تُنْجي لدى النَّشر والحَشر
وتَعْجيل غيث مُرْجَحَنٍّ مبارك ... به يكشف الرحمٰن غاشية العُسْر
فقد أدّب الله العباد بشدّة ... لها فَرَجٌ من ربّهم عاجل اليسر
وإن الإمام البر مقبول دعوة ... كما أنه للنّاس كالوالد البَرّ

ولا تَنْسني منه فإني طامعٌ … لأني أمام الخلق منك على ذكر
وإنك تَدْري ما لدي من الأسى … من البُعْد لولا ما علمت من العذر
عليك صلاة الله بعد محمد … نبيّ الهدى والعِتْرة الأنجم الزهر

قوله: تجارته للصّابرين من التَّجر بفتح التاء المثنية الفوقية المشددة وسكون الجيم بعدها راء. جمع تاجر مثل صاحب وصَحْب، ولذا أنّي نظمت في التورية. وقد سار أصحاب لنا إلى بَنْدر المخا صحبه تُجّار من مدينة صنعاء اليمن المحروسة.

فقلت:

صَحْبي وتجار قوم … ساروا ففارقت صبري
فأدمعي تَتَوالى … على صحاب وتَجْر (ي)

القاضي محمد بن علي المسوري(١)

قاضٍ منصوب مرفوع. دَليل فضله غير مصادم ولا مَدْفوع. نَشْر أوراقه عطر المحافل، ورُمْح قلمه هَزَمَ الجَحافل، فهو في كل مَيْدان من العلم فارس، وفي كل فن كَرَبْع الجهالة به دارس. نسج برد العلا، وسقى بمُنْهمر فواضله الكلا، وطَعَن بعوالي معاليه الكُلا، رضع من العوالي والمفاخر ثديًا. واستوطن من رَبْع المحامد ندَيًا، وقَطَف زهر الكمال من مغارسه نديّاً، واستنشق من أذيال الأيام عَرْف الفخار نديّاً، ولي القضاء، ولحظهُ الدهر بعين الرضى، فما برح للخصومات فاصلاً، ولقطع أعناق المتمردين قاصلاً. ما سئل إلا أجاب، حتى توارت شمسه بالحجاب. حجاب من الترب الكثيف قد مدّ، ورُدِمَ سبيل الوصول معه إليه وسُدَّ، دَهَتْه من الموت الفادحة، وأشعلت نار حزنه كف المنية القادحة. فمضى مضي السيف في الرِّقاب، ورفعت الحور لتلقّيه عن وجوهها النقاب، لا برح جَدَثه محطّ رحال، ومَهْبط ملائكة الرحمٰن في كل حال، ما زُرَّت حُلّة الليل بأزرار نجومه، فَحَلّتها يد

---

(١) انفرد بذكره.

الصُّبح لما بادر بهجومه.

وشعره من أوسط النِّظام، وليس بأهل للاهتضام، فمن در بيانه، الذي التقطه من خَليج صَدْره غَوّاص لسانه.

قوله من قصيدة:

أيّ وصل كَلَّم القلب كلاماً ... من حبيب كَلَّم الصّب كَلاَما
عجباً ما الوصل إلاّ شافيا ... فلماذا هاج وَجْداً وهياما
لم يكن ذلك إلا أنّه ... مَرَّ مثل الطَّيف لَمْعاً وانسجاما
آه منه هاج وَجْداً وجوىً ... وعليه حَسْرةً لو كان داما
ياأخلائي بِسَفْح المنحنى ... مَرّ جُلُّ العمر لم أقض مراما
فأعيدوا زورة لي يَقْظة ... فالتي مَرَّت لنا كانت مناما
صَدَّ عن شكوى النّوى بَرْح الجوى ... حين سرّ القلب بالوَصْل فهاما
قَصُرت أيّامه من طِيْبها ... فانتهت يا ليت يومي كان عاما
مذ رحلتم قد تركتم مُهْجتي ... تَشْتكي من لاعج الشوق ضراما
عَدِمَ الإصباح ليلي بعدكم ... أسفروا لي بضيا ينفي الظّلاما
إن طرفي بعدكم عاف الكَرَى ... وبِبَحْر الدمع لمّا دام عاما

ضَمَّنْتُ أنا هذا المصراع الآخر فانضمَّت إلى التّضمين فيه التورية. فقلت:

قد غدا إنسان عيني بالهوى ... في بكاء طال أيّاماً وداما
لجّ في الأمواج شهراً كاملاً ... (وببحر الدمع لما دام عاما)

وقد سبق إلى هذه التورية الشيخ تقي الدين بن حجة لما قال[1]:

والجفن في لجّة دمعي غدا ... من بعده يسبح شهراً وعام

ومما ينبغي إيراده في هذا الموضع وإن لم يكن من باب ما نحن فيه قول

(١) لم أجده وهو في الكشكول ضمن عدة أبيات.

خليل بن الغرس في مليح عوّام مورّياً[١]:

يـا حـسـن عـوام كـغـصـن الـنـقـا   يَـبْـخـل بـالـوَصْـل لـمـن هـامـا
ويـقـنـع الـعـشـاق مـنـه بـأن   يـريـهـم الأرداف إن عـامـا (إنـعـامـا)

القاضي العلامة علي بن محمد الجُمْلولي[٢] الأهنومي

هو لوالدي أحد الشيوخ؛ لأن قَدَمه بِفُنون العِلْم في غاية الرّسوخ، ولما تحقَّق عرفانه أجازه. ومَدَحَ سماته وما أجازه، وهو إمام بلا ريب. له في التَّفسير مفاتح الغيب[٣]، يخاف من أسده الثعالبي[٤]. ويقول البغوي[٥] عند هذا العالم من معالم التنزيل[٦] مطالبي. وله في علم المعاني ما يهزّ القدود هزّ المثاني. وفي سائر الفنون حديث فضله ذو شجون، لو أدركه السعد[٧] لخضع أو الشريف[٨] لا تّضع.

أقام بكوكبان ورضع من العلوم به أهنأ لبان، وصَبَا إلى غصون من أقلام التَّحصيل ولم يصب لِبان، وجناح شبابه واحف[٩]. وجيش طلبه على الجهل زاحف، فحَصَّل من العلوم نصيباً، وسدّد إلى أغراضه سهماً مصيباً.

ومن تآليفه (الحديث الأربعون الحسان) التي عرضهن النبي ﷺ على القرآن، ولما جرت لأحد أولاده نَكْبة أوجبت إراقة دمه، وآلت بعد وجوده إلى عَدَمه، أصابه اختلال في عقله، واخلال في تَحْرير العلم ونَقْله. ثم برى من دائه، وقد

---

(١) ورد في المستطرف بدون نسبة.
(٢) انفرد بذكره.
(٣) هو المعروف بتفسير الرازي سبق.
(٤) المفسر المعروف وهو صاحب عرائس المجالس في قصص الأنبياء وغيره.
(٥) كسابقه من علماء التفسير مشهور معروف.
(٦) هو المعروف بتفسير البغوي السابق قبله.
(٧) يعني سعد الدين التفتازاني سبق.
(٨) هو المعروف بالشريف الجرجاني محمد بن علي المتوفى ٨١٦هـ.
(٩) الشعر الكثيف الأسود.

نقع الزمان غلة أعدائه، فوفد إلى كوكبان مرة أخرى. وإذا هو بوفادته يزيد فَخْرا، فرأيته وقد أنهكه الكبر، وَمَّزق من شبابه مطروز الحِبَر، وهو أصلج[1] لا يسمع، وبارق الممات من خلال عارضه عارضه يملع.

فهو بعدم السّماع عن بذاءة الألسن قد اعتصم، ولو لم يكن رمحاً طاعناً في نحور الجهال لما دعي بالأصم[2]. سُدَّت مجاري أذنيه عند تحصيله للفوائد وجمعه، بلآلىء ألفاظ من شيوخه كانت تلقى إلى سمعه.

ومن شعره يتشوق إلى بعض مشايخه الكرام. وقد مَنَعَه الزمان من المثول بين يديه غاية المرام. قوله:

إلى من أبثّ الوجد من أهل صُحْبتي ... وأودع مَكْنون الشّكية والسِّرا
لدهر ثنا عَنّي كرام أحبتي ... وأودعني منه القطيعة والهَجْرا
إذا قِسْت آفاق البلاد جميعها ... فمجلس عزّ الدين أرجحها قُطْرا
به علم العلم الذي شاع ذكره ... إلى الشّام بل أرض العراق إلى مِصْرا
حدائق روضات العلوم التي بها ... مجالس درس نورها غَلَب الزهرا

السيد عبد الله بن محمد المحرابي[3]

مِحْراب من المحراب[4]، وجامع جيوش هو لمقدّمها المحراب. أسد شرى، وبرق فضل شرى. وكاسب مَجْد ما باع ولكنه شرى، ليثٌ وثب، فتناول فريسته من كثب. خشن الجانب إن ضَمَّته المقانب، وأشجع من صال، في مقنبٍ ومِنْصال[5]، حيث يَخْفق قَلب النَّجم من الحذر، وتأتي سيوفه على العدا فلا تبقي ولا تذر، وقد جفّ من اللهاة اللعاب، وغصّت من الدماء المراقة لَهوات الشّعاب،

---

(١) الصلج بالجيم الصمم (قصد السبيل: ٢٣٢).

(٢) تورية بالصوفي الكبير المعروف بحاتم الأصم المتوفى سنة ٢٣٧هـ (الأعلام ٢: ١٥٢).

(٣) انفرد بذكره.

(٤) المحراب: قرية في شمال جبل ذرى بالأهنوم من محافظة حجة (المقحفي: ١٤٢٢).

(٥) المِنْصل: السيف.

فكم وشّى بذهب لمع الأسنة والصفاح، من مطارف قتام نشرتها على أعطاف الجو أيدي الكفاح. له من نار الحرب اصطلاء واقتباس، فله قلبٌ كأنما نحت من الحديد وَقْتَ بأس، يمّ سماحة وكرم. وكَعْبة حماسة حِمَاه حَرَم، يمّيل نسيم الاستجداء معاطفه، فتدني من أيدي الجانين مقاطفه. إذا أضمر للمعدم صلةً ونوى له. أغرقه هَطْل سحائبه حتى يكاد يذم جوده ونواله، رايته من منصورة الدملوة بِحصنها. وهو يَجْني ثمار الرياسة من غصنها، ومجالس الخلافة به تزهو. وقد تكفّل بمهمّاتها هو، وبعد ذلك ولي بلاد الشَّرف، فإذا هو لروضها نهر يغترف منه من اغترف، فأحسن في ولايته وأسدى، وكافح في ثغورها ليوثاً وأسدا، وولي أمر أهلها وحبّذا من والٍ. ونسج لهم حلة العدل فبدت في أبدع منوال، وذُكر بكل جميل، فاكتحل قاصدوه من إثمد المداد بميل بعد ميل، واعملوا إليه النجائب ما بين وخد وذميل[(١)].

وما زال ذلك الثغر لدولته مبتسماً، ودرّ العَدْل والتنويل على جيد إمارته منتظماً. وهو مع ذلك للأفاضل مكرم، ومن مِيْقاته عن ثياب الذم متجرّد محرم. يُعظّم العلماء وينشر لهم على كاهل شرفه عَلَمَا، حتى انتهت أيام نهيه وأمره، وحَطّم الحِمَام ما ثقّف من أسله وسمره. فمات بالمحابشة سقاها الهامل الهامي، وحمل على نعشه إلى حصن مَذْوم[(٢)] السامي، فقبر به ولا ضير. وأنيفت عليه قبّة منيفة بجنب قبة خضير.

وقد زرت ضريحه وشممت من طيب ترابه ريحه. لا زال بغرف الفردوس نازلاً، ولا برح للحور الحسان مغازلاً، ما التحف ذلك الحصن القائم، ببرود منسدلة من الغمائم.

وله شعر حلّى به جِيْد رياسته، وزَيَّن به ما شرعه من حسن أنظاره وسياسته.

---

(١) الوخد للبعير الإسراع أو أن يرمي بقوائمه كمشي النعام، والذميل السير اللين، سبق في ج ١ : ٦٢٧.

(٢) مدوم: جبل في بلاد خجور من أعمال حجة (المقحفى: ١٤٦٨).

قال يرثي بعض القضاة المبرزين، والعلماء الذين شيمتهم للفضائل تزين، كَثَّر الله تعالى عددهم، وضاعف في إيضاح المشكل مددهم:

إن لم يفض دمعك الجاري من الحَدَق ... دماً وطرفك طول اللَّيل في أرق
ولم يكن عَيْشك الصَّافي بمورده ... منغَّصاً كدراً والقلب في حُرق
لحادث نال أهل النّسك منه وهى ... وهدّ بالرَّوع والأحزان كل تقي
فما وفيت إذا ما الدَّمع منحدر ... على مآقيك مثل العارض الغدق
يروي البِقاع ويروي وصف سائله ... عن العقيق وعن ما احمر في الشَّفق
عَلاّمة الشِّيعة الأبرار خير فتى ... رَبّ الوزارة صافي الخلق والخُلُق
أبي الحسين وجيه الدين في أدب ... وفي فِخَار وعِلْم واسع الطرق
العابد الزَّاهد البَرّ الكريم بِمَا ... حوته كفّاه من تِبْر ومن وَرِق
من كان إن جن داجي اللَّيل مجتهداً ... في طاعة الله يجلو ظلمة الغسق
ويَتْلو الذِّكر والآيات في سَحَر ... يظل سامعه بالشّجو في قلق
سعى لِطَاعة مولاه فأسعده ... حتى لقى رَبّه الرحمٰن غير شقي
طوبى له إذ طوى شَرْخ الشبيبة في ... طاعات من خلق الإنسان من عَلَق
يا من يعز علينا أن نفارقه ... وأن يبيت ضجيع اللَّحد والطبق
لو كنت تفدى من الموت الذي انحدرت ... مياته في حلوق النَّاس بالشرق
كنا فديناك بالبيض الرقاق وبا ... لخيل العِتَاق من المعوجّة العنق
لكن أبى الموت من أخذ الفداء فلم ... يَقْبل فداء ملوك الأرض عن نَسَق
لم يمتنع مَلِكٌ منه بجَحْفله ... هَيْهَات للمَنْع لا والله لم يطق
ولو تمنع فوق الشمس منه لما ... نجا ولو غاب تَحْت الأرض في نَفَق
فالحمد لله حَمْداً لا نفاد له ... ما رنّحت عذبات البان في الورق
على مُصَاب عظيم الرزء هوّنه ... موت الذي لو بقي شخصٌ سواه بقي
محمد المُصْطفى المُخْتار من أنست ... إليه في الغار ذات الطوق في العُنق
صَلَّى عليه إلٰه العرش ما طَلَعت ... شَمْس النَّهار ولاح البَرْق في الغسق

وآلـه وكـذا الأصـحـاب مـن لـهـم جـهـاد حـق مـع الـمُـخْـتـار لـلـفِـرَق

قوله: لما ثَوى في اللّحد في الشفق[1]، الشفق بالشين المعجمة المشدّدة المكسورة، بعدها قافان هو اسم القبر الذي دُفن فيه المرثي سقى الله تعالى ثراه. وفي البيت من البديع ما يشبه تَجْنيس الاشتقاق من قوله: شقت، وبين قوله في الشفق.

قوله: كُنّا فديناك البيت هذه نَخْوة الملوك، وأريحية من لهم في المجدِ سُلوك، وهِمَّة الشجعان الذين لهم بين البيض الرقاق، وبين الخيل المطهمة العتاق، مقتحم أيّ مقتحم. له الأسد الورد تَحُم.

القاضي الإمام العلامة الحسين بن ناصر ابن عبد الحفيظ المهلا[2]

من الشرف[3]

إمام الشرف، والبَحْر العذب الذي منه يُغْترف، فاضل أجلى من الشمس، ورَوْض عاطر الشّذا ناعم اللّمس، ما سابقه مسابق إلاّ عثر، ولا فاخر الدرّ كلامه المنظوم إلاّ انتثر، تفرّد في عِرفانه. واستَبَدَّ بجولان ميدانه، فهو فريد الزَّمن، ومَفْخر قطر اليمن، مادجى ليل مشكل إلاّ جلاَّه، ولا تعطّل جيد مجلس إلا حلاّه.

سَرَتْ في الأقطار فوائده، ومُدّت بين يَدَي الطّلاب موائده، فأكل منها المَنْهوم، وظفر من أطعمتها بفواكه المنطوق والمفهوم. فما قَصَده طالب علم إلاّ فاز، ولا أمّة عارٍ عن حلل الفوائد إلاّ ألبسه الطّراز، يزف إليها كلّ حسناء قد رق شفّها. وفاح في الأندية بالندّ عرفها، وتجمّل بالنَّقش من النَّقس كَفّها. أثلج من البرد على الصدر، وأبهج في العين من طلعة البدر.

له تآليفٌ في فنون عديدة، وحلل تصانيف لم تَبْرح على معاطف الجديدين

---

(١) قلت: لم يرد هذا البيت في المخطوطتين.
(٢) البدر الطالع ١: ٢٣١ نشر العرف ١: ٦٢٨ مصادر الفكر العربي: ٢٢٥.
(٣) بلد سبق ذكره في الجزء الأول: ٦٥٦.

جديدة، طالعت شيئاً منها. ورويت حديث التوضيح عنها، فرأيت فيها ما يدل على أن باعه واسع، ونظرت من علمها ما سَهَل عليه وهو على غيره شاسع. وكان للسّادات الطُّلس خامساً[1]؛ لأنه لم يطلع وجهه المنير من الشعر ليلاً دامساً، فكأنه شُريح عصره. وأحنف جهته، وابن زبير زمانه، وابن عبادة أوانه، ولم يزل لأهل الطلب قبله. ولم يبرح يسدّد لصيد الشوارد نَبْله، ويملي على المستفيدين ما تحققوا معه نبله، حتى جرت في الشَّرف فتنه، وثار بأرجائها خطب لا يشرح اللبيب متنه، مِمَّا بلغ خبره إلى أقاصي البلاد. وأخذ نأي الأوطان لأجله في أهبة الجهاد.

فقتل في غير حق، وخسف بدره وانمحق، ومرغ في دَمِهْ، وأفضى به وجوده إلى عَدَمِهْ. ولم يغن عنه دهاه، من خطب جسيم دهاه، فانهدّت لمصرعه الأرجاء، وأبكى حديثه ذوي الفضل وأشجى، وانهدم لمصيبته رُكْن من أركان الإسلام. ولبست من المداد ثياب الحداد عليه الأقلام، ومضى إلى ربه شهيداً، وعاد لمَصْرعه كل شهي دا. ولعنت قاتله الأبكار والعون، ومن هدم بناء ربه فهو ملعون، بكاه الأفق بدمع من الشفق كخالص العين، ولا بدع له أن يبكي به على الحسين.

وكان قتله ببلد السن[2] وفيها باشره من هو مسيء غير محسن، فما ابتسمت بعده تلك السّن أبداً. ولم تَلْق أرجاؤها إلا تعباً وكبداً. وبها قبر جسده بلا رأس، وأما رأسه فحمل إلى حصن مدوم كما يحمل النِّبراس، وللوم الدهر وحسده، فَرَّق بين رأسه وجسده. ووقفت على جدثه الذي تربته غير منكورة، ولاحت لي شمسه المنيرة خلال الضريح من كورة، وزرت قبره، وأفضت على روض حفرته نهراً من العبرة.

قلت بديهةً مما نظمته البادرة، وأرسلته في الحال من أردية حاكتها فما

---

(١) سيأتي ذكرهم.

(٢) في بعض تراجم المذكور يرد هذه البلد بالنيساء.

حاكتها أردية الديباج السادرة[1]:

لـلـمـهـلاً وهـو الإمـام ضـريـحٌ ... في ربى السّن منه إذ حان حين

قلت فيها إذ زرته في اكتئاب ... هذه كربلا وهذا الحسين

وقلت أيضاً:

في السّن أولوك من القتل ما ... أبكى بدمع واكف كل عين

قد حَمَلوا الرَّأس إلى مِذوم ... لا غرو أن يحمل رأس الحسين

سُقي جدثه الغَيْث الهتون، وخالط ياقوت دمه درّ القطر المكنون، حتى ينهى على ترائب تراب الأرض من ذاته عقدها المفصّل، ويتم لها الجمال بما نظّم لها من قلائد الزينة وتحصَّل.

وله شعر ما نظم مثله عالم. ولا سرى ألطف من نسيمه في رياض المعالم، فكم لأشعاره من عقيلة! ذات سالفة من القرطاس صقيله، يهتز من الوفرة ردفاها، إذا ظمى ذو الهيام بالأدب قيل له: رد فاها. من ذلك قوله في بعض القصائد المطولة، وكلماته التي بأسنى المعاني منوّله، وهو مما أجاب به على بعض الأدباء الألبّاء، وراجع به شخصاً من ذوي ودّه الذين هام بهم حبّاً:

أريح الصَّبا هَبَّت بِنَشر من الورد ... أم العنبر الشِّحري مرّ على الرَّند

أم المسك أم هذي مجامر فِضّة ... تسوق إلينا طِيْب عرف من النَّد

وتلك بدور أم شموسٌ طوالعٌ ... بأفق بياض المَجْد من صاحب المَجْد

تذكّرني وَجْه الحبيب وداره ... ومن حَلّ في وادي العقيق وفي نَجْد

وذكّرت المضنى بمَلْهى وملعب ... نسيت وما أنسى عتابًا على الصّدّ

رعى الله أيام الوِصَال ورشفنا ... رضاباً حلا من ثَغْرها الطَّيب الورد

تعاطيك بالكَفّ الخضيب مدامةً ... فتغدو مليكاً للعراقين والهِنْد

---

(١) المرسلة الطويلة.

وتخطر في وَشْي من البرد أخضر ومن عجب أن الغزالة في بُرْد
فأزرارها زُرت على ضوء كوكب يضيء لأرباب المحبّة من بُعْد

منها:

لئن كنت في غَوْر وهبّت لنا الصَّبا فكم خَوّلتني منك طِيْباً صبا نجدي
أقول وقد مَرَّت روائح طِيْبها بِمِسْك وكافور مقاله ذي ودّ
(ألا يا صباً نجد متى هِجْت من نجد لقد زادني مسراك وجداً على وجد)
سقى الله أياماً تقضّت بقربها وأهلاً بها مهما تزرني على عمد

وقوله في بعض المراثي:

ألا إنما الدنيا غضارة أيكة إذا اخضرَّ منها جانب جَفَّ جانب
هي الدَّار ما الآمال إلاّ فجائعٌ عليها وما اللَّذات إلاَّ مصائب
فكم سخنت بالأمس عيناً قريرة! وقرّت عيوناً دمعها قَبْلُ ساكب
فلا تكتحل عيناك منها بعَبْرة على ذاهبٍ منها فإنك ذاهب

ومن تآليفه المفيدة ونصانيفه العديدة نظم (المواهب القدسية. شرح البوسية) للإمام البوسي رضي الله تعالى عنه، فإنه شرحها شرحاً يشرح الصدور. فأطلع من فوائده في آفاق أوراقها الشموس والبدور. أفاد فيه وأجاد. ونقع بشرابه العذب غلّة كل صاد، وأحاط به على شوارد الفوائد ولا كإحاطة جبل قاف بالبلاد، وقد وقفت عليه وطالعته وكتبت على نسخته قولي في التورية:

كسانا المهلا من مطارف علمه نفائس قد أربت على كلّ ملبوس
أزال بهذا الشّرح للجهل شدةً وفرّح إذ جلّا لنا مبهم البوسـ (ـي)

أخوه القاضي أحمد بن ناصر المهلا[1]

لقّبه والده بالشّهاب، وهو شهاب له في سماء المجد اتّقادٌ والتهاب. يعدّ في العلماء صَدْراً، ولا يعدّ في الفلك شهاباً وإنما يعدّ بدراً، وهو بعد أخيه المصلّي ولجوانح حُساده بَحرّ الكمد المُصْلّي. بحرٌ عميق القرار، وسَيْف قاطع الغرار، اجتمعت به في خَمِر[2]، وحُظيت بسحر ألفاظه المستمر. فإذا هو لنا مجرى العوالي ومجرى السَّوابق، مثار النّقع وما هو إلاّ مسكٌ عابق، لأنا تطاردنا منه في ميدان، واتحدت فيه أرواحنا وإن تعددت الأبدان.

وكان يصف لي ما بَيْنه وبين والدنا من الألفة، والخلّة التي يسبق كل واحدٌ منهما إليها فيترك الجياد خلفه، واجتمت به ثانياً في الشَّرف. وذلك ببلدته المسمية بالشجعة ذات الغرف، فأكرم مثواي وأحسن نزلي، وعَقَل بناديه الخصيب نجائبي وبزلي[3]. ومرّ لنا وقت بالمذاكرة، والمسارعة إلى الاجتماع والمباكرة، وأملاني من شعره ما يولي الدرّ كساده. من ذلك وقد أهدى لبعض الملوك وسادة:

ثـنـيـت لـمـجـد مـولانـا وسـادا ... فـطـال عـلـى الـنـجـوم بـهـا وسـادا
فـخـذهـا يـا حـلـيـف الـمـجـد مِـمَّـن ... أتـــاك لـــزَوْره يـــومـــاً وعـــادا
ووالـى فـي مـحـبّـتـك الـمُـوالـي ... وجـانـب مـن تـجـانـبـه وعـادا
وولّـى عـن مـقـامـك غـيـر راضٍ ... وسـار بـرغـمـه يـومـاً وعـادا

وكتب إليّ من نظمه يدعوني إلى داره، ويحثني على التّمتع بأحاديثه وأسماره قوله:

أيـا قـاضـي الـقـضـاة وخـيـر مـن قـد ... تـسـنّـم لـلـكـتـابـة والـخـطـابـة
أجِـبْـنـي قـد دَعَـوتـك لاجـتـمـاع ... ومِـثْـلـك لـي خـلـيـقٌ بـالإجـابـة

---

(١) انفرد بذكره.
(٢) بلد مشهور من بلاد حاشد شمالي عمران (المقحفى: ٥٨).
(٣) البازل: البعير (معروف).

خطابك قد أعاد عليّ غَضراً مضى وأعاد من عمري شبابه
فمنّ علي بالتَّشريف حتَّى أباين ما لقيت من الكآبة
فَبِيْ شوق لقربك ليس يطفى سوى التّعجيل باللقيا التهابه
ودم ما غرّد القُمْري وأبدى لبعد الألف في الغصن انتحابه

فأجبته من النظم والنثر بقولي:

أقطرٌ سقت في طرس ربابه ولحنٌ أنَسَت أذني ربابه
أم الرَّاح المريح أدَرْته لي وقد نَظَمت من درّ حبابه
فلا والله ما هو غَيْر نَظْم جَعَلت من المِدَاد له ذؤابه
أيا شمس العلوم وبَدْر مَجْد ومن أضحى لمجلسنا شِهَابه
على أثر الجواب إليك آتي فهيىء لي من الأدب انتخابه
وأنزع منه لي كأساً دهاقاً يروق وصفّ عن كَدَرِ شرابه
أدام الله فضلك ما تحَلَّت رياض الزَّهر من درر السّحابة

أنا إليك أشوق منك إليّ، وأنا عليك أحنى منك عليّ، فما زادني استدعاؤك شوقاً، ولا حَثّني في طرق البِدّار سوقاً. أنا مقبل إلى دارك كما تريد، وأنا أقرب إليك من حبل الوريد، وأسرع في المَشْي من خطوات البَريد. ولم لا أبادر إلى مقام، ما تَمَسُّك فيه إلا النَّسيم بذيل السقام، فهو الروض لمن أراد روضاً. وهو المَنْهل العذب لمن ورد خوضاً. فما دعوتني إليه أن ألِمْ وللأفراح ألمّ. إلا بعد أن دعتني الصَّبا بلسان نَشْرها هلُمّ، وناداني الطَّير، أن انهض واحثث السير، فسرت مرتدياً ثوب نَشَاط، أسير من المروج على أنهج بساط، ولكني أقترح عدم التَّكلف، فإنه داع إلى التأخر والتخلف.

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يَهْجر للإفراط في الخضر

فطال ما فاز المُحب، بيوم من إكرامك شنب، يسر فيه إذ يظفر بما رام، ولكنه يساء لاحتمالك ما يَثْقل من مزيد الإكرام، فخفّف عليَّ تخفيفك على نفسك، ولا توحشني بمجاوزة الحد في أنسك. والاقتصار على المقصود، هو

الإكرام المحمود، والزيادة تعد من السَّرف. لا زلت شهاباً طالعاً في آفاق الشرف والسلام.

وكتبت إليه مجيباً عليه وقد أرسل لي بِطِيب في يوم غيم ما لفظه:

وصلتني منك درر كالدَّراري في الغدف. لها القلوب حقاقٌ والآذان صدف، في يوم قد أرخى فيه الجو عمامته. ونشر في الخافقين غمامته، ورَمَى بحصى غيثه من الغصن حمامته. وقد بَشّر النَّسيم الدوح بوقوع قطر الغمام. فنثر بشارة بين يديه دنانير زهر أخرجها من الأكمام، فوقع كلامك منِّي موقع هذا القطر من الحدائق. ونزل نزوله على النّرجس والورد والشقائق. وبَرَد به القلب كما برد الجوّ، وامتلأ به الفؤاد مسرّة كما امتلأ بهذه السحاب الدوّ[1]، مصحوباً بذلك الطِّيب الذي فغم، وأرى الصَّادح في وصفه قد بغم[2]، وكل طيب قد رمي عنده لقصوره عنه بغم. فهل بعثت إليّ أخلاقك؟ أم أوصافك وأعراقك؟ فيا له الله من طيب، يخرس عند وصفه الخطيب. وصل وحيًّا، فنعش وأحيا، وصقل الفؤاد بريٍّ ورِيّا. سألناه عن النسيم وقد تضوع بِنَشْره فقال: هو سقيم. وعن زهور الرياض، فقال: وجدناها عندي عَدَم، وعن المسك والكافور والعنبر، فقال: هم لي من العبيد والخدم، أستغفر الله تعالى أيها الخل والنديم. سهوت أن أبدأ في السؤال بما حَقّه التقديم. سألناه عن أعراقك فقال: أنا منها، وعن محامدك فقال: أنا أروي هذا النشر الفائح عنها، فلا زلت بكل طِيْب مذكوراً، وبلسان الكون على كل عارفة مشكوراً والسلام.

الفقيه المهدي بن محمد المهلا[3]

فقيهٌ بارعٌ، رمح قلمه يطعن كل دارع، غمطمط[4] يمّ، وروض سَقّتْه الدِّيم ذو عرفان. له من العِلْم والأدب صِنْفان، وموائد فوائد يكرم بها من الطَّلبة ضيفان

(١) الفلاة.
(٢) بغم: لم يفصح.
(٣) انفرد بذكره.
(٤) الكثير الأمواج.

لِشَمْس فَضْله شروق، ولسحابته الهطّالة بروق، ولمآثره مشارع وِرْدها يروق، يَنْسخ الكتب ويحصّلها، ويَقْطع حللها للخياطة ويفصّلها، مع جِدَّة وبراعة يهدّد بهما قرطاسه ويروع يراعه[1]، وهو أول من نَشَر ديوان الإمام الزمخشري في أقطار اليمن، ووزن لآلىء نظمه فَبَاعها بأوفر الثَّمن وقد ملكت نسخةً بخطه لا المنَكَّر بل المعرَّف، وتأملت في مرقوم حروفه فإذا هو نَقْشُ البنان المطرّف[2].

وله شِعْر هملت غمائمه، فافترت بِثُغور الأقاح كمائمه، وغَنَّت على أغصان أقلامه حَمَائمه، كقوله مهنياً لإمام العصر بالقدوم إلى مدينة صنعاء التي أُكل رياضها وظِلُّها يدوم:

لـنـا مـن الله بـالإحـسـان عـادات ... بيمن من حُمدت منه السَّعايات
مـن قـام لله إبـلاغـاً لـحِـجّـتـه ... منه لقد وضحت للعدل آيات
وأنـجـز الله وعـداً كـان مـنـه لـنـا ... بقائم صلحت منه السَّريرات
هذا الإمام الذي أمضى عزائمه ... نَصْر من الله وانهدت ضَلَالات
إمـام حَـقّ بِـهِ تَـمَّـت سـعـادتـنـا ... إن الأئمة في الدّنيا سعادات
يحفّه من كرام الآل أسرعهم ... إلى المعالي حماة الدين قادات

منها في الوعظ:

فقل لمن كان في أمواله سِعَة ... ومن به في الورى نِيْطت ولايات
ليس التّنافس في الدنيا بمُكْرمة ... ماذي الرياض وما هذي العمارات
أيأملوّن خلوداً في بِنائهم ... وفي عمارة من ساروا كفايات
أين الذين بنوا هذي القصور لهم ... بَذْل العنايات في تأسيسها ماتوا
ونسأل الله توفيقاً يُبَلِّغنا ... حُسْن الخِتَام فللأعمار غايات

وله من أخرى:

---

(١) قلت وقفت على خط المترجم له فوجدته كما قال المؤلف ومنه مجلدات توجد بمكتبة جامع صنعاء (الأوقاف).

تقول التي طال النوى عن وصالها وبعد الفتى عن من يُحِبّ جنون
وقد نحل الجسم الذي كان ناعماً وخدٌ عليه رَوْنَق وجبين
ألا عذر تُبْديه لتقض عهودنا فقلت لها إن الحديث شجون
وهيهات أنّي أنقض العهد بعدما شَبَابي مَضَى والعَهْد فيه مصون

القاضي عبد الله بن محمد التامّ[1]

من الشرف

هو بدرٌ تام. عقدت في أصابعه للمَجْد رتام[2]، نصب من العلم والأدب منبراه، وخلق لكسبهما فتعالى من براه. حَلَقَةٌ من درع دلاص، ودرّة من لآل غصّ بها المغاص، فهو من قوم كلهم صدور، وطيور عرفان لا توجد بهم إلا الصُّقور.

وهذا العارف يُلَقّب بالفخر، ويدعى لوقاره ورجاحته بالصَّخر، فهو للمجد في الولادة تؤم، ولذا كان كعبةً في كل حين تؤم، وركناً به الصّدع في الدين قد التأم. وقد وصلت من الشرف المحلة[3]، ورأيت فيها مأثره ومحله. وكان وصولي عقيب موته، ونزولي بداره قَرين فَوْته، وطينة ضريحه بليلة، وأيام لبثه في قبره قليله، وأكفانه لم تخلق. وأبواب الحزن عليه لم تُغْلق. قبل أن يفري البلاء له أديماً، ويسلّي مرور الأيام عنه نديماً، فإن لم أر الليث فقد رأيت خيسه، وإن لم أجد الدِّينار فقد وجدت كُيسه، وإن لم أظفر به فقد نزلت بلده. وإن لم أساجله فقد ساجلت ولده، وهو نِعْم العارف، لولا أنه لم يتجمَّل كأبيه من الأدب بِمَطارف، وأما صاحب الترجمة، فيا للّهِ ما ألطف نظمه وأسجمه، فله في مراتع الأدب سوائم. وله من كبار اللؤلؤ توائم.

أنشدني له ولده يحيى، الذي تحجر بعده سوح المجد وأحيا. قصيدة يرثي

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) جمع رتمة وهو خيط يربط في الأصبع للتذكير.

(٣) المحلة: قرية انظر المقحفى: ١٤٣٣.

بها أخاه علياً لما حزن لفراقه ولم يقل: (واهجرني مليّاً). وقد قتل في هجر الأهنوم، وكلم بألسنة السّيوف فإذا كل قلب بعده مكلوم. أقدم إقدام أسد مشبل، ولم يُدْبر في المعركة عن مَوْت إليه مقبل، تَجَرّد تجرد السّيف من القراب، وقد حَمي الوطيس وآن الضراب. يوم صَنْدل[1] لم يطب رِيحاً، فعاد بأطراف القنا في المعركة جريحاً. وسلبه ذباب السَّيف روحاً ومالاً لبدا، فصار من الذين إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه أبداً. ولمّا باشر الطَّعن والضرب، وألقى بنفسه في الحومة أصابه سهام غرب. منها قوله:

أبِمِثْلِك الدّنيا الدنية تَسْمح ... أم كيف يهنأنا المعاش ونَفْرح؟
أقحمت نفسك راغباً في مَجْدها ... صَدْر المكرِّ مقام من لا يَبْرح
ورأى مقاتلك الثبات لدى الوغى ... فلأنت ثَهْلان المنيع وأرجح
جبلٌ رسا علمٌ بدا بحر طما ... غيث يجود على العفاة ويَمْنح
وتذاكر الشّجعان صولتك التي ... كنّوا بها يوم البِرَاز وصرّحوا
صدقوا بأنّك وارث القوم الأولى ... مدحوا وقد غدت الأكارم تمدح
لولا ذَرِيّ وأهله مع هِنُوم ... خدعوا الجوار وأفسدوا ما أصلحوا

منها:

وتحَصَّنوا بجبالهم لما رأوا ... من في المدينة في دِمَاهم يَسْبح
ما دار بَيْن الناس ذكر حديثهم ... إلا انثنيتُ وكل شخص يقدح
أعليّ إن فارقت دار مهانة ... فلدَيْك أبواب الجِنَان تفتّح
إن الشّهادة للكرام سعادةٌ ... تَجزي بما أمسوا عليه وأصبحوا
وعليّ أن أبكيك كل عشيّة ... ما زالت الورق الحمائم تَصْدح

(١) يقال: يوم صندل يوم كان فيه حرب (القاموس).

الفقيه أحمد بن صالح المهاب[1]

من الشرف

عظيمٌ مهابٌ. قد حُشي بالفضل منه الإهاب، فعصره من الأيام شبابها، وإنسانه من عين الزّمان ذبابها، قرأ فأدرك، وإذا هو في رُتْبة لا تشرك. تَصَدَّر للإفتاء فأوضح، وكل إناء بما فيه يَنْضح، ما من مخدّرة في العلم إلا وهو أبو عذرها. ولا مشكلة فيه إلاً وهو موضحٌ عذرها، فنهر عرفانه البارد، لا يمنع من ترشّفه الوارد. فهو لدى علماء الأمصار، ممن تخضع له الرقاب وتنكس الأبصار، نادته المعالي فرفعته اللّيالي، مع تفرّده في السؤدد، ولا غرو أن يرفع المنادى المفرد[2]. ذو عزم لكنانة المحامد قد نثل. وحَزمٌ في الأمور يضرب به المثل.

وله في علم الفرائض نصيب، لا يبعد فيه مع أنه ذو عمامةٍ من التعصيب، فلا يبرح للمواريث يقسم ولمادة الشّجار فيها يحسم، يَذْرع الضّياع، ويميّز الشّياع، فحبله على غاربه، وسَهْمه في كفّ ضاربه، وعصاته على عاتقه، وثوبه للتمزّق تحت إبرة راتقه، فالغبار[3] له طيب، والذّراع[4] غُصْنه الرطيب.

وشعره راجح الوزن. قدِ امتدت أبحر عروضه في السّهل والحزن. كقوله يَمْدح أمير اللحية، ويترك أطايب ذكره وقد مات حيّه:

أعد الحديث لعزّة وكُثيّر ... لتَرَى غرام العاشق المتحيّر
يا لائمي في الحُب ما لي مَسْمع ... فدع الجدال وللملامة قَصّر
أكفف لحاك الله تلك شريعة ... حكم الغرام بها ولَمّا يعذر
سائل عن المجنون وابن حذيفة[5] ... ما آل أمرهما إليه تخبّر

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) قال النحاة: إذا كان المنادى المفرد علماً أو نكرة مقصودة فإنه يُبنى على ما كان يرفع به قبل النداء فتقول: يا رجلُ يا فضلُ.

(٣) الغبار: علم الحساب.

(٤) الآلة التي يذرع بها (معروف).

(٥) انظره في الواضح المبين لمغلطاي: ١٦٩.

لهم حديث بَيْننا مُتَطاول سَنَد تحرره الرّواة بِدَفْتر
لي بالغزال الأجرعيّ تعلّق وبواضح الثَّغر الشَّنيب المسكر
رَبّ الدّمالج والقُبَاطي[1] التي أذيالها خُضبت بِمِسْك أذفر
كم ماس بين مذَهّب ومفَضّض ومُمَسّك ومعَنْبر ومعَصْفر
وتراه يُذهلنا بِنَرْجس مقلة وبوَرْد خدّيه الجنيّ الأحمر
قد مال في حُلل الحرير كأنها الأ وراق تَبْدوا فَوْق غصن أخضر
يَزْهو كبَدْر تحت طرة حالك يبدو فيطمس طلعةً للمشتري
بين العيون الناظرات وبَيْنه ما بَيْن حربةِ حارث والأشتر
في موطن أرج كأنّ أريضه نادٍ لمالكنا الأجل الأكبر
شرف الهدى حامي الكتيبة يوم لا أحد يقوم مقامه بمُعَسْكر
والشوس[2] بين مطاعن ومجالدٍ يَسْعى وآخر في التّراب معفّر
يغشى الموالي منه غيث صيّب ويُصَاب باغضه بريْح صَرْصر
وتراه يُقْدم للجيوش مكافحاً متسربلاً ثوب الدّما المثعنجر[3]
لا زال في سوح اللّحية حامياً تلك الرّسوم بأبيض وبأَسْمر
هذا ولا زالت بسيرة عَذْله في الحسن تَحْكي حِيرة ابن المُنْذرِ
وعليه ألف تحيّة من أحمد ما لاح مُبْيّض الصباح المسفر

قوله: والقباطي هي بالقاف والباء الموحدة جمع قبطية بضم القاف. قال العلامة المفيد جمال الدين الدميري رحمه الله تعالى في كتابه «حياة الحيوان» في بحث الغرنيق، ما لفظه[4]: وهي ثيابٌ بيض من كتان تنسج بمصر. فنسبت إلى القبط بضم القاف فرقاً بين الثياب والأنام[5] انتهى كلامه، وقد ذكرت هنا قولي في الجناس:

---

(١) سيأتي شرحه.
(٢) جمع شاس: جريئاً في القتال.
(٣) المثعنجري: السائل من ماء أو دمع ونحوه.
(٤) حياة الحيوان: ٣١٩.
(٥) حياة الحيوان: الأيام.

أكرم بِرَوْض مُدّ من زهره المبـ يضَّ في الدوح القباطيا
إذا رأته غادة بادرت من غيظها تطوي القباطيّا

أخوه محمد بن صالح المُهَاب

صالح وابن صالح، وبحر على الحقيقة إلا أنه غير مالح، النّساء عن ولادة مثله عقم، والرِّياض لا تثمر بما أثمر، ولذا اعترى نسيمها السّقم. له من العلم بحورٌ وخلجان، تقذف كبار اللؤلؤ والمرجان. المجد لفظ هو مَعْناه، والفخر سوح هو مَغْناه. رضع من المعاني ثدياً، واستوطن منه ندياً، وقطف زهر رياضها نديّاً، واستنشق عرفها في تضوعه نديّاً.

له مكارمٌ يتوالى مَنُّها، ورجاحة إذا ذكرت الفنون قالت هي فنها[1]. انتظم في سلك العفاف، وتدَفَّق نهر صوبه فما له من جفاف. ذو قدم في الفضل قد رسخت، ورتبة في دفة الخافقين قد بذخت. فإذا هو غرة في جبين الدَّهر قد شدخت، لرمح قلمه من السّبج سنان، ولبديع لفظه تَوْشيع[2] وافتنان. إلا أن شعره يقصر عن شعر أخيه أحمد، فما لبحر عروضه ما لبحر عروضه من المد. وقد أسمعني من نظمه ولده الهادي شيئاً قامت عليه في الحسن أشهادي، فليس أبداً بالقبيح، وبنت فكره لا تخلو عن وجه صبيح. من ذلك قوله:

عبثت نَسيم الصّبح بالورد وسَرَتْ على الرَّيْحان والرَّنْد
وتعَطّرت حافاتنا وغدا زهر الأقاح كجَوْهر فَرْد
ورد كخدّ أحمر خجل أكرم بذاك الخَدّ من خدّ
قد رَشّه بالطّل منتظماً عَتْبٌ على الهجران والصّدّ
كم قال ذاك الخدّ عن خفر لا تمزجن الهَزَلْ بالجَدّ
من فاته إدرك فاتنه فهو القَتيل له بلا عَمْد

---

(١) في (ش) فالنهي فنها.
(٢) التوشيع: من فنون أهل البديع انظر في خزانة الأدب ٢: ٤٦٧ ط كوكب دياب.

لا لا تــغــازل مــن بــه مــرحٌ ... سَهْل المجون مُسَلْسَل الجَعْد

واعــرض عــن الـدّنيا وزخـرفـهـا ... واعدل عن المعطاء[1] والمُكْدي

ودع ادكــار مــرابــع درســت ... لـلـمـالـكـيّة فـي ربى نَجْد

مـا الـفـوز إلا لـلـتّـقـيّ ومـن ... هـو بـالـهـدايـة لـلـورى يَهْدي

وكـذاك مـن طـابـت عـنـاصـره ... ونِـجَـاره بـالأبّ والـجـد

مـثـل الـمـكـافـح لـيـث مـعـركـةٍ ... يـوم الـهـيـاج بِسَيْفه الهِنْدي

مـن لـيـس يـسـأم قـط مـعـتـركـاً ... فـيـعـيـدهـا فـيـنـا كـمـا يُبْدي

وأخـو الـسَّـمـاحـة والـرجـاحـة فـي ... رأي لـه قـد حُـفّ بـالـسَّـعـد

أعـنـي عـلـيـاً مـن عـلا شـرفـاً ... كـم عُـدّ مـن فَـضْـل لـه عِـنْدي

يـا رب عـارفـه لـه عَـظَـمَـتْ ... سَلَكت به في واسط العِقْد

كـم قـد تَـبَـسَّـم يـوم نـائـلـةٍ ... فـي وَجْـه مـن قـد أمَّ بـالـقَـصْد

لا كـالـذي إن سـنـه ضـحـكـت ... فـتـخـالـهـا بـرقـاً بـلا رعـد

لله كـم أبـقـى لـنـا شـرفـاً ... فـي الـمُـكْـرمـات يـبـوء بـالـمَـجْـد

بـأخـيـه عـبـد الله مـالـكـنـا ... لله مـا يـعـطـي ومـا يـبـدي

ولما أملاني ولده الهادي هذه القصيدة، وجلا على تخت براقع المدادِ هذه الخريدة، في مقام حُفّ بالهنا، وتَدَلَّت في روضة ثمرات المنى، وتمايلت الحديقة فيه عن أفنانها، وقد نهدت غادتها: بسفرجلها ورُمَّانها. وتبَرْقعت الشَّمس وتناول الغصن كأس القطر بالخمس. أمليته في وزنها ورويّها قصيدة خليلنا إبراهيم الهندي التي كتبها إلى مولانا الوالد، ومطلعها:

نـفـثـات مَـصْـدور مـن الـبُـعْـد

وهي مشهورة مع جوابها. وأبياته التي يزول الجوى بها، فتمايل من الطَّرب عطفه، وزاد كالنّسيم لطفه، ونقلها من أملائي مع الجَواب بخطّه الجلي، وسقى

---

(١) في (ش) الأعطا.

روض مجموعة من غيثها بالوَسْمي[١] ومن قطرات الجواب بالولي[٢].

ولده الهادي بن محمد المُهاب[٣]

ما أرفع مزيته وأشرف سجيّته، كريم طاب خيمه، وأديبٌ أطرب رَخِيْمه. لم يَخْطر النَّسيم الساري، ولم يتَدَفَّق النهر الجاري، بروض مثل روضه الأَحْوى، الذي لَحَنت به الورقاء على أنها تراعي له نحوا، خص بالذّوق السّليم. والكلمات التي هي أحب من الرقية عند السَّليم. وله أخلاق كزَهْر الربيع، إذا افْتَرَّ في جوانب الروض المُريع، ولمّا وفدت الشَّرف، ونزلت من قُصُورها في أرحب الغرف. أقبل إليَّ إقبال راغب، وَهَبَط على مائدة أنسي هبوط ساغب، فعدَذْت عليَّ وفوده، كرجوع أيام الصِّبا على من بَيَّض المَشيب لمته وفوده، فكنَّا لأطراف المذاكرة نتجاذب، وبالألفاظ العلميّة الأدبية نَتَخَاطب، مما لو ذاقته المدام لسكرت، أو بارته نوافج المسك لبارت وما ذُكرت. من حديث تَسْتعير لفظه قبول[٤] وصَبَا، وتَغْرق برشح الطل، وقد رامت متابعته وصبا.

فكم نهار قطعناه، ويوم أطاعنا وأطعناه! أبيض الأديم، غنيمة النديم، قد ذُهّب بالأصيل، وطرز بالشَّفق. واتفق لنا بالنّجاح فيه أحسن ما اتفق، وكم ليل شققنا قلبه! وزَرَرْنا بالنّجوم جيبه، وقضيناه سمراً، واجتلينا فيه قمراً، وشَمَمْنا نسميه، وقامت الشموع فيه لخدمتنا عن طلعةٍ وسيمة، ونحن تحت أذيال ليل سجا، كأنه زِنْجي يقدّم بين أيدينا من زرقة السّماء بنفسجاً، ويُتْحفنا من النّجوم بالنَّرجس. وقد أضمر من رومي الصّباح في نفسه خيفةً وأوجس، فإذا به قد هجم عليه برمح من عموده. وجلا من لونه ما ازداد في سواده وكموده، يذاكرني حديث زَرُود، وأيام العُذَيْب بكل غانية رود، حتى تُمَزِّق يد الفجر رداء الليل. المطرّز

---

(١) الوسمي: مطر الربيع.

(٢) الولي: المطر بعد المطر.

(٣) انفرد بذكره.

(٤) الشارة.

بذهب الشّهب المتعطّر بنسيم السّحر منه الذيل. وكان يُمْلِيني من نَظْمه المختار، ما تميل له الأعطاف ميلانها بنغمة الأوتار، فكم لعرائس فكره من جَلوة، تسلي بما بَرَز منها عن نظم بن سلوة[1]، فشعره مُنْتخب لدى حاضر وبادي. ولا غرو من كون المنتخب للهادي[2]، ولكنني لم أحفظ منه غير قوله في المدح، مما صدح به طائره أرخم صَدْح:

فتى خَطَبَ المكارم والمعالي ... بأطراف الأسنة والحسام
لقد جَرَّ الكتائب يوم حَرْب ... إلى الأعداء ملتطم اللّهام
وصال عليهم فيه فولّوا ... وقد أُخذوا بِبَطْش وانتقام
أعدّ لحَرْبهم خيلاً جياداً ... جوامحهن تُثنى باللّجام
سنابكهن في يوم التلاقي ... تناقل فوق أجسام وهام
وقد دعي الجبان به فولّى ... وَوَجْه الشمس بُرقع بالقَتَام
وصال على كتائبهم فأضحت ... مولّية بِكَسْر وانهزام
ونادى يا فئاة البغي أنّي ... أنا الضّرغام والبَطل المحامي
فأشبع رُمْحه طَعْناً وروى ... بكفّيه الحسام وكان ظامي
فَذَكَّرنا بفَتْك أبي تراب ... وصيّ محمد خير الأنام

وقال يهنينا بالوُصول إلى (الشرف) لما شعر بِمَقْدمنا إليها وعرف، وجاء إلينا مُسْرعاً ولكأس أدبه مترعاً، سقى الله تعالى داره، وحفّت شمسه من الحماية داره، وجُنِّبَ من الزمانِ غداره.

وكُتِب لنا بعد هذا البعد التّلاقي. وأزاح هذي النّوى الذي بلغت به النفوس التراقي:

ألا قل لقاضي المكرمات الذي جَلّا ... أتيت بنا أهلاً وطِبْتَ بنا سهلاً

---

(١) لم أجده.

(٢) كتاب المنتخب في الفقه للإمام الهادي يحيى بن الحسين المتوفى ٢٩٨هـ (انظر مصادر الفكرالعربي: ٥١٥).

وشَرَّفت لما جئت للشرف الذي بمَقْدمك المَيْمون قد حازت الفَضْلا
وأَطْلعت في الأفلاك منها جواهراً وأظهرت بعد الجَوْر في قَطْرها العَدْلا
فمَهْلاً فقد طارت نفوس لأهلها سروراً أبيت اللعن مهلاً بها مهلاً
أيا بحر علم قد تبوَّأ رتبةً أنيفت له فوق السّماكين أو أعلى
ويا واعظاً لا ابن الخطيب مقايسٌ له فهو منه للخِطَاب قد استملى
ويا روض آدابٍ نشَقْنا لزَهْره من العَرْف نشراً من زهور الربى أغلى
أتيت إلى هذي البلاد بهمَّة وتَشْمير عزم ما رأينا له مِثْلا
أينكر هذا جَدُّك الحسن الذي بكلّ بلاد أحسن القول والفِعْلا
وخذها عن المضنى عُجَالة شيق إليك وقد كان السُّكوت به أولى
فإني كَمَنْ أهدى إلى البحر جرعة وفيه لآل رُبّ جِيْد بها يحلى
عليك سلام ما تغنّى مطوّق وما الغَيْث من فوق الرياض قد انهلا

وكتبت إليه لما تخَلَّف عَنِّي ثلاثة أيام، وزعم أن ذلك لعذر حتى قال على الأقدام أحكام ما لفظه:

أيها الفائق شمائلاً، والعابق خمائلاً، والطويل حمائلاً، لِمَ تَخَلَّفت عَنَّا، وارتضيت بُعْدك مِنَّا. وقد وعرفت أن الشوق إليك رائح وغادي، وأن سبيل أنسنا مجهولٌ، فهو يفتقر إلى الهادي[1]، فبحق القرابة الأدبية، وسِلْسلتها الذّهبية، إلاَّ ما آثرت الوصل على القطيعة. وألزمت نَفْسك المبادرة إلينا فإنها مطيعة. فقد عرفت في هذه الدِّيار غربتي. لولا أنسي بمثلك لم أفارق كربتي. حاش لله ما أنا بغريب، وأنت مِنِّي وإن بَعَد الأهل قريب، فبملاقاة مثلك يهوّن الخطب، وبعَرْف حديثك يضيع ولا يضوع المَنْدل الرطب، فالنّدماء لا تتفق خصالهم، ولا يقع على الغرض نصالهم، فما كل الطيور يَتّحد نِفْعها. ومَغْناها الذي وجب به رفعها، إنما جَمَال البازي اصطياده لا غير، ومَغْنى الهزار، تغريده الممتاز به عن الطير، وحُسن الصَّعو

(١) تورية باسم المترجم له.

في صُورته، فكل منها قد انفرد في رتبته. فدم أيها اللبيب، على المعاودة والتلبيب، وافعل[1] في جوابك قول: نعم وابغ لا. وليكن في الإسعاف سَهْمك سَهْم النّصال لا سهم الغلا[2] ولا تزر غبّا، معتقداً بذلك أنك تزداد حباً. إنما تزداد حباً وودّاً، بأن لا تجد من ملازمتنا بدّاً، حتى إذا غابت عنّي الشمس كنت عنها خلفاً، وإذا غرب البدر كنت عنه نائباً وإن لم أر بك كلفا. فالهجر إذا جاوز الثّلاث، حرّم كما نص عليه سيد الذكور والإناث. هذا ولا زالت راسخة في الحب قدمك، ولا زلت منزّهاً عن أن يَعْتريك نَدَمك. ما ارتاع الليل من النّهار بالنجوم، وهَبَّت الصَّبا في الصباح وأطفأت قناديل النجوم، والسلام.

قولنا: والتزم في جوابك قول: نعم، الفقرة. والفقرة التي تليها فيها الجناس كما هو ظاهرٌ والنِّضالِ في الفَقرة الثانية هو بالنون المشددة المكسورة والضاد المعجمة المباراة في الرّمي، وسهم النضال في الفقرة الثاني هو السَّهم المقوّم الذي يناضل، وسهم الغِلاء بكسر الغين المعجمة، والمغالي هو سَهْم لا يُعْتَدّ به في النّصال وإنما جعل للمغالاة. وهو أن يرمي الرجلان أيهما أبعد ذهاب سهمه وربما نتف بعض ريشه ليطيح إذا رمى به ويمر، قال أبو تمام الطائي في مرثية له[3]:

أُصبنا جميعاً بسهم النِّضال ... فهل لا أُصِبنا بسَهْم الغِلاء

[معناه: إنا أصبنا في ساداتنا وأجلائهم، فهلا أصبنا بمن هو دونهم في الجلالة والرتبة][4].

الشيخ الهادي بن شمس الدين[5]

من الشرف

هذا من يفوز[6] الذي يظفر ساكنه بمحلّ النجوم ويفوز، وهي قَلْعة مسوَّرة

---

(١) في (ش) والتزم.
(٢) سيأتي شرحه للمؤلف.
(٣) ديوان أبي تمام ٢: ٢٧٣ ط دار صادر.
(٤) ساقط من (ش).
(٥) انفرد بذكره.
(٦) يفوز: حصن في منطقة سمرين من مديرية قفل شمر وأعمال محافظة حجة (المقحفي: ١٩٢١).

في جنباتها الجِنَان مصوّرة، قد صُفِّحتْ بالحديد أبوابها، ونسجت بيد المنعة أثوابها. ولها رأس بِدُكن السّحائب مَغصوب، وسور قد التوى بها التواء الثعبان بالجذع المَنصوب، قد آوى إلى منيعها هذا الهمام، كما أوى إلى عُشّه البازي وإلى برجه الحَمام، وهو كريم عُنصر، يطول غصنه في منابت المروّة ولا يقصر، يغرد بمدحه الصَّادح، وَيُغْلن بالثناء عليه المادح. فهو وارِي الزناد وما فيه قادح.

وله حديث كالشهد، أداره عليّ على جهد، وبِنْت فكرٍ ذات وسامة وصَبَاحة، ينادمها الأديب مساءه وصباحه، أحيا من مَخَدّرة، تُدير أكواب من فضة مُقَدَّرة، فكم من مكاتب له مراسل، يقاد إلى جنّة طرسه من خطّه بالسلاسل[١]. ولما سمع إلى الشرف بوصولنا، اشتاق لديه إلى حصولنا، فعرض لنا إلى الطَّريق، وسّر بنا كأنما نزل به قُطّان الغريق، وأمسكنا كما يُمْسك الحبل الغريق، وأقسم أن لا نكون إلا ضَيْفه، وألا نطأ من حرمه الآمن بلا خيفة خيفه، فأنخنا بداره النجائب، ونزلنا منها منزلاً يقيم به الجانب، وتلقانا من الإكرام بأتمّ العجائب، وجَادَلَنَا فجادلنا الحاسد في كرمه وأنكر سيل تفضّله وقد جاوز حدّ عرمه[٢]، فسامرني إلى الصّباح، وأحلَّ لي خمرة حديثه وأباح، فَجِبَرُ ليله بها الفضل ما كسد، ليلة كما في المثل بين الزُّبانا والأسد، وهو إذ ذاك مريض. وقد (حال الجريض دون القريض)[٣] وأجله للنفاد مقارب، وقد دبّ الحِمَام عليه دبيب العقارب، وكَذَّبَه البرءُ في وعوده، وسرت نار المنيّة في هَشِيمه وعُوْده، ولاث عليه الألم صفراء عمامته، وانقشع عن روض عَيْشه من الصَّفو هامع غمامته. وهو يَتَوَّكأ على اثنين من أولاده. لما آن أن يطمس حروفه سرور ميلاده، وصَدْره مع ذلك أوسع من الفضاء، وغرامه متعلق بسكان العقيق والغضى، يظهر من أريحيته ما هو مُضْمر،

---

(١) إشارة إلى الحديث النبوي «عجبت لقوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل».

(٢) السد يعترض به الوادي.

(٣) المثل في المستقصى ٢: ٥٥ والجريض هو أن يجرض الإنسان حال الفزع والقريض الشعر (معروف).

ويتمايل من نشاطه فهو أنشط من ظبي مقمر[1]. يبتسم ابتسام الزَّهر، ويَنْحدر في محاورته تحدّر النهرِ، ويسرّ بطارق الضّيف، سرور مهجور يزوره الطَّيف.

وأملاني له مع المرض، ما يحيل عنده جوهر الأصداف إلى العرض، بعزم يَقْصر عنه كل عازم. هو بنيل المكرمات جازمٌ وأي جازم، فزاد عجبي لمّا قام بأدلته. كيف دخل عليه الجازم ولم يُذْهب حرف علّته؟ ولما فارقت سوحه أطال مغرّده نَوحه. ولم ألبث بعد فراقه إلاّ مقدار أسبوع، وإذا هو قد غار ماء مكارمه الينبوع فمات وقبر، وكسر بموته ما جُبر. وإذا مذاق فراقه أمرّ من العلقم، ولدغ حزنه أنكأ من لدغ الأرقم، سقى المطر ترابه، وأدار عليه الرضوان شرابه، ما ذرَّ شارق، ولمع في الجوّ بارق.

ومن شعره ما كتبه إليّ وأنا بالمحابشة[2] مقيم، ثالث فراقي له وهو مريض سقيم، وهو قوله:

فـراقـك قـد زاد لـي فـي الألـم	وبُـعْـدك شـوقـاً لـقـلـبـي كَـلَـمْ
أيـا شـمـس فَـضْـلٍ ويـا مـن غـدا	بـمُـرْتـبـع الـعِـلْـم مـثـل الـعَـلَـم
ويـا واعـظ الـجَـمْـع فـي جُـمْـعـةٍ	ومُـبْـكـيـه خـوفـاً إذا مـا ازدحـم
فـقَـدْتـك إذ سِـرْت عـنِّـي ومـا	فـقَـدَت لـفَـقْـدك إلا الـكَـرَم
أأحـمـد وجـدانـنـا بـعـدمـا	تـجـنَّـبـتـنـا كـل شـيء عـدم
عـلـومـك كـالـبَـحْـر فـي مَـدِّهـا	وكـالـغَـيْـث فـي الـرّوض لـمـا انسـجـم
وآدابـك الـغُـر مِـثْـل الـنّـجـوم	إذا مـا تَـبَـدَّت بِـجَـنْـح الـظـلـم
بـك الله زان لـنـا عـصـرنـا	فَـدُمْـت ولا فـارَقَـتْـك الـنّـعـم
وأن تـسـأل الـعَـبْـد عـن حـالـه	فـفـي غـايـة مـن تـنـاهـي الألـم
يَـقُـوم ويُـقْـعـد مُـسْـتـوفـزاً	وقـد عَـثَّـر الـضّـعـف مـنـه الـقـدم

---

(١) المثل في المستقصى للزمخشري ١ : ٣٩١.

(٢) المحابشة؛ سبق في هذا الجزء انظر: ٣٥٢.

يقاسي الذي ليس يَقْوى على ... مقاساته قَطّ طوداً أشمّ
فلا تَنْسه من جزيل الدّعا ... فإن الدّعا خير ما يغتنم
وما القَصْد قَطّ سوى رحمة ... وعَفْو يطيب به المُخْتَتَم
ولا زِلْت في نِعْمه ما سَرَتْ ... نَسيم تبَشّرنا بالدِّيم

وكتب بعد النظم هذا من النثر ما صورته: مولاي القاضي أنا والله عليل، وخاطري من شدة الألم كليل، وأناملي مرتعش مما أنا فيه، وليس عندي من الكلام ما أختاره لكم وأصطفيه. وإنما قلت هذه الأبيات عُلاَلة ونَظْمها من مشقّة وكلالة. محبّةً في مكاتبتك، وأنت غنيٌّ عن نظمي، ورَغْبةً في مراجعتك، وأنت غير محتاج لرقمي، وإنما هزّني إليك الشّوق. لما خرج عن الحدّ الذي يدخل تحت الطوق، فإني سَمِعت من فوائدك العلمية ما شفا غُلّتي. والتقطت من آدابك ما أنا الآن بها غني، وطعمت من ألفاظك ما هو اللذيذ السّني، حتى إني علمت أن هذا العصر بوجودك أجل الأعصار. وأنك على أهله من النعم التي هي جليلة المقدار. ما كنت أظن أنّ الدهر بمثلك يسمح، وأن الدَّهر البخيل بأياديك الجزيلة يَمْنح. فالحمد لله الذي بَنَى لنا بك بيت فخرٍ لا يسامى، وهدانا بشهابك الذي لا ينكره إلاَّ من تعامى. وأنا من فراقك في ألم منضمٌّ إلى ألمي، لا يحيط به وصف لساني وقلمي. وخاطرك حسن الدعاء سِيّما بالتوفيق، فإنه نعم الصَّاحب وخير الرفيق. والله تعالى يختم لنا ولكم بالحسنى، ويجمع بيننا وبينكم في هذه الدار، وفي دار الآخرة فإن نعيمها الأسنى. ومحبك الآن يودّ لقاء ربه، وإن كان شديد المخافة من عظيم ذَنْبه. لكن المَوْلى صفوح والكريم سموح، وقد علمت قرب الرحيل، وقام لي عليه كذا كذا دليل. فعلى الدّنيا السلام، وعليك يا نَجْل الأماجد الكرام. والله المسؤول بفضله حسن الختام.

فأجبته من النظم والنثر، وقد وصلت معاهدته هذه إليّ بيد رجل يلقب بجفينه بقولي:

وشي النّهور الذي قد رقم ... فأبدع في الرّقم غيث الدِّيم

أم الـدر أم ثـغـر عـذب الـلّـمـى ... إذا افـتَـرّ عـن عَـجَـب وابْـتَـسـم
وقـد كـسـر الـجـفـن مـع فَـتْـحـه ... عـلـى عـاشـق مـنـه لـلـقَـدّ ضَـمْ
وأبـدى الـجَـمَـال عـلـى خَـدّه ... نـديّ الـشّـقـيـق ولـلـخـال عـمّ
أم الـنّـظـم مـن شَـيْـخ عـلـم لـه ... مـقـام تـسـامـى فـلا يُـهْـتـضـم
لـقـد جـرّ عـامـل رَفْـع لـه ... بـه الـخـصـم يـخـفـض وهـو الـقـلـم
وحـرر فـي الـطِّـرْس مـا فـاح لـي ... شـذاه كـمِـسْـك غـزال فَـغَـمْ
وذكّـرنـي لـيـلـةً بـالـلـوى ... يـومـاً مَـضَـى لـي بِـسَـفْـح الـعـلـم
فـلـلّـهِ مـنـه فـتّـى لُـطْـفـه ... يُـعـبِّـر عَـمَّـا لَـه مـن شِـيَـمْ
ولـو لـم يـكـن كـنَـسـيـم الـصَّـبـا ... لـمـا اعـتَـلَّ قـط لـفـرط الـسَّـقـم
وبـرأه الله مـن عـارض ... مُـطِـرْنـا لـه مـن دمـوع بـدم
ودام لَـنَـا مَـا الـصَّـبـاح انـبـرى ... وجَـيْـش الـظَّـلام لـديـه انـهـزم

وصلني من الشيخ رعاه الله تعالى وهو العين في الأعيان. ما أهاج الشوق لا عن خمود وذَكَّر لا عن نسيان، فإنه لم يفارقه مِنَّا غير الجسد، على أن الروح عنده أقام. وما زِلْنا مشفقين عليه من الاعتلال، كما أشفق الروض على النسيم من ملازمته السقام. على أنّ له في اعتلاله أسوة. تهدى إليه تلاهياً عن السّقم ونسوة، من كون نسيم الرياض عَليل، وذَيْله كما ابتلَّ ذَيْله بالعرق بِليْل، ومن المَعْلوم أن الأسد محموم، وطرف المليح يزان بالفتور والذبول. وخصره سقيم، وهو عند المحب في أبلغ رتبة من القبول، فالظبي الأعفر لا به عكس المثل. وكفّ الله تعالى عنه كف الألم، حتى لا يكون لكنانته قد نثل. لقد شَفَتْ معاهدته لما وصَلَت، وعلى السّرور بها مهجة محبّ خصلت، لعلمي أنه لا ينظم إلا خاطرٌ قد برى عروضه من العلل. ولا ينكر إلا فكرٌ لم يعتره من السَّقم سأم ولا ملل. وهل يَحْمل الرمح من القلم إلاّ كف قد شدها البنان وباينها الألم؟ والله تعالى يَجْعل البراعة بكفِّه منيرة في لَيْل المداد، كما أنارت في الليل الحالك الشديد في الاسوداد. وقد شفانا بخبره الرسول الزّكين، فأنا قد أخذنا منه أخبار تأثّره فإذا عند

جفينة الخبر اليقين[١]. فإنه أخبر بما سَرَ مما أسر، وجَبَر قلباً له التنائي عنه قد كسر. وذكر لنا أن سقمه على زوال، وأن نِعم العافية إن شاء الله تعالى عليه في توال، وكنت على شغله بأمر مهم. له اللَّبيب من دون إبانةٍ قد فَهِم، فالعذر مطلوب ولا شك في حصول بسطه. وهو يعلم أن الشُّغَل على المحب قد توفرت له لمَّا نيط به الأمر العظيم جزيل قسطه.

والله تعالى يجمع بيننا وبينه في عافية، ويَجْعل مياه المناهل بلفطه له شافية، والسلام.

قولي: والله يجعل اليراعة بكفه إلى آخر الفقرتين، فيه الاستخدام بالضَّمير، لأن اليراعة بالياء المثنية التحتية والراء والعين المهملة هي القلم، واليراعة المرادة بقولنا كما أنارت، هي الطائر المعروف الذي ذكره العلامة الدميري رحمه الله تعالى في كتاب حياة الحيوان. وذكره غيره قال[٢]: اليراعة طائرٌ من أنواع العَصَافير يكون في النَّهار كسائرِ العصافير. وفي الليل كأنه الشهاب الثاقب انتهى.

قال السيد محمد بن شرف الدين بن الحسن بن جحاف رحمه الله تعالى: قد رأيت هذا العصفور بعينه في جِهَتَنا جهة حبور، فإذا هو في اللّيل كالشَّرارة ويكون في النّهار كسائر العصافير، إلا أنه أصفر اللون. انتهى.

قلت: وأنا قد شَاهدت في بَعْض البلاد في اللَّيل شيئاً يمرّ في الهوى مرور الطير كأنه المصباح الكبير أو النجم المنقَضّ، فسألت عنه بعض أهل البلاد، فقال لي: هو طائرٌ. ولعله اليراعة المذكورة، وقد قيل في الحَبَاحب أنه طائر يطير بالليل يتراءى جناحه كشعلة نار، وبه يضرب المثل في كل نارٍ لا ينتفع بها. فيقال: هي نار الحُباحب، وقد ذكرت هنا ما جاء لي في التَّورية مع الاكتفاء مع الجناس. أيضاً في رجلٍ يشعل ناره على جبا[٣] منزله فقلت:

---

(١) سيأتي شرحه.

(٢) حياة الحيوان ٢: ٧٠٩ ط الشعبية.

(٣) الجبا: علو المنزل.

ومُغفَّل ما زال يشعل ناره لا للقِرَى أبداً على رأس الحبا
ويقول هذي للحِبا من القرى فأقول حَقّاً هذه نار الحبا (حب)

قولي: في هذا النثر فإذا عند جفينة الخبر اليقين، فيه التورية، فإن هذا الرجل المرسل إليّ يلقب بجفينة بالجِيْم والفاء، وفيه إرسال المثل، فإنه يقال في المثل العربي: عند جفينة الخبر اليقين بالجيم والفاء. قيل: هو رجل خَمَّار اجتمع عنده رجلان فسكرا ثم تواثبا فقام رجل يُصْلح بينهما فقتله أحدهما، فأخذ أهله الرجلين ومضوا بهما إلى الحاكم. فقال: عليكم بجفينة فإن عنده الخبر من القاتل[١].

وقد روي: جهينة بالجيم والهاء جاء في الحديث من رواية ابن عمر: آخر من يدخل الجنة رجلٌ من جهينة. فيقول: أهل الجنة عند جهينة الخبر اليقين.

وفي صحيح أبي عوانة أنه الرجل الذي أمر أولاده بأن يحرقوه ويذروه في الريح، وكان نَبَّاشاً كما في صحيح البخاري. وصحيح ابن حبان وهو في الأصل تصغير جهنة[٢] وهي جهمة الليل بالميم. وقال: قطرب تصغير جهانة مرخّمة وهي الشابّة من الجواري. وقيل: إن الحصين بن سبيع الغطفاني أو حصين بن عمر بن معاوية الكلابي، خرج ومعه رجلٌ من جُهَينة يدعى الأخنس بن كَعْب، فقتل الجهني الكلابي. وكانت أخته صَخْرة وقيل هي: امرأته تبكيه في المواسم، فقال الأخنس بن كعب أبياتاً فيها منها قوله[٣]:

تسائل عن حصين كل رَكْب وعند جُهَيْنة الخير اليقين

وقد ضمنت أنا هذا المصراع على رواية الفاء مع قَصْد التورية، وذلك لأن بمدينة خمر الظَّاهر مقبرةٌ مشهورةٌ تسمى جُفَيْنة وهي أقرب المقابر إلى خمر لما مات صاحب لنا ونحن بها وقُبر في المقبرة المذكورة. فقلت:

---

(١) انظره في المستقصى ٢: ١٦٩.
(٢) في الأصلين جهينة وأصلحناه من المستقصى ٢: ١٦٩.
(٣) البيت مع أبيات أخرى في المستقصى ٢: ١٧.

وفي خمر مقابر ليس تحصى بإحداهن صاحبنا دَفين
أسائل عنه أقربها محلاً فعند جفينة[1] الخبر اليقين

وسألني صاحب الترجمة رحمه الله تعالى عن خرافة الذي يضرب به المثل[2]، فيقال: أمحل من خرافة.

فقلت: خرافه بضم الخاء المعجمة مع التَّخفيف: هو رجل من بني عذرة استهوته الجِن ثم رجع إلى قومه، وكان يحدثهم كما قيل بالأباطيل، وكانت العرب إذا سمعت ما لا أصل له قالت: حديث خرافة وهو إلى الآن يقال: خرافات في الأحاديث التي لا أصل لها. ثم قلت له: أجمع الأفاضل على هذا. منهم: الإمام الزمخشري رضي الله عنه حتى قال في «المستقصى من أمثال العرب» عند إيراد هذا المثل ما لفظه[3]: وقد أورده ابن الزبعرى في بيت كرهت إثباته. ثم كثر في كلامهم حتى قالوا للأباطيل: خرافات. انتهى كلام الزمخشري رحمه الله تعالى.

وأنا أقول: هذا غلط والصحيح أن خرافة صادق لا كاذب. قال القاضي الحسن بن محمد بن أبي عقامة[4] رحمه الله تعالى في كتابه المسمى «بجواهر الأخبار وملح الأشعار»[5] ما لفظه حديث خرافة يحمله العامة على أنه مثل في الكذب. وذلك خطأ إنما هو مثل في المبالغة في الصِّدق. روي عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: أصدق الحديث حديث خرافة[6]، وكان حديثه أنه من بني عذرة سبَتْه الجن فكانوا إذا استرقوا السِّمع أخبروه فيخبر الناس بما أخبره به الجن فيرصدونه فيجدونه كما قال. وفيه بقول ابن الزبعرى:

حياة ثم موت ثم بعث حديث خرافة يا أم عمرو

---

(١) في (ب) جهينة.
(٢) انظر خبره في شرح المقامات للشريشي ١ : ٦٣.
(٣) المستقصى ١ : ٣٦١.
(٤) من علماء اليمن توفي سنة ٤٨٠هـ (مصادر الفكر العربي: ٣١٥).
(٥) من الكتب النادرة منه مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية انظر مصادر الفكر: ٣١٥.
(٦) لم أجده.

انتهى كلام ابن أبي عقامة رحمه الله تعالى، وهذا البيت هو الذي قال الزمخشري رحمه الله تعالى أنه كره إثباته بناء منه عليه السلام أن حديث خرافة حديث كذب. والصَّحيح ما ذكرنا من صدقه، فمَعْنى بيت ابن الزبعرى أن غاية الإنسان حياة يعني به حياته وجوده في الدنيا، ثم بعد ذلك موت ثم بعد الموت بعثٌ وحشرٌ. فهو حديث خرافة، أي صحيح لأنه صادق في كلامه، وكراهة الإمام الزمخشري عليه السلام لإيراد بيت الزّبعرى بناء منه أن حديث خرافة كذب، ولو فرض أنه كان كذلك لما كان في إيراد البيت حَرَجٌ يوجب الكراهة لإيراده، لأن حكاية ما يقوله المُنْكرون للبعث والقيامة غير مستقبح من الحاكي لأن الله عز وجل حكى ذلك عنهم في كتابه العزيز. فقال: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[1]. وغير ذلك من الآيات الكريمة ولم يذكر سبحانه أن في ذلك حَرَجاً، على من حكى قول الكفرة أو روى أشعارهم التي قالوها، مما يُقرِّر كفرهم في روايتها عنهم تشنيع ما في حقهم، كما روى هو ـ أعني الإمام الزمخشري رضي الله تعالى عنه ـ قول بعض قريش يرثي قتلى بدر من قصيدة:

أيوعدنا إبن كبشة أن سنَحْيَا وكَيْف حَيَاة أصداء وهام

السيد محمد بن عبد الله الحوثي[2]

غُرّة قومه، غالٍ في سَوْمه. ماجدٌ ما جدّ مثله ماجِدْ، وواجد بالمَعاني لا يجانسه بها هائم واجد. كان طويل القامة، عظيم الكاهل والهامة، ينتطق بنطاق على قواعد بني الأصفر، في جوانبه الزَّهرات ولا كزَهْر اللّينوفر[3]. صائغٌ للكلام صفّاء ذهنه المسبوك، وناسج للسّندس وقد تأنق في وَشْيه المحبوك، فللّهِ ذهنه وما سَبَك، ولِلَّهِ نَسْجه لحلل المعاني وما حَبَك، وألفاظه ممار ذهب، طاح عندها

---

(١) سورة الجاثية، الآية ٢٤.

(٢) انفرد بذكره.

(٣) اللينوفر زهر معروف (سبق ذكره).

النّظار وَذَهَب، جواده أنجب، وغراب مداده أشجب. كم قَصّر عنده في الأدب من فحل؟ وكَمْ مَرّ عند حلاوة نظمه مجاج النحل؟

أقلامه تفتخر منه بيسير إمساك، ويقال لكل فرد منها لقد طاب في ليل مداده إمساك. قد عانقت من كلماته القدود الرّشيقة، وترشفت ثغورها في الثُّغور من خلال درر نسيقه، على نَمَارق من طرسه ناعمة، وحَوَاشي استبرق بها جَنَبَات الكون فاغمة، فَصِيْح سحاب قريحته ثرر[1]، وشاعر مفلق له ذكاء متطاير الشَّرر. فما حذا ناظم حذوه، ولا اشتعلت لغيره في الذكاء جَذْوة، تنطق بالسحر من براعاته الأنابيب، وتهمل بالندى على زهور أوراقه الشآبيب.

وفد إليّ بعض السَّادة، ممن أعرض لهم الفضل الوسادة، يعد من أعيان كُبَرا، وينخرط في سلك شيوخ فهو يَرْتعش كِبَرا. فأملاني من نظمه المتناسق وأطلع عليّ نجوماً في ليل من المداد غاسق، أفاض عليّ من عروضه بحوراً، وأبدى من خلالها لؤلؤاً حلّى به نحوراً، من قَصَائد مطولة، ومدائح منولة. لم أحرص على نَقْلها، ولم أقطف زهراتها من خلال بقلها. كان يمدح الإمام القاسم ويرسم الثناء عليه فإذا هو خير راسم.

ثم يمدح من الأتراك مشاقفيه، ويثني منهم على بواش[2] لم يكونوا بموافقيه، فإذا سيفه ماضي الغرارين[3] وإذ جواده يركض في مضمارين، فشِعْره أنور من الدّراري. ونظمه أصفى من قطر السواري[4]، أستغفر الله بل ألذّ على الأكباد من النهور الجواري، وأبهج منظراً من اللؤلؤ إذا رصف في أجياد الجوازي. أقسم أنه لطائف، بكأسٍ قد ملي لطائف.

فمن قروطه التي سبكها، ومروطه التي حبكها، ولآلئه التي سردها. ومناهل

---

(١) ثرت السحابة: صبَّت ماءها.

(٢) جمع باشا (معروف).

(٣) الغراران شفرتا السيّف قال الشاعر:

وأبيض مشطوب الغرارين قاطع

(٤) السحاب (سبق).

العسل التي وردها، قصيدته التي نثرت ما نظمه صرّدر وانتقى، وتركت ابن التَّعاويذي لما سَحَرْته يعوذ بالتَّعاويذ والرقى، وهي قوله:

كم ذا تقيم برملتي تبرين[1] فالشوق نحوك لم يزل يُبْريني
وإلى متى تَختل في أكنافها سفَهاً وتنزل روض قِنِّسرين
خيِّم بشطيه وعج بظِلاله إن كان دينك في الصَّبابة ديني
يا من قسا قلباً ولان معاطفاً عطفاً على هذا القسا باللِّين
أرْدُدْ عليَّ رقاد عَيْني فهو مفـ ـقود لسانحة الصَّباء اللين
وانصر تظَلُّم مُهجتي من مقلة فَتَكَتْ بصارم غَضْبها المَسْنون
قد نَوَّنت بفتورها وتمَكَّنت منِّي فذا التَّنوين للتَّمْكين
ورأيت كالسَّفاح[2] فيها واقفاً وعليّ ذلك ليس بالمأمون[3]
دَبّت عقارب صِدْغه فتعلَّقت أذيالها من شَعْره بالسِّين
ولقوس حاجبه يَرَى سهماً وأشـ ـرعة فنادى القَلْب يا ذا النون
واواً ولاماً قد كتَبْت وإنما من صِدْغه وعذاره تَلْقِيْني
قد شك سهم لحاظه قلبي فَمَا شيء لسَهْم اللحظ منه يقيني
وظنَنْتَه ظَبْي الفلا متلقِّياً والظَّن في بعض الأمور يقين
شرعت نِمَال عذاره في عارضٍ عَوَّذته بالنَّمل من طس
قلم النَّوى قد خَطَّ سطر الشوق في قلبي ومنطق وَجْده يُمْليني
من نور نار الشَّوق تكويني فلم في كل جارحة بها تَكْويني
قَمَر بدا وعليه أنواع الحُلى حُلل الملاحة منه في تَلْوين
أهوى إلى دار بها سَلْمى وما دار سوى سلمى بها تلويني

---

(١) كذا في الأصلين ولعله يبرين بالياء المثناة من تحت ورملتا يبرين انظرهما في معجم الألفاظ المثناة: ٢٠٦.

(٢) تورية بالسفاح والمأمون من خلفاء الدولة العباسية.

فهناك يسلبني الهوى لبّى وقد أشكو فيُسْليني الذّي يُسْليني

وقال رحمه الله تعالى يمدح الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام، ويمدح ولده أحمد بن القاسم وقد ولاّه مدينة صعدة وبلادها من جهات الشام، وأرسلَ بها إلى هناك من محروس مدينة صنعاء اليمن في شهر صفر سنة تسع وعشرين وألف (سنة ١٠٢٩). والإمام القاسم عادت بركاته في حصن شهارة المنيف:

تاهت على الأقطار صعدة وتنبَّهت من بعد رقده
وافى لها ما ترتَجي وهو الرّخا من بعد شِدَّه
وتداولت أيامها وهي العواري المسترده
وتغَيّبت عنها النُّحوس وأطلع الإقبال سَعْده
وتبدّلت بعد الهوا ن ثياب عزّ مستجدَّه
فاقت بأحمدها حميد السَّعي فعلاً كل بلده
نجل الخليفة قاسم من للورى في الآل عمده
ذخرٌ طواه لنا الإله على أعادينا وعدُّه
بالنَّصر والإقبال ربّ العرش فينا قد أمدّه
عَطَف الإله به على الدِّين الحنيف لنا وردّه
عَهِد الزّمان إليه أن لا خانه وأتمَّ عَهْده
وعلَته همّته العليّة مُنجِزاً ذي العرش وَعْدَه
واستَلَّ سيفاً صارماً لعدائه وأحدَّ حدّه
ورماهم بمصائب أورت لدين الحق زَنْده
كم عَثّر الأعدا وأردا هم على عَجَل ودَهْده[1]
نَصَر الإله أبا محمد في مواطنه وجُنْده
وجهاده بلغ الزّمان به إلى الأعداء جَهْده

(١) دهده الحجر: دحرجه والشيء قلبه.

والرأي في توجيه أحمد ... صَغْدَةٌ ياما أسده

وهي طويلة منها قوله في أثنائها رحمه الله تعالى:

بكثيرٍ فضل منك يأبى ... بيت شعري أن يعده

صَيّرت صعدة جنة ... أخذت من الفردوس خُلْدَه

وجعلتها بثنيّة[1] ... وعلى لسان الترك زرده

قال ناظمها رضي الله تعالى عنه: هذا تَلْميح إلى قول خالد بن الوليد متجرّماً من عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حين عزله عن بلاده: حتى إذا صارت بثنيّة وعسلاً عزلني عنها.

السيد الإمام العلامة محمد بن علي الغرباني[2]

من برط

إمام كامل الشروط. له من العلم برود ومروط، ولغادة أيامه من المعارف شنوف وقروط. رقا في الأفق محلاً، ونزل منه سُوحاً بالأنجم محلّى، فخيمته السماء وأطنابه الشّهب. وحباله خيوط المطر المفتولة بأيدي السّحب.

كسب المعالي فَحَسْب، فمن أجله أثبتت المُجْبرة الكَسْب، قرأ العلم حتى اجتهد، ووطأ فراشه في منازله ومهّد. فرقت همته إلى أرفع مرقى، وشام للخلافة والإمامة بَرْقا. وأصغى سمعه منها لهديل ورقا، وهو أسدٌ بلا مراء، لم يزل للشّدائد مغامراً. ليث واثبٌ، إن عرض الرّمح فوق الكواثب[3]، شديد شكيمة، كم قال لخطب عظيم شكى: مَهْ، فدعا وما ادّعى، وترك أنف الحسود مجدّعاً.

نزل من الدَّعوة بوادٍ مخصب، ونازع آل القاسم الكرام في المَنْصب، فأصابهم لدَعْوته القلق، لأنه إمامٌ قام بحجةٍ كساطع الفلق، ولكن سبق السّيف

---

(١) سبق للمؤلف شرح هذه اللفظة فانظرها.

(٢) نشر العرف ٣: ١٨٦ ط الدراسات.

(٣) أي رمى الصيد.

العَذَلْ، ولم يَنْصره الزّمان بل خَذَل. فخرج من بَرَطْ لم يفِ له الدَّهر بما شَرَطْ، ونزل بظلّ الكعبة والبيت، غير قابل لما لم يتم من مراده: ألا ليت، فبقي هناك دهراً، يقتطف من حدائق الحرم زهراً، وغاب عن اليمن مدّة، وَتَرك صاعه فيها ومدّه، وفقدت من بحره العذب مَدَّه. ثم خرج أيام خلافة المؤيّد بلا تمانُع، فتلقّاه بالقبول وأنشدته لسان حاله من شواهد ذلك التنازع(١):

أســاء ولــم أجــزه عــامــرٌ فــعــاد لــحــلــمــي بــه مُـحْـسِـنـاً

وكانت طريقه في خروجه، من مرابع كوكبان المنيف ومروجه، فأضافه والدنا وأكرمه، فبينهما حبال من الود مبرمة، وتوكيد عطف لا يتخذ أحدهما عنه بدلاً. وحنوٌ يدافع الخصم وقد أكثر في إنكاره جَدَلاً. فرأيته وسمعت فوائده، وذُقْت على موائد والدنا موائده، ولما حان منه ما حان. وآن نزوله بجَنّة ذات روح وريحان، مات بمدينة صعدة، وأنجز له الله تعالى بالقرب منه وَعْده، وقَبْره بها يزار، وروضة تربته يترنّم بها التالون لا الهزار. وعليه قبة مشادة، ينزل بها من كَتَب الله تعالى رشاده.

وشعره عربي الطَّبع جَزْل، جدّي المصارع لا يعرف الهزل، يُطوّل فيجيد ويحلّي كل جيد، وقد يأتي بقافية دونها على غيره خرط القتاد، فهي في أرض الطروس جبال شامخةٌ وأوتاد. كقوله في قَصيدة عليها الحسن مقصور، وكتب بها إلى القاسم المنصور(٢):

ألا أيّــهــا الــرجــل الــمُــدْلــج ونـور الـضّـحـى فـي الـدُّجـى مُـولـج
وشُـــهْـــب الـــسّـــمـــاء بـــأرجـــائـــهـــا لآل لـــهـــا سَـــفَـــط دَهْـــنـــج(٣)
تـــوكَّـــل عـــلـــى الله ســـبـــحـــانـــه وسـر فـي حـمـايـتـه تـعـسـج(٤)

(١) التنازع انظره في كتب النحو.
(٢) أوردها في نشر العرف ٣: ١٩٧.
(٣) الدهنج: جوهر كالزُّمرد.
(٤) عسج: مد عنقه في مشيه.

وعرّض بصنعاء والروضة التـ ي ظلّها أبداً سَجْسَج

منها:

حوى كل حسن فحسن الورى لَدَيْه إذا قيس أنموذج

كَقِنْديل نور سنا نوره وما فيه نارٌ ولا شيرج[1]

إذا ما تجرّد قلت اللجين ذاب أو الزِّئبق الرَّجْرَجُ

له كالجمان ثنايا حسان وكالأقحوان فمٌ أفلج

منها:

ويا عجباً هل يليق الهوى بمن عرقه في العُلا الأوشج

ومن صار في حبّها هائماً لديه الردى فيه فيلوذج[2]

منها: يعاتب أولاً الإمام القاسم عليه السلام لمّا جهزوا عليه الجنود. ونشروا لحربه البنود، يريدون إخراجه من برط، وبين قاصده وبين مناله فرط:

وعج ببني القاسم الأكرمين ومن لهم في العلى أوج

وأتحفهم بِشَريف السَّلام وعاتِبْهم أنهُم خَرَّجوا

وقل ما لكم يا بدور الدُّجى أتيتم بأمر بكم يَسْمج

جُنُودكم من جميع الورى إلى رجلٍ واحدٍ تُزعج

وليس له ثَروة لا ولا خلا الله أوسٌ ولا خَزْرجُ

ولم يأتكم منه ما تَكْرهون سوى أنه قال ذا المَدْرج

وما قال إني إمامٌ ولا الإمامة عَنْها لكم مَخْرج

ولكنّه قال إن كان ما ذَكَرْت هو المَنْهج الأوهج

وردّوا عليَّ إذا شئتم مقالي إن يك يَسْتَسْمج

بِقَول المُهَيْمن أو سنّة ثقاة الرواة لها خَرَّجوا

---

(١) الشيرج: زيت السمسم.

(٢) الفيلوذج والفالوذج حلوى تصنع من العسل والدقيق.

أو اجـمـاع أمـة خَـيْـر الـورى | أو الآل أو شـبـهـة تـفـرج
فـبـعـض الـجـوابـات مـثـل الـصَّدَى | وبـعـض الـقـيـاسـات لا تـنـتـج
وإنّ مـن الـقـول مـثـل الـجـهـام | كـمـا أنّ فـي الـنـوق مـا يُـخْـدج
فـمـا بـالـكـم حَـرجـيـن الـصّـدو | ر وذا الأمـر مـا مِـنْـه مـسـتـخـرج
أخـوف عـلـى الـمـلـك جـهـلاً ولا | لـمـا الـلّـه فـاتـحـه مـرتـج
وَعَـمَّـا قـريـب يـحـلّ الـرَّدى | بـسـاحـتـكـم مـفـرجـاً يـفـرج
وأخـرجـتـم مـن عـلالـيـكـم | وكـلٌ بـأكـفـانـهِ مـدرج
فـلا تـأمـنـوا دَهْـركـم لَـمْـحـة | فـكـم ضـاحـك كَـفْـنـه يُـنْـسـج

القاضي العلامة حسين بن صالح العنسي[1]

من برط

قاضٍ غير منقوص[2] ولا مُسْتثقل. وعالمٌ وَخَدَ بازله في طريق العرفان وأرقل. له من كل فن أحسنه، ومن كلّ مَنْطق في العلوم أمتنه، سيما في الأصول، فله نصولٌ بها على الخصم يصول. فهو في علم الكلام، إمامٌ مبرّز وأيّ إمام، لأهل الاعتزال إليه اعتزى، لما نَصَر مذهبهم وأضحى لكنزه محرزاً، فقد أوسع واصل بن عطاء برّاً، حتى كادت لسانه من السرور تنطق بالرا[3].

ولبس فيه من مذهب الجبائي[4] جبّة، وحلا له سُكْرة لما مرَّ في فمه شراب صالح قُبّة، فسحاب الجهمي عنده جهام، وطير البهشمي عند بازئه الأشهب رهام، كم كسر أهل الجبر، وأبطل ما لا يصلح من مقالهم بالتَّقسيم والسَّبْر، معتزلي غير كرامي، يسدّدُ سهمه كالرَّامي، فيُصِيْب شواكل مشكل أعيا، ولا يخطي الغرض فسقياً

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) إشارة إلى قول أهل النحو والصرف أن الاسم المعرب الذي آخره ياء ثانية إذا تجرد من أداة التعريف والإضافة تحذف ياؤه لفظاً وخطاً في حالتي الرفع والجر نحو مَرَّ قاض بمحام إلخ.

(٣) إشارة إلى لثغة واصل بن عطاء بالراء.

(٤) الجبائي وصالح قبة والبهشمي من علماء المعتزلة والجهمي والباز الأشهب والكرامي أصحاب مذاهب أخرى سبق ذكر بعضهم في التعاليق السابقة.

لعهده ورعياً، وبينه وبين والدنا حب وودّ، ما لأحدهما من لزام الآخر أبداً بدّ. فلو مزجت بصدافهما الخندريس، لما اعترى وجه شاربها تقطيب وتعبيس، أو لو رزقها الروض المورق، لما سُلّط على نضارته كانون المحرق، ولاستمر ربيعه البهيّ المونق. ولم يبدِّد الشتاء عقد زهوره، ولا مازج الكدر دوافق نهوره، ولَمَّا نزل بديارنا ديار كوكبان. وظهر بقطرنا نوره الكامل واستبان. أنزله والدنا من الإكرام بوادٍ خصيب، وأجزل له من التَّوقير والتعظيم النَّصيب، حتى كادت أن تهبط لخدمته الشَّمس، وهَمَّ بالرّجوع لتأنيسه وتكريمه أمس. وكنت أجمع من درر فوائده ما يُسَاقطه، وأ لتقط مِنْها ما يحسد على نفيسها لاقطة، ولمّا رحل عنا وسار، وفكَّ له من الاغتراب عن وطنه إسار، واعترى المهج لفراقه اكتئاب وانكسار، استقر في وطنه وبرك بازله بعطنه.

وكتب إلى والدنا عقيب استقراره. قوله من نظمه المعلن بما طاب من أسراره:

شكري لجودك كلما سَطَع الضُّحى ... شكر الرِّياض لمُزْنة الأمطار
وثَنَائي في الآفاق يَسْري طَيِّباً ... بالمِسْك طِيْب لطيمة[1] العَطَّار
ذاك الثناء عليك يا من ذِكْره ... قد سار مثل الشَّمس في الأقطار
أمحمد والله أنك مفردٌ ... في العَصْر ما في ذا المقال تماري
جَلَّيت قدراً بين أرباب العلا ... والفضل إذ جَلَّيْت في المِضْمار
أنسيتني بالأنس أوطاني وقد ... أنجَحْت لي يا مالكي أوطاري
أنزلتني بالبِشْر منك حديقة ... مُفْتَرَّةً بِتَضَاحك الأزهار
لا زلت تعرف قدر أهل الفضل إذ ... أضحى يضاع الفضل في الأغمار
وأسلم ودم للمجد أو للفخر ما ... طابت بذكرك في الورى أسماري
وعليك ألف تحية تسري بما ... قد طاب في الآصال والأسحار

---

(١) لطيمة العطار: وعاء المسك (سبق مثله).

القاضي العلامة إسحق بن محمد العبدي[1] الصعدي

سنانٌ في صَعْدة، ورمحٌ يَعْتري الأرماح عنده رعده. ماجدٌ سقى رياضه صَيِّباً، فاجتنى من فواكهها طيباً، رفعته همّته قبل أن تلم به لمته، فتجَرَّد للطلب وارتضع دَرّ العلوم وحلب، حتى غافت[2] شجرته المثمرة، وعافت ظلمة الجهل لياليه المقمرة، سبقت به من الشباب أداهمه. ولدغت الجهالة من سطور مكتوباته أراقمه، فأصبح من الكبراء معدوداً، وأضحى ظلّ معارفه مَمْدوداً، وانتظم في جِيْد الفخار عِقدهُ. وقال المجد: هذا العبدي سيدٌ وأنا عَبْده، كما قلت أنا فيه لما سمعت نفثات فِيْه:

قد عَجِبْنا من التَّناقض لَمَّا ... صار هذا الفَتَى يُعِيد ويُبْدي
حين قالت له العلى قَول صدقٍ ... سَيِّدي أنت في الأنام وعَبْدي

فهو ممن تُنَاط بالأجياد تمائمه، وتغرِّد على أغصان المفاخر فرحاً به حمائمه، ولم يزل في خِدْمة العلم على ساقه قائماً، ولم يَبْرح في حبّ أبكاره وعونه هائماً، على شظف من العَيْش، يوجب القلق والطيش. ولكنه استمر من الطّلب في شَوْطه، ضارباً لعدو الزمن بدرّته وسوطه. مرغماً له بالصَّبر، منتظراً لكَسْره من الله تعالى أكمل الجبر، حتى ارتقى من التأليف إلى الرَّبوة، وصار صارم تحقيقه فيه لا يَخَاف من النبوة، فألّف[3] وصَنّف وأنقَ وأنف، وأتى بما تتقاصر عنه الهِمَمْ، وتَبَيَّضَ دون هول مناله اللّمم، وتَنْتعش بطيب نفحاته الرِّمم، إذ فتح المقفل وفكّه. ومتع الأبصار بآثاره وفكّه، وهو لأخيه في رياض الخط الريحاني شقيق، وممن تلقّت الطّروس حروفه بوَجْه طليق، فلشوقها إليه أي إزعاج. فما نقش الأكف عنده إلاّ دبيبَ نملٍ في عاج. ولذا أني قلت في بعض القصائد مورياً مجيباً، على بعض من كتب إلي محاورا أصف من خطه عجيباً.

---

(١) نشر العرف ١ : ٣١٨.

(٢) غافت الشجرة مالت أغصانها يميناً وشمالاً.

(٣) في (ش) فأكف.

مولى إذا ما خط أحرفه   في الرق أظهر وَضَمَة العبدي

ولما قَصَدْنه الأيام بِخطوبها، وأذوت حدائقه صرصر الحوادث بهبوبها، رَحَلَ إلى البيت العتيق. ونزل من تربه على المَسْك الفتيق. فزال رَوْعه بعد أن كان كامناً، وأمن حوادث دهره ومن دخله كان آمناً. ونام بين الحِجْرِ والمقام، واسْتوى عوده المعوج واستقام، وازداد إلى فوائده فوائد. واسْتَمر من طلب العلْم على أحسن العوائد. ثم خرج إلى اليمن، ببضاعة فوائد غالية الثمن، وحاله غير حسنة، وعيشه الضيق قد طَوَّل رسنه. فمال زال في مقالة الكيف، متأوهاً من دَهْر قد عامله بغاية الميل والحَيْف، وجالده من حوادثه بأحدّ سيف، عادماً مع رجاجته الوقار، لمّا جَرَّد له الافتقار ذا الفِقار، فَقَصَد حَضْرة إمام اليمن والزّمان. وأهدى له من كلماته أنفس الجُمَان، فبوأه من الوزارة مَقْعداً. وأمر السّعد أن لا يبرح له مُسْعداً، فشَرَفت به دولته وعظمت على الأمراء صَوْلته، وبقي لديه بِمَغْمور الخضراء يشدّ له بوزارته أزراً، ويَعْمل له في تَدْبير الأمور رأياً بكل رأي ثاقبٍ أزرى. فانتظم عقد إمامته، وأطرب تَغْريد حَمَامته. أقام له أود الملك، وأجرى في بحر جوده من أمال العفاة الفلك، حتى أغضب الإمام برأي لم يكن به غَشّه. غير ملتفتٍ إلى قول من قال جانب السلطان وأحذر بطشه. لما لم ينصفه الخليفة حق الإنصاف، ويستضيء بنور بدر آرائه الذي ما برح في الإنصاف، أنف أنفة الأسد، وعرف أن الفضل في اليَمَن قد كسد، فأيقظ عزمه من نوم الكسل، وطرح أنامله من أقلامه وما طرح سوى الأسل، ثم قال مشمراً للرحيل ذيلاً، مدرعاً من الحوادث ليلاً، وقَصَد ملك الهند ولم يبطء في الحركة بطأ فند، فاستجار من الإعدام بحرمه، وَحطّ أثقال احتياجه بفناء كرمه. فسَقَط عليه سقوط الندى على الحدائق. ونزل به نزول الحمائم السَّاجعة على الغصون البواسق، وأكرمه وعظّمه وأنصفه، ونَضّد عقد عيشه الأرغد ورَصَّفه، وخلع عليه ما خلع الربيع على الرياض، وأنزله من مَجْمع سيول فواضله بأوسع الغياض. فإذا بساط بسطه مَمْدود، وشَخْصه من السُّيوف الهندية هناك معدود.

وقيل له: أبشر فقد نلت مناك، لما قال لذلك الملك: ضاقت عليّ الأرض

إلاّ فناك، نال من الوفر سَهْماً. وصار خير قويسٍ سهماً، ثم لما ثقل بالجود كاهله، ونقع غُلّة آماله النَّاهلة، عَادَ إلى اليمن في أوسع ثروة. وقد كاد الجو أن يرمي له من السحاب فروة، فشقّ بطن تهامة. وقد سدّد إليه الموت سهامه، فمات في أبي عرش، وعرّت المنية طائره عن ريش. وقطع عليه لصّ الأجل طريقه، قبل أن ينيخ بوطنه وينزل فريقه. ويتّصل من أهله بجيران ذي سلم، والموت للآمال أقطع من الجلم[1]. استبدل عن الثريا بالثَّرى، وبرز بعد توفر الملبوس بالعرى.

سقى الغيث من قَبْره مستودع المجد. وروى من أجله كثبان تهامة وأعرض عارضه عن نجد.

وله شعر يذوب على الحِبْر، كما يذوب على الفحم المشتعل التِّبْر. ممّا طنّ منه على سمعي، فجرى للمسرة به دمعي. قوله في بعض القصائد:

قف بالرسوم العافيات نادِباً وأدّ من حق البكاء واجبا
ونادِ وَصْل الغانيات نادماً يا آبياً أن لا يكون آيبا
فلا تُلام إن وقفت شاكياً أو إن وقَفَتْ الدَّمع فيها ساكباً
معاهداً عهَدْتها ملاعباً فقد غدَت بِرَغْمنا متاعباً
أذيل دمعي إن رأيت دارساً ومن ذيول جرّرت مساحباً
ما زِلْت في شرع الغرام قاضياً لكنّه غدا عليّ قاضباً
ولم تكن عزائمي نوابياً وكَمْ رفعت في النَّوى نوائباً
فما لمخضوب البنان مُعْرضاً عن وَصْل مَسْلوب الجَنَان جانباً
ويا أميراً في الجَمَال هَلْ ترى بأن تكون للعَمِيد صاحباً
إياك عنّي يا بثين إنّما قد صار رُشْدي من نواك غارباً
غزالة كم رُمْتها مُغازلاً مغازياً مدارياً مُداعِباً
سالت على متونها غدائر من أجل ذاك سميت ذوائباً

---

(١) الجلم: المقص.

ولما أمره بعض الملوك بتَحْصيل نسخه له بخطه البديع من كتاب (سلوان المُطاع)[1] على جهة المبادرة. وكان القاضي إذ ذاك مَريضاً من قبل حمى الرّبع، وصادف وصول أمر الملك في شأن ذلك يوم نوبته في الحمى، فقال مضمناً رحمه الله تعالى:

يـا آمـري[2] بِـنَـسْـخ (سـلـوان الـمـطـاع) وقـال بـادر
مـهـلاً فـديـتـك أنّ لـي حـمّـى كـصـالـيـة الـهـواجـرِ
فـاخْـتـر لِـنَـفْـسـك نـاسـخـاً غَـيْـري عـلـى (الـسـلـوان قـادر)

ولما كتب رحمه الله تعالى كتاباً من ديار مكة المعظّمة صِينَت عن الحوادث إلى بعض أصحابنا العظماء الأكابر بديار كوكبان السامي بعد انفصاله عنه منها، ورجوعه إلى وطنه. وكان ممن أنس به فيها، وكان بينه وبينه علاقة مودّة وقراءة فيها على شيخ والدنا المفيد المؤلّف بقية المجتهدين المتقدم ذكره في كتابنا هذا الشيخ ضياء الدين صالح بن المهدي المقبلي الكوكباني نزيل مكة المشرّفة المقام، وجار بيت الله المعظم الحرام، رضي الله عنه عوّل عليَّ الصاحب المذكور المكتوب إليه في أن أجيب عليه، فأجبته من النثر بقولي:

كعبة الفضل التي ركنها راحة طالما لُمست وقُبّلت، وملابسها حلل العلوم التي أرسلت في أطرافها أذيال الأدب وأسبلت. حَرَم المحامد الذي من دخله أمن، والمقام الحقيق بالإطراء في مدحه القَمِن، من له جمرة رميت لكن من في قلوب العدا، وله ميلٌ لكن من اليراع الذي ما أخلف في تكحيل الأبصار بإثمد الغرائب موعدا، عذُبت زمزم معارفه، وساغ شرابها لغارفه، ورحبت غرفاته فوقف بها كلّ وافد، وأخصب عقيقها ونعمانها، فقطعت عن رغبة إليهما الفدافد.

شيخ العلوم والإفادة، وكنز التَّحقيق الذي لا يخشى عليه نفاده، المحسن

---

(١) كتاب مشهور تأليف ابن ظفر الصقلي سبق ذكره.

(٢) كذا في الأصل.

فيما يعيد وما يبدي. القاضي العلامة ضِيَاء الدين إسحاق بن محمد العِبدي، دامت محاسنه فهي الخليقة بالدّوام، ولا بَرِحت ناقعةً لغلة الكون فيها يشتفي الأوام، فإنها جَمَال الوجود بلا مِرْية. وبدر أفق الفضل ولا فرية، فما بدر المحيا الأسنى. وقد انجابت عنه سحائب الخمار الدّكنا. وحفّت به أنجم الحلي، وطلع فوقه من فرق الشّعر الصباح الجلي. وخدمه عني سلام منى نفح، ترك المسك والعنبر وراءه ظهريا، وأوجب هجر الروض وقد تضوّع زهره ريّاً، وتثنى عطفه رِيّاً. السَّلام الذي يطيب له مع الاستخدام بابه، وتناول من زمزم كأساً جَعَل الثَّواب الجزيل حَبَا به. يدوم عليه وروده، بما يضيع من الروض عند نشره وروده، ما دامت عيون النّجوم الزَّاهرة، في ظَلاَم الليل مؤرّقة لفراق الغزالة ساهرة.

هذا وإنه أتانا منه مرقوم أطاش الحجىٰ، وسرى أخذُ العهد بمداده كما سرى الطَّيف في ظلام الدّجى، فللّهِ ذلك الطرس ما أطيبه، ولِلَّهِ ذلك اللفظ المؤجز ما أعذبه. وإن كان قد نكأ الفؤاد الجَريح، وضَاعف الأسف على زمن ذهب عَرْفه مع الريح، ذَكَّرني وإن كنت ذاكراً، وأَسْهر طرفي وإن لم أكن ذا كَرَى[1]. وأعاد لي بين الناس، حديثاً لم أكن له بناسٍ، فملأت الحِجْر من الدمع، لما ذكرته مع ملاحظة الاستخدام، وقد أقول لما ذَكرت الحجر مع إرادة الجناس. لما فاتني مع البعد أجر، كنت أسعى له في المشاعر ولم أجر، ولا تظن بنا أيها الخلّ إعراضاً عن طويل ذكرك. وأَقِسَ الخاطر على فكرنا منك ما يخطر لنا في فكرك، فإن الأفئدة شواهد مقبولة، على تأدية الحقيقة من الود مجبولة.

فسل فؤادي وكفى به شاهداً، واجتل حسناء المحبة على منصّته فقد زُفَّت إليك ناهداً. والله تعالى يَرْعى عهداً منك بالرَّغم منا فراقه، وَيَسْقى روضه ثجاج قَطْر وقد فاته من دَمْعنا مراقه. إذ ناب حديثك فيه عن المدام، وتَمَتَّعنا فيه بأهنأ العيش ويا ليته لو دام. عيشٌ قطفنا من غضون غصونه، زهرٌ من الأفراح لم تصل كف الجناة تحت الأوراق إلى مصونه، وفلك الأفراح، دائر بنا حسب الاقتراح،

---

(١) الكرى: النعاس.

ولنا من كؤوس خطابك، مدامةٌ قد تكَلَّلت بِحَبَاب آدابك، تسكر بها خمر القناني، وتُقَهْقه لها الأباريق وتطرب المثاني. فلست أنسى ما مرّ لنا في العقيق، فلذا لم تَبْرح العيون من الدمع تريقه، فلست بمعرض عن أيام العذيب وقد رشفناه من الثغور بارداً يَنطفىء به من القَلْب حريقُه.

وهي أيام مثولنا بين يَدَيْ أستاذنا، ومعلِّمنا ومرشدنا ومفيدنا وملاذِنا، الذي تناولنا من علومه المندلية إلينا بالأطايب أحلى فواكهنا وملاذّنا. وقد جثونا في مقامه على الرّكب، وهَطَل علينا وعَلَيْكم غيث إفادته وانْسكب، وهو إمام الإفادة، ومُسْتخرج كنوز المعارف من الركاز، ولا يخشى على كل كنز منها نفاده. الشّيخ صالح بن المهدي المَقْبلي، الذي ما خَلَقَ جديد ذكره، ولا بلي، عاهده الغيث بما يُدمّث تُزبته. ورفع الله تعالى في دَرَجات جنة المأوى رتبته. ولولا التملّي بقرطاسك، والتّمسك من وعد اللقاء بقِسْطاسك، لذابت المهجة من الفراق، ولتحَرَّقت الجفون من الدمع المراق.

وقد طرأ ذكر الاجتماع، وأشار البَرْق بالالْتماع، إلى أَيَّام كف صونها لما وكف، وأقلع غيثها بعد ما خَيّم في رياض الأنس وعَكَفْ. فنظم لؤلؤ القطر سماطاً، وأبدى من الزّهور ذات الألوان أنواعاً وأنماطاً، فسقى زمناً لم يبق إلاَّ ذكره، ورعى كأس تلاقٍ لو أنّه دام سكره، أيام كُنّا بالبيت المعظم نطوف، ونتفيّأ تحت ظل الكعبة المشرّفة رياض أجور دانية القطوف.

وقد دار علينا من زمزم شَرَاب قراح، تنزّه طاهره وحلاله عن نجاسة الخمر وتحريم الراح. نقبل الراح من الحِجْر المكرم، ونَصيد سوانح الأجور في الحرم المحرم. غير خاشين من تَخْويف أمنه، متربّصين له تحت ستور مكامنه. ليت شعري هل الأيام تسعد، وليت شِعْري هل بارقة الأمل ترعد. نَسْأل الله تعالى وهو أهل الكرم، أن يمُنَّ علينا بالعَوْد إلى الظل البارد من الحرم، ويسر الجمع بكم في تِلْك المنازل، ويتفصل علينا بلقاء من بها من الأخدان نازل. فالشوق إليكم وإليها لا يتناهى، فإذا تمَنَّت النفس شيئاً فأنتم كما علم الله مناها. هذا والسلام عليكم ما

قصد البَيْت مشوق، وأحسن للعرض بأسهمه الرّشوق. وطاف بالبَيْت سبعاً ونزل من الحَرَم ربعاً، وتناول من زمزم كأسه، وقطف من روض الأجور نرجسه ووردِه وآسه.

أخوه الفقيه إسماعيل بن محمد العبدي الصَّعْدي[1]

بلغني ممن غدا وراح، أن شَيِمَه شرابٌ لذيذ وراح. فاضلٌ يؤبه لفضله، ما أظنّ الأيام تأتي بمثلِهِ. نجيبٌ إذا ثَمّ أنجاب، لم يلف الملتمس نظيره في الأقطار إن جَأب. بعدت سماء مجده في العروج، وتَبَرَّجت شَمْس فضائله في البروج، وَزَهَت أزهار أخلاقه في المروج. بحرٌ له من الأوراق زَبد، وعالِمٌ عنده من شوارد العلم زُبد، مارس الفوائد، فأصبحت غصون أقلامه عن فواكه المآكل موائد.

وحَطّ بنادي الأدب رِحاله، فأهّل منازله المقفرة على كل حاله، فهو للدَّهر من الحسنات، وهو بأرض (صعدة) كالخال في الوجنات، تزيد به جمالاً، وتكتسب معه كمالاً. وله أدبٌ أدبُ من الشَّراب في الأعضا، وألذّ من العافية على أجساد المرضى، إذا دار حُميَّاه في كأس العبارة، أطفأ من المهج الوقّادة سعير الحرارة، مع خط تتباهى به الطروس، وتسود حسداً له ضفائر العروس، من تَنْمنمه تعلَّم العِذار، وفي كؤوس نوناته طاف العقار، فما المسك بسواده إلاّ نضخةٌ من مداده. ولا الكافور ببياضه اليقق[2]، إلاّ قِطْعة من قراطيسه التي هي نزهة الحدق، ولا الأرماح عند اهتزازها، إلا أقلامه التي يظهر على الدفاتر أثر طرازها، في تعفّف وزهد، يصير به مُرّ الحاجات عنده أحلى من الشّهد، اشتغل معه بالحكمة والطب، اشتغال المحب الوامق بالحِبْ، فأصبح له من أطيب المكاسب، وتشاغل به عمّا سواه من مناسبٍ وغير مناسب. فداوى مريض عيشه بما أحياه، وأصاب دهره من ألم القناعة بما أعياه.

وله من الشّعر أجل قسم، ومن دُرر الكلمات ما طابق المسمّى منه الاسم،

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) شديد البياض.

من ذلك قوله يرثي رجلاً يكنى بالعِمَاد، اضطرب الكون لهول مصرعه وماد، وضمّ إلى قبره قبر رجل آخر من العظماء رمى به حادثة العيون بالسُّهاد والقلوب بالضُّما[1]:

فتَّ أكبادنا فراق العِمَاد ... عين أهل المعارف الأمجاد
حافظ المَذْهب الشريف وحا ... مِيه وماحي خلاف أهل العناد
واحد العصر آية الدَّهر فَهَّا ... مة أهل الدِّراية النُّقَّاد
حسن الوقت في الزهادة والو ... عظ وفرط القنوع والاقتصاد
شَعَبي الزّمان في العِلْم والحِفْظ ... وقسّ في فَهْمه الوقّاد
جَبَل العلم فاعجبوا لضريح ... وضعوا فيه شامخ الأطواد
وخضمّ العلوم كيف أقلّوه ... على مَتْن هذه الأعواد
من بآرائه ينير دجى الخطب ... إذا ضَلّ فيه أهل الرَّشاد
أنفق العمر ناسكاً يَطْلب العلم ... بِكَشْف عن أصله وانتقاد
فإذا أشكلت طريق حديث ... أخذوا عنه صِحّة الإسناد
لا ترم نيل شأوه قط في الفـ ... ـضل فمن دون ذاك خرط القتاد
فَقْده يا أخا الحِجى غَرس الحز ... ن بأرض القلوب في كل نادي
وله كحّلت نواظرنا بعد ... لذيذ الكرى بميل السُّهاد
واستَحَرّت صدورنا وترى الأعـ ... ـين تذري دموعها كالغوادي
وبكاه القَريب والأبعد النّا ... زح من أصدقائه والأعادي
وأطالوا البكا عليه ولكن ... (غير مجدٍ في ملّتي واعتقادي)
يا عماد الإسلام هل يرتجى عو ... دك ولا معاد حتى المعاد
يا غِيَاث الأنام هل تَسْمع البا ... كين فقداً وهل تُجيب المنادي

(١) في (ب) زيادة بالهامش قوله: هذا المرثى سيدنا يحيى الأسدي الشاطبي والمضموم إلى قبره الفقيه محمد بن قاسم العبدي والد صاحب الترجمة.

من لحلِّ الرموز بعدك والعقد ومن للإصدار والإيراد
من يُرَجَّى للخطب من للدَّواهي إن دَهَتْنا والحادثات الشِّداد
من يلين القلوب بعدك بالوعظ ومن للصِّلاح من للسَّداد
وتَصَانيفك العديدة من يكشف ما أودعته من إرشاد
أيها السائلي[1] متى اضطرمت نار فراق العماد في الأكباد
ومَتَى ساءنا بذاك زمان مخلفُ الوعد منجز المِيْعاد[2]
في جمادى من ستة ومائة عام وألف كانت وفاة العماد
قبضت روحه الكريمة في حال سجود لله ربّ العِبَاد
والفَقِيْه الذي إليه ضممناه إمام الزّهاد والعُبَّاد
كَيْنعي الزّمان علامة الشّيعة بَحر النَّدى طويل النّجاد
فَضْله في الظهور كالشَّمس والجملة تغني حيناً عن التِّعداد
وهو في العارفين كالرّوح في الجِسْم ولَيْس الأرواح كالأجساد
موته ثلمةٌ وتاريخه صار (إلى رحمة الإلٰه الجواد)
جُمِعَا ها هنا وهذا التَّلاقي صادرٌ منهما على مِيْعاد
فإذا خفت حادث الدهر أو رمت نَجَاحاً لِحاجَة في الفؤاد
فادع مستشفعاً بِفَضْل الضريحين وأبشر حقاً بِنَيْل المراد
سقياً غيث رَحْمة الله ذي الطول ورضوانه مدى الآباد

السيد علي بن قاسم بن محمد العادل الهادوي الصَّعدي[3]

روضةٌ غنّاء على أغصانها طير الفصاحة غنّاء. له على غيره زيادة، في خِصَال المعالي والسِّيادة، فهو جمانة بحرها، والمتسّق من عقد نَحْرها، كرم عنصره،

(١) كذا في الأصل.
(٢) العماد لقب لمن يسمى يحيى عند أهل اليمن.
(٣) انفرد بذكره.

وتزَيّن بخاتم المجد خنصره، لبس بُرْد الظرافة، بعدما طرّز أطرافه، فمشى به يتهادى في مشيه، ويَمْرح في المرقوم من وشيه، سما في الرّتب وساد، وأغاض الأعداء وقهر الحسّاد. كما قلت فيه إذ ظفرت من خصاله بما أصطفيه شعراً:

العادل الفاضل في دَهْره دَهْر شبابي منه قد عاد لي
يجور بالفَضْل على حاسدٍ فاعجب له من جائر عادل

بأخلاق كأنما خُلقت بعد شروط واقتراح، فَدَعْ عنك ما يقال في وجنات الغيد عند وقت راح، كان ذا مال وثَرْوة، وروض نعمةٍ مَدَّ دوحه سروره، متفيئاً منه أبرد ظلال. جانياً ثمرات التَّرفيه بلا كلال، فما زال ينفق إنفاق من أسرف، حتى أطل من قلاع الوفر على وادي الافتقار وأَشْرف، أضاع بالبيع ضِيَاعه، وخلع ثياب الوقار وليس خِلَع الخلاعة، فإذا هو صِفْر الكف عديم، بعد أن عمل بقول الشاعر القديم[1]:

أورّث نفسي ما لها قبل وارثي وأنفقه فيما تُحِبّ وتشتهي

ففقد ماله، وساء ذوي التمييز حاله، وكفله بعض ذوي الأسباب، بعد أن جفاه الأخلاء والأحباب. ضلّ الزمان وما اهتدى، فجعل خبر فقره في الأسمار مبتدأ، جُهل قدره حين ضل، فجرّعه من الحاجات شراب حنظل، ولكني رأيته ذا قنوع، يبتسم في وجه دهر عابس منوع، لا يطمع إلاّ في الاجتماع بالأحباب، ولا يعد الفقر الحقيقي إلا فقد جواهر الآداب.

ولما قدمت صنعاء العامرة، ودخلت رياضها الهامعة بِدَمْع النَّدى الهامرة، أخبرت بآدابه وصفاته، وحقق لي ظرفه من عدّ في السيادة من كفاته. فقصدته إلى داره مشتاقاً، ألتمس لِطُيور ثنائي عليه من نظمه أطواقاً، فرأيته في زاوية خموله، يدير على نفسه من آدابه كأس شموله، فسقطت عليه سقوط الطل على الورق، ونزلتُ به نزول النوم في العيون بعد الأرقِ، وثَبَتُّ لديه ثبوت العقد في النَّحر،

(١) ذكره الصولي في أشعار أولاد الخلفاء.

ووقعت عليه وقوع مطر الربيع في البحر، وجاذبته من الأدب أطرافاً، وأحطت بما طاب منه أعراقاً وأعرافاً.

وَمَرَّ لي عنده يوم، ما حسبت أن الزَّمان يَسْمح به ولو في النوم، كأني فيه أساجل الحبيب، بعد أن غفل الحاسد وعدم الرقيب، وأملاني من أشعاره، ما يزيد من فَضْله في إذاعته وإشعاره. ويوجب بما رصف من نفائسه في سماط سطورهِ غلا أسعاره، ويشبّ في قلب الحاسد جمر الغيظ ويبالغ في إِسْعاره، ممّا لم ألف له من الحسن حدّاً، وأسمعني معها ما غلب به عُصب الأدباء لما تحدَّى.

وله مجموع يستلطف، وروض تأليف يانع المقطف، سماه (دمع العين، على قتلاء البين) ولما انفصلت عنه وفارقته، ولقد لزمني مدحه لا مقته. عاش بعد ذلك يسيراً، وانتقل إلى دار الغربة فأصبح بها أسيراً، شمله من الله تعالى الرضوان والعفو، واستدرك ما تَمَزَّق من أكفانه بالرّفو، فمن رقيق شفوفه ومذهبات شنوفه. قوله:

غــنَّـى الـحـمـام بـروضـة غَـنَّـاءِ ... وبـكـى لـفـرط صـبـابـتي وشـجـائي
أتــراه رَقّ لــلـوعــتـي لــمــا غـدا ... مـثـلـي مـعـنًّـى مـن هَـوًى وتـنـائـي
هـيـهـات أيـن دمـوعـه ولـطـالـمـا ... مُـزج الـشّـراب لـه بـدمـع بـكـائـي
وبــمُــهْــجـتــي رشــأ أغــن إذا رَنَـا ... يُـدْمـي الـقـلـوب بـمُـقْـلـة كَـحْـلاء
فــي ثَـغْـره خـمـرٌ بِـجْـمـر خـدوده ... مـطـبـوخـةٌ مـا لـي ولـلـصَّـهـبـاء
لـو ذقـتـهـا لـرمـيـت شـيـطـان الـنَّـوى ... بـشـهـابِـهَـا وحـظـيـت بـالـسَّـراء
هـل خـفـت إلا جـور سـلـطـان الـهـوى ... وشَـكَـوْت إلاً الـحـب فـي أعـضـائـي
لـم يَـدْر مـا فَـعَـل الـسّـهـاد بِـنَـاظِـرِ ... يَـبْـكـي عـلـى مـا ذاب مـن أحـشـائـي
لـو أنّ لـلـعـشـاق قـاض خَـاضَ فـي ... بَـحْـر الـعـلـوم وحـازهـا بـذكـاء
لَـقَـضَـتْ شـريـعـتـه بِـحُـسْـن تـواصـلٍ ... شـاف لـلـوعـة مـهـجـتـي وضـنـائـي

وقوله:

كَحَلَ العيون بمِرْود الشّهد وكوى الفؤاد بِجَمْرة الوجد
وأباد جَيْش تصَبّري ورمى حُضن النّهى بِمَدافع البُعْد
وأراق دمعي حين وَدّعني كاللؤلؤ المنثور في خدي
وغداً يُقابِله على قُبَل من ثَغْره بالجَوْهر الفَرْد
وبلحظه سحرٌ أبان لنا سَلْب العقول بصارم هِنْدي
فالقَلب عانٍ فيه نار هوًى شربت دمي وربت به جلدي
قَدْ مِتُّ والقُمْري يَنْدبني بالنّوح فوق منابر الرّند
وكأنما جَفْن السّحاب أسًى يَبْكي عليّ بأنّةِ الرّعد
هَيْهات لا يَشْفي الغليل بكا من بَعْدما ظعنوا ولا يُجْدي
ولع الأحبّة بالنّوى ورموا قَلْبي المشوق بأسْهم الفَقْد
ولطَالما طَار السّرور بهم مَرَحاً بأجْنحة من الودّ
في روضة قد جاد ناضرها قَطْرٌ جرى في وَجْنة الوَرْد
والطل في أحداق نرجسها كمَدامع سَالت من الصَّدّ
وإذا شدا فيها الهزار غدا يُسْبي العقول بحسن ما يبدي
والورق في حلل مفوّفة ولها بديع الطوق كالعِقْد
وملاعبٌ مَرّ النّسيم على كُثُب العَبير بها إلى عندي

وقوله من أخرى:

صَدَح الهزار وغَرّد القُمْري في رَوْضة غنّا من الزّهر
أغصانها كالغِيْد قد رَقَصت نَشْوى لِرَشْف سُلاَفة النّهر
وكأنها قلبي الخفوق هوًى لِبَلابل الأشواق في صَدْري
وكأن مصفرّ البهار بها لوني من الإعراض والهَجْر
وكأنما أجفان نرجسها تَبْكي عليّ بلؤلؤ القَطْر
وكأنها مقل مسَهّدة تَشْكو الهوى بمدامع تَجْري
وكأنما الشّحرور حين شدا صَبّ يَنُوح أسى على بدر

وحـيـاة مـن أهـوى وطـرّتـه | هـل فـيـهـمـا قَسَم لـذي حـجـر
لـقـد ادّكـرت بـمـا أرى زمـنـاً | مـنـه انـقـضـى فـي غَـفْـلـة الـدَّهـر
فـبَـكَـيْـت حـتـى ابـتـل ذيـل صَـبَـا | بَـيْـن الـخـمـائـل فـي الـرُّبـى تـسـري

وقوله:

بِـقِـيَـام وقـعـود | كـركـوع وسُـجـودِ
وخـشـوع وخـضـوع | ودُمـوع فـي خـدود
واشـتـيـاق لـتـلاقِ | واحـتـراق مـن صـدود
لا تـؤاخـذنـي بـنـسـيـا | نـي ونـقـضـي لـلـعـهـود

وقوله:

كـأنـمـا صـوت هـزار الـغـضـى | فـي عـوده لَـحْـنٌ لإسـحـاق
وقـد رقـا أغـصـان بـان الـنـقـا | يـا لَـيْـت دمـعـي مـثـلـه راقـي

وقوله:

وهـزار أذهـب الـسـودا وقـد | صاح في الـغُـصْـن بـألـحـان بـديـعـة
قـد شَـفَـا مـا بِـي وعـنـدي أنّـه | صاحب (القانون)[1] في علم الطبيعة

وقوله:

بـسـاتـيـن (الـجـراف)[2] تـروق حـسـنـاً | ويـجـلـو الـطَّـرف فـيـهـا من تـنـزّه
وغـصـن الـبـان فـيـهـا مـذ تـثـنَّـى | حـكـى أَلِـفـاً عـلـيـه الـطـيـر هَـمْـزة

وكتبت إليه في يوم عيد الفطر، وقد تضوع السُّرور بأطيب عطر. أدعوه إلى الوصول إليّ والإفاءة بالاجتماع عليّ ما لفظه:

أطلَع الله تعالى غرّتك عليّ بدراً، ورفع لك في مراتب التَّبجيل قدراً، ولا

(١) يعني ابن سينا.
(٢) الجراف ضاحية من ضواحي صنعاء.

بَرِحَتْ في شامخ من قصر التّعم النبيل، تحفة رياض آدابك التي ما للشتاء عليها سبيل. أنهي أليك من شوقي، ما لا يدخل حَمْله تحت طوقي، إلى إنسانك الذي غدا لعين الدهر نوراً وإنساناً. وأذهلنا فضله عن فضل غيره وأَنْسَانا، فإن رأيت أن تنيلني المنى من قربك، وأن تغدو لدى الظباء الآنسة آمنة في سربك، فافعل ولا تتخلّف، فإن دُر الندماء بسلك المقام قد تألّف. فلا تَتْرك العقد بلا واسطة، وهي ذاتك اللطيفة المادّة لأطايب الأدب [والمادة][1] الباسطة. وانعم بالإسعاد، وأنت العادل فلا تَجُر بالإبعاد، ليجتمع لنا بحضورك العِيدان، وتَسْجع حمائم الهناء على العِيدان، فاليوم يوم عيد وسرور، واجتماع الأخلاء فيه من خير الأمور. فصيّره بإسعافك عيداً حقيقياً فإنه مجاز، وعرّج بنا لتعرج برد المنادمة فأنت له طراز. فليس لدي غير من عرفت قدره، واجتلوت في سَمَاء الكمال بلا تَكَلُّف بَدْره، من ندماء هم الناس، وظرفاء بهم يتمّ الإيناس، من كل من تنم ذاته على اللطافة، كما نَمّ الزجاج الصقيل على السلافة، فلطفه للنسيم عَرْف، وذاته للفضائل ظَرْف، لو قيل لأقلامه بار الرماح لبارت، ولو جلبت إلى سوق ألفاظه اللآلىء لبارت. فلا تتخَلّف عنّا فيخلف الصفو برمّته، وتتأخر عن المسارعةَ فَتفِلّ الانشراح وتكسر من هِمّته.

وقد انتظرناك بالعشي، وكل عطف للفرح بتذكر وصولك منتشي، فما زالت عيون الأزهار إلى الطّريق تنظر، ودمعة الشمع وإن كات حارة من السرور لا الحزن تقطر، وكلما طرق الباب طارق. ما وجدنا بين نشوتنا بالترجّي وبين نشوة الخمر من فارق. والله تعالى يحرس لك مَجْداً، ويزيدك بالهيام في بنات الأفكار وجدا، ما أماطت النّسيم خمار الأوراق، عن قوائم الغصن الرطيب الذي راق، وقد تقلّد درر أزهاره وخلخاله بالفضة الخالصة صائغ أنهاره، والسلام.

قولنا: ودمعة الشمعة إلى آخر الفقرة معناه ظاهرٌ، لأنّ الفقهاء ذكروا أن ولي المرأة إذا أراد تزويجها وبَكَتْ بأنها تلمس دمعتها، فإن كانت باردة فبكاؤها عن

---

(١) ساقط من (ش).

رَغْبة للنكاح ومسرّة به، وإن كانت حارة فعن كراهية للنكاح وحزنٍ، فالشمعة دَمْعتها حارةً فكان من العجب أنها تبكي في مجلس الأنس للمسرة بدمع حار. وهذا المعنى بِحَمْد الله تعالى من مبتكراتنا في الشّمعة، لم أقف على نظم ونثر يتضمن معناه. وقلت في النظم:

أيا شَمْعة قد خالفت ما يقوله   جميع الورى من أفقه القوم في النَّاس
بَكَتْ عن سرور باللْقاء ودَمْعها   بَحَرّ حميم فاض ما بَيْن جلاّسي

الفقيه الحسن بن مؤيد القاضي الدّواري الصعدي[1]

ذو زند واري، فاضل من ذرية القاضي عبد الله الدواري[2]، وهل خفي على الناس النهار، أو انكتم نَشْر الروض ذي المنثور والبهار، فرع بَسَق، وعقد اتّسق. وذو عطف على نسق، همل من الأدب وابله، ونفقت من الأقلام ذوابله، توأم الصَّبا لُطْفاً، وشقيق الرَّوض نظارةً وعرفاً، وشبيه الماء القراح شرباً وغرفاً. كم راق مورد آدابه وحلا! وكم قلّد لفظه الدفاتر بجوهره وحَلّى! حظه حظ الأديب، وعيشه عيش الفاضل حلّ بوادٍ جديب، هذاك أسْود. وهذا صعب المِقْوَد، وطالما بعقوة والدي لاذ، فخلع عليه الدَّهر من التنوبل منسوج لاذ[3]. لمّا ذلّ له صعبه، وامتلأ من لبن المآرب قعبة[4]، ولذا مدحه بما يبقى بقاء الدهر، وأثناء عليه ثناء الروض على القطر بلسان الزهر.

قال في قصيدة بها مدحه، وأصلت زنده مثنياً عليه وقَدَحه:

يا جيرة الحيّ الأولى   جاروا وما لوا عن وصالي

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) هو عبد الله بن الحسن الدواري من علماء الكلام والفقه توفي سنة ٨٠٠هـ (البدر الطالع ١: ٢٨١ مصادر الفكر العربي: ١٩٢).

(٣) اللاذ: ثوب حرير أحمر صيني.

(٤) القعب: القدح الضخم.

أنتم مناي على الزمان — وجُلّ قَصْدي والسؤال
وَجْدي قديم في هوا — كم لا تغيّره الليالي
لا أنثني عن حبّكم — أو يخطر السُّلوان بالي

منها في المدح:

رَبُّ البنان الندب سا — مي المجدّ فيّاض النَّوال
الحازم اليقظ السر — ي القرم سَبَّاق الرجال
جَمُّ الندى سُمّ العدا — غَيْث الجَدى بَدْر الكمال
من فاق علماً في الوَرَى — نَاهِيْك في يوم الجِدَال
هو بَحْر جود في الندى — يُعْطيك من قَبْل السؤال
إن مار أغرق لجّهُ — أو قال أزرى باللآلي
إنشاؤه كم جاد للأ — سماع بالسَّحر الحلال
وأتى بكل خريدة — يعنو لها جِيْد الغزال
كم دلّنا ما قاله — مِنْهُ على سَعَة المجال
كم قام فينا خاطباً — لا عن ملالٍ أو كلال
فأمال أعواد المنا — بِرِ مِثْل غصن في ظلال
من وعظه قد أصبحت — مَضْدوعة صُمّ الجِبَال
وَقْع المواعظ مِنْه في — أكبادنا وَقْع النِّصال
يا أيها المولى لقد — أهديت نحوك من مقالي
منظومةً منها التلي — ل بلؤلؤ الأمداح حالي
جاءتك نَفْثة وامق — عذراء تَرْفل عن دَلاَل
فتهنَّ عيد النَّحر في — نِعَم وقَلْب منك سالي
ولك السَّلامة فاغتنم — أجري بقيت بقا الليالي

وكتب إلى مولانا الوالد عليه السلام أيضاً من النثر في بعض الأعوام يلتمس ما يعتاده ويألفه من البِرّ والإفضال وأرسل ولده ما لفظه: سيدي القاضي العلامة،

ومن هو لعرفانه في درجة الإمامة. المقصود للقراءة والقرى، الحاوي لجميع خصال المعالي بلا تشكُّك ولا مِرا، وغوث اللاجئ الذي يقال عنده الصَّيد في جوف الفرا، جمال الإسلام الذي عمّ بأفضاله كل الورى. محمد بن الحسن بن أحمد الحيمي حرس الله تعالى أيامه، وزاد ولو نقص في أعمارنا أعوامه، وأهدى إليه في الصّبح والعشي سلامه، وأخدمه الإكرام ما سَجَعت حمامه. هذا وأنه ورد مكتوبي إليه زائراً، وإلى مقامه الشريف المنيف مبادراً سائراً، آخذاً به العهد الذي يليق، لاجئاً إليه لجوء هالكٍ في بَحْر الحوادث غريق، طالباً منه ما يَلْتمسه في كل عام، مُسْتجدياً ما ألفه من ذلك الإنعام، فإني لم أجد في هذا الزمان سواه ملجأً وعوناً. وقد أقعدني العجز عن قَصْده ضعفاً وهَوْناً. وقد أرسلت ولدي هذا لما اعتاده من البرّ الذي هو غير مقطوع، وبَعَثْته إليكم لينقلب إليّ بالإرب من روض فضلكم الذي هو عنّي بل عن الكافّة غير ممنوع، فإفضالكم السابق لا يُنسى، وجودكم اللاحق في كل أوان لا يعرض عنه من أصبح وأمسى. فأنشوا ولدي هذا بما ألفته من المكارم، واقضوا له من إحسانكم المغارم، وأنزلوه من جَنَابكم بأرحب كنف وأخصبه، وأوسع مجال لذوي الحاجات وأرحبه، فلولا عِلْمي بما ستلقونه لما أرسلته رائداً. ولكني أعلم أنه سينقلب بالمَقْصد الأسنى عائداً. والله تعالى يبسط لكم بِسَاط الإفضال، ويمدّ لكم في الأيام ويطيل لكم في الليال، بحق محمد سيد الأنبياء وآله خير آل. والسلام.

السيد الحسن بن صلاح الداعي القراضي(١)
من قراض بلاد صعدة(٢)

سَيِّد من قراض، ساس جموع وراض، فما لِذِكْره الطيب من نفادٍ ولا انقراض. أخبرني عنه المخبر الصدوق، بما يَلْطف من الأخبار ويروق. وعَبَّر عنه كما عبّرت عن الثنايا البروق، من أنه من الفضل بمكانه، ومن الرَّجاحة والتوقُّر في

(١) انفرد بذكره.

(٢) قراض: واد معروف في مديرية باقم شمالي صعدة (المقحفى: ١٢٥٨).

غاية الزّكانة. ذو أصلٍ زكا، فبحره العميق لا تدركه الركى، بدر لا يَبْرح في منازل الفَضْل يتنقَّل، وماجدٌ استكثر من خلال المحامد واستقل بأعبائها فأعجب لمستكثرٍ مستقل، لو تجمَّل الفلك، بشيمته لم يحتج إلى زهره، ولو تفَتّح روض الربيع عنها لم يفتقر إلى زهره، من حَمَلة العلم ومحققيه، ومنقّحي فَنّه الأرفع ومدقّقيه، فغرّة الداعي وعلمه للطلبة بِشربان، لا قيل غرة الداعي ويوم المهرجان.

له نفثات تدل على العرفان، ونظم يؤثّر في القلوب ما لا تؤثره بيض الأجفان[1] وسود الأجفان[2]، إلا أنه لبُعْد الديار ولتعذّر الازديار، لم يصلني منه إلا القليل، ولم يبلغ إليّ من عرف روضه إلاَّ ما أهداه النسيم العليل، أملاني له بعض الظرفاء بمواهب الكريم، سقاها عنّي الحياء وبَرَّد سفحها النسيم.

قوله:

خطر الحبيب بحلةٍ يَتَبَخْتر وغلائل وله قناع أخضر
يأوي إليه الطَّير ظنّاً إنه غصنٌ يميس فحين ينطق ينفر

الفقيه محمد بن مهدي الرغافي

من رغافة[3] بلاد صعدة

شبلٌ برز من غاب رُغَافه، وفاضِلٌ سَلَب للشغف به شِغَافه، ومهذبٌ تسيل منه الرِّقة وتقطر اللطافة، فرعٌ أعرب عن طيب الأصل، ونجادٌ أخبر عن قطع النَّصل، وزهرٌ نَمَّ على شذا المنبت كما نَمَّ عرف المليحة بالوَصْل، ربّي في أرض هي للفضل مَنْبع. ونشأ في مربع أكرم به من مربع، فمن تِلْك البقاع ظهر العلم وانتشر. وفيها من أزال عن اللباب ما حوله وقشر، فإذا حلوه بالمر لا يشاب. وإذا هو قد تعرى علمه عما كسته الغصون والأخشاب، فهذا الماجد من أمجاد، قد سار ذكرهم الطيب في الأغوار والأنجاد، كان يسمى أحد جدوده منهم الليل، وسهم

---

(١) الأول جفن السّيف والثاني معروف.

(٢) انفرد بذكره.

(٣) رغافة: قرية من مجز بالشمال الغربي من صعدة بمسافة ٤٥ كيلا (المقحفى: ٦٩٦).

الليل[1] لا يخطىء ولا يجنح عن الغرض إلى ميل.

أقول: وهذا الفاضل لفرط الاشتهار، يليق ويحسن أن يسمى سَهْم النَّهار، فقد تبوّأ من المعالي رتبها. فكان رأسها وغيره ذنبها، يَفْعل قلمه ما لا يفعله المائلان القدّ والرمح. ويَطْلع مداده ما لا يطلعه المظلمان: الشّعر والجُنْح. فله بنات فكر يَعْذب في الألسنة لها الذّكر، من كل غرثى الوشاح[2]، ذات جبين وضّاح، أحلى من أَمْن بَعْد وَجَل، وألذّ من ورد خدود سقي بماء الخجل، فمن نَظْمه الذي هو خِتام دنان الأدب، فإذا فُضّ ضحكت أفواهُ الكاسات بثنايا الحبب.

قوله من قصيدة يَمْدح بها الرسول المصطفى، الذي امتلأ الكَون بمعجزاته وطفا، صلى الله عليه وسلم وعلى آله ما أسبلت عيون الغواني السالبة وطفا:

أيها العاذلون والرقباء ... عِيل صَبْري إذ هَبَّت النكباء
بأريج من الأحبة يحيي ... مهجة لم يكن بها إحياء
وغدت في الدُّجى تنوح بشوق ... في الغصون الحَمَامة الزَّرقاء
لو وجدتم من الصَّبابة مثلي ... في الدُّجى إذ تغنت الورقاء
لعَذَرْتم عن المَلامة صَبّاً ... إذنه عن حديثكم صَمّاء
لا يعي العذل فارفقوا بمحب ... عِنْده الصَّمت والملام سواء
ودعوا من له إذا جَنّ ليلٌ ... أو تبدَّى السِّماك والعَوَّاء
لوعةٌ في جوانح وزفير ... وانتحابٌ وأنّة وبكاء
وأسى ضَمّه فؤاد رقيق ... وضلوعٌ ومهجةٌ حرّاء
ومن البَيْن والصّبابة كأس ... ومن الشهب في الدُّجى ندماء
هام في نَازح الطّلول بحيّ ... كَرَم الطَّبع شأنهم والوفاء
نزلوا منزلاً وحَلُّوا ربوعاً ... طاب فيها الكلا وراق الماء

---

(١) يعني الدعاء.

(٢) غرثى الوشاح: دقيقة الخصر.

واستـرقـوا بـحـبـهـم ربّ حـر ... يَضْنعوا في الهوى به كيف شاؤوا
للمليح الذي حَوَى الحسن منهم ... قـبّـةٌ فـي قـبـابـهـم خـضـراء
لـم يَـزَل وَجْـهـه يـضـيء جـمـالاً ... تـتـجـلّـى بـنُـوره الـظـلـمـاء
أشرف الرسل خَيْر من خلق الله ... بـمـن قـد أقـلّـت الـغـبـراء
صـدقـت قَـبْـل وقـت إيـجـاده فـي ... وَصْـفـه الأنـبـيـاء والأنـبـاء
مـا أتـت قـبـل أحـمـد بـنـبـي ... مـثـلـه الأمـهـات والآبـاءُ

منها:

زادك الله يـا بـن عَـبْـد مـنـافِ ... شـرفـاً لا تـنـالـه الأنـبـيـاءُ
فـي مـقـام وعَـدْتـه لـك فـيـه ... شَـرْط رفـع دون الـورى وجـزاءُ
وعـلـيـك الإلٰـه صـلّـى صـلاة ... لَـكَ فـيـهـا مـسـرّة ورضـاء
وعـلـى آلـك الـذيـن أمـيـطـت ... عـنـهـم الـسّـيـئـات والـفَـحْـشـاء
مـا تـرامـت إلـيـك عِـيْـس الـمـطـايـا ... ورَمَـتْـهـا بـحـرّهـا الـرمـضـاء
يـا حَـبـيـب الإلٰـه بَـيْـن الـبـرايـا ... لـك روحـي ونـور عَـيْـنـي فـداء
طـال شـوقـي إلـى الـلّـقـاء فـقـل لـي ... أيّ يـوم يـكـون فـيـه الـلّـقـاء
وأغِـثْـنـي إذا دعـوتـك يَـوْمـاً ... مـسـتـغـيـثـاً وطـال مـنّـي الـنّـداء
ذَهَـبْـت حِـيْـلـتـي وأحـضـرت فـرداً ... وجَـفَـانـي الأحـبـاب والأصـدقـاء
داو دائـي بـطـبّ فـضـلـك أنّـي ... راغـبٌ أن يـزول عـنّـي الـدّاء
سـتـرانـي إذا عـثـرت بِـذَنْـب ... قـد حـوَتْـه الـصّـحـيـفـة الـسـوداء
لـي إسـمٌ يـلـوذ مـنـك بـاسـم ... يـوم تُـدْعـى هـنـالـك الأسـمـاء
فـأجـزنـي شـفـاعـةً فـي مـديـحـي ... يـتـمـنّـى مـنـالـهـا الـفـصـحـاء
لـي فـي الله ثـم فـيـك رجـاء ... وأرى لا يـخـيـب ذاك الـرّجـاء
يـا إلٰـه الـسّـمـاء يـا مـن لـه الـعـزّة ... والـجـبـروت والـكـبـريـاء
قـد تـرى زَلّـتـي وطـول اعـتـذاري ... مـا لِـوَعْـدي ولا لِـعَـهْـدي وفـاء
أنـا فـيـمـا أمـرتـنـي عـبـد سـوء ... مـائـلٌ عـن رشـاده غَـوّاء

مـا فَـعَـلْـت الـذي أمـرت ولـكـن ... ذاك شـأنـي وشـأنـك الإغـضـاء
إن تـدعـنـي مـعـذّبـاً فـبِـذَنْـبـي ... أو تـقـل عـثـرتـي فـمِـنْـك الـعـطـاء
فـأنـلـنـي يـا ربّ غـفـران ذَنْـبـي ... يـا لـطـيـفـاً لاذت بـه الـلُّـطـفـاء
وارض لـلـمـصـطـفى يـكـون شـفـيـعي ... فـي مـقـام يـخـافـه الـشـفـعـاء
زده فـي ذلـك الـمـقـام مَـقَـامـاً ... فـيـه نـورٌ وبـهـجـة وبـهـاء
وعـلـى رُوحـه فـصـلٌ صـلاة ... مـا تـلألا الإصـبـاح والإمـسـاء
وعـلـى أهـل بَـيْـتـه الـذيـن هـم الـسَّـادا ... تُ تـحـت الـلِّـوا والأولـيـاء
مـا هـمـا هـاطـلٌ ومـا أورق الـغـصـ ... ـن وجـنّ الـدجـى ولاح الـضـيـاء

قوله:

لـذوات الأطـواق بـالـتَّـغـريـد ... نَـغَـمَـات بـديـعـة الـتَّـزديـد
وكـأن الـحَـمـام فـي الـرَّوض غـيـدٌ ... أطْـرَبَـتْ عـن صـنـاعـةٍ فـي الـعـود
واعـتـنـاق الـغـصـون عـنـد الـتـثـنّـي ... كـاعـتـنـاق الأحـبـاب يـوم وعـيـد
فـخِـطـاب الـنّـديـم لـلـوُرْق غَـنّـي ... وخـطـاب الـنّـسـيـم لـلـقـضـب مِـيْـدي
وبـرود الـنَّـسـيـم يـهـدي إلـيـنـا ... طـيّـبـاً مـن أريـج نَـشْـر الـبُـرود
يـا لـه مـن مـذكّـر بـوفـا دهـر ... تـقـضّـى فـي صـفـو عَـيْـشٍ رَغِـيـد
واجـتـمـاع مـن الـحـبـيـب وَوَصْـل ... وثـنـاء عـن عـاذل وحـسـود
وأمـان وقـطـف وَرْد خـدود ... رشّـحـت بـالـنَّـدى وعـض نـهـود
وارتـشـاف مـن مَـبْـسـم واعـتـنـاق ... وانـتـشـاق لـطـيـب عـرف الـنـهـود

نفحة من نفحات الشام، ولمعة بَرْق نظرها المشتاق وشام، ونَسْمة خطرت بِعاطر الإشتمام، وروت ما روت من الطِّيب عن زَهَرَاتِ الكمام

لما كانت ديار الشام العامرة، ورياضه التي تُحييها الدّيم الهامية الهامرة. مَنْشأ العلم وفنونه، ومَنْبع الأدب وعيونه، ومخيّم قوم ذوي مناقب. يَخْدمهم في منازل العلا النَّيرات الثواقب، من عالم قَصَرت عليه الإفادة، وكثرت إلى بابه لإزاحة المشكلات الوفادة. وَشَّع رداء فضله ووشى، وطرّز أكمام كماله وحشَّى، واري الزند مخضلّ عذبات الرَّنْد، أحلى عبارة في العَضْر من القَنْد. رَحيب الربع سَلْسل الطبع، انقطع عن الأقران خصالاً، لما غدا إلى أغراض المعارف أنفذهم نصالاً، فاستثناؤه من نظرائه مُنْقطع، أطاعه فينا الثَّناء وهو لغيره لم يُطِعْ. أكَّد فنون العلم بأسهم ذكاء مسدَّدة، ترمي من قوس خاطره عن نون تأكيدٍ مشدّدة، تُبْدى أوراقه المكتومة المرقومة، التي هي بالطَّل في الصبح مرهومة[1]، نضارة الروض الوريف، في أيام الرَّبيع وفصل الخريف.

وأديبٌ نسج بأنامل أقلامه حُلَل بيان، وزَيّن الدفاتر بما لا يعزب على العيان، أحكم من تَنْضيد لؤلؤ الشعر سَرْده، وكَلَّل برذاذ لطفه من بستان المفاكهة وَرْده، وطرّز بذهب شمائله من الفَضْل بُرْده. أدبه أبرد من وقع الطَّل، وأبهج من الجِيْد إذا قلّد بعد العطل، ألذ من أيام الشباب. وأنظر من جمان الحباب، كم له في بنات فكره من غانية، هي عن الوصف الجميل غانية. وكم له من غادة تَحْت النّقاب، تَخْضع لها من الأكابر غُلْب الرقاب، ولذا ما بَرِحْت لأخبارهم متطلعاً. ومن أدبهم الذي تهديه السَّيارة متضلّعاً. من وفّاد البيت العتيق، المنقلبين من ضائع بضائعة

(١) مرهوم ممطور مطر ضعيف مستمر.

بالمسك الفتيق، فكنت أستلذّ من أخبارهم بما يرد، وأنظم جواهر آدابهم في عقدي الذي سرد، مما تتنافس عليه النّسمات عند الهَبُوب، ويَتَحَاسد على حمله إلينا وافد الصّبا والجَنُوب. أقنع من كثير بقليل، واكتفى بأيسر عنوان ودليل.

ومن فاته الروض قنع بالزّهر، ومن لم يصل إلى البحر الفرات تعلل بالنَّهر. وفي الطيف خلفٌ عن المزار، وقد يَقْنع الطروب إذا فاتته نغمة العود بتغريد الهزار. وفي طلعة البدر تعلل، عن محيّا المليح النافر لفرط التدلل، واستنشاق طِيْب النسيم، ينوب عن الرَّوض الوسيم. وكم قَنَع صَبّ، يقاسي من القطيعة غاية الوصب، بتحية من الحب تودعها الصَّبا، فتغنِّي لها الحمائم وتبتسم زهور الربا. ويميس من الطرب كل غصن مائل، وتصفِّق من الأوراق أكفّ الخمائل، أو إشارة كف خضيب، بأطراف بنان ناعمٍ رطيب، أو ابتسامة ثغر يُعبّر عنها البارق، أو زورةٌ في النوم ينعم بها الخيال الطارق:

عَـلّـل الـنـفـس فـالـمـحـبّ قـنـوع ... يـكـتـفـي بـالـخـيـال حـال الـبـعـاد
أو بـتـلْـويـح بَـرْق نـجـد إذا لـم ... يَـطـف الـطـيـفُ لامـتـنـاع الـرّقـاد
أو بـمـا تَـبْـلـغ الـنّـسـيـم عـن الـرَّ ... بـع وقـد رَوَّضـت ثـراه الـغـوادي

فقد مَنَحْت هذا الكتاب وفلكه من أوصافهم بِبَدْر تمام. وجعلت استطراد ما أمكن من نظامهم لشرابه حُسْن ختام، وذَكَرْت منهم من شمَمْت رائحة ذكره، واستنشقت عنبر أدبه الذي أذكته نار فطنته بمجمرة فكره، ومحلهم إذ ذاك أنأى من الكوكب، واستقصاء ذكرهم وعر المسلك صعب المركب، لأنه بَعُدَ فَضْلهم، كما بَعُدَ محلِّهم، والنزائع أنجب، وفضل الأبْعَدين أعجب. فإن أكن قد وَفّيت المقام حقّه، فذاك جُهَد من بعدت عليه الشقة

أو لا فـعـذري فـيـه عـذرٌ واضـحٌ ... والـشـيء قـد يـخـفـى لـبـعـد مـكـانـه

وربما قال لي القائل، النازل تحت أفياء هذا الدوح القائل: فاتك الرَّوض الأنضر. هَيْهَات هيهات الجناب الأخضر، فأنا أقول قولاً يسوغ عند ذوي العقول: ما السهم عن الغرض بقاصر، ولا استقطار الخمر بعازبٍ عن العاصر، وليس العزم بواني، ولا الصَّب المغرم بزاهد في الغواني، لكن قد تَعْرض الموانع، فتكف

الأكف عن اجتناء الثمر اليانع، وربما عزّت المآرب ومنعت عن الظمآن المشارب، وحَال الرّقباء، قبل وصول ذات القبا، وقد تَنْأى الديار، فتعلل المحب بالذكرى مع تعزز المزار:

ربـمـا فـاتـت الـحـقـيـقـة يـومـاً ... ذا مـرام فـمـال نـحـو الـمـجـاز

فمِمَّن خال طرفي برقه وشامه، وحمدت بتربية مثله من سفح ما وراء مكة مصره وشامه. وبدر في وجنات أرضه فكان لها توريداً وشامه، وورد خبره إلى ثغر كوكبان، فإذا ذلك الثغر قد أبدى للعيون وِشَامه، فأثنيت لأجل هديّه حديثه على الركبان. ومال عِطْفي طرباً لوصفه، وكأن الحديث نسيم صبا وأنا غُصْن بان، وتعَلّلت بأوصافه الحميدة وإن كان منّي شخصه قد بان. من اكتفينا عن مجاورتْه، بمكاتبته في الأوراق ومحاورته:

الشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي[(١)]

أوحد للكمال مصطفى، ومصباحٌ هَبّ عليه نسيم اللطف وما انطفا، كأنه روح الصَّبا. جَرَى في جِسْم عذبات الربا، بحرٌ لا تحيط به عبارة، وجوادٌ لا يشق كل سابق غباره. فاضلٌ أبرزته حَمَاه، وأديبٌ تحجَّر وادي الأدب لمّا حماه، أخضرَّ سوحه وأحيا الأموات ريحانه وروحه. فعاد إلى كلّ منهم نَفَسَه وروحه، حُمِدَتْ خلاله وامتد ظِلاله، فمصطفى ممدوداً الظلال وإن كان مقصوراً، متعذر الانحصار لفضائله، وقد غدى فَضْل غيره محصوراً، بليغٌ ذو قلم، إذا تَوعّد بالكلم كَلَم. يهزّ كالغصن معاطفه، فتتناول الأنامل منه مقاطفه. مقاطف تدلّت عن أطيب الثمر، بعد أن هَمَلَ عليها غَيْث البلاغة وهَمَرْ، إذا نظم فالكندي[(٢)] دونه، وإذا نَثَر رأيت الفتح[(٣)] وابنه، أبو محمد حلّ أمّ القرى واهتدى بطيب نشره، وفاذا اليُمْن عند السرى.

---

(١) توفي سنة ١١٢٣هـ (سلك الدرر ٤ : ١٧٨ تاريخ الجبرتي ١ : ٧١).
(٢) يعني المتنبي.
(٣) يعني الفتح بن خاقان.

وهو مع ذلك تاجر، يقتطف من روضه ورد نيسان في شهر ناجر[١]. يَشْتري الجوهر ويبيع العرض، وتساومه الغيد في سلعته، وماله غير أسهم لحاظ من غرض، فخيل ذوي المال بجواده تجارى، وأقرانه بالنَّظر إلى توفر نصيبه لا يكادون يعدّون تجاراً. كانت ترد إليّ وإلى والدي منه للمكاتبة طروس، ويزّف حُجَّاج البيت أوراقه إلينا كما تزف العروس، فَبَيْننا وبينه مودّة على السماع، ومكاتبات سال لرقّتها دمع الطَّلّ وماع.

اكتحلنا منها بإثمد المداد، على ما بَيْننا وبينه من أميال البعاد، يَتَعلَّم من ترديدها الهزار، وذلك لما نأت به الدار، وقد يقنع المحبّ بالذكرى إذا شَطَّ المزار، فكم أهدى لنا درّ نظمه ونظم درّه، وبعث لنا بالسّكر المكرر من كلامه فأزال من البين طعم مرّه. وهديّة الآداب، عند الأديب المتمسك من اللطف بالأهداب، ما بها أبداً بديل ولا لها ضريب ولا عديل، فالمكاتبات بيننا وبينه عن أكيد ودّ، ماله من التَّواصل بالمحاورة أبداً من بدّ، زاده ذلك التَّوكيد علينا عطفاً[٢]. ولذا أني امتريته من دنانير أدبه فامتريت الديمة الوطفاء، وقد ألّف كتاب الرحلة ونتائج السفر. في ذكر من تضمنهم القرن الحادي عشر[٣].

ثم لما خرج إلى اليمن، شرت به المسرة بلا ثمن. واستطالت به مَجْداً، وهام فضلائها بمحاسنه وَجْدا، ولبث بصَنْعاء دَهْراً. يقتطف من حدائقها زهراً، وأعجب بِمِضْرها، ومدّ مَدْحه لِقَصْرها، وأعرض عن جيران ذي سلم، ونسي العقيق فلم يرقه على خدّه لمّا لم يجد لفراقه بعض ألم. وقد فُرِشَ له نباتها أخضر الإستبرق، وأنساه هواؤها أيام العُذَيْب والأبرق، ثم أنّه رحل إلى مدينة ذمار. وطاف بِكَعْبة جودها لما رمى من أشواقه الجمار. وبقي بها لدي إمام الزمن.

---

(١) كل شهر من شهور الصيف ويقال صفر أو رجب.

(٢) هنا تورية بالتوكيد والعطف عند النحاة.

(٣) يسمى فوائد الارتحال منه مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٠٩٣ (فهرس دار الكتب المصرية ٥ : ٢٩٤).

وَمَلِك هذه الأقطار من اليمن، بحصن مَوَاهب الكريم، حتى وافاه الأجل فألحّ عليه الغريم، عمّ الألم أخصّه، وقرّبه من الموت وأقصّه، فمات بها غريباً، وشرب من كأس منيّة لم يجد له من ندمائه عليها شريباً، أحسن ربه تعالى إليه مرجعه، وزار القَطْر مرقده ومضجعه، ما نشر الأفق غيمه. ومدّ منه على جوانب الخافقين خيمه.

ومن شعره مجيباً، قصيدة أتى منها نَمَطًا عجيباً. يتذكر بها من الشباب ريعانه، ويشتمّ منها لما فاتته زُهور الشّام ريحانه، ويتأوه على رياض جلّق التي يسير من رمّانها فوق هام مفلّق. وغُصْنها يميل رِيّاً، ويفوح زهرها ريّاً، وقد اطّرد به قطر الوابل، كما اطّردت الكعوب في الذّوابل، ووجه الدهر ذو أسارير. والنَّهر يَنِمُّ عن الحصى كما نمّت على الحبَبِ القوارير:

منها قوله:

أتتني نهاراً غادة تخجل البدرا ... فلم أستطع مذ شِمْتها تُجْتلى صبراً
وقبّلتها ألفاً وألفاً ولم أجد ... دواء لدائي من مراشفها أبرا
وأفرشتها خدي وَوَسّدتها يدي ... وأدنَيْتها باللّطف من كبدٍ حَرَّى
وصِرْتُ أعاطيها ثنائي منَظّماً ... عليك وجادت بعد ذلك بالبُشْرى
عقيلة أتراب لها القلب مَنْزلٌ ... أرانا سَنَاها في الضُحى الفَجْر والبَدْرا
يمانية الأعطاف شامية الهوى ... حِجَازية الألمى عراقية شَعْرا
معانٍ هي السحر الحلال لمجتدٍ ... فها روت منها رقة عُلّم السحرا
حبت بوصالٍ حيث يَنْفَعُ مُغرماً ... وحَيَّت بلفظ طال ما فضح الدّرّا
ومن قَبْل كانت والعذول مراقبي ... تواصلني يوماً وتَهْجرني شهرا
فقرّت بها عَيْني القريحة وانثنى ... فؤادي بها نَشْوان من لطفها سكرا
ذكرت بها عهد الصّبابة والهوى ... وريعان عمر بالشّآم لنا مَرّا
وعيشاً كأخلاق الكرام قطَعْته ... بجلّق ينحو الصالحية[1] والجسرا[1]

---

(١) محلاّت بدمشق.

به من لجين الماء يَنْساب جَدْوَلٍ يرقرق في آصاله ذائباً تِبْرا
يهيّمنا في جنّة الخلد صَفْوَهُ ويملي علينا ما جهلنا وما نَقْرا
لعمر أبي قد كان شعري نائباً بحيث أرى في سوقه جاهلاً غِرًّا
وحتى استماعي لفظه قد سئمته ولا أشتهيه قط سِرّاً ولا جهراً
وذلك مما قد دَهَاني بِغُرْبة وفُرْقة أحباب حظيت بهم دَهْرا
فمن بعدهم لم يَصْفُ عيشي ولم أمل إلى لذة هَيْهَات تخطر لي ذِكْرَا
فهل في مطال الدهر لي وعد أوبة ومن لي بِقَلْب فيه يوسعه صَبْراً
وما حِيْلتي والآن بيني وبَيْنهم حصون علت حتى تجاوزت النَّسْرا
جبال ترقت للعلا لو رأيتها لقلت لها دَيْنٌ على الغَفْر والشعرى
أصاب نواصيها الغمام فما رَقَتْ عيون لها بَعْد الشباب الذي سَرًّا
كأن عليها البَرْد ضربة لازبٍ وحرّ فؤادي قد ألان به الصَّخرا
قسا طبع أهليها وعزّ منالهم وإن رمت وُدّاً منهم فذق المرًّا
وفي ذمة الأيام ما صَنَع النوى بِجِسْمي وماذا شبّ في كَبَدي الجَمْرا

وله إليَّ مكاتبات نظماً ونثراً، أدبٌ في أعضاء اللبيب من سُكْر الراح وأسرى، كتب إلي من المنثور الذي لا يَشَاكله رياض الزّنبق والمنثور. يصف اطّلاعه على كتابنا المسمى (عطر نسيم الصبا) ويثني عليه بما خِلْت أنه لو رسم في الحدائق لما افتقرت إلى زهور الربا.

وذلك بعد أن أهدى له مولانا الوالد منه نِسْخة بديعة، وأَتْحفه بها حتى قال بلسان حاله: شكراً لك يا ضخم الدسيعة[١]. جاء من كلمات كتابه الذي يجب حفظه. وذلك عند ذكر مولانا الوالد ما لفظه:

وأرسل لنا أكرمه الله تعالى بهدية سنية وفاكهة أدب حلوة جنية. وهو مؤلفكم (عطر نسيم الصَّبا)، الذي تأرّج بنشره الفائح زهر الربى، وإليه كل ذي لبّ صَبَا،

---

(١) العطية الكبيرة والمائدة الضخمة.

فما نسيم جنوب وما صَبَا. ولعَمْري أنّه كتاب انفرد بالسَّنا، وتكفّل لمن طلب مثله بالمنى. وجدّد لي أوقات السرور والهنا. أهدى منك نسيماً عاطرة، ونشر من آدابك روضةً ناضرة، وَتَرَك عيون ذوي الغرام بالأدب إليه ناظرة، زادني إليك شوقاً. وقد أبدى لي طائره طوقاً، فكدت أطير سروراً، وأسابق النسيم مزوراً، فإلى مثلكم يشتاق، وإلى رَبْعكم المخصب تُحَثُّ النِّياق، فإنك زينة العَصْر لا محالة، وفَخْر الزَّمن على كل حاله، بك يتيه الفضل، ويطول بفرعك الأصل، فخرت بك أرض اليمن على الشَّام، وتاهت بك فباهت علماءها الأعلام، وأغاضت أدباءها فَسَلَّموا، وأصمتت بك جملتهم فما تكَلَّموا، لا شك أنك لهذا الزمان المجدّد. وأن مطوّقك هو السَّاجع على الأغصان وهو المردّد.

ليت القاضي الفاضل بقي إلى زمانك، أو ليت(١) الجمال ابن نباتة امتدّ عمره إلى أوانك، أو ليت البرهان القيراطي مَثَّل بين يديك، أو ليت الشِّهاب الخفاجي أخذ طريقته منك وإليك، لو أملي هذا الكتاب على ابن حبيب. لقال: بهذا نسيم صباي يطيب. وقد عَطَّرته بنفثاتك وضمّخت ذَيْله بكلماتك، يعترف لك بالسَّبق في الرِّهان، ويحقر عنده مؤلفه لما هان. فللَّهِ درّ غذيت به، ووردت رائق مشربه. ولِلَّهِ والدك فقد أنجب، ورَبَّى في حجره من أتى من الفضل بما له يعجب.

وأنتم بحمد الله نَبْت العلم وأهله، ومنبع الأدب الذي لا يضره من الجاهل جهله، وقَدْ عزمنا في هذه المدة، من مؤلفكم على تحصيل نسخ عدّه، وبَثِّها في أرض الشام ومصر والحجاز، ليعلم من بها من الأفاضل أنك طراز الطراز، وأنّ الزَّمان لا يخلو من مجدّد، يجمع من عقد العلم والأدب عِقْده المتبدِّد، وأنّ في الزوايا خبايا، من أجلاّء طابت منهم السجايا، وأن لكل دهرٍ محاسن، ولكل نهر ماء غير آسن، والله تعالى يحرس مولانا الشهاب، ويُبْقي أدبه غرّة شادخه لسائر الآداب. ويَجْمع بيننا وبينه، ويزيل من هذا التنائي بُعْده وبَيْنه، وكما(٢) أرانا الزهر

(١) في (ب) ليس.
(٢) في (ب) كلما.

يرينا الحديقة، وكما كُتِبَ لنا اللّقاء بمؤلفه مجازاً يتبع ذلك اللقاء حقيقة، وسلام الله تعالى عليكم ينزل برده وينتهي إليكم.

نعم بعد أن أنفذ إلينا هذا المكتوب من ديار مكة المشرفة صِينت عن الطوارق، ولا برحت تأمّ من أقصى المغارب والمشارق. تعقَّب خروجه إلى ديار اليمن الميمون، قاصداً المدينة صنعاء المحمية، وبعد بقائه فيها أياماً نفذ إلى مدينة ذمار ومواهب الكريم. وهناك واقته المنية بعد مدة فمات ودفن في تربته التي حَثَّه المقدور على خروجه من دياره ليدفن فيها.

ولما وصل إلى بندر المَخْويت المحروس، مع خروجه كتب إلينا كتاباً فيه يصف وصوله، فكتبت إليه من النّثر والنَّظم ما صورته:

تأملت في قطر كوكبان فإذا هو مشرق الأنوار. وأمعنت الفكر في أفقه وإذا هو روض متفتح الأنوار(١). قد وردت عليه من جهة الغرب نسيم الصبا، ومَرَّت في الصّباح على فراش النَّبت من الربا، فإذا الحدائق تَهْتز جذلاً وطرباً، والغصون تَرْقص شوقاً وحرباً، شاهدتها فإذا هي مائلة الأعطاف، فإذا النهر المتدفق بشرابه عليها قد طاف. مديراً له كأس بلّورته من الزنبق، مازجاً له من تراب الحدائق بالمسك الأعبق. وحدّقت نحو النرجس، الشاخص الأحداق الناعم الملمس، حيناً وعيونه ناعسة من سكر المسرة. وتارة وهي باهتة كنجوم المجرَّة، وإذا ثغور الأقاح باسمة عن فلج، والحمام تغني رافعة أصواتها بألحان من الرهج، وخدود الورود، مخمشة عن نضارة الخدود، مع تَصْفيق من النهور، وإعلان بما وقع لها من السّرور، فعلمت أن ذلك المتفق لخبر سار، أهداه إلى الرياض النسيم المار، فسألت الزهور، فقالت: الخبر عند النهور، فسألتها، فقالت: الحقيقة عند الغصون، فسألتها فأحالت الخطاب على ذات الطوق المصون، فالتفت إلى الحمائم، وهي مستقيلة بين أزهار الكمائم.

وقلت: يا ساجعة بحق الأليف، المردد معك على الغصن المنيف، إلاَّ ما

---

(١) الأنوار في السّجعة الأولى جمع نور (معروف) والثاني جمع نور بفتح النون الزهرة المتفتحة.

أوضحت لي الخفي، من الخبر الذي بتحقيقك له أكتفي، فقالت: ألقى إلينا خبر كريم، قَدِمَ به قُبَيْل الصّبح وافد النسيم، بأن مؤرّخ الزَّمن الشيخ مصطفى من فتح الله قدم إلى اليمن، ببضائع أدب غير كاسدة في الثمن، فلما سمعت ما قالته طربت؛ كأني تناولت الكأس وشربت، هزّتني الأفراح، كما هزّت الشَّارب الراح، وقلت: أهلاً بِمَقْدمه الميمون، وسهلاً بوفوده الذي هو بالأفراح مقرون، فاجأنا كتابه بالمَسَّرات. وبَدَهَنا مرقومة بالبَرَّات، فقمنا له إجلالاً على الرؤوس، وخشينا أن لا تسيل لفرط إفراحها به النفوس.

وقلت للدواة والقلم: قَدِمَ علينا جيران ذي سلم، فزاوجا طوقاً للحمام، من دُرّ ما يصدر عنكما من الكلام، فإنها بتلك الإشارة قد استحقَّت البشارة. وما فضل بعد أن يتم لها التطويق، ويكمل في أجيادها للسموط التعليق، أبقيتماه في هناء الطيف القادم إلى ديارنا، المجرد نفسه لتعاهدنا وازديارنا، بعد تَحْرير التحية اللائقة[1] بمقامه، وتطييب السلام عليه في مقابلة الطيب من مقامه سلامه. وانثرا عليه من اللآلئ من هذا النثر، وانظما من الشعر ما أمكن تعقيبه في الأثر.

فقالت لسان القلم ناطقة من فم الدواة. هاك من النظم ما يفخر به ألسن الرواة:

يا نسمة وافت من المَخْويت — أحييت ميتاً باللقا أحييت
حُيِّيت بالطلّ السَّقيط من النَّدى — ليبلّ منك الذّيل إذ حيِّيت
سَحَراً على المَنْثور في أكمامه — والنرجس الغضّ الجَنا أسريت
يا ليت أنك قد حملت أحبتي — وبِنَغْمةِ اللُّقيا لهم أوليتي
أهديت من تلقائهم ما طاب لي — نَشْراً فهبِّي بعد أنَّى شِيت
بَاكَرْتِ مشتاقاً قبيل الفجر من — غرب الرياض بهمّة الخرّيت[2]

(١) الأصل؛ اللاقية.

(٢) الخريت: الدليل الماهر (معروف).

لُقِّيت من أزهارها بتضاحك ... اثنا كَمَام ناضر لُقِّيتي

لما بدا زهر البنفسج أزرقاً ... كأوائل النِّيران في الكبريت

عَطَس الصَّباح فجاوبته حمائم ... من فَوْق غصن البان بالتَّشميت

هَيَّجت أشواقي إلى ظَبْي النقا ... مزري الظّبا متلفتاً عن لِيت

ووصفت مَقْدم مصطفى من أرضه ... الفاضل المُلاَّ[1] بَعِيد الصيت

الناظم الأشعار درّ قلائد ... يُزْري بِنَظْم الشاعر التَّكريتي[2]

نال المنى من كل ضَرْب في العلا ... مستغنياً عند المنى عن ليت

وقيت شراً يا سجاياه التي ... زِيْنت بِلُطْف شمائل وُقِّيتي

لا زال في نعم يقال لِنَفْسه ... في الظلّ منها أصبحي أو بِيْت

والله يجمع شَمْلنا في راحةٍ ... ويُزيل أسباباً من التَّشتيت

ويُطيْل في الأوقات منه بِغَيْر لا ... حدّ يحدّ به ولا تَوْقيت

ما غنّت الورقا فقيل لها لقد ... أَغْنيت عن عَوْد شجا أغنيت

أو ما أطال نِدَاه صبّ هائم ... (يا نَسْمة وافت من المَخْويت)

فأجاب من النظم والنثر بقوله:

يا نفس هُنِّيني بها هنِّيت ... من أحرف جاءت على تَثْبيت

وصلت تذكّر سالفاً من وَصْلها ... لم تعرضي عنه ولا أنسيتي

فَرِدِي بها الماء البراد لتخمدي ... يا نار بين جوانحي أُصْليْتي

وصلت إليّ من الشهاب أخي الوفا ... مولاي عالم وقتنا الخرّيت

---

(١) الملا: بضم وتشديد بمعنى العالم وتطلق كلمة (ملا، مولى منلا) على من يحصلون على رتبة المولوية كما تطلق على من لهم في العلم مكانة رفيعة وهي من الألفاظ الدخيلة (معجم الدولة العثمانية: ٢٠٦).

(٢) هو الشاعر المترجم له في كتب أهل اليمن وصاحب القصيدة المشهورة التي أولها:

عج برسم الدار فالطلل ... فالكثيب الفرد فالأثل

انظرها في تاريخ ثغر عدن ٢: ٣٢ ـ ٣٦.

عَـلاَّمـة كـم قـد أفـاد وكـم هـدى		علـمـاً إذا يـقـري الـورى أو يـفـتـي[1]
قـد غـاص لـلأصـداف فـي يَـمّ طـمـا		مـا غـوصـه لـلـصَّـيـد أو لـلـحـوت
واسـتـخـرج الـدر الـكـبـار وشـكّـهـا		في السمـط حـلـية سـالف أو لِيْت[2]
قـالـت لـنـا هِـمَـم لـه والله مـا		مَـرّت لـنـا الأوقـات فـي تَـفْـويـت
لـلّـه درك يـا بـديـهـة سَـيّـدي		مـاذا بـه مـاذا بـه قـد جِـئْـتـي
أنـا قـد نـشـقـت الـعـطـر من تـألـيـفـه		يـا رمّـتـي مـنـه لـقـد أحـيـيـتـي
أهـداه لـي ولـه الـحـمـايـة والـدُّ		ثـبـتـت عـلاهُ غـايـة الـتَّـثـبـيـت
قـل لـلـنّـسـيـم وقـد غَـشَـاهـا عِـطْـره		يـا نَـسْـمـة ابـن حُـبَـيِّـب حـيـيـت[3]
قـد ضـمّـخ الأذيـال مـنـك بِـنَـشْـره		فـاسـتـنـشـقـي من طِـيـبـه مـاشـيـت
حـذّرت عـن كـل الـتـآلـيـف الـتـي		هـي دونـه وبـه لـقـد أغـريـتـي
يـا روضـة الـنـعـم الـجـسـام عـلـيـه كـم		مـن مـزنـةٍ هـطـالـةٍ سُـقّـيـت
الـلّـه يُـبْـقـيـه ولا قُـطِـعـت لـه		أبـدا عـرى بـالـصـرم والـتـبـتـيـت
لا زال مـصـبـاحـاً يـنـيـر بـأفـقـه		بـإضـاءة مـسـتـغـنـيـاً عـن زيـت

وصلني من مولاي شيخ مشايخ الإسلام، ما نفثت به في يمينه الميمونة الأقلام. وَهَبَط عليّ مرقومه هبوط الملائك، وأراني بطريقته في البلاغة أوضح المسالك، حَرَسَك الله تعالى أيها المولى الشّهاب. وَرَفَع لك في المَراتب العالية والجناب، وخصّك عَنّي من السلام ما يتنزّل من سرادقات المهيمن السلام. وقاك مفضلك أتم وقاية، ورَفَع قدرك إلى أعلى مرتبة وغاية، وجعلك في هذا العصر آية ويا لها من آية. أحييتني باستنشاق ذلك المنثور، وقَلَّدتني من ذلك النظم بما تَقْصر عنه قلائد النُّحور، فضضت قرطاسك، فكأني فضضت الدَّن المختوم، ونشرت أوراقك، فكأني نشرت الوشي المرقوم. والتقطت ألفاظك من الدرج؛ فكأني

(١) كذا في الأصل وفيه إقواء.
(٢) الليت: العُنق سبق مراراً.
(٣) كذا في الأصل.

التقطت الدرّ المنظوم، أنّس مكتوبك غربتي، وأزاح عنّي كربتي، وشغلت بالنظر فيه عن ذِكْر الأحباب، وظفرت من المسرة لما وفد بغاية الأسباب؛ فكأني ما فارقت أوطاني وأوطاري. وكأنه ما طرأ عليّ من التنائي طاري، تالله لقد قَبَّلت تلك الأحرف مراراً، ووضعتها على رأسي جهاراً وإسراراً، وغُصْت في بَحْر العروض من ذلك النظم، وداويت بِمَرْهم تلك البديهة ما في فؤادي من الكَلْم.

وأسأل الله تعالى أن يهيىء لنا التّلاقي، ويُصْقل برؤية غرّتك المنيرة المآقي، فأشواقي إليكم وإلى مولانا والدكم كثيرة، وأرجو من الله تعالى أن يُجْبر بالمثول بين أيديكم مُهْجتي فإنها كسيرة. وصدرت هذه البِطَاقة ونحن في أهبة الحركة، والدخول إلى مدينة صنعاء المشهورة بالبركة، وقد طويت القراطيس، ووضعت الرحال على العيس، فلا تلم محباً اختصر خطابه، وأوجز ولم يطنب في أحرف الكتابة.

السلام منك ومن أبيك على الولد والوالد، ورحمة الله تعالى على الطريف من مجدكم وعلى التالد، يستمر سقوطهما على مقامكما، وأسأل الله تعالى أن يطيل بقاءكما. آمين.

السيد محمد أمين الشامي(١)

هو على خزائن الأدب أمين. إذا أنا أطريت في مَدْحه أصدُق ولا أَمين. ريحانة العليا، وزهرة الحياة الدنيا، طالما شد إزاره، وأبعد لسعيه في العلا مزاره، فلو كانت الثريا عنقوداً، لاقتطفها بعزمه الذي لم يزل لواءه معقوداً، كم بهر بمعاليه، وملأ صَدَف الاذان بلآلئه، مِداده يرخص الغوالي، وأقلامه تستخدم العوالي، بليغ أي بليغ، فرس سبقه فريغ(٢)، أديبٌ ما نطق إلاّ سال من خلال

(١) هو المعروف بالمحبّي محمد أمين بن فضل الله بن محب الله بن محمد المحبي المتوفى سنة ١١١١هـ (سلك الدرر ٤: ٨٦ الأعلام ٦: ٤١).

(٢) من الخيل: الهملاج الواسع المشي.

كلماته الشُّهد، ولا أَطْلع أفق قرطاسه شهبه إلاَّ اكتحلت عيون النجوم بالسُّهد، تستخفه أريحية الصِّبا. كما استخفت الغصن الميال نَسيم الصَّبا. له كلمات أحسن من شَفِ الأنضر، وأروح من الروض الأخضر، هي على غيره أشمس من العروس، وأعزّ من الثمر وقد طالت الغروس.

أخبرني السيد أحمد بن أحمد الآنسي سقى العهاد عهده الذي ما نُسي بأنه اجتمع به بمكة المشرفة، وعَرَّفه من طرائق الأدب ما عرّفه، وجرت بينهما مكاتبات تسترق، ومحاورات تزيّن المنشور من الرق، وأنه ذَيَّل ريحانه الشهاب الخفاجي[1]، وأطلع من فِقَره نجوماً في أفق مداده كالدِّياجي. فإن كان ذيله هذا من ذلك النَّمط، وكلماته فيه ككلماته التي لا يخشى على أبكارها من الشَّمط، فهو ذيل بِقَطْر الإجادة بليل، وتأليف غداً على فَضْل واضعه أي دليل، وإن كان دونه فبضدها تَتَبَيَّن الأشيا، وهل يوازي منسوج العباة وشياً؟ وإلى الآن لم تقع لي على ذلك عين، وَرُبَّما وعد الزمان ووعد الحر دين.

أنشدني الآنسي المذكور له قصيدة ذهبت، ولم أظفر بغير قوله من المديح الذي طلع في جَنَبات الأوراق ونَبَتْ، بعد أن نأت الديار بغايات أبياتها ونَبَثْ، وذلك قوله[2]:

مولاي أنت أجلّ من نَطَقَتْ ... فيه المدائح من أولي المجد
وافيت في عَصْر تزيّنه ... بِنَفائس أعيت على الجَهْد
ولئن تقَدّمك الأولى سلفوا ... من كل شَهْم جَلَّ عن ندِّ
فلأنت ماء الورد بعدهم ... قد جئت تُغْنينا عن الوَرْد

(١) يسمى «نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة» طبع بتحقيق الأستاذ عبد الفتاح محمد الحلو بمطبعة عيسى الحلبي سنة ١٣٨٧هـ.

(٢) أوردها المحبي نفسه في كتابه نفحة الريحانة ٣: ٥٩٩ وقد بعثها إلى أحمد الأنسي المذكور أولها:

بين النهود ومَعْقد البَنْد ... طَعَنَات صائلة القنا الملد

وإلـيـكـهـا عـذراء قـد بـلـغـت مِـنـك الـمـنـى بـالـسـعـي والـجـدّ
واعـذر قُـصُـوري فـي الـمـديـح فـمـا تُـحـصـى رمـال الأرض بـالـعـدّ
لا زِلْـت فـي عـز وفـي دعـة فـبـقـاك فـيـنـا غـايـة الـقَـصْـد+

قوله: فلأنت ماء الورد هو مأخوذٌ من قول أبي الطيب المتنبي:

. . . . فـإنـك مـاء الـورد إن ذهـب الـورد

وما ألطف تَضْمين هذا المِصْراع فإنه أعطر من ماء الورد المستقطر، وذلك في قول إمام الأدب الشّيخ جمال الدين محمد بن نباتة المصري رحمه الله تعالى[١]:

ويـا دَمْع فـض وَجْداً بذِكْر خـدودهـم (فـإنّـك مـاء الـورد إن ذهـب الـورد)

وكان السيد أحمد بن أحمد الأنسي المذكور رحمه الله تعالى لمّا أنشدني هذه القصيدة لصاحب الترجمة معجباً بمعنى بيت من أوائلها. وهو قوله:

كـشَـفْـت نـجـوم الأفـق مـن حـسـد فـوَقَـعْـن خِـيْـلانـاً عـلـى الـخـدّ

فقلت له: هذا المعنى قد سَبَق إليه أبو بكر الداني المعرووف بابن اللبانة[٢] رحمه الله تعالى، حيث قال في مليح على خدّه خيلان[٣]:

لَـحَـظَ الـنّـجـوم بـمـقـلـتـيـه فـراعـهـا مـا أبْـصَـرَتْ مـن حـسـنـه فـتـردَّت
فـتـسـاقـطـت فـي خـده فـنـظـرتـهـا شـزراً بـمـقـلـة حـاسـدٍ فـاسـودّت

إلاَّ أن قول صاحب الترجمة كشفت ألطف وأحسن من قول ابن اللبانة: فاسودَّت. وقوله أيضاً: من حسد أيضاً ألطف من قول ابن اللبانة فنظرتها شزراً بمقلة حاسدٍ، فاسودت، لأن الاسوداد من الحسد قد يحصل في وجه الحاسد.

---

(١) ديوان ابن نباتة: ١٣٥ من قصيدة مطلعها:

صـدودك يـالـمـيـاء عـنـي ولا الـبـعـد إذا لـم يـكـن مـن واحـد مـنـهـمـا بـدّ

(٢) سبق ذكره في ج ١: ٦٤٠.

(٣) ديوان ابن اللبانة: ٢٧ بتحقيق محمد مجيد السعيد ط جامعة البصرة سنة ١٣٩٧هـ.

وأما اسوداد المَنْظور من نظر الحاسد إذا نظره شزراً ففيه تكلّف لا يخفى، وإن كان قَصْده التَّنبيه على أنّ من شدة غيظه كجذوة النار التي ما وقعت على شيء إلا أهلكته.

وقد قلت أنا وهو ألطف:

سَقَطَتْ على وجه الذي أهواه من أُفُقِ نجوم رغبةً في ودّه
كانت كما كانت عليه من البها لكنها احترقت بنار خدوده

الشيخ عبد الرحمٰن بن محمد الذَّهبي الدِّمشقي نزيل مكة المشرفة[1]

دوحة علم امتدت على المسترشدين تظليلا، دانيةً عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً، فلا أقسم بمواقع النجوم من ألفاظه، وأنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لعين من الإفادة تراب مجراها مسك ومزاجه من تَسْنيم.

روى الأكابر حديث الفَضْل عنه، فلو أدركه الذَّهبي لقال: هذا مني وأنا منه، ولرجح بذهبه ميزانه[2] ولعده في النبلاء، فإذا هو بِذِكْره فيه قد زانه، لِفَضْلٍ فيه يؤثر؛ لأنه واحدٌ متضمن معنى العدِيْد الأكثر. كان يُنْسب نفسه إلى الذهبي، ويقول مفتخراً: هو جدّي وأبي. وهو العلامة المحدث محمد بن أحمد الذهبي الحنبلي[3] الحافظ الإخباري، صاحب التآليف التي ما بليت مع ما بلى. والشيخ مصطفى الحموي يقول: ليس لانتسابه إليه صِحَّة فيما علمناه من النقول، قابل بالإنكار هذه الدَّعوى، ولا أدري أيقينٌ ما زعم أم الطوية من الأهوى، فحال النَّاس عجيب،

---

(١) سلك الدرر ٢: ٣١٨ نشر العرف ٢: ٣٨ الأعلام ٣: ٣٣٢ قلت ويلقب أيضاً بابن شاشة وله تاريخ لعلماء اليمن الذين لقيهم يسمى نفحات الأسرار المكية..

(٢) كتاب ميزان الاعتدال وسير أعلام النبلاء، مؤلفات مشهورة لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي الآتي ذكره.

(٣) قلت: قوله الحنبلي خطأ صوابه الشافعي انظر تراجمه في طبقات الشافعية للسبكي وغيرها.

والمنافسة بينهم ذات نَمَط غريب. سِيّما الأفاضل منهم، فقد روي العجب العجاب عنهم.

ففي المبسوط عن أبي وهب أنه قال: لا تجوز شهادة القُرَّاء بعضهم على بعض، ـ يعني العلماء ـ لأنهم أشد تحاسداً وتباغياً.

وروى صاحب كتاب الفردوس(١): لا تقبلوا أقوال العلماء بعضهم على بعض فإن حسدهم عدد نجوم السماء وإن الله تعالى لا ينزع الحسد من قلوبهم حتى يدخلهم الجنّة انتهى.

وسيما أهل التَّعاصر، الذين رُتْبتهم عن رتبة أصحابهم وأترابهم في غاية التقاصر، لا يَرْفعون عن الطعن رماحهم. ولا يدعون في ميدان النّقم وليسوا بجياد جماحهم، قضى بذلك الحَسَد الذي قَلَّ ما خلا منه جسد، لعَمْري أنه رأي لم يكن بأسّد، ومَتْجر خسار بار وكسد، أساؤوا أدبهم في حق من فَضَّلهم. وأراقوا شراب دن فتح ختامه عندهم وفضّ لهم.

وقد التزم صاحب الترجمة طريقه أهل التصوّف، وعامل نفسهِ بغَاية الارتياب والتخوّف، فله تواجدٌ ووجدٌ، وعبودية التزم فيها السلوك في سهل ونجد، فهو صرِيْع الهيبة. مُلْتحف بالتواضع في الحضور والغيبة، يَمْشي في بعض أوقاته حافياً، ويجد الموت في الهيام بالحَضْرة العلية طبيباً شافياً، فالفناء لديه عين البقاء، والسَّعادة عنده في اجتناب أهل الشقاء، ولكنه حادّ الطبع، مستطيل الغرب والنبع، ذو صَدْر حرج، وعَرْف أخلاق غير أرج، وانقباض شَمّه تحت المقت مُنْدرج، فما تفَتَّح في جنبات رياض الأخلاق الحَسَنة له زهر. ولا انساب خلال أفنانها له نهرٌ، ولا لقي اليتيم من النَّاس والدرّ إلا بنهاية القهر.

أستغفر الله أما يتيم اللؤلؤ من الكلام فليس عنده مقهور، وإنما منهجه في

---

(١) لم أجده بنصه في مطبوعة الفردوس للديلمي وانظر أمثاله في تخريج أحاديث الأحياء.

تَنْظيمه وتَرْصيفه واضحٌ مشهور. وهو مع ذلك يتعلَّق بالتجارة والسبب، ويسعى في التَّكسب سعي رَمْلٍ وخَبَب، فقد ملك الجوهر من لفظه، والعرض من تجارته، واشترى المحامد ولكنه عَرض تجارته.

ولما خرج إلى اليمن، واجتمع فيها بأفاضل الزمن. مرّ بديار كوكبان مرور الطَّيف المُلِم، فَمَا قرّ به طرف قريح، ولا سَكَنَ به قلب قد كُلِمْ؛ كأنّه النسيم في الأصيل مر، أو نَفْحة طِيْب عبقت لمجلس السَّمر، فما دام حالها لديهم ولا استمر، أو كأنه خيالٌ طارق. ألَمّ بِطرف عاشق مفارق، فأما والدنا فاجتمع به، وأما أنا فلم يفز أملي منه بمَطْلبه؛ لأنه ما حَطّ له رِجْلاً، ولا فَضّ ختامه عن شراب من السّكر أحلى، ولا صبّ في الكأس له خمراً. ولا جالس زيداً ولا نادم عمراً.

وكتب إلى والدنا قصيدة من أثناء الطريق، قبل أن ينزل من ديار مكة بجيرة الفريق. قد عمرت أبياتها بِيَد الوهن، فلذا أحرص عليها حتى غلق في يد الضياع منها الرّهن. ولعل وَعْثاء السفر، حال بينه وبين بَذْر الإجادة، فما تبلَّج له ولا سفر، ولمّا عجّل بِرجُوعه إلى بَيْت الفقيه ابن عجيل، وتمَسَّك بنسيم قد بُلّ بالعرق منها الذّيل. لمّا لم يُلْف الندى البارد في هبوبها ولا أودعت إلاّ الحميم الحار في طيّ جيوبها، ولا مَشَتْ إلا في الرَّمْضاء أقدام صَبَاها وجنوبها. بقي هناك يتّجر، ويشمّر لجَمْع المال ويَغْتَجر، حتى بغته حمامه، وبغمت بَعْد الصدح حمامه، وذبلت لما سقيت ماء المنية كَمامه. دَخَلَ في خبر كان، وتَبع حَرَكات الإسكان، فتشَتَّت بينه وبين أحبّته الشَّمل، وأنيخت مطيّة قبره بين كُثْبان الرَّمل، وأقام في جِيْرة المقابر غريباً. لا يرى من أهل وطنه غريباً، قام نعشه على أربعة أقدام وصَفَن(١)، وقنع هو من قُمَاش تجارته بالكَفَن، ترادفت عليه من الرَّحمة أسبابها. وغصّت فوق ضريحه بالسَّحاب من السَّماء أسبابها، حتى تُرْخي عليه المَغْدَودَق من أهدابها. وتَقْدح نار البُروق فتصِيْر في ظلمة لَحْده أهدى بها، ما صَاغت للرّياض النهور، تاجاً مَرصَّعاً بفصوص الزهور.

---

(١) صفن الرجل: صَفّ قدميه وضرب بها الأرض.

ولم يعجبني من شعره، غير نظم قصيدة غلا في سعره، اخترت منها قوله:

لا وسحر العيون من لحظاتك ... ما أرى الحسن غير بَعْض صِفَاتك
أربي أن يلوح للطَّرف مَغنى ... فِيْك يَحْلو كرَشْف عذب شِفَاتك
أقسم البَدْر أن يشق إذا ما ... أبصر الفَرْق من سَما قسَمَاتك
يا مَلِيحًا له الملاحة ثوبٌ ... أتقنت غَزْله العُيُون الفواتك
إنّما الحسن في الحَقيقة مَعْنًى ... من معانٍ تلوح في لَمَحَاتك
أنت تالله واحدٌ لا تثنًّى ... بالتَّثني لمَيْل صلد قناتك
مِثْل ما صَبّك السّقيم المعنًّى ... واحد العِشْق في توجّه ذاتك
فَاْزع بالله نِسْبةً لك عَزَّت ... مثل ما عزّ ذلي المتهاتك
أسقمتني مِنك العيون بلحظ ... فاشْف باللَّحْظ لَحْظةً بالتفاتك
عزّ منك الوصول بالجاه والما ... ل وبَذْل النفوس في مَرْضاتك
هل سبيلٌ إلى وصالك قل لي ... سيدي مِتُّ بالقَلاَ وحياتك
يا غزالاً له المَحَاسن تَصْبو ... مثل ظَبْي الفلا إلى لفتاتك

قوله: يا مليحاً له الملاحة ثوبٌ. البيت فيه في معناه حسنٌ لا يخفى مع جعله للملاحة ثوباً واستعارة الثّوب الملبوس لها الذي نسج من غَزْل العيون، وغزلها عبارة عن حركتها ودورانها وتموّجها في فتور وكَسَل، ولو أنه قال له: الملاحة وَشْيء لكان لفظ الوشي أرق من لفظ الثّوب الذي فيه غلظ في هذا النسج الذي حبك من غزل العيون. ولو قال: نَسَجت غزله لكان أحسن، وهو في جعل العيون غزّالة.

ينظر ويلمّح إلى قول الشيخ الإمام في الأدب الذي سببه في العروض أوضح سبب، جمال الدين محمد بن نباتة المصري رحمه الله تعالى(١):

لا تخف عيلةً ولا تخشى فَقْراً ... يا كثير المحاسن المختالة

(١) ديوان ابن نباتة: ٤٢١.

لك عَيْنٌ وقامة في البرايا[1] تلك غزّالةٌ وذي فتّالة

وقلت أنا:

معذّرٌ أفديه من نازلٍ بين ظلوعي في الهوى ينزل
قد نسج الوشي على خدّه فالعَيْن في جانبه تَغْزل

قوله: مت بالقلا وحياتك، ما أظرف القسم هنا بحياة المحبووب، مع ذكر موت المحب بالقلا، ومثله ما نظمته أناأيضاً وفيه زيادة على معناه، وهو قولي:

أنا هالك لا شك في حبّي لمن بالجِيْد قد أربى على ظَبْيٍ النّقا
وحياته قَدْ مِتُّ في حبّي له فله العزا في عاشق وله البقاء

الشريف أحمد بن مسعود بن حسن بن بركات الحسني[2]

من آل الحسن الأشراف الصُّدور، الذين طلعوا في فلك المحامد طلوع شمس وبدور. وكانوا قُطْب تلك الدائرة فعليهم رحى الأيام تدور، أُسُودٌ لها الحرم عرين، وخَيْلٌ[3] ليس لهم ندّ ولا قرين، لا يهيمون إلا بأجفان الضُّبا لا الظِّبا، ولا يعانقون إلا قدود الرماح لا قدود ما ضَمّ من الغواني مَنْصوب الخِبَا. فتقت لهم بالعنبر ريح الجلاد، فانتشر نشرها الطيب في البلاد، طالما اضطرب لهَيْبتهم فؤاد النجم وخفق، وانشق لها قلب اللّيل الأسود عن تامور الشَّفق، تَنْقَدّ لهم خضر المرائر، وتزفّ إليهم من المحامد سود الجواري وبيض الحرائر.

كم فيهم من ماجدٍ إلى مجده نهد!، وكم فيهم من خاطبٍ لغادة من العلا كَعْبها نهد! حماة البيت الحرام، وكِرَام المشاعر الكِرام، منازلهم من الفلك البروج، وجَيْش ليوثهم من الخَيْل السروج.

---

(١) الديوان: لك عين وقامة كل يوم.

(٢) توفي سنة ١٠٤١هـ (خلاصة الأثر ١: ٣٥٩ ونفحة الريحانة ٤: ٩ وسمط النجوم العوالي ٤: ٤٤١).

(٣) كذا في الأصل.

لما ولدوا معها على الصَّهوات، وغَصَّت باللُّجم منها عند السباق اللَّهوات. وقد اضطرب لعاب الشمس، وكاد أن يذهب نورها من العجاجة بالطَّمس، يمدّون المخالب من الصفاح، ويكشّرون عن أنيابٍ من أسنة الرماح.

فهذا المعظم الشريف، زهرةٌ من روض مجدٍ وريفٍ، أتى أكله في كل حين من شتاء وخريف، طائره مَيْمون، ورَشيده على العلياء مأمون. صَاغ حلى الفَضْل فما أبهى حليته، وزيّن بها من محيّا الزَّمَان جبينه وطليته[١]. أسدٌ مقدمٌ باسلٌ، يمر شرابه على الذئب العاسل.

وقد خاف سَطْوته وقَصَّر في حماه خطوته، مطيّة عزمه مَوَّارة، وسجاياه على الأعداء جوّارة، لما أرتهم ما أحرج صدورهم، ورمت بالكَلَف والسُّرر بدورهم، أوقعتهم في المقيم المقعد، وارتهم وأسمعتهم المُبْرق المرعد. وقد ضمّ إلى شرف النَّسب، من الأدب الغضّ خير مكتسب، واستخرج من بَحْر العروض أنفس درّ فيه قد رسب؛ لأنّه جالس العلماء من الفناديّة[٢] وأفنى الحُسَّاد بفوائده ولم تلزمه في ذلك الفناء دِية، فدماؤهم في قَتْلهم هدر. لما ماتوا بغيظهم من قمريّه الذي هدر.

وقد سَجَع على غُصْن قَلمه فأشجى، وملأ بإعرابه المَلْحون سائر الأرجاء، ولما أبت له هِمّته السَّامية، وسيوفه التي هي على أطراف مَجْده محاميه، الدخول تحت ملك مكة، والأسر في قَيْد حكمه الذي حاول فكّه. والاستراحة في روض نعمته وإن كان له بين زهورها قد فكّه. وهو الشَّريف أحمد بن عبد المطلب[٣]، والأسد الذي غلب غيره وما غُلِب.

خرج إلى حُصن شهارة، وافترش من حِماه مَنْثورة وبهاره[٤]، يَسْتَنْجد بالإمام

(١) العنق.

(٢) الفنادية: جمع أفندي، كلمة أصلها بيزنطي عرفت عند الأتراك، وهو لقب يطلق على المتعلم ثم أطلق على الأمراء وعلى من علت رتبتهم من ضباط الجيش (معجم الدولة العثمانية: ٣٤).

(٣) انظر خبر قتله سنة ١٠٣٩ هـ في (خلاصة الكلام لزيني دحلان: ٧١).

(٤) المنثور والبهار من الأزهار (معروف).

المؤيد ليكون له مؤيداً، ولركن مَطْلبه وهو استخلاص مكة المشرفة من يد الشريف أحمد مشيّداً، فما ألفى لندائه به أذناً واعية، ولا وَجَد أصلاً من أجاب داعيه، فغَيْل الليث محترم مهابٌ، وفلك البيت الحرام محروس منه بشهاب، وقد حثّ المؤيد بقصيدة طنّانة، وحرك من خيوط سطورها أوتاراً رنانة. مطلعها قوله[1]:

سلا عن دمي ذات الخلاخل والعِقْد ... بماذا استحلّت أخذ روحي على عَمْد
فإن أمنت أن لا تقاد بما جَنَتْ ... فقد قيل أن لا يقتل الحر بالعَبْد

ومنها في خطاب المؤيد يطعن على الشَّريف أحمد قوله:

أَغِثْ منعماً وانهض فأنت مؤيّد ... من الله بالفَتْح المفوّض والجد
وقَدّم أخا ودّ وأخّر مُبْغضاً ... يساور طَعْناً في المؤيد والمهدي
ويطعن في كل الأئمة مُعْلناً ... يُرَضّي على ابن العاص والنجل من هند

السيد أحمد بن محمد بن معصوم ابن نصير الدين الحسيني الحجازي[2]

عرف واشتهر بالمِرزا[3]، وصار لإبداع النفائس حِرزاً، ولبرود الدِّيباج الناعمة طَرْزاً، فإذا كل الفضائل إليه تنسب وتُعْزَى، مات والده وهو صغير. وقد طلع بدراً للبدور يغير، ونَشَأ في حِجْر والدته يتيماً، وجلا من لَيْل وحشةٍ لفراق أبيه عتيماً:

نَسْل إمام عادل قلبه ... من درن الأدناس معصوم

لمع بارقه في الأفق وتألّق، وأمسك كفّه بأهداب الغمامة وتعلّق، بهمّة سَمَتْ به فما تركت وراءها مرمى. وعَزْم توفَّر في طلب المعالي لما تناهى وأرمى.

قرأ بأشدّ كدّ وطلب، واستدرَّ ثغر المعارف وحلب، حتى عُدَّ في ذوي

(١) أوردها صاحب نفحة الريحانة ٤ : ١٠.

(٢) خلاصة الأثر ١ : ٣٤٩ نفحة الريحانة ٤ : ١٧٨ سلافة العصر : ١٠.

(٣) المرزا أو الميرزا: لقب كان خاصاً بأبناء الملوك من الفرس (المعجم الذهبي: ٥٥٣).

العرفان رأساً، وصار فيهم للمشكلات أشد مراساً، وأصبح في عِلْمه من ليل المداد نبراساً. واستمسك من الأدب بأذياله، واكتحل من إثمد المِدَاد بأمياله. فإذا هو رَوْض تهَلَّل، له تاج أزهارٍ بالنّدى قد تكلّل، ولما ركن إليه السلطان قطب شاه، وملأ من الاشتياق إليه حشاه. وهو إذ ذاك ملك حيدر آباد[1]، طال ما أفنى الأعادي ولهم آباد. أمر تُجّار الهند عليه بالاحتيال وجَذْبه إلى تحت سلطنته لا بالاغتيال، فلما وصلوا إلى بندر جده، وقد أعدّوا له من الحيلة أوفر عدّه. أركبوه في البحر تَرْغيباً على جهة التفرّج واجتلى وَجْه الشمس في مرآة الماء بالتّبرج، فامتطى كاهل الأمواج، ودخل السَّفينة من النَّاس في أفواج، وطار به الغراب وقد أحرز سيفه في القِرَاب، وَجَرت به الفلك بريح طيّبة، واكتضّ الرأي بِكْر مقاصده، فإذا هي ثيبة، حتى وصل إلى التّخت، وأسعده الحظ والبخت.

أبرزته الجلبة، عقد نحر وقلادة لبّه، وألقته درة يتيمة من صدفها، وأطلعته ظلمات اليم زهرةً متلألئة من غَدفها. خلص من البحر المالح إلى البحر العذب، وتحلَّى من البحرين بنفيس من اللؤلؤ الرطب، فعَظَّمه السلطان وأنساه الأهل والأوطان وزاد في إكرامه بما لَيْس يخطر على بال، وسَكَّن روعته بالإيناس والإقبال، وزفَّ إليه ابنته بالعقد الشرعي، ولاحظ بذلك حقّه المرعي، وألقى إليه مقاليده، وَرَفَع في حديثه أسانيده، وبقي هناك معظّماً. ولم يزل عِقْد فضله منظماً، يقطف ثمرات المآرب، ويرد أعذب المشارب، في عيش رغد، اليوم فيه لغد، لو تفتقت أغصان الرياض، لما كان تفتّقها إلا عن أزهاره، ولو تخلخلت سيقانها بفضة دانية لما كان إلا من أنهاره. مع نفوذ نهي وأمر، وخدمة طبول وزمر، إلى أن توفي بحيدر آباد، ووافاه ما وافى جُمْلة العَبِاد، كدّر الموت عليه ما صَفا، وقلّص الحِمام من أردية نعمته ما ضفا، أنزله الله تعالى في شَمِخ الغرف، ما بكته الغمامة من القطر بِدَمْعٍ قد ذَرَف.

وقد أرّخ ولده عليّ موته، فقال مما رَفَع به في النياحة عليه صَوْته:

---

(١) حيدرآباد بلد بالهند (المنجد في الإعلام: ٢٢٧).

حزنت لمَوْتك طيبةٌ ومنى وزَمْزم والحطيم
فلذا أتى تاريخه (تاريخه حزن عظيم)

ولصاحب التَّرجمة نظم أهمل معارضه وألجمه، وأسرج مصابيحه في ليل المداد على أنه أخرس كل فصيح وألجمه، فمن مستقطر وَرْدِه، ومن متدفّق وِرْدِه، ما طبعه طبع السيوف الهندية، وضوّعه تضوّع الأنفاس النديّة، مما مدح به ختنه السلطان، منجع الوفاد والقُصَّاد، الخاقان الأكبر، الذي تحلَّى بذكره المنبر، الأعظم شهنشاه، الطيب منتماه ومنشاه: عبد الله بن محمد بن قطب شاه، أثلج الله تعالى ببارد الكوثر حشاه، وهو قوله(١):

سلا هل سلا قلبي عن البان والرَّند وعن أثلات جانب العَلَم الفرد
وعَنْ سَمُرات بالنقى وطويلع وعن سَلَمات بالأجارع أو نجد
وعن ضال ذات الضَّال أو شعب عامر وعن ظله إذ كنت في زَمَن رغد
وعن نَخَلات بالعقيق وسَفْحه نَهَلْن بماء الورد أو سلسل الخلد
شمخن فأبدين الشَّماريخ نُضَّداً وأشبهن غِيداً قد تمايلن من جَهْد
وأطلعن بُسْراً كاللّجين طلاوةً توهَّج في لون من العَسْجد النَّقْد
وغربيّ كَرْم بالحجاز ترفَّعت به الأرض حتى عاد كالعَلَم الفَرْد
وعن لَغْلع أو عن زرود وحاجر وعن قاعة الوعساء أو سَلْم(٢) أو هِنْد
وعن زينب أو عن بثين وعزة وعن حيّ ليلى أو تماضر أو دَعْد
وعن نزهة الأبصار بل بَهْجة الربى لطيفة طيّ الكشح فاحمة الجَعْد

قال في مخلصها:

بلى ليس بعد الدَّار يا صاح ضائراً إذ كان عبد الله منتجع الوَفْد
شهنشاه شاه قطب شاه مليكنا ووالي ولاة الأمر مشرعة الرفد

---

(١) أوردها ابنه في سلافة العصر: ١١ ـ ١٤.
(٢) سلافة العصر: أو منتدى.

وختامها:

بقيت لنا كَهفاً وحُصْناً وموئلاً ... وبَحْر نوال لم يزل وافر المدّ
بحقّ الرّسول المصطفى من كنانة ... محمد الهادي إلى جنة الخلد
وآلٍ له خَيْر البرايا وبدؤهم ... أبو الحسن الكَرّار والخاتم المهدي
علَيْهم سَلام الله ما هبّ شَمْأَلٌ ... على ثمرات الجزع فالبان فالرَّند

وقوله في غلام غضب عليه فضربه، فجعل يَبْكي ويساقط طلّ الدمع من نرجس عينيه على ورد خدّيه؛ كاللؤلؤ المنثور من الأسماط على صحن مرجانٍ بديع الأنماط[1]:

تراأى كظبي نافرٍ[2] من حبائل ... يصول[3] بِطَرفٍ فاتن منه فاتر
وقد ملأت عَيْناه من سُحْب جَفْنه ... كنَرْجس روض جاده وَبْل ماطر

قلت: لو أنه قال: وقد ملئت عيناه من دَمْع جَفْنه لكان أرق وألطف وأخفّ من السُّحب الثقال التي جاء في قوله: سحب جفنه وقد ذيّلت أنا نظمه هذا، فقلت:

رأى ورد خَدَّيه من اللَّثْم ذابلاً ... فسَقّاه من وَدْق العيون بهامر
غدا الهدب مِنْها مثل سِمْط تَنَظَّمت ... نفائس فيه من يتيم الجواهر

وأجازه وزيره الشيخ أحمد بن محمد الجوهري الآتي ذكره. فقال[4]:

وظبي غريرٌ بالدَّلال محجّب ... يرى أن فَرْض العين سَتْر المحاجر
رماني بِطَرْف أسبل الدمع دونه ... لكيلا أرى عينيه من غير ساتر

ومن هذا النمط الذي يهتز له حتى الشيخ الهِمّ[5] وذو الشمط. قول أبي

---

(١) سلافة العصر: ٢٠.
(٢) سلافة العصر: خائف.
(٣) سلافة العصر: يشير.
(٤) سلافة العصر: ٢١.
(٥) كذا في الأصلين ولعله الهرم.

نواس في مليحة باكيةٍ تلطُم خدودها. وقد تقدم ذكره[1]:

يـا قـمـراً أبـصـرت فـي مـأتـم ... تُـبـخـدث شَـجْـواً بـيـن أتـراب
تَـبْـكـي فـتـذري الـدّر مـن نَـرْجـسٍ ... وتُـلـطـم الـورد بـعُـنّـاب

وقول الوأواء الدمشقي رحمه الله تعالى فيها، وقد عَضّت أناملها. وقد تقدم ذكره أيضاً[2]:

قـالـت متى البين يا هذا فقلت لها ... إمـا غـداً زعـمـوا أو لا فـبـعـد غَـدِ
فاستَمْطرت لؤلؤاً من نَرْجس فَسَقَتْ ... ورداً وعـضّـت عـلـى الـعنّاب بالبرد

وقال صاحب الترجمة:

ألا غَـنِّ لـي صـوتـاً يـذكـر أحـبّـة ... يَـزون لـذيـذ الـعَـيْـش عـنـد الـتَّـنـقـل
لـذلـك سـاروا عـن جـواري وخـيّـمـوا ... بِرَوض اللِّوى من تحت دوح مظلل
فـقـد تـركـونـي هـائـمـاً أيّ هـائـم ... على طلل من حادث الدَّهر قد بلي
فـعـلِّـل مـحـبًّـا بـادّكـار وِصَـالـهـم ... وإن لـم يـكـن عـمـن نـأى بـمـعـلَّـل
فـلـلّـهِ أيـام مَـضَـتْ لـي بِـقُـرْبـهـم ... (ولا سـيـمـا يـومـاً بـدارة جـلـجـل)
مضى بين ألحان من العود أطربت ... وبـيـن غـنـاء طـاب مـن صـوت بُـلْـبـل
وسـاعـفـنـي وقـتـي بـآمـال مـهـجـتـي ... أبـدى لـهـا فـي سـرعـة بِـتَـحـوّل
سـأشـكـو زمـانـي بـعـد شُـكْـري لـه بـمـا ... تـقَـضّـى بـوصـل فـيـه لا بـتـوصّـل

قوله: ولا سيما يوما بدارة جلجل المصراع، هو مضمن من قول امرؤ القيس، وهو بيتٌ أصله هكذا[3]:

ألا رب يـوم صـالـح لـك مـنـهـمـا ... ولا سـيـمـا يـوم بـدارة جـلـجـل

اعلم أن النحاة قد رووا (يوماً) في قوله: ولا سيما يومٌ بالرَّفع والجر

---

(١) ديوان أبي نواس: ٤٩ ط على فاعور.

(٢) ديوان الوأواء ١: ٨٤ و٢٦٧ وخزانة الأدب ٣: ٩٠ ط كوكب دياب.

(٣) ديوان امرىء القيس: ١٤٥ ط السندوبي.

والنَّصب. ورواية النصب قليلة، فأما رواية الرفع فهي أنهم قالوا: أن السي هو المثل من قولك سويت فتَسَوَّى واستوى، فمعناه أنّ الأيام كلها صالحة لا سيما يوم بدارة جلجل. فهو يوم لا مثل له في الأيام، كما إذا قلت: القوم فضلاء كرماء لا سيما زيد فمعناه لا مثل له في هاتين الخصلتين، فما في سيما موصوفة، تقديره لاسي سي هو يومٌ.

وأما رواية جرّ يوم فعلى تَقْدير أنّ ما في سيما زائدة، وتقديره لا سي يوم أي: لا مثل يوم بالإضافة. وأما رواية نَصْب يوم فعلى تقدير أن ما نكرةٌ لا موصولةٌ ولا موصوفةٌ وتقديره لا سي سي أعني يوماً.

قال بعض المشايخ أنّ ما موصولة بمعنى الذي، وقد حذف المبتدأ وفيه ضعفٌ من أجل حذف الصلة من غير طول. فقوله: أن ما موصولة فيه أيّ تكلّف وغاية بمحل وتعسف من غير حاجة إليهما كما هو ظاهرٌ، والله تعالى أعلم.

ولده السيد علي بن أحمد بن محمد بن معصوم(١)

معصومٌ عن الرذائل وابن معصوم، ذو حبلٍ في الأدب غير مفصوم.

ولد بالمدينة وتبع من مشرِّفها دينه على أن الهند له دار، وكأس الشباب هنالك عليه دار، سيّدٌ شرف، وأديبٌ ظرف، ريحانةٌ رطيبةٌ، ضمّنها الكون طيبه، وسقاها ماء النِّعمة في روضات الشبيبة، فاق هو وأبوه بني مكانس، لما صادا غزال الفصاحة الكانس، فأنباؤهما في الأدب ذات سنا، بلغ بهما في الإنارة مَبْلغاً حسناً، حتى غلب أبناء مكانس، الذي إليهم الأدب أنس، فحتْماً علي أن أقول فيما لا يستحيل بالانعكاس (سناكم أنباء بلغ فغلب أبناء مكانس).

وأما هذا الأديب فإنه آية لا تنسخ. وله قدمٌ في العِرْفان من كل قدم أرسخ، تشابهت أطراف محامده في الأشراف، فالواجب الإغراق في بديع ذكره والإطراء في تشابه الأطراف. رمى عن قوس همّته إلى السَّبع الطباق، فإذا النّجوم في السَّماء

---

(١) نفحة الريحانة ٤: ١٨٧ البدر الطالع: ١: ٤٢٨.

سهامه التي تتبارى في النُّفوذ والسِّباق. ورقا من باذخ العليا كَلْكَلا، وأنبت طرسه المِسْك فليس كالكلا، ما تجمّل بِمِثْله العَصْر ولا شابهت ألفاظه مدامة الدهر العصر:

وأحلفُ ما في العَصْر مثل عليّة ويحلف أهل الدهر ما أنا حانث

فللّهِ درّ زمان به سَمَح. لقد أفرط في الجُوْد بجوده حتى طمح، مع أن بمثله أشد من كل بخيل بخلا، وأشَحّ بأن يغرس في سفوح المحاسن النضيرة نخلاً، إلاّ أن لكل شحيح عارفه بها يُمدح. يثنى عليه بها وإن كان في أكثر معاملته عليه يُقْدح، يحطّ البدر تاج الثريا عن رأسه له إجلالاً. وينثر الفلك على أقدامه جواهر النجوم إذلالاً، ما طلعت غُرّته إلا انفتق جَيْب الليل، ولا فاض نَدَاه على الرَّوض إلاّ قيل له لقد جاءك السَّيل. إن تكلم فما أرشق كلامه، وإن نظم فتعالى الله ما أنسق نظامه. قَصَّر الصدف بما يتفقأ عنه من الجواهر، عن بلوغ كلماته النفيسة الزَّواهر، فاحمر عندها خجلاً. واخضرّ بحبّها وجلا، على أنه صقل ثغور لآلئه وجلا.

فما لَفَظ إلاّ تسابقت الغواني لالتقاط الدرر، ولا كَتَبَ إلا عَمَدت إلى مداده ووضعته مواضع الطُّرر. أستغفر الله نسيت الظباء وقد أودعته نوافج السرر؛ لأنه مِسْك يلوح، يُفْغم الخياشيم حين يفوح، ألّف كتاب (سلافة العصر) وزفها زفاف خريدة القصر، بعد أن عَقَد وشاح حبابها منها على الخَصْر. وجَلاَّها على منصّة الكؤوس، وعوّضها عن وهط القناني قِمم الرؤوس، فأسكر ثم أسكر، وأذكر خُمَار المدام ثم أذكر.

فبُعْداً للساقي وما أدار، وسُحْقاً للعاصر ما له من صنعة واقتدار، على استقطار ذلك المشروب وقت دار، سكر منها الغير بالاحتساء، وسكرت أنا منها بالرائحة. وصَحّ لي أنها العتيقة بالشهادة من الأخبار الغادية الرائحة:

لم تر عيني ولاوعت أذني سلافةً أسكرت وما عصرت

ونظم بديعية سماها (تقديم علي) وجاء في إمامتها بالنَّص الجلي، ترك

(تقديم أبي بكر)[1] مؤخراً، وجعله ينقاد في سلاسل إعترافه مسخّراً. خفض قدر ابن حجّة ورمى به من الحَيْرة والعجز في أعمق لجّة. فللّهِ نفثاته وما أفادت، وللّهِ همته فيما أبدت لنا وأعادت.

وشرح صحيفة الإمام زين العابدين، وانقاد له الكلام عليها انقياد المَدِين. وله اعتراضات على صاحب القاموس، بتك عراه منها بأحدّ شبا وأمضى موس. وله كتاب (أنواع الربيع في أنواع البديع) وعلى الجملة فهو من المحاسن، وشراب أدبهِ من العسل المصفى لا من الماء الآسن. فله في الأدب رتبة مكينة، قد حلّيت بالوقار والسكينة، سكينة لو رزقها الغصن الرطيب، لم يمل لتغريد ورقاء ولا لهبوب نسيم تطيب، فنظمه يُنْشئ نَشْوة العقار، ويطيش به السَّامع فما زان السكر الوقار.

فمن شموسه البازغة من مشرقه، وكلماته التي أضاءت في روض مداده المدهم قناديل زنبقه. قوله من قصيدة[2]:

وأبرزتها بطحاء[3] مكة بعدما ... أصات المنادي بالصَّلاة فأعتما
فضَوَّأ أكناف الحجون ضياؤها ... وأشرق بين المازمين وَزَمْزما
ولما سَرَت للرَّكب نَفْحة طِيْبها ... تَغَنَّى بها حاديهم وترَنَّما
فتاةٌ هي الشَّمس المنِيْرة في الضُّحى ... ولكنّها تبدو إذا اللَّيل أظلما
تَعَلَّم منها الغصن عَطفَةَ قَدِّها ... وما كان أحرى الغصن أن يتعلَّما
وأسفر عنها الصّبح لما تلثّمت ... ولو سَفَرت للصّبح غيظاً تلثّما
إذا ما رَنَت لحظاً وماست تأوداً ... فما ظَبْية الجرعا وما بانة الحمى

---

(١) تورية بكتاب ابن حجة الحموي المطبوع بعنوان خزانة الأدب.

(٢) طبع ديوانه أخيراً ولا يحضرني الآن.

(٣) علق في (ب) بخط الأديب العلامة عبد الله بن عيسى قوله: لعله من بطن مكة والبيت هذا لأبي دهبل والضمير فيه عائد إلى الناقة.

تناءت على بُعْد فكبّر ذو التقى ... ولاحت على قربٍ فصلّى وسلما
فكم حَلَّلت بالصّد قَتْل أخي التقى ... وكان يرى قبل الصُّدود مُحَرَّماً
وظنَّت فؤادي خالياً فرَمَتْ به ... هوى عاد دائي منه أدهى وأعظما
فَلَو أنها أبقت عليّ أطقته ... ولكنها لم تبق لحماً ولا دماً

وقوله من أخرى:

يا جيرة خَفَروا من بعد ما خَفَروا ... ألم يرع مَجْدكم عمّا أتى خَفَرُ
باللّهِ هل كان ذَنْباً ما وثقت بكم ... أم كان وزراً رجائي أنكم وَزَرُ
لم أدر أن النوى تَغْفو مودّتنا ... فيُضْبح الود لا عين ولا أثر

منها:

وعاد غرْس ودادي في جَنابكم ... كبَقْلة الرّمل لا ظلٌ ولا ثَمَرُ
كاتبتكم عن هَوَى ما كنت أحسبه ... يعدّ ذَنْباً لديكم ليس يُغْتفر
أما اقتضت سنّة المعروف عِنْدكم ... ردّ الجواب وإن لم يقض لي وطرُ

وقوله:

في ثَغْره العذب ما يُغْني عن الكاس ... لا غَوْل فيها ولا إنزاف للحاسي
فاشرب على روض خدّيه وعارضه ... يا حبّذا الرَّوض من وردٍ ومن آس
وإن دعاك إلى راح براحته ... فالشَّمس قد أشرقت من دِيْر شَمَّاس
فامزج بريقته لا ريق غادية ... تَفُزْ بِرَاحين من ثَغْر ومن كاس
ظَبْيٌ من الأنس ما زالت خلائقه ... تَضْفو على وحشةٍ منه وإيناس
يدير كأس الهوى ملأى على ملأ ... كأسين من حلل العلياء أكياس
ما زال عاشقه من نَيْل موعده ... بين الرجاء مَدَى الأيّام والياس
دَبَّت حميّاً الصَّبا في رأسه فَصَبَا ... دبيب خَمْر الهوى في رأسي الراسي
فجاءني وجلاً يَمْشي على قدم ... وجئته عجلاً أمشي على راسي
حُلْو المراشف مَغْسولٌ مقبّله ... لِيْن المعاطف لكن قَلْبه قاسي

يَـبْـدو لـنـا مـن مـحَـيَّاه وقـامـتـه بَـدْر عـلـى غُـصُـنٍ فـي الـرَّوض ميّـاس
إذا اكـتـفـى بِـشِـعـارٍ مـن غـدائـره حَـسِـبْـتـه الـمـكـتـفـي من آل عـبـاس
الـسَّـيـف لَـحْـظَـاه لـولا أنّـه خَـشِـنٌ والـرّمـح عِـطْـفـاه لـولا أنّـه قـاسـي
يـسـتـصـبـح الـصّـبـح من لألاء غُـرّتـهِ إذا دجـى الـلـيـل لا لآلاء نِـبْـراس
لـولا تـلاقـي الـصَّـبـا أنـفـاسـه سَـحَـراً مـا كـان يَـعْـرف مِـنْـهـا طِـيْـب أنـفـاس
إن أنـس لـم أنـس أيـامـي بِـمَـجْـلـسـه إذ كـان يَـهْـوى وصـالـي دون جـلاسـي
وعَـصْـر أنـس مـضـى لـي فـي الـغـرام بـه ومـا الـمُـحِـبّ لـعـصـر الأنـس بـالـنـاسـي
أمـدّ خَـمْـسـي فـأجـنـي ورد وَجْـنـتِـه والـنَّـاس تَـضْـرب أخـمـاسـاً بـأسـداسـي
لـم أحـتـفـل بـرقـيـب فـي زيـارتـه ولا ارتـقـيـت بِـلَـيْـلٍ يَـوْم حـرّاسـي
إن أوتـر الـدَّهـر لـي قـوسـاً نـهـدت لـه فـي فـتـيـة كـسَـهـام غـيـر أنـكـاس
شـدّوا عـلـى الـبِـرِّ والـتـقـوى مـآزرهـم ولـم تـدنّـسْـهُـمُ الـدّنـيـا بـأدنـاس
كـأنّ تـلـك الـلّـيـالـي من مَـسَـرّتـهـا كـانـت لـيـالـيَ أعـيـاد وأعـراس
لـو كـان يـدرك عَـصْـراً فـات طـالـبـه أمـضـى طـلابـي لـذاك الـعَـصْـر أفـراسـي
أقـول لـلائـم الـمُـغْـتـاب حـيـن بـدا يـلـوك عـرضـي بـأنـيـاب وأضـراس
لـو ذقـت طَـعْـمَ الـهَـوَى أو رُخْـت لابـسه لـمـا جَـلَـسـت وأنـت الـطّـاعـم الـكـاسـي
دع عـنـك لـومـي فـمـا آسٍ مـلامـك لـي كـلا فـمـا لـسـقـيـم الـبَـيْـن مـن آسٍ (ي)
هـام الـمـحـبّـون قـبـلـي فـي أَحِـبَّـتـهـم فـمـا عـلـيّ إذا مـا هـمـتُ مـن بـاس

وقوله:

أمـا الـصّـبـوح فـإنّـه فـرض فـإلام يَـكْـحـل جَـفْـنـك الـغـمـض
هـذا الـصّـبـاح بـدت بـشـائـره ولـخَـيْـلـه فـي لـيـلـة ركـض
والـلَّـيـل قـد شـابـت ذوائـبـه وعـذاره بـالـفَـجْـر مُـبْـيَـضُّ
فـانـهـض إلـى حـمـراء صـافـيـة قـد كـاد يَـشْـرب بـعـضـهـا الـبَـعْـض
يُـسْـقـيـكـهـا مـن كـفّـه رشـأ لـدن الـقـوام مـهَـفْـهـف بَـضُّ
سَـيّـان خـمـرتـه وريـقـتـه كِـلْـتـاهـمـا عـنـبـيّـة مَـحْـضُ

تـدمـي الـلّـواحـظ خَـدّه نَـظَـرَاً فـالـلَّـحـظ فـي وجـنـاتـه عَـضُّ
مـن ضـمّـه فـتـح الـسـرور لـه بـابـاً وكـان بـعـيـشـه الـخـفـض
بـاهـت وقـد أبـدى مـحـاسـنـه قَـمَـر الـسّـمـاء بِـحُـسْـنـه الأرض
يَـنْـعـى بـهـا كـالـشَّـمـس مشـرقـةً لـلـعَـيْـن عـن إشـراقـهـا غَـضُّ
والـكـأس إذ تـهـوى بـهـا يَـدُهُ نـجـمٌ بِـجَـنْـح الـلَّـيـل مُـنْـقَـضُّ
بـات الـنَّـدامـى لا حـراك بـهـم إلا كـمـا يـتـحـرّك الـنَّـبْـضُ
فـي رَوْضـة تـهـدي لـنـاشـقـهـا أرج الـحـبـائـب زهـرهـا الـغـضّ
خـتـم الـحـيـا أزهـارهـا فـغـدا بـيـد الـنَّـسـيـم لـخَـتْـمـهـا فَـضُّ
فـاشـرب عـلـى حـافـاتـهـا طَـرَبـاً وانـهـض لـهـا مـا أمـكـن الـنَّـهـض
لا تَـنْـكـرن لَـهْـوي عـلـى كِـبَـرِي فـعـلـيّ مـن عَـصْـر الـصـبـا فـرضُ
أغـرى الـعـذول بِـلَـوْمـه شَـغَـفـي فـكـأنـمـا إبـرامـه نَـقْـض
خَـالَـفْـتـه والـرّأي مُـخْـتـلـفٌ شـأنـي الـوداد وشـأنـه الـبـغـضُ
مـهـلاً فـلـيـس عـلـى الـفـتـى دنـسٌ فـي الـحـب مـا لـم يُـدنِـس الـعِـرضُ

وقوله:

مـن أيـن يـا رِيْـح الـصـبـا هـذا الـشَّـذا إن كـان مـن حـيّ الـحـبـيـب فـحَـبَّـذا
بـالله هـل يَـمَّـمـت شـرقـيّ الـحـمـى وَوَرَدْت مـنـهـلـه الـمـصـون عـن الـقـذا
أم هـل سـحَـبْـت الـذَّيـل بـيـن أراكـه فـأخـذت مـن تِـلْـك الـشَّـمـائـل مـأخـذا
أم هـل حُـظـيـت بِـلَـثْـم مسـحـب بـرده فـكُـسِـيْـت مـن أنـفـاسـه طِـيْـب الـشَّـذا
وبِـمُـهْـجـتـي إن كـان يَـرْضـاهـا فِـداً رشـأ عـلـى كـل الـقـلـوب اسـتـحـوذا
لـمـا رأت مـنـه الـمـحـيّـا عُـذّلـي فـدَّاه كـل بـالـنـفـوس وعَـوَّذا
وغـدا يـقـول مـكـلّـفـي بـسـلـوّه مـا كـنـت أحـسـب مـن كـلـفـت بـه كـذا
لـمّـا حـلا يـاقـوت صـفـحـة خـده أبـدى لـنـا مـن عـارضـيـه زمـرّذا
ورمـى الـقـلـوب فـكـان سَـهْـم لـحـاظـه أمـضـى مـن الـسّـهـم الـمُـصـيـب وأنـفـذا
لـيـت الـذي أورى بِـقَـلْـبـي حـبّـه أنـجـاه مـن نـار الـصّـدود وأنـقـذا

وعلى جفاه فما ألذّ غرامه لو كنت أسلم في هواه من الأذى
ظنّ العذول بأن هداني نصحه بَعْد الضلال وما هدى لكن هذى

وقوله: ممّا أورده لنفسه في كتاب (أنوار الرَّبيع في أنواع البديع) في التورية، وذكر أنه لم يسبق إليه. وذلك في مليح مُخْمَّر العينين:

ليس احمرار لحاظه من عِلّة لكن دم القَتْلى على الأسياف
قالوا تشابه طرفه وبنانه ومن البديع تشابه الأطراف

قلت: أراد بالاحمرار في البنان الخضب بالحناء، واللائق به المليحة المؤنثة لا المليح المذكور الذي ذكره في نظمه، وإن كان الذّكر يخضّب كفّه الحناء في الجمام وغيره. لكن وَصْفه بحمرة البنان خاصةً ممّا لا يكاد يسوغ عند الأدباء، فإنهم لم يَذْكروا في أشعارهم مخضوب البنان إلاّ من الإناث خاصةً لا من الذكور، فلو أنه قال: ليس احمرار لحاظها. وقال: قالوا تشابه طرفها وبنانها لكان أحسن، ثم أنه جعل الطّرف من الأطراف، وليس منها إنما الأطراف في الإنسان الرأس والبنان من الأيدي والأرجل. وقد يقال على تمَحّل الطرف في الرأس الذي هو الطَّرَف، وقد نظمت أنا هذا المعنى. فقلت:

غيدٌ تشابهت البنان تخضّباً مِنْها وقد خُصَّت بحسن وافي
قد جئن حُسْناً بالبديع فلا تلم من كان فيه تشابه الأطراف

وقلت أيضاً: وفيه زيادة ذِكْر الجناس مع ذكر تشابه الأطراف من البديع كما ترى:

ولقد سَبَتْني غادتان تجانسا حُسْناً وخَضْباً في البنان الصَّافي
هذا الجِناس من البديع محاسناً وكذاك منه تشابه الأطراف

نعم البيت الأول من نظم لابن معصوم رحمه الله تعالى هو في معنى نظم لبعض القدماء. لم يحضرني الآن، قلت في معناه مضمّناً في مليح أرمد:

قد صير الرَّمَد الألحاظ من رشأ مثل الشّقيق فزاد الوجد والألم

شاهدتها وهي كالما في صقالتها وقد نَظَرْت إليها والسّيوف دَمُ

وقلت أنا أيضاً مضمناً في طرف المليح الأرمد:

قد قلت لما احمر طرف معذّبي رَمَداً به نَوْم العيون محرم
لا يَزْدهي السّيف المشطّب مَنْظراً (حتّى يُراق على جوانبه الدم)

وقلت مضمناً:

طَرْف الحبيب أراق صارمه دماً للعاشقين فكلّ جيش يُهْزم
لا يُغْمد السَّيف الخذوم بِجَفْنه (حتَّى يراق على جوانبه الدم)

وقلت مضمناً:

للّه لَحْظ الحِبُّ كم سفك الدِّما وهي المصونة منه سَيْف مَخْذم
ما احمرّ خدّ منه يَزْهو لونه (حتى يُراق على جوانبه الدم)

أصل الكل قول أبي الطيب المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وقلت أيضاً مضمناً:

وبي أرمد زادت محاسن طرفه بحمرته فازداد فيها التَّتَيّمُ
أشبّه منه الطرف عند ابتسامه (صحيفة سيفٍ قد جرى فوقه الدَّم)

أصله قول الشريف أبي الحسن العقيلي رحمه الله تعالى[1]:

ونهرٍ من الأنهار ألقت يد الصَّبا عليه شقيقاً ناره يتضَرَّم
كان ابيضاض الماء تحت احمراره (صحيفة سيفٍ قد جرى فوقه الدم)

وقول صاحب الترجمة رحمه الله تعالى في التورية:

إلى الله مما يُلاقي المحب بلَيلى وما نال في الحُبّ نيلاً
قضى العمر بين بكا واشتياق فيبكى نهاراً ويشتاق ليلى

---

(١) ديوان الشريف العقيلي: ٢٦٤ ط زكي المحاسني.

وقوله في اللف والنشر المرتب:

الشمس والليل وشمس الضحى والزّهر والدّر ولِيْن القضيب
في الفرق والطرّة والوجه وا لخدين والثغر وقَدُّ الحبيب

وقوله:

عجباً لمن منّ الحبيب عليه وحَبَاه بالتَّقبيل وهو لديه
كيف اشتكى ضُعْف الفؤاد أم الجوى ومُفَرَّح الياقوت في شفتيه

وقوله يرثي مغنيّة اسمها فنون:

ذهبت فنون مسرتي فتَنَوّعت في القَلْب من وَجْد فنون شجوني
يا من بُكَاه لفقد فن واحد أنّي امرؤٌ أبكي لفقد فنوني

وقوله من أبيات:

بدا بدراً ولاح لنا هلالاً وأشرق كَوْكباً واهتزَّ غُصْنا
وثنَّى قدّه الحَسَنُ ارتياحا فهام القَلْب بالحَسَن المثنَّى

قلت: قال: بدراً أي كاملاً لا نقص فيه. ثم قال: ولاح لنا هلالاً، أي: ناقصاً، فزاد المحبوب من كمال إلى نقص، ثم قال: وأشرق كوكباً فردّ المحبوب أيضاً من زيادة الهلال في النور إلى نَقْص النَّجم فيه. وأيضاً فإن البدر والهلال والنَّجم، الجامع بين الجميع النور والإضاءة. فلم يأت في كلّ فرد منها بنمط يخالف النور والإضاءة. أين هذا من قول أبي الطيب المتنبي:

بَدَتْ قمراً وماست خوط بانٍ وفاحت عنبراً ورنَتْ غزالاً

وقال أبو القاسم علي بن إسحاق بن خلف البغدادي المعروف بالزاهي(١):

سَفَرْن بدوراً وانْتَقَبْنَ أهلةً ومِسْنَ غصوناً والتَفَتْن جآذراً

(١) يتيمة الدهر: ١: ٢٨٩.

وروى الثعالبي لبعض شعراء عصره[1]:

رنـا ظـبـيـاً وغَـنَّـى عَـنْـدَ لـيـبـاً وفـاح[2] شـقـائـقـاً ومـشـى قـضـيـبـا

وقال إمام الأدباء الشيخ جمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصري رحمه الله تعالى[3]:

تثنَّى قضيباً فاح مسكاً رنا ظِبا سطا أسداً غنَّى حماماً بدا يَدْرا

وقلت أنا:

أهـيـم بـفـاتـن جَـمَـعَـت لـديـه خـصـال الـحُـسْـن في عـدّ كـمـالاً
بـدا قـمـراً تـثـنّـى غـصـن بـانٍ تـرنّـم طـائـراً ورنـا غـزالا
سَـطـا لـيـثـاً عـطـا رَيْـمـاً نـفـوراً تـبـسّـم لـؤلـؤاً رطـبـاً تـلالاً

وقلت:

تـحـمّـل مـن مـحـاسـنـه لـقـتـلـي بـآلات عـلـى الـفَـتَـكَـات تَـنْـبـي
رَنـا سـيـفـاً تـثـنّـى سَـمْـهـريـا تـعـذّر سـابـغـاً زَرَداً لـحـربـي

وقلت في كلام منثور. تثنَّ شادنها سمهرياً، وسفر بدراً، والتفت غزالاً، ولحظ جوذريا.

وكتاب صاحب الترجمة رحمه الله تعالى المسمى (سلافة العصر)[4] لم أضمه إليّ ضم الوشاح للخصر، ولم تَدُر بمقامي هذه السلافة، التي مزجت بماء اللّطافة، ولم أرفع سجف خيامها وخبائها لمّا منّ على أهل العصر وحبى بها. فشرابها عليَّ مختوم، وإذا هي في صدر دَنّها سر مكتوم، لما لم يَدُر باليَمن لها كاس. ولم يتلق الحزن من سرورها بإركاس.

قال السيد الأديب يوسف بن يحيى صاحب دار حرير رحمه الله تعالى في

---

(١) يتيمة الدهر: ١: ٢٩.
(٢) يتيمة الدهر (ولاح).
(٣) لم أجده في ديوانه المطبوع.
(٤) طبع بمصر سنة ١٣٢٤هـ.

كتابه (نسمة السحر) عند ذكر صاحب الترجمة ما لفظه[1]: وكتابه (سلافة العصر) لم يصل إلى اليمن، وإنما نقلت ما أسندته إليه من رواية مصطفى بن فتح الله الحموي في كتابه. انتهى كلامه بلفظه.

وقال والدنا القاضي شهاب الدين أحمد بن ناصر بن محمد بن عبد الحق الحيمي المخلافي رضي الله عنه ومن خطه نقلت عند كلام السيد يوسف بن يحيى هذا ما لفظه: مَنَّ الله عزّ وجلّ بالوقوف على هذا المؤلّف المذكور أعني سلافة العصر بِمَخْروس بندر المخا أطلعني على نسخةٍ منه بعض الإخوان أسعدهم الله تعالى ذكر أنها عارية عِنْده من الشّيخ سليم[2] بن محمد الوزير. وذكر مؤلف الكتاب المذكور في خطبته: أنه شرع في تأليفه في بلاد الهند في أواخر سنة إحدى وثمانين وألف (سنة ١٠٨١).

وذكر في آخره أنه فرغ من تأليفه يوم الخميس المبارك لِسَبْع خلون في شهر ربيع الثاني أحد شهور سنة اثنتين وثمانين وألف وأنّه قَصَر كتابه على ذكر محاسن أهل المائة الحادية عشر ورتبه على خمسة أقسام:

الأول: في محاسن أهل الحرمين الشَّريفين والمحلَّين المنيفين زادهما الله تعالى شرفاً وإنافة. ولا زالا آمنين بأمان من شَرّفهما من المخافة.

القِسْم الثاني: في محاسن أهل الشام ومصر ونواحيهما، ومن تصدّر من الفضلاء في صدور نواديهما.

القسم الثالث: في مَحَاسن أهل اليمن. المقلّدين بِعُقود آدابهم جيد الزمن.

القسم الرابع: في مَحَاسن أهل العجم والعراق، وإيراد ما رَقَّ من لطائفهم وراق.

---

(١) نسمة السحر ٢: ٤٥٣.

(٢) مطبوعة نسمة السحر سليمان (خطأ).

القسم الخامس: في مَحَاسن أهل المغرب، وإثبات شيء بديع نظمهم المطرب. والعذر في تأخر قسمهم[1] في سائر الأقسام. رعاية النكتة في المغرب للختام، وإلا فلهم السَّبق والبداية، ولا غَرْو أن انتهت إليهم الغاية.

وإذا أشرق إن شاء الله تعالى بَدْره المنير، من أفق التمام وتفتق زهره النظير، من حجب الكمام. وسميته (سلافة العصر في محاسن أعيان العصر) والله تعالى أسأل أن يوفقني لإتمامه، ويشفع حسن ابتدائه بحسن ختامه، والملتمس ممن انتشا من هذه السلافة أن يلحظها بعين الصَّواب مهما رأى خلافه، فإنها نشأت عن فكر قد صلد زنده، في بلد عَرَبه، وعجمه، وهنده. لم تقم فيه للأدب سوق، ولا عرف فيه غير الكفر والفسوق. سَنا الله تعالى العود منه إلى الحرم المكرّم، والرجوع إلى جوار بيته المحرّم، بجوده وكرمه إنه على ذلك قدير. وبالإجابة السريعة حقيق جدير، آمين.

الشيخ محمد بن علي الحرّ الشامي العاملي الأصل الأصبهاني النشأة[2]

فاضلٌ شامي أصل أصبهاني منشأ، وحرٌّ يستَعْبد الأحرار فيستخدم منهم من شاء. فهم له لما سادهم عبيد؛ لأن له أدباً يتبلّد له لبيد.

فتح باب فضل مغلق، وأطلق جواده فهو مَفْعول مطلق. حُذف عنه النقص فليس بلازم، حَذف حرف العلّة إذا دخل عليه الجازم، مع ملكة واقتدار على إبراز ما أبرزه الفلك وقت دار، من نجوم تضيء في أبراجها، وتَزْهر في الأفق عند إسراجها.

جليت له عروس العلى على المنصّة. وقد فاق جِيْدها قياساً من جيد الظّبي

---

(١) مطبوعة النسمة «تأخير قسمتهم» خطأ.

(٢) سلافة العصر: ٣٦٨.

نصّه، كشَفَت عن وجهها الجميل لطيف نقابها، وسَمَتْ به همّته حتى رقا بها على رقابها. لما طأطأت له أعناقها، وجعلت أخمصه أطواقها، تكلّف لمنزلته البدر، وهيهات أين منه ذلك المحل والقَدْر. بَعُد مداه وغزر جَدَاه، وهو إماميّ المذهب، واللّابس منه شَفّه المُذهب. جعل حبّ من سكن الغري زيّه، لما توفّرت به لوعته الغريزيّة.

هام بالإمام الوصي حبّاً، وأسرعَ جواده إليه خَبًّا، طالما بِخَيْله وجف. ونزل سَمْلقاً ذوى نَبْته وجف، قاصداً على مشقّة ساحات النَّجف، وعند قصد المحبوب، يهون المشي على الجمر المَشْبوب، ودون الوصول إلى الجواهر، مقاسات أهوال من البحر بواهر.

ولما قدم إلى مكة سنة ثمان وثمانين وألف، ولاذ بالبَيْت الذي شمله التَّقديس من إمام وخلف. بقي في تلك الدِّيار، وما لسعادته سَمْك ولا عيار، وكان له في علم الفلك، ما يشهد له بأنه لرقاب النّجوم قد ملك، وأنّه في أودية منازلها وشعابها قد سلك. فنظر نظرةً في النّجوم، وعلم أنّ الفادحة على العجم في أقرب ما يكون من الهجوم، وأنذر أصحابه بما أنذر، وحذرهم الفتنة بما حذّر، فلم يلتفت أحد منهم إلى مقالته.

وإذا سيفهم القاطع قد تصدّى على صقالته، ثم لما لوّث البيت الحرام بالنجاسة[1]، وصنع به ما صنع ولم يحترم المحترم أساسه. واجترى بإهانته المجترى وافترى، على كافّة العَجَم المفترى. زعم بأنّ ذلك من صُنْعهم، وأنهم يُصْرفون عن تلك البقاع المقدسة بِمَنْعهم، فثار الأتراك فيهم ثورة الآساد، واستلوا أرواحهم من أعماق الأجساد، وحكّموا فيهم السيوف، وأحالوا فضتهم الخالصة بالدماء إلى الزيوف.

خشي صاحب التّرجمة على نفسه العطب، لما نظر فعل النّار المحتدمة في

---

(١) أنظر هذه الحادثة الشنيعة في خلاصة الكلام ١ : ٩٦ وكانت هذه الحادثة في ثامن شوال سنة ١٠٨٨هـ.

الحطب. ففرّ لائذاً بالشريف موسى، وجَرّد منه لِقَطْع حِبَال المكرِ به بؤساً، وهو إذ ذاك معظّم الجانب، محترم السوح المحفوف بالمناقب والمقانب. لا يمدّ الأسد إليه مخلباً، ولا ينال منه ذو شر مطلباً، فأنجاه ومن معه، وفرّغ لإجابته مسمعه، حفظه من الهلاك وأنجاه. فما وصله مكروه إلى أن فاجأه الحمام وأن جاه. ثم وجهه إلى اليمن صحبه طائفة من حشمة وهو المؤتمن.

فلما وصل إلى اليمن أدركته الوفاه، ومنعه الموت النطق لما سدّ فاه. فألقى بين سَفَرِ القبور عصاه، وأطاع عزرائيل وقد أمر بقبضه فما قيل عصاه. وافترش من اللحد الضيق تربه وحصاه، ومن لم يَمُتْ بالسيف والقنا، مات بسبب آخر من أسباب الفنا، سقي ضريحه وقد أعشب، وهمل غيث الرحمة على غصنه الذي قد اخشوشب. وقد أطال من أشعاره باعها، وشرى جواهر النفثات وما باعها، ورفع عن غروس أدبه الخِمار لما أسدفت من المداد قناعها. فمما أزاح عن محيّاها من نُقبها ولم أقل من نُقَبه، ما جاءت له من اللطيفة الظريفة. وهي قوله مورياً بلقبه[1]:

قلت لمّا لحيت في هجو دَهْر ... بَذَل الجهد في ارتقاء[2] الجهول
كيف لا أشتكي صروف زمان ... ترك الحر في زوايا الخمول

وقلت أنا مورياً بلقبه أيضاً:

قبحاً لدهر غشوم ... أبدى الذي منه أبدى
أهان ذا الفَضل فيه ... وصَيَّر الحرّ عبدا

الشيخ محمد بن علي بن محمود الشامي العاملي[3]

ولد بمشرف مكة، وأطلقه الفِصَال من حبس الحَمْل وفكّه، ونزهه في جنبات تلك البقاع وفكّه، ثم رَحَل إلى الهند. بعد أن تأهّل من الفوائد لمغازلة ليلى

(١) سلافة العصر: ٣٦٨.

(٢) مطبوعة سلافة العصر (احتفاد).

(٣) سلافة العصر: ٣٢٣.

وهند. وهو شيخ صاحب (السلافة)، الذي تلافى من يد الهلكة تلافه، فأحياه بالعلم والاستفادة، وَمَنَحه بكنز العرفان فهو مع الإنفاق منه لا يخشى نفاده.

ولذا مزج السلافة بذكره، وسَقَى أنوار الربيع بأنواء ذكره وشكره، فقد غدت هذه مرشوشةٌ بمائة وتلك ضمّت سُكّرها إلى سكره، فهو شيخٌ مفيد، حقيقٌ بالتعظيم والترّفيد. قرأ عليه عامٌ وخاصٌ، فمنزل إفادته بالقَوْم غاص، يخفق عليه في جموع العلماء اللواء، ويغرد بشعره الرَّقيق حمائم اللوى، من كل حمامة تَخْلع إجلالاً له طوقها. وتتلقّن من نَفَثات فِيْه لما وصفت شَوْقها، فإذا غرّدت فَعَنْه أخذت فنون التغرّد، وإذا تجرَّدت لسلب المهج بألحانها فهو أصل لذلك التجرّد.

فكلامه بلا تقعير، ونار ذكائه ملتهبةٌ بلا تسعير، وألفاظه سهلة المسلك فلا توعير، يعدّ للشيعة رأساً، فهو من أعظم علماء الإمامية للصّعاب مراسا، تحفّه هذه الفرقة بِتَعْظيمها، وتتلقاه لآلي الفوائد بِتَنْظيمها، لما بلغ الغاية من المعارف، وتلفّع من مطروزها بأجمل المطارف.

لو أدركه بها الدين العاملي شارح الأربعين، لورد من منهل إفادته متدفق شراب معين. ولضَرَب أخماساً بأسداس في وصف حور عين، قاصرات الطرف أتراب، من كلمات له مقصورة في خِيام تَهْذيب وإعراب. ولحار في منقوط من سطورها ومشكول، ولادَّخرها واعرض عن غيرها في مودعات (الكشكول)[1].

وأمّا الأدب فهو ابن بَجْدته، قد عرف فيه بسَيْفه ونجدته، يا له الله من أديب بغم عنده الصادح، ويا له الله من نَجيب خرس عند وصفه المادح. فما قصارى كلماتي إذا أطريت فيه العبارة فأطربت، وما غاية حمام أقلامي إذا لحنت بمدحه فأعربت، إذا أسدف ليل مداده أشرقت من آدابه النجوم، وإذا استرق مردة الحُسَّاد سمع ما جرى به قلمه انقضّت عليهم منها رجوم.

---

(١) كتاب مشهور من تأليف بهاء الدين محمد بن حسين العاملي المتوفى سنة ١٠٣١ هـ (خلاصة الأثر ٣: ٤٤٠) وطبع كتابه المذكور سنة ١٢٦٦ هـ بطهران وأعيد طبعه بمصر سنة ١٢٨٨ هـ ثم تكررت طبعاته وكتابه الآخر الأربعون حديثا طبع سنة ١٣١٠ هـ بطهران أيضاً.

ولم يزل ماجداً ولم يزل، حتى أناخ الموت بحرانه[1] ونزل، فإذا المرض له قد عرض، وإذا جوهره قد استحال إلى عَرَض. طرقته الأيام بالآلام وبه ألمّت. وانتهت مدة حياته وتمّت، وخَصَّته المنية بين البرية. وفي الحقيقة قد عمّت، فسَقُمَ نسيمه وشوّه وسيمه، ودهم من خَطْبه جسيمه. سَقَى الله تعالى بالغيث ما طاب من تُرْبه، ولا برح متنعّماً من الحور بين سِرْبه، ما أسدل زنجيّ الظلام رداء النسيم على كاهله. بعد أن بَلّه الطل من دموعه التي نقعت من الغصن حشى ناهله. فبادر الصّبح وفك إزاره، ونَشَّفته الشمس بمنشفة من الحرارة.

وإن سألت عن نظمه فلا تسأل عن المدام الدائر. وإن تطلعت إلى شعره فلا تعجب من الفلك الدائر، وقد علقت بسلاسله قناديل الشُّهب. وصِيْنت جواهرها بين قطن محلوج من السُّحب، فنظامه أعذب من كل عذب، وأنفس من الياقوت واللؤلؤ الرطب، ينشيء نشوة المسرّة، فينسى مواقع الخَطْب إن عكفت عليه ليلا، واجتليت من طرسه جبين ليلى.

قلت: لَيْلي ليت لم يكن له صُبْح. وليت شَمْلي لم يشنه من التَّشتيت قُبْح. وليت النَّجوم كلَها ثوابت حتى لا تَسْرَح، بل تلزم مكانها الثابتة فيه فلا تَبْرَح. وإذا الليل متصل وعكوفك على ما ذكرت غير منفصل، فَمِمَّا رُصفت في أسماط هذه السطور من عقوده. ومِمَّا أدرت بين السَّمر في كؤوس البلور من ابنة عنقوده.

قوله:

لاثـوا مـوشَّـى الـعـصـب فَـوْقَ بُـدُوْرِ	وتـنَـقَّـبـوا بـالـنـور فـوق الـنُّـورِ
وَفَـروا جـلابـيـب الـظَّـلام ودونـهـم	سَـعْـدان سَـعْـد قَـنـاً وسـعـد خُـدور
يَـخْـمـون مـهـزوز الـقـوام إذا مـشـى	جـالـت عـلـيـه مَـنَـاطـق الـزّنـبـور
نـشـوان مـن خَـمْـر الـشـبـاب زهـا بـه	سَـكْـران سُـكْـر صِـبـاً وسـكـر غُـرور
لاطَـفْـتـه سـحـراً فَـبُـرقـعـه الـحـيـا	بـالـوَرْد فـوق صَـفَـائـح الـبَـلّـور

(١) حَرانة: مكانه ومنزله.

هل رُكّب الخِيلان في وجَنَاته ... أم فتَّتوا مِسْكاً على كافور
قمرٌ يفور النّور من أطرافه ... فكأنّه فوّارة للنّور
أو غادةٌ نظَرَتْ بعَيْني شادن ... متلّفت عن ناظرَيْ مَذْعور
قالت وقد عجبت لشَيب مفارقي ... هذا الشميط قذى عيون الحور
فأجبتها والبَيْن يخلج صَدْرها ... إن المشيب جلا صدى المأثور
للّه لَيلتنا وقد لَفّ الهوى ... مِنّا قواماً ذابلاً بِنَظير
حَيّت فأحيت بالمُدام معاشراً ... حَضَروا وما ألبابهم بحضور
في حبّهم صَرْعى وما حضروا الوغى ... قَتْلى وما مزجوا الهوى بِخُمور
انظر إلى الورد الجني كأنّه ... متبرّمٌ من رَنّة الشَّحرور
والنّرجس الغضّ الشهي كأنه ... يَرْنو إليه من عُيون غَيُور
في روضة لعب الصّبا بِغُصونها ... لِعْب الصِّبا بِمَعَاطفٍ وخصور
أصَبَا الأصائل لا كبت بِك عَثْرة ... كم عَبْقةٍ لك في جُيوب الجُوري(١)
للّه درك إن مررت على اللّوى ... حُلِي عُرا جَيْب الجنا المزرور

قوله: في جيوب الجوري، الجوري بضم الجيم وسكون الواو وبعدها راء وياء نوع من الورد. وكذلك النّصيبي بِفَتْح النّون المشدّدة بعدها صاد مهملة وياء وباء موحدة وياء أيضاً، هو نوع من الورد معروف في جهات الشام. ولذا قال بعض الظرفاء في التَّورية بالنوعين كليهما:

جَارت علَينا خدودٌ ... في أوجه كالبُدُور
فقلت لمّا تبَدَّت ... كوني نصيبي وجوري

ومنه أخذ القاضي زين الدين عمر بن الوردي رحمه الله تعالى قوله(٢):

قالت إذا كنت تَهْوى ... أنسي وتَخْشى نفوري

---

(١) سيأتي شرحه.

(٢) ديوان ابن الوردي: ٤٠٧ وخزانة الأدب ١: ٤٣٢ و٣: ٣٨٩.

صِـــف وَرْد خــدي وإلاّ أجــور نــاديــت جـوري

وقال شيخ الشيوخ الحموي الأنصاري رحمه الله تعالى[١]:

أفـدي حـبـيـبـاً رزقـت مـنـه عـطـف مُـحِـبّ عـلـى حَـبـيـب
بِـوَجْـنَـةٍ مـا أتـمّ ربـحـي وقـد غـدا وَرْدهـا نَـصِـيْـبـي

ومنه أخذ إمام الأدب الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة رحمه الله تعالى قوله[٢]:

فديتك غصناً ليس يبرح مثمراً من الخمس في الدنيا بكل غريب
تفتح في وجناته الورد أحمراً فيا ليت ذاك الورد كان نَصِيْبِي

وقال صاحب الترجمة أيضاً:

نَسَخَتْ سحر بابل مُقْلتاه فتثنّى في فَتْرة الأجفان
في ربوع كأنهن جِنَانٌ عطفت حورها على الوِلْدان
ورياض كأنّهن سماءٌ أطلعت أنجماً من الأقحوان
بَيْن ورق كأنهن قِيَانٌ رُكّبت في حلوقهن مثاني
وغُصون كأنّهن نشاوى يتَرَقّصن عن قدود الغواني
وأقاح كأنّهن ثغورٌ يتبَسَّمن في وجوه الجِنَان
ونسيم الصَّبا يصحّ ويعتَلْ على بَرْده وَحَرٌ جناني
كلّ ما غَنَّت البلابل فيها رَقّص الدّمع بالبكا أجفاني
عطَفتني على الرِّياض قدود خَلَعت لِيْنها على الأغصان
يتلقّاني الأقاحِ بِنَشْر وغصون النّقى عَلَيَّ حَوَاني
أين قلبي لا أين إلاّ طلولاً أذهبتها الرِّياح منذ زمان
أذكرتني معاهداً وربوعاً كان يدمى لِذكرهنّ بيَاني

---

(١) ديوانه: ٨٣ وخزانة الأدب ٣: ٢٣٣.

(٢) ديوان ابن نباتة: ٦٣ خزانة الأدب ٣: ٢٣٣.

حيث غُصْني من الشّباب نضيرٌ وعيون المهى إليّ رواني
أطرد النوم عن جفون تشاوى بحديث رَقّ من جثماني
وقوافٍ لو ساعد الجَدّ نِيطت مَوْضع الدّر من رقاب الحِسَان
سائرات بيوتهن على الألسن سَيْر الأمثال في البُلدان
قُصُدٌ كالفرند في صفحات الدَّهرأو كالشّنوف في الآذان
عاصياتٌ على الطباع ذلول يُتغنَّى بهنّ في الرُّكبان
ساقطت والهوى يظل علينا من عيون المهى حَصَى المرجان

وقال:

ما في التّصابي على مَنْ شَاب من بأس أما ترى جَلْوة الصَّهباء في الكأسِ
النَّاس بالناس والدّنيا بأجمعها في درّة تعطف السّاقي على الحاسي
يَئِست واليأس إحدى الراحتين وكم جَلَوْن عنّي صدى الأطماع باليأس

منها:

في كل غانية من أختها بَدَلٌ إن لم تكن بِنْت رأس فابنة الراس
أودعت عَقْلي إلى السّاقي فبدّده في كَسْر جَفْنيه أوفي مَيْلة الكاس
لا أوحش الله من غَضْبان أوحشني ما كان أبطاه عن برءٍ وإيناس
سَلِمْتُ يوم النَّوى منه وأسلمني إلى عدوّين نمّام وَوَسْواس
ذكَّرته وهو لاهٍ في محاسنه عُهُود لا ذاكرٌ عهداً ولا ناسي
وددت لو بِعْته روحي بلا ثمن إذ كنت أضرب أخماساً بأسداسي
يا وَيْح من أنت يالميا بغيته ما كان أغناه عن فِكْرٍ ووسواس

وقال:

أنت يا شُغل المحب الواجد قِبْلة الداعي وَوَجْه القاصد
فُتّ آرام الفلا حُسْناً فَمَا قابلت إلاّ بطَرْف جامد
شان قلبَيْنا إذا صحّ الهوَى يا أحبّا شان قَلْبٍ واحد
أكثر الواشون فِيْنا قولهم ما علينا من مقال الحاسدِ

لست أصغي لأراجيف العِدَى   من يُغالي في المَتاع الكاسد

وقال[1]:

يا مليك المِلاح إنّ زماناً   أنت فيه زمان رَوْح وراح
طاب شُرب المدام فاشرب عساه   باصطباحي يطيب وَقْت الصَّباح[2]
واسقنيها سقيت في فَلَق الفَجْر   على نغمة الطيور الفِصَاح
لا تؤاخذ جفونه بفؤادي   يا إلٰهي كلاهما غير صاح

قال السيد يوسف بن يحيى بن الحسين رحمه الله تعالى في كتابه (نسمة السحر) ما لفظه[3]: لم يسبق إلى معنى البَيت الآخر قط فهو من أبكاره[4] المخدّرات. انتهى كلامه بلفظه.

قلت: أراد بها لا تؤاخذ جفون المحبوب بالاقتصاص منها حيث جنت على فؤاده بالقتل، وبَيَّن وَجْه عَدم المؤاخذة بأن الجفون من المحبوب والفؤاد من المحب غير صاحيين عن السكر، جفون المحبوب بالفترة وخمار الريق، وفؤاد المحب بخمرة المحبّة والغرام معناه، والسَّكران لا يؤاخذ فيطالب بالقِصاص إذا قتل فقد أجراه نحارير العلماء كأبي العبَّاس وأبي طالب، وغيرهما مَجْرى المجنون والمَغْمى عليه والنَّائم وهو الذي ذهب عليه أصحابنا، واختاروه. وهذا خلاف ما قالوه في الزَّاني السكران بأنه يحدّ بالجَلْد على اتّفاق بين السّادة مع أنهم لم يثبتوا جَلْد المجنون.

وكذلك أيضاً صَحَّحوا وقوع الطَّلاق من السكران ولم يصحّحوه من

---

(١) نسمة السّحر ٣: ٩٤.

(٢) مطبوعة النسمة ورد هكذا:

طاب شراب المدام فاشرب عساه هو   يا صباحي يطيب وقت الصباح

خطأ قلت: وقع محقق هذا الكتاب في أخطاء ونصحيفات فاحشة لا تعد ولا تحصى حتى كاد أن يحوله إلى مسخ لا يستفاد منه بشيء وهو من أسوأ ما وقفت عليه من كتب في تحقيق التراث.

(٣) نسمة السحر ٣: ٩٤.

(٤) المطبوعة من النسمة (أبكار) خطأ.

المجنون، فإنه ،لو كان زائل العقل، فإن طلاقه واقعٌ في الأصحّ من الأقوال كما نصّ عليه من الأئمة الهادي والمؤيد بالله، والمنصور بالله عليهم السلام. والإمام أبو حنيفة والشّافعي رضي الله عنهما، وهو الذي بنَى عليه جمهور العلماء والمحققين.

نعم لا معنى لقول صاحب الترجمة رحمه الله تعالى: يا إلٰهي كلاهما غير صاحي؛ لأن المقصود بأنها لا تؤاخذ جفون المحبوب لأنها سكرانه غير صاحية. وقد استعمل الأدباء في أشعارهم سكر الجفون عبارة عن فترتهما وخمارها بريق المليح كما أشرنا إليه.

وأمّا الفؤاد فليس لذكره هنا معنى وإنما يعد فَضْلة وحشواً، وليس من حشو اللوزنج. ولعله قَصَد التّنبيه على عدم صَحْو فؤاده من سكر الغرام، ولكن لا مَدْخل له هنا في ذِكْر القصاص، وإنما هو مقتول لا قاتل، ولا قائل من العلماء بأن المقتول السّكران يَذْهب دمه هَدَراً. فلا يطالب قاتله بالقصاص حتى يكون المعنى في البيت: أنك يا إلٰهي لا تؤاخذ جفون المحبوب السكرانة بالقصاص؛ لأنه قد نص على أنّ القاتل السكران لا يطالب به، فهذا المعنى صحيح.

وأما المقتول السكران فلا قائل بذهاب دَمه هدراً، حتى إنّ الناظم رحمه الله تعالى يمهد للجفون القاتلة السَّكرانة عذره لأنّها لا تؤاخذ بِقَتْل الفؤاد السكران فقوله: يا إلٰهي كلاهما غير صاحي لا مَعْنى له كما نَرى، ولا بأس لو أنّه قال كما قلت أنا:

أنا سكرانٌ بحبّي وأرى ... طَرْف محبوبي سَكْران المَلَقْ
قد جنى الكل على قلبي هَوَى ... بِهِما روحي في الحب زَهَقْ
أنا والطَّرف بَرِيَّان معاً ... من قِصَاص واجبٍ فيما اتّفق

ومن نظم صاحب الترجمة أيضاً قوله:

أتراكَ تهفو للبروق اللّمع ... وتظنّ رامة كلّ دار بَلْقَعِ
لولا تذكر من ذكرت برامة ... ما حنّ قَلْبي للوى والأجرع

رِيـم بـأجـويـة الـغـرام تَـرَكْـتـه ... قَلِقَ الوساد قرير عين المَضْجع

منها:

قالت وقد طار المشيب بليلها ... أنشيت في خَلْق الغراب الأبقع

وتلفّتت والسّحر رائد طرفها ... نَحْو الدّيار بمقلة لم تخشع

ولكم بَعَثت إلى الدِّيار بمقلة ... رجعت تعثر في ثِياب الأدمع

عرفت رسوم الدار بالمتربّع[1] ... فَبَكَتْ ولولا الدار لم تَتَشَعشع

أمّلت لو يَتَلَوّم الحادي وما ... أمّلت إلا أن أقول وتَسْمعي

الشيخ أحمد بن محمد الجوهري[2]

جوهر كمال لا عرض، وسَهْم ثمال لا غَرض، عربي اللِّسان على عجمته، له قلم أبيض النَّفَثات على سحمته، فما صِحَاح الجوهري إلا في سقم، ولا أمّهات اللغة عن إنتاج مثلها إلاَّ في عقم. أطال المجد نِجَاده، ونَشَر الفَضْل رداءه لا بِجَاده. وأبرزه العصر صَدْراً، وأطلعه الفلك بدراً، ورفع له الزَّمان قدراً، استدرك العلا منه تلافيها، ونَشّر صحائف مجد لآياته تلا فيها.

دَرَس منها ما كان درس، وأمعن في الإكباب عليها ومَرَس، وأطلق من النَّظر الثاقب فيها أكرم فَرَس، فاقتطف أحلى ثمر مِمَّا كان غرس، فأبان غامضا. واستوضح وأمضى، امتاز عن الأنام بتفرّده. وأنبت عنهم في طلب الفضائل بتجرّده، إمامي مذهب مذهب، التزمه من نومه الشبابُ مُذْهَب، فنشأ عليه كما نشأ غيره من العجم، وتقلدّ به كما تقلّد جمعٌ منهم وجم. وأقام أدلّته حتى أفحم مجادلاً له وجم. استوزره السيد أحمد بن معصوم، فلم يرَ رمح قلمه في خدمته بموصوم ولا مفصوم. فإذا هو صدر وزارة، وإذا هو قد عاهد الكمال وزاره، أحسن في المحامد

---

(١) في (ب) المرتبع.

(٢) سلافة العصر: ١٩٢ خلاصة الأثر ١: ٣٢٧ نفحة الريحانة ٤: ١٥٧ وفاته سنة ١٠٦٩هـ.

تصريفه، وأكد بلام الحرب مع العَلَمية[1] تعريفه، فزال تنكيره، وأخلص الذهب كيره. إن سأل عن أدبه السائل، وظمي إلى ماء رشاقته الرائق السائل أجابته ألسن الأقلام، بما نقع الغلة ورفع الإبهام، فما أسلس بيانه، وما أطرب قِيانه. له شعر يَرْقص طرباً له سامعه، ويشوق المغرم في سحائب الأوراق من بارقه لامعة، ويصوّب لانسجام تشبيهِ من الطَّرف دامعه. فمن صحاح جوهريه، وزهر روضه المتفتح في الصّبح عن ريّه قوله[2]:

إن حزت علماً فاتّخذ حرفةً ... تصون ماء الوجه لا يُبْذل

فلا تهِنْه إن تُرى سائلاً ... فشأن أهل العلم أن يسألوا

وقد ضَمّنت أنا المصراع الأول من البيت الآخر فقلت:

سال عذار الحب في خدّه ... فصَبّه عنه غدا مائلاً

قلت له لا لا تشُنْ حسنه ... ولا تهِنْهُ أن ترى سائلاً

وقد ضَمَنْته أيضاً فقلت:

أخاطب الدّمع على خدّ ذي ... صَبَابة لَمَّا غدا جائلاً

لا تَضَعْ قدراً له في العِدَى ... ولا تهِنْه أن ترى سائلاً

وقد ذكرت هنا ما جاء لي في مجنّح القلب من البَيْت الثاني فقلت:

قد صدَّعني الحب ظُلْماً وقد ... أضحى انحرافاً حاله حائلاً

الياس من سَلْوته حاصل ... فالدَّمع في الخدِّ يرى سائلاً

السيد محمد بن حيدر بن علي[3]

اتصل لي الطيب من ذكره، وترادف عليَّ ما أعلنته الألسنة من شكره.

---

(١) إشارة إلى قول النحاة في المعرف بأل انظره في كتبهم.

(٢) نفحة الريحانة ٤: ١٥٩.

(٣) نفحة الريحانة ٤: ٢٥٣.

فأغناني عن المبالغة في الاجتماع. ما قرّره من فضائله المتعددة السماع، فقد ملأ سَمْعي مع بَيْنِي، أضعاف ما تملى به عند التلاقي عيني. فالسّماع قد اغنى عن النظر، فسِيَّان عندي أغاب أم حضر، إلا أن المشاهدة لذاته اللطيفة أتم تحقيقاً. وأوفى لما هو عليه من سجايا المحامد تَدْقيقاً، فإن السَّماع بِمَنْزله الطيف في الأحلام. والرؤية أكمل لتأدية المقصود عند ذَوي الأحلام.

بلغني من فضله، ما أغناني عن لف شملي بشمله، فهو روض مونق، دبّجه غيث مغدق، يَهْتَزُّ خَضِراً، ويلوح نَضِراً، أذل الله تعالى حاسده وكبت، لمَا عثرت به خيلُ مجاراته وكبت.

وشعره تَفُضّ عن شرابه ألحانه، وطَيْر بلاغته مما يردّد على غصون الأقلام ألحانه. من ذلك ما أثبته له صاحب الريحانة[1]، وهو قوله:

آه يـا عـبـد الـهـوى مـا أَخْـمـلـك ... هـكـذا يَـحْـكـم فـاصْـبر مـن مـلـكْ
وَيْـك يـا قـلـبُ تَـكَـلّـف سـلـوةً[2] ... ربّ قـلـبٍ رَقّ عـشـقـاً فـهـلَـكْ
كَـيْـف لـي فِـيْـك ومـن يَـنْـفـعـنـي ... آه لا بـل فِـيّ قـل لـي كـيـف لـك
يـا فـؤادي لـك عـقـلـي عـاذرٌ ... كُـنْـت صَـعْـبـاً والـهـوى قـد ذلَّـلـك
هَـبْـك فـي الـدّهـر أريـبـاً حـازمـاً ... أنـا أدري بـالـدّهـى مـن خَـتَـلَـك
إنّـمـا غـرّتـك أحـداق الـمـهـا ... نَـصَـر الله بـهـا مـن خَـذَلَـكْ
يـا عـذولـي الـعـشـق داء مُـعْـظَـلٌ ... بـالـذي عـافـاك خَـفّـف عـذلـك
الـهـوى رُشْـدي فـدع نُـصْـحـك لـي ... فـلـقـد أضـلَـلْـت فـيـه سُـبَـلَـكْ
لـم تـزل مـنـذ زمـان جـاهـداً ... هـل رأيـت الـشّـمـع يـومـاً قَـبِـلَـكْ
يـا شَـقِـيْـق الـبـدر يـا تِـرْب الـمـهـا ... مـن كـسَـاك الـنّـور أو مـن كـحّـلـك
إن يـكـن يُـشْـبـهـك الـبَـدْر سـنـاً ... فـعـلـى مِـثْـلـك مـا دَار الـفـلـك

---

(١) نفحة الريحانة ٤ : ٢٥٦ (وهذا يدل على أن المؤلف وقف على هذا الكتاب بعد ذلك).

(٢) النفحة «جلدا».

مـن بـأشـراكـك[1] قَـسْـراً صـادنـي | أنـت فـاعـذر عـارفـاً قـد سـألـك
إن تـقـل إنّـي مـلـيـك فـي الـهَـوَى | جـار فـي الـحـكـم أقـل إنـي مَـلَـك
قـلـت دَبّـرنـي فـإنـي هـالـك | قـال مـن دَبّـر عـبـداً مـا مَـلَـك
يـا أخـا الـصّـهـبـاء فـي رقّـتـه | مـن عـلـى قَـسْـوة صـلـد جَـبَـلَـكْ
كـان لـي قـلـب فـأفـنـاه الـجَـوَى | أعـظـم الله لِـيَ الأجْـرَ ولَـكْ

الشيخ محمد الكنجي[2]

حلب الدهر أشطره، وزَيَّن الكلام أسطره، لما هذّبته المعالي، وربَّته الأيام واللّيالي، حتّى شدّ من ركن الأدب بِنَاته، وجلاَ فكره في أبهج منظر نباته، فسفرت كل ناهدة منهن تحت الخمار الأسود من نَقْسه[3]. وملّك كل واحد منهن بَيْتاً من نظمه وراودته التي هو في بيتها عن نَفْسه. ومراودتها له من العجائب، لأنها من بنات فكره العفيفات النجائب.

نَسَب إليه مؤلف ذيل النفحة[4]، ما خطرت نسيمه الباردة فأطفأت من القلب لَفْحه، ووردت إلى القطر اليمني، فحمّلت محاسنها سفحه. قوله:

مـغـرمٌ لا يـفـيـق مـن نَـشَـوَاتـه | ومـعـنَّـى يَـذُوب فـي زَفَـراتـه
وحَـشَـى مـن لـواعـج الـشّـوق أضـحـى | ولـظًـى تـسـتـعـيـر مـن لـهـبـاتـه
مـن لِـقَـلْـب بـراه شـوق حـبـيـب | أو لـجَـفْـن يَـخـوض فـي عَـبَـراتـه
يـا لِـقَـوْمـي مـن أدعـجـيٍّ لـحـاظٍ | رَشَـق الـقـلـب مـن شَـبَـا لـحـظـاتـه
فـضَـحَ الـغُـصْـن قـامـةً وكـذا الـبـدر | بـبـهـاء والـرِّيـم فـي لَـفَـتَـاتـه
وَيْـح قـلـبـي كـم ذا يـقـاسـي غـرامـاً | مـن نـفـور وَيْـلاه مـن نَـفَـراتـه
بَـهِـج مُـتْـرف الأديـم أغـنّ | مِـثْـل بَـدْر الـتَّـمـام فـي هَـالاتـه

---

(١) في (ب) باشرارك.
(٢) ذيل نفحة الريحانة: ٥٥.
(٣) المِدَاد سبق ذكره مراراً.
(٤) ذيل نفحة الريحانة: ٦٢.

ذو عـفـاف إذا تـوَهّـم طـرفـاً ... شـامـه صَـبْـغ الـحـيـا وَجَـنـاتـه

يَـسْـتـمـيـل الـقـلـوب لُـطْـف مـعـانـيـه ... وتَـخْـشـى الأسـود مـن سـطـواتـهِ

الشيخ عبد الحي بن علي المعروف بالخال[(١)]

خالٌ تَزَيَّنت به وَجَنَات العَصْر. أبيض اللّون وإذا هو على ثغر الزمان كالحباب على خمرة العصر. أديبٌ سيف ذهنه رَسُوب[(٢)]، لأنه للأدب غير كسوب.

وفاضل خيل عزمه مجنّبة، ومعانيه تحت خيمة السماء الزرقاء بالنجوم مطنّبة. فقد شَمّر لنيل العلى أذياله، وقطع بِهِمته من المَجْد أمياله، حتى أناخ رحله بمناخ خصيب وَنَزل بأطيب وادٍ يصيب فيه النّازل به ما يصيب، من ثمار استفادة وإفادة، واستخراج ركازٍ[(٣)] من الأدب الذي لا يخشى عليه نفاده. وله شِعرٌ يُغْرِبُ في الأدب عن مقامه. ويناضل عقود الغانيات في انتضاده وانتظامه، فمن نَقْط الخال على وجنات العصر، الذي تتمنّاه أن يكون في خدودها خرائد القصر[(٤)].

قوله:

حـيـن وَلّـى يـتـيـه فـي خَـطَـراتـه ... قـادنـي حُـبّـه إلـى خـطـراتـه

إن يـكـون[(٥)] بـالـعـيـون كَـلّـم قـلـبـي ... فـشـفـاء الـقـلـب فـي كـلـمـاتـه

قـد رَمَـتْـنـي الـعـيـون فـي أسـر عـيـنـيـه ... كـمـا قـد جَـنـيْـت مـن وجـنـاتـه

بـيـن طَـرْفـي ولـحـظـه حَـمَـل الـقـلـب ... غـرامـاً كَـثِـقْـل لَـوْم وشـاتـه

بـهـج يـمـلأ الـعـيـون سـروراً ... مِـثْـل مـلء الـفـؤاد مـن حَـسَـراتـه

لـو رأت حُـسْـنـه الـحِـسَـان لـقـالـت ... جَـلّ مـن ذا الـجـمـال مـن آيـاتـه

---

(١) توفي سنة ١١١٧هـ (سلك الدرر ٢: ٢٤٤ ذيل نفحة الريحانة: ١٣٨).

(٢) السيف: يغيب في الضربة.

(٣) الركاز: المال المدفون في الجاهلية.

(٤) ذيل نفحة الريحانة: ٦٤.

(٥) ذيل نفحة الريحانة (يكن) وهو الصواب.

أو رأى البدر وَجْهه أقسم البَدْر ... بأنّي اكتسبت من هالاته

أو لشمس النهار يبدو تمنّت ... برقعاً من جَمَاله وصِفَاته

قل إذا ما رنا وألفَتَ جيداً ... وتمادى[1] كاللّدن في خطراته

ما مهاة الصَّريم ما رِيم حَزوى ... ما قَضِيْب الأراك في مَيَلاته

هو دائي وعلّتي ودوائي ... وحَيَاتي في وَصْله وحياته

ما ثَنَاني المطال إذ طال هَجْري ... وجَفَاه يعدّ من حَسَنَاته

السيد محمد كبريت[2]

كبريت طابت في الأفق روائحه، وفصيحٌ كثرت غواديه في سبيل الأدب وروايحه. بلّغني عنه الخبير، ما بَلّغت النّسيم من نفحة العَبِيْر، وأهدى إليّ له الواصف، ما أهداه إلى الجِيْد من العقود الراصف، فهو على ما سمعت من أخباره الواردة، واقتنصت من ظبائها السَّانحة الشاردة. فاضلٌ دَلَّتني أوصافه على كماله، وأبرزت شخصه في غاية جماله، وأسمَعَتْنِي لسَيْف ذهنه قَعْقعَه. أوقع العدو من الخَجْلة فيما أوقعه، فهو أديب سلس. كأن أدبه من الرَّوض قد اختلس، إن قدح فكرته فزِنْده وري، وإن حرك أقلامه فَرَنْده بين نعمة من القطر ورِيْ.

ذكره الشيخ مصطفى الحموي في تاريخه المسمى بنتائج الرحلة. وأنحله من الذكر الجميل فيه أبرّ نحله، وأورد له قوله مضمّناً:

يا من تمادى بِهَجْر ما له سببٌ ... وصدّ عَمْداً يرى في ذاك تنكيتي

كأن هَجْرك بعد الوَصْل يا أملي ... (أوائل النار في أطراف كِبْريت)

أصله قول إمام التشبيه من أنواع البديع، وهو عبد الله بن المعتزّ العباسي رحمه الله تعالى، في تَشْبيه زَهْر البنفسج وهو تَشْبيه بديعٌ من فنون البديع[3]:

---

(١) الذيل (تهادى).

(٢) وفاته سنة ١٠٧٠هـ (خلاصة الأثر ٤: ٢٨ نفحة الريحانة ٤: ٣٥٥ سلافة العصر: ٢٥٦).

(٣) خزانة الأدب: ٢: ٤٩٣.

ولازورديّة تَزْهو بزرقتها ... بين الرِّياض على زُرْق اليواقيت
كأنها فوق أغصان نهضن بها ... أوائل النَّار في أطراف كبريت

وقد أتيت أنا بهذا التَّشبيه متابعاً لابن المعتز في أبياتي المتقدمة المكتوبة إلى الشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي رحمه الله تعالى حيث قلت:

لما بدا زهر البنفسج أزرقاً ... (كأوائل النِّيران في الكبريت)

وما أحسن في تشبيهه قول بعض الظرفاء الأقدمين(١):

بنَفْسج يانعٌ ذكيّ ... يزهو على حسن كل ورد
كأنّه عند ناظريه ... آثار قرصٍ بصَحْن خدّ

أخذ هذا المعنى الأديب الشيخ أبو علي الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب الحلبي رحمه الله تعالى في كلام له منثور في كتابه المسمى (نسيم الصبا) في الفصل التاسع من فصوله الثلاثين وهو فصل الرَّوض والأزهار وهو قوله: ومن بنفسج حسن لباسه، وطابت أنفاسه، كأنه فصوص فَيْروزج نَضِيْدة، أو آثار قَرْص في خدّ خريدة، أو حروف لازوردية، أو بقايا نقش في راحة نديّة، انتهى.

وقال الغزولي رحمه الله تعالى فيه(٢):

بنَفْسج روض صار يبدي صباغه ... وقد طليت حتى على ذَهَب الأفق
وبالغ حتى صار في كل خاتم ... من الزّهر فصٌ من يواقيته الزرق

وقال الميكائيلي وقد أهدى له بعض أودائه بنفسجاً(٣):

يا مهدياً بنَفْسجاً أرجاً ... يَرْتاح صَدْري له ويَنْشرح
بَشّرني عاجلاً مصحّفه ... بأنّ ضيق الأمور ينفسح

---

(١) ذكره في سلك الدرر.
(٢) في المستطرف للابشيهي.
(٣) يتيمة الدهر ٤ : ٤٢٩ ومطالع البدور ١ : ١٠٥.

وقد قال الأمير مجير الدين بن تميم الدمشقي رحمه الله تعالى في الورد والبنفسج[1]:

ولقد رأيت الورد يَلْطم خدّه ... ويقول وهو على البنَفْسج يَحْنَق
لا تَقْربوه وإن تضوّع نشره ... من بينكم فهو العدوّ الأزرق

والبنفسج يستعار للعذار ويشبّه بها، أورد الأديب الخطيري في كتابه (لمح الملح) لأبي القاسم البستي رحمهما الله تعالى:

ومختطٌ يشوق إليه قلبي ... ويأبى غيره روحي ونَفْسي
أقول وقد أراني خطّ خدٌ ... بروحي ذلك الخط البَنْفسي

أي البنفسجي. وقال أبو هلال العسكري رحمه الله تعالى[2]:

ومعذّر قال الإلٰه لحسنه ... كن فاتناً للعاشقين فكان هو[3]
زَعَم البَنَفْسج أنه كعذاره ... حَسَناً فسلُّوا مِنْ قَفاهِ لِسانَهُ

الشيخ محمد الإسكندراني المكي البصير

نزيل البيت الحرام. الذي استوطن منه ما استوطنه الكرام، بِقَاع عظّم الله تعالى قَدْرها. وأطلع من رسوله في أفلاكها بَدْرها، سَكَنَها هذا البصير، وصار إليها فطاب له المصير.

نَظَم من الشّعر ما دلّ على فَضْله، وأقام فيه شاهداً على نُبْله، وسدّد إلى شواكل العُلاَ ما أصاب الغرض من نَبْله، لم أقف له على نظم مستوفى. ولم أجذب منه رداء له على معاطف الأيام أضفى، حتى أخالط بمتضوّعه (طيب السمر). وأطلع في أفلاك سطوره منه الشمس والقمر، ما سَمِعت له من شعره

(١) مطالع البدور ١ : ١٠٦.

(٢) مطالع البدور ١ : ١٠٥.

(٣) المطالع «مكانه».

القصي الشريد، غير قوله مؤرّخاً لوفاة الشريف سعد بن زيد، وقيام ولده بالأمر بعده. وهو الشريف سعيد:

جاء يُسْرٌ بعد عُسْرٍ   بَيْتُ تاريخٍ مفيد
فاز بالجنَّةِ سعدٌ   قام بالملك سعيد

الشيخ على السنجاري المكي[1]

حرمي مكي، لا يخالطني فيه شكّي، وأما أدبه فركيك، فليس لأهل الإجادة بِشَريك. فله شِعْر سافل، وأدب نَجْم إفادته آفل، ولما وقف على كتاب (سلافة العصر، في ذكر الأفاضل من أبناء العصر). تأليف السيد علي بن أحمد بن معصوم، ورَوْضه الذي نفح عن نَشْر المنثور والقيصوم. رأى فيه حَطّ منزلة جدّه، وعدم توفير حظه في المدح وجَدّه. وهو الشيخ تقي الدين السّنجاري، ونهر الفضل المتدفّق الجاري، أغاظه ذلك أشدّ غيظ. وكادت أن تؤول نفسه بحالها إلى الفيض، فتجرّد يهجو السيد المذكور، وقابل فَضْله بالجحود على أنه غير منكور، وحط من منزلة كتابه، وعدّ في الحصى ما التقط من درّ عبابه، ونور الشمس غير مطموس، وقمر التمّ غير مرموس.

وإنما المفضول يحسد الفاضل، ويجادل في جَحْد فَضْله ويناضل، ويقول ويتقوَّل ولا يطلب العذر له ولا يتأوَّل، وهكذا مضى السلف ومن عَمَّهم من الصَّدر الأول التلف، علّة أقدمية، وشنشنة أخزمية، حتى قال السنجاري ونظم في غاية التجاري.

قوله:

هاتي اقرلي ريحانة ابن خفاجة   لا عِطْر بعد عروس قول محكَم
واتْرك سلافة رافضي مُبْدع   أن السّلافة لا تحل لمسلم

---

(١) نفحة الريحانة ٤ : ١٣٤.

أقول: نعم ريحانة الشهاب الخفاجي، قد طلعت أفلاكها من المِدَاد في دياجي. فاح شَذَاها عن زَهْر من المَنْثور، يهيج به الغرام على الأديب ويثور. لا شك أنها تفوق السّلافة، لما همع من خلال أوراقها قَطْر اللطافة، لكنها قد دلّت على فضل المؤلف. وأنبأت أنه في الدرجة الوسطى بدرٍّ غير متكلّف، أنفق مِمَّا آتاه الله تعالى ودَلّه إليه حذقه. فما نقول في حقه إلاّ ومن قُدّر عليه رزقه[1].

ولما بلغ هذان البيتان، ومرت نسيمها من ابن معصوم على بستان، وهو إذ ذاك في بلاد الهند، وقد أبطأ عن معاهدة البَيْت الحرام بطآفند[2].

نظم قصيدة طويلة، ونَزّل فيها السُّنجاري مَنْزلة كَلْب أطال عويله. مطلعها قوله:

عـرضـت نَـفْـسـك يـا كـلـيـب لـضَـيْـغـم

فلما بلغت إلى السنجاري قامت قيامته ولبست لحرب الذم لامته، سدد بسهامه، وما هي غير أقلامه، ونَشَر من الرِّق منصوب أعلامه. ونظم قصيدة في الجواب، فسلك نَهْجاً ليس من نهج الصَّواب. فقال في مطلعها:

رَكِـبَـتْ إلـيـك الـبـحـر فـاغـرة الـفَـمِ   تَـرْوي عـن الـعـربـي هَـجْـو الأعـجـمي

حتى قال فيها:

وهـل الـكـلـيـب سـواك لـم تـك عـالـمـاً   إن الـرّوافـض مـن كـلاب جـهـنّـم

وقال فيها:

لـيـس الـتـمـوّل لـلـعـلا بـمـشَـيِّـدٍ   والـمَـجْـد لـيـس بِـنَـافـر عـن مُـعْـدم

---

(١) قلت: هذا استحسان من المؤلف في غير محله وإلا فإني طالعت السلافة المذكورة فوجدتها عبارة عن تجميع للشعر وسجع ركيك متكلف وقد صدق السنجاري صاحب الترجمة في ذمّه للكتاب المذكور وأيده المؤلف رحمه الله فإنك تجد في إطرائه على الكتاب المذكور نقداً خفياً تلمسه في عباراته المغلّفة.

(٢) انظر هذا المثل في مجمع الأمثال للميداني: ١٠٢ والمستقصى ١: ٢٣ (ابطأ من فند).

والفَخْر أجْمع في التّقى لا في الغنا ومحَبّة الشَّيخين[١] رأس المغنم

الشيخ محمد بن محمد بن سليمان المغربي[٢]

بدرٌ أشرق من الغَرْب، ونَسيم يُذْهب نَسيمه بالكَرْب. يَسْتنشق من أوراق دفاتره، ما يغازله طَرْف النّرجس بفاتره، يجتني منه حُلْو الثمر، فلا يجهله إلاّ من جَهل القَمر. سُطور كتابته له إلى الفلك سلا لم، يتناول بها الزهر لكلماته التي يقال لكلّ أديب عنها سلالم، صادح بلاغة غَرِّد، في روض من الغرب نهره مطّرد:

طَيْر من الغرب ما سَمِعْنا أغرب من صوته وأغرد

خرج إلى مكة فشمخت به عُلَوّاً، وورد بين زَمْزم فازداد به ماؤها حلوّاً، وإذا هو على الأسفار أصبر من الأثافي على النار[٣]، فعبقت نسماته في الحجاز، حتى تعدّى نَشْرها إلى اليمن وجاز. فتضوّع أرجه مِنْها بالأرجاء، وشمَمْنا لمسك مداده درجاً[٤]، فإذا هو أطيب من كل طِيب. وإذا طرسه جامعٌ يقوم على منبر كل صدر منه من الفصاحة خطيب.

وقد وصلني من شعره، ما كان من أعظم الدَّواعي في هذا الكتاب لذكره، اخترت له من أبيات، وأحكمت آيةً واحدةً مما له من الآيات. وذلك قوله:

تبسّم مثل الثّغر زهر الكمائم وعاد كماء الورد قَطْر الغمائم

ورقّت سجايا الجود واعتَلّت الصَّبا وغَنّت ندامى القُضب وُرْق الحمائم

بحيث يَسيل النَّهر في الرَّوض فِضّة فيَطْبع منه النّور مثل الدَّراهم

ندى مثل ما لاقتك عادة مفضل يرى أن بَذْل الجود ضَرْبة لازم

---

(١) يعني أبا بكر وعمر رضي اللّه عنهما.

(٢) هو محمد بن سليمان بن الفاسي، من أهل المغرب عرف بالروداني السوسي المتوفى ١٠٩٤هـ (خلاصة الأثر ٤: ٢٠٤ الأعلام ٦: ١٥١).

(٣) المثل في المستقصى ١: ٢٠١ ومجمع الأمثال: ٣٦٥.

(٤) ريح سريعة.

تمدّ العلى منه يداً بذلت يَدًا كما عَمّ فيض النَّهر غور التهائم

قوله: ضربة لازم، وضربة لازب بالباء الموحدة، وهما بمعنى يقال: ضربة لازب أي لازماً ثابتاً.

السيد هاشم بن أحمد بن محمد بن جعفر الحسيني المَكّي الشهير الأزراري(١)

إذا رأته كمائم الورد قالت: هذا أزراري، وإذا نظرته حمائم الفصاحة. قالت: هذا جُهَينة أسراري، فلست أغرد بين عقيق اللوى وعَلَمه، إلا على غصن مائل الأعطاف من قَلَمِه. روضة كمال، ونَسْمة شمال، ذو همّة بارت النّجم وسامت. وقدر قابل بدر الفلك وَسَامت، وعزمة بايعت الحاسد في مهجته وسامت، أديبٌ جدّد من الأدب بُرْده، وأثبت وهو النّظام(٢) من الجوهر فردَه.

إنسانٌ وأي إنسان، يأتي غصن قلمه في شهر ناجر بنيسان. ألبس الأيام حللاً وأصلح لبيوت العلا خَلَلَا.

رأيت له من النَّظم مشجّرَا، وروض معمًّى خلاله نهر اللطافة قد جرى، ومن نظمه الذي هو المنى. وشعره المسموع قوله مضمناً:

ومعشوقة هامت بأغيد فاتن وهِمْت به حتَّى هويت مزارها

وتُهْت بها حبّاً ووجداً وصبوةً وتاهت هوى قد شَبَّ في القلب نارها

بأغيد يُسْبي كل صَبّ متيّم وعنِّي قد مالت وأبدت نفارها

فأنشدتها لما تزايد هَجْرها جنى وصلها غيري وحُمّلت عارها

(١) نفحة الريحانة ٤: ٣١٥ وفيه الأزواري قال وأزوارةِ بالضم والسكون، بليدة بنواحي أصبهان قلت: لعله تَصْحيف من المحقق، والصواب ما جاء في كتابنا.

(٢) تورية بقول النظام (من المعتزلة) في الجوهر الفرد انظر (الأعلام ١: ٤٣).

الشيخ زين العابدين بن سعيد المنُوفي
المصري المكي نزيل اليمن(١)

وزيرٌ به الأزر يُشد، ويَسْلك به الملك في مَنْهج الرشد. عزمه بكلّ عاتق، سيفٌ فاتك فاتق، إذا دبّر أمراً أعاد الخَلّ خمراً. والرماد المتطاير جَمْراً، قعد دِسْت الوزارة. وصاد من الحَظ الميمون هَزَاره، فأصبح به سَفْح المجد في غاية النظارة وعاد به وادي العلا واسع الغضارة، كَلِفٌ بالمروة وأسبابها، لَهِجٌ بالمعالي ودخول بابها. هائمٌ بالإنعام، صبٌّ وامقٌ بالإطعام، فكم مُدَّ بين يديه من خوان، يشتمل على أنواع المَلاذ والألوان. يذرأ به عن ذوي السَّغب الفجائع، إذا قعد عليه ألف طاوٍ وألف جائع. وهو يَبْتسم في صَدْره بِشْراً، ويفوح زَهْر تهلّله من أكمامه نَشْراً، فكانت حاله مستقيمة، لا يرخص لها سوى الحظ قيمة. فدنياه حلوةٌ خضرة، ورياض عَيْشه مُزْهرةٌ نضرة، يغُرّد بين الأوراق طائره الخضاري(٢)، على غصن قلمه المائل من النعمة والرِّي. ويسيل على صَفَحَات قراطيسه الصَّقيلة نظمه النضاري.

حتى قصدت الأيام لحاله تحويلها، فلم تزل تظهر لها تغييرها وتُبْدي لها تَبْدِيلها، إلى أن استحال صَبِراً عسله، وتحطّمت من عوالي مَجْده أسله. ولبس له الدهر جلد النَّمر، وإذا يوم سعادته يوم نحس مستمر. فوهت منه العزيمة، وَوَلَّت جيوش صبره هزيمة. وقعد عن دِسْت وزارته، وتجرّع من شراب القهر أبلغ ما يكون من مرارته. فبهرا(٣) للزمان بهرا، لما أولاه غيظاً وقهراً. ثم ولي جهات تهامة، ولبست تاجه المكلّل تلك الهامة. ثم صُوْدر بتَخْليص المال، وجنح عنه

---

(١) نشر العرف ١: ٧٢٠.

(٢) الخُضاري: طائر يسمى الأخيل وقيل هو الشقراق.

(٣) يقال للرجل بَهْراً أي تُعسا قال ابن ميادة:

تفاقد قومي إذ يبيعون مهجتي ... بجارية بهراً لهم بعدها بهرا

ويقال بهر بهراً في معنى عجباً قال عمر بن أبي ربيعة:

ثم قالوا تحبها قلت بهراً ... عدد القطر والحصى والتراب

الحظ الأبيض ومال، فحَمَل مبادراً أثقاله، ولم يلتفت من العذل في شأنه إلى مقاله. ونَفَر عن ضيق المرابع، نفور الظبا عن حديث المراتع. وقد مدّت فيها حبال الصّيد، ودفنت لها المنايا في التّراب عن خَدْع وكيد، أو نفور الطيور عن أوكارها. وقد أمر الصائد بِنَصْب الشباك لها راضياً أوكارها، والدَّهر كما علم اللبيب منجنون[1]. ربما جنّ وربما أفاق من جنون. فلا شك أن الفاضل طالما سبح في بحار غصصه سبح نون[2]، وطالما زُفّت إليه باء وكاف وراء، أو عينٌ، واوٌ ونون[3]. فرأى إلى ديار مكة رجوعه، وعاود بها بعد طول سَهَره في اليمن هجوعه، إذ ركب من البَحْر غاربه. وإذا نجومه اليمانية عن أفقها غاربة.

وهو الآن بمدينة الرسول حاكمها ومفتيها، تَفْخر بفوائده على سائر الأقطار تطاولاً وتيهاً. لما شَحَذ سيفه الوقيع[4]، بأحجار المدينة وبقاع البقيع. ذكر الغمام سفحه. ووالى على رياضه سفحه، وحياه النَّسيم سفحه، فأطفأ الظلال من هجير منازله لفحه.

وقد أسمعني من أشعاره ما زاد في إشاعة فضله وإشعاره، مما يبري عليل النّسيم، ويكلّل وَجَنَات الوَرْد في محيّا الروض الوسيم. ويدلّ على أنه للجَوْهر في النَّفاسة أيُّ شريك وقسيم. وقد أثبَتُّ له هنا من نفثاته الطيّارة، ما أثبته الفلك الدوار من الشّهب السيارة. قوله مجيباً[5]:

حُبِّي لذاتك من أجلِّ وسائلي	إن كنت عن عين الحقيقة سائلي
يا مائس القَدّ الذي أورى على	غُصْن النقا المتمائد المتمائل
وَجَمَالُ وجهك وهو أعظم حجّة	للعَذْل عندي في اهتزاز العاذل

---

(١) متقلّب.

(٢) نون: حوت كبير.

(٣) أي بِكْر وعون من النساء.

(٤) سيف وقيع: حاد مشحوذ.

(٥) نشر العرف ١ : ٧٢١.

ما حال قَلْبي عن هواك ولم أكن تالله عن عهد الوِدَاد بحائل
فهواك وهو المستلذّ من الهوى وولاء إنسان الكمال الكامل
نِبْراس مُشكاة النَّباهة والذكا إنسان كلّ فواضل وفضائل
أعني به الحسن بن عبد الله من أحيا مآثر كل مَجْد خامل
الأصيدا اليقظ الكمّي مهذَّب الأ خلاق ذي الطول الجلي الطائل
إن جال أو إن قال في حالَيْهما فله العلا من جائل أو قائل
تالله ما قد كان عندي أن في ذا العصر مِثْل ابن العماد الماثل
بَحر تدفّق موجه بلآلىء غرّ ولكن ما له من ساحل
برٌّ ترقوق ماء كل مروة في وَجْهه فغدا دليل السَّائل
عَوَّذته بالنُّور بل بالطّور و الرَّحمٰن خَيْر تمائم وحمائل
فهو الذي قد حَلّ شخص وداده منّي محلّ أبي الأبيّ الفاضل
فليَجْعلن صَميم ودّي عمدة فالودّ كافٍ وهو أعظم كافل
وليعلمنَّ بانني متبجّح أن الوفا خلقي وحسن شمائلي
والغَدْر أقبح ما يشان به الفَتَى لو حاز دَوْلة ملك كسرى العادل
وإلى ابن خَيْر الرّسل قد حَبَّرتها بِنْت ارتجال ضمن شغل شاغل
فليَغْض عن زلأتها متفضّلاً بقبولها شأن العَطوف الواصل
وليَجْعَلَنْ عذري عن التَّقصير ما لم يخف عنه من القصور الحاصل
لا زال في يمن وأمن كامل متَتَابع متَنَاسق متواصل
ما غرّدت ورقا على أغصانها في روضة سقيت بغيث هامل

وقوله مجيباً أيضاً:

أدرٌّ من لآل أجتنيه وزهرٌ من رياض اجتبيه
ومسك ذرّ في كافور طَرْس وسحرٌ حار فيه حجى النَّبيه
أجل وأبيك ليس سِوى عقود ينظّمهنّ خير بني أبيه
هو الحَسن الجميل الخلق وَصْفاً وخُلْقاً خَيْر مولى أصطفيه

به وبِنَظمه الدرّي أضحى ... غرامي لا بذي الوَجْه الوجيه
كحيل الطَّرف عَبْل الرِّدف أحوى ... كأنَّ جمال حور العين فيه
أغنّ ما إخال السكر إلاّ ... سلافاً من شَهِيٍّ رِضاب فِيْه
تجَمَّعت المحاسن فيه حَتَّى ... بَلَغْتُ بوصله ما أشتهيه
كما جمعت محاسن كل وصف ... بفضل في أبي الفَضْل النبيه
فيا شرف الهدى والدّين يامن ... بمقدمة سما (بيت الفقيه)[1]
وَمَنْ عيني به سَرَّت وقرّت ... به الدنيا وكل فتى نبيه
مَنَحْت أخا وداد بِنت فِكْر ... أتت تَختال في أثواب تِيْهِ
وحق لفَخْرها الحسنَيّ يسَمْو ... كما فَخَر المليك على ذَوِيْه
فعذراً عن قُصور أخي وِدَاد ... لقد أصْفاك وداً يصطفيه
وإن قَصَّرت في مَدْحي فماذا ... عَسَى يَلقى كمال تَختويه
وكيف يروم ذي عَقْل ولُبٌ ... يُبَاري من بروحي أفتديه
أجلّ بني الدّنا حلماً وعلماً ... وكل جميل وصف فهو فيه
وذا جُهْد المقلّ أتاك فاقبل ... أبا يحيى وخير بني أبيه

وقوله مِمَّا قصد به التَّورْية:

لي صاحبان كفانِي الله شرّهما ... يحيى وأحمد في الإعراض صِنْوان
إثنان قد كملا والنَّقص شأنهما ... مثل البدور وإن مالا فكَالْبان

ولما أَمَرَ لي إمام الزَّمان وملك العصر والأوان، وأنا بِحَضْرته بحصن مواهب الكريم، بمركوب من الخيل التي تباري في ميدانها النَّسيم.

أرسل لي صاحب التَّرجمة بمُهْر أشقر، لأن بعض اصطبلات الخيول كان بنَظِره، مهيمناً على أمراء العبيد الذين هم موكّلون بها. فكتبت إليه مجيباً عليه ما صورته:

---

(١) بيت الفقيه بلد في اليمن سبق ذكره.

دامت أوقاتك أيها الجواد السَّابق، والرّوض الذي نَشْره في الخافقين عابق، والوزير الذي ما اقترف وزراً. والبَحْر الذي لأحبابه مدّا ولأعدائه جَزْراً، ولا برحت السَّعادة في مقامك من جملة الخدم. ولا زالت تلك الموارد مَمْزوجةٌ بالعسل، إذا مزجت لمن عاداك من دمعه بدم. وسلام على مقامك الصّاعد في الدرج، المخجل لرياض المغاني في النضارة والأرج. وصلني الطرف الذي يحار في حُسْنه الطّرف، أشقر كأنه الدِّينار، ولكن ماله في منعه عن الطراد من صرف، قد لبس جُلْباب الأصيل، ودَلَّت حركاته على أنه ليس بهجين فهو الأصيل:

يا حسنه من أشقر قَصَرت ... عَنْه بروق الجوّ في الرَّكض
لا تَسْتطيع الشمس من جَرْيه ... تَرْسمه ظلاً على الأرض

سال الذهب على إهابه فلا يحتاج إلى أن يحلَّى، واتّخذ الهلال له سرجاً، لأنه رقا من الفلك مَحَلاً، فالبَرْق في جوانبه إذا التهب، ليس هو له إلاَّ عنان قد صِيْغ من الذَّهب، والمجَرَّة فيه أثر عجاجه وقد ركض، فإذا طَرْف النَّجم من مثار ذلك العجاج قد غمض، فهو سابقٌ لا يجارى، متطلقٌ في شوطه لا يبارى:

يقول للرِّيح كلّما نسمت ... هل لك يا ريح في مباراتي

أصفر لا تنزل الأحزان ساحته، ما امتطى راكب ظهره وأمسك عنانه ببنانه إلا أدرك راحته، كأنه زهر البهار الناظر. فاقعٌ لونه يحزن الحاسد على أنّه يسر الناظر:

فكأنما هو جمرة قد أضرمت ... وعلا عليها بالغُبَار دخان

فالله تعالى يطيل أوقات مولانا الإمام، ويحرسك أيها الأجل الهمام؛ فإنه أمر لي بمركوب أمر ملك بالسَّماحة يوصف، وأنت انتقيت ما أرسلت به انتقاء مختار قد انصف. ولا بَرِح في فُلك المَجْد شمساً يعُمَّ البلاد ظهوراً، ولا زلت أنت بدراً يَسْتمد منه ضوءاً ونوراً. إلا أني أقول: حاشاك من الكلف والنُّقصان، فإن بدرك المنصف من هذين الشينين يحفظ إن شاء الله تعالى ويصان. والسلام.

قولي في هذا المنثور قد لبس جِلْباب الأصيل والفَقْرة بعده، فيهما الجناس.

وما أحسن قول الأمير مجير الدين بن تميم رحمه الله تعالى في التورية مهنياً لبعض أهل عصره وقد أهديت له مهرةٌ شقراً[1]:

هنيتها يا مالكي مهرةً | جميلة الخَلْق بوجه جميل
مُؤخِرها والعنق قد أوقعا | قلب الأعادي في العريض الطويل
قد لَبِسَتْ من شفقٍ حلّةً | تُخبرنا إن أباها أصيل

والده الشيخ سعيد بن محمد المنوفي المكي، نزيل اليمن الميمون أيضاً[2]

شيخٌ عظيم القدر، حل من دولة اليمن محلَّ البدر. ونزل منها مَنْزلة القلب من الصَّدر، وهو أهل لتعظيمه ورفعه. حقيق بوَتْر التَّمجيد وشَفْعه، قابله سعد حظّ، وتلقاه باللطف فهو غير غليظ ولا فظّ. وخاطبه الزمان بألين عبارة ولافظ[3]، فإنه نسيج وحده، لا يقابل فضله لجَحْده، دوحة علم باسقها سما، أصلها ثابتٌ وفرعها في السَّما، أهّل ربع الفضل وقد خلا، وسَهّل من جبل الفخار مَدْخلاً، بِطَبْع أرق من نسيم السّحر، وأنفح في الليل من مَنْثور الزهر، وشمائل أسحر من مراض الحَدَقْ، وأصفى قبل الوقوع على الأرض من الماء الغدق.

اجتمعت به في المواهب، مجرى الجياد السَّلاهب، وإذا هو بِجَمْع الفضائل قد تفرَّد، ولاكتساب المعاني قد تجرّد، فَخَرت به المواكب، وتزيَّنت سماؤها من سجاياه بِزينة الكواكب، ثم اجتمعت به في رصابه[4]، وقد أصاب المُلْك ما أصابه. ونَحْن في مركز الجهاد تحت ظل السّيوف والصِّعاد، وحظيت بما حظي الفلك الدَّوار، من الشّهب الزاهرة والقمر النوّار. وحاضرته في سمعي فلا أصبو

---

(١) خزانة الأدب ٣: ٢٥٥.

(٢) نشر العرف ١: ٧٢٢.

(٣) أي ولا فض فوه.

(٤) رصابه: بلد من قاع جهران بمسافة ١٨ كيلومتراً (المقحفي: ٦٩٠).

بعده إلى الألحان، وسمعت منه ما لو سمعه الصَّابي لصبا له شوقاً. ولو عقله الحمام الساجع لخلع عليه من الطرب طوقاً.

ومن شعره قوله:

ديـــار مـــكـــة أوطـــانـــي وأوطـــاري لَهْفي على مكة الفيحاء من دار
يا حادي العيس سَاعدني على سَفَرِي كَـرِّر حـداك وحـرّك زَنْـدي الـواري
وارع القلوص بِقَلْبي في الفلاة وذا لـهـا شَـرَاب هـنـي دمـعـي الـجـاري
وأنـزل بظِلِ من البيت الذي رفعت قـواعـد فـيـه عـن أمـر مـن الـبـاري
أنـزل بـلـيـلـى[1] وسر ليلاً ولا حرج وخل من وجه ليل بدرها السـاري
وَانْشَقْ مِنَ الحرَمِ الأمِنْ الشريْف ثَرى وَدَعْ مِنَ الطِيِّب مسِكاً ضَائعاً دَارِي
فَـاخـلَعْ ثِـيَـابَـكَ إحـرَاماً وَلَـسْـتُ بِـمَا فَـعْـلـتَه قـطّ تَـخـشَـى وَصْـمَـة الـعَـارِ
وَالـزمْ مِـنَ الـرُكْـنُ فِـيْـهَـا خَـيْـرْ مُـلـتَـزم ركـنَـا مُـشِـيـداً زَفِـيـعـاً غَـيْـرْ مُـنْـهَـارِ
وَاشْـرَبْ بـزمْـزَم مَـاءً وَاطـف مِـن كَـبِـدِ حَرَّى مِنَ الشَوْقِ لا حرَّى مِنَ النَّارِ
وَادْعِ الإلـه بـاخْـلاصٍ تَـنَـل رُتَـبـاً مِـنَ الـحـقـائـق فِـيْـهَـا كُـنـهُ أسْـرَارِ
يَـا لَـيْـتَ شِـعْـرِي هَـلِ الأيَّـام تُـسْـعِـدُنـي إلَـى رُبَـاهَـا بـإزقـالٍ وَتِـسّـيَـارِ
حَـتَّـى تُـنَـاخُ بِـنَـا فِـي حَـيِّ ذِي سَـلـم عـلـى الأنـاءة عِـيْـشْ ذاتِ اكْـوَارِ
قَدْ ضَاقَ بي سَفح صَنَعَا وَهِي أطيَب مَا سَـكـنْـتُـه بـيَـن سَـادَاتِ وَأخـيَـارِ
وإنّـمـا حُـبّ أوْطَـانِ الـكِـريـم مـن الإ يْـمَـانِ عُـدّ ولا رُدٌّ بـإنـكَـار
صَـلَـى الإلـهُ عَـلَـى مَـنْ كَـانَ مَـنْـشَـأهُ فِـيْـهَـا وَآلِ مِـنَ الأدْنَـاسِ أطَـهَـارِ

وقوله:

قِيْـل لـيْ هَـلْ دَخَـلْت حـمَـام صَـنـعـا ء لـعَـذرِ فـقُـلـت والـعَـذْرَ وَاضِـحْ
مَـا دَخـلْـتُ الـحـمَّـام إلاَّ لأبْـكِـيْ يَـا أخَـا الـوّدَ مِـنْ جـمِـيْـع الـجَـوَارِح

---

(١) من ألقاب مكة المكرمة (سبق).

أخذ من قول الشيخ صدر الدين بن الوكيل رحمه الله تعالى[١].

وَلَم أَدَخل الحَمّام من أجلِ حَرِّهِ ... وَكَيفَ وَنار الشَوْق بينَ جَوانِحي
ولكنّنِي لم يكفِنِي فَيْضُ عَبْرتِي ... دَخَلتُ لأبكِي مِنْ جمِيع جَوَارِحي

وَلمَّا ضَمَّنا روض بين العزب نضير، وقد حفّ بنَا مِنَ العِنَبِ المشتهى الرازقي[٢] والخضير، وغيرهما من الأنواع التي تزينت من عناقيدها بالتنظيم، مما دل على قدرة الصانع الخالق الحكيم، وقد أشرق نور الشَّمس فأشرق من خلال الخلب[٣] والأعماد، كأنه سيوف مصقولة قد جردت من الأغماد، فقال سقى الله تعالى ترابه، وأحسن في جنة الفردوس مآبه، ما أحسن قول القاضي صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى مما أورده لنفسه في كتابه المسمى (غيث الأدب الذي انسجم، في شرح لامية العجم).

كأنما الأغصان لما انثنت ... أمام بدر التَّم في غَيْهبه
بِنْت مليك خَلْف شبّاكها ... تفرَّجت منه على مَوْكبه

فقلت: نعم وإن كان البدر الدماميني رحمه الله تعالى في كتابه المسمى «نزول الغيث» [قال][٤] ما لفظه ونصّه[٥]. أقول: ظَاهر هذه العبارة أنّ الأغصان أشبهت في حال انثنائها أمام البدر في الدّجى، بِنْت مليك تطل من خلف شباكها للنظر في موكب أبيها، وذلك عن مضان التَّوجيه بمَعْزل ومقصوده، أن البدر في خلال ظهوره من خلال الأغصان المنثنية على الصّفة المذكورة تُشْبه بنت مليك على تلك الحالة تمثيلاً للهيئة الاجتماعية بِشَبهها. لكن لفظه لا يساعد على هذا المطلوب؛ فإنه جَعَل الأغصان مبتدأ وخَبَّر عنه بقوله: بنت مليك فلم يتم له المراد وكثيراً ما يقع له هذا.

---

(١) خزانة الأدب ٢: ٥١١.
(٢) الرازقي والخضير من أنواع العنب بصنعاء.
(٣) الخلب: أوراق العنب.
(٤) ساقط من (ب).
(٥) هذا النص مأخوذ من خزانة الأدب ٢: ٥١١.

ثم أنه قال على أنّ مقطوع الصفدي مع ما فيه من العيب مَسْروق من قول محيي الدين بن قرناص رحمه الله تعالى[1]:

وحديقة غَنَّاء تنتظم الندى ... بفروعها كالدرّ في الأسلاك

والبدر يشرق من خلال غصونها ... مثل المليح يطلّ من شباك

انتهى كلام البَدْر الدماميني رحمه الله تعالى.

وأنا أقول: أن الفاضل الصَّفدي رحمه الله تعالى بمحَلٍّ من الفحولية لا يخفى عليه مثل هذا الانتقاد أصلاً، وما أظنّ أن ذلك الذي صدر من الكَبْوة في هذا التَّشبيه تقع من هذا الفاضل المنتقد، وإنما هو تبديل وتحريف من النساخ وطغى قلم منهم مع عدم ذوق سليم، ومعرفة للكلام القويم، ولا أكاد أن الصفدي إنما قال هكذا:

كأنما بدر الدُّجى إذ بدا ... من خَلَلِ الأغصان في غَيْهَبِه

بِنْت مليك خَلْف شُبَّاكها ... تفرّجت منه على مَوْكِبه

ثم إن صاحب الترجمة رحمه الله تعالى، أطلق رسنه في مدح كتاب (الغيث) وأطرى في وصف مؤلفه؛ بأنه جاء بما بَهَر العقول من المسائل العلمية المنوعة وأسباب المباحث الأدبية والاستطرادات المناسبة لكل بَحْث تكلّم فيه. وانجرار الكلام بَعْضه إلى بعض غير خارج عن المقصود أو حائف عن المراد، وإن البدر الدَّماميني عفا الله تعالى أخطأ لما حطّ من قدره حطّاً يسيراً في كتاب «نزول الغيث» المذكور.

فقلت: نعم ولكنه أصاب في بعض الاعتراضات وأخطأ في بعضها وقد وضعنا مؤلفاً مختصراً في دَفْع ما يمكن الدّفع عنه بسعة مجال التأويل.

فقال: لقد أحسنت يا مولانا حَرَسك الله تعالى، وما سميتم ذلك المختصر.

---

(١) خزانة الأدب ٢: ٥١٢.

فقلت: سميناه (نضارة الرَّوض بلا ريث عقيب نزول الغيث)[1] فقال: تلطّفتم في هذه التَّسمية إلى غاية، أومروا بنقله لنا وإن لم يكن نَقله جميعه، فلا يقبل منكم حتى نَقْل الديباجة التي هي الخطبة، فنقلنا له ذلك. وهي ما لفظه:

الحمد لله الذي زاد الرّوض نظارةً عند نزول الغيث، وأضافها به إلى جُمْلة الأزهار والأثمار، كما أضيفت إلى الجمل الاسمية أو الفعلية حيث. فهي مع ذلك النزول في غاية الطلوع الذي لا يزول، فما هَبَطت من الاقفهرار إلى حضيض، ولا ذوت بحرّ الهواجر وكيف والماء من خلالها يفيض.

وأشكر على إنزال الغيث بعد القنوط؛ لأنه بإدهمام الرَّوض وتفتّحه بالزَّهر والثَّمر منوط. وأشهد أن لا إله إلا الله وَحْده لا شريك له، الذي أهطل علينا الغيث الذي انسجم، حتى طرزت الزهور الملونة بأصابعه أخضر الشفوف من النَّبت الذي نجم.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي أنزل علينا الغيث بيمن دعائه فما شأنه نزوله. بل زادت به الرّياض ورفا، وقد رتق بإبرة طرز زهورها ورفا. صلى الله وسلم عليه وعلى آله ما همع الغيث مثجّاً، وقطعت القِطَع المتجاورة منه وقد تدفّق على جنباتها شاطئاً ولجّاً.

هذا وإن البدر الدماميني، شَنَّ غارة الانتقاص على الصَّلاح الصفدي. فقال لسان حاله: ما لك وتَشْويه عِيْني، أما علمت أنها حورٌ مقصورات في الخيام؟ تستخدم لها الخُرّد الغواني على الرؤوس بالقيام.

نعم أراد المذكور تَبْديد تلك اللآلىء التي تتألف، وتَكلّف على حطّها من رتبه النفاسة ولا عجب للبدر أن يَتَكلّف، على أنها قد برئت غادة كلامه من عيبها

(١) علق في (ش) نضارة الروض بلا ريث عقيب نزول الغيث كتاب للمؤلف، وقد سبقه ابن اقبرس في دفع اعتراضات الدماميني وسماه (تحكيم العقول في أفول البدر بالنزول) وهي تسمية ألطف من تسمية القاضي أحمد رحمه الله قلت: من هذا الكتاب مخطوطة بمكتبة برلين ونسخ أخرى. انظر كتابنا جامع الشروح والحواشي.

وشينها. ولكنه نَسَب الشُّهل[1] والحَوَل والعمش إلى عينها، وما ذاك إلا أنه عاب كتابه المسمى (الغيث الذي انسجم) لما بهره تفننه وأدهشه حُسْنه فصمت صموت حاسد وحم. نظر من العِلْم والأدب إلى استطراد كثير وجمّ.

ثم أنها من بعد الدَّهش والوجوم. هاجت شقاشقه في محقّ تلك البدور والنُّجوم، فصار يتَتَبع مواضع الجراحات كالذّباب، وجعل يظهر القشور من الانتقاد ويضمر اللباب، أرسل سهمه انتقاداً، وأضرم جمر اعتراضه إتّقاد، فأصاب سهمه في بعض القراطيس الغرض، وطاش في بعض المباحث عن الإصابة لما اعترض. وإحصاء معائب المرء دليلٌ على نبله، وحَصْر سقطاته أعظم حجّة على اتساع ميادينه وسبله، أي: فاضلٌ لا يكون في طرف يسير مفصولاً. وأي نسيم عاطر هبّ في أوقات السّحر، ولم يتعثر بأذيال الزهور معلولاً. لا بد للعسل من الرغوة، ولا بد للسّيف القاطع من النبوة. ولا يخلو الجواد السابق أبداً عن الكبوة، وما سمي الإنسان إنساناً، إلا أنه ربما بطموح وهمه أنسانا، فأضلّنا وأضلّ نفسه، وربما تلعثم في بعض العبارة ففضح نفسه. لا شك أن ابن آدم، تأخر عهده في ممارسة الصَّواب، أو تقادم، لا يَخْلو عن الخطأ والسقطات، ولا يعدم عدم إحكام الترصيف في بعض شكّه للآلية الملتقطات، سيما من أوسع في التأليف، وأكثر من تحريرات التصانيف، فإنه لا يخلو من عن طموح الوهم، إلى عثرة تخالف ما دلّه عليه الفهم، ومن كثر صوابه قل خطأه، وندر شحّه والأغلب استمرار عطاه.

ينبغي أن يحكم له بالفَضْل في صُنْعه، وأن يغلِّب إطلاق أيديه في أياديه على منعه. فالفساد قليل في محرّرات الصَّلاح[2]، فقد تلألأ نور إجادته إلا نادراً ولاح. وتضَوَّع نسيم فضله في دفتّي الآفاق وفاح، وتحدَّر ماء كلامه العذب النَّمير في سواقي الحدائق وفاح. فشمس بنت فكره لدى السمر، يغالب من حلي الغانية

---

(١) الشهل بالشين المعجمة: أقل من الزُّرق في الحدقة وأحسن منه أو هو تشرب الحدقة حمرة.

(٢) يعني صلاح الدين الصفدي سبق ذكره.

وطلعتها النّجوم والقمر، وتلك المغالبة في الضحك استهزاء بها لا في البكاء، كما في بيت جرير الذي رجح في باب المغالبة وزكا. ما سلم إلاَّ كتاب الله تعالى من الزلل، ولا تنزّه إلا حديث الرسول ﷺ من الخلل.

أقول: صدق البدر، رَفَع الله تعالى في درجات انتقاده القَدَرْ. ما لما اعترض به في بعض المباحث رد، يشهد له الفاضل بأنه في ذلك الاعتراض قد تفرّد، على أنه في بعضها تقعّر غاية التَّقعر. وتوَعّر عليه المرتقى غاية التوعُّر، لإمكان التَّصويب فيما حكم فيه بالخطا. واتساع مجال التأويل لَمَّا لم يهتد في تأويله اهتداء القطا. وقد عَزَمت على التَّكلم بلسان ألكن، في دَفْع بعض ما نقم به على ذلك الفاضل حسب ما أمكن، ووضعت كتاباً مختصر العبارة، وحَرَّرت كلاماً واضح الإشارة.

وسميته (نظارة الروض بلا ريث عقيب نزول الغيث) فالله الهادي إلى التسديد، المعين لطائر القلم على التَّغريد والترديد، وله المنة.

انتهت الديباجة المذكورة.

معنى قولنا فيها، من الفقر المحررة: هذه يغالب من حلي الغانية، وطلعتها النجوم والقمر إلى قولنا كما في بيت جرير الذي رجّح في باب المغالبة وزكا، خفي على الشيخ سعيد تعاهد الغيث ملحده. وبل الوابل الهَتَّان مرقده، في أول نظرة نظرها إلى هذه الديباجة.

فقال: أوضحوا لنا المعنى.

فقلت: لا بد أن نسبغ الكلام على هذه الفقر وإن طال حتى لا يبقى شيء مما حكّ في الخاطر من عدم الوضوح، هو لا يخفاكم بأن أهل علم الصرف أوردوا بيت جرير في باب المغالبة من أبياته التي رثى بها عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه. وهي قوله[1]:

---

(١) ديوان جرير: ٧٣٦.

ينعي النّعاة أمير المؤمنين لنا يا خَيْر من حجّ بيت الله واعتمرا
حَمَلْت أمراً عظيماً فاضطلعت له وقُمْت فينا بإذن الله يا عمرا
الشمس طالعة لَيْست بكاسفة تَبْكي عليك نُجوم الليل والقَمَرَا

نعم قد اضطربت الأقوال في بيت المغالبة هذا الأخير. وفي روايته، قال الجوهري في «الصحاح» ما لفظه: كسفت الشمس تَكْسف كسوفاً وكسفها الله تعالى كسفاً يتعدّى ولا يتعدى. قال الشاعر[1]:

الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

أي ليس بكسف ضوء النجوم مع طلوعها لقلة ضوئها وبكائها عليك. وقال أيضاً في مادة بكاء ما لفظه باكيته، أي: كنت أبكي عليه. قال الشاعر:

فالشّمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

وقال الفيروزباذي رحمه الله تعالى في «القاموس المحيط» في مادة (كسف، يكسف).

قال الشاعر:

فالشّمس كاسفة ليست بطالعة تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

أي كاسفة لك أبداً، ووهم الجوهري فغيّر الرواية وتكلّف لمعناه. انتهى كلام صاحب «القاموس».

ويؤيد كلامه هذا كلام العلاّمة الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى في شرح «شواهد المغني»؛ فإنه قال ما لفظه[2]: ورأيت البيت في ديوان جرير بلفظ: فالشمس كاسفة ليست بطالعة. وقال: شارحه أراد أن الشمس كاسفة تبكي عليه والدهر والشّهر بمعنى: والنّجوم والقمر منصوبان على الظرفية مراده بالنّجوم الدهر وبالقمر الشهر.

---

(١) من الشواهد لجرير من القصيدة السابقة.

(٢) شرح شواهد المغنى: ٧٩٢.

وقد حكاه المبرد أيضاً، فقال: ويجوز أن يريد الظَّرف، أي: تبكي عليه مدة نجوم الليل والقمر.

قال: ويجوز أن يكون التقدير: تبكي عليك النجوم كقولك: أبكيت زيداً على فلان. ويكون النجوم فاعلاً، والقمر مفعولاً معه، والواو بمعنى مع. انتهى كلام السيوطي رحمه الله تعالى.

روي قوله: طالعة بالرفع والنَّصب. ومعناه: تَعَجُّبه من طلوع الشمس ليست بكاسفة، كأنه عاتب على طلوعها منيرة بعد فقده.

قال صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى في كتاب (الغيث الذي انسجم)[(١)] أي أن الشمس تباكي عليه نجوم اللَّيل والقمرا، فتُبْكيهم. ومعنى هذا مشكل لأن الشَّمس إذا كانت طالعة غير كاسفة. فكيف تكون باكية؟ وكان ينبغي أن يقول: إنها غَرَبت وكسفت وبكت.

قال البدر الدماميني رحمه الله تعالى في كتاب (نزول الغيث) أقول: لم لا يجوز أن يكون العاملان وهما: كاسفة وتبكي تنازعاً، الظاهر بعدهما، وهو قوله: نجوم الليل والقمر، وأعمل الثاني منهما على الخِيار عند البَصْرِّيين وحذف المفعول من الأول؛ لأنه فَضْلة مستغنى عنه.

والمعنى: الشَّمس طلعت ولم تكسف النجوم والقمر، فكانت سوداء مظلمة لا نور لها يغلب نور غيرها من الكواكب. فكان الزَّمن كله ليلاً، وإن كانت الشمس طالعةً إذ لا اعتداد بطلوعها مع فقد نُورها ووجود الكواكب ظاهرة النور مع وجودها على أنها غلبت نجوم الليل والقمر في بكائها على هذا الميت. وتلك مبالغة حسنة يرتفع معها الإشكال الذي أورده والله تعالى أعلم.

---

(١) الغيث المسجم ٢: ٢١٨.

قال: ونصب عمر مشكل -لأنه علمٌ مفرد، فكان ينبغي أن يُبنى على الضمّ. ثم ذكر في إعرابه وجوهاً منها أنه أراد: يا عمر بن الخطاب[1] والمنادى المضاف يكون منصوباً، ثم قطع عن الإضافة لانتهاء الوزن.

أقول هذا أيضاً من الأعاجيب، فإنه توهم إذا قيل: يا عمر بن الخطاب، فكان المنادى منصوباً لأنه مضاف. وهذه سَقْطة لا يغسل دنس عارها البحر، فإنه لا شك ولا نزاع في أن عمر الواقع في هذا التَّركيب علمٌ مفرد غير مضاف، وأن اللائق وقع صفةً بين علمين مضافاً إلى العَلَم الثاني لا مضافاً إليه العَلَم الأول.

نعم، إن أراد لو أنه قيل: يا عمر بن الخطاب لجاذبنا العَلَم المنادى على الضَّم كما هي القاعدة ولا إشكال فيه. وجاز فتحه إتباعاً لحركة الابن، كما قالوا في قول الشاعر:

يا حكم بن المنذر بن الجارود.

فكان الشاعر أراد وصفه بابن مضاف إلى علم ففتحة لذلك، ثم لما انتهى الوزن لم يمكنه الإتيان بالصفة، فبقي العلم على حالة الفتح التي كانت تجوز له مع ذكر الصفة.

فهذا له وجهٌ، وإن كان بعيداً؛ لأن عبارة الصفدي لا تساعد عليه.

ثم أن البيت من شعر جرير يرثي به عمر بن عبد العزيز، وليس لابن الخطاب فيه تعلّق. انتهى كلام البدر الدماميني رحمه الله تعالى.

قال في شرح أبيات الإيضاح المسمى بالاتضاح ما لفظه اختلف في وجه نصب نجوم الليل والقمرا.

وذكر النحويون في ذلك أربعة أوجه:

---

(١) كذا والصّواب عمر بن عبد العزيز لأن القصيدة في رثائه وسيأتي التنبيه.

أحدها: أن تكون النّجومِ مفعولاً بها، والفعل الواقع عليها كاسفة لأنه اسم فاعل يقول: هند كاسفة وَجْهها، فيكون التَّقدير الشَّمس كاسفة نجوم الليل والقمرا ليست بطالعة تبكي عليك. وإن شئت جعلتها خبراً بعد خبر.

والثاني: أن يكون أراد الظَّرف بهما وقد أقامهما مقام مَصْدر محذوف. وهو المراد به معنى الظرف، فكأنه قال: الشَّمس كاسفة ليست بطالعة تبكي عليك دوام نجوم الليل والقمرا، أو طلوعهما أو نحو ذلك كما يقول القائل: لا أفارقك قعود القاضي، أي في قعوده، فكذلك يريد في طلوعهما. وقد حذف المصدر الذي هو ظرف وأقامهما مقامه فأعربهما بإعرابه. كما قال سبحانه وتعالى (واسأل القرية) أي أهل القرية فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه فأعربه بإعرابه.

والثالث: أن نَصْبهما تبكي كأنه قال: تَبْكي نُجُوم الليل والقمرا عليك، كما يقول: بكيت زيداً أي عليه.

والرابع: أن يكون أراد الواو التي، بمعنى مع، فكأنه قال: تبكي عليك. ونجوم الليل والقمرا كما يقول: استوى الماء والخشبة. وقد حذف الواو، وهذا أبعدها. انتهى.

والذي في بعض حواشي الكشاف في الكلام على قوله تعالى في سورة الدخان، (فما بكت عليهم السماء). المعنى في البيت على رواية النَّصب لنجوم الليل تبكي عليك الشمس بكاء النجوم، فحذف المضاف وعلى الرواية بالرفع. قالوا: وفي قوله: والقمر بمعنى مع. وقيل: أي ليست بكاسفة نجوم الليل، وقدّم تبكي عليك. والمعنى تبكي عليك الشمس، وقيل: كان يتهجد باللَّيل فتبكيه النُّجوم والقمر، ويعدل بالنهار فتبكيه الشّمس. والشمس غالبة في البكاء عليه؛ لأن العدل أفضل وهو من قولهم: باكيته فبكيته، أي: تبكيه الشّمس وتغلب النجوم والقمر في البكاء عليك، والله تعالى أعلم.

سراج الدين عمر بن محمد بن سليم بن إبراهيم الوزير[1] المكي الوافد إلى اليمن الميمون

وزير وابن وزير، وجليس لغادة المحامد وزير[2]. طالما طربت الأسماع من ذكره فلها منه بَمّ وزير[3]. غيثٌ هامعٌ هامر. عمر أركان الفخار فَعُمَرُ معدول به عن عامر[4]، سعى على الرياض بأطيب عرف ونمّ، وتَيَّقظ للفضائل فقيل للغير: نَبّه لها عُمَر وَنَمْ.

عدل في وزارته وعرف العلم فهو له صفة. وإذا عمر ممتنع عن النقائض للعدل والمعرفة. تزينت به الليالي، وأنشدته لسان المعالي:

لقد نحاك إله العرش يا عمر بخطَّةَ عن مداها يَقْصر البشر

رأيته بحصن منصورة الدملوة. وإذا هو في جِيْد المملكة لؤلؤة. تتزين به وتتبرّج، وتَنْظر إليها عيون النجوم وتَتَفَرَّج. يفتخر به الدَّست لما له من حسن السّمت، والطريقة التي لا عوج فيها ولا أمت، وهو بمحيّا كالقمر. وشعرٌ حالك يطيب ليله السَّمر، وماء النعيم يترقرق في أديمه، والروض من جسده تشقق جيوب أوراقه بيد نسيمه. وعليه من الملابس النفيسة حلل، يتقَلَّب في حجر الوزارة، وغصن الإقبال ينبّه بتحريكه هزاره، وشبابه أفنون[5]، وروضه ذو فنون، وأقلامه رماحٌ عوالي، أسنتها من مداده مسك الغوالي، فبارق أدبه لماعٌ برّاق. وشعره يطفىء أنوار السِّراج عمر بن محمد الوراق[6]، وأما عمر[7] بن الفارض؛ فإنه

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) الزير يطلق على الرجل الذي يحب محادثة النساء بعفة وشرف.

(٣) البم والزيرمن مصطلحات أهل الموسيقى سبق مثله.

(٤) قال في القاموس: عمر اسم رجل معدول عن عامر في حال التسمية.

(٥) أي من الشباب: أوله.

(٦) شاعر في العصر المملوكي سبق ذكره مراراً.

(٧) الأصل عمرو والإصلاح من عندنا (وسبق ذكره).

للتسليم له على نفسه الفارض، فما نهر أدبه إلاَّ مطّرد. ولا طائره فيه إلا ساجع غرد، تدبّجت مناكبه وأباهره[١]، وتلون طوقه كالروض، تَلَوَّنَتْ أزاهره. راقت قوادمه[١] وخوافِيه[١]، وترنّم بألحانه المشجية في أبراج قوافِيه.

كنت أجتمع به وأنادمه وأقاسمه الأدب وأساهمه وهو يَنْثر من لفظه ما ينثره الغمائم، ويساقط منه ما تساقطه على الكمائم، ويغرّد من ألحانه بما لا تُمْليه مطوقات الحمائم، مما يثلج به الصّدر للمحرور. ويتيه به غصن قلمه عن ذيله المجرور.

وشعره لؤلؤ مكنون ونظمه درّ موزون كقوله:

ذَكَر الحِمَى وحلول وادي لَعْلَع ... صَبّ ففاضت مُقْلتاه بأدمع
ومعاهداً عَمَرت فيا لله ما ... أحلى وأملحها فهل من مَرْجع
أَسَفِي على الأحباب يا ليت النّوى ... قَعَدت وحادي عِيْسها لم يزمع
وحمامةٌ صَدَحت على غصن النَّقا ... فمنحتها شَجْواً إصاخة مسمعي
لم تدر أني حِلْفُ وجد لم أزل ... أصبو لسكّان الغضى والأجرع
نادَيْتها مهلاً نداء متيَّم ... قَبْلي بفرط تخشّع وتوجّع
(أحمامة الوادي بمنعرج اللوى ... إن كنت مسعدة الكئيب فرجِّعي)
(إنا تقاسمنا الغضى فغصونه ... في راحتيك وناره في أضلعي)

هذان البيتان الأخيران مضمَّنان، وهما مشهوران من نظم ابن لؤلؤ الذَّهبي رحمه الله تعالى. ولذا قال: ناديتها البيت إلى آخره.

وفي هذا المعنى ما جاء لي في نثر مسجوع، وهو قولي: أيها الحمامة الصّادحة، المضرمة لنار الأشواق والقادحة، مهلاً أسلت بسجعك النفس والدَّمع. وأودعت الحزن في القلب بما أودعت في السمع، طارحيني بذكر زمان مضى. وأسعديني على التشبيب بالغَضَى، وهيهات ما أنت مِثْلي، لما تقاسمناه فغصونه لك

---

(١) جمع أبهر (من الصقور) الجانب الأقصر من الريش والمناكب تلي القوادم من ريش الطائر. وترتيبها هكذا: القوادم المناكب الخوافي الأباهر. الكلى.

وناره لي. وكم بين مَنْ نصيبه الغصون الخضر من الفروع، وبين مَنْ نصيبه النار المضرمة في الضلوع. وضح الفرق للعيان، فليس بمحتاج إلى بيان. انتهى.

ولما كملت له عمارة دار ميمونة بالحصن المذكور أولاً، وذلك في شهر الحجّة الحرام سنة سبع وتسعين وألف (سنة ١٠٩٧) وضع مأدبة[١] فيها. كتب إليّ من النظم والنثر يدعوني إليها، وأرسل لنا بشيء من العَنْبر الأشهب. فقال: رعى الله تعالى عهده وأذاق ذوي الآداب شُهْده.

يا شهاباً أنار حتى هدانا ... بِهُداه إلى مَنَار المَعَالي
قم إلينا جُزيت خيراً وبادر ... بحضور ففي الحضور جمالي
قد دعوناك طامعين بأنس ... مِنْك يَشْفى ما بالحشى من كلال
أنا في غربتي صريع من البعد ... وحالي من النوى غير حالي
فتفَضّل بالقُرْب لا زلت نَجْماً ... نيّراً باهياً بِمَرّ الليالي

مولاي شيخ مشايخ هذا العصر، على أنه الشاب الذي لا تحجر خصاله الشريفة بحدٍّ ولا حصر. شهاب هذا القطر اليمني، والمولى الذي شراني وما غير سجاياه الكريمة ثمني، أحمد بن محمد بن الحسن، استرسل له في التعمير طويل الرسن، أدعوك يا مولاي إلى داري بعد أن أهدي إليك من السلام المِسْك الدّاري[٢]، من أفضالك نَقَل القدم، لا عراك أسف أو ندم. فقد أمرنا بصنع طعام خاص للخواص غير عام. جلباً للاجتماع بمثلك، وشوقاً إلى شرفك ونُبْلك. والشيخ نعمة الله[٣] تعالى له إليكم أيّ شوق، وله إلى محاورتِكم بالحديث الطيّب أي توق. وقد أَمَّل لقاءكم فلا تخيّبوا أمله، عمّه الله تعالى بِثِياب أنسكم له وبِشَمْله

---

(١) في (ب) مادة.

(٢) مسك دارين نسبة إلى بلد في البحرين سبق مثله مراراً انظر الجزء الأول: ٤٥٤.

(٣) هو الشيخ نعمة الله اللاهوري دخل اليمن وتولّى الوزارة.
انظر أخباره في طيب أهل الكسا: ٨٥ (تحقيقنا).

شمائلكم شَمَلَه، فأجب ندائي، أجاب الله تعالى نداك، وأركس شوانيك وعِدَاكِ. صَدَر لكم شيء يسير من الطّيب، طابت أيامك أيها الفاضل الخطيب، من الفَضْل العميم قبوله. ونزوله في المجامر الدائرة عليكم وحلوله. والسلام.

فأجبناه من النظم والنثر بقولنا، وفي آخر الجواب عند ذكر ما أرسله من العنبر نَمَطٌ يجري مجرى الألغاز كما ترى:

نَفْحةٌ أرخصت شميم الغوالي ... عن يميني تضوّعت وشمالي
أذكرتني أخلاقك الغرّ طِيباً ... وليالٍ أكرم بها من ليالي
جاءني من لديك نظمٌ بديعٌ ... نِلْت منه إجادة في المقالي
هذّب اللفظ من لساني فحرّرت ... الذي قلته وجدّد بالي
فشرابي وعاتقي منك فضلاً ... في كلا الحالتين والله حالي
دمت ما هزّت النّسيم غصوناً ... في مهاد الرّياض هزّ الغواني

أيها السراج المنير، الراوي جُوْده النّافع عن ابن كثير[1]، مولاي عمر بن محمد الوزير، خدمه سلامي، وأمدّت أيامه من أيامي. وأفضل بمقامه كلامي، بعد سؤالي لله تعالى إطالة عمر عمر، الذي أشاد ذكرى ركني كما أشاد داره وعَمَر، لَمَعَ ضوؤك لدي، وسطع نورك بين يَدَيْ، حتى أعشى النظر لما تلألا. وزاد به طرفي لشدّة الإنارة كلالاً.

وصلت أبياتك، وتليت لديَّ آياتك، تَسْتَدْعي الوصول، وتَشْتَهي بين يديكم الحُصول، دَعَوْتني إلى مأدبة تعد من الأدب، ونَدَبْتني إلى الحضور إلى ما إليه الكريم السموح قد نَدَب. وهي حلفة[2] وكيرة[3]، نفخ طابخها ناره وكيره، لاصطناع مطبوخات أنيقة، لا يشابه درّ مكارمها من المأكولات عقيقة، بسطت

---

(١) هنا تورية بنافع وابن كثير من علماء القراءات.

(٢) الحِلْفة: بكسر الحاء وسكون اللام عند أهل اليمن هي الضيافة تكون بمناسبة شيء ما.

(٣) الوكيرة: طعام يقام بمناسبة الفراغ من البنيان.

خوانك، وأكرمت إخوانك، مسرّة بتمام هذا القَصْر الذي فيه المدّ. وهو إسداءوك وإنعامك الذي به تُحْمد. فأهنيّك بنجاح البناء، وتمام العمارة، التي لاحت من السعادة عليها كذا أمارة. فلقد ألبست هذا السفح جميم[1] النبات وبارِضه[1]، وكانت حركتك في بناء هذا المَسْكن متوغلة لا عارضه[2].

ولذا كان هذا البناء إن شاء الله تعالى مبنياً على السكون. وهذه العمارة تقضي بطول التَّعمير لك وهو بفضل الله تعالى يكون، فقد تأهل بهذا البناء غريبك، ودلّ على أنه لا يبعد عن هذا الحصن قريبك، فسَرَّني كما علم الله تعالى في أرض اليمن استقرارك، وعَلِمْت أنه يدوم بقاؤك فيها ويطول استمرارك. وإن كنت أنا راحلاً إلى وطني عن قريب لا بعيد. ومفارقاً لك بشقوة التنائي عنك أيها السعيد.

لكن وجودك في أرض اليمن يتيمَّن به أهله. فلا شك أنّ المحب من جملتهم وإن بعد عن محلك محله، هذا أواني سأسعى إلى دَعْوتك سعي البريد، وآتي إليك في أثر هذه السطور حسبما تريد.

وقد وصلني ما سمحت به مكارمك، وقضَيْت مغرمي برائحة طيبة قضيت من كل طيب مغارمك، وهو القِطَع من عنبر، الذي أعرب منك عن بحر وأبان عن برّ. ذلك المنعم به أخي رباعي الحروف في الهجاء على أن الحرفين منه حرفٌ واحدٌ إذا تأمّله ذو الحجى. لا شك أن نصفه وجد في بر، على أنه لا يوجد كله إلاّ في بحر. إن قلت فبلا شك ولا ضَيْر، بعد حَذْف ربعه إن قلبه ربعٌ لا غير. فلا زالت الروائح الطيبة على اختلافها تضوع في بيتك الذي أذن الله تعالى أن يرفع باتحادها وائتلافها. ولو لم تكن بحراً لما زخرت به. فَلْيتقظ لهذا الكلام المتيقظ، ولينتبه المنتبه، لا زال السلام عليك يفوح عنبره، ولا برح من الإكرام يحف به أصغره وأكبره. آمين.

قولي في هذا المنثور: وكانت حركتك في بناء هذا المسكن متوغلة لا

---

(١) الجميم: النبت الكثير والبارض سبق ذكره وهو أول ما يخرج من الأرض من النبات.

(٢) سيأتي شرحه.

عارضة. المراد بالحركة المتوغلة بالغين المعجمة عند النحاة هي المتمكّنة لتمكنها في البناء. وذلك كبناء المضمرات والمبهمات وما ومن وكم، سميت متمكنة لتمكّنها في البناء، وأما الحركة العارضة فهي بخلاف المتمكنة، وذلك مثل قولهم: يا زيد ولا رجل في الدار. وكذلك قبل وبعد، فهذه الحركات ليست بمتوغلة في النداء لأنها عما قريب تعود إلى الإعراب، وحركة البناء العارضة لم تبن على السكون فرقاً بينها وبين الحركة المتوغلة. وهي الأصل، لأن البناء على السكون هو الأصل، وإنما عدل منه إلى الحركة لثلاثة أشياء النفور من التقاء الساكنين في نحو هؤلاء، ولئلا يبتدأ بساكن لفظاً وحكماً كالكافين التي بمعنى مثل، والتي هي ضمير ولعروض البناء ففي قولنا: **السُّكون تورية**.

قولي في العنبر المهدي إلى آخر الفقرة المتعلقة بذكره، ممّا جرى مجرى الألغاز كما ذكرنا.

أما قولنا: أنّ عنبر رباعي الحروف فظاهر، وأما أن الحرفين منه حرف واحدٌ. فالمراد بالحرفين: العين والنون فإنهما حرفا هجا كما علمت. ولكن لفظ عن حرف واحد من حروف الجرّ عند النحاة وغيرهم.

وأمّا قولنا: أن نصفه وجد في بر، فلا شك أنّ نصف عنبر بر. وقولنا: أنه لا يوجد كله إلا في بحر فظاهرٌ لأن العنبر مستخرج من البحر، وبهذا يقع الإشكال عند السّامع من أن نصفه في البرّ وكله في البحر. وهذه طريقة التعمية والإلغاز.

وأما قولنا: إنه إن قلب بعد حذف ربعه وهو النون. صار لفظ ربع كما ترى وبهذا أيضاً يقع الإشكال عند السامع مع أن الربع، ـ أي الحرف الرابع ـ إذا حذف منه وقلب. كان لفظ ربع، وهذه طريقة المعميات والإلغاز أيضاً. والله تعالى أعلم.

وكتبت أنا إليه ملغزاً في دملوة[١] ونحن بِحُصنها، وحصن المنصورة[٢]

---

(١)ـ الدملوة: قلعة منيعة مشهورة فوق المنصورة من جبل الصّلو على بعد ستين كيلومتراً جنوب شرق مدينة تعز (المقحفى: ٦٢١).

(٢) حصن سبق ذكره في الجزء الأول: ٦٥٨.

المنيفين بحَضْرة إمام الزمان. وذلك في سلخ شهر الحرام سنة سبع وتسعين وألف (سنة ١٠٩٧) قولي:

إبنْ لي محلاً زادك الله رفعةً ... يُزَاحم من سامي النّجوم مناكِبُه
أرى طرده ما لا يروع وإنّما ... يسكّن رَوْعاً من فتى جاء طالبه
ففي القلب منه هول مدٍّ ولم يرع ... كما راع هول المدّ في البحرِ راكبه

فأجاب بقوله:

أيا أحمد المحمود ألغزت في التي ... غدت إذ أقمنا للجميع مصاحبه
بدملوة وهو المحلّ الذي سما ... مَقَام إمام أيّد الله جانبه
فلا زِلْت تُبْدي للغريب مؤنّساً ... من الأدب الغضّ البديع غرائبه

الشيخ أحمد بن محمد أبي القاسم الخِلّي، قاضي بندر جدة ومفتيه(١)

ما رأته المعالي إلا قالت: هذا خلِّي، ولا امتدَّت دوحة المحامد إلاً نادته: هلمّ إلى ظلّي. قاضي جدّة ومفتيها، وفَخْر قطرها فهي به تزداد تِيها، ذو سمت حنيف. ومَجْد شامخ الأركان مُنِيْف، بدر عرفان تَمّ، وإمام إفادة به يؤتم، أعلى الله تعالى كَعْبه. فصار في تلك البقاع للوفّاد كَعْبة. يقصد من آناء الديار، ويُتَوَجّه إليه للازْدِيار.

وله شعرٌ يشعر بما له من حسن السّبك، وحلل نَظْم جَيّدة النسج حسنة الحَبْك، لمّا نظم شيخنا الشيخ إبراهيم الهندي قصيدته الدّالية يحثّ بها الإمام المتوكل والمهدي على استفتاح مكّة وأرضها. وإقامة سنة المعالي وفرضها، وانتزاع ولاية الحرمين الكريمين، ومحلّي الفوز الشريفين العظيمين من تحت يد الإشراف وملك الروم، ويا بُعْد ما قصد وخِيْبة ما يروم.

---

(١) نفحة الريحانة ٤: ٢٣٥.

وذلك لما رجع حجّاج اليمن من الطّريق، ومنعوا في بَعْض الأعوام عن زيارة البيت العتيق. وهل فاز طالب بمطلبه، من أخذ فريسة بين ناب الأسد ومخلبه، أم هل وصل جبان إلى مقصورة الخدور؟ وحول خبائها فرسانٌ بالبيض والسّمر تدور.

أجابه صاحب التَّرجمة بقصيدة في وزن قصيدته ورويّها وهو حرف الدال. وَبّدلَ ذلك العسل بالعلقم أقبح إبدال. وقابل البارض[1] بالهشيم، وفاخر بالجزع المنثور ما اتسق الدّر النظيم، اخترت منها قوله:

رأيت سراباً لاح منكم بقيعة ... شراباً فَرِذْ إن الشَّراب بُراد
وآنست ناراً يَسْتطير شرارها ... وما هي إلا أن كشفت رماد
أعِذْ نظراً فيما رأيت ولا تمل ... عن الحقّ إن المَيْل عنه عِنَاد
ألم تعلموا أن النّفوس نفائس ... وأن مذاق الموت ليس يراد
وحرّكت أشجاناً بغارب أثلةٍ ... وهل مثل هاتيك الشّجون تعاد
وما هي إلا في الحقيقة آفةٌ ... سماويةٌ لما استجاش فساد
وطالت يَدَ المظلوم يوماً وسَدَّدت ... سِهَام دعاء ما لهنّ رداد
فمن غَرَسَ الظلم اجتنى ثمر الردى ... ومن زَرَعَ البغي اجتناه حصاد
وإن جَنَى الجاني إذا ثَمَّ طيبه ... يكون له عند التّمام جداد[2]
ولا عجب فالأسد مع سطواتها ... تُسَاس بإحسان لها وتقاد
كذا الفيل يرديه البعوض وماله ... يدٌ وبتَحْريك اليدين يُذَاد
أما شاهدت عيناك أخبار من مضى ... لعَمْري لأحواض الكرام ثَمَاد
بلى إن فيها ما بنوه وعَمَّرُوا ... من الحَسَنَات الجاريات وشادوا
وفي خبر البَرْق اليمانيّ عِبْرةٌ ... لمُعْتبر بل للزّيود كَسَاد
أما سمعت أذناك فعل أبي الصَّفا ... أمير زَبِيْد حين طال طراد

---

(١) أول ما تخرج من نبت من هامش (ش).

(٢) الجداد بكسر الجيم وفتحها هو صرام النخل والله أعلم من هامش (ب).

أقام بها دهراً طويلاً محاصراً بشِزذمة حتى تعذّر زاد
وجُرّع كاسات العنا آل حاشد وآل بكيل فاستطال سِهَاد
ولو حصل الإمداد ما كان خابياً له أبداً حتى الممات زناد

وله لما وصله ملدوغ يسأله رقيه، فدله على وضع الرّصاص في موضع اللدغة، ففعل فبري من حينه، فكتب إلى بعض أصحابه يصف له ما اتفق. قال:

نادرةٌ تكتب بالتّبر أسأل عنها فاضل العَصْر
بالأمس وافى منزلي طارقاً بعد صَلاة الظهر من تدري
أبهمته خوفاً عليه من الثَّعلـ ـب والسّرحان والنَّسر
ثلاثةٌ قد جمعوا أمرهم على اقتناص الخشف بالمكر
فاحذرهم لا تفش سرًّا لهم فإنهم يسعون بالسر
فحين وافى ذاك قابلته بالبشر والضمّ إلى الصَّدر
وقلت ما الأمر فأومى إلى مُبسمه المُسْتَعْذب الدّري
وقال لي قد لسعت عقربٌ في الحال در العقد من ثَغْري
وما اكتفت بالثغر حتى أتت جيدي وثَنَّت فيه بالضرّ
فَأَرْقِنِي يا سَيّدي رقية يكون فيها دفع ذا الشَّر
فحرت في أمري ولا غرو أن حرت وأيم الله في أمري
وصرت أرقيه وكفي على هذين بالسّر وبالجَهْر
ثم تذكرت الرّصاص الذي قالوا به نِفْعٌ بلا نُكْر
وَضَعْته حالاً فألفيته بَدَّل ذاك العسر باليسر
أجِبْ فَدَتْك النّفس هل فعلها كان إذاً أم ذاك عن سرّ
أم هي مثلي قد دهاها الهوى إن هوى مثلي الهوى العذري
ولاَ تَدْع ذا الحال لي منهما وخلّ من لم يَدْرِ بي بدري

وله مؤرخاً لمَوْت الشريف زيد بن محسن رحمه الله تعالى:

مـات كـهـف الـزمـان الـمـلـيـك مـلـيــ ـك العصر من لم يزل مدى الدهر محسن

فـالـمـعـالـي قـالـت لـنـا أرّخـوه قد ثوى في الجنان زيد بن محسن

الشيخ أبو الفرج الجزائري المكّي الوافد إلى اليمن الميمون[1]

كان يفد إلى اليمن ببضاعة أدب لا يرتضي لها النّجوم ثمن، فيمدح أكابرها، ويرتقي بالثناء عليهم منابرها. وهو دَوْحة أدبٍ وَرف ظلها، وحديقة لطف تساقط طلّها. وكان في لسانه حدّة، فطالما حَكَّم في الرقاب من سيف كلماته حدّه. جاء في بعض وفاداته، التي جرى بها على أحسن عاداته.

وقد سقط من ثغره بعض الثنايا، وجاءه رائد الموت ومقدم المنايا. فقال له بعض الملوك، الذين صاغوا له من التنويل أبهى السلوك: متى سقطت ضواحكك يا أبا الفرج. وذوت بعض أزهارك الضائعة الأرج، فقال من يوم تعلقنا بجنابكم. وطال ترددانا إلى أبوابكم، وزاد كذبنا لكم في المدح، وأعرب قمرينا فيكم بكثرة الصَّدح، وكان يتجارى بلا رأي أسدّ. في حق خليلنا الشيخ إبراهيم الهندي لفرط الحسد.

وربما حلم الشيخ في حقّه، وقابل كذبه بأحسن ما يكون من صدقه، وتشذيب الأغصان زيادةٌ في ثمرها لا نُقْصَان، ولم يَزَلْ إلى اليمن متردداً، حتى ثبّطه الموت وأقعده الرّدى، وضربه بحسام قاصم. وأغرقه بطوفان من المنيّة ما منه عاصم. وله شعرٌ يَملا، وكأس نظم بالمدام يُملى، اخترت له من قصيدة قوله:

أرَّقَ الـجـفـن دَمْـع عَـيْـنـي الـغـزيـر وسـقـانـي كـأس الـحِـمَـام الـهَـجِـيْـر

وغـدت نـار أضـلـعـي فـي الـتـهـاب كـل يَـوْم يَـزْداد فـيـهـا الـسَّـعـيـر

وفـؤادي كـم فـيـه جـرحٌ مـن الـبـيـن وصَـبْـري بـالانـقـطـاع جـديـرُ

وكـفـى أنـنـي أسـيـر غـرام وشـجـونٌ يـشـيـب مـنـهـا الـصّـغـيـر

قـد رَمَـتْـنـى أيـدي الـخـطـوب بـقـوسٍ لـم يَـصُـنْ عـن سـهـامـهـا الـتَّـحـذيـر

---

(١) انفرد بذكره.

وجوى القَلْب يا أخلائي أضنى كَبِدي والفؤاد دام حسير
لست أنسى حرارة البين يوماً مذ خلا الحَيّ واستجدَّ المسير
خلّفوني للنّائبات وحِيْداً قلّ عِنْدي معاونٌ ونَصير
كان قَصْدي اللّحاق بالركْب لكن بعد قصّ الجناح كَيْف أطير
يا أهيل الوداد رِقّوا لِمُضْنى بَعْدكم دأبه البُكا والزَّفير
ما رقا دمعه ولا غَمَض الطَّرف وعن قَلْبه تجافى السُّرور
عانَدَتْه الأيام من غَيْر ذنْب وقَضَتْ جورها عليه الدّهور
ما احتيالي وقد بلاني زماني بالتّنائي وغاب بدري المُنير

الشيخ محمد الرَّقَباوي الحجازي الوافد إلى اليمن(١)

هذا شاعرٌ مفلق، فَتح له باب الإجادة وهو في وجه غيره أغلق. ما تقلَّدت أجياد الأقلام بأغلى من لآلىء شعره. ولا تختّمت راحة الأوراق بأنفس من يَوَاقيت نثره. أسمعني بعض سادات (الشرف)(٢)، من نَظْمه ما سَلّم له الدرّ بالفَضْل واعترف. إلا أني لم أحرص على نَقْله، حتى يَزْداد به أبيض طرسي في نضارته وصَقْله، فأسفت بعد الفَوات على ما ليس براجع، وندمت على إخلالي في اقتناص ذلك الطَّير الساجع؛ لأن شعره خفيّ مغمور، على أنّ كل بيت منه بيد الإجادة مَعْمور، إذا هَبّت نسيمه بالشميم، كادت أن تبعث من العظام الرميم.

وكان عندي له قصيدة، وعقود نَظْم نضيدة، تعدّ من ربات حِجَاله، وخيل قريضه التي ركضت من العروض في مجاله. ذهب بها فلك يدور، ولم يبق إلاّ مطلعها الذي هو من مطالع البدور. وقوله قوله:

لك الله قف بي إن مررت على الرَّسم تروِّي ثراه أدمع العين بالوَسْمي
فأفديه رَسْماً دارساً فعلت به حوادثه فِعْل الصّبابة في جِسْمي

(١) نفحة الريحانة ٤: ٥٩٩ وخلاصة الأثر ٣: ٤١٥.

(٢) ناحية من اليمن معروفة (انظر معجم البلدان والقبائل اليمنية: ٨٦٠).

وإن زهقت روحي به عن صَبَابة فأنت بريءٌ في الذي كان من إثمي
دَعَتْني به دارٌ قضيت بها الصِّبا وَنِلْت بها اللَّذَّات عن أوفر القسم
أجيب صداها إذ تنوح كآبةً بِتَلْبِيَة ما لا أجيب به أمي
وأبكي مع الورقا على عَرَصَاتها وأنظم دمعي بالبكا غاية النظم
أبِنْ لي فدَتْك النفس ما فَضْل عاشق يشحّ على ترب المعاهد باللثم

قوله: ما لا أجيب به أمّي. المعنى: أنه يجيب صدى الديار الدراسة ملبياً له ما لا يجيب ولا يلبّي به أمه إذا دعته، وإنما خصّ به الأم لِعِظَمِ حَقِّها على الولد.

واعلم أن لنا هنا فائدة تذكرها دعا إليها البحث واقتضاها المقام وإن طالت وخالفت موضوع الكتاب. فأقول أورد فخر الدين عبد الله بن محمد النجري رحمه الله تعالى في شرح الخمسمائة الآية في سورة الإسراء عند قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أنّه قال: لو أدركت والدي أو أحدهما. وقد استفتحت صلاة العِشاء وقرأت الحمد لله فدعتني أمي يا محمد، لأجبت: لبيك. انتهى ما أورده رضي الله عنه[1].

قال مولانا الوالد قاضي القضاة جمال الدين محمد بن الحسين بن أحمد الحيمي الكوكباني عليه السلام، ما لفظه: هذا الحديث فيه مباحث:

أحدها: أن يقال: كيف صَحَّ التعبير بقوله أو أحدهما؟ مع قوله في آخر الكلام فدعتني أمّي.

الثاني: ما وَجْه تَخْصيص صلاة العشاء من بين الصَّلوات.

الثالث: كيف صحّ التكلم في الصلاة؟

---

(١) في هامش (ش) في التعقبات للحافظ السيوطي حديث طلق بن علي: لو أدركت والدي أو أحدهما وأنا في الصلاة وقد قرأت الفاتحة تناديني يا محمد لأجبته لبيك، فيه بشر بن معاذ روى الموضوعات، قال السيوطي أخرجه البيهقي في الشعب، وقال بشر ضعيف انتهى، فينظر في الشعب هل يوافق ماذكره القاضي أم لا من اللفظة.

الرابع: ترتيب ذلك على قوله: وقرأت الحمد لله والحكم واحدٌ في أركان الصلاة جميعاً.

والجواب:

أما عن الأول: فبأن يقال: إن قوله: فدعتني أمي بيانٌ للمكنّى عنه بقوله: أو أحدهما. وأن المراد به الأم كما تقول لرجلين: يدخل إليَّ أحدكما والذي أريده زيدٌ منكما، فإن مثل هذا التعبير صحيح.

وأما عن الثاني فلِفَضِيلة صلاة العشاء حتى قال بعضهم: إنها هي الصلاة الوسطى أو إنها في وقت يجوِّز فيه فوات إجابة الأم للاشتغال بالنوم ونحوه. فإن الأفضل في صلاة العشاء عند كثيرين تأخيرها إلى العتمة بخلاف سائر الصلوات فلا يخشى فوات الإجابة بعدها.

وأما عن الثالث: فلا يقال: لعله قبل تحريم الكلام في الصلاة؛ لأن الأم وغيرها على سواء بل يقال: لعلة حرم الكلام في الصلاة ورخص في إجابة الأم، ثم نسخ وعمّ الحكم. أو يقال: إذا دعته لأمر مهم يتضَيَّق مثله كما نص أهل المذهب على الصَّلاة في قولهم: ويتوجه واجبٍ خشي فوته.

وأما عن الرابع، فلأن الدخول المجمع عليه في الصَّلاة إنما يكون بعد قراءة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ لأن منهم من يقول: إن التكبيرة ليست من الصلاة، وإن بسم الله لرحمٰن الرحيم ليست من القرآن أو يقال: إنه لا يوصل بين الصّفة والموصوف إلا لعذر وإجابة الأم عذرٌ في قطع قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ عما بعده من الصفات، فيحقق ذلك. والله تعالى أعلم. انتهى كلام والدنا رحمه الله تعالى عن نظره الثاقب المفيد. نفع الله تعالى به.

فإن قلت: فأي ثمرة تظهر لقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لو أدركت والدي» مع أنها كانت لا تحصل منه الإجابة في الصّلاة إلاَّ لأمه صلى الله عليه وعلى آله وسلم دون أبيه. فذِكْر الأب مع ذلك مع لغو الكلام، فكان حَقّ اللفظ

في الحديث الشريف أن يقول: «لو أدركت أمي وقد استفتحت صلاة العشاء» إلى آخر كلامه عليه أفضل الصلاة والسلام.

قلت أنا: بل لتلك العبارة منه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثمرة وليست من لغو الكلام ولا من الفَضْلة المستغنى عنها لأنه نبّه فيها على أن حق الأم آكد من حق الأب. فمعنى الحديث أن أبويه لو كانا حيين معاً فدعياه جميعاً لأجاب أمه، ولم يجب أباه تأثيراً لحقها على حقه. ثم قال بعد ذلك: ولو كان أحدهما حياً وهي الأم، فدعته لأجابها لأنه لو قال: «لو أدركت أمي وقد استفتحت صلاة العشاء وقرأت: ﴿الحمد﴾ فدعتني: يا محمد، لأجبت: لبيك» لما كان في هذه العبارة إشعار منه صلى الله عليه وعلى آله وسلم على أكادة حق الأم على حق الأب. وكانت بمعزل عن إصابة هذا الغرض أو يكون الإشعار بذلك غامضاً لا ينتبه له إلا الأذكياء.

وما ذاك إلا أنه يحصل في الحديث مع مفسريه الاضطراب والنِّزاع. فمنهم من يقول: حقّ الأم آكد من حق الأب؛ فإنه نص صلى الله عليه وعلى آله وسلم على عظم حقها بقوله: «لو أدركت أمي» إلى آخر كلامه.

ومنهم من يقول: بل حق الأب آكد لأنها إذا كانت تحصل منه الإجابة لأمه صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو في الصلاة، فبالأولى لأبيه لأنه ذكرٌ والذكر حقه آكد من حق الأنثى كما في المواريث، وأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم إنما أجابها لأنها حيّة وأبوه ميت. فلو كان أبوه حيّاً لأجابه ولم يؤثر حقّها على حقّه.

وهذه العبارة التي هي قوله: «لو أدركت أمي» إلى آخره مظنّة للنزاع المذكور كما ترى، فأراد صلى الله عليه وعلى آله وسلم بقوله: «لو أدركت» والذي قطع الذريعة إلى النزاع حتى لا يبقى للمقال فيه مجال، وأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم يريد التنبيه لأمته على أنهم يؤثرون حق الأم.

كما أخرج البيهقي في حديث مرسل عن مكحول عنه صلى الله عليه وعلى

آله وسلم أنه قال: إذا دعتك والدتك وأنت في الصلاة فأجبها. وإذا دعاك أبوك فلا تجبه حتى تفرغ من صلاتك[١].

ومثله أخرج ابن أبي شيبة عن محمد بن المنكدر، ويؤيد هذا ما رووي عن بهز بن حكيم عن أبيه، عن جده قال: قلت: يا رسول الله؟ قال: «أمك» قال: قلت: ثم من؟ قال: «ثم أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك». قال: ثم من؟ قال: «أباك ثم الأقرب فالأقرب»[٢].

وقال العلماء في قوله تعالى من سورة لقمان عليه السلام: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾. إن حقّ الأم آكد من حق الأب لأنه تعالى بيّن زيادة نعمة الأم على الولد على نعمة الأب بالحمل والفصال. فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾. قيل: معناه ضعفاً على ضعف، عن الضحاك. وقيل: شدة بعد شدّة عن ابن عباس.

وقيل: ضعف الولد وضعف الأم. وقيل نطفة الأم ونطفة الأب، وهما ضعيفان عن أبي مسلم. وقوله: وفصاله أي: فطامه بانقضاء عامين. وروي أن بعض العرب حمل أمه على ظهره إلى الحج وهو يقول في حدائه:

أحمل أمي وهي الحمالة ترضعني الدرّة والعلالة

ولا يجازي والد فعاله

الدِّرة بكسر الدال المهملة المشددة كثرة اللبن، والعلالة بضم العين المهملة البقية. ومما يقضي بأكادة حق الأم على حقّ الأب أحد الأقوال الثلاثة المذكورة في (مهذب) الإمام الشافعي[٣] رضي الله عنه: إن من لم يَقْدر من نَفَقة والديه إلاّ على نفقة واحد فقط. إن الأم تقدّم في الإنفاق على الأب لأنهما قد استويا في الولادة، وزادت الأم بالحمل والوضع والتربية. والله تعالى أعلم.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤ : ١٧٣.

(٢) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح (كشف الخفا ١ : ٢٢٥).

(٣) يعني كتاب المهذب في فقه الإمام الشافعي وهو من تأليف أبي إسحاق الشيرازي.

وقد اقتضى الحال استيفاء هذا البحث. فالحديث ذو شجون وإلا فحَقٌّ هذا أن يذكر في غير هذا الكتاب.

واخترت من نظم صاحب الترجمة قوله من قصيدة طويلة، يمدح بها بعض الملوك وذلك قوله عند ذكر المحبوبة:

فكأنه برقٌ تألق واختفى ... وكأنني بجمالها لم أظفر
أجرى عليها والموانع جمّة ... عَنْها وأجمل ما يكون تصبّري
عَهْدي بها والفود غِرْبِيْب الدُّجى ... لم يعله فلق الصّباح المسفر
والآن طال العهد فِيما بَيْنَنَا ... ومحوت أحرف حبّها من أسطر
وجلا المشيب دجى الشَّباب فلم أعج ... بشقائق النعمان خوف المنذر
وَرِغبْت عن ذِكر الرّباب وإنما ... جاد الخيال بها ولَمَّا أشعر

قوله: وجلا المشيب، قد قصد فيه معنى بديعاً ولكنه لم يسعده اللفظ على تأديته، وإيراده في أحسن القوالب؛ لأنه ذكر شقائق النعمان بن المنذر. ولعلّه يريد خدّ المحبوبة، ولكنه لم يدل عليه شيء في النظم(١). وقد حسن ذكره للمنذر الذي هو أبو النعمان، وتوريته به والكناية به عن المشيب.

وقد رشح للتورية بقوله: خوف المنذر، لأنه بلا شك مُنْذر عن الغيّ زاجرٌ عَمّا يقترفه الشّبان. قال تعالى وجاءكم النذير، فالمعنى في الصُّورة حسنٌ لطيف إلا أن اللفظ لم يطابقه.

ولما رأيت أنا قلق سَبْكه لهذا المعنى، سبكته سبكاً ربما أنه أدّى المعنى مطابقاً للفظ. فقلت:

قد أنذر الشّيب الملمّ بعارضي ... عن لَثْم من أضحت علينا تَجْتَري
فشقائق النعمان من خدٍّ لها ... قد زَهّدت فيه لسان المنذر

---

(١) علق في (ش) لا يحتاج إلى أكثر مما في البيت ولقد شاحه القاضي فيما ليس فيه مشاحة اهـ.

وقلت أيضاً:

شقائق النعمان في خدّها ... بايَنتها عن شَيْبي العارض

لما بدا والدهَ زاجِراً ... بأفصح الوعظ على عارضِي

وقلت أيضاً:

شقيق نعمان خدّ ... زهدت بالشّيب فيه

تركته إذ نهاني ... سماع وَعْظ أبيه

صالح بن إبراهيم الحكيم الطبيب المكي[1]

حكيم مهر في طبه. وأعطي ما أعطي موسى[2] من ربّه، ما أمسك من الروض عضو غصن ولا جسْ، إلا أزال السّواد من خدّ الشقيق واليَرَقّان من حدق النرجس. وهو مع ذلك أديبٌ، لم ينزل من أودية الشعر بمحل جَدِيْب. بل قد حلّ ربعاً مخصباً، يحكي بإدهمامه ريعان الصبا.

فله نَظْمُ مشتهى قد بلغ سِدْرة المنتهى، غذاؤه هاضم لمن باراه، ورام مسابقته في ميدان العروض وجاراه. وقد وَصَلَ إليّ منه تِمْثال، تدلّ على أن حسن إشادة أبياته ما له مثال. من ذلك قصيدة عارض بها قصيدة الهِبّي[3]، وقال لنسمات لطفه في ذلك الروض هُبّي. منها قوله:

يا نَسْمةً هَبَّت بعَرْف النّد ... بالله كيف الظاعنين بَعْدِي

هَلْ هُمْ على عهدي وحِفْظ عهدي ... أم غَيَّروا ودّي بطول عهدي

فخبّري صَبًّا حليف وَجْدِ

سقى رباهم مربع الغيد الدُّمى ... الطّالعات في الخدور أنجما

---

(١) انفرد بذكره.

(٢) كذا لعل صوابه عيسى عليه السلام الذي أعطي إبراء الأكمه.

(٣) هو محمد بن عبد الله الهبي الصعدي ذكره صاحب نشر العرف وذكر قصته مع القطبي وأورد قصيدته كاملة انظرها هناك (نشر العرف ١ : ٢٣٢ ـ ٢٣٧).

المودعات الرّاح خدّاً وفما الرّاميات للقلوب أسهما
تَرمي العميد في الهوى عن عَمْد

الشّاهرات البيض من سود الرّنا الطّاعنات بالقُدود لا القَنا
المُسْبلات الجَعْد ليلاً أدكنا وطلعة تحكي الصّباح في السنا
فهي البدور في ليالي الجَعْد

يا جيرة حَلّوا بوادي الأَجْرَعِ وَطنبوا بالمنحنى من أضلعي
سقى العقيق من عقيق أدمعي حَمَامة الوادي بهم لي فاسْجعي
وردّدي حديث أهل ودّي

هل عِنْدهم أني حديث سُهْدي سمير أشجاني أنيس وَجْدي
ومَدْمعي يُحكي الدما بخدّي يا لَيْت شِعْري هل يفُوا بِعَهْدي
فينطفىء مني سعير الوَقْد

يا بَدْر تمّ يا غزال حاجر صِلْني فدَتْك الرُّوح يا مهاجر
إلى مَتَى يا ظَبْي أنت نافرٌ أما لهذا البُعْد منك آخر
عَمْري لقد جاوزت فيه حدّي

بحُسْنك الباهي بُدّر الثّغر بساعة الوَصْل بهَجْر الهَجْر
بِطَلْعه الفَخْر بنور الفجر بِبَارد يطفي لهيب جمري
إلاَّ عَطَفْت يا قويم القَدّ

بالسّحر من جفن لها روت بهر ومقلة بها الفُتُور والحَوَر
بِمَبْسم تنظّمت فيه الدُّرر وطَلْعه تَحكي الصّباح والقَمَرْ
إذ ابَدَتْ في شَعْرك المسودّ

بالجِيْد والخدّ الأسيل الوردي بِقَلْبك القاسي يلِيْن القَدّ

بِنَاحل أعياه حَمْل البَنْد[1] بليلةٍ كان الوِسَاد زندي
سعدت فيها حين بتّ عندي

بها شَرِبْتُ الراح من كأس اللّمى مدامةً تطفي اللهيب والظَّمأ
حَلت شِفات الثّغر منك والفما فدَيْته بالدرّ إذ تنظّما
تشابه الثَّغْر ونَظْم العِقْد

ممزوجةٌ بماء ورد الخدّ والخال فاح عَنْبراً بندٌ
وَزَهَرَتْ لآلئاً في العِقْد كأنّها كواكبٌ للسَّعد
في أفقها محكّمات النَّضد

عَسَى اجتماع يَسْترد عَهْدي بالنّازلين في الحِمَى ونَجْد
فإنهم والله جُلّ قَصْدي ومَطْلبي وغايتي وسَعْدي
فكم يُعِيد رَبّنا ويُبْدي

يا نازلون بالغَضى شبّ الغَضى بمُهجتي السّاكنون بالإضا
بلَيْلة الوَصْل بساعات الرِّضى ببارق بالأبرقين لي أضا
مواصل الَّلمع صدوق الرَّعد

إلاّ رعَيْت يا رشا ودادي فكَمْ رعيت في رُبَى فؤادي
سَلَبْت منّي بالجفا رقادي أشمَتّ بي يا مُنْيتي الأعادي
وعَزَّ صبري فيك قَلَّ جهدي

ما كان هذا البعد في حِسَابي كَيْف أضعت فاتني جَنَابي
دأبك هَجْري والتَّحيب دابي أمْعَنْتَ في صدّي وفي عذابي
كم ذا تذيب مُهجتي بالصَّدِّ

(١) البند كأنه حلية ويطلق على القيد أيضاً والعلم ومن الشطرنج الفرزان (قصد السبيل ١: ٣٠٢).

هَـلاَّ رحـمـت جِـسْـمـي الـسَّـقـيـمـا هَـلاَّ رعـيـت ودّي الـقـديـمـا
هـلاَّ رقـيـت قـلـبـي الـسّـلـيـمـا ألـم تـكـن بـحـالـتـي عـلـيـمـاً
دع عـنـك قَـوْلَـيْ حـاسـد وضـدٍّ

(الـمـرسـلات) أدمـعـي إلـى مـتـى (والـنـازعـات) مـهـجـتي في (هـل أتـى)
أرقـب فـيـك (الـنـجـم) لـيـلـي مـلـفـتـاً من أين يأتي (يوسف) الحسن الفتى
الـمـفـتـدى بـغـيـر يَـبْـخـس الـنَّـقْـد

رِقّ لـرقِّـي يـا رقـيـق الـخَـصْـر لـم يَـرْق دمـعـي مـذ هـوَيْـت هَـجْـري
شَـرَّدت نـومـي مـع عـظـيـم صَـبْـري ألـيـس عـشـقـي فـي هـواك عـذري
وشـاهـدي سُـقْـمـي ودَمْـع خـدّي

مُـرَّ غـرامـي فـي هـواك يَـحْـلـو ومـا جَـمـيـل فـي الـهَـوى وجُـمْـل
هـذي دمـوعـي وابـلٌ يَـنْـهَـلّ يـسـقـي بـه الـجَـدْب ويُـرَوي الـمَـحْـل
أمـا تـراهـا مَـشْـربـي وَورْدي

فـارحـم خـشـوعـي ودِمَـا دمـوعـي ومـا اجـنَـت مـن الـهـوى ضـلـوعـي
أيـام وَصْـلـي يـا رشـا ربـيـعـي فـتَـنْـتـنـي بـحـسـنـك الـبـديـع
كـأنـنـي أهـل الـغـرام وَحْـدي

أذكـر لـيـالٍ كُـنْـت فـيـهـا عِـنْـدي أجـنـي مـن الـوَجْـنـات زَهْـر الـخـدّ
وأحـتـسـي مـن بـارد وشُـهْـد وطـوق ذاك الـجِـيْـد طَـوْع زنـدي
مـعـانِـقِـي فـي طَـيّ نَـشْـر الـبُـرْد

لـم نـخـش مـن واشٍ ولا رقـيـب يَـمْـنـع قَـطْـفـي وردك الـنّـصـيـبـي[1]
ومـن شـذاك عَـنْـبـري وطِـيْـبـي حُـبّـك والله غـدا نَـصِـيْـبـي
ودَيْـدَنـي عـلـى الـلّـقـا والـبـعـد

أعـد عـهـوداً بـالـلّـقـا تـقـضَّـت يـا لَـيْـتـهـا عـادت وقـد تـمَـضَّـت

---

(١) النصيبي: نوع من الورد سبق ذكره.

فمهجتي من بعدها تلظّت هدّت فؤادي بَغْدها ورَضّتْ
عسى تعاد بالمعيد المُبْدي

الفقيه العارف محمد بن دخيل المكي الزمزمي[(١)]

عارف ما بَيْنه وبين العلم سوى أبيه دخيل. وفاضلٌ أقسم أن دهراً جاد به غير شحيح ولا بخيل. وماجدٌ هزّ جذوع الفنون فتساقط عليه رطبها إلاّ جذوع النخيل. ما لجرح الجهل غير علمه من آس، فلو أنصفه جدّه خليفة[(٢)] ابن أبي الفرج الزمزمي لضمّ عطر عِرْفانه إلى نشر الآس، ولو كان في عَصْر جده عبد العزيز[(٣)]. لباهى بقلائد فوائده ما برز من الإبريز، وزاد به تطاولاً عن حميّه، ومزج بِشَراب نَظْمه النهلة الزمزمية، فإذا حلاوتها أصدق من حلاوة كل ذي حلاوة. وإذا إناؤها الملآن مما يحمل تعظيماً له على العِلاوة، ممن خدم سقاية العباس وزمزم. وتَرَنَّم على مدحهم على ذلك حادي الركائب وَزْمزم، فامتلأت بشراب علومهم الدَّوارق، ولاحت معها لَمَعَات باكيات الخيف وبارق. محدثٌ راوي. محيطٌ بالإسناد حاوي، فهو صَحيح السند، بين الغِيْل والسند. عالمٌ لا يعد من نصفه، إذا أغرق مادحه في وَصْفه، فإذا هطلت من الثناء على ساحته أمزان، عُدّ ذلك نقصاً فلا يدري مادحة أشان المدح سجاياه أم زان.

لم تزل نسيم الأخبار تَحْمل نَشْره، وكلّ وافد من البيت الحرام يرى من مطرف ذكره نَشْره، فذاك عرف أطيب من عَرْف الصَّبا. وهذا مطرفٌ أرق مما نَسَجْته رياض الربا.

وله مؤلفٌ في القرعة والفأل، يفتح مما أحبه الخاطر مُحْكم الإقفال. وله إلى بَعْض علماء اليمن، ومن يُعَدّ في صَحيفة الوجود من آيات الزمن، مكاتبات نَثْراً ونظماً يقول الأدباء: نحن إلى مائها القراح نتلَهّب ونَظْماً، أبرز فيها ما يدلّ على

---

(١) .انفرد بذكره.

(٢) توفي سنة ١٠٦٠هـ (خلاصة الأثر ٢:١٣٢ المختصر من نشر النور والزهر: ١٩٠).

(٣) هو عبد العزيز بن محمد الزمزمي المتوفى سنة ١٠٧٢هـ (المختصر من نشر النور: ٢٥٩).

فصاحته. وقَذَفَتْ خلجان أنامله من اللآلئ ما ينبى على سَعَة البحر من راحته.

ومن شعره الذي جمع من المحاسن الأطراف. قوله من قصيدة يمدح بها آل الحسن الأشراف:

هبّ صبحاً في السّفح نشر النعامىٰ ... يا له الله قد أهاج غراما
ورَوَى بالتَّحقيق أخبار سُلْمى ... مُدْمجاً في الأثناء منها سلاما
زادني في مَحَاسن عزّ منها ... قُرْبها لوعةً فديت هياما
لَيْت شِعْري على البِعاد رَعَتْ لي ... عَهْد ودّ مؤكد وذِمَاما
أم تراها أضاعت العَهْد تَيْهاً ... ودلالاً لم تَذْكر المُسْتهاما
شيمةٌ في الملاح نَقْض عهود ... لا ترى نَقْضها عليها حراماً
وأرى شيمة المحبّين صبراً ... لا يوازى بشيمة أو يساما

منها في المدح:

الشَّريف الكريم أصلاً وفَرْعاً ... نَسْل قوم أضحوا كراماً كراما
غيثُ جُود إذ هَمَى فوق قَفْر ... فتَحَت أرضه عليه الكماما
فكأنّ الغمامة استودعته ... فأفاضته في الرّياض انسجاما
غير أن النَّوال منه نضارٌ ... وأحالته بعد ذلك إلى ما
قد حَمَى عَزْمه حِمَى البيت لَمّا ... هزّ في كفّه الكريم حساما
وحَمَى الكَعْبة الشّريفة والحِجْر ... ورُكْنَا مشرّفاً ومقاما
قل لمن رامه بسوء لقد سَدَّد ... فاحذر إليك منه السّهاما
أسدٌ صائلٌ وليث نزال ... أثمرت سمره رؤوسًا وهاما
صاعدٌ لو يريد نَيْل سِمَاك ... في السمٰوات نال منه مراما
فَسَح الله عمره في نعيم ... ما توالى زمانه أيّاما
وأهاجت نَسيم صُبْح على غصـ ... ـن تثنى من الغرام حَمَاما

قوله: وكأن الغمامة استودعته المعنى في هذا المصراع أنّ الغمامة كأنها استودعتِ بتَغيير الصيغة جود الممدوح فألقته على الرّياض قَطْراً من متنزّل الأمطار.

ولكن الجود المذكور كان من النُّضار وهو الذهب، ولكنه استحال في جوف السّحاب إلى ماءٍ دافق، وشتان بين من جاد بالذهب وبين من جاد بالماء.

نعم هذا المصراع الوارد هنا هو مضمن من منظومة الهمزية المشهورة في مدحه صلى الله عليه وعلى آله وسلم. نظم إمام الأمداح النبوية المباركة محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج بن هلال البويصيري رضي الله تعالى عنه، وقبله بيتان. وذلك قوله:

شمس فضل تحَقَّق الظن فيه ... أنه الشَّمس رفعة والضياء

وإذا ما ضحى محا نوره الظل ... وقد أثبت الظِّلال الضُّحاء

فكأنّ الغمامة استودعته ... من أظلّت من ظلّه الدفاء

هكذا أثبته العلامة شهاب الدين أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي، المكي رحمه الله تعالى في شرحه للهمزية المذكورة بالدال المهملة وبفائين. قال[1]: الدففاء جمع داف كعلماء جمع عالم. وهم جيوشه سُمّى الجيوش بذلك لأنهم يدفّون نحو العدو، أي: يسيرون إليه لدَفْعه واستئصاله.

وحاصل الجواب: أن ذلك التّظْليل الذي كان قبل النّبوة كان لحِكْمتين.

أحدهما: الإرهاص كما تقرّر.

وثانيهما: إعلامه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بما سيؤول إليه أمره من أن الله تعالى سيجعل له أمّة أكثر الأمم. وأنهم قرون متفاوتون، وإن كل قرن يَسْتمد من القرون الذين قبلهم. وأن الكل مستمدون وممدّدون من ظلّه ﷺ، وحينئذٍ فلا تنافي بين محو نوره الظل، وبقاء الظل معه عند تظليل الغمام له؛ لأن المحو هو الأصل المستمر. والبقاء إنما كان على خلاف الأصل للحكمتين المذكورتين:

أحدهما: الإرهاص.

والثاني: الإعلام له بعموم ظله المَعْنوي على الأمة من أولهم إلى آخرهم.

فتأمّل ذلك فإنه مهمٌ. بل لتغليق معنى هذا البيت على الشارح.

---

(١) المنح المكية ٢: ٦٣٩.

قال: إنه وجد هذا البيت في نسخةٍ، وإنه غير مفهوم المعنى وبسبب انغلاقه عليه جعل الضمير المفعول في: استودعته للظل، لا يقال: بل ما قاله من رجوعه للظل يتَّضح به المعنى. لكن إن جعلنا الدففا الطيور، ويكون في البيت، حينئذٍ التَّلميح إلى قصة، هي أن الطيور كانت تظل الأنبياء قبله كداود وسليمان على نبينا وعليهم جميعاً الصلاة والسلام. بل بني إسرائيل (وظللنا عليهم الغمام) وحينئذٍ، فكأنه يقول: الغمامة لما أظلّته استودعت الأنبياء الذين أظلتهم الطيور من ظله لأنا نقول هذا المعنى لا يطابق اللفظ مع ما فيه من البعد والتكلّف.

فَوْزن دَفَفَا فَعَلاً، وهذا إنما يكون جَمْعاً لفعيل إذا كان وصف ذكرٍ عاقل بشروط أُخر، أو لما دَلَّ على سجية حمدٍ أو ذم بشروط أخر؛ كشجاع وشُجَعاً، أو صالح وصُلَحَا وشاعرٍ وشعرا وجاهلٍ وجهلاً، نعلم أنه لا يصح حمله على الطيور أصلاً؛ لأنه إنما يكون جمعاً لصفة عاقل مذكر أو سجية حمد أو ذم بشرطها، على أن الذي سمع في الطيور دفوف في العقاب، وفعلا لا يجمع عليه أصلاً، ودففاً فيما يطير بجناحه، ولا يوصف وهو وصف لغير عاقل، ودفيف، وهو ليس وصفاً للطائر بل لحركته، وبتسليم أنه وصفٌ له هو عن عاقل.

فإن قلت: المعنى الصحيح أن الغمامة لما أظلّته استودعت الظل الطيور التي أظلّت الأنبياء عليهم السلام من ظلّه، فَهَّلا يحمل النظم عليه.

قلت: يعارضه ما تَقَرَّرَ في قاعدة جمع فُعَلا، وبتسليمه تجوّزاً في الجمع فالنظم ينبو عن هذا المعنى بكل وجه كما هو واضح.

فإن قلت: ظاهر كلام الناظم في البردة أنه احتاج لَتْظِليل الغمامة لتقيه حرّ الشمس، فينافي ما مرّ أنّ تظليلها لم يكن للحكمتين السابقتين.

قلت: ما أفهمه كلامه، ثم يعارضه أن تَظْليلها لم يكن إلا قَبْل النبوة إرهاصاً كما مَرَّ. ولو كان لما ذكر كان بعد النبوة أيضاً.

فإن قلت: قد ظُلّل صلى الله عليه وعلى آله وسلم عند رميه الجمرة بثوب، وهو يشعر بالاحتياج.

قلتُ: هذا من ضرورة الجبلّة البشرية، وما نَحْن فيه من حيث الحقيقة والأمور الأصلية، فتأمله.

وأيضاً فهو صلى الله عليه وعلى آله وسلم بَرَزَ للشمس في عرفة ولم يظلل إشارة إلى أن السّنة للمحرم أن يَبْرز للشّمس، وظلل عند المرمى، إشارة إلى أنه لا يسن البروز إلى الشّمس. كذا ذكروه، وعليه فلا إشكال أصلاً ومرّت قصة تظليل الغمام وروايتها في شرح قوله:

وأتاها أن الغمامة والشر ... ح أظلّته منهما أفياء

انتهى كلام ابن حجر رحمه الله تعالى بألفاظه وحروفه[1].

وقال العلامة الأديب شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي رحمه الله تعالى، وسقى ثراه في كتاب الريحانة[2] له، في القسم الأول من الكتاب في محاسن الشام ونواحيها. وذلك في ترجمة حسن بن محمد البوريني رحمه الله تعالى ما لفظه: ومن فوائده أنه سأل عن قول صاحب الهمزية:

شمس فضل يحقق الظن فيه ... أنه الشمس رفعةً والضياء

وإذا ما ضحا محى نوره الظلّ ... وقد أثبت الظّلال الضحاء

فكأنَّ الغمامة استودعته ... من أظلت من ظلّه الدفاء

فذكر ما للشارحين فيه من الكلام الذي لا محصّل له، فخالفهم فيما قالوا من الدفا بفائين وأظلت فيه بالظاء المشالة. وذكر كلاماً لا طائل تحته بناء على أن أضلّت بالضاد من الضلال. يعني الإضاعة والدفا بمعنى جماعة مسرعة من الجيش والملائكة. وفيه خبط وخلطٌ والذي عندي فيه أنه تحرّف عليهم أجمعين. وإنما هو هكذا:

فكأن الغمامة استودعته ... مُذْ أظلت من ظله الدقعاء

فاستودعته واظلت مَبْنيان للمَفْعول بصِيْغة المَجْهول، ومذّ بضم الميم ودال

---

(١) انظر المنح المكية ٦٣٩ ـ ٦٤٠.

(٢) ريحانة الألباء ١: ٥٠.

معجمة. والدّقعاء بدال مفتوحة مهملة وقاف وعين مهملة، ثم مدّ، بمعنى الأرض، وترابها كما هو مصرَّح به في كتب اللغة. والمعنى: أن الغمام إنما أظلته لئلا يمس ظله الأرض. فلذا أخذه وديعة عنده ليصونه من مس التراب.

وهذا معنى بديع يعرفه من ذاق حلاوة الشِّعر وعرف مغزاه. ولقوله: مذ أظلت إلخ مَعْنيان: أحدهما مذ مس ظلّه التراب. والآخر مذ صارت الأرض كلها في حمايته لأنه ظِلُّ الله تعالى. وفي معناه رباعيّة له:

ما جرَّ لظل أحمد أذيال في الأرض كرامةً كما قَدْ قالوا
هذا عجبٌ وكم به من عجبٍ والنَّاس بظله جميعاً قالوا

وفي الثانية المنسوبة للإمام السّبكي التي نظم فيها معجزات النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم. وشرحها بعض المتأخرين:

لقد نَزّه الرَّحمٰن ظلّك أن يرى على الأرض مُلْقى فانطوى لمزية
وأثر في الأحجار مَشْيك ثم لم يؤثر بِرَمْل حل بطحاء مكة

قال: شارحها. قيل: إنه عليه الصلاة والسلام كان لا يقع ظلّه على الأرض؛ لأنه نور روحاني:

ما لطْه رأى البرية ظلاّ هو روحٌ ولَيس للرُّوح ظلّ

والنور لا ظل له، وكذا الرَّوحانيات كالملائكة؛ لأنها أنوارٌ مجرّدة. قيل: ولذا أظهر الأمية لئلا يقع ظل يده على اسم الله تعالى لو كتب. ولا يخفى ما فيه. وقيل: لم يرَ ظله على الأرض فيوطأ محلَّه.

ونقل أن بعض اليهود: كان يطؤا ظل المسلمين إهانةً لهم فَصِيْن لئلا يمتهن، وقيل غير ذلك.

وأما كون قَدَمَه صلى الله عليه وعلى آله وسلم يؤثر في الحَجَر دون الرّمل، فكان في ذهابه لغار ثور مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه. وكان يقول له: «ضع قدمك موضع قدمي، فإن الرمل لا ينم عليه لإرادة الله تعالى لإخفاء أثره عَمَّن

يطلبه من المشركين، ولان له الحجر إظهاراً بأنه لا يستعصي عنه، ولتكون به سمة ينجو بها من النار التي وقودها الناس والحجارة. ودلالة على شدة قلوب الكفرة وقسوتها.

انتهى كلام العلامة شهاب الدين الخفاجي رحمه الله تعالى الذي استطرده في ريحانته مسطوراً في ترجمة البوريني رحمه الله تعالى.

قلت أنا: قد لاح لي معنى النَّظم وتحريف في لَفْظِهِ غير ما ذكره هذان الفحلان، ومن تَقَدَّمهما من الفحول وما أشك أنه مقصد النظم.

نعم نصّ أهل اللغة العربية أن الظلّ بالظاء المشالة نقيض الضَّح بالضاد المعجمة المشددة المكسورة بعدها حاء مهملة، والضحّ هو الشَّمس.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يقعدن أحدكم بين الضّح والظلّ فإنه مقعد الشياطين» أو هو أعني الظل الشمس الفيء أو هو من السّحاب ما وارى الشَّمس منه، أو هو من النهار لونه إذا غلبته الشمس.

فالمَعْنى عندي في هذا البيت المستشكل مخالف لما قاله فيه العلامة شهاب الدين بن حجر رضي الله تعالى عنه، وأن لفظه كما روى في قوله: من أظلّت من ظلتّ الدففاء من أن من بفتح الميم في قوله: من أظلّت بمعنى الذي، وأن الدففا بفائين جمع داف كعلماء جمع عالم. وهم جيوشه، ومخالف لما قاله الشهاب الخفاجي رحمه الله تعالى؛ بأنه الدقعاء بالدال المهملة المشدّدة المفتوحة والقاف الساكنة بعدها عين مهملةٌ وألف ممدودة بمعنى الأرض وترابها.

وهو أني أقول: إن قوله: مذ أظلّت بالميم والذال المعجمة ظرفٌ، وأن الرفقاء بالراء والفاء والقاف والألف جمع رفيق يريد به الذين رافقوه صلى الله عليه وعلى آله وسلم أيام خروجه مع ميسرة غلام خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنهما الذي كان يختلف لها بالتجارة. وكانت الغمامة تظله في ذلك السفر قبل النبوة، وقبل تزويجه بخديجة.

ويكون لفظ البيت هكذا:

فكأن الغمامة استودعته مذْ أظلت من ظله الرفقاء

بضم الهمزة في قوله: استودعته، وضم التاء وكَسْر الدال المهملة مغيراً الصيغة وضمير المفعول المذكر فيه عائداً إلى الظلّ ومذّ بالمِيْم المضمومة والذال المعجمة ظرفٌ مبنيٌ. فالمَعْنى في البيتين قبل هذا البيت أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم شمسٌ، وأن نوره يُمْحي الظل، والعادة المعروفة أن ضحاء الشمس يثبت الظل. ولو أنه قال الناظم رحمه الله تعالى نفى نوره الظل بالنون والفاء لكان أحسن ليقابل النفي الإثبات. قوله: وقد أثبت الظلال الضحاء إلا أنه يفوته التجنيس بين قوله: محا وبين قوله: ضحا.

نعم، فلما كان معنى البيتين كما ذكرنا. قال: هذا البيت، فكأنَّ الغمامة أي ما كأني بالغمامة التي أظلّته أيام خروجه مع ميسرة، وأظلّته في عدة مواقف فإنه قد ورد عن مرضعته حليمة رضي الله تعالى عنها. أنها رأت غمامة تظلّه وهو عندها، وورد ذلك أيضاً عن أخته من الرضاعة.

ولما أقبل صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى طعام بحيرة الراهب جاء وعليه غمامةٌ تظلّه، فمعناه ما كأني بالغمامة إلا أودعت ظله عليه الصلاة والسلام لما محا نوِره فانفصل عنه، ولم يظهر لنوره أثر على الأرض فبقي عندها وديعة مذ أظلّت الرفقاء من ظله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى الآن، حيث قال: كانت تظلّه قبل النبوة، فإن تظليلها له إنما كان قبلها إرهاصاً وتأسيساً لنبوته كما أشار إليه ابن حجر في شرح قوله في الهمزية[1]:

وأتاها أن الغمامة والسرح أظلّته منهما الأفياء

معناه: وحيث كانت تمد عليه الأفياء الباردة في الهواجر وقاية من وهج الحرّ ولظى القيض فاستظلّ رفقاؤه في السفر من ظلّه صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقد

(١) المنح المكية: ٣١٥.

دخلوا تحتها معه ضمناً وشملتهم هذه الكرامة له صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وبهذا التفسير الذي فسرناه. البيت يتضح معناه اتضاح الشمس المنيرة الذي ثبت نورها الظل، فلا يبقى للإشكال فيه طريقٌ ولا اضطرابٌ للأقاويل فيه، بل يفهمه البليد وينتفي عنه ما قاله الشارح في هذا البيت أنّه غير مفهوم المعنى كما نصّ عليه العلامة ابن حجر في كلامه السابق، وما فَسَّرنا هذا البيت بهذا التفسير الجلي إلا لوضوحه وسلامته من التعسف والتّكلف وخلوّه عن النقد والطعن.

وما أظن أن الناظم قال إلا كما قلنا في تقويم عبارة البيت، فإن في التَّفسير الذي أورده العلامة ابن حجر رضي الله تعالى عنه غاية التعسف والتكلّف اللذين تأباهما الفطرة السليمة. وفيه من توجيه المعنى ما أفصح بمخالفته لمَقْصد الناظم في نظمه. ولم يقصد الناظم في نظمه بقوله: وإذا ما ضحا محا نوره الظل الظلّ على العموم، وإنما أراد ظل شخصه المكرم صلى الله عليه وعلى آله وسلم نفسه فقط، فهو شمسٌ مستقلة يمحو ظل نفسه؛ لأنه كان لا يرى له عليه الصّلاة والسلام ظلٌّ لأنه نورٌ روحاني. كما ذكر الخفاجي في كلامه الذي سبق، فإن من خصائصه عليه الصلاة والسلام، أنه إذا مشى في الشمس لا يَظْهر له ظلٌّ لطهارة ذاته عن كل نَقْص؛ ولأن الله عزّ وجلّ استجاب له دعاءه المشهور أن يجعله كله نوراً، فكانت بدنه في غاية الإضاءة التي لا تحجب ما يقابلها، ولئلا يقع ظله على التراب صيانةً عن وطيء محلّه.

فمعنى الناظم رحمه الله تعالى الذي قصده في بيته أن العادة الجارية من هذه الشَّمس المسَيَّرة في الفلك أنها تثبت الظلال فبيته هذا واردٌ على نَمَط التَّعَجُّبِ. ولذا قال: وكأن الغمامة إلى آخر البيت. وفيه إدماج لذكر تَظْليل الغمامة له عليه الصَّلاة والسلام، وإيماء إلى ما وقع منها قبل النبوّة، وإن كان قد ذكره فيما مضى من الأبيات حيث قال عند ذكر خديجة رضي الله تعالى عنها، وأتاها: أن الغمامة البيت، لكن هذه الكرامة مما يحصل الالتذاذ بذكرها ويحلو مكرّرها في أفواه من أخذت محبّة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأزمة قلبه، فلا وجه لقول

الشارح ابن حجر رحمه الله تعالى، فتأمل ذلك فإنه مهمٌ بل لتغليق معنى هذا البيت على الشارح.

قال: إنه وجد هذا البيت يعني قوله: وكأن الغمامة إلخ في نسخةٍ وأنه غير مفهوم المعنى لأنَّا نقول البيت مفهوم المعنى صحيح المبنى لا يحتاج إلى تأمل لظهوره، وإذا انغلق بابه على الشارح فهو بحمد الله تعالى مفتوح لغيره مِمَّن نور الله تعالى وله المنّة أبصارهم وبصائرهم فنظر إليه عن فهم لمعناه. وتأمل لمبناه.

نعم وفي تفسير الخفاجي رحمه الله تعالى الذي مَرَّ ذكره تناقض ظاهرٌ فإنه قال في أول الكلام ما لفظه. **والمعنى** أن الغمام إنما أظلّته لئلا يلامس ظلّه الأرض فلذا أخذه وديعة عنده ليصونه عن مس التراب.

وقال في رباعيته المتقدم ذكرها.. ما مد لظل أحمد أذيال كما ترى، ثم قال: بعدما لفظه. ولقوله: مذ أظلّت إلى آخره، معنيان:

أحدهما: مذ مسّ ظلّه التُّراب، فانظر ما قاله فلا محيص عن انتقاده بالمناقضة.

فإن قلت: كيف نقول إن الرفقاء في البيت جمع رفيق. والذي رواه أهل السير النبوية على صاحبها صلوات الله وسلامه أن السَّحابة التي أظلّته وهو مع ميسرة إنما كانت على رأسه قدر ما تظلّه لا ترى في السماء سحابةٌ غيرها.

وعن ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل أن بحير الراهب رأى الغمامة تظلّه من بين القوم فكيف ظلّ بها رفقاه وهي على رأسه قدر ما تظلّه. وقد ظلّل بها من بين القوم.

قلت: لا شك أنها كانت صاعدة في الجوّ ومع المعلوم أنها مع الصعود لا تكون إلا ممتدّة ليبلغ ظلّها عليه الصلاة والسلام مع سمو الباع. ومع ذلك فلا بد لظلّها أن يكون ممتداً على رفقاه. وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لـمّا نزل في ظل شجرة قد نزل بها قومه قريباً من صومعة بحير الراهب

المذكور. نظر بحير إلى الغمامة وقد أظلت الشجرة وتهصرت أغصانها.

ومن المعلوم أن ظلّها لما عمَّ الشجرة امتد على القوم المستظلين تحتها من رفقاه لا محالة. وقد رأى ميسرة ملكين عظيمين كريمين عليهما السلام يظلانه في الهاجرة، ولا يخفاك عظم أجرام الملائكة عليهم السلام، فمن غير شك أن الظلّ ينسحب إلى رفقاه صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فإن قلت: كيف يحصل التظليل لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الملكين الكريمين المذكورين اللذين رآهما ميسرة يظلانه في الهاجرة. وقد روي كما مر ذكره أن الروحانيات كالملائكة عليهم السلام لا ظل لها؛ لأنها أنوارٌ مجرّدة؟

قلت: قد جعل الله تعالى لها ظلاً في تلك الحالة خاصّة لقصد الوقاية لنبي الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من حرّ الهاجرة، وإن كانت في العادة لا ظل لها، فإنها قد اتفقت له صلى الله عليه وعلى آله وسلم كرامات ومعجزات حدثت في أشياء ليست من عادتها أن تحصل فيها ولا تَتَّفق منها، كنَبْع الماء من بين أصابعه الكريمة، وتَسْبِيْح الحصى في كفه، وتسبيح الطعام بين يديه وكلام الضبّ والظبية له وحنين الجذع إليه، وكلام ذراع الشّاة المسموم له، وتَحْذيره من السّم المودع فيه، وغير ذلك من العجائب التي غدت من آياته الكريمة. ومعجزاته العظيمة، فكذا هنا نقول حصل الظل من الملكين لأجل وقايته من الشمس ولظاها وإن لم يكن لها ظلٌ في العادة، أو نقول: يمكن تظليلهما له بآلة من شأنها حصول الظل بها؛ كأن يمدان عليه ظلّة من إستبرق الجنة وديباجها ووشيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. يحصل بها الظل الألمى كالعذب البارد من الماء.

هذا ما ظهر لي في هذا البحث وعَلِمْته من تفسير بيت الهمزية، وما تسلسل من الكلام عليه إلى هذه الفوائد التي حررت والشّوارد التي قررت. وفوق كل ذي علم عليم، وقد ذكرنا هذه الفائدة على طولها إرشاداً لمن ارتبك عليه تفسير هذا البيت، وحار عنده معناه وغمض عليه المقصد فيه.

وكتب **صاحب الترجمة** من المنثور كتاباً إلى شيخ والدنا العلامة الأستاذ السيد جمال الدين محمد بن إبراهيم بن المفضل[1] رحمهما الله تعالى ما صورته:

الجناب الشامخ الأركان، والمَقَام المحمود في حَرَكة وإسكان، والحَضْرة التي سَعَى قدم صاحبها إلى العلا حَسَب الإمكان. حضرة مولانا علامة الوجود، والسَّاهر في طلب العلوم، فأين من طرفه الهجود. الأستاذ الأكبر الأعظم، المحترم الجوانب، فلا تنحط له رتبة ولا تُهْضم. أوحد الزمان فَضْلا، فريد الأوان نبلا، جمال الأنام المستنير المستدير المتبلّج، المتكلّم في فنون العلم فلا أخرس ولا متلجلج. محمد بن إبراهيم المفضَّل على أقرانه، فرع الأئمة الذين زينوا زمانهم كما زين وجه زمانه. حاط الله تعالى من ذاته ما هي أهلٌ لأن تحاط، وألبسه ثياب عافية لا تفصل ولا تخاط، وناط عراه الوثيقة بأرفع مناط.

والسَّلام عليه سلام يتوالى، ورحمةٌ تنزل من الله سبحانه وتعالى، تهبط عليه بالكَثِير الطيب، وتهطل على مقامه بالغزير الطَّيِّب، معطرة الأذيال من تراب الحرم مبردة من الأجواف ما تَلَّهب من الضَّرم. نازلة من كوكبان المنيف سفحا، واردةً بما يطفى من المهج لفحا، معبرة عنّا بالتَّحية. مؤدية إلى المخاطب مَشْروباتها الشهية، وقد مزجت من زمزم بماء مبارك، لا يزاحم في النَّص على فضله ولا يشارك.

هذا وأنها ما زالت أوصافك ترد، وما برحت أخبار الركبان بمعاهدتك لنا تعد، وفي كل موسم يترقّب وفود ما قيل، ويتأهّب لإكرام حروف منك عساها أن توافينا في بكور أو أصيل، فلم يُسْعد الزمان بالمكاتبة، كما أنه لم يُسْعد بالتلاقي والمقاربة، ولا بالمحاورة في مجلس اجتماع وبالمخاطبة.

وهذه سجيته بين النظراء والأشكال، وشِنْشنة في أبناء الجنس ولا إشكال. فلما حَصَل اليأس عن المعاهدة، فما ظَنُّك عن الاتّصال والمشاهدة. حَمَلَنا الشوق

(١) سبق ذكره في الجزء الأول: ٥٤.

إلى تحرير هذه الأحرف، والإبتداء لمولانا بكل خطاب يَظْرف، فبحقِّ رتبته السامية الرفيعة العلية، إلا ما عاد علينا جوابه بسطور من البلاغة مليّة. فالقَلْب إليها ظمآن ذو اتقاد، ظمأ العطشان إلى الماء البراد، وإن كان قدر مولانا جليلاً، ومقامه عن مقام مثلنا رفيعاً نبيلاً.

لكن السّيد ربما خاطب عَبْده، وأنجز له من جوابه عليه وَعْده، فما يكاتب إلا من محض ودّه، ولا يراجع إلا من ذخر المحبّة فجعلها أنفس عدّة، والله تعالى يُوْرد علينا من أخبارك ما يَسُرْ، ومن حلو صفاتك ما لا يمر إذْ يَمُر. ونسأل الله تعالى أن يكتب التلاقي، فقد بلغت النّفوس من الانقطاع التراقي، ورحمة الله وبركاته عليكم تَفِد، وسلامه المتصل فلا يقال عنده قد نفد.

فأجابه مما هذه صورته.

سطور معظمه وفدت من البيت الحرام، وتوجهت إلينا من جيران تلك البقاع الكرام، وانفصلت عن تلك المشاعر انفصال النّسيم عن الرياض، وتحدّرت إلينا تحدّر الماء القراح من الحِيَاض. سُطور شرحت الصُّدور، وراقت في الورود والصُّدور، حَرَّكَتْ الأشواق إلى راقمها، وأزعجت اللَّواعج إلى مرصف لآليها وناظمها.

أطلعتنا من بلاغتها على عجائب، وأبرزت لنا من فواضلها غرائب، وجَلَتْ لنا من بدورها ما جلا الأبصار، وأتت بِنَمط حارت عنده الأفكار، وبطلت لدى سِحْرها خوارق الأسحار. ما هي إلا تِمْثال للسّحر الحلال، والسّكر الذي ليس للتأثيم فيه مجال.

فبعداً للخمر المحرمة وسُحْقاً، وتباً لها. فقد سدّ الشرع إليها سبلاً وطرقاً، حديقة ما سرحت العيون في نَظيرها، ولا كَسَرت الدفاتر على مِثْل نهجه نضيرها، وردت إليَّ من أشرف حرم، ونزلت من سماء زينت بزينة الكواكب من البدائع والحِكم، وهَبَّت أرواح أنفاسها على أرواح الأبدان فتمَشَّت في مفاصلها كتمشي البرء في السَّقم. ثم عَطَّرت سائر الأرجاء بالأرج، وانتشقت الأكوان نسائمها التي

تَسْري بها الرُّوح إلى الأرواح والمهج. وأنشدني لسان الحال إذ ذكرت في ذلك المقام المتعال[١]:

لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ذكرت ثَمَّ على ما فيك من عِوَجِ

مطالعة تطلع الناظر على أن منشئها ليس له في البراعة مثيل. وتدلّ على أن لِجَواده الذي لا يبارى في السَّبق أصلٌ أصيلٌ. من رام لحاقه فاته، ومن تصدَّر لمبارزته لم يلقَ إلا إعناته، فيعود معترفاً بالعَجْز متمثلاً بقول ابن نباتة[٢]:

رويدك ما فَوْق البَسيطة لاحقٌ فقَصّر رعاك الله بعض خطاكا

قد ملك من الفَضْل فنونه، واستخدم من الأدب أبكاره وعونه. فللّه درّه من ماجد حبي به سلفه، وللّهِ درّه الذي أبرز فوائده الثمينة صَدَفة. ذو العلى الباسق، والجواد المجلّي السابق، وأخو الفتوة والكرم، ونَزِيْل البيت الشَّريف والحرم، وقرين الهِمَمْ التي إلى قاصيات المعالي ترتمي. الفقيه النبيه النّبيل جمال الدين محمد بن دخيل الزمزمي، جمّل الله تعالى بِمَحاسن أدبه صَفَحَات وجوه الأيام، وجَعَل أكف النَّعماء الناعمة ذا مصافحة له بأشرف تحية وسلام. والله يمتّع بوداده المحكم العُرَى، وَفُضله الذي نزلت محّبته من القلوب في شامخ الذُّرا، وإن كانت الأشباح لما تتلاق، فإن الأرواح قد ائتلفت في مقام الجَمع والاتفاق، فإنها كما في السّنة المعتمدة جنود مجنّدة. على أن أوصافه الشَّريفة وأنفاس شمائله اللطيفة، قد مثلته للنُّفوس، فما تمرّ ذِكْراه على الأسماع إلاّ وشاهدته عين القلب مشاهدة المحسوس:

يكاد بالذكرى إذا خطرت كأنما اسمك يا سُعْدى مَسَمَّاك

غيره[٣]

---

(١) لابن الفارض: ديوانه: ٨٧.

(٢) ديوان ابن نباتة: ٣٦٤.

(٣) لعبد الملك بن جهور: وفيات الأعيان ٣: ٣٢٧.

إن كانت الأجسام نائية   فنفوس أهل الظرف تأتلف
يا رب مفترقين قد جمعت   قَلْبَيْهما الأقلام والصُحف

وبعد فإني قد تجاسرت بالجواب، فقابلت بالحَصَى ذلك الدّر، ووازنت بهذا الجَزْع تلك الأنجم الزّهر. شَتَّان ما بَيْن ناقص وكامل، ويا بعد ما بين سحبان وباقل، وأين الثريا من يد المُتناول. ولو كان القُصور في شريعة الأدب عذراً في ترك الجواب، ورُخْصة تَسْقط بها عزيمة الخطاب، لتفيأت من هذه الرّخصة بظلال الشجر. واستمسكت بعروة الحديث النبوي: إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه إلى آخر الخبر، ولوقفت حيث انتهى بي عجز العبارة، ورجعت إلى تمنّي الأديب عمارة(١):

ليت الكواكب تَدْنو لي فأنظمها   عقود مَدْح فما أرضى لكم كلمي

ولكنه عذرٌ سدّ عَنْه الباب، وأسدل دون قبوله الحِجَاب، فأجبت واثقاً من شَريف جَنَابه بأنه يُغْلق دون معائب الجواب باباً. ويرسل على ما فيه من وجوه النقيصة نقاباً، والله تعالى يشكر له هذه المودّة التي جدد شريعتها على حين فترة، واصفاً مشارعها وحاشى سلسالها أن تعلوه كدرة.

أبقى الله تعالى بركتها التي هي من مدد ذلك السَّلف، وأنمى غُروسها التي غرستها أيدي النِّعم الرحمانية في الخَلَف. وترك أركان فَضْله مشيدة، وآثار مجده حميدة، وبدور معاليه مشرقةٌ في شرف مطالعها السَّعيدة.

والمسؤول منه صالح دَعْوة تجاه البيت المكرَّم، وقُبَالة المقام المعظَّم، وبين ظهراني الحرام المحرَّم، وعسى الله أن تسوقنا إليه أسباب السعادة، وتقودنا أزمة التَّوفيق نحوه لأكرم وفادة، فنعفّر به الجباة ضارعين. ونَقِفُ عند باب الرحمة

(١) النكت العصرية: ٣٢ وفيات الأعيان ٣: ٤٣٢ من قصيدته التي أولها.

الحمد للعيس بعد العزم والهمم   حمداً يقوم بما أولت من النعم

قارعين، ونضرع في غفران ما أسلفنا في أيامنا السَّوالف، ومحو ما سوّدناه من الذنوب في تلك الصَّحائف:

واخَـجْلـتـي وصـحـائـفـي مـسـودّة وصـحـائـف الأبـرار فـي إشـراق

والسلام عليكم السّلام الأتم، والإكرام السّابغ الأعم. ما قَصَد مشتاق إلى الحرم، ونَزَل عن لاعج بذي سَلَم، وصلى الله وسلم على محمد وآله فبذكرهم يطيب المختتم.

انتهى هذا الجزء الثاني

من كتاب «طيب السمر في أوقات السحر» وبه يتم الكتاب

والحمد لله الذي أوزع لشكر نعمه لما أفاضها علينا بتفضله وكرمه

تقديم ناسخ هذا الكتاب مخطوطته
إلى العلامة يحيى بن صالح السحولي

ولما أعان الله وله الحمد على تمام رقم هذا الروض الباسم، والمِسْك العابق والروح العاطر النَّاسم. ودَّعته وداع مُشْفق من فِرَاقه، وزَفَفْته زَفَاف الحبيب الكاعب إلى محبّ مشتاق إلى عناقه.

وقالت له: لسان حالي لقد ظَفَرْت بالمقام العالي، ولَثِمْت كَفّ ملتزم المفاخر والمعالي:

قف بروض من العلوم نَضِيْر واغتَنِمْه فما له من نَظِير
واقتطف من زهوره زهرة الد نيا ومن نَشْره نجاة النشور

مقام إمام أرباب الكلام، وسَنَام أحزاب النَّظر الأعلام، مولانا العلامة الماجد. ووالدنا جَمّ الممادح والمحامد، وعُمْدتنا المَشْهود بعِلْمه وفَضْله عند الأقارب والأباعد.

نادرة عصره حِلماً وعلماً، وفريد مِصْره بل قُطْره نَظَراً وهمة وعَزْمَاً. أقرّ بعلمه الموالف والمخالف، واعترف بِفَضْله وتفرّده بالكمال المكابر المعترف فَضْلاً عن المنصف العارف.

شديد البأس، رَفِيْع الهمّة قوِيّ الشَّكيمة بلا إلباس. الحريص على إعلاء كَلِمة العدل والتَّوحيد، والمشمّر في نَصْب الأدلة وخفض أرباب اللوم والتَّفنيد. قدوة الزُّهاد، وأسوة العباد، وفارس أئمة الانتقاد:

جمع العلم والنَّقادة والحلم وحسن الثَّبات والتَّدْبير

أشرقت ذكاء ذكائه فملأ إسفارها الأسفار، وقضت قضاياه بأياس مُراغمه ومُزَاحمه عن مجاراته في مِضْمار الإضمار لدقائق الأحكام والإظهار. ناموس العلم

الرباني، ورضيع النظر في السنة والمثاني، معتزلي الاعتقاد بِرَغْم الحاسد والشاني. جدلي الانتقاد للألفاظ والمعاني:

لم تزل ألسن الأقاليم تنشىء ... فيه مِدْحاً على صِفَاح الدُّهور

ليس في القُطْر اليمني من يتقدَّمه، ولا نظير له فيه ولا في غيره فيما أعلمه، مُمَتع المعاشرة، لَطِيف المحاورة كامل الآلة، عظيم الجلالة، جليس أقيال، وأنيس أقوال، بعيد شأو المرام، قليل التبرم حسن الإبرام. لطائفه روح للأرواح، ومعارفه سوحٌ للانشراح. ليس من المُنْقادين لغير النَّظر، ولا من المرتادين لراحة التقليد والسَّلامة من مطارح الفكر.

بدرٌ لَمَع نوره في أفق المجد وأنار، وبَحْرٌ طار صِيْته في الأقطار وسار سرور المعالي به حتى أذكر بابن سيار:

إن أقلامنا تسود وتسمو ... عند تَسْويد إسمه المَشْهور

ما أمّه من أمله إلا أنس من جانب طوره. ناراً لاقتباسه، ولا باراه من ماراه إلا وعَرَف خروجه عن طوره في قياسه. مَجْلسه حليةٌ لمذاكي الذكاء من علماء الكلام، ومقامه مِعْياراً لنتائج العقول وسوابق الأفهام، حتى ما لمجلسه ثان في عَصْرنا يثنى عليه في بابه. ولا أصف مقام الإعراب عن باب بانٍ لديه مثل جمعه، إذ هو منتهى الجموع لأبناء العلم وأربابه.

هَذَّبته التجارب بمجالسة الملوك، وباينته المعائب فخلص جوهره المسبوك:

ذاك يحيى ومن به الله أحيا ... شرعة المصطفى البشير النَّذير

رأس أذكياء هذا العالم وحذّاقه وفَرْدهم الكامل التام، ما سَلَك طريقاً من النَّظر إلا وَسَّعها حتى لا تضيق بالزحام. ولا حاول مَذهباً إلا أزال عنه وحشة الانفراد بأنظاره المشرقة كإشراق الصَّبح في الظلام.

شَيَّد أركان الدين وأقام، وسَدّد سَهْم ذكائه فأصاب الغرض في مداحض الأقدام، كل أفكاره منتجةٌ. ما الأفكار عنه مثله عقام، وحَدّ سيوف فطنته ماضٍ

على مضارعه ومصارعه بسيف كهام، يحيى بن صالح السحولي عماد الإسلام وبَهْجة محافل العلماء الأعلام بَلْ واسطة عقد النظام:

دام في روضة النَّعيم تهنِّيه بطول البقا طيور السروري
فائزاً بالمُراد من كل خَيْر ظافراً بالنَّجاة من كل ضَيْر

وكان الفراغ من زبر هذا الكتاب الجليل المفيد بعنايته بعد صلاة الظُّهر من يوم الخميس لعله غرّة شهر ربيع الآخر أحد شهور (سنة ١١٩٩) تسع وتسعين ومائة وألف سنة، بقلم أفقر عباد الله وأحوجهم إليه الرَّاجي عفوه وكرمه والسِّتر يوم العرض عليه، إسحاق بن علي العبدي غفر الله لهما. وصلَّى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله.

نعم قد ذكرت في حاشية على تَرْجمة السَّيد علي بن معصوم، وذكر المَجْموع الذي ألفه، وسماه (سلافة العصر) ما ذكره مولاي العلامة إسحاق بن علي العبدي رحمه الله تعالى واطلاعه عليها، ورسمت بيتاً له في آخر ما قاله. وفات عني ما سواه، ثم اطلعت الآن على ما ذكره في هذا المؤلف جميعاً. وفيه من الفوائد ما لا يخفى ولفظه:

اطلعت في شهر رجب (سنة ١١١٧) بمحروس المخا على المجموع الذي ألفه السيد علي بن أحمد بن محمد بن معصوم المعروف الآن بالسّيد خان. وهو الذي سماه (سلافة العصر من محاسن أعيان العصر) فأعجبني بعض ما فيه من النكت اللطيفة، والفقر الشريفة. إلا أني رأيته صَرَف شطراً منه في حسن المعاملة بخصوص أهل جبل عاملة، وما ينبغي للمؤرخ إلا المجاملة لا المحاملة.

ثم أنه أخّر أهل اليمن عن أهل الشام. وكان الأولى به أن يردف ذكر أهل مكة بأهل اليمن لشدة المناسبة بين مكة واليمن. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أنا يمانٍ والكعبة يمانية وإني لأجد نفس الرحمٰن من ناحية اليمن»، إلى غير ذلك من الأحاديث الدَّالة على فضل اليمن على الشام.

ولم لا وفي الشَّام الحديث الدال على بعده عن مَرْتبة غَيْره من بلاد الله تعالى. وقد روي أن النفاق في الشَّام. هذا مع اشتمال اليمن على أدباء وفضلاء قد ذكر هو بعضهم. لم يأتِ مثلهم في غير اليمن من بلاد الله، ولا غرو فإن الحكمة يمانية بالنَّص النبوي، ولكن نعوذ بالله من الهوى المغوي، ثم ليته اعتذر عن تأخير أهل اليمن كما اعتذر عن تأخير أهل المغرب بأنه لاحظ لطافة الغروب الذي هو آخر النهار.

نعم لما اطلعت على هذه النسخة صَدَّني عن تسريح الأحداق في مبانيها، وإجالة الأنظار في معانيها، ضعف خَطِّها وتصحيف ألفاظها، واختباط نقطها وتركيب ناسخها وغلطه، وتحريفه وشططه. فأعرضت عنها وكتَبْت على ظهر تلك النسخة ارتجالاً قولي:

كأن هذي سلافة العصر حقاً ... فاستحالت بكاتب السوء خَلًّا
فهي قد حرمت وقد عزل التحليـ ... ـل فيها والسّكر منها تولَّى
مم قد صار خلّها فيه مزج ... فتولَّى الإحماض عنها وخلاّ

الفهرس

القسم الثالث من الأقسام
في ذكر فضلاء ما خلف مدينة سام مِن كلّ من فتح في من العلم والأدب المقفل، وتفرق سكونهم في الجهات من لدن صنعاء إلى منتهى اليمن الأسفل

القسم الرابع
في ذكر الأفاضل

نفحة من نفحات الشام،
ولمعة بَرْق نظرها المشتاق وشام،
ونَسْمة خطرت بِعاطر الاشتمام، وروت
ما روت من الطِّيب عن زَهَرَاتِ الكمام